أوفه شوبورغ

شيفرة بابل

رواية مثيرة

ترجمة:
هدى الخطيب

شيفرة بابل

هذه الرواية من محض الخيال. فجميع الفرقاء والخصوم وأي شخصيات أخرى ورد ذكرها أو وصفها في هذه الرواية وجميع تعبيراتها وتصرفاتها هي من الابتكار الحر للمؤلف. وكذلك تصريحات وتصرفات الأشخاص التاريخية والمعاصرة والمؤسسات نشأت من خيال المؤلف، حتى وإن وجد تشابه بينها وبين أشخاصٍ حقيقيين أو أحداثٍ حقيقيةٍ.

اسم الكتاب: **شيفرة بابل / رواية مثيرة**

المؤلفة: **أوفه شومبورغ**

المترجم: هدى أنيس الخطيب

عدد الصفحات: **632**

القياس: **14.5 ✣ 21.5**

2012/1000م -1433هـ



سورية . دمشق . ص ب 4650

تلفاكس: 2314511 11 963 +

هاتـــف: 2326985 11 963 +

E-mail: ninawa@scs-net.org
www.ninawa.org

العمليات الفنية:

التنضيد والإخراج والطباعة وتصميم الغلاف

القسم الفني ـ دار نينوى

أوفه شومبورغ

شيفرة بابل

رواية مثيرة

ترجمة

هدى أنيس الخطيب

دار بستاي لوبيه للنشر

يضم هذا الكتاب ترجمة الأصل الألماني

Der Babylon Code

حقوق الترجمة العربية مرخص بها قانونياً من

Bastei Lübbe GmbH & Co. KG

بمقتضى الاتفاق الخطي الموقع بينهم

وبين دار نينوى للدراسات والنشر

نبذة عن المؤلف

أوفه شومبورغ، ولد عام 1957 في مدينة باد لاوتر بورغ، متزوج ولديه طفلان ويعيش في براندنبورغ بالقرب من مدينة بوتسدام. يشغل منصب كبير المسؤولين التنفيذيين في إحدى الشركات المتوسطة، ويكرس وقت فراغه للكتابة. وقد حقق كتابه الأول (مؤامرة الشعرى اليمانية) نجاحاً كبيراً.

ويعمل أوفه شومبورغ حالياً على إتمام روايته المثيرة التالية.

إلى أبنائي

«ما عساي أن أُحب كثيراً، ما عساي أن أكره كثيراً؟
فالمرء لا يحيا إلا بحياة الآخرين!»

يوهان فولفغانغ فون جوته

تعتقدون أن بإمكانكم فهم هذا العالم. وهذا غير صحيحٍ. إنه يخفي أسراراً لا تصدق. جعلتم من عقولكم مرشداً وظننتم أن العالم لا يملك سحراً. بالرغم من أنكم لم تستطيعوا فهم حتى أبسط ظواهره: متى بدء الزمن؟ أين هي حدود الفضاء اللامتناهي؟ فلتكن لديكم الشجاعة لكشف السر.

البابا يوحنا بولس الثاني

إن المأساة الكبرى هي صمت الرب، الذي لم يعد يتجلى، ويبدو وكأنه اختفى في السماء لاستيائه من أفعال البشر.

البابا يوحنا بولس الثاني

في أوائل شهر أيلول من عام 2009، ومن مقره الصيفي في كستيل غندوفو بدء البابا بندكت السادس عشر نقاشاً حول «الخلق ونظرية النشوء والارتقاء».

بحسب التعاليم الجديدة للكنيسة الكاثوليكية، فإنه لا يوجد تعارض بين الإيمان بالله ونظرية النشوء والارتقاء - بالرغم من وجود معارضةٍ قويةٍ داخل الكنيسة.

صرح أحد المشاركين في هذا النقاش بشكلٍ علنيٍ قائلاً «يبدو لي أن الوقت لا يزال مبكراً ليتفق الفلاسفة مع العلماء» ثم اقتبس لهذا الغرض قول فريدريش شيللر «بوجود العداوة بينكم لن تلتقوا أبداً، وعندما تتفرق سبل بحثكم ستعرفون الحقيقة».

ما الذي دفع البابا لعقد جلسة نقاشٍ حول هذا الموضوع؟
هل كان هناك سببٌ؟

الكتاب الأول

اللُقى[1]

«دقت ساعة الصحوة»

القديس بندكت

الفصل الأول

الخلافة العثمانية

بلاد ما بين النهرين

1916

بابل

صدى آلاف السنين من الوجود البشري يتردد في هذه المقاطع الثلاث

العظمة، القوة، الإحتلال والدمار...

أسوارٌ عاليةٌ وملوكٌ محاربين...

قوانين حمورابي وبرجٍ بابل...

لم يبق منها سوى كومةً من الركام. إنهارت تلك العظمة ليعود الرماد إلى الرماد والغبار إلى الغبار.

جلس كارل شتاينر وألبرت كروغر على تلةٍ مريعةٍ من الركام كانت تشكل الحدود الشمالية لبابل القديمة.

وحدها هذه التلة كانت كافيةً للتذكير بقوة وروعة بابل.

أطلت بمنحدراتها الحادة وإرتفاعها الشاهق وإمتدادها لأكثر من ربع ميل. أرضها الطينية كانت مهشمةً بفعل الأنفاق وبقايا الأعمدة المنتشرة فيها كما في كافة أرجاء بابل.

منذ العصر الروماني واللصوص يحفرون أرضها لسرقة الطوب الطيني المحروق والذي كان يستعمل منذ زمنٍ طويلٍ لبناء المنازل ومخازن الحبوب والسدود، أما الطوب الطيني غير المحروق فقد أصبح وليمةً لحرارة الشمس والماء. مجرد حطامٍ...

كان شتاينر يستطيع شم رائحة عرقه، وبالرغم من أن الشمس كانت تميل إلى الغروب إلا أن هواء الصحراء الحار كان لا يزال يلفح الوجوه، أما نهر الفرات فكان لا يجلب إلا القليل من الرطوبة.

لباسه الرقيق المكون من بنطالٍ وقميصٍ طويلٍ كان مناسباً تماماً لجو الصحراء، ولكنهم كانوا قد قطعوا الصحراء تحت أشعة الشمس الحارقة مستقلين إحدى الشاحنات القليلة - صالحة الإستعمال - والتي كانت ما تزال تابعة للجيش العثماني السادس في بغداد. وقفت الشاحنة من ماركة «أوبل» والتي تزن ثلاثة أطنانٍ، خلف التلة على بعد مناسب من مناطق التنقيب، بحيث لا يتم ملاحظتها.

للمرة الأخيرة ومع هواء الصحراء إستشعر كارل شتاينر تلك العظمة التي كانت ذات يومٍ، وتخيل لو أن بإمكانه أن يعيد الحياة لهذه القصور والأسوار... لم يكن بإستطاعته مقاومة تلك الفكرة.

على تلك التلة تماهت أجسادهم مع الشقوق والصدوع. لم يكن بالإمكان تمييزهم عن بعد بينما كانوا هم يطلون على بقايا المملكة القديمة، ويستطيعون أن يلمحوا أي حركةٍ.

لم يكن هناك سوى الصحراء برمالها الرمادية المائلة إلى البني على مد النظر، يقطعها حزامٌ أخضرٌ من أشجار النخيل على ضفاف نهر الفرات.

كان مجرى النهر يمر على بعد أميالٍ غرب التلة، يسير قادماً من شمال غرب المدينة لينعطف قليلاً بإتجاه الغرب وينساب بمحاذاة الآثار إلى

الجنوب. على ضفتيه انتصبت أشجار النخيل وامتدت بعمق نصف ميلٍ داخل اليابسة، حيث تنهي الصحراء بشكلٍ مفاجئٍ تلك التحفة الخضراء.

أشجار النخيل تلك كانت تحجب النظر عن قرية كويرش الصغيرة. في نهاية الطرف الشمالي للقرية كان رئيس بعثة التنقيب روبرت كولدوي قد شيد مقراً للبعثة.

جنوباً وعلى بعد حوالي الميلين من موقعهم يوجد القصر والتلة الثانية لبابل القديمة. لم يكن القصر بارتفاع برج بابل إلا أن مساحته كانت أكبر بحوالي الأربع مراتٍ، وهو المكان الذي تم فيه التنقيب عن آثار القصور الملكية، حيث وُجد مركز المدينة المتهاوي لإحدى أقوى الممالك في التاريخ. هناك كانت ساحة بابل أو بوابة الآلهة والتي كانت تشكل مدخلاً لأكبر وأشهر هياكل بابل «معبد الإله مردوخ».

على بعد نصف ميلٍ جنوبي القصر وبارتفاع حوالي خمسةٍ وعشرين متراً تقع تلة عمران. والتي سميت نسبة إلى المرقد الإسلامي المقدس الذي تم تشييده عليها لعمران بن علي. وكانت هذه هي التلة الأعلى في كافة أرجاء بابل القديمة وتوجد في منطقة الصحن حيث يوجد أيضاً بقايا موقعٍ إتيمناكيٌ وبرج بابل.

«هكذا تدور عجلة الزمن» قال الألماني روبرت كولدوي رئيس بعثة التنقيب متحسراً لشتاينر في إحدى جولاتهما التفتيشية. ثم شرح له «صحنٌ لا يعني سوى طبقٍ» وهو يصف طبيعة هذه الأرض المسطحة. إلا أن هذا المكان كان يشكل حرماً قُدسياً بالنسبة لبابل في عصرها الذهبي!. داخل الأسوار المحيطة كان يقع برج بابل ومعبد مردوخ. واليوم؟ دُفنت بقايا معبد مردوخ عميقاً تحت أنقاض تلة عمران، ولم يبق من البرج سوى بعض

الحفر لأساساته تملؤها المياه الجوفية، وشارعٌ يصل بين قريتين ويمر من خلال ما كان يعرف بالمنطقة المقدسة».

هكذا هو الحال، ردد شتاينر في عقله. (كل شيءٍ زائلٌ. أشهر مدن المشرق – مدمرةٌ. دماراً تاماً لم تشهده إلا مدنٌ قليلة غيرها. الآلهة والملوك رحلوا إلى عالم النسيان والقصور أمست ركاماً).

كانت رمال الصحراء تلتف تحت حذائه مع كل خطوةٍ يخطوها. رفع رأسه ونظر إلى ألبرت كروغر الذي كانت عيناه مشدودتان عبر الصحراء إلى الشرق، حيث كانت تقع مدينة «كيش» على بعد أقل من خمسين ميلاً. هناك ولد النظام الملكي والذي نادى به حكام بابل لأنفسهم فيما بعد.

كأنه سرابٌ، ذلك الذي هُيئ لشتاينر في لهيب الصحراء الحارق وهو يرى المقاتلين الشرسين والقصور الرائعة المليئة بالذهب والأحجار الكريمة... ووجوهاً شاحبة لجموعٍ من البشر بدون أسماء، قضوا تحت وطأة آلاف السنين من العبودية لملوكهم.

أغمض عينيه لفترةٍ وجيزةٍ وأدار رأسه فتلاشت الصور من مخيلته سريعاً كما أتت.

في جهة الغرب، حيث كانت تظهر دائماً جماعات من البدو المغيرة والتي تسطو على مناطق التنقيب لسرقة الآثار، ذابت الشمس اللامعة في تراب الصحراء فألقت بخيوط أشعتها البنفسجية على مواقع الآثار فجعلتها تبدو كلوحةٍ فنيةٍ.

«حان الوقت» قال كارل شتاينر وهو يربت على كتف كروغر. جهزا نفسيهما ونزلا من على التلة بأرجلٍ متصلبةٍ. سارا بسرعةٍ أكبر على الأرض

المسطحة ليصلا إلى حزام شجر النخيل ويمشيان محتميان به باتجاه القصر.

دمدم ألبرت كروغر. «هل سيأتون؟» الذي كان أقصر بقليل من كارل شتاينر وكان جسده أنحل وأرق، وله عينان فاتحتا اللون، متيقظتان ومتأهبتان دائماً وكأنه الثعلب.

«سوف نرى».

و فجأةً شق السكون صوتٌ من بين أشجار النخيل.

دمدم شتاينر «مضخة المياه». كانت مضخة المياه هذه قديمةً جداً قدم بابل نفسها، وكانت تُدار بواسطة ثورٍ، تُرفع مياه الفرات في أنبوبٍ جلديٍّ إلى أعلى لتصب في قنوات الريّ التي كانت تؤدي إلى الحقول العليا. ولولا نظام الريّ ذاك لما نمت أي من المحاصيل في تلك الأرض. كان الحبل في نهاية الأنبوب الجلدي يمر بحلقةٍ مثبتةٍ على جذعي نخلتين مقوصين إلى الأمام وهذا ما كان يسبب صوت الضجيج.

«يجب علينا أن نكون حذرين، لا مجال لإرتكاب أي حماقة الآن»، قال كروغر، وسار بمزيدٍ من الحذر بين سيقان النخيل.

خلال السنوات الماضية كان كروغر قد جاب بلداناً كثيرةً، من المناطق الحدودية لإيران صعوداً إلى جبال زاغروس ونزولاً إلى عيلام حيث عصور ما قبل التاريخ. وكعميلٍ سريٍّ لجلالة القيصر (فيلهلم الثاني)، حاول كروغر الحد من تأثير البريطانيين الذين أبرموا إتفاقيات حمايةٍ مع بعض رؤساء العشائر، بالرغم من أن هذه المناطق القبلية كانت تخضع للحكم العثماني.

منذ فترةٍ وجيزةٍ مُني البريطانيون بهزيمةٍ ساحقة، فأثناء الحرب العالمية الأولى إنضمت الخلافة العثمانية عام 1915 إلى قوى المحور، فقامت بريطانيا بإرسال حملةٍ إستكشافيةٍ إلى البصرة في محاولة للوصول إلى

بغداد والإستيلاء عليها، إلا أنه وفي 29 نيسان من عام 1916 إستسلمت (كوت، العمارة) بعد حصارٍ دام شهوراً ووقع الجنرال (تونزن) في الأسر ومعه ثلاثة عشر ألفاً من جنوده، والذي كان معظمهم من الهنود.

كان كارل شتاينر من موقعه في بغداد ينفذ مهمته كضابط إرتباط بين السفارة الألمانية في إسطنبول والجيش العثماني المنتصر الذي كان وحتى أيامٍ قليلةٍ مضت تحت إمرة القائد العام الميداني البرويسي «كولمار فرايهر فون دير غولتس».

(فرايهر) الذي رُشح في عام 1909 لشغل منصب مستشار الرايخ الألماني، كان منذ نيسان 1915 يقود الجيش العثماني في مناطق فارس وبلاد ما بين النهرين، وقد أثر بشكلٍ كبيرٍ في إجراء الإصلاحات العسكرية في الجيش العثماني قبل ما يقارب الثلاثة عقود، بالإضافة إلى أنه كان من أبرز الشخصيات الأجنبية التي عاشت في الخلافة العثمانية على الإطلاق.

ولكن غولس «باشا» -كما كانوا يلقبونه- كان قد مات. فقبل عشرة أيامٍ من الإنتصار الكبير قضى فرايهر في بغداد بعد انتقال عدوى التفوئيد إليه أثناء قيامه بزيارةٍ لأحد الجرحى.

كان شتاينر قد وصل إلى بغداد قبل خمس سنواتٍ من قدوم غولتس «باشا» ليراقب التحركات المشبوهة للبريطانيين. حيث كان عملائهم يتجولون في البلاد منتحلين صفة التجار، بالإضافة إلى ذلك فقد كانت تربطهم علاقاتٌ وطيدةٌ مع علماء آثارٍ من العرب والفرس، والذين كانوا يعملون أيضاً كجواسيس.

«يجب عليك حماية مواقع التنقيب الخاصة بنا في بابل» هكذا كانت تعليمات السفير الألماني لشتاينر، ثم أضاف «علينا أن نقوم بنقل هذه الكنوز إلى برلين».

منـذ مـا يقـارب الثلاثـة أربـاع القـرن نقـب صـيادوا الكنـوز في هـذه الأرض، وقاموا ببيع ما وجدوه من آثارٍ قيّمةٍ لأشـهر متاحف العـالم، لم يكـن التنقيـب عـن الآثـار بدافعٍ علمـيٍ، بـل مغـامرةٌ خطـرةٌ للـصوص والنـاهبين، الذين كانوا يطمعون بالثروة والجاه في بلادهم.

وبهذا ظهر الكثير والكثير من هذه اللُقى الأثرية في المتحف البريطاني ومتحف اللوفر الفرنسي.

لم يرغب الرايخ الألماني أن تبدو متاحفه متأخرة عن غيرها، فعمد لدعم التنقيب عن الآثار في مناطق آشور وبابل. إلا أن الحرب حالت دون نقل هذه الكنوز. كان روبيرت كولدوي وأعضاء البعثة الألمانية ينقبون منذ سبعة عشر عاماً في بابل، ليلاً ونهاراً، في الصيف كما في الشتاء، ويكدسون ما يجدونه من كنوز في مخزنٍ كان قد خصص لهذا الغرض.

رغم هزيمة البريطانيين في كوت العمارة، فكر شتاينر أن الوقت قد حان لإنزال الخيام، فبلاد ما بين النهرين كانت من الولايات المهملة للخلافة العثمانية، وكانت مسألة وقتٍ حتى تنقلب الأوضاع. وبشكل فعلي كانت مصر تتبع لبريطانيا، حيث نجح لورنس بتأليب أصحاب النفوذ من العرب. كان هنالك الكثير من المفاجآت في سياسة الخلافة العثمانية، وكان بُعد بغداد عن عاصمة الخلافة يحول دون قدرة إسطنبول على توفير الحماية الدائمة لتلك المناطق.

فكر شتاينر وألبرت في خطةٍ لإنقاذ حياتهما، فأرادا التنحي عن منصبيهما قبل أن تنطلق الرصاصتان المخصصتان لانتحارهما.

صعدا إلى القصر من الجهة الشمالية الشرقية ثم عبرا بقايا الشارع العريض والذي كان يؤدي إلى بوابة عشتار.

لم يتبق شيءٌ من تلك الروعة السالفة. فلا أعمدةٌ شامخةٌ كما في اليونان، ولا بقايا معابد كما في مصر أو إيران، ولكن الطوب المحروق وغير

المحروق مختلطٌ مع القصب، وبعضه معزول بواسطة القار. في قليلٍ من المواقع كان بالإمكان رؤية بقايا الطوب المُعبدة بالإسفلت، والذي كان يستعمل كطبقةٍ أساسيةٍ لرصف الشوارع بأحجارٍ طينيةٍ مربعة.

نُقش علَى الجهةً الداخلية لكل مربعٍ عبارة تشير إلى نبوخذ نصر الثاني، الذي استطاع أن يُنقذ بابل من الإنهيار، ويجعل منها إحدى أعظم الممالك على مر العصور.

«أيها الإله مردوخ، امنحه الحياة الأبدية» كانت هذه هي العبارة الخاتمة على كل مربعٍ.

تابعا سيرهما فبدت إلى جانبهما الأيمن أنقاض القصر الخارجي والحصن الشمالي. وبعد أن تسلقا كومةً صغيرةً من الركام، وصلا إلى الموقع الذي تم فيه اكتشاف بوابة عشتار.

كان المكان أشبه بأرضٍ بركانيةٍ، كانت الحفريات في هذا الموقع تصل لعمق عشرين متراً تحت سطحِ الأرض. لم يكن بالإمكان رؤية أي أثرٍ لبوابة عشتار، لقد تم ترقيم كل طوبةٍ بدقةٍ، ومن ثم نقلها إلى مخزن الكنوز. إلى يمينهما ظهرت أيضاً آثار القصر الملكي المحاط بالسور الداخلي الشمالي للمدينة.

كانت بابل في عصر ازدهارها كأنها حصنٌ ذو سورين، السور الخارجي بسمك ثمانية أمتارٍ يليه بإثنا عشر متراً السور الداخلي بسمك ستة أمتارٍ، والذي كان يُقدم حمايةً إضافيةً للمدينة. كل أربعةٍ وأربعين متراً علَى طول الأسوار شُيد برجٌ على الجهتين لتعزيز القدرةً المناعية للأسوار.

تحصيناتٌ لا تقهر

وبالرغم من هذا تم تدمير بابل. لقد خانها كهنة معبد الإله مردوخ، وفتحوا أبواب المدينة لجحافل الفرس.

«إنهم قادمون.»
رآهم ألبرت كروغر أولاً.
خيالات تلوح عند الشفق.
نظر شتاينر بالاتجاه الذي أشار إليه كروغر. في البداية لم يكن يستطيع الرؤية بسبب أكوام الركام التي كومها كروغر - المهندس المعماري أصلاً- مع مائتين وخمسين من عماله حين كانوا ينقبون عن الآثار في هذا الموقع وتحت أشعة الشمس الحارقة يوماً بعد يومٍ. القصب والطين. منذ الأزل لم تتوفر أي مواد أخرى هنا. لا حجارةٌ ولا حديدٌ والقليل من الخشب.

السكك الخاصة بالقاطرات الصغيرة التفت حول مقالب الحفريات كالأفاعي السوداء، أو إختفت في حفر التنقيب. وكانت القاطرات تتنقل من كومة ركامٍ إلى أخرى.
أعطى شتاينر دفعةً خفيفةً على ظهر كروغر، ثم هرول من مكانه العالي إلى الأسفل حيث أصبح على مستوى موقع التنقيب ووقف في البقعةِ الخاليةِ بينما وقف كروغر أسفل التلة، ينتظر.
في هذه الأثناء كان الغروب قد أسدل بستاره على منطقة الآثار بأكملها، وإن هي إلا لحظاتٌ حتى يبتلع الظلام كل شيءٍ.
فجأةً وتحت جنح الظلام خرجت أشباحٌ بشريةٌ من خلف التلة، واتجهت نحو شتاينر. كانوا يرتدون لباس العمال البسيط، كان الأول يرتدي بنطالاً وقميصاً طويلاً بينما لبس الآخر قفطاناً، غطى الإثنان رأسيهما بقبعاتٍ صغيرةٍ.

«مساء الخير» تمتم شتاينر – باللغة العربية– وعندما وقف العربي أمامه أردف قائلاً «يسعدني لقائك مجدداً يا عبد الله».

«مساء النور» أجاب الرجل برفقة عبد الله، وقد ذهب نظره إلى كروغر الذي كان يقترب منهم. كل من الرجلان العربيان كان يحمل سلاحاً ألماني الصنع لشركة (ماوزر) من أسلحة الجيش العثماني من نوع «إم 87» عيار 9.5 مم وذات مخزنٍ إسطوانيٍّ.

احتفظ عقل شتاينر بتلك التفاصيل، حيث أنه كان من النادر وجود مثل هذه الأسلحة المتطورة بحوزة العرب، فالبنادق التي تعبئ من الأمام كانت الأكثر إنتشاراً، التفاصيل الأخرى لم تكن تهمهُ كثيراً.

«في طريقكما إلى القتال؟» سأل شتاينر عبد الله، ثم تابع طقوس التحية بالسؤال عن أحوال عبد الله.

«لا يمكن للمرء أن يتكهن بما قد يحدث»

«أم أنك لا تأمن جانبي»

«أنت تعلم جيداً أن عبد الله لايخشى أحداً»

«وأين الآخرين؟»

«إما في القرية أو أنهم مستمرون في العمل هناك عند موقع المعبد الذي تسمونه أنتم -برج بابل-. إلا أن المياه الجوفية تزيد من صعوبة عملهم».

أومأ شتاينر. فلقد كان كولدوي دائم التذمر، لأنه استطاع الوصول إلى الطبقة الأولى من الآثار فحسب، والتي تعود إلى زمن نبوخذ نصر الثاني، بينما حال إرتفاع منسوب المياه الجوفية دون وصوله إلى طبقات المدينة التي تعود إلى زمن حمورابي.

«وماذا عن الصلاة؟»، سأل شتاينر

«الله كريمٌ، وسوف نقوم بأدائها لاحقاً».

«لقد تحدثت عن وجود كنز».

«و أنت عن جنيه إنجليزيٍّ من الذهب».

كان شتاينر يعرف عبد الله منذ سنينٍ. هذا العربي كان رئيساً لمجموعة من عمال التنقيب، كان عليه أن ينقب عن الآثار ويجد النفيس منها، بينما كان ثلاثة من عماله يملئون القصعات بالركام والتراب الناتج عن الحفر، والتي كانت تُحمل فيما بعد من قِبل ستة عشر عاملاً آخرين ليلقى بها بعيداً.

إلا أن القروش الخمسة التي كان يتقاضاها عبد الله لقاء عمله بشكلٍ يوميٍّ لم تكن تكفيه، فلقاء المزيد من المال كان يقوم بنقل كافة المعلومات التي تصله حول أنشطة الإنجليز عن طريق أقاربه، أو من أهالي قريته، أو من سكان المنطقة المحيطة بمواقع الآثار.

كان شتاينر مضطراً للتعامل مع عبد الله وأمثاله. فمع طوله الفارع وبشرته الشديدة البياض، ولغته العربية الركيكة كان من الصعب أن يخفي حقيقة أنه أجنبيٌّ في هذه المناطق، لم يكن بإمكانه الإنخراط بين الأهالي كما كان الحال مع كروغر.

«أين هي» قال عبد الله ولمعت عيناه من شدة الإثارة.

أخرج شتاينر منديلاً أبيضاً من كيسٍ جلديٍ أسود كان مثبتاً على حزامه، وألقى بقطعة المال الذهبية في الكف المفتوح لعبد الله.

«أفضل من النقود العثمانية على أية حالٍ»

«كم ستعطيني منها؟» سأل عبد الله وهو يحكم قبضته حول القطعة النقدية

«هذا يعتمد على...»

أدار عبد الله رأسه بإيحاءٍ خبيثٍ «لدي شيءٌ مميزٌ جداً!»

أوقَدوا المشاعل.

قاداهما عبد الله وكمال، الذي لم يخرج عن صمته، بمحاذاة سورٍ مرتفعٍ من القرميد، ومروا بجانب السور الداخلي العظيم للمدينة.

نيران المشاعل التي دعت الحشرات للتراقص حولها، عكست ظلالهم على الجدران فبدت وكأنها كائناتٌ شبحيّةٌ.

مع هذا كله كان شتاينر يسير خلفهم متذمراً، ويحاول منع نفسه من لطم تلك الأشباح التي ترافقهم.

«إلى أين تأخذنا؟» سأل بنبرةٍ مرتابة، فلقد أفقدته متاهة الأسوار والدروب المتشعبة التي أُدخلوا فيها قدرته على تحديد موقعه.

«كان نبوخذ نصر غالباً ما يخفي غنائمه، وأحياناً كان يظهرها» قال عبد الله ضاحكاً: «لم يتغير شيءٌ عبر آلاف السنين التي مرت، فأسياد العالم كانوا وما زالوا متشابهين، اليوم كما في الأمس، كان يُسمح للبابليين بالنظر إلى الغنائم المكتسبة من معاركهم المظفرة، إلا أن ما سأريك إياه اليوم لم تشهده عينٌ من قبل... أصبحنا قريبين جداً» استمر عبد الله بالضحك بينما رمقه كمالٌ بنظرةٍ من الرضا.

وفجأة أدرك شتاينر إلى أين كان يقودهم عبد الله، لقد كانوا في طريقهم إلى كهوف الدفن الوحيدة التي اكتشفها كولدوي.

«ولكن المقابر خاليةٌ» قال وأمسك بذراع عبد الله «ماذا سنفعل هناك»

نفض عبد الله ذراعه، ثم انعطف فجأةً ليلتف حول زاوية السور، وهناك توقف أمام حائطٍ مرتفعٍ، وجه مشعله إلى الأسفل وأخذ يمسح الأرض بنظره، ثم جر رجله اليمنى إلى الأمام، وأخذ يدب بها على الأرض.

كان الصوت مكتوماً.

خشبٌ! فكر شتاينر.

«لقد دفناها هنا» همس عبد الله بنبرةٍ خبيثةٍ ثم أعطى كمالاً إشارةً،

فقام بدوره بإعطاء مشعله لعبد الله، ثم دس يداه في الرمال حتى بان طرف صندوقٍ خشبيٍ هائلٍ. جر كمالٌ الصندوق جانباً، وقام بإحداث فتحةٍ مربعةٍ فيه بمساحة مترٍ تقريباً.

«لقد وجدنا مقبرةً غير خالية» قال عبد الله بابتسامة المنتصر.

«غير معقولٍ.»! دمدم شتاينر، ثم تابع «أين؟ هنا؟»

«كلا... عند المعبد، الذي يُعرَف على خرائط المنقبين بالرمز – EP– إلا أننا أخفيناه هنا».

بلمح البصر صعد الأدرينالين في عروق شتاينر، هل سيتمكن في النهاية من أخذ شيءٍ معه يتوج به سنين عملٍ طويلةٍ في سرقة المقابر.

كانت كنوز بابل تُنهب منذ سنين طويلةٍ، فكلٌ كان يعلم أين توجد الآثار.

إلا أن كولدوي وخلال سنوات عمله هنا، لم يستطع التنقيب إلا في نصف المساحة. فلا تزال هنالك آلاف المواقع التي يمكنهم التنقيب بها، وإيجاد المزيد من الكنوز. هذا ما دار في خلد شتاينر، خصوصاً هناك حيث يكون منسوب المياه الجوفية مرتفعاً جداً مما يحول دون القيام بعمليات التنقيب.

اختفى كمال في الحفرة وناوله عبد الله المشعل والسلاح، ثم إنزلقوا وراء كمال. فوجدوا أنفسهم في غرفةٍ جدرانها من الطوب الطيني المحروق، كان الهواء جافاً ونقياً، لا توجد رائحة قتل. هذا ما أدركه شتاينر، ظروفٌ مناسبةٌ تماماً للتخزين.

قادهم عبد الله إلى إحدى الزوايا الخلفية، ثم توقف. وبناءً على إشارةٍ منه انحنى كمال، وأمسك بطرف قطعة قماشٍ فانسابت رمال الصحراء الناعمة من عليها. سحبها كمالٌ جانباً.

«يا إلهي!» صاح شتاينر، ثم ركع على ركبتيه، وأخذ يتحسس

الموجودات بأصابعه. كانت أشكالاً ذهبيةً لحيوانات مختلفة، أحجامها صغيرةٌ جداً، صنعت بدقة عالية. بعضها كان بارتفاع سنتيمترات فقط ومجوهراتٍ من اللازورد. تماثيلٌ صغيرةٌ لرجالٍ ونساء، وختمٍ مدورٍ بزخارفَ ناعمةٍ بالإضافة إلى أطباقٍ للتقديم مغطاةٍ بقشورِ الذهب. رأى شتاينر مجوهراتٍ من المرجان، الزفيرِ والعاج. قلائدٌ من اللؤلؤ. تماثيلٌ لآلهةٍ وأخرى لحامل البخور بأحجامٍ مختلفةٍ. كما وجد حجر الأساس البرونزي الذي كان أول ما وضع لتأسيس المعبد.

«مستحيلٌ. هذا أمر لا يصدق» إنسابت يداه بسحرٍ فوق الكنوز، وتلمست أصابعه الأسلاك الذهبية والبراشيم، ثم مسح على المفاصل المترابطة باللحام. إلى جانب المجوهرات والكنوز رأى ثلاثة عشر من الألواح المسمارية، وثلاثةً من العظام ذات لونٍ رماديٍ مائلٍ إلى البني، والتي نحاها شتاينر جانباً.

بدا وكأن جهازه العصبي بأكمله قد تركز في رؤوس أصابعه. القشور الذهبية أثارت نهايات أعصابه فأرسلت بموجةٍ من مشاعر السعادة اجتاحت كل ذرة من جسده. لمس المجوهرات وتنهد بارتياحٍ، وكأنه دخل في ملكوت السماء. وبعد برهةٍ، بدت وكأنها لا تنتهي، سحب يده ودسها في الرمال المجاورة للكنوز.

«هل لديك المزيد؟»

«هذا كل شيء» أجاب عبد الله بهدوءٍ وبنبرةٍ متعالية.

أدار شتاينر رأسه يميناً ويساراً، وكأنه سمع صوتَ زقزقة خفافيش الصحراء. تلاقت نظراته بعيني كروغر الذي أنزل مشعله من يده.

كان كمالٌ يحمل مشعلين بكلتا يديه، وهذه الغلطة كلفته حياته.

أداةٌ رفيعةٌ داكنة اللون بسمك عودٍ من القش تقريباً، انطلقت باتجاهه. تلك الأداة في قبضة كروغر، والتي بدت كخنجرٍ مسوّدٍ، ما كانت

سوا مسمار نجارٍ طويلٍ، بعين دائريةٍ في نهايته. إخترق صدره واستقر في قلبه.

أطلق كمال أنيناً ثم هوى على الأرض.

إقشعر جسد عبد الله لهول ما رأى ثم رفع سلاحه، وقبل أن يكمل نصف استدارة ظهرٍ خلفه ظلٌ أخذ بالنمو، إلتفت يد شتاينر اليسرى حول رقبته، وجره إلى الخلف.

إنسلّت سبابة عبد الله من على الزناد وتشوه وجه كروغر أمامه. مزيج من الشعور بالطمع، الحقد، الرغبة بالإنتقام والجنون. تملكه الرعب، ثم شعر بألمٍ حارقٍ يخترق جسده.

ثم مالبث المسمار ذو العين الدائرية أن وجد طريقه إلى ضحيته التالية.

الكتاب الثاني

العَوحة

«لأن تصوّر قلب الإنسان
شريراً منذ حداثته»

سفر التكوين

الفصل الثاني

الفاتيكان

نهاية شهر أيار 2005

ليلة الثلاثاء إلى الأربعاء

في البداية رأى العصا المقوسة، فتبادر إلى ذهنه عصا الأسقف، ولكن هذه كانت مختلفةً، بسيطةً، وغير ملبسّة بقشور الذهب وبدون زخارف عاجية، ولم تكن لها تلك الرأس الحلزونية المعروفة.

كانت مستقيمةً نوعاً ما، ولم تكن تشبه تلك العصي التي تُصنَع باستخدام أدوات معينة. بل انتشرت عليها عقدٌ، وكأن فروعاً كانت تريد أن تنمو منها ولكنها قُطّعت.

كانت العصا ملساء بطريقة ملفتة، وخصوصاً في جزئها العلوي قبل بدء إنحناء رأسها بقليلٍ، كان ذلك الموضع أملس جداً وكأنه قطعةٌ من الماسٍ المشذبِ... ماسة سوداء، في ذلك الموضع الذي أمسكته الأيادي لملايين المرات.

صبغتها قذارة الأيدي بلونٍ داكنٍ، لا يمكن أن تكون عصا الأسقف. فيداه لم تكن قذرة.

وغير ذلك فإن لونها كان رمادياً غامقاً ويابسةً ومجردةً من لحاها، وتلونت بفعل الضوء والأمطار.

طولها كان يصل إلى جبين حاملها، ليس أكثر. في نهايتها حيث لا

يلمسها الأسقف، ثبتت قطعةً من المعدن برأسٍ مدبب، وفي قمتها تم استبدال الشكل الحلزوني المعتاد بخطاف يستخدم للالتفاف حول الأقدام الخلفية للماشية.

ثم رأى الرجل الذي كان يحمل تلك العصا بيده، كان الرجل متوسط القامة، لقد تعرّف عليه، فلقد رآه ما يقارب الأربعة والعشرين مرةً حتى الآن. أو ربما فاقت ذلك بكثيرٍ؟

هل كان لذلك معنىً؟

لم يكن لديه جوابٌ.

كان الرجل مرتدياً ثياباً بسيطةً خاليةً من الألوان، منسوجةً من صوف الحيوانات، وكان حذائه صلباً، وعلى رأسه وضع قبعةً من القش، منتفخةً من وسطها وذات حوافٍ بارزةٍ.

كان وجه الرجل هزيلاً كشكله العام، أضناه العوز والمجهود الجسدي، وقف تحت أشعة الشمس على حافة صخرةٍ توزعت على بعض أجزائها أعشابٌ يابسةٌ. كانت بشرة وجهه جافةً ومسمّرةً بفعل الشمس، فلم يتمكن من تقدير عمر الرجل.

نما شعرٌ داكنٌ على جلد ساعديه القويتان، كان يشبه صوف الحيوانات الكثيف.

اتسعت الصورة أمام «البابا»، فاستطاع وكالعادة أن يرى بقية قطيع الخراف، لم تكن الخراف تقف متراصة بجانب بعضها البعض، بل منتشرةً في المرعى تبحث عن عشبٍ طريٍ، في تلك المنطقة الصخرية التي تخللتها بعض التلال.

ألقى الرجل بثقل جسده على يده التي كانت ممسكةً بالعصا المقوسة، فمالت إلى الأمام. وقف على حافة صخرةٍ صغيرةٍ، واستطاع أن يطل من عليها على تلك الأرض المتسعة. وبالرغم من ذلك لم يتمكن الرجل من رؤية

كل خرافه، فكانت الصخور الكبيرة المنتشرة تحجب عنه الرؤية، وعندما يسرح أحد الخراف إلى مكان ما خلف الصخور، فلم يكن بإمكانه أن يلحظه.

«أين كلبك؟ احرس قطيعك!» صرخ.

إلا أن الراعي لم يكن يسمعه.

سمع ضربات الأجنحة القوية، والمتعاظمة، لم تكن متسرّعةً بل كما العادة هادئةً وعازمةً...

لم يتحرك، تسمر الراعي في مكانه، وكأن أمر القطيع لا يعنيه.

كان بإمكانه أن يراه! بل رآه فعلاً!

نقطة تقترب من السماء فتتحول فجأةً إلى جسمٍ ضخمٍ، تخرج المخالب من أصابع رجليه القويتان، وبشكلٍ مضخمٍ بدا له المنقار الأصفر والعينان المتحفزتان للصياد الذي جلب الموت معه.

ثم خرجت المخالب الحادة من أصابع الأرجل الممدودة بقوةٍ، وانغرست برأس أحد الخرفان، انقلب النسر فأسقط معه الخروف إلى الأرض، ولم يفلته. رفرفت أجنحته بقوةٍ ثم ببطءٍ ليقاوم ذلك الثقل بين مخالبه، ارتفع قليلاً، ثم عاد وهبط على الأرض عندما بدء جسد ضحيته بالانتفاض مصارعاً الموت، فلم يتمكن النسر من الطيران.

سقطا على الأرض، ثبت منقاره المعقوف في عظام الفريسة التي كانت بين مخالبه.

لم يتأثر الرجل الواقف على الصخرة.

بضرباتٍ متثاقلةٍ لأجنحته ارتفع النسر من على الأرض.

وتوقفت الفريسة بين مخالبه عن الحركة. وفي ثوانٍ استطاع النسر أن يحلق بعيداً في الأفق.

«إنه ذنب الراعي!»



انتفض البابا بندكت من نومه وهو يتصبب عرقاً، كان قلبه ينبض بقوة، وعلى الفور تبادرت إلى ذهنه تلك الخطيئة التي ربما كان قد ارتكبها، كان ذلك الحلم يذكره دائماً بمهمته. تلمس باحثاً عن مفتاح الضوء، وبذل جهداً مضنياً للنزول من على السرير. ملئ كأساً بماءٍ سكبه من إبريقٍ كان بجواره، برودة الماء جعلته يشعر بالارتياح قليلاً. إنساب الماء خلال حنجرته كما ينساب السيل في مجرى نهرٍ جافٍ. ثم انتظر حتى تهدأ ضربات قلبه.

كان ما يزال يشعر ببعض الغربة في جناحه الخاص الجديد، الذي يقع في الطابق الثالث من القصر الرسولي والذي بناه (دمنيكو فونتانا) في عهد بيوس الخامس وسيكستوس الخامس في القرن السادس عشر.

توجه البابا إلى الكنيسة الصغيرة الملحقة بجناحه الخاص، والتي كانت ما تزال تحافظ على ذلك الترتيب الذي تركها عليه سلفه. في منتصف الحجرة وعلى أرضها المرمرية المزخرفة، امتدت سجادةٌ وضعت عليها أريكةٌ ذات مسندٍ للظهر. كان السقف مزيناً برسوماتٍ زجاجيةٍ معبرة، امتدت في منطقة المذبح كشريطٍ رفيعٍ من السقف وحتى الأرض. بمحاذاة الجدران الحجرية إصطفت مقاعدٌ من الخشب الغامق المغطى بقماشٍ فاتح اللون.

في النهاية النصف دائرية للحجرة وعلى المذبح، كان هنالك ستة شموعٍ، بينما انبثق رسم المسيح المُعذَّب على الصليب من الخلفية الحمراء الفاتحة.

تقدم البابا إلى المذبح، ركع أمامه، ورسم بيده صليباً على وجهه. ثم وقف وتوجه إلى المقعد الأقرب للمذبح وجلس عليه متكئاً برأسه على الجدار الخلفي.

كان سلفه يطلب النصيحة من الرب مباشرةً، ويسأله دوماً المساعدة، معتقداً أنه بهذه الطريقة سيتمكن من فهم الأمور التي لا يمكن إدراكها في هذا العالم.

اليوم فهم سلفه أكثر مما فعل في السنوات الماضية. إنه لن يستطيع تأدية مهمته العظيمة لوحده.

هو أيضا لا يتمنى شيئاً أكثر من نصيحة الرب وخصوصاً في هذه المسألة.

وبدون ترددٍ قام وارتمى راكعاً على الأرض المرمرية الباردة أمام رسم الرب، الذي شُدت يداه على الصليب.

كان يحتاج إلى نصيحةٍ.

«ساعدني!»، خاطبه مترجياً.

امنحني القوة.

وبعد فترةٍ وجيزة.

عاودته تلك الأحلام، ازدادت وتيرتها، وكانت أشد وطأةً مما مضى.

و الآن أصبح هو الراعي.

الفصل الثالث

مدينة ميونخ

مساء الأربعاء

بقي خمس عشر دقيقةً بالضبط.

رن جرس هاتفه المحمول.

«ألا تستطيعين الصبر؟ إني على وشك الوصول، إينا»

قال كريس عبر الميكرفون المثبت على شريط التحدث عن بُعد الموصول بجواله، صوته الرخيم قليلاً كان نشطاً ومرتاحاً.

صرخة فرحتها كاد أن يفجر أذنه اليمنى. كانت ما تزال في الشركة، تنتظر أن ينتهي العمل دون أي مشاكل.

انكمش وجه كريس، ففرحة إينا المبالغ بها أزعجته قليلاً، خصوصاً عندما يتلقاها وهو يقود سيارته، لكن لكلٍ حالة الجنون الخاصة به، فكر وهو يبتسم «إينا، إنها النهاية الطبيعية لأي إتفاق عملٍ».

كانت إينا بمثابة الروح لشركته الصغيرة، جاهزةً للعمل في أي وقتٍ. وكان بمقدور صوتها الأنثوي على الهاتف أن ينهي أي تفاوض بشأن عملٍ جديدٍ لصالحها. كانت تدير كافة أعماله المكتبية.

«لدي أيضا أخباراً جيدةً» همست. «ألا ترغب بسماعها؟»

هكذا كانت. كان يطلب الاجتهاد التام في العمل، وكان يحصل على

أكثر مما يتوقع. إينا كانت تبلغ ما يقارب الخمسين من العمر، تعيش لوحدها وتمارس عملها بمتعة.

فلقد وجدت سلوتها في العمل بعد وفاة زوجها الذي عاشت معه تلك السنوات الطويلة، والتي كان خلالها مدمناً على شرب الكحول.

كريس كان يعلم أنه قد حصل على جوهرة نادرة.

«حالاً، فقط عندما يسمح لي هؤلاء الأبطال بالمرور. هل تستطيعين السيطرة على نفسك لهذه المدة؟»

«لو أنك تعلم... حسناً... لكن إياك أن تنفجر من الفضول» أغلقت الخط.

كان هدفه يقع بالقرب من مدينة ميونخ، في منطقة هادئة وبعيدة عن طرق المواصلات الرئيسية، ومحاطاً بأسوار معدنية عالية. من خلف تلك الأسوار، ارتفعت أشجاراً شاهقةً في سماء الليل.

كانت البوابة المخصصة لدخول السيارات مغلقةً. ووقفت أمامها سيارتا دفع رباعيٍ تابعة لشركة الحراسة الخاصة.

أربع رجال بزّيٍ رسميٍ داكنٍ كانوا يحدقون به عندما توقف.

أنزل زجاج السيارة.

«أنا هو الرجل الذي ينتظره رئيسكم» قال كريس للرجل ذا العضلات المفتولة، الذي وقف عند باب السيارة «إني أحضر معي مفاجئة حفل الليلة» تلا ذلك بضعة دقائقٍ من المحادثات عبر أجهزة اللاسلكي، ثم فُتحت البوابة.

مر بسيارته تحت أوراق شجر الكستناء، الزيزفون والبلوط التي كانت تلقي بظلالها على الممر المخصص لدخول السيارات والذي لاح في نهايته وعلى بعد حوالي مئة مترٍ، المدخل الرئيسي للمبنى.

كان المبنى الذي يتجاوز طوله العشرين متراً مضاءً بأكمله، وله واجهةٌ

كلاسيكيةٌ أنيقةٌ. في المرآب وقف ما يقرب من ثلاثين سيارةٍ فاخرةٍ. أوقف كريس سيارته تحت إحدى أشجار الكستناء الضخمة، ثم اتصل بإينا.

«هاتي ما عندك... بسرعة... يجب علي التوجه إلى الداخل لإنهاء مهمتي لهذا اليوم. هل لديك عملٌ جديدٌ؟»

«لقد اتصل الكونت، وأكد على مهمة يوم الغد»

«وما هي المهمة هذه المرة؟ هل علي أخذ ثيابه الوسخة إلى البيت؟ أم نقل إحدى الأعمال الفنية المقلدة؟»

«إنه يحجزك لمدة أسبوعٍ تقريباً» كانت نبرة الفرح تنبعث من صوت إينا.

«لقد أخبرني بهذا سابقاً. وأين كان مختفياً؟». فالكونت هو اللقب الذي أطلقه كريس على أفضل عملائه. كان الرجل الذي يعيش بين سويسرا والتوسكانا يعمل كتاجر تحفٍ. وكان غنياً، فاحش الثراء، ولقد لائمت شخصية كريس هواه.

كان أول عميلٍ له عندما افتتح شركته الخاصة، وكانت مهمة نقل خاصة بالكونت. منذ ذلك الحين وهو يستأجر كريس لمهامٍ جديدةٍ بين فترةٍ وأخرى. في آخر مهامه منذ ما يقارب النصف عامٍ، كان عليه السفر خلف الكونت لنقل طردٍ صغيرٍ إلى دبي، حيث كان ذلك العجوز الرشيق في منتصف الستينات من عمره، ينزل في أحد الفنادق الفاخرة.

ذاك الفندق كان مركزاً للقاء المشاهير من رجال المال والأعمال. كان الكونت، وعلى مدار يومين، يتفاوض مع أصدقاء له من العرب.

كانت مدير عام الفندق شابةٌ أتت من مدينة ميونخ، وهي التي تقوم بنفسها بالإشراف على دقة الخدمات المقدمة للنزلاء.

رافق كريس الكونت وحارسه الشخصي أنتونيو بونتي خلال سفرتهما، ولم يترك ذلك الطرد من يده، إلى أن تم الاتفاق في مساء الليلة الثانية.

«أهنئك» قال كريس. «بهذه السعادة التي تبدو عليها، لابد وأنك حققت أرباحاً كبيرةً بهذه الصفقة.»

«على العكس تماماً، لم أحصل حتى على سنت واحدٍ، إنني فقط أعيد ما كان ملكاً لهم أصلاً، لقد تفاوضنا حول كيفية ومكانٍ التسليم فحسب»

«لم أفهم قصدك»

«ليس مهماً. ربما يأتي اليوم الذي أخبرك به عن كل شيءٍ» قال الكونت.

انتزعه صوت إينا من عالم الذكريات

«هل سمعتني؟ إنه قام باستئجار سيارةٍ لك، ما عليك سوى الذهاب لإحضارها»

«هذا يعني أنني لن استطيع الاستمتاع بيوم إجازتي، كم كنت أتمنى لو أنه ألغى أو أجل هذا الأمر»

«إننا لا نستطيع تحمل ذلك، فإنك ما تزال مديناً لي بنصف مرتبي من الشهر الماضي، بالإضافة إلى أنه قام بتحويل كامل المبلغ إلى حساب الشركة، يا له من مجنون» ضحكت إينا بحرجٍ، لأنها كانت تعلم مدى حساسية كريس بالنسبة لموضوع دفع مرتبها في موعده، وكان دائماً يبذل قصارى جهده لتحقيق ذلك. «لكن مازال هذا لا يكفي، حتى أكن صريحاً...»

صمت لبرهةٍ. «حسناً دعيني أتقاضى أجر هذا العمل أولاً، اذهبي الآن إلى المنزل»

أنهى كريس المكالمة، وسحب الطردين من على المقعد الخلفي، والذي جاب نصف العالم لاحضار محتواهما. ثم غادر السيارة.



ليس سيئاً، هكذا فكرت (سوزان أختريوش) متفاجئةً، عندما رأت كريس يجتاز البوابة متقدماً باتجاهها. رياضيٌ، قويٌ، جسده متناسقٌ، طوله يزيد عن المتر والثمانين سنتمترٍ، شعرٌ داكنٌ وممتلئٌ وبقصةٍ حديثةٍ على الجانبين، حركته نشيطةٌ ورشيقةٌ وقريباً من عمرها. فقط ذلك الشارب فوق شفته العليا وابتسامته الساخرة هما ما أزعجاها.

سوزان أختريوش كانت في منتصف الثلاثين من عمرها، وتدير منذ ثلاث سنوات قسم تنظيم المناسبات التابع للإدارة العليا للشركة. إنتظرت في بهو الإستقبال الذي يرتفع لأربعة أمتارٍ، والتابع للمقر الرئيسي للشركة، والذي تم تجهيزه منذ سنة ونصف ليكون في نفس الوقت مقر إقامة رئيس مجلس الإدارة الجديد وزوجته.

كان كريس قد اجتاز لتوه عملية التفتيش التي أجراها له رجال الأمن، وأثناء ذلك كان يرفع الطردين إلى الأعلى وينظر حوله باحثاً.

«تسرنت هاين» كان هذا لقب عائلته، وبه قدم لها نفسه. «مُعَبراً» عيناه الرماديتان المائلتان إلى الزرقة استقرتا لبرهةٍ على جسدها الرشيق الذي بدت تفاصيله من تحت زّيها الرسمي الداكن، ثم انتقل نظره ليتجول في أرجاء البهو متفحصاً إياه بفضولٍ.

على أطراف البهو انتشرت قاعات العرض، بينما كانت الغرف الخاصة موجودةً في الطابق العلوي. غطى السجاد الفارسي بعض أجزاءٍ من الأرضية المكونة من الموزاييك المزين برسومٍ رومانية، والذي تم تجديده ببذخٍ. وذاك الأثاث الإمبراطوري الفاخر لا بد وأنه جُلب من أشهر تُجار التحف.

«لقد أقلقتني حقاً، ولكنك أتيت في اللحظة الأخيرة» تجاهلت فضوله الواضح، وحدقت ببشرته البرونزية «لابد وأنك استمتعت بحمام الشمس ففاتتك الطائرة، أليس كذلك؟»

«إنه لوني الطبيعي» ضحك بسخرية، فبدت التجاعيد حول عينيه فزادته وسامةً، وفجأةً لم يعد ذلك الشارب الغامق الصغير فوق شفته العليا يزعجها.

«عليك أن تفرحي لأني أتيت في موعدي حاملاً معي ما قد تتوقين إليه» مرةً أخرى بدت تلك الإبتسامة المتفائلة، والتي تنم عن شعوره بالنصر، فغطت على ملامح وجهه المربع، وأخفت ذلك الإصرار الذي كان يعكسه ذقنه العريض وأنفه المعقوف كالنسر.

إرتبكت سوزان، فلم تعد تستطيع تصنيفه، فخلال تفاوضها معه عبر الهاتف، استطاع أن يزيد من أجره لأن رحلة الطائرة التي تم حجزها له من قبل الشركة أُلغيت بسبب عطلٍ فنيٍّ. فكان عليه إيجاد بديل ليكون هنا الآن.

تصاعدت الأصوات خلفها فجأةً، فاتجهت نظراته رأساً إلى مصدر الصوت. لمحت سوزان أختربوش بقعةً صفراء صغيرةً في بؤبؤ عينه، ثم سمعت صوت مديرها في العمل يرعد في أذنيها.

«إنه منتصف الليل! أين هي مفاجئة الحفل يا سوزان؟»

«هنا!» صاحت ثم استدارت.

تقدم الرئيس نحوها. طويلٌ، خشنٌ، جبل من اللحم في بذلةٍ أنيقةٍ يبدو أنها صُممت له بعنايةٍ.

«هل أنت من يقوم بخدمة التوصيل؟» رعد صوته وهو يحدق في الطردين.

«نعم، أنا هو اللوجستي»

ضحك المدير مستنداً بكوعيه على كريس وسوزان أختربوش.

«كانت رحلتك طويلةً. أليس كذلك؟» سأل وهو يتفحص بنظراته بذلة كريس المكرمشة.

هيربرت شارف كان قد حظي بلقب «رئيس العمل» منذ فترةٍ قصيرة فقط، وذلك بعد أن إستلم سلسلة المتاجر التي كانت على حافة الإفلاس منذ حوالي السنة والنصف، وكان قد أصر على إعادة ترميم وتجديد كافة المتاجر رغم معارضة مجلس الإدارة، وبالفعل فلقد زاد ذلك من أرباح السلسلة وازدهرت من جديدٍ.

كلفه ذلك الآلاف من أماكن العمل، فيما صفق له المساهمون كان الموظفون والعمال المفصولين يكرهونه بشدةٍ.

و اليوم حان الوقت للاحتفال بنجاحاته، ففي هذه الليلة سيحتفل الجميع بصعود أسهم الشركة في البورصة، وبالأرباح التي تحققت، وبهذه المناسبة طلب «رئيس العمل» طلباً خاصاً يسعده بشكلٍ شخصيٍ.

«لقد حضرت من المطار إلى هنا مباشرةً، لم أشأ أن أفسد عليكم مفاجئة الليلة»

«حسناً أيها الشاب» قال شارف بنبرةٍ حادةٍ وقد نفذ صبره.

حشر نفسه بين كريس وسوزان وسحبهما معه إلى قاعة الإحتفال، كانت يداه ملتفتان على كتفيهما.

«لا تسقطهما على الأرض» دمدم قائلاً لكريس «وتصرف بلباقةٍ، وإلا ...»



كانت القاعة مليئةً بضيوفٍ يرتدون ثياباً أنيقةً وفاخرةً. قدر كريس عدد الحضور بحوالي المائة.

بشكلٍ تدريجيٍ، بدء الجميع بالاستدارة نحوهم.

على يسار مدخل القاعة امتدت مائدة الطعام، وإلى جانبها طاولة خصصت للمشروبات، وفي نهاية القاعة من الجانب الآخر نُصبت منصةً عليها فرقةٌ موسيقيةٌ صغيرةٌ. أمام المنصة جُهزت مساحة للرقص، وكانت ممتلئةً بالمدعوين. بمحاذاة الحائط الأيمن للقاعة رُتبت الطاولات المزينة بطريقةٍ إحتفالية.

جرّه شارفٍ معه باتجاه المنصة، كانت الأبواب المطلة على الحديقة مفتوحةً، وعلى الشرفة ذات الإضاءة الخافتة وقف بعض الحضور الذين آثروا الخروج إلى الهواء الطلق.

«فليأتي الجميع إلى الداخل» صاح شارف باتجاه الشرفة، وأكمل سيره باتجاه المنصة.

رأى كريس وجوهاً معروفةً. من السياسيين، الفنانين والمشاهير، أولئك الذين كانت وجوههم وأخبارهم تملأ صفحات المجلات والجرائد.

كان الحضور نوعان، نوعٌ منهم كانت تصرفاته، تعابيره وإيماءاته تعكس ما يعكسه (شارف) وهو المال والنفوذ. أما النوع الآخر فقد كانوا أولئك الذين يقفون في ظل النوع الأول.

فكر كريس بالسيارات الفاخرة التي رآها واقفةً في المرآب.

كان هذا المكان بمثابة فرصة الأحلام بالنسبة لشركته الصغيرة، إذا تصرف بذكاءٍ فإنه سيستطيع الحصول على مهمة عملٍ أو أكثر من بعض الحضور.

صعد إلى المنصة مع (شارف) ووقفا أمام الميكرفون، وصاح شارف «انتبهوا» ثم تابع «لقد وصلت مفاجئتي الخاصة جداً» واتجه إلى تسرنت هاين، معك صندوقان، كنزنا لهذه الليلة. أخبرهم من أين أتيت حالاً؟»

«مساء الخير» قال كريس بصوتٍ واثقٍ في الميكرفون «اسمي تسرنت هاين، صاحب شركة (تسرنت هاين) للنقل والتوصيل، نحن ننقل

كل ما يخصكم من أشياء شخصيةٍ، ثمينةٍ ويحتاج نقلها إلى الكثير من الثقة.»

«يكفيك ترويجاً لشركتك» همس شارف بجانب كريس.

«و أنا أتيت لتوي من الكاريبك» صمت قليلاً ثم ابتسم بانتصارٍ.

كان كريس يرى أن طريقة تقديم شارف فيها نوعٌ من الغباء، ولكن إذا كان من كلفه بالمهمة يريد ذلك، فعليه أن يجاريه في لعبته، فلقد كان مالاً سهل التحصيل.

ناول كريس الصندوقان لشارف، الذي أعطاهما بدوره إلى نادلين. على طاولةٍ صغيرةٍ وضعت بلمح البصر على المنصة، حل النادلان الأوراق التي لفت الصندوقين وكسرا الخِتم. كان شارف يراقب كل حركةٍ يؤديها النادلان، ثم طلب أن يعيدوا له احَد الصندوقين فوراً. استدار مجدداً إلى الميكرفون، وقد رسم على وجهه إبتسامةً عريضةً «كما تعلمون، فإني من متذوقي السيجار، ولهذا الاحتفال الخاص، طلبت أن يُجلب سيجار النصر مباشرةً بالطائرة» ثم فتح أحد الصناديق، وتناول سيجاراً منه وكان من نوع (كورانا جرانده) السميك والطويل، لُف بخمس طبقاتٍ من أوراق التبغ. وكانت الطبقة السادسة ناعمةً وملساءً، أما طبقة الغطاء فكانت من أفضل وأجود أنواع التبغ على الإطلاق.

«هافانا؟» صاح أحدهم من بين الجموع، بينما كان شارف يستنشق رائحة السيجار، وقد بدا عليه الاستمتاع بعبقه الجيد.

«أخبرهم» قال شارف لكريس، وتابع استنشاق السيجار.

«سنتياجو دي لوس كفاليروس» قال كريس موجهاً كلامه للحضور «إنها تقع في جمهورية الدومينكان»

«صحيح، إذاً فإنه من النخب الثاني» كانت نبرة الرجل متعاليةً ومستفزةً.

قدر كريس عمر الرجل بأواسط الأربعين، أحاطت به فتاتان غاية في الجمال وقد التفت يداه حول خصريهما.

«لا شيء يعلو على الهافانا، إنك لم تحضر النوع الأفضل، ونتمنى أن لا تكون تلك اللفائف قد حضرت من أوراق شجر الموز» قال الرجل باستهزاءٍ.

ترددت أصداء الضحكات في أرجاء القاعة، وانحنت الفتاتان المحيطتان بالرجل لشدة الضحك.

«اللعنة» تمتم شارف، ونظر بابتسامةٍ متصنعةٍ، ثم أشار بيده للنادل ليقطع طرف السيجار.

همس في أذن كريس قائلاً «هذا أحد أهم عملائي اسمه هوبرت شوستر، ثرائه ونفوذه بلا حدودٍ، إلا أن اطلاعه محدودٌ جداً، ولكن علينا أن لا نظهر له ذلك.»

أيها الأحمق، فكر كريس، إنني مجهدٌ، وأقف على قدمي منذ فترةٍ طويلةٍ، ثم آتي إلى هنا ليسخر مني هذا الغبي.

«ربما ورث ثروته، ولم يصنعها بنفسه» تمتم بحرقةٍ.

شعر بدغدغةٍ في رقبته، تحت جذور الشعر تماماً، كان يعرف هذا الشعور جيداً، كانت إشارة التحذير التي لم تخذله يوماً، مشكلته كانت أنه كان يتجاهلها أحياناً.

بهذه اللحظات كره عمله، مسّاحةٌ للأرجل، ذلٌ، احتقارٌ من أولئك الذين كان باستطاعتهم دفع الثمن. كان عليه أن يبتسم، ويتقبل الإهانة حتى يستطيع الحصول على المزيد من مهام العمل. كان الرجل ثرياً، إلا أن هذا لا يعطيه الحق بالسخرية منه.

«لا تتصرف بحماقةٍ» همس شارف بأذن كريس بعد أن لاحظ وجهه المتحجر «إياك والتصرفات الهوجاء»

دعك منه! تحمل! مرةً أخرى! حسناً

تظاهر كريس وكأنه يستمتع بما يجري، ابتسم، أومأ موافقاً، ورفع يداه بإشارة استسلام، ثم استعد للنزول من على المنصة.

«توقف!» دوى صوتٌ جبارٌ

إستدار كريس.

ابتسم شوستر بوقاحةٍ.

استعد الجميع لمتابعة ما سيجري. علت الحماسة وجوه الحضور، فالكل كان متشوقاً إلى حدثٍ مهمٍ ليصبح موضوعاً لجلساتهم فيما بعد.

«دعه أيها الشاب! هكذا لن تتمكن يوماً من أن تصبح رجل أعمالٍ مرموقاً»

انفجرت الضحكات وكأنها قنبلةٌ يدويةٌ، أفقدت شظاياها كريس صوابه.

أره، لا تدع كائناً كهذا يسخر منك، همس صوتٌ بداخله يدعى الكرامة.

«من أين لك أن تعرف هذا؟» سأل كريس «أنا أعمل في الخدمات اللوجستية... هكذا يسمون السُعاة هذه الأيام.»

مرةً أخرى تردد صدى الضحكات في القاعة، إلا أنها كانت هذه المرة متوترةً بعض الشيء.

«... وأنا لست خبيراً بالسيجار، لكن أنت! إن كنت فهمتك بشكلٍ صحيحٍ.»

«لا تتهور!» همس رئيس العمل إلى جانبه مجدداً.

«إنه رجلٌ حقودٌ، وأنا كذلك!»

تردد هوبرت شوستر لبرهةٍ، ثم نظر إلى مرافقتيه، اللتان كانتا تُحمسانه قائلتان: أره، أجبه، لا تدعه ينتصر عليك.

«الأرض وحدها تصنع الفرق، فمن أرض كوبا الغنية بالمعادن تنمو أوراق التبغ، فالأمر أشبه بتصنيف أنواع النبيذ» كان صوت شوستر مشبعٌ بالقناعة والرضا. في تلك الأثناء كان يحمل أحد لفائف السيجار وأخذ يشمه، ثم انكمش وجهه، وكأنه تعرف على النخب الرديء على الفور.

«كمية السيجار التي تُلف في (جمهورية الدومينكان) تفوق تلك التي تُصنع في (كوبا) بحوالي الثلاث مرات» قال كريس.

«وهذا ما عنيته: الكمية بدلاً من النوعية» رد شوستر ناقداً، فضحك المحيطين به ثانيةً.

انتبه كريس إلى التوتر الذي يختفي خلف ضحكاتهم، فلقد كانوا متشوقين لهذه المبارزة الكلامية، طالما أن الجهة الصحيحة هي التي ستفوز في النهاية.

«الأرض هي نفسها التي في كوبا» قال كريس بصوتٍ مرتفعٍ تخلل ضحكات الحضور «إذاً لا يمكن أن يكون ذلك هو السبب»

ساد الصمت، وعلى الاهتمام والترقب وجوه الحضور.

«إذاً؟»

حدق شوستر باتجاه المنصة، فلم يكن معتاداً على المعارضة.

«كلتا الجزيرتين تتبعان الأنتيل الكبير، كلتاهما ذا جوٌ إستوائيٌ، وتقعان بين خط عرض 18 ومدار السرطان...»

«هل تحاول أن تعطينا درساً في الجغرافيا؟» قال هوبرت شوستر دافعاً فتاتاه جانباً.

وقف كريس بقدمين ثابتتين، وساقان منتصبتان على المنصة، ساعداه نصف مفتوحتان، وكفاه في مستوى الصدر. كان هدوئه اللطيف يعكس ثقته التامة بنفسه.

« ... وكلتا الجزيرتين مكونتين من صخور الجرانيت، كما أن الحجارة

البركانية والرواسب متطابقةٌ في كلتا الجزيرتين منذ العصر الطباشيري...»
نبرة صوت كريس الرخيم كانت متساهلةً، وتقريباً متسامحً.

«... حسناً» أجاب شوستر بضعف مفاجئٍ

«... ولا شيء... حقاً لا شيءٌ في نوعية الأرض في (فويلتا آباغو) غرب كوبا، أفضل من تلك الموجودة في (شيباو تال) في جمهورية الدومينكان» ابتسم كريس بتكلف، فلقد شعر بالسعادة حين تبين له فجأةً كم كان مجدياً ذلك الحديث المطول مع صانع السيجار.

التفتت الأنظار إلى شوستر، الذي وقف بوجهٍ حانقٍ يفكر للحظة، قبل أن يقع في الفخ.

«في كوبا لديهم نباتات تبغ مختلفةٌ تماماً، النبتة بحد ذاتها هي التي تصنع الفرق الحقيقي بين النكهتين» قال شوستر بصوتٍ مرتاحٍ، ثم نظر إلى دائرة الضيوف من حوله، الذي أومأ بعضهم موافقاً بقوة.

«للأسف، أنا مضطرٌ لمعارضتك هذه المرة أيضاً» كان صوت كريس منخفضاً، لطيفاً وواضحاً.

تعلقت نظرة إحدى مرافقات شوستر الشقراوات بعيني كريس، توسعت حدقتي عينيها وفتحت فمها، ثم أطبقت أسنانها على بعضهم، وهزت رأسها بطريقةٍ كادت أن تكون غير ملحوظة.

أدرك كريس تحذيرها، ولكن كان عليه إكمال ما قد بدءه.

هكذا كان قانون الصراع الذي تعلمه في حياته، فبعد الوصول إلى نقطةٍ معينةٍ لا بد من الاستمرار مهما كانت النتائج.

انتظر كريس حتى أراد شوستر أن يتفوه بشيءٍ جديدٍ، فقاطعه ببرودةٍ واشمئزازٍ.

«يبدو أنك لا تعلم شيئاً عن تاريخ الهجرة إلى كوبا، ففي القرن الثامن والتاسع عشر وبعد أن عصفت الاضطرابات في جزيرة الدومينكان،

هاجرت مجموعاتٌ كبيرةٌ منهم إلى كوبا، وماذا برأيك أحضروا معهم؟» انتبه كريس لنبرة الانتصار التي أخفاها صوته، فصمت لبرهةٍ قصيرةٍ، لقد استفزه هذا الرجل كثيراً.

أخفض صوته قليلاً ليقول جملته التالية «سوف أخبرك، لقد أحضروا بذور التبغ معهم. هل لديك المزيد من الأسئلة؟»

صمت شوستر وضغط شفتيه على بعضهما، نظراته الغاضبة اتجهت إلى شارف، ونظرات الحضور صوبت بحرجٍ إلى الأرض.

«غبيٌ» تمتم شارف، ثم أعطى إشارةً إلى الفرقة الموسيقية، لتكسر بمعزوفاتها النَشطة حاجز الصمت المخجل الذي ساد القاعة، وليتسنى للحضور نسيان ذلك الموقف من خلال الرقص.

و دون أن يرمق كريس بنظرةٍ، نزل شارف من على المنصة، وضع يده اليمنى على كتف شوستر وسحبه.

بقي كريس وحيداً على المنصة، بينما كان النادل إلى جواره يلملم أطراف لفائف السيجار المقطعة، محاولاً كبت ضحكته.

في الأسفل كان شارف وشوستر يحاولان شق طريقهما بين الحضور. فجأةً استدار شوستر ومد يده اليمنى، موجهاً سبابته نحو كريس وكأنها فوهة سلاحٍ، ثم حرك شفتيه مصدراً صوتاً خفيفاً وكأنه يُطلق رصاصةً، بعدها غطى عينيه بيده اليسرى.

الفصل الرابع

التوسكانا

الخميس

كان كريس مسترخٍ ومستريحٌ، وكأنه في رحلة استجمامٍ، لاحت قمم جبال الأبنين في الأفق، بينما تجولت نظراته على مد الحقول وكروم العنب اللامتناهية، وبدت سفوح الجبال وكأنها لوحةٌ رُسمت بريشةٍ عريضةٍ لأمواجٍ تنساب برقةٍ تحت أشعة الشمس.

كانت صفوف من الحجارة الجافة تمتد بمحاذاة بعض الحقول على جانبي الطريق.

لقد قضى الليلة الماضية في أحد الفنادق الصغيرة في مدينة ميونخ، وفي الصباح استقل السيارة التي كان الكونت قد استأجرها له.

عبرت سيارة (المرسيدس) الفضية من نوع إي 220 مدناً صغيرةً كإنسبروك وبورن إلى فيرونا ثم بإتجاه بولونا وفلورنس.

في طريقه توقف كريس لشابين يريدان الذهاب إلى روما. أراد كل من آنيا وفيليب زيارة المدينة الخالدة، ورؤية البابا. كان كريس مستمتعاً بالاستماع إلى أحاديث الفتاة والشاب اللذان كانا في مقتبل العشرينات من عمريهما حين رن هاتفه.

«أرجوكما أن تصمتا قليلاً» ثم دس السماعة في أذنه.

إنها إينا، فلقد أرادت اليوم وعلى غير العادة الذهاب باكراً إلى منزلها، ففضلت ترتيب كافة الأمور في الشركة وتوزيع المهام على السائقين المنتشرين في كل مكانٍ. وحين أرادت أن تسأله عن أحوال الطقس قاطعها كريس قائلاً «إينا قولي ما عندك» فردت بصوتٍ مرتبك «لقد اتصل مستشار الضرائب، وهو قلقٌ جداً بشأن الوضع المادي للشركةً. ولأكن أكثر وضوحاً فإننا حالياً في مأزقٍ ماديٍ حرجٍ، لقد كانت نتائج الأشهر الأولى كارثيةً، وهذا ما بينه كشف المصرف الذي تم إرساله لنا مؤخراً، وقد تضمن الكثير من الإشارات السالبة»

«أعلم أن الصورة ليست ورديةً»

ففي زيارته الأخيرة إلى المصرف تم إعلامه أنهم سيقومون بإيقاف خدمة القروض المحدودة المقدمة له، إن لم يتمكن من تغطية العجز الحاصل في رصيده.

ألقى كريس بنظرةٍ خاطفةٍ إلى فيليب الذي كان يجلس إلى جانبه ويسترق السمع، وعندما تلاقت عيناهما فهم فيليب الرسالة فأدار وجهه باتجاه النافذة.

«هكذا هي الحال دائماً في مرحلة نمو أي شركة حيث يتم الاستثمار أولاً، قبل أن...»

«كفى» همست إينا بعصبيةٍ مهددةً عبر السماعة «لقد حذرتك سابقاً، فالشابان الجديدان اللذان قمت بتعيينهما مؤخراً أضافا عبئاً جديداً على الشركة، وربما تؤدي الأسعار الزهيدة التي تطلبها لقاء خدماتنا إلى زيادة الطلب، إلا أنها لا تحقق أرباحاً».

كان كريس قد قام بتعيين سائقين جديدين في الشركة خلال الخريف الماضي، وذلك لأن الطالبان الجامعيان اللذان كانا يعملان لديه بشكلٍ مؤقتٍ، لم يعودان يكفيان لتغطية كافة الطلبات التي كانت ترد إلى

الشركة، وبهذا أصبح عدد عاملين الشركة مع كريس خمسةٌ بالإضافة إلى إينا.

إلا أن كريس قد أخطأ في حساباته، إذ أن واردات الشركة لم تكن تكفي لدفع مرتبات هؤلاء الخمسة.

كما أن معظم زبائنه من كبار الشخصيات والأثرياء، كانوا غالباً ما يصرّون أن يقوم هو شخصياً بإيصال طرودهم الخاصة إلى مقار عطلاتهم كنوعٍ من الثقة بشخصه، وكانوا حساسين جداً تجاه أي تغييرٍ بسيطٍ بهذا الصدد، والذي كان يؤدي إلى ردود فعلٍ لم يكن كريس يتوقعها.

وفي النهاية أدرك كريس أنه لم يعد بإمكانه مسك العصا من المنتصف، حيث كان يتوجب عليه إما السفر دائماً لإيصال الطرود، أو أن يقوم بأعمال الدعاية وتوسيع قاعدة زبائنه، فكان غالباً يقوم بإحداهما على حساب الأخرى.

«لقد أخبرتني مساء أمس أن الكونت قام فعلاً بتحويل مبلغٍ من المال إلى رصيدنا»

صمتت إينا لبرهةٍ، فاعتقد كريس أن الاتصال قد انقطع.

«طبعاً» قالت أخيراً. «ولكن بالمقابل فقد قام العديد من عملائنا صباح اليوم بالاتصال بنا، وسحب المهام التي كانوا قد أعطونا إياها، إنهم لا يريدون أن يتعاملوا معنا بعد اليوم. والسيئ في الموضوع أن تلك المهام كانت دائمةً وثابتةً».

تردد كريس قليلاً فيما كان ينظر من خلال المرآة إلى الفتاة الجالسة على المقعد الخلفي، وهي تنظر من خلال النافذة محاولةً عدم الاستماع لمحادثته الهاتفية.

«وماذا يعني هذا؟» متابعاً كلامه مع إينا

ضحكت إينا بتوترٍ. «ميونخ ترسل لك تحياتها، لابد وأنك قدمت عرضاً رائعاً بالأمس»

«شارف؟ المركز التجاري!»

«كان أحدهم نعم، بينما كان اثنان من أوغستبورغ، وواحد من كولونيا، والرابع من إسن. هل ضربت أحدهم بمطرقةٍ كبيرةٍ على قدمه؟»

«هراءً»

«يبدو أن كلاً من أصحاب هذه المتاجر تحدث إلى الآخر وأخرجونا من قوائمهم»

تذمر كريس «ومن أين لك أن تعرفي ذلك؟»

«السيدة أختريوش تحدثت معي هاتفياً، وسحبت مهمة المركز التجاري، لقد قالت أنها تتصل بطلبٍ من مديرها .... وكذلك تم إيقاف المكافئة الإضافية، يبدو أن مديرها غاضبٌ جداً» صمتت إينا قليلاً ثم تابعت «ماذا فعلت؟ هل قمت باستفزاز أحدهم مجدداً؟»

«لماذا أقوم بهذا العمل المقرف ألم يكن أجدر بي أن أبقى شرطياً لطيفاً»

«مشاكل؟» سأل الشاب بجانبه

التفت كريس إلى الشاب والفتاة بابتسامةٍ شاحبةٍ

«المعذرة! إن شركتي الصغيرة تمر حالياً بظروفٍ صعبة»

«لا بد لهذا أن يحدث» أومأ فيليب بجديةٍ «كان والديَّ يمتلكان متجراً للآلات الموسيقية، انتهى أيضاً»

«إفلاس؟» سأله كريس

«كلا لقد باعاه، وحققوا بذلك ربحاً كبيراً، ويعيشان الآن على جزيرة (مايوركا) الإسبانية، وأنا لدي ما يكفيني لإتمام دراستي الجامعية»

نظر كريس في المرآة الأمامية «وماذا عنك؟» موجهاً سؤاله إلى آنيا

التي كانت تجلس على المقعد الخلفي، وتمرر أصابعها بين خصلات شعرها الداكن، الذي كان يعطي وجهها تلك الملامح الحادة على عكس صوتها المخملي الناعم.

«والدي طبيبٌ مختصٌ بالمسالك البولية، ولديه عيادته الخاصة، إلا أن الأمور ساءت الآن، ولكن الوضع جيدٌ بشكلٍ عامٍ»

نقطة بدايةٍ جيدة، فكر كريس، بالمقارنة مع حياته، فوالده كان بنَّاءً ووالدته بائعةً في متجرٍ، وبالرغم من مواردهما المحدودة إلا أنهما كانا على وشك تحقيق حلمهما ببناء منزلهما الخاص، غير أن والدته لم تتمكن من الاستمرار في تمويل البناء حيث كان يتوجب عليها الاعتناء بوالديها المسنين فلم يعد هنالك وقتٌ لعمل شيءٍ آخرٍ.

«هل كنت من رجال الشرطة؟» سأله فيليب بعد فترةٍ من الصمت

«يبدو أنك فضوليٌ جداً، أليس كذلك؟»

«لقد فهمت هذا من خلال تلميحاتك، على أي حالٍ أعتذر عن التدخل بشؤونك الخاصة...»

لقد تحدث كريس معهما طوال الوقت، وأخبراه بأشياءٍ كثيرةٍ عن حياتهما. فلماذا لا يبادلهما الصراحة؟

«بعد أن أنهيت المرحلة الثانوية، تم تعييني في قسم الأرشيف في قبو إحدى المحاكم الابتدائية، وكان علي أن أنهي دراستي في مجال الأرشفة القانونية، ثم تخيلت صورة ذلك الموظف الرسمي الذي قضى معظم حياته في تصنيف أوراق الدعاوى وأرشفتها، بينما كان يقوم بخيانة زوجته مع مساعدته على طاولات قسم الأرشفة بين أكوام الملفات»

«مستقبلٌ باهرٌ حقاً»

«فعلاً. كابوسٌ، لابد من الهرب، وبالفعل فلم أكمل الثلاثة أشهر حتى تركت ذلك المكان، ثم قمت بتقديم طلب انتساب إلى كلية الشرطة، وبعد

التخرج تدرجت في عملي من شرطيٍ إحتياطيٍ إلى قسم الشرطة الجنائية حتى وصلت إلى منصب رئيس قلم في قسم الجرائم، قاع الوجود البشري، والمزيد من الأعمال المكتبية التي لم أتوقعها. في بداية التسعينات إنضممت إلى وحدة القوة المتنقلة. لقد كنت مستمتعاً بحس المغامرة، وكان العمل كشرطيٍ سريٍ يتطلب الكثير من القرارات الذاتية والسريعة، وذلك لبعدنا في معظم الأحيان عن غرفة العمليات المركزية.»

«وماذا كنتم تفعلون؟» سأل فيليب وقد امتلأت عيناه بالحماس، وتغيرت تعابير وجهه المحاط بشعرٍ أشقرٍ مائلٍ إلى البياض.

«المراقبة، كانت الحقيبة الخلفية لسيارتي مليئةً بلوحاتٍ سياراتٍ ذات أرقامٍ وهميةٍ، لاستخدامها في عمليات التتبع»

ابتسم كريس لفيليب ثم تابع «كنا نقوم بالمتابعة السرية متسلحين بأوراقٍ ثبوتيةٍ مزورةٍ، وأساطيرٍ لنخترق بها عالم تجار المخدرات، ونجمع المعلومات من مصادرها. مطاردة مهربي المخدرات من الحدود البولونية على الطرق السريعة ثم نلقي القبض عليهم، أو مراقبة مهندسٍ على مدار أشهر لأنه ينوي بيع مخططات الطائرات الحربية لمن يدفع الثمن الأعلى»

«كنت أعتقد أن قوات العمليات الخاصة هم الذين يقومون بالمهام الخطرة»

«لقد أخبرت زوجتي بذلك لأطمئنها. إلا أن ذلك لم يكن صحيحاً تماماً. فقوات العمليات الخاصة كانوا يُستدعون لإتمام العمليات الخطرة كأخذ الرهائن وتخليصهم. إنهم يعملون كفريقٍ بأسلحةٍ متقدمةٍ، وفي مجابهاتٍ محددةٍ، وتوضيحٍ مسبقٍ للمخاطر. بينما تسير العمليات الخاصة بوحدة القوة المتنقلة بشكلٍ مختلفٍ في معظم الأحيان، ففي مرحلة جمع المعلومات يكون الشرطي غير مسلحٍ تماماً، وفي كثيرٍ من المهام يكون معتمداً على نفسه بشكلٍ كاملٍ وغير مغطىً، كالجاسوس الذي يعمل في أرض العدو.»

«وهل كانت زوجتك راضيةً عن ذلك؟» سألت آنيا باستغرابٍ «فمع هكذا عمل لا أعتقد أن هنالك مكاناً للزوجة.»

«كلا طبعاً»

«توقعت ذلك» أفلتت الكلمات من بين شفتيها

عاد كريس بذاكرته إلى تلك المشاعر المفاجئة، والأشهر العاصفة التي تعرف بها على بيترا. لقد تزوجها بسرعةٍ، واستطاع الحب لفترةٍ وجيزةٍ أن يكبح جماح رغبته في العودة إلى عمله ومواجهة المخاطر.

«كانت ضد عودتي إلى وحدة القوات المتنقلة في الشرطة، كانت تمر عليها عدة أيامٍ دون أن تعرف أين كنت. فالاتصال الهاتفي كان غالباً غير ممكنٍ، كانت تتمنى أن يعود زوجها مساءً إلى المنزل ليساعدها في العناية بالأطفال الذين كنا ننوي إنجابهم»

«وهل كان هذا أسوأ ما في الأمر؟» سألت آنيا باستغرابٍ

«بالطبع لا» أخبرها كريس عن جولة التسوق مع زوجته في يوم السبت ذاك، حين ناداه رجل باسم غير اسمه، وفي إحدى المرات هدده أحدهم في الطريق بينما كان يرمق بيترا بنظرةٍ حادةٍ، وفي مساء ذلك اليوم أرسل كريس زوجته إلى والدتها لمدة ثلاثةِ أسابيعٍ لحين إنتهاء مهمته.

«أوضحت لي فيما بعد أنها ليست مستعدةً لإنجاب الأطفال طالما استمررت بالقيام بهذا العمل الخطر»

«لو كنت مكانها لفعلت ذات الشيء» قالت آنيا «لو كنت مكانها لما استطعت ربما الاستمرار كل تلك الفترة» ساد الصمت لبرهةٍ «ولكن كيف يتحول شرطيٌ إلى ناقل طرودٍ؟»

أخذ كريس نفساً عميقاً ثم قال «لقد وجدت في جيب معطفي خطاباً من الفرقة رقم 9 التابعة لحرس الحدود بخصوص الموافقة على خضوعي لاختبار القبول»

«إنها الوحدات الخاصة على مستوى الجمهورية الاتحادية» قال فيليب «لقد قمت باختيار ما هو أكثر خطورةً»

«يقولون أنني شديد العناد» وفجأةً مر أمام عينيه ذلك المشهد الكريه من حياته الزوجية، لقد أيقظ صراخهما الجيران وقاما بتحطيم الكثير من الأواني الزجاجية حتى أن الجيران قاموا باستدعاء الشرطة.

وأسوأ ما في الأمر كانت تلك الكلمات الجارحة التي تبادلاها وكأنها مشرط جراحٍ يشق القلب. لقد تَرَكته... لم تعد تستطيع احتمال قراراته الأحادية الجانب والخطرة.

«وماذا حدث بعد ذلك؟»

«لقد رسبت في اختبار القبول»

«يا إلهي» قال فيليب وهو يطبق بأسنانه على شفته السفلى.

نظر كريس من النافذة اليمنى للسيارة، كان ما يزال يتذكر تفاصيل ذلك اليوم، حيث جلس مع مجموعة من المتقدمين بطلبات انتسابٍ في حجرةٍ ذات جدرانٍ بيضاء وجرداء، خاليةٍ من أي صورةٍ أو لونٍ، ومضاءةٍ بواسطة النيون. وكان رئيس لجنة الاختبار أشبه بسمكةٍ ميتةٍ بجمود وجهه وخلوه من أي تعبيرٍ. بينما كان المحلل النفسي الخاص بالفرقة 9 الخاصة لحرس الحدود قد قرر أن لدى كريس نزعةً إلى التصرف الغير مدروسٍ، والقرار الأحادي. مشكلته الكبيرة كانت في عدم قدرته على العمل داخل مجموعةٍ، لأن قراراته السريعة والإنفعالية كانت ستعرض حياة زملائه للخطر.

وهذا كان أحد أهم أسباب رفض طلب انتسابه للفرقة الخاصة رقم 9 لحرس الحدود.

ولقد تسبب هذا الحكم بتوريطه مع رؤسائه في العمل، فأثناء ملاحقته لأحد تجار المخدرات اتخذ كريس قراراً بإلقاء القبض عليه دون

الرجوع لرؤسائه، وذلك لأن الظروف بدت له مناسبةً، فلم ينتظر بقية زملائه، وكانت النتيجة أن شريكه في المهمة تلقى رصاصةً خطرةً في صدره كادت أن تودي بحياته، فحمّله مديره مسؤولية ذلك الحادث، وأيد قرار المحلل النفسي بشأنه...

«كله دفعةً واحدةً» تمتم فيليب

«تركت العمل» قال كريس كان ما يزال يشعر بمرارة ذلك الحكم «لقد تعرفت على مدير إحدى الشركات الأمنية الخاصة، والتي كانت تُستأجر لحماية المتاجر، أو تقديم الاستشارات الأمنية للشركات، وكانت تربح أموالاً جيدةً»

«يبدو أنه عملٌ مثيرٌ أيضاً»

«إلا أنه حتى هناك سارت الأمور كالعادة. فبعد سنتين من العمل مع هذه الشركة جاءت النهاية، فعندما تم إعطائي مهمة حماية إحدى أشهر المغنيات، حاول أحد المعجبين بإصرارٍ شديدٍ الاقتراب منها، قمت بمنعه إلا أنه حاول فقئ عينيّ بأحد أصابعه، فقمت بلكمه بقبضتي على قفصه الصدري، مما أدى إلى كسر أحد أضلاعه. لم يكن الأمر مقصوداً ولكنه حدث لسوء الحظ لم يكن ذلك المعجب سوى ابن المطربة الذي أراد أن يفاجئها.

كنت على وشك مواجهة قضيةٍ بتهمة محاولة القتل المتعمد، وإحداث أضرارٍ جسديةٍ جسيمةٍ، ودفع تعويضٍ كما طالبت تلك المغنية بطردي من عملي في الشركة، فكان لها ما أرادت لأن الشركة كانت مهتمةً بالاستمرار بالتعامل معها. وطبعاً ترتب على ذلك مشاكلُ كبيرةٌ بيني وبين مديري.»

«وهنا قررت تأسيس شركتك الخاصة»

«نعم، بفكرةٍ مسروقةٍ» ضحك كريس «كانت شركة الأمن الخاصة تنوي افتتاح فرعٍ جديدٍ لها يختص بنقل طرود خاصة للمشاهير والشركات،

مما لم يكونوا يرغبون بإرساله عبر البريد العادي. كانت تلك الطرود تحتوي على مجوهرات أو أوراقٍ خاصةٍ بمشاريع ضخمة، أو الأمور المتعلقة بوزارة الدفاع... الخ، فقلت لنفسي أستطيع فعل ذلك أيضًا»

«يبدو عملاً سهلاً» قال فيليب

«حسناً، كان معي رقم هاتف أحد تجار التحف الذي كنت أرافقه أثناء حضوره المزادات عندما كنت ما أزال أعمل في شركة الأمن الخاصة، ولقد تمكنت في إحدى المرات من منع عملية سطوٍ على حقيبةٍ خاصةٍ به، كانت تحتوي على تمثالٍ آشوريٍ ثمينٍ. قمت بالاتصال به وبعد أسبوعين أصبح هو أول زبائني، ثم قام بتقديمي إلى المزيد من رجال الأعمال والتجار والذين أصبحوا بدورهم زبائني أيضاً.»

«و أنت الآن بطريقك إلى تاجر التحف هذا؟» سأل فيليب

«نعم. الضبط»

«حتى لو أن الأمور الآن لا تسير على ما يرام، إلا أن تاجر التحف هذا قام بمساعدتك فعلاً، وإلا لم تكن لتستطيع الوقوف على قدميك الآن» قالت آنيا بحماس ودون أن تنتبه لكلماتها

«حقاً. لقد ساعدني»



بعد أن ودع كريس الشابين، تابع طريقه مستمتعاً بالوحدة والهدوء.

كان هدفه يقع على قمة جبلٍ في (السينيسي)، ليس بعيداً عن مدينة (سيينا) الإيطالية. طريقٌ عريضٌ من أشجار السرو كان يخترق الحقول وكروم العنب، منتهياً بسورٍ حجريٍ ضخمٍ يحيط بفيلا الكونت. كان السور

المبني من الصخور بارتفاع المترين تقريباً، ولاحظ أن البوابة الحديدية المزخرفة بعناية كانت مفتوحةً.

أوقفه أربعةٌ من رجال الحرس، كانوا يرتدون قمصاناً بيضاء بأكمامٍ قصيرةٍ، وسراويل زرقاء داكنة، كلهم كانوا محزمين بجرابٍ للسلاح، واثنان منهم كانوا يحملون رشاشاتٍ آليةً.

«قم بتوجيه سلاحك باتجاهٍ آخر» قال كريس لأحد الحراس، الذي كان يوجه فوهة سلاحه للنصف الأسفل من بطن كريس. أومأوا بصبرٍ، ثم تلقوا أوامر عبر اللاسلكي بتفتيش السيارة، ثم فتشوا كريس شخصياً، وفتحوا حقيبته، وقلّبوا ما تحمله من ثيابه المتسخة وبعدها أشاروا له بالدخول.

قاد كريس سيارته على الطريق المؤدي إلى الفيلا، والتي زُين جانبيه بأحواضٍ من الورود، وانتشرت الأشجار المثمرة كالبرتقال وغيرها بطريقةٍ متناظرةٍ ودقيقةٍ للغاية، بينما ألقت دوالي العنب بظلالها على الممر المفروش بالحصى الصغيرة الملونة.

لاحت الفيلا ببنائها الكلاسيكي القديم وواجهتها اللامعة. على جانبي المبنى انتصب برجان صغيران يعكسان طابع الأبنية التقليدية في منطقة (التوسكانا)، واللذان كانا يستخدمان إما للاحتماء من مرض الطاعون الذي كان قد انتشر في فترةٍ ما في هذه المنطقة، وإما للهروب من حرارة الصيف الحارقة.

انتهى الطريق بساحةٍ يتوسطها نافورة مياهٍ صغيرة، أحاطت بها تماثيلٌ حفرت من خشب الزان، وزينت رؤوسها بأكاليل الغار.

نزل كريس من سيارته، وبدأ بممارسة بعض الحركات الرياضية للتخفيف من آلام عضلاته وفقراته التي تيبست لطول فترة جلوسه خلف عجلة القيادة، في هذه الأثناء فُتح باب الفيلا.

وقـف أنتونيـو بـونتي أمـام البـاب، كـان جـسمه رياضـياً ومتناسـقاً ويتصرف بلباقة عالية كما هو معروف عن سكان الجنوب التقليديين.

لوح كـريس بيده محيياً ثم اتجـه نحـو الـرجل الإيطـالي. كان أنتونيـو الذي عمل سابقاً في قوات الشرطة الإيطالية الكارابينييري يـرأس مجموعـة الحـرس الخـاص بالكونـت لـسنوات طويلـة، وكـان تاريخـه المهـني يؤهلـه لهـذا المنصب إذ أنه كان يعمل مع مجموعة التدخل الخاصة الإيطالية، والتي تعتبر إحدى أهم القوات الشرطية الاستثنائية في أوروبا.

كان كريس قد تعـرف علـى بونتي في إحدى مهامـه مـع الكونـت حيـث كـان عليـه إيـصاله مـن كولونيـا إلى جنيـف. وكـذلك في مهـام لاحقـة تعـرف الشُرطيان السابقان على بعضهما البعض، وتبادلا الخبرات.

وبدلاً من إبداء فرحته المعتادة بلقاء كريس، رد بونتي ببرود، ثم تنحـى جانباً متيحاً الطريق لكريس للدخول إلى الفيلا.

تقدم فورستر باتجـاه كـريس مـاداً يده اليمنـى لمـصافحته، بينمـا كـان يتكئ بيده اليسرى على عكاز.

تأمل كريس العكاز الذي حفر بعناية فنية فائقة، واليـد البيـضاء ذات العـروق الزرقـاء النـافرة الـتي التفـت حـول رأس العكـاز. كـان كـريس يعـرف فورستر ذلك الرجل القوي الصحيح، والمتمتـع بالحيويـة الدائمـة بـالرغم مـن بعض الإعياء الذي بدا عليه أثناء سفرتهما الأخيرة إلى دبـي، إلا أن مـا يـراه كريس أمامه الآن كان مجرد هيكل عظمي!!



كان بناء فيلا فورستر كلاسيكياً تماماً، فبجانـب الـصالة الكبيرة كان

البهو الداخلي والذي صمم على النسق الريفي البسيط، الجدران ذات اللون المغر اتسقت مع الأرض الحجرية التي كانت تشكل الأرضية وزينت بنقوشٍ خفيفةٍ لتضفي عليها لمسةً جماليةً إضافيةً.

انتشرت جرارٌ فخاريةٌ استُخدمت كأحواضٍ للنباتات في أرجاء البهو الداخلي، والذي كان ذو أثاثٍ بسيطٍ مكوَّنٍ من مقعدين وطاولةٍ وكرسيين كلها مصنوعة من الخشب الطَّبيعي، وطليت بلونٍ غامقٍ.

انسحب بونتي وأحضر الخادم المشروبات، بينما اختار فورستر أحد المقاعد وإرتمى عليها بجسده المتثاقل.

شرب كريس كوب الماء البارد الذي قُدم له بجرعةٍ واحدةٍ، فلقد كان بأمس الحاجة إليه. أشار فورستر بيده إلى الخادم فصب له القليل من النبيذ الفاخر في أحد الكؤوس وقدمه له، تذوقه بطريقة الخبير ثم أومأ برأسه للخادم، فسكب كأساً آخر وقدمه لكريس.

في البداية دار حديثٌ عامٌّ بين الرجلين، حيث سأله فورستر عن سفرته وعن أحوال شركته، وقد بدا متأثراً حين علم بالظروف المالية السيئة التي تمر بها شركة كريس، ثم ما لبث أن هز رأسه متفهماً عندما أخبره كريس بالسبب وراء ذلك.

وبينما استغرق فورستر بالتفكير لإيجاد حلول لمساعدة كريس، كان الأخير يرمقه بنظراتٍ متسائلة. لقد تجاوز عمر فورستر الستين إلا أن مظهره كان يبدو وكأنه عجوزٌ هرمٌ. فلم يتبق شيءٌ من حيويته. كان يبدو مهلهلاً، جسده النحيل يرتعش حتى أثناء جلوسه، ويحاول الحفاظ على توازنه بإمساك عصاه. تتقطع أنفاسه أثناء الكلام، ويبدو مشتت التركيز أحياناً بحيث يبحث عن خيوط الموضوع الذي يتحدث به.

تألم كريس لهذا. فوجه الكونت كان هزيلاً، شاحباً، ضعيفاً ولم يتبق من شعره سوى بضعة خصالٍ. انهيار الرجل أثر به كثيراً، فلقد تطورت

علاقة من الثقة والاحترام بين الرجلين دون أن يتحدثا بهذا يوماً.

«لا أحب نظرات الشفقة، أعلم كم أبدو ضعيفاً، إلا أن ما أشعر به أسوأ بكثيرٍ مما أبدو عليه» دمدم فورستر

نظر كريس إلى فورستر متسائلاً، فرد الأخير بابتسامةٍ شاحبةٍ «إنك لا تعرف الكثير عني، بينما أعرف أنا عنك أكثر، أليس كذلك؟»

أومأ كريس، وأخذ رشفةً من كأس النبيذ الأحمر، فمع كل أسئلته وملاحظاته، لم يستطع يوماً أن يتخطى ذلك الخط الأحمر الذي رسمه فورستر حول حياته، والذي كان كريس يشعر أنه اقترب منه عندما يتوقف فورستر عن الإجابة.

على العكس من فورستر الذي كان يمطر كريس بوابل من الأسئلة، ويلح عليه أن يخبره بأدق تفاصيل حياته، والتي لم يكن لزبون عادةً أن يعرفها.

كان كريس يعتقد أن صراحته اللامتناهية مع فورستر هي التي دفعت الأخير إلى التمسك بالتعامل مع شركته وامدادها بالمزيد من المهام.

«ستكون هذه المهمة الأخيرة التي ستؤديها لي، ستساعدني على التكفير عن خطيئتي، ثم أدير ظهري لكل هذا العذاب»

«أنا لا أفهم شيئاً» لم يعهد كريس ذلك الشعور المزعج الذي انتابه اليوم، أثناء تواجده مع الكونت. تيبست رقبته وتشنجت عضلاته، وكأنها قطعةٌ من الصلب.

«هذا طبيعيٌ» ضحك فورستر بصعوبةٍ، بينما كانت عيناه الزرقاوان الغائرتان ترمقان كريس بنظراتٍ ثاقبةٍ.

«إنه مرض (باركنسون)، إنك ترى كيف أنني لا أستطيع حتى أن أوقف رأسي عن الاستمرار بالاهتزاز»

أطرق كريس وعيناه مصوبتان نحو الأرض «ليس لدي معلوماتٌ كافيةٌ...»

«قدرةٌ محدودةٌ على الحركة، ردود فعلٍ جسديةٌ لا إراديةٌ وهرمٌ مبكرٌ من أسوأ الأنواع، وفي النهاية عجزٌ تامٌ وشللٌ كاملٌ. كافة أجزاء الدماغ تموت، تباً» تمتم فورستر بصوتٍ مبحوحٍ «ما أزال بكامل قواي العقلية، ولكن نوبات الاكتئاب والاضطرابات النفسية والذهنية بدأت ترسل إشاراتها. أحاول الاختباء منها، ولكنها ستجدني عما قريب»

انتظر كريس بصمتٍ حتى هدأ انفعال فورستر، فلقد كان أسبوعاً شاقاً بالنسبة له وبدأ يسال نفسه إن كان باستطاعته أن يضيف أعباء هذا الرجل لأعبائه الخاصة.

«ولهذا فلقد قررت التكفير عن خطيئتي أولاً ثم أموت»

و عندما فتح كريس فمه متفاجئاً، رفع فورستر يده اليمنى بوهنٍ قائلاً «لن أقبل أي إعتراضٍ على قراري. فأنا لم أخبرك بما أنوي فعله حتى تعلق عليه، إني أحاول التوضيح وحسب...»

«ولكن...»

«لحسن الحظ وجدت جمعيات في سويسرا تساعد على تنفيذ الموت الرحيم، تساعد الأشخاص الراغبين بالتخلص من آلامهم إلى الأبد على تحقيق هدفهم. كل شيءٍ مرتبٌ وجاهزٌ»

«لا يمكن للإنسان أن يرحل عن الدنيا بهذه البساطة» تمتم كريس بعد فترةٍ من الصمت

«أنا أفعل» رد فورستر بابتسامة خبيثةٍ «لقد اتخذت القرار، ولا أريد مناقشته معك بعد الآن. لقد أخبرتك به حتى تستطيع أن تدرك ما أريده منك بشكلٍ أفضل. فحالتي تتدهور بسرعة، كل يومٍ أسوأ من الذي قبله، والعقاقير التي أتناولها عبارةٌ عن قنابل هيدروجينيةٍ، وبالرغم من ذلك فإن تأثيرها لا يستمر إلا لفترةٍ وجيزةٍ، ولا تستطيع تعويض كل ما يفقده الجسم»

حدق كريس بفورستر فلم يعد لديه ما يقوله في مثل هذا الموقف،

فتجربة الكونت في الحياة طويلةٌ وحافلةٌ بالخبرات، وكان دائماً يعرف ما يريد، وكيف يصل إلى هدفه.

«لا أريد أن أصل إلى تلك المرحلة التي أربط بها في السرير فاقداً كل قدراتي، بينما تأكل الاضطرابات النفسية والذهنية ما تبقى من أفكاري. هل تفهمني؟»

تلاقت نظرات الرجلين

كانت عينا فورستر جامدتان، ويبدوان كأنهما ينظران في فراغٍ لا متناه. وبالرغم من أن نظرات كريس وفورستر كانت متلاقيةً، إلا أن أحداً منهما لم يكن يرى الآخر. وبعد لحظاتٍ رمشت عينا فورستر وانفك ذلك السحر.

و أخيراً هز كريس رأسه فقط ليقوم بأي حركةٍ تكسر ذلك الجمود، فلم يكن باستطاعته النقاش، فلقد اعتنت والدته بجده وجدته أثناء هرمهما. وبما أنه فقد والديه إثر حادث سيارة على طريق السفر، فلم يتسنى له العناية بأناسٍ هرمين من قبل.

«عندما يحين الوقت فسوف تفنى سلالة عائلة فورستر، وكذلك عائلة شتاينر»

«ألا يوجد أقاربٌ؟» سأل كريس دون أن يعرف سبب ذكر فورستر لاسم عائلة شتاينر

«بعيدين، بعيدين جداً. ليسو على الأهمية المطلوبة لما أنوي القيام به. سلالتي ستنتهي»

«ليس لديك أبناءٌ؟»

حدق فورستر بالفراغ مجدداً، ثم ضحك بسخريةٍ «لو كان كذلك لتصرفت بشكلٍ مختلف، ولكن لا ليس لدي أبناءٌ»

رفع فورستر العصا، وضربها على الطاولة أمامه، فأصدرت صوتاً عالياً، ثم سحبها على سطح الطاولة باتجاهه.

«لقد حاولت فعل كل شيءٍ لتغيير هذا الوضع، لقد أقمت علاقاتٍ عديدةً مع فتياتٍ صغيرات السن، أردت استخدامهن كآلات للتكاثر، عرضتُ عليهن الكثير من الأموال إن استطعن انجاب طفل لي، إلا أن المال لم يقدر على تحقيق حلمي»

اعتقد كريس أنه يرى دموعاً في عيني الرجل.

أشاح فورستر لوهلةٍ بوجهه جانباً، وعندما أعاد النظر إلى كريس كانت الدموع قد تلاشت.

«أنا عقيم تماماً، لقد تم تشخيص حالتي هذه من قبل ثلاثةٍ من أهم مراكز علاج العقم في العالم، حتى التلقيح الصناعي لم يكن ليؤدي لنتيجة في حالتي»

تأثر كريس كثيراً بكلام فورستر، ولم يعرف ما عليه قوله، فهاهو ذا يجلس أمام الرجل الذي كان يمده بتلك المهام التي تدر على شركته أموالاً جيدةً، ويعرفه منذ سنواتٍ كعميلٍ مهمٍ لشركته الصغيرة، إلا أنه لم يتخيل أن يأتي اليوم الذي يفتح فيه الكونت مكامين أعماقه أمامه، ويعترف له بهذا الكم من المرارة التي كانت تختبئ خلف ذلك الوجه القوي لرجلٍ بهذا الثراء.

خلال لحظاتٍ تحول فورستر إلى رجلٍ متماسكٍ تماماً «وهكذا قررت أن أُنزل بعض الأعمالٍ عن كاهلي، والتي كنت أنا وعائلتي مسؤولين عنها.» ثم نادى عدة مراتٍ بصوتٍ متقطعٍ على الخادم، الذي حضر بعد لحظاتٍ حاملاً صينية العشاء.

«شرائحٌ من الخبز المحمص، لحم الخنزير البري، سلطة الخرشوف، لحم السمان، جبنة البيكورينو، رائعٌ!»

لمعت عينا فورستر لوهلةٍ، ثم أومأ لكريس داعياً إياه للبدء بتناول العشاء، ثم قال «هذا ما سأفتقده في الجحيم»

الفصل الخامس

مونتي كاسينو

الخميس

نظر المونسينيور تيساني من خلال نافذة السيارة. بينما بدت خلفه بانوراما واسعةٌ لسفوح الجبال. تأمل طريق السفر الطويل الذي يربط بين روما ونابولي، وصفوف السيارات التي كانت تعبره.

ارتفع الطريق الجبلي أمامهما بنحو 9 كيلو. كان أومبيرتو يقود السيارة بحذرٍ شديدٍ ملاصقاً للصخور المحاذية لجانبي الطريق الضيق، وبعد عبورهما ست منحنياتٍ وصلت سيارتهما أخيراً إلى قمة الجبل، حيث يوجد أصل جميع الأديرة في الغرب.

حوالي مليونٍ ونصفٍ من الحجاج يزورونه سنوياً.

(المونتي كاسينو) دير أتباع القديس بندكت، والذي تم تدميره عدة مراتٍ بسبب غزوات القبائل الجرمانية التي عرفت باسم (اللومبارديين) ومن بعدهم المسلمون. وخلال الحرب العالمية الثانية حولت القنابل هذا الدير إلى كومةٍ من الحجارة والتراب، وكان يتم إعادة بناء هذا الدير في كل مرةٍ وكأنها المعجزة.

انتهى بهما الطريق أمام ذلك المبنى الضخم، والذي يبلغ ارتفاعه

حوالي 250 متر. وعندما ترجلا من السيارة لم يعودا يسمعان شيئاً من ضوضاء الشارع.

كان تيساني رقيقاً، ذو جسمٍ مفصل، متوسط الطول، وجعله رداؤه الأسود ذو الياقة البيضاء يبدو أكثر نحالةً. وبالمقابل كان أومبيرتو، أطول وأضخم وذو جسم رياضيّ، وكان يعمل في إحدى محطات الوقود في (أوستيا)، وهو الشخص الذي يعتمد عليه تيساني كلما احتاج إلى سائقٍ موثوقٍ به.

كانت روح أومبيرتو صافيةً، وعقله يفكر باتجاهٍ واحدٍ، وقد امتلأ قلبه بإيمانٍ قويٍ لا يتزعزع، على العكس تماماً من تيساني الذي كان إيمانه بحاجةٍ دائمةٍ إلى الشحذ والتثبيت، لمواجهة كل تلك الحيل التي كانت تحاول الكنيسةً نشرها في العالم، ولم يكن عقله يتقبل الحقائق المجردة التي كان بإمكان أومبيرتو أن يتقبلها ببساطةٍ.

دخل تيساني الدير الذي كان بندكت النرسيائي قد أسسه على أنقاض معبدٍ وثنيٍ في عام 529. ودون أن يعيرها أي انتباه، مر تيساني أمام مجموعاتٍ صغيرةٍ من التماثيل البرونزية، والتي كانت تصور مشهد موت القديس بندكت واقفاً وسط حشد من الكهنة.

كان الفناء الداخلي بمساحته التي تبلغ حوالي 1200 مترٍ مربعٍ، واسعاً ويبعث على الارتياح. توقف تيساني بأفكارٍ مشوشةٍ في وسط الفناء أمام الجب ذو الشكلِ الثمانيّ، ونظر بإعجابٍ إلى الأعمدةٍ الزبيبية ذات التيجان الخشبية الضخمة، إلا أنه وبعد لحظاتٍ أدرك أن عليه أن يمضي في طريقه لاتمام مهمته. تابع سيره باتجاه الجزءِ الأمامي للمبنى المطل على الوادي، حيث كان ينتظره أحدهم هناك في الطابق الثاني.

استقبله قسيسٌ شابٌ ببرودٍ وبشيءٍ من الرسمية، فلم يكن المونسينيور القادم من الإدارة المركزية البابوية بالشخص الذي يطرب القسيس فرحاً لرؤيته.

قدم القسيس اعتذاره لتيساني، لأن رئيس الدير لم يتمكن من استقباله حيث أنه كان مسافراً. والحقيقة أن تيساني كان سعيداً لأنه لن يقابل رئيس الدير، فأي تعليق من جانبه كان سيصل حتماً إلى آذان شخص ليس له علاقةٌ مباشرةٌ بالمهمة. فرئيس الدير كان يتمتع بشبكة اتصالات واسعة، تشمل كافة شرائح المجتمع الإيطالي. دعاه القسيس للدخول إلى حجرةٍ ذات جدرانٍ مغطاة بالقماش الأحمر، انتشرت لوحاتٌ من وحي الكتابِ المقدس في أرجاءٍ المكان، وكان الأثاث مكوناً من كرسيين، وطاولة مكتبٍ، وخزانةٍ بسيطة.

أثناء انتظاره وقفٍ تيساني أمام النافذة المطلة على الوادي العميق لنهر اللير، والقرى المترامية على أطرافه، وفي الأفق لاحت جبال اوسوني.

«منظرٌ رائعٌ، أليس كذلك؟»

لا يمكن لتيساني أن يخطئ ذلك الصوت الهادر لهنري مافين البالغ من العمر ستين عاماً والأقصر منه بقليلٍ، والذي كان يتمتع بجسمٍ أشبه بأجساد مصارعي الحلبة.

كان هنري يرتدي زياً أسوداً خاصاً بأعضاء جوقة الكنيسة، وكان الوجه الممتلئ للناشر الأمريكي هادئاً، وذو بشرةٍ محمرةٍ لامعةٍ، وعينان داكنتان تنمان عن حماسةٍ شديدةٍ.

«هيَّ، هيَّ، انظر فحسب» قال هنري مافين بإعجابٍ. «أنا نفسي لا أستطيع تصديق هذا الأمر، منذ الأسبوع وأنا أعيش في عزلة تامة في إحدى الغرف الصغيرة هنا. والآن يقف أمامك رجلٌ جديدٌ، لابدٍ وأن القديس بندكت كان يعي تماماً كم باستطاعة هذا المكان أن يقرّب المرء من الرب»

حيّاه تيساني ببرود، فلم ترقه فكرة أن الأديرة يمكن أن تفتح أبوابها لاستقبال بشرٍ فانٍ، ليختبئ خلف أسوارها مقابل المال، وخصوصاً أن دير

(المونتي كاسينو) لم يكن يقدم حلقات تعليم البحث عن الذات، كما تفعل بعض الأديرة الأخرى. فالحياة هنا كانت تعكس حياة الدير البسيطة فحسب.

«هل تجلس على الطاولة؟»

«يمكن للمرء أن يعتاد الجلوس على المقاعد الخشبية القاسية» قال مارفين وربت بيده على كتف تيساني.

لم يكن تيساني معجباً بأسلوب وطريقة الأمريكيين في التعامل، وتساءل في نفسه كيف للقساوسة والكهنة الأربعين المقيمين في هذا الدير أن يحتملوا الصوت المدوي لهذا الرجل في عالمهم المليء بالسكون.

«مونسينيور إنك جادٌ للغاية، بالرغم أن الرب لم يمنع المرح»

«لكن إيصال رسالةٍ من ممثل الرب على الأرض قد تشكل عبئاً على حاملها»

«ليس هنا، حيث وجدت جذور حياة الأديرة. هل تعرف مكاناً أفضل من هذا لسماع الأخبار الجيدة؟ متى سيأتي اليوم أم غداً؟ هل تم الاعتراف بجمعية بريتوري الكتاب المقدس كأخويةٍ، أو ربما كمطرانيةٍ خاصة؟ ومتى سيتم إعلان ذلك؟ هل سَيُحضر المرسوم معه؟ هيّا أخبرنيٍ «للأسف فإن الجدل حول هذا الموضوع لم ينتهي بعد» أجاب تيساني بحزنٍ «بابا جديّد، لقد اختلف كل شيءٍ. الرسل الكثيرة الذين يقومون بخدمته... مقدم الالتماس الذي كان سيقوم بإيصال موضوعنا، مشاكل العقيدة، وبعض الفاسدين في الإدارة المركزية البابوية...» رفع المونسينيور يداه بإشارة استسلامٍ.

«لا أفهم شيئاً مما تقول!» حدق مارفن بعينين باردتين إلى المونسينيور.

كان مارفن رجلَ أعمالٍ، وكانت بالنسبة له القواعد هي دائماً نفسها،

حتى الكنيسة لم تكن لتُمنح استثناءً، الكنيسة بالذات فهي التي أوجدت المصارف، تلك التجارة التي تدر الأرباح على المدى البعيد.

«عزيزي هنري مارفن» نطقها تيساني بصعوبةٍ.

«مونسينيور لا تحاول إهانتي»

«قداسة البابا يرى أنه ليس بإمكانه مقابلتك الآن، وكذلك طلب الجمعية لا يمكن تحقيقه الآن. ربما ... خلال الأشهر القادمة... ولكن الآن...»

نهض مارفن من على الكرسي برشاقةٍ، ثم انحنى فوق طاولة المكتب، وأمسك بثياب تيساني جاراً إياه باتجاهه. نظر تيساني إلى قبضة مارفن على صدره، شد مارفن سترة تيساني بقوةٍ حتى كاد قماش الظهر يتمزق.

«قد أفهم أنه ربما لا يرغب بلقاءٍ شخصيٍ في الوقت الراهن، وذلك لكثرة المستمعين والمتصنتين والثرثارين في جحر الأفعى ذاك، ولهذا فقد اخترت هذا المكان حتى تبدو مقابلتنا وكأنها صدفةٌ، فلماذا هذا التغيير المفاجئ الآن؟»

ركز تيساني نظره في نقطةٍ على الجدار ثم قال «يوجد أكثر من ألفي أخويةٍ»

همس مارفن بأنفاسٍ مسمومةٍ «ولماذا لا يتم ترقيتنا لهذه الدرجة؟ بالرغم من أن الإحصائيات الجديدة تشير إلى أن عدد المنضمين بلغ المائة والخمسين ألفاً. نحن أكثر من أعضاء الأبوس داي، إن بريتوري الكتاب المقدس سيحكمون العالم. لا يمكن إيقاف انتشارنا، ففي كل يومٍ يزداد عدد أتباعنا من المخلصين والمؤمنين بالكلمات الحقيقية التي جاءت في الكتاب المقدس، وهم مستعدون للتضحية بأرواحهم في سبيل الدفاع عنه»

رأى تيساني العينان الجامدتان وتألم من أعماقه.

«نحن ننتشر بشكلٍ أوسع من الأبوس داي في أفضل أوقاتها، ننادي بمصداقية الكتاب المقدس، ونمنح المؤمنين بيتاً لنحميهم من التحلل والشعور بالضعف، نحن لا نحاول تفسير الكتاب المقدس بل نأخذ بكل كلمةٍ وحرفٍ وردت به»

أطرق تيساني، لقد ناضل بريتوري الكتاب المقدس ببسالةٍ لحماية قيم الكنيسة من الانهيار، وقد نجحوا في ذلك. حتى في أوساط البروتستانتيين من الأمريكيين، والذين أخذوا الكتاب المقدس بحرفيةٍ، والذي تجاوز عدد أتباعهم العدة ملايين، استطاع بريتوري الكتاب المقدس إعادتهم إلى أحضان الكنيسة الوحيدة الحقيقية.

«نحن الذين لم نترك البروتستانتيين يواجهون مزاعم العلماء وحدهم، نحن الدرع والسيف الجديدين للكنيسة الكاثوليكية، لقد قمنا بما كان يتوجب على الكنيسة الأم القيام به منذ زمنٍ بعيد.»

أفلت مارفن يداه من على صدر تيساني ثم تراجع إلى الخلف.

أخذ المونسينيور نفساً عميقاً. لقد قام في الليلة السابقة بقراءة الملف الذي أعده مجلس رجال الدين التابع للإدارة المركزية البابوية حول المنظمات الدينية.

كان مارفن أحد الناشطين النافذين في تلك الجمعية، والتي أسسها قس كاثوليكي متدين في بداية السبعينات، حين أخبره ابنه الصغير أن أحد الأساتذة في المدرسة قام بتشويه الرواية الجميلة للكتاب المقدس حول بدء الخليقة بتعليمهم نظرية الارتقاء والتطور.

كان مارفن أحد المائة الأوائل الذين انضموا إلى الجمعية، وكان آنذاك كما اليوم مقتنعاً تماماً أنه لم ينجو من حرب فيتنام إلا لينشر كلمة الرب في الأرض، فأنشاء دار نشرٍ صغيرةٍ أخذت على عاتقها طباعة ونشر الكتاب المقدس حصراً. بالإضافة إلى ذلك فقد كان يقوم بنشر

كلمة الرب بين أولئك الذين تسممت أفكارهم بترّهات العلماء، ومع مرور الوقت أصبحت دار النشر الخاصة بمارفن إحدى أشهر دور نشر الكتاب المقدس في أمريكا . كما استطاع إيصال كتبه إلى جنوب ووسط أمريكا، وكان يستمتع بإشراك المسيحيين في تلك البقاع بالتعرف على المضمون الحقيقي للكتاب المقدس.

في العام المنصرم مات مؤسس الجمعية، وكاد مارفن يتولى قيادتها . بشكلٍ فعليٍ كانت الجمعية تحت سيطرته وتصرفه منذ زمنٍ طويلٍ، فكان يتابع عمليات التمويل، وتمكن من إثراء تلك المجموعة التي جعلت من نفسها أخويةً دينيةً دون الرجوع للفاتيكان، كما أنه أسس هيكليةً إداريةً مكونةً من قيادةٍ روحيةٍ ورجال دينٍ والتي كان هو أيضاً الذي يقودها في النهاية.

تنهد تيساني، إذ أنه كان يدرك تماماً بأن هذا الرجل يمتلك قدرةً خطيرةً على الإقناع، وقد نجح بالحصول على دعم الكثير من الكرادلة والكهنة، وكان يناضل ضد تآكل الكنيسة وانهيارها .

«إن قداسة البابا يقدر تماماً الجهود التي تبذلونها للحفاظ على الكنيسةِ ووضعها بالمكانة التي تليق بها »

«نعم إنه نضالٌ حقيقيٌّ» قال مارفن وهو يرمق رسول الفاتيكان بنظراتٍ حادة «بالرغم من تطور دستور الولايات المتحدة إلا أنهم لم يستطيعوا أن يمنعوا تعليم تلك الأفكار المسمومة عن نظرية الارتقاء والتطور لطلاب المدارس، وبالمقابل فإنهم يمنعون تعليم كلمة الرب! حان الوقت لوضع نهايةٍ للتشكيك بالكتاب المقدس في العالم»

حوّل تيساني نظراته من على الناشر ووجهها مجدداً إلى الجدار «كنيستنا المقدسة لم تعد كما كانت قبل مائة عامٍ، وربما قبل عشرة أعوامٍ. أنت تعلم جيداً أن الكنيسة تورطت عندما اعترف البابا يوحنا بولوس الثاني بنظرية الارتقاء والتطور.»

«نعم. كان ذلك في عام 1996 أمام المجمع العلمي البابوي»

تنهد مارفن ثم تابع «لم تعد مجرد نظرية، هكذا قال البابا يوحنا بولوس الثاني في تلك السنة المشؤومة»

«وكذلك أكد خلَفه الذي كان ما يزال رئيس المجمع الدولي للاهوتيين، وترأس لجنة عالمية لرجال الدين والتي أثبتت بدورها أنه لا يوجد تعارض بين ما ورد في الكتاب المقدس حول بدء الخليقة ونتائج نظرية الإرتقاء والتطور. كان هذا قبل أكثر من عامٍ»

«كان كلامه واضحاً ولا يقبل التأويل. كلمة لا كانت ستؤدي إلى نتائج أفضل بكثيرٍ» ثم ضرب مارفن بقبضةِ يده على سطح المكتب «لكن هنالك آراءٌ أخرى مخالفةٌ، فأنا أعرف أحد القساوسة الذي سيقوم الأسبوع القادم بنشر مقال في مجلة «نيويورك تايمز» يهاجم من خلاله موقف الكنيسة ذاك، وسيدحض تصريحات البابا يوحنا بولس الثاني أمام المجمع العلمي البابوي بخصوص نظرية الارتقاء والتطور ويقلل من شأنها»

«هنالك المزيد من القساوسة الذين يشاطرونه الرأي» أجاب تيساني «إنهم ينادون بمحاربة كل من يحاول التشكيك بما جاء في الكتاب المقدس، ولكن البابا يعتقد أن ظهور مخطوطةٍ جديدةٍ لن تستطيع النيل من كلمة الرب، حيث أن مائةً وخمسين عاماً من محاولات التشكيك لم تتمكن من النيل منها»

أشاح مارفن بوجهه. هز رأسه بإستياء غير مصدقٍ لهذا الكم من الخيانة، ثم قال بصوتٍ هادرٍ «الأدلة ستكون كفيلةً بإقناع البابا.»

❖

صوفيا أنتيبوليس بالقرب من مدينة كان
الخميس

بخطواتٍ مثقلة جر الأب هيروتيموس قدميه نزولاً على أدراج بوابة المشفى، وكأنه يحمل أطناناً من الحجارة على كتفي جسده الممتلئ.

«مواجهة الموت المفاجئ أمام عينيك وبشكلٍ يوميٍ» ردد كلمات قواعد الرهبنة للقديس «بندكت» وسأل نفسه لماذا إختاره الرب هو بالذات ليجتاز هذه التجربة الصعبة؟.

مسح بيده حبيبات العرق التي تجمعت على رأسه الحليق. لقد أخفق في الإمتحان، لم يتمكن من تقديم المواساة المطلوبة لرجل يحتضر في طريقه إلى لقاء حسابه، لن يستطيع أن ينسى الوجه الخائف لذلك الشاب.

لقد أمضى تلك السنين الطويلة من العمل الدبلوماسي في الإدارة المركزية البابوية، حيث التلويح بالأيدي ودراسة المخطوطات تكون على حساب قدراته كراهب، لم يكن يتصور أنه سيتعامل مع العالم الحقيقي على هذا النحو وخصوصاً بعد أن كان قد قرر منذ بضعة أشهرٍ الاعتكاف في الدير.

«عذراً لا يمكنك الدخول الآن» قالت السكرتيرة المتفاجئة من وقوف الأب هيروتيموس أمام باب مكتب آندرو فولسوم.

تذكر هيروتيموس كيف أن جاك دوفور كان دائماً يتحدث برهبةٍ عن فولسوم.

لقد قامت الشركة الأمريكية لصناعة الأدوية (تيسابي) بشراء الحديقة العلمية (صوفيا أنتيبوليس)، والتي تقع بالغرب من مدينة (كان)، وذلك لتوسيع نطاق أبحاثها، وكذلك لترويج منتجاتها في أوروبا . ولقد أخبره دوفور بأن المالكون الجدد قاموا بوضع منهجيةٍ جديدةٍ للبحث

العلمي، ولم يكن أحد يتوقع شيئاً جيداً من الرئيس التنفيذي للشركة الأم لتيسابي.

عندما دخل عليه الراهب والذي كان أطول منه بقليلٍ، كان فولسوم يتحدث بالهاتف بينما يقف خلف مكتبه الضخم والمنظم بعنايةٍ.

كان مظهر فولسوم بشعره ذا الخُصل البيضاء، ووجهه المسمر بفعل حمامات الشمس الاصطناعية (السولاريوم) وبدلته الداكنة والأنيقة مع قميصه السماوي، وربطة عنقه المتناسقة مع كامل هندامه، لا يتسق مع ذاك الثوب الرمادي للراهب.

«حسناً. أرجو أن تجهزوا السيارة خلال عشرين دقيقةً من الآن» قال فولسوم ثم أغلق الخط. للحظات لمعت عيناه بنظرةٍ مرتابةٍ ثم ما لبث أن تمالك نفسه.

توجهت نظرات الراهب إلى جاك دوفور الذي وقف في منتصف تلك الحجرة الواسعة. إنه تلميذك الذي علمته كيف يجل ويقدر عظمة الخالق. كم أخفقت في ذلك، هذا ما كان يدور برأس هيروتيموس.

دوفور أصبح عالماً وباحثاً، قاده طريقه من قرية كولوبريس الصغيرة في جبال الماورن حيث تلقى علومه الدينية على يد هيروتيموس، إلى جامعة طولون ثم إلى مركز الأبحاث هذا، ومنذ ذلك الحين أصبح البحث في علم الجينات هو حياته.

يبدو أن دوفور قد خسر الكثير من وزنه حتى أصبح جسده نحيلاً على هذا النحو. كان وجهه الأسمر ذو الخطوط الناعمة يرتعش، وكان يمرر أصابعه بحركاتٍ مرتبكةٍ بين خصال شعره المموج.

إلا أن فولسوم كان يحاول إخفاء نزعته إلى العنف.

إنه يعتقد أن الجميع أغبياءٌ، تذكر الأب كلمات جاك الذي كان قد أحضره صباح هذا اليوم.

«إنـك لا تبـدو علـى مـا يـرام» قـال فولـسوم وهـو يحـدق في الوجـه المستدير ذو الوجنات الممتلئة للأب هيروتيموس.

«عينـاك محاطـة بهـالاتٍ سـوداء ووجهـكٌ شـاحب للغايـة. هـل تـشعر بالإعياء؟ هل ترغب بكوبٍ من الماء؟»

حدق الأب هيروتيموس بعيني فولسوم الماكرتين «لقد رافقت لتوي مايك غيلفورت خلال لحظاته الأخيرة»

«إذاً فلقد انتهى كل شيء»

إنك تعلم ذلك جيداً. فكر الأب هيروتيموس.

«إنه حقاً أمرٌ مأساويٌ. يجب أن نتحدث في هذا، ولكن للأسف ليس لدي الآن متسعٌ من الوقت» قال فولسوم برزانةٍ، ثم نظر إلى ساعته الذهبية حول معصمه «في الحقيقة لم يكن علي أن أكون هنا الآن. إنه العمل... إلا أني رأيت أنه من الأهمية بمكان أن أتابع الأمر بنفسي... وربما للمساعدة. الدكتور دوفور هو المسؤول عن هذا المشروع، وربما تريد أن...»

«ألا يهزك موت هذا الإنسان؟» قال الأب وقد تكورت كفاه إلى قبضتين.

«كيف لك أن تظن هذا؟» سأله فولسوم بهدوء. ثم تابع وقد تحولت نبراته فجأةً إلى صوتٍ مرتعشٍ لشدة الانفعال «أن لا أندب وأبكي لا يعني أني لست متأثراً بما حدث، أنا باحثٌ هذا صحيح، لكن عليك ألا تنسى أني وبجانب ذلك فأنا أدير إحدى أكبر شركات صناعة وتطوير العقاقير والمنتجات البيوتكنولوجية، حيث أواجه أيضاً بعض المشاكل الأخرى، ولهذا علي الآن أن أذهب، ولكن كل هذا لا يعني أن مصير ذلك الشاب لم يؤثر بي»

تجمدت عيناهما وهما ينظران إلى بعضهما البعض. كان الأب هيروتيموس يحاول مقاومة الارتعاش في فخذيه، ويشعر وكأن حريقاً قد شب في جسده، ومع هذا كله فهو يحاول كبح رغبته في الانقضاض على فولسوم وإبراحه ضرباً.

في نظر الرب كانوا خاطئين، وفي نظره كانوا على الأقل جبناء إن لم يكونوا مجرمين، وربما من وجهة النظر القانونية، إلا أنه لم يشأ أن يحكم بهذا. ولكن من الناحية الأخلاقية كانوا كذلك، على الأقل حسب تقديره الشخصي.

حتى جاك، الذي اتصل به، والذي كان يعرفه منذ زمنٍ طويلٍ، حيث كان في شبابه يستمع لاعترافات المخطئين ويمنحهم النصيحة، جاك الذي خرج من عالمه الصغير في تلك القرية ليحقق طموحه الكبير في خدمة البشرية، واليوم هو شريكٌ في هذه الجريمة البشعة.

«أنا لا أعرفك، ولا يهمني من تكون وماذا تفعل في هذا العالم، لقد رأيتك في تلك المرة حيث وعدني جاك أن يعرّفني على ذلك الرجل المُلحد الذي... لقد مات الشاب!»

تحولت نظرات فولسوم إلى جاك الذي كان واقفاً وسط تلك الحجرة مرخياً عيناه إلى الأرض، لم يكن باستطاعته مواجهة عنف فولسوم.

«إنها ضربةٌ قاسيةٌ» تردد فولسوم قليلاً «لم تكن متوقعةً فكافة الفحوصات السابقة لم تشر إلى هذا. إننا نعتقد أن الفيروس الذي تم نقله إليه استطاع أن يحدث طفرةً، وتمكن من جسده، وهذا ما أدى إلى ردود فعلٍ غير متوقعة. لقد قمنا بهذه التجربة لآلاف المرات، وكانت دائماً تثبت نجاحاً» قطب فولسوم وجهه «إنه أمرٌ مؤسفٌ حقاً. ولكنه كان على علم بالمخاطر المحتملة، ووافق على خوض هذه التجربة بمحض إرادته»

«هل يمكن للأمر أن يكون بهذه البساطة؟ الفيروسات هي المذنبة؟ أم أنكم لم تقوموا بما كان يتوجب عليكم فعله. كيف لكم أن تستخدموا مسبباً للمرض في العلاج؟ ذلك لو أننا افترضنا أنه السبب بما حدث، ولكن ماذا لو كان السبب بالمواد المستخدمة وليس بالطريقة؟ لقد أخبرتموه بأنها ليست خطرةً»

«أنا لم أخبره بأي شيءٍ. الدكتور (جاك دوفور) هو رئيس هذه المجموعة من الأبحاث ولقد قام بترتيب كافة الأمور مع المريض»

نظرا إلى بعضهما بتحدٍ ثم أشاح فولسوم بوجهه.

«حسب كل ما نعرفه لم يكن ذلك بالشيء الخطير» أصبح صوته هادئاً بعض الشيء «ثم عن ماذا نتحدث الآن؟ تجريب نوع من مجموعة التيلوميراس للإجابة عن أسئلةٍ حول البروتينات المتحكمة بالأنشطة، أم نتحدث عن حقن فيروساتٍ معدية، على أي حالٍ فهذا كله ليس بالأمر المقلق إذا ما نظرنا إلى آلاف المرضى الذين سيصبح لديهم فرصة للتخلص من عنائهم وآلامهم»

ارتعد جسد الأب هيروتيموس، بدا له أنه في المكان الخطأ في عالمٍ ملحدٍ، كم كانت حياته في الدير مع إخوانه بعيدةً عن كل هذا ومليئةً بالرهبة من الرب، لقد شعر وكأنه يدعم الشيطان.

كان فولسوم من أولئك العلماء والباحثين الذين لطالما حاربتهم الكنيسة على مر القرون، والآن هاهم يعبثون بالخليقة بينما يحاولون تغييرها وتحويرها، ماذا كانت العلوم التي نادى بها غاليليو وكيبلر بالمقارنة مع هؤلاء القتلة! في هذه اللحظة شعر الأب بالندم على أن الكنيسة لم تنهي عملها بشكلٍ جذريٍ في القرون الماضية.

ولكن ما يزال هنالك أملٌ، هكذا فكر الأب هيروتيموس، فمنذ أكثر من عشرين عاماً تحدث هؤلاء الملحدين عن القدرة العلاجية للجينات، وأيقظوا آمالاً لم يستطيعوا تحقيقها حتى الآن. أين الناس الذين تم شفائهم باستخدام علم الجينات؟ هل كانت تلك إرادة الله أن يفشلوا في مساعيهم؟ هل كان ذلك الشاب أحد الأضاحي على طريق الرب؟ تمسك الأب بداخله بهذه القشة.

«ماذا أخبرك الدكتور دوفور؟» سأله فولسوم

تردد الأب مجدداً، متحذراً من الوقوع في الفخ.

ثم تابع فولسوم قائلاً «كما تعلم فإن هذه الأمور تخضع هنا للسرية التامة، فالعمل في العلم يسير كما الحال في باقي مجالات الحياة، ففي هذه الحالة أيضاً يشكل المال نسبة ثمانين بالمائة من النجاح، ربما تدرك أن المنافسين يترقبون خطأنا . لقد أكد لي الدكتور دوفور أنك الشخص المناسب لحفظ الأسرار... الطائرة جاهزة علي السفر الآن إلى بوستن، ربما نتحدث مرة أخرى في الأمر، ولقد فكرت بالتبرع بمبلغٍ مناسبٍ لديركم كعربون شكرٍ على ما قمت بتقديمه لنا » ثم دفع فولسوم بالشيك على السطح الأملس لطاولة المكتب فانزلق باتجاه الأب هيروتيموس الذي نظر بدوره متفاجئاً بالمبلغ الذي كُتب فيه، إنه بالضبط ما يحتاجونه لإعادة ترميم الكنيسة الصغيرة.

استدار فولسوم حول الطاولة وتقدم من الأب «دعنا نتفق على أن موت ذلك الشاب ما هو إلا إخفاقٌ صغيرٌ على طريق النجاح العظيم لعلم الهندسة الوراثية»

أخذ الأب هيروتيموس الشيك، وكوره بين كفيه ثم تقدم من فولسوم وقبض بيده اليسرى على رقبته، فبدأ فولسوم ينتفض تحت قبضة الراهب، الذي دفع بالشيك بيده اليمنى إلى داخل فمه.

الفصل السادس

التوسكانا

ليلة الخميس إلى الجمعة

«لا أستطيع الاستمرار طويلاً بدون العقاقير، أحتاج قوتي لإنهاء هذه المرحلة، سيعتني بونتي بكل شيءٍ»

لهث فورستر وهو يحاول النهوض، فأسرع الخادم لمساعدته، إلا أنه أبعده وبدأ يلعن، ثم ما لبث أن عاد وتقبل مساعدة الخادم له، والذي قام بسنده أثناء مغادرته للغرفة.

وقف كريس ومدد جسده. بعد قليلٍ دخل بونتي إلى البهو مرتدياً بذلةً داكنةً كعادته، رأى كريس الانتفاخ تحت سترته.

«أتحمل سلاحاً؟» سأله كريس

«إنك تعلم بأني لا أستغني عنه أبداً» لمعت عيناه الداكنتين، فيما ارتسمت إبتسامةً مرتبكةً على شفتيه.

مسح الإيطالي بكفيه على شعره ثم قال: «لقد تفاجئت اليوم عندما أخبروني بوجودك على البوابة الرئيسية»

«ماذا تعني؟»

إبتسم بونتي إبتسامةً خفيفةً، ثم صب بيدين هادئتين كأساً من

النبيذ الأحمر ورفعه باتجاه كريس. «إنك جديدٌ في هذه اللعبة، أنت الحركة الأخيرة في لعبة الشطرنج التي يحاول الكونت أن يلعبها وحده»

كان أنتونيو بونتي الحارس الشخصي لتاجر التحف، والذي كان فورستر يأتمنه على حياته.

«هل تحاول القول أن فورستر لم يعد يثق بك؟»

هز بونتي رأسه نافياً بشدةٍ «لم أقصد هذا مطلقاً، لكنه أصبح في الفترة الأخيرة يميل إلى اتخاذ قراراته دون إعلامي بما ينوي القيام به»

«وهل كان يتوجب عليه فعل ذلك؟»

«من الأفضل لو أنه فعل» أخذ بونتي رشفة من النبيذ، ثم عبّر بوجهه عن إعجابه بالنوعية. «على الأقل مازال الرجل يتمتع بحاسة تذوقٍ جيدة، إنك تعلم أنه في عملنا كلما حصلت على معلوماتٍ أكثر استطعت إتخاذ الاحتياطات المناسبة بشكلٍ أفضل، فعملية الحراسة تستوجب تعاون جميع الأطراف»

«هل هو في خطرٍ؟»

«ليس أكثر مما كان عليه في السنوات الماضية» فكر بونتي «في الواقع أقل، فإنه لا يخرج كثيراً بسبب مرضه، إنه يعيش في عزلةٍ، فلقد أوقف أعماله الكبيرة، فالرجل يستعد حقاً لمواجهة مصيره، من ذا الذي يريد إيذاءه في مثل هذه الحالة؟»

«ربما بإمكانك إطلاعي عما يريده مني؟»

«أردت لتوي معرفة ذلك منك، إنه لم يخبرني بأمر قدومك، كما أنني لم أتمكن من معرفة المهمة التي ينوي إسنادها إليك»

«ليس لدي أي معلوماتٍ لحد الآن، سوى أنه يريد أن يكفر عن ذنبٍ ما»

قهقه بونتي «هذا العجوز، إنه لا يثق بأحدٍ»

تحولت نظرات كريس من على وجه الإيطالي المستغرق في التفكير إلى يديه، كانت نحيلةً لكنها قويةٌ ومجذبةٌ في آنٍ معاً. لفت نظر كريس حركة يد بونتي المستمرة على ساق كأس النبيذ. «لماذا أنت هنا يا تسرنت هاين؟»

«مهمة نقلٍ يا بونتي»

«هذا الأمر مرتبٌ مسبقاً. نحن لا نحتاجك لهذا»

هز كريس كتفيه، ثم تحرك لمغادرة الغرفة «هذا ما جاء في استمارة طلب المهمة»

❖ ❖ ❖

بالرغم من نومه القليل في الأيام الماضية، إلا أن كريس أصبح بلحظةٍ في قمة اليقظة، كان يرقب بعينانٍ متنبهتانٍ أي حركةٍ، وكان يحاول سماع أي صوتٍ يمكن أن يفسر له سبب حالة قلقه تلك.

إستدار إلى الجانب الآخر، ونظر إلى المنبه الصغير الذي دائماً ما يحمله معه في سفره، وكانت العقارب تشير إلى الساعة الثالثة فجراً تقريباً.

تحول نظره إلى النافذة المفتوحة، كانت غرفته تقع في الطابق الأول في نهاية الفيلا، في الجناح المخصص للضيوف، ولم تكن بعيدةً عن الجهة الأمامية لجدار المبنى الخارجي.

و فجأةً سمع صوت خطواتٍ مسرعةٍ تمر على الحصى في الحديقة. في الخارج شخصٌ أو شيءٌ يتحرك، وما المشكلة؟ ربما أحد رجال الحراسات، بالإضافة إلى وجود مركز المناوبة الصغير والذي كان مشغولاً ليلاً نهاراً، ومزوداً بكاميرات مراقبةٍ منتشرةٍ في كافة زوايا المبنى.

إلا أن الحــراس يتحركـون عــادةً بـشكلٍ مختلـف، فكـر كـريس، إنهـم يمـشون بخطـواتٍ واثقـة، ويتعمـدون إسمـاع ضـربات أقـدامهم لأي شـخصٍ يحاول الاقتراب من المبنى، ولا يمشون بخطوات سرية وهادئة.

سمع صوتاً مكتوماً. شتيمةً خافتةً ثم طقطقةً.

تسحّب كريس من على السرير، وتوجه بهدوءٍ نحو النافذة، ثم إنحنـى بحـذرٍ مطـلاً رأسـه، فـرأى الممـرات المغطـاة بالحـصا النـاعم تـبرز مـن بـين أحواض النباتات والورود والأعشاب متلألئةً تحت أضواء النجوم. لم يلحظ أي حركةٍ، تسمر في مكانه وانتظر، لا شيء.

وبعد فترةٍ وجيـزةٍ سمـع صـوتاً، إنـه آتٍ مـن الجهـة الأماميـة للفـيلا، والتي لم يكن بإمكانه رؤيتها من مكانـه. كـان الـصوت أشـبه بـسعالٍ خفيـفٍ لمرةٍ واحدة.

لقد تعرف على صوت السعال ذاك.

ارتدى بنطالـه وقميـصه القطـني، وانتعـل حذائـه بخفـة، ثـم بحـث في حقيبته عن مصباح الجيب الذي كان يحمله معه في سفراته طوال السنوات الثلاث الماضية.

تقدم كريس بخطواتٍ حذرة، وخرج من بـاب غرفتـه متسللاً إلى الرواق الخـارجي الـذي كـان مـضاءً بمـصابيح طـوارئ صـغيرةٍ ذات لـون رمـاديٍ. أسـرع بإتجـاه الـدرج وبـدأ ينـصت، لم يـتمكن مـن سمـاع أي صـوت، فلقـد كـان الهـدوء التام يسيطر على المكان، كما يجب أن يكون الحال في مثل هذا الوقت.

إنحنـى ليطـل مـن فـوق سـور الـدرج، ليـتمكن مـن رؤيـة البـهو بـشكلٍ أفضلٍ، ولكن لا شيء. ثم سمع صوت صريرٍ خافتٍ صادرٍ مـن بـاب الـدخول الذي كان يقع أسفل منه تماماً، والذي لم يكن باستطاعته رؤيته مـن مكانـه، كـان صـوت خـفٍ مطـاطيٍ يـسير بخطـواتٍ سـريعةٍ ورشـيقةٍ فـوق الأرض الحجرية.

تراجع بشكلٍ غريزيٍ إلى الخلف حين رأى خيط من الضوء يشق البهو لفترةٍ وجيزةٍ، ثم ما لبث أن اختفى، وكأنه إشارة مورس ضوئية. نزل كريس على الدرج بهدوءٍ وحذرٍ، كان بصيصٌ من الضوء ينبعث من تحت عتبة الباب الخاص بغرفة الحراسة، فأسرع باتجاهه وفتح الباب.

كانت الحجرة بحجم غرفة جلوسٍ ذات حيطانٍ بيضاءٍ، في وسطها طاولة التحكم، وعلى طاولةٍ أخرى اصطفت شاشات المراقبة والتي كانت تبث صوراً من مختلف أرجاء المبنى، هناك جلس رجلٌ يراقب تلك الشاشات.

دخل كريس إلى الغرفة، فاستدار ذالك الرجل باتجاهه.

«ماذا تفعل هنا؟» سأله أنتونيو بونتي

«و أنت؟» أجابه كريس، بعد أن أخفى تفاجئه.

«أنا؟ أقوم بعملي طبعاً» قال بونتي بصوتٍ خافتٍ، وبشكلٍ عمليٍ وخالٍ من أي انفعالٍ «لقد قمت بجولةٍ، وماذا تظنني رأيت؟ غرفة حراسة خاليةً تماماً من الحراس، وكافة أجهزة الإنذار معطلةٌ... ولصٌ!»

حدق كريس بشاشات المراقبة «إني لا أرى أي لصٍ»

«اللعنة!» استدار بونتي مجدداً نحو الشاشات «لقد كان لتوه في اللقطة سبعة»

«على أي شاشةٍ؟»

أشار بونتي لإحدى الشاشات، فرأى كريس باباً مفتوحاً داخل المنزل.

«أين يقع هذا الباب؟»

«إنه بابٌ يصل بين قسمين منفصلين في القبو، إنه بمثابة تأمينٍ إضافيٍ لمنطقة (فورستر) المحظورة، ويؤدي إلى بابٍ خارجيٍ صغيرٍ يوجد في الجهة الأمامية للمنزل»

تذكر كريس الصوت الذي سمعه سابقاً.

«ألا يوجد كاميرات مراقبةٍ على هذا الباب؟»

«بالطبع. الشاشة رقم ستة»

رأى كريس باباً منخفضاً، بدا جزءه الأعلى على شاشة المراقبة، وكان يبدو مغلقاً.

نظر كريس إلى الشاشة التالية، فرأى شبحاً أسوداً يقف أمام الباب الرئيسي للمبنى، وكان يتحرك من حين لآخر. بينما كانت شعلةٌ صغيرةٌ تتوهج بيده بين الفينة والأخرى، وكأنها سيجارةٌ مشتعلةٌ.

«البوابة الرئيسية مؤمنةٌ» دمدم كريس

«المواقع الأخرى أيضاً» قال بونتي، بينما كانت عيناه تتنقل بين الشاشات.

«ثمة شيءٌ مريبٌ يحدث» هز كريس رأسه مستنكراً «لا بد وأن هذا الشخص يعلم أن المنزل مؤمنٌ على مدار الساعة. لا يمكن لأحد أن يكون بهذا الغباء»

«إنه ليس غبياً، فهذا كله مخططٌ مسبقاً، كافة أجهزة الإنذار معطلةٌ» ثم أشار بونتي إلى زر التحكم بأجهزة الإنذار وكان يضيء باللون الأحمر.

نفخ كريس خديه بالهواء، ثم أطلقه بشكلٍ متقطعٍ من أنفه.

«ربما كان هنالك من يساعده من الداخل»

«إخرس تسرنت هاين!» همس بونتي غاضباً «أنا أقوم بعملي، وأنت تقوم بعملك بغض النظر عن نوعه، لقد أخبرتك سابقاً أن الغرفة كانت خاليةً تماماً، وأنا لا أعلم أين يتجول رَجُلي، أين هو هذا الأحمق؟»

«أطلق صفارة الإنذار» قال كريس

«لا» هز بونتي رأسه رافضاً الفكرة «كان يتوجب على مارسيلو غروستو أن يجلس هنا، إن أطلقت صفارة الإنذار الآن فسأقوم بتنبيه المتسلل أيضاً، لذلك سنقوم بحل هذه المشكلة بطريقةٍ مختلفةٍ» سحب بونتي

مسدسه ذو الخمسة عشر طلقة من نوع (بيريتا كورغار) «سوف أقوم بالقبض على هذين اللصين بنفسي»

«هل لديك واحد لي؟...»

بحث بونتي حوله، ثم فتح عدة أدراجٍ.

«هناك (بيريتا 92). إنه مسدسٌ خاصٌ برجال الشرطة على الأقل، في الماضي حين كنت ما أزال أعمل في هذا المجال» ألقى بونتي بالسلاح إلى كريس الذي التقطه بمهارةٍ وقام بتجهيزه.

«أنت لست مضطراً لـ...»

«أعلم»

«إنه في القبو، إنه يعلم تماماً ماذا يريد وإلى أين عليه أن يتوجه»، ثم أردف بونتي قائلاً «عليك أن تنتظر هنا وتراقب الشاشات، بينما سأحاول أنا إخراجه من القبو باتجاه البهو العلوي، وعندما تراه على إحدى الشاشات عليك الخروج لمحاصرته، أما الآن فعليك أن تبقى أمام شاشات المراقبة، وعندما يصعد درج القبو باتجاه البهو فيمكنك رؤيته على الشاشة رقم 13» ثم غادر بونتي الحجرة مسرعاً.

جلس كريس أمام شاشات المراقبة، وقام بوضع المسدس ومصباح الجيب على الطاولة. كانت كل ثانيةٍ تمر عليه في حالة الانتظار تلك وكأنها دهرٌ من الزمن. إزداد هرمون التوترِ في دمه مما جعله يشعر بطول الوقت، وقد زاد الهدوء المطبق الأمر سوءً. بقي كريس ينتظر أن يسمع أي إشارةٍ كالصراخ أو الأعيرة النارية أو حتى تبادل الشتائم باللغة الإيطالية بين اللص وبونتي، إلا أن شيئاً من هذا لم يحدث. كذلك لم يكن يرى شيئاً غير إعتياديٌ على شاشات المراقبة، لقد أراد بونتي أن يباغت المتسلل من الخلف ثم يقوم بليّ ذراعه، ولكن هذا لم يحدث حتى الآن. أين اللص؟ بل أين رجل بونتي؟ لا يمكن أن يكون قد تبخر.

أين بونتي بحق الجحيم؟

إنحنى إلى الأمام للاقتراب من إحدى الشاشات التي ظهر عليها جسمٌ يتحرك وكأنه شبحٌ، إرتطم جبينه بذلك الحبل الأسود الذي تدلى بنفس اللحظة من الأعلى أمام وجهه.

كان الحبل ذو ملمسٍ ناعمٍ وباردٍ، ثم سُحب فجأةً إلى الأعلى شاطباً جلد جبينه من ناحيتين، ثم ظهر الحبل مجدداً وقد تم رميه هذه المرة بزاويةٍ أبعد من ذي قبل.

إرتمى كريس إلى الخلف، ورفع يده اليسرى إلى الأعلى لافاً قبضته أمام رقبته لحمايتها. شق السلك المعدني جلد قبضة كريس بلا رحمةٍ. هب كريس واقفاً ليقاوم الضغط، تحلّق السلك المعدني حول رقبة كريس من الجانبين، في البداية شعر ببرودة المعدن ثم شعر بحرقةٍ شديدةٍ حين بدأ المهاجم بتحريك السلك يميناً ويساراً وكأنه منشارٌ. صرخ كريس وأمسك بيده اليمنى بطرف الطاولة التي كان عليها مصباح الجيب خاصته. نظر إلى الأعلى فلم يستطع رؤية شيءٍ سوى وجهٌ منتفخ كالبالونٌ كان يطل فوق رأسه مباشرةً، كما تمكن من رؤية ثقوب الأنف والعينان، في حين كانت أكتاف وساعدي الرجل مشدودةً.

ضغط كريس زراً صغيراً كان مثبتاً على مصباح الجيب، ثم أرجع يده اليمنى إلى الوراء حتى أوقفها ظهر الكرسي عن الحركة، غرس الشفرة التي كانت مخبأةً بمصباح الجيب في فخذ المهاجم، كانت الشفرة مشحوذةً من الجانبين فقطعت اللحم وكأنها مشرط جراحٍ.

تراجع المهاجم إلى الوراء فخف الضغط عن عنق كريس، ثم أرجع يده إلى الخلف مجدداً وسدد ضربة ثانية للخصم، هذه المرة استطاع المهاجم القفز إلى الخلف والهروب من الضربة القاسية، وفي نفس الوقت زاد ارتخاء الحبل الملتف حول رقبة كريس، فتحرك إلى الأمام ثم تراجع بسرعة إلى

الخلف ودفع بالكرسي باتجاه خصمه. أفلت السلك من يد المهاجم فتحرر عنق كريس تماماً فرمى بمصباحه على الطاولة وتناول مسدسه.

شعر كريس فجأةً بدوارٍ مريعٍ، فلقد تلقى ضربة من الأعلى وارتطمت مؤخرة المسدس بصدغه الأيسر.

بصمتٍ سقط كريس على الأرض مغماً عليه.



شعر كريس ببرودةٍ ورطوبةٍ واستغرق الأمر ثوانٍ حتى أدرك أن أحدهم يقوم بمسح وجهه بمنشفة مبللة.

إبتسم له بونتي إبتسامةً ساخرةً.

«مرحباً بك أيها البطل بين الأحياء»

«لا تكن حساساً لهذه الدرجة، إنه على ما يرام»

نظر كريس إلى الأعلى فرأى فورستر. كان تاجر التحف يقف متكئاً على عكازه، ويحدق بنظرات جامدة إلى كريس الممدد على الأرض، وكان قد لبس ردائه الصباحي على عجلٍ، فدس يده اليمنى في الكم الأيمن بينما تدلى باقي الرداء خلف ظهره.

أخرج كريس زفرةً من الأعماق، فلقد كان الألم في جبهته شديداً جداً. فتح عيناه بقوةٍ حتى لا يفقد وعيه مجدداً. للحظاتٍ ظن أنه يعاني من ألمٍ في الأسنان حيث أن نبضاتٍ موجعةً كانت تنتشر في كامل وجهه حتى الفك السفلي.

«كم كانت مدة الإغماء؟» دمدم وهو يحاول الوقوف مستنداً على حافة طاولة شاشات المراقبة.

«لا أعلم متى حدث ذلك بالضبط» قال بونتي «إلا أني كنت خارج الحجرة لأكثر من ساعةٍ»

«و متى وجدتموني؟»

«منذ دقيقتين»

«وماذا فعلت خلال هذه الفترة؟»

هز بونتي كتفيه وأشار إلى رأسه، حيث كان هناك ورمٌ أزرقٌ صغيرٌ فوق عينه اليسرى تماماً.

«لقد تمكنوا مني أنا أيضاً، وبمجرد خروجي من هذا الباب»

هز كريس رأسه «هل حقاً بإمكانهم التغلب علينا بهذه السهولة؟»

«كانت خدعةً من النوع التقليدي، قاموا أولاً بإخراجي من الغرفة ثم انفردوا بك»

«وهل تمكنت من رؤيتهم؟»

«أحدهم نعم، مجرد شبحٍ ثم تلقيت الضربة» أردف بونتي مبرراً «كان علي أن آخذ بنصيحتك وأطلق صفارة الإنذار. ربما تمكنا حينها من القبض عليهم»

«وماذا عن رَجُلك؟»

«مارسيلو غروستو؟» تلفت بونتي يميناً ويساراً ثم همس قائلاً «إختفى تماماً كما المتسلل، لا بد وأن غروستو كان متورطاً معه، فلقد وجدنا سلماً حديدياً عند سور الحديقة»

«لم يكن هذا ليحدث لو أنهم لم يعطلوا أجهزة الإنذار»

«وماذا أخذوا معهم؟»

نظر فورستر إلى كريس بنظراتٍ خاليةٍ من أي تعبير. فكر كريس، كيف يمكنه أن يكون على هذه الدرجة من عدم المبالاة. فجأةً بدأ العجوز بالقهقة «لا شيء، لا شيء مطلقاً، لابد وأنهم كانوا يهدفون إلى سرقة

مقتنياتي الثمينة الموجودة في الخزنة، ويبدو أنهم كانوا يعرفون الرقم السري، وإلا كان عليهم أن يفجروا لغماً ليتمكنوا من فتحها»

«لا أفهم شيئاً» قال كريس وهو يضغط بيده اليسرى على جبهته لتخفيف الألم.

«لم يتمكنوا من الدخول أصلاً» إبتسم فورستر بنشوة المنتصر، بينما كان يطرق بعصاه على الأرض وكأنه يحاول هرس رأس أفعى «لقد قمت بتغيير الرقم السري منذ يومين وبغض النظر عن هوية من حاولوا الدخول فإنهم قد اختاروا التوقيت الخاطئ» ضحك العجوز برضا، وأشار إلى كريس بالوقوف.

بينما كان كريس يساعد فورستر على الخروج من الغرفة، كان يراقب بونتي الذي كان يفرك بيده على فخذه وفي عينيه نظراتٌ غريبةٌ.

فكر كريس... هل هي نظرات كراهيةٍ... ربما!

الفصل السابع

التوسكانا

الجمعة

عندما تسلل الصباح إلى سماء هذا اليوم، كان فورستر وكريس يجلسان في الفناء الداخلي كالعادة، وكأن شيئاً لم يكن.كان كريس مستغرباً من تصرف فورستر الذي رفض استدعاء الشرطة «لم يتم سرقة شيءٍ، وفي هذه الظروف لسنا بحاجة للمشاكل، ستفهم مقصدي عما قريبٍ» قال تاجر التحف محاولاً التهرب من إلحاح كريس لإقناعه باستدعاء الشرطة، ومتجنباً في نفس الوقت الحديث عما حدث في الليلة الماضية.

كان بونتي مشغولاً طوال اليوم بالبحث عن أدلةٍ وخيوطٍ يمكن أن ترشده إلى الفاعل، وكذلك كان يقوم بالتأكد من أن كافة أجهزة الإنذار عادت إلى العمل بشكلٍ تامٍ.

خلال هذا اليوم تقابل كريس مع بونتي لثلاث مراتٍ، إلا أن الأخير كان منطوياً على نفسه ومعكر المزاج، عزا كريس ذلك لتورط أحد رجال بونتي وهو (ماركو غروستو) في هذه الحادثة واختفائه هو أيضاً مع المُتسلل.

«إنك تعلم أني تاجر تحفٍ» قال فورستر وهو يمضغ قطعةً من لحم الخنزير البري، ويرمق كريس بنظراتٍ فضوليةٍ.

«نعم»

«وماذا تعرف أيضاً؟»

«لا أعرف المزيد» شعر كريس بنظرات فورستر المتيقظة، لابد وأنه قد إبتلع كميات كبيرة من العقاقير حتى يبدو بهذه الحالة الصحية الجيدة على عكس ما كان عليه الليلة الماضية «إنك وحسب معرفتي تاجر تحف ناجح جداً، بالإضافة إلى أنك ثريٌ وتعيش في منزلٍ يطل على (بحيرة جنيف) وآخر في (التوسكانا) و... حسناً، هذا كل شيءٍ» توقف كريس عن الكلام، تابع مضغ الطعام وهو يفكر إلى ماذا يرمي فورستر بسؤاله ذاك؟.

«كل ما قلته صحيحٌ» إبتسم فورستر وإستمر في تناول طعامه «لكني أيضاً مجرمٌ، آخر سلالة المجرمين على مر ثلاثة أجيالٍ وحفيدٌ لقاتل»

نسي كريس المضغ، وحدق بوجه الرجل العجوز.

«بالإضافة إلى أن عائلتي عاشت لأجيال تحت اسم مستعار»

أعاد كريس قطعة اللحم التي كانت معلّقةً بطرف شوكته إلى الطبق، ونظر إلى تاجر التحف الذي كان يلعق أطراف أصابعه المبللة بزيت الزيتون الصافي.

«لقد جمعت كل هذه الثروة عن طريق القتل»

«هل قمت بـ...؟»

«أنا؟ لا.لم أحتج لذلك، لقد قمت بدفع الرشاوى، كنت أطلب التحف والآخرين يقومون بإحضارها، ربما عن طريق السرقة أو القتل، ولكن أنا شخصياً لم أكن مضطراً لتلويث يدي»

مسح كريس يداه ببنطاله.

«أعتقد أنه علي الذهاب الآن» ثم نهض من على كرسيه، كان جسده قد تصلب من الجلوس لفترةٍ طويلةٍ وكانت رقبته تؤلمه.لم يكن ليتخيل أنه سيكون في مثل هذا الموقف القذر. «أخشى أن أكون قد خُدعت بك»

«إنه الضمير إذاً؟ هل عاد الشرطي القديم إلى الحياة مجدداً؟ اعتقدت أنك نسيته منذ زمنٍ طويلٍ» قال فورستر بنبرةٍ فيها شيءٌ من السخرية.

«أنت تعلم جيداً،أن ليس لذلك علاقةٌ بهذا» شعر كريس بالندم على أنه قد أخبر الكونت بالكثير عن ماضيه.ثم استدار للذهاب.

«وكذلك موقفك وتصرفك تجاه ما حدث ليلة البارحة لم يرق لي. الأمر يدعو للشك!»

«إجلس» قال فورستر بصوتٍ مبحوحٍ وكأنه غرابٌ يستعد لإبلاغ خبرٍ مشؤومٍ «أنت شخصٌ حساسٌ جداً، وهذا لن يساعدك في تحمل مصاعب الحياة، تذكّر أنك بحاجةٍ إلى المال لتنقذ شركتك الصغيرة،فأنت على وشك أن تخسر كل شيء»

«هذا صحيحٌ،إلا أني لن أقوم بأعمالٍ مشبوهةٍ لتحقيق ذلك» قال كريس، ثم ضغط شفتيه على بعضهما وهو ينظر إلى فورستر بحقد.

«آه، إنها المبادئ والأخلاق إذاً» هز العجوز رأسه متفهماً «إنه أمرٌ يدعو إلى الإعجاب، وأنا أحسدك على هذه المبادئ» إبتسم العجوز، ثم أردف «لكنك متعجلٌ جداً،فأنا لن أطلب منك فعل أمرٍ مشبوه»

تردد كريس، هل كان الرجل يمازحه فحسب؟ لقد حدث ذلك له مراراً عندما كان يستفزه ذلك العجوز ثم يضحك مستمتعاً، وكان كريس لا يحب ذلك أبداً، ولكن إن سارت الأمور هذه المرة بشكلٍ سيءٍ فإنه سيخسر الكثير، إضافة إلى ذلك فإن فورستر دعمه وساعده كثيراً.جلس كريس مبرراً لنفسه أن بإمكانه الذهاب في أي وقتٍ يشاء.

«منذ صغري لم أعرف سوى مبدءٍ واحدٍ وهو المال، وهذا ما كان عليه أبي وجدي أيضاً، صدقني أنه من الصعوبة أن يتقبل المرء أي مبدأ آخر إن أمضى حياته على هذا النحو، وخصوصاً عندما يأتي المرء من ذلك الوسط الذي نشأت به»

«و ما طبيعة ذلك الوسط؟»

«مليئٌ بالطين والقذارة.هل يمكنك تخيل ذلك؟»

«كلا»

«لكنه كذلك، على الأقل من الناحية الأخلاقية، على أية حالٍ أنا أراه على هذا النحو»

هل ينتظر هذا العجوز المتعجرف الغفران؟ مستحيلٌ.

لقد أتى كريس إلى هنا ليؤدي مهمة نقل روتينية كالعادة، إلا أن الأمر يبدو مختلفاً هذه المرة.ألم يقل فورستر أنه يريد التكفير عن ذنبه!

«إن كان لديك ما تقوله لي فإني سأنصت إليك جيداً،ولكن لا تحاول أن تسخر مني وإلا سأذهب»

ثم عاد إلى الوراء مستنداً إلى ظهر الكرسي الخشبي القاسي.

«ما رأيك؟ من أين حصلت على ثروتي؟ وكيف بدأت؟»

هز كريس كتفه غير مبالٍ فلم يرقه ذلك الحوار منذ البداية، ولم تكن لديه الرغبة بتخمين ما قد جرى في حياة فورستر الماضية.

«لقد قمت بالإتجار بكافة أنواع التحف الأثرية.إلا أني كنت خبيراً بنوعٍ معينٍ منها، تعال معي وسوف تدرك لماذا لم أقم الليلة الماضية باستدعاء الشرطة »

سار كريس خلف فورستر عبر الفناء الداخلي مروراً بالبهو الكبير، ثم نزولاً على الدرج الرخامي بإتجاه القبو.كان العجوز يسير بخطواتٍ بطيئةٍ ممسكاً بيده اليسرى بسور الدرج ومتكئاً بيده اليمنى على عكازه، عندما وصلا إلى ممر القبو كانت الأضواء ذات الحساسات تضيء ذاتياً كلما مرا بجانب إحداها.كان كريس قد رأى هذا الممر على شاشات المراقبة في الليلة السابقة، لقد كانا في ذلك القسم من القبو الذي أطلق عليه بونتي بالأمس

إسم (منطقة فورستر المحظورة) وفي نهاية الممر رأى كريس ذلك الباب الذي أراد المتسلل فتحه.

كان كلٌ من السقف والأرضية مغطى بألواحِ الخشب الداكن، ورغم وجود الإضاءة إلا أن كريس تخيل نفسه في تابوتٍ كبيرٍ.

طرد كريس تلك الفكرة من مخيلته، وأخذ يتأمل اللوحات الضخمة المعلقة على الجدران، كانت كلها ترمي إلى ذات الموضوع بأشكالٍ مختلفةٍ، فكلها رسوماتٌ تعبر عن روايات بدء الخليقة.توقف كريس أمام إحدى اللوحات التي كانت تمتلئ برسوماتٍ لأمواجٍ عظيمةٍ.

«إنه الطوفان العظيم، بعده بدأ كل شيءٍ من جديدٍ، وهو مذكورٌ في كل ثقافات العالم تقريباً إلا أن لا أحد يصدق بوجوده بشكلٍ قاطعٍ»

«شيءٌ مؤثرٌ حقاً» قال كريس الذي كان يجهل الكثير عن تلك الروايات، كل ما كان يعرفه عن قصة الطوفان العظيم المذكوره في العهد القديم، أنه جاء لمعاقبة البشرية، وأن نوحاً قام بإنقاذ زوجٍ من كل كائنٍ حيٍ على الأرض.

«هل أنت متدينٌ؟» سأل كريس

«أنا؟ لا.هل تسألني لأجل هذه اللوحات؟» لم يُلق فورستر حتى بنظرةٍ على تلك اللوحات، ثم تابع قائلاً «منذ أجيالٍ هجرت عائلتي الإيمان بالله وكل ما تقدمه الكنيسة، لقد أضاع جدي إيمانه بالله منذ الحرب العالمية الأولى، أنا أستمتع فقط بإقتناء هذه اللوحات، حتى وإن كانت مدفونةً في هذا القبر»

«يالها من طريقةٍ غريبةٍ لإشباع رغبة التملك!» قال كريس وتابع سيره

إنتهى طريقهما أمام لوحٍ خشبيٍ، فقط تلك القبضة الصغيرة المثبتة عليه كشفت أنهما يقفان أمام بابٍ على يمينه عُلّقت لوحةٌ لرجلٍ يجلس على صقرٍ، ويهبط من السماء بإتجاه الأرض، بيده اليمنى كان يحمل غصناً أخضراً بينما كانت تنتظره أفعى على الأرض.

وقف كريس يتأمل تلك اللوحة، إلا أن صوت فورستر المبحوح أعاده إلى التَنبه مجدداً «عليك أن تجره، فأنا لم أعد قادراً على ذلك»

أمسك كريس بالقبضة الذهبية للباب وجره جانباً.و خلفه كان يوجد بابٌ ضخمٌ من الصلب ذو لونٍ فضيٍ لامعٍ.تنحى كريس جانباً، وتقدم فورستر خطوتين إلى الأمام حتى أصبح مقابل لوحة المفاتيح الإلكترونية المثبتة على الباب الحديدي.هدئت أنفاس فورستر، وبدأ بإدخال الأرقام السرية الستة، شق الصوت الصادر إثر ضغطه على المفاتيح الرقمية الهدوء الذي كان يخيم على المكان.إبتسم «و كأني كنت أعلم ذلك.لقد قمت بتغيير الأرقام السرية منذ يومين فقط، الحقيقة أنه لم يكن أحداً سواي يعرفها، ولكن من يدري.»

فجأةً إنزلق الباب بهدوء إلى داخل الغرفة التي بدت مظلمةً، ثم ما لبثت أن أضاءت بشكلٍ ذاتيٍ فوراً.إستند فورستر على عكازه ثم دخل الحجرة التي كانت متوسطة الحجم، بدا لكريس للوهلة الأولى أنه يدخل إلى معبد، كانت جدرانها مغطاةً بأقمشةٍ حمراء اللون، بينما انبثقت أنوار المصابيح من السقف، وسُلط كلٌ منها إلى إحدى الفاترينات الزجاجية المنتشرة في أرجاء الغرفة، كان منظر كل من الفترينات تحت تلك الإضاءة يجعلها تبدو وكأنها تقف تحت أشعة الشمس الساطعة، بينما كانت بقية أجزاء الغرفة معتمةً نسبياً.

«بإمكانك إلقاء نظرةٍ على الموجودات» ثم تقدم فورستر من إحدى الفاترينات، وبدأ يحدق عبر الزجاج. «كلها مقتنياتٌ ثمينةٌ، إنها الخطيئة التي أسعى للتكفير عنها»

تردد كريس قبل أن يدخل الحجرة، للحظات انتابه شعورٌ بأنه سيسلك طريقاً لا رجعة منه، هز رأسه طارداً تلك الأفكار، ثم تقدم باتجاه إحدى الفاترينات.اثنتين منهما احتوتا على ألواحٍ طينيةٍ، وبجانبها كانت

هنالك أختامٌ حجريةٌ مدورةٌ. في الفاترينا التالية كانت هنالك ثلاثة قطعٍ أثريةٍ منقوشةٍ إحداهما كانت تمثل طقوس تقديم القرابين، بينما كانت القطعتان الأخريان تمثلان مناظر لساحات قتالٍ يقود فيها الملك المظفر جيوشه الجرارة.كانت فاترينا أخرى تحتوي على تماثيل متعددةً، وكذلك على أوتادٍ طينيةٍ سميكة، بينما امتلأت أرفف الفاترينا التالية بالرمال الناعمة والتي مُددت عليها ثلاثة عظامٍ، تفاجأ كريس بهذا المنظر.

«تعال إلى هنا» صاح فورستر بحماسٍ، بينما كان يستند على عكازه، وينظر إلى داخل إحدى الفاترينات.وقف كريس إلى جانب العجوز، الذي فتح باب إحدى الفاترينات، ثم أخرج منها لوحاً طينياً بحذرٍ شديدٍ.كان فورستر يبتسم معجباً بنفسه.

إنها الكتابة المسمارية..هذا ما خطر ببال كريس.

ألواحٌ صغيرةٌ من الصلصال نقشت عليها رموزٌ قديمةٌ جداً، لم يكن لشخص غير مطلعٍ أن يتعرف على هذه الرموز، شبهها كريس بطريقة (البيكتوغرام) الرسم التخطيطي، والذي يستخدم اليوم لتفسير بعض التصورات الإنجيلية، بالطبع كان هذا التفسير مبسطاً لأنه كان يعلم جيداً أن هذه الرموز كانت تشكل مجموعةً متكاملةً من النصوص.

«هناك في الخلف» قال تاجر التحف مشيراً إلى إحدى زوايا الغرفة.

نظر كريس بالاتجاه الذي أشار إليه العجوز، فوجد طاولةً أمامها مقعدٌ جلديٌ وثيرٌ.أحضرهما ووضعهما حيث أراد فورستر.بإيماءة أخرى لفت فورستر نظر كريس إلى الزجاجة المكبرة الموجودة على أحد الأرفف، وبعد أن أحضرها أشار الرجل إلى مفتاحٍ كهربائيٍ مثبت على الجدار، وعندما ضغطه كريس أضاء مصباحٌ قويٌ فوق الطاولة مباشرةً. وأخيراً طلب منه فورستر أن يحضر الصينية الخشبية الملفوفة بالقماش، والتي كانت موجودة أيضاً على أحد الأرفف الخلفية.وضعها كريس على الطاولة،

وبحذرٍ شديدٍ قام فورستر بوضع الألواح الطينية الصغيرة على الصينية، ثم أخرج المزيد من الألواح من الفاترينا، وصفَّها إلى جانب تلك الألواح.و أخيراً جلس على المقعد، أخذ اللوح الأول بيده ثم أداره بين أصابعه، وبعد أن أعاده رفع التالي، وأخذ يتفحصه مطولاً بينما كان مستغرقاً بالتفكير.

بدا لكريس أن سطح هذا اللوح كان مهشماً قليلاً، ولم يحتفظ بشكله الكامل كما بقية الألواح.أمسك فورستر بالمكبر وأخذ يتفحص حواف تلك القطعة الأثرية ثم الرموز المحفورة عليها .

«إنه لوحٌ من بلاد مابين النهرين، بالنسبة لي فإن هذه الألواح الصغيرة تمثل الكثير، فهي تدل على الاكتشاف الذي أحدث ثورةً في تاريخ الحضارات البشرية، إنها الكتابة»

«ربما يكون هذا صحيحاً» قال كريس «إلا أنني أعرف بعض الأمور الأخرى التي قد تكون بنفس الأهمية، كاكتشاف النار مثلاً»

«حسناً» لم يبد تاجر التحف أي إهتمامٍ.

كان كريس يراقب تعابير وجه الرجل، فتارةً يرفع حاجبيه إلى الأعلى، وتارةً يفتح نصف فمه، وتارةً أخرى يزم شفتيه أو يدمدم بمقطوعات موسيقيةٍ. وأخيراً وضع المكبر على الطاولة، وأرجع ظهره إلى الوراء غارقاً في المقعد الوثير.

«ألهذا أنا هنا؟»

«نعم» قال فورستر بهدوءٍ «أشعر أنك غير مبالٍ قليلاً»

«حسناً» قال كريس بتردد، ثم تذكر أنه كان قد قرأ في مكانٍ ما أنه يوجد الآلاف من هذه الألواح ولكنها مزورةٌ، قام البعض بصناعتها لبيعها للسائحين بأثمان باهظة.

«أخبرني بماذا تفكر» قال فورستر مبتمساً .

«إن ألواح الكتابة المسمارية الخاصة ببلاد ما بين النهرين ليست

بالأمر ذا الأهمية، إذا ما علم المرء أنه قد تم العثور على عشرات الآلاف منها أثناء التنقيب، ومئات الآلاف ما تزال مدفونةً تحت رمال الصحراء.عندما أكتُشفت الكتابة للمرة الأولى نم تدوينها وحفظها، هذا شيءٌ مثيرٌ حقاً، ولكن كيف لك أن تعلم أن هذه الألواح ليست مزورةً؟»

«أنا تاجر آثارٍ، لا أظنك تعتقد أنني أرضى باقتناء ما ليس له قيمة.أليس كذلك؟»

«كلا»

«بالضبط» بهدوءٍ وضع فورسترااللوح الطيني على الصينية وأخذ التالي. «نظر هنا تحت هذا الرمز» رفع العجوز اللوح إلى الأعلى، وأشار إلى موضعٍ يحمل رموزاً متتاليةً، ولكن كريس لم يتمكن من التعرف عليها «هذا هو الرمز الخاص بنبوخذ نصر الثاني، وبهذا نستطيع أن نعرف أن هذا اللوح يعود إلى الأعوام ما بين 562و 604 قبل الميلاد.إنه قديمٌ جداً»

«هذا جيد» قال كريس مجاملاً.فلم يستطع لحد الآن أن يجد ما يربطه بهذه الألواح.

رمق فورستر كريس بنظرةٍ تحذيريةٍ ثم دمدم «التواضع أمام التاريخ شيءٌ عليك أنت أيضاً أن تتقبله، فهذا الملك قام بتدمير ممالك كثيرةً، من بينها المملكة اليهودية، لقد قام بسبي اليهود ونقلهم إلى بابل، ولقد أثر هذا كثيراً في عقيدتهم،لأنهم كانوا يرون في ذلك عقوبةً من الرب،هل تعرف (جرميا) النبي؟»

«أعرف الاسم فحسب.ولكنني ومنذ زمنٍ طويلٍ لم أعد أهتم بأمور الدين، إنني أعتقد بوجود قوةٍ ما، قوةٍ عظيمةٍ، إلا أنني أنظر بشيءٍ من الريبة للكنيسة وكل ما يتعلق بها»

أطرق فورستر «لا يهم، على أية حالٍ فلقد كتب جرميا النبي «أن الرب قد قال: **البابليون لي فأسٌ وأدوات حربٍ، فأسحق بهم الأمم،**

وأهلك بهم الممالك، وأكسر بهم الفَرس وراكبه، وأسحق بهم المركبة وراكبها، وأسحق بهم الرجل والمرأة، و أسحق بهم الشيخ والفتى، وأسحق بهم الغلام والعذراء، وأسحق بهم الراعي وقطيعه، وأسحق بهم الفلاح وفدانه، وأسحق بهم الولاة والحكام.» العهد القديم. وهذا ما قام به (نبوخذ نصر الثاني)، فلقد أقام المملكة البابلية الجديدة، ووّحد القوى المشتتة، وحارب الكيش وغيرهم، أعاد العظمة إلى المملكة وقادها إلى النصر، وبنى بابل الحديثة.لقد أخبرتك بهذا كله، لأوضح لك أهمية هذه الألواح الطينية»، ثم نظر فورستر إلى إحدى الفاترينات التي تحتوي على الأوتاد الطينية «تلك الأوتاد هي حجر الأساس لبناء (معبد ننورتا) الذي شيده نبوخذ نصر في بابل، بعد أن دحر الكيش.هل تدرك ما يعنيه هذا؟»

«قد أستطيع تقدير قيمتها، إلا أني لست خبيراً مثلك. ولهذا...»

«حسناً» أشاح فورستر بيده مقاطعاً كريس «اللوح الأهم هو التالي» وضع العجوز لوح نبوخذ نصر على الصينية، وأمسك باللوح التالي، وأخذ يقلبه بحذرٍ أمام عينيه «لابد وأن لديك فكرةً عن كيفية تطور اللغة؟»

«تقريباً» دمدم كريس، ثم قال باحتراس «رموزٌ ثم رسومٌ ثم خطوطٌ وأخيراً علاماتٌ واضحةٌ»

«صحيحٌ» ثم تابع فورستر كلامه ممازحاً كريس «إنك تفاجئني دائماً يا تسرنت هاين، من رجل لا يتذوق الفن إلى واحة من المعلومات» إبتسم بمكرٍ وتابع «هذا اللوح يعود إلى عهودٍ قديمةٍ جداً لتطور اللغة، وبالتحديد إلى زمن العهد القديم، الألفية الثالثة قبل الميلاد تقريباً»

«ومن أين لك أن تعرف ذلك؟»

«انظر إلى هذا الرسم، هنا» أشار تاجر الآثار إلى مثلثٍ محفورٍ على إحدى حواف اللوح، وفي داخله خطٌ مستقيمٌ يمتد من إحدى زواياه السفلى إلى الأعلى دون أن يمس القاعدة العلوية للمثلث، «هل يعني لك هذا شيئاً؟»

تردد كريس لبرهةٍ قبل أن يقول ما طرأ بباله «إنه يشبه حوض المرأة، مرسومٌ ببضعة خطوطٍ»

«ممتازٌ» ضحك فورستر «إنه رمز - ل و-»

«وماذا يعني؟»

«في لغة الرسوم القديمة يشير هذا الرمز إلى الإنسان» إبتسم فورستر، وستند إلى ظهر المقعد «والآن لابد وأنك تود معرفة سبب تأكدي لهذه الدرجة، أليس كذلك؟»

«إنك خبيرٌ في هذا المجال...»

«في المراحل اللاحقة لتطور اللغة المسمارية لم يتم استخدام أو تمثيل رمز —ل و- بهذه الطريقة أبداً»

«و كم مرحلةً مرت بها هذه الكتابة؟»

«ثمانيةٌ، إلى أن انتهت إلى شكلها النهائي في عهد الآشوريين في القرن الأول الميلادي في المرحلة الثانية لم يتم إحداث تغييرٍ كبيرٍ على هذا الرمز، فقط تمت إدارته 90 درجة إلى اليسار بحيث تصبح زاوية المثلث إلى اليمين.ومع مرور الوقت اختفى هذا الرمز البدائي»

«لماذا؟»

أشار فورستر إلى الأرفف مجدداً، فقام كريس بإحضار الأوراق البيضاء والقلم التي كانت موجودة على أحدها . أخذها العجوز، وبدأ يرسم عدة رموزٍ مختلفةٍ على الورقة، بينما كان يتذمر أثناء ذلك لأنه لم يتمكن من إحكام السيطرة على يده المرتعشة، وبعد المحاولة الثالثة وضع القلم جانباً وأرى كريس ما قد رسمه.

كانت أجزاءٌ من الرسم تشبه إلى حدٍ بعيدٍ أسهماً ذات مثلثاتٍ في نهايتها .

«كانت الرموز الأساسية بشكلٍ عامودي، ثم تم إدارتها بمعدل 90 درجةً إلى اليسار ليتمكنوا من حفرها بشكلٍ أفضل وأسرع على الألواح.ولأنه من الصعب بمكانٍ الحفر على هذه الألواح بدقةٍ متناهية، فلقد بقيت بعض التكورات التي زالت مع مرور الوقت، ثم تطورت الرسوم فيما بعد لتصبح عمليةً بشكلٍ أكبر»

«وبهذا فقد أصبح من الواضح أنه...»

«تماماً. ولكن مكونات اللوح نفسه يمكنها أن تعطينا معلومات.إنها مصنوعةٌ من الطين المجفف الذي يحتوي على نسبة عالية من الرمل، وهذا ما يفسر سطحها المسامي»

حدق تسرنت هاين بالقطعة الأثرية «كيف لي أن أفهم هذا؟»

«يتألف الطين من مجموعة منتجاتٍ لعوامل التجوية على الطبقة الحجرية، ويتكون من عناصر مختلفةٍ كالرمل والصلصال والحصى وحبيباتٍ معدنيةٍ ناتجةٍ عن تفتت موادٍ حجريةٍ وترابية، وبهذا فإن الصلصال يعمل كمادةٍ لاصقةٍ لكل هذه المكونات، فوجود نسبةٍ عاليةٍ من الكلس والجص تؤثر على خاصية تماسك الطين وتجعله أكثر قدرةً على مقاومة الماء.وبالرغم من أن الطين الذي تم استخدامه في بلاد ما بين النهرين كان يحوي على نسبةٍ عاليةٍ من الرواسب المعدنية والتي تضعف خاصية اللصق، إلا أن الطين بشكلٍ عامٍ يستطيع الصمود أمام عوامل التعرية والتجوية»

نظر كريس إلى الفاترينا التي تحتوي على الألواح «حسناً، إن كنت أعدُ بشكلٍ صحيحٍ فهناك ستة ألواحٍ من هذا النوع»

«صحيحٌ، ستةٌ من عهد نبوخذ نصر الثاني، وستةٌ من القرن الثالث قبل الميلاد، إنها مقتنياتٌ فريدةٌ وثمينةٌ، ولا يوجد متحفٌ على وجه الأرض يقتني مثيلاتها» بدا فورستر منتعشاً، وكانت عيناه تلمعان، وهو يتحسس

الألواح بيديه ويلمس الرموز المحفورة عليها، وكأنه عاشقٌ يستكشف جسد معشوقته للمرة الأولى. حمل أحد الألواح وقربه من عينيه، وأخذ يتفحص الكتابة مستخدماً الزجاجة المكبرة، ثم تنهد بسعادةٍ»

شعر كريس وكأن العجوز قد نسي وجوده، ثم سأل أخيراً «هل تستطيع قراءتها؟»

«ليس تماماً، هنالك رموزٌ كثيرةٌ ولكن مضمونها تمت ترجمته منذ زمنٍ طويلٍ، تفسير وفهم هذه الرموز يعتبر علماً قائماً بذاته، فلقد زاد عدد الرموز والرسوم مع مرور الوقت حتى بلغت الألفين...»

«وهل بإمكان أحد أن يحفظها كلها؟» سأل تسرنت هاين مستغرباً

«... ولهذا فلقد تم تقليص عددها إلى ستمائةٍ رمزٍ، وكان على الكاتب المتوسط أن يحفظ منها مائتي رمزٍ مسماريُ»

«لعل ذلك كان كافياً» قال كريس ذلك وهو يفكر في الأبجدية اللاتينية الحديثة بأحرفها الستة والعشرين، والتي أصبحت في وقتنا هذا كافيةً تماماً.

«وكان على المرء أن يعرف أن بعض الرموز المتشابهة تحمل معانٍ مختلفةً، وذلك حسب سياق الموضوع، فمثلاً رمز الشمس كان يعني اليوم، الضوء وأيضاً اللطف، ورسم الفم والماء معاً كان يعني الشرب»

«ومن أين أتت هذه الألواح؟ وهل هي ثمينةٌ لأنه تم العثور عليها في مقبرةٍ، ربما في مقبرةٍ ملكيةٍ؟»

«هذه الألواح من مصدرٍ خاصٍ جداً» قال العجوز بعد تردد: «فبلاد ما بين النهرين ليست كمصر القديمة ذات المقابر الفرعونية الكثيرة، ففي بلاد ما بين النهرين لم يتم العثور على الكثير من المقابر الخاصة بالملوك،إلا أن تلك التي تم العثور عليها كانت مصممةً أيضاً بشكل فخم، ففي مقابر الملوك في (آور) وجدت مجموعاتٌ من العربات القتالية وخدّام الملوك، الذين

ماتوا ودفنوا مع أسيادهم، وكذلك مجوهراتٌ وذهبٌ وألواحٌ طينيةٌ أيضاً، وفي هذا الاتجاه لم يتغير شيءٌ حتى اليوم»

«ماذا تعني؟»

«عَلِمَ الملوك أنهم ميتون لا محالةً، فسعوا إلى تخليد أعمالهم في البداية تم ستخدام الكتابة لتدوين الوقائع المالية للبلاد، وسرعان ما اكتشف كهنة المعبد والملوك أنه بإستطاعتهم تدوين النصوص الدينية والأعمال البطولية عليها، فقاموا بتخليد منجزاتهم المميزة بحفرها على هذه الألواح، وهذا ما يفعله الحكام والملوك في يومنا هذا أيضاً،و إن كان بأشكالٍ وأساليب مختلفةً»

«إذاً فلقد تم العثور على الألواح في (آور)؟»

«كلا فالألواح الأقدم تعود إلى (كيش) ولكنها وجدت في (بابل) وتمت سرقتها»

صمت كريس، فلقد شعر بأن فورستر كان على وشك أن يبوح له بما يعتمر في صدره.

«أنا حفيد السارق والقاتل» رمق فورستر كريس بنظرةٍ متفحصةٍ منتظراً ردة الفعل المناسبة.

«هل تفاجئت بهذا؟»

«كلا» نظر بعينيه بشكلٍ مباشر، وهز رأسه نافياً «لقد واجهت أموراً كثيرةً أثناء عملي كشرطيٍّ، بالإضافة إلى أنك لم تقم أنت شخصياً بقتل أحدٍ»

«ولكنك أردت سابقاً المغادرة»

«لم أقرر بعد، فإن علمتُ أنك قمت فعلاً بالقتل فإنني سأذهب حتماً، أما حالياً فأنا متشوقٌ لما تريد إخباري به، أعترف أن الأمر بدأ يشدني»

أومأ العجوز، ثم قال: «لقد قام جدي بسرقة هذه الألواح ومقتنيات ثمينةٍ غيرها من بابل، ولهذا الغرض قام بقتل ثلاثة أشخاصٍ، وهذا هو السبب وراء شعوري بالذنب»

«بسبب القتل؟»

«كلا.بل بسبب السرقة»

هز كريس رأسه «و متى كان هذا؟»

«كان ذلك منذ زمنٍ بعيدٍ في عام 1916. لقد قام بسرقة الألواح الطينية، ومعها تحفٌ أثريةٌ ثمينةٌ من اثنين من لصوص المقابر، ثم خبئها في مكانٍ أمينٍ، بعدها أخذها معه إلى إسبانيا، وهناك قام بقتل معاونه، وتخذ اسم فورستر كاسم جديدٍ لعائلته ثم فر إلى سويسرا، حيث قام ببيع تلك الآثار لأهم جامعي التحف في العالم، وبهذا حقق ثروةً طائلةً وبدأ العمل بتجارة التحف،إلا أنه لم يقم ببيع هذه المقتنيات لأن لها قيمةً خاصةً»

«أي قيمةٍ؟»

تجاهل فورستر السؤال وتابع: «تزوج وأنجب والدي الذي استمر في العمل بتجارة التحف، ثم تعلمتها أنا عنه، وبقي تخصصنا هو اللُقى الأثرية في الشرق الأدنى ومصر»

«وهل كانت رحلتنا الأخيرة إلى دبي جزءاً من خطتك للتكفير عن الذنب؟»

تذكر كريس كلمات فورستر في نهاية تلك الرحلة، حين أخبره أنه لم يقم بالتفاوض حول السعر، بل عن طريقة تسليم القطع الأثرية.

«حسناً إن كنت تريد أن تسمع هذا. فنعم»

نظر كريس إلى العينين الزرقاوتين الغائرتين لتاجر التحف، ولم ترقه تلك النظرة الساخرة والمتعالية والواثقة، والتي تنم عن رجلٍ أيقن أنه كسب المعركة.

تذكر كريس بشيءٍ من الإحباط ما كان عليه أن يتعلمه في قسم الشرطة الجنائية، فمن الصعب على المرء أن يعرف ما يدور خلف جبهة الإنسان.فلا أحد يحمل وشم سارقٍ أو قاتلٍ على وجهه.

«في الحقيقة لا أعرف إن كنت سأقبل عرض العمل معك»

كان فورستر يعلم تماماً أنه ما زال يخفي الكثير من الأسرار، وأنه لم يكشف بعد إلا عن الجزء السطحي منها.

«إنك لم تفهم بعد أليس كذلك؟» تنهد فورستر بحنقٍ «عليك أن تتذكر أنني بهذا أريد التكفير عن الخطيئة، ستة ألواحٍ تعود إلى عهد نبوخذ نصر، والستة الأخرى إلى القرن الثالث قبل الميلاد» وقف فورستر بمعاناةٍ متكئاً على عكازه.

«إنني أدعي أن هذه الألواح الستة تحوي أقدم كتابةٍ مسماريةٍ تم العثور عليها لحد الآن، ولا يوجد شبيهاً لها في العالم.هل تدرك الآن لماذا لم أقم باستدعاء الشرطة؟ أريد أن أعيد كل شيءٍ إلى مكانه الصحيح، وعليك أن تساعدني في تحقيق هذا، ولم أطلب منك أن تساعدني بارتكاب جريمةٍ»

جرَّ كارل فورستر نفسه إلى إحدى الفاترينات.

«هناك سوف تختفي في بضعة أيامٍ، إنك تعلم جيداً ما الذي حدث بعد حرب الخليج، فوضى، فلقد تم سرقة المتاحف.أتذكر رحلتنا إلى دبي؟ لقد كانت بخصوص أحد التماثيل التي وجدت في عملية تنقيب في (آشور)إنه تمثالٌ ثمينٌ حقاً، ولكن بالمقارنة مع ما تراه هنا فإنه بلا قيمةٍ تقريباً، وبالرغم من اتفاقنا على كيفية إعادته إليهم، إلا أنهم لم يلتزموا بالشروط»

طرق فورستر بعصاه على الأرض غاضباً.

«لا يتوجب إعادة هذه اللقى الأثرية إلى المكان الذي وجدت فيه، لأنها سوف تنهب.هنالك مكانٌ واحدٌ يمكنها فيه أن تكون في مأمنٍ، يجب أن توصلها إلى المكان الذي تم فيه حفظ جزءٍ من إرث بابل»

تقدم فورستر بضعة خطواتٍ من الفاترينا التي تحتوي على العظام الثلاثة الممددة على الرمال.

«و الآن عليك أن تقرر»

تأمل كريس العظمات الثلاثة، لم تكن كبيرةً بشكل ملفت، فاثنتان منها كانت بطول عشرة سنتمترات، والثالثة أطول بقليلٍ، كانت عبارةً عن بقايا عظامٍ، أجزاءٌ عظميةٌ ذات نهاياتٍ مهشمة.

عاد كريس بذاكرته إلى الوراء حيث كان مازال يمارس عمله كشرطيٍ، حيث كانت عملية تأمين الأدلة بمثابة لعبةِ تركيب القطع، وكانت العظام تلعب دوراً هاماً في هذا الشأن، فلقد كان الأطباء الشرعيون يتذمرون دائماً عندما كان يتوجب عليهم تقديم شهاداتهم بناءً على تحليل العظام القديمة واليابسة تماماً.

كانت النظرة الأولى غير كافية لتحديد إذا ما كانت هذه العظام تعود لأقدام أحد الحيوانات أو إلى البشر. وكذلك فإنه من الصعوبة تحديد المدة الزمنية التي بقيت بها العظام في المكان الذي وجدت فيه.ربما شهر أو سنة أو ثلاثة قرون.هل قام أحدهم بدفنها هناك؟ أم أن حيواناً قام بإستخراجها من مكانها ودفنها في مكان آخر؟

«قرارك؟» سأله فورستر مجدداً

كانت العظام الممددة في الفاترينا ذات لونٍ أقرب إلى البني الغامق منه إلى اللون الأبيض الجيري، أعاد صوت فورستر كريس من عالم الذكريات، إنه أمرٌ جنونيٌ حقاً، فكيف يستطيع المرء ربط أمورٍ معينةٍ بأخرى.

«حسناً .سأساعدك» قال كريس ذلك وهو يفكر برصيده في المصرف، مبرراً لنفسه أنه لا يمكنه فعل شيءٍ آخر للخروج من أزمته المالية.

«لقد قمت فعلا بتحويل المال إلى رصيد شركتك» قال فورستر ذلك وتنهد بإرتياحٍ «يسعدني أنك لم تخيب ظني بك»

«العظام أيضاً؟» سأل كريس بعفويةٍ ودونما تفكيرٍ.

«هي أيضاً» أجابه العجوز بصوتٍ رخيمٍ ومتوترٍ.

«وماذا عن تاريخها؟»

صمت كارل فورستر قليلاً، ثم أجاب بصوتٍ مرتجفٍ وضعيفٍ «إنها مستحاثاتٌ تعود لنوعٍ من السلالة البشرية،التي لم تعد موجودةً في يومنا هذا».

الفصل الثامن

الفاتيكان

مساء الجمعة

كان البابا بندكت يجلس في مكتبه الخاص في الطابق الثالث من القصر البابوي، واضعاً أمامه المخطوطة الورقية التي تحوي النص الذي كلفه الكثير من الجهد والوقت.

عندما سمع طرقاً على الباب لم يكن بحاجةٍ إلى النظر إلى ساعته لمعرفة الوقت، فهو الذي قام بتحديد الموعد.

دخل سكرتيره الخاص (جورج رايشي) مرافقاً الضيفين، ثم أخذ رزمةً من الملفات، وغادر الغرفة.تنهد البابا بندكت، فلقد خلّف سلفه الكثير من الأعمال غير منجزةٍ، وعوضاً عن الشروع في استكمالها تسابقت الصحف والإدارة البابوية بإطلاق الشائعات حول المظهر الأنيق لسكرتير البابا الخاص، والذي كان جليساً مسلياً في الأوقات التي لا يتم بها الحديث عن الأمور الدينية.

لم يكن بالإمكان منع النميمة والشائعات، والتي كانت جزءاً من الطبيعة البشرية، وكذلك لم يستطع أحد التوصل إلى طريقةٍ لردع مروجيها، فلقد بقيت كبقاء قواعد وطقوس الفاتيكان التي لم تتغير كثيراً.

تقدم الضيفان وجلسا على المقاعد الوثيرة أمام طاولة مكتبه.

بدا الجسم الممتلئ للكاردينال (ألبينو ساشي) أكثر نحالةً بذلك الثوب الأسود، وقد توشح بوشاحٍ قرمزيٍ (ليلكي) مُحمرٌ مع شريطٍ من نفس اللون حول خصره، وقبعةٍ صغيرةٍ على رأسه، بينما كان الأب (تيساني) يرتدي بذلة سفرٍ بسيطةٍ ذات لونٍ أسودٍ وياقةٍ بيضاء.

«والآن» قال البابا بندكت وهو يوجه نظره إلى الكاردينال.

كان الرجلان يعرفان بعضهما منذ زمنٍ طويلٍ، فقبل أن ينصَّب كبابا، كان يشغل منصب رئيس مجمع العقيدة والإيمان لفترةٍ طويلةٍ، وكان الكاردينال (ساشي) نائبه.

لقد قاما معاً بإنشاء (مجمع العقيدة والإيمان) كمؤسسةٍ بديلةٍ عن محاكم التفتيش، والذي يتبع للإدارة البابوية، وكان دوره يتلخص في تتبع الملحدين حول العالم، وحراسة التعاليم الكاثوليكية وحمايتها ضد أي عدوٍ، ولا يمكن مناقشة أي موضعٍ عقائديٍ إلا بموافقة (مجمع العقيدة والإيمان).

يتم تمثيل الفاتيكان كدولةٍ مستقلةٍ من خلال مكتب سكرتاريا الدولة، والتي يرأسها الكاردينال سكرتير الدولة، ويعتبر الرجل الثاني بعد البابا، وتتمثل أهميته بأنه يترأس (مجمع الكرادلة) كعميد ينتخب حصراً من قبل الإدارة البابوية.

إلا أنه وفي الإنتخابات التي جرت مؤخراً لاختيار عميد (مجمع الكرادلة) قامت اللجنة المصغرة للأساقفة الكرادلة باختيار رئيس مجمع العقيدة والإيمان - والبابا الحالي - كعميد لهم، ما أحدث نقلةً في التسلسل الهرمي لإدارة الفاتيكان.

«أن يخلفك المرء وإن لفترةٍ وجيزةٍ في منصب رئيس المجمع الدولي للاهوتيين أمرٌ يتطلب الكثير من الجهد» أجاب الكاردينال (ساشي).

إبتسم البابا إبتسامةَ الخبير بخفايا الأمور.

فقد عقدت اجتماعات متتالية لاختيار الرجل المناسب. كان بندكت قد قرر منذ زمنٍ طويلٍ تسمية الرجل الذي كان يشغل منصب نائبه في مجمع العقيدة والإيمان، كسكرتير دولة الفاتيكان. لم يكن الأمر ليختلف كثيراً عندما يتولى قيصرٌ جديدٌ مقاليد العرش. لابد من اختيار الموثوق بهم ليكونوا ضمن دائرة المقربين، وبهذا سيتم تغيير التسلسل الهرمي للمرة الثانية.

«هل تم اختيار الخليفة بشكل نهائي؟ نحن نسمع عن أسماء كثيرةٍ»

«قريباً. قريباً عزيزي (ساشي). فرئاسة مجمع العقيدة والإيمان منصبٌ حساسٌ للغاية، ولهذا يجب عدم التسرع في اختيار من سيشغله، الصبر، وأنا أدرك حجم مسؤوليات هذه المهمة» قال بندكت بإبتسامةٍ هادئة «حتى بالنسبة لي، فإن المسؤوليات الجديدة تشكل تحدياتٍ كبيرة، وأنا أعمل لتوي على منشوري البابوي الأول، وربما سأعطيه عنوان (الرب هو المحبة). ما رأيكم بهذا؟»

«إنه مجالٌ واسعٌ ومثمرٌ» قال الكاردينال (ساشي).

«وهو صعبٌ أيضاً. والآن دعونا من هذا، لدينا موضوعٌ آخرٌ لنناقشه» نظر البابا إلى تيساني الذي كان يتابع الحوار بصمتٍ وترقبٍ «و كيف تَقَبل الأمر؟»

هز تيساني رأسه، فمنذ لقائه مع (هنري مارفن) وهو يفكر بما ستكون عليه ردة فعله.

«غاضبٌ، ولكنه تمالك نفسه.إلا أنه يشعر باليأس والإهانة» ثم نظر تيساني إلى يديه «لم يكن له أن يتوقع شيئاً آخر.أليس كذلك؟»

«و ماذا سيفعل؟»

«لم يقل شيئاً سوى أن لديه أدلةً»

«إنه رجلٌ متعصبٌ»

أطرق تيساني، فلقد فاجئه كلام البابا الذي شَغل منصب رئيس مجمع العقيدة والإيمان، حيث كان المتعصب إما ينال الثناء وإما ينبذ ببساطةٍ.

« ... وخطيرٌ أيضاً » أضاف الكاردينال « علينا أن لا نهمل مراقبته ومراقبة جمعيته»

« وماذا عن المخطوطة التي تركها لنا؟ هل ترى فيها خطراً على الكنيسة المقدسة؟»

رمق البابا الكاردينال بنظراتٍ فضوليةٍ، فمنذ توليه منصب البابا، وتوجيه (هنري مارفن) له هذه المخطوطة لم يطلع أحدٌ عليها، وإطلاع الكاردينال (ساشي) عليها جاء بسبب الظروف، وبالرغم من ذلك فإن (ساشي) لم يعرف كلَّ شيءٍ بعد .هذا ما دار في رأس البابا .

كان هو وحده المطلع على كامل الحقيقة بالإضافة إلى أحد الموثوقين سابقاً، وهكذا يجب أن تبقى الأمور.

فلقد اختاره الرب لتحمل هذا العبء.



« إنها أكثر بكثيرٍ من مجرد قطعةٍ كغيرها من القطع التي خرجت إلى النور خلال السنوات المائة الماضية، فهذا الموضوع سيؤدي إلى انفجارٍ، لأنه يمس نقطةً جوهريةً وأساسيةً...أعني، أنه لا يجب أن يظهر إلى العلن»

هز البابا رأسه « و بأي ثمنٍ؟...»

« أُدرك ما تعنيه، فمارفن يتجاوز الحدود ..إنه متطرفٌ، وهو يتحكم بالجمعية، فالأسبوع القادم سيتم تسليمه منصب الرئاسة بشكلٍ رسميٍ،

هذا مؤكدٌ، ولكن ماذا لو منحنا بريتوريين الكتاب المقدس وساماً واعترفنا بهم كأخوية؟ فإنهم في النهاية سيتبعون للكنيسة، وباستطاعتنا التحكم بأنشطتهم، وضبطها من خلال القواعد والقوانين التي نصدرها»

إستغرق (ساشي) في التفكير بينما يطبق رؤوس أصابع يديه على بعضها «إنها مجرد فكرةٍ، إلا أن قداستكم قد اتخذ قراراً مختلفاً»

نعم، لأنني أعرف أكثر مما تعرفون وأستطيع الحد من الخطر القادم.فكر البابا

للحظاتٍ شعر بأن إحساسه بالمسؤولية يخيفه، وكأنه طوفانٌ يريد أن يغرقه، ولكن فكرةَ أنه مستعدٌ تماماً، ولن يحتاج لمساعدة مارفن أعادت إليه الشعور بالقوة، فزال ذعره بنفس السرعة التي أتى بها .

«إني أحاول فقط إبقاء كافة الخيارات مفتوحة أمامي، الدبلوماسية عزيزي ساشي، ففي النهاية هي مجرد قطعةٍ ورقيةٍ، جزءٌ من مخطوطةٍ، كمْ منها مازال مفقوداً؟ لا أحدَ يعلم» هز بندكت رأسه «حتى وإن استطاع منتقدينا الحصول على مخطوطةٍ مزورةٍ، ليدّعوا أنها جزءٌ من المخطوطات القديمة للكتاب المقدس، فإنهم لن يتمكنوا من التأثير على عقيدتنا أو على الكتاب المقدس، أو حتى على ركائز الكنيسة الأم»

«لم تظهر أدلةٌ على هذا القدر من الأهمية والوضوح من قبل»

لاحظ تيساني التوتر الذي سيطر على حوار الرجلين، فلقد وقع ساشي في الخطأ الذي طالما كان يحذر كل من يرغب بلقاء البابا منه، لا تحاول مجادلة ممثل الرب على الأرض لأنك حتماً ستخسر.

«إنها تؤكد ما توصلت إليه الأبحاث العلمية فحسب، من سيكترث لهذا حقاً؟ المؤمن؟ الإيمان؟ إن الرب لا يقلق من العلماء والأبحاث العلمية»

أخذ تيساني نفساً عميقاً عندما انتبه إلى النبرة الحادة في صوت البابا .

«كل ما أقصده هو أن مارفن يحاول تصعيد الأمور لتحقيق مآربه الخاصة» تابع البابا «منحهم وساماً أو مجمعاً للأحبار سيرفع من شأن جمعيتهم، فبهذا ستكون ثاني أخوية بعد (الأبوس داي) يتم ترقيتها إلى هذا المنصب، فهو يحاول من خلال اكتشافه المزعوم أن يكسب المزيد وأن يجعل من نفسه رجلاً مهماً»

«إنه احتمالٌ ممكنٌ» كان الصوت الهامس للكاردينال ينم عن عدم تركيزه.

«هل زارك بعض الوشاة؟» وجه البابا سؤاله إلى الكاردينال بنظراتٍ ودودةٍ.

«نعم. تعلمون قداستكم أن منهم المؤيدين ومنهم المعارضين، أما المؤيدين فكانوا متحمسين بعنفٍ»

أطرق البابا بندكت «كم يسعدني ذلك الإيمان الغير مشروطٍ الذي تمثله الأخوية، لو أن كل الأخوة والأخوات يتمتعون بهذا الإيمان لأصبح العالم بحالٍ أفضل، ولكن لا يجب على المرء أن يبالغ في ذلك»

صمت البابا قليلاً ثم نظر إلى تيساني متحدياً «هل قمت بإخباره أن الموقف الذي تتخذه أخويتهم في رفضها لنظرية النشوء والارتقاء يشبه إلى حدٌ كبيرٍ موقف المدافعين عن قصة بدء الخليقة كما جاءت في الكتاب المقدس؟»

مسح تيساني بيده على وجهه محاولاً استجماع أفكاره قبل الإجابة «نعم إنه يعلم، إنه يعرف بشكلٍ علنيٌ أن جذور هذه الأفكار جاءت من مجموعات بروتستانتية، بل إنه يذهب إلى أبعد من ذلك، فيقول أن الكنيسة الكاثوليكية أخطأت عندما تركت هذا المهمة للبروتستانتيين، فمارفن يرى أنه كان أجدر بالكنيسة أن تتخذ هذا الموقف»

«لا يمكن لأحدٍ أن ينكر الحقائق التي توصلت إليها الأبحاث العلمية،

إنها من خلق الله ولهذا فعلينا احترامها، تماماً كما تفعل الكنيسة الكاثوليكية» تردد البابا قليلاً، وكأنه يبحث عن الكلمات المناسبة «لقد أعلن البابا (يوحنا بولوس الثاني) إعتراف الكنيسة بنظرية النشوء والارتقاء. ألم نناقش ذلك لفترةٍ طويلة؟ فكيف لمارفين وهو كاثوليكيٌ أن يتصدى لذلك؟ بل إننا نقوم بتدريس هذه النظرية في المدارس الكاثوليكية»

«لقد كان من الخطأ أن تعترف الكنيسة بتلك الأخوية...»

هز البابا رأسه رافضاً «إن الأخويات تشكل جزءاً هاماً من كنيستنا، ولقد تم الاعتراف بهم عندما كانت الكنيسة لا تزال تتبنى تلك الآراء، ولكن بحثنا المستمر في الكتاب المقدس جعلنا نتوصل إلى براهين جديدة. الرب ليس ديكتاتوراً فهو يدع العالم يتطور بما يناسبه، إنه لا يتدخل دائماً ولكنه يسمح ويشترك ويحب. فمع كل اكتشافٍ في هذا الكون نشارك بجزءٍ من خليقة الرب، ألا يدرك ذلك الرجل أن بتشدده هذا يعارض الأسس المعروفة للكنيسة؟ كيف له أن يتخيل أننا سنقوم بدعم جمعيته تحت هذه الظروف؟ هذا يعني أننا نؤيد ادعاءاتهم، بل ويعني أيضا أن البابا يوحنا بولوس الثاني كان مخطئاً!»

و أنت كذلك، هكذا فكر تيساني الذي كان بينه وبين نفسه قد أغلق هذا الملف، فأوراق مارفن خاسرةٌ لأن جمعيته تؤمن أيضاً بقاعدة أن البابا لا يخطئ.

وبعد صمتٍ قصيرٍ أخذ البابا الكلمة مجدداً «لقد قلت أنك وجدت دليلاً في الأرشيف، وإن لم تخني ذاكرتي فإنه سجلٌ يعود إلى العشرينات من القرن الماضي (لباسيللي) السفير البابوي، والذي أصبح فيما بعد القديس (بيوس الثاني عشر)»

تفحصت عينا البابا وجها الضيفين، كان تيساني يجلس بطريقةٍ غير مستقرةٍ على كرسيه، وكأنه ينزلق على الجلد يميناً ويساراً.

«صحيحٌ» قال الكاردينال ساشي «إنها ملاحظةٌ صغيرةٌ تشير إلى وجود قطعة أثريةٍ تحمل نفس المعلومات التي بحوزة مارفن أو ربما تشبهها. كانت تلك الملاحظة عبارة عن بضعة أسطرٍ ووُجدت في أحد التقارير الأخيرة التي قدمها (نونتيوس) قبل أن يعود لمنصبه كسكرتير لدولة الفاتيكان»

تنهد البابا.

فلقد كان (ننتيوس باسيللي) السفير البابوي إلى ميونيخ وبرلين في الأعوام بين 1922- 1929. وبالرغم من معرفته بالهولوكوست فإنه التزم الصمت. وبعد انتهاء الحرب قامت الكنيسة بمساعدة بعض النازيين على الهروب، ولهذا فإن موضوع تطويب (بيوس الثاني عشر) كقديسٍ كان ومازال موضوع جدلٍ في الإدارة المركزية للفاتيكان، وكذلك في وسائل الإعلام. لقد أثار موضوعه ضجةً كبيرةً لدرجة دفعت الفاتيكان في عام 2003 لفتح بعض الملفات السرية التي احتوت على مدوناتٍ ووثائق خاصةٍ ببيوس الثاني عشر.

«إنها مجرد مخطوطةٍ...»

«وكيف حصلوا عليها؟» قاطع البابا الكاردينال بطريقةٍ حادةٍ، إذ علم ما كان سيقوله.

«لقد ألمح لي هنري مارفن بذلك» قال الكاردينال ساشي أخيراً، بعد أن أدرك أنه تم قطع الجزء الثاني من جملته بشكلٍ متعمدٍ.

«وكيف ذلك؟»

«بعد أن تم إهمال مقترحاته قام بإعطائنا بعض من هذه الملاحظات في الأسابيع الماضية.إنه نوعٌ من مضاعفة بذل الجهود من قبله» إبتسم الكاردينال متعباً «لقد أخبرنا أن النص الكامل مع المزيد من الأدلة يفترض أن يكون موجوداً لدى الكنيسة، وذلك منذ نهاية العشرينات من القرن

الماضي، وكما تبين لنا فإن اكتشاف هذا النص لن يعصف بالكنيسة الأم. فلقد مرت الكنيسة بظروفٍ أصعب من هذه - هذا إن كان زعمهم صحيحاً، ولكن لحد الآن لا يوجد أي دليلٍ سوى بعض الملاحظات الغامضة»

تبسم البابا بهدوءٍ «ولكن كيف ستسير الأمور مستقبلاً»

«لم نقف مكتوفي الأيدي طوال الأسابيع الماضية، عندما ...» ندم المونسينيور تيساني على هذا الإعتراف.

رمق البابا بندكت المونسينيور بنظرةٍ ثاقبةٍ. فقبل ما يقارب النصف عامٍ تقدم هنري مارفن بذلك النص إلى (مجمع العقيدة والإيمان) حيث كان البابا بندكت ما يزال يرأسه، وكان يدرك أن وقت اتخاذ القرار قد اقترب.

قطب وجهه بغضبٍ.كان تيساني ملاذه الأخير، إذ أن الرجل الذي كان يثق به، فر هارباً من عبء المسؤولية.

«مونسينيور تيساني، ماذا وجدتم؟»سأله بصوتٍ خافت.

أدرك تيساني من نبرة صوت البابا أنه قد نفذ صبره، وعلم جيداً أنه مازال لا يلم بكافة أوجه اللعبة بعد.

«ليس بالأمر المهم، قداستكم. إن النصوص التي وجدت في تقارير الرسول البابوي تشير إلى تقريرٍ منفصلٍ قام بتسليمه مع بعض الموجودات إلى مكتب الآثار، وهناك تم فقد أثره، ولم يتم العثور على ملاحظات الرسول البابوي بعد ذلك»

«وأين يكمن العمل الناجح للمونسينيور إذاً؟» التفت البابا مجدداً إلى ساشي.

هز الكاردينال رأسه مستغرباً.

«عندما يتم تسليم أي مخطوطةٍ إلى مكتب الآثار يبادرون إلى تسجيلها، ولكن للأسف يُفقد أثرها بعد ذلك، إلا أننا وجدنا اسم أحد

الكهنة الذي كان يعمل في ذلك المكتب، والذي قام منذ عقودٍ بعمل أبحاث حول (بيوس الثاني عشر). وكما يبدو فإنها كانت لفحص إمكانية تطويبه قديساً»

أطرق البابا بانزعاج.

«ربما لدى هذا الكاهن ما يخبرنا به. نريد أن نسأله»

«إذا كان هذا مفيداً...» أدار البابا وجهه متململاً

تردد الكاردينال ساشي لبرهة، ثم قال «كلانا يعرفه»

«وما يعني هذا؟ إني أعرف الكثير من الأشخاص والقساوسة والكهنة»

«إنه موظفٌ قديمٌ لدى قداستكم، وكان يعمل سابقاً في معهد الآثار قبل أن ينضم إلى (مجمع العقيدة والإيمان)، وكان يتولى منصب المونسينيور تيساني السابق في (المجمع الدولي للاهوتيين)»

عض البابا على شفتيه.

إذاً فلقد وصلوا إلى هنا، إنهم يهددون مهمته.

الفصل التاسع

جنيف

الأحد

أثناء تجوله في (جادة المونت بلانك)، كان كريس ينظر إلى نوافذ الفنادق الفخمة على الطرف الآخر من الرصيف، حيث فاجئه الكونت بحجز جناح له بمساحة شقة صغيرةٍ وذو إطلالةٍ على البحيرة.

«عليك أن تستمتع، فكلُ شيءٍ سيكون على حسابي كحالةٍ إستثنائية» قال له فورستر ممازحاً أثناء توديعه له مساء الأمس عندما وصلا معاً إلى جنيف، بينما تابع هو وبونتي طريقهما بسيارة الأجرة إلى فيلا تاجر التحف التي كانت تقع في أحد ضواحي جنيف جنوب شرق ضفة البحيرة في إحدى أشهر مناطق الأثرياء وتدعى (كولونيه بيلليريفي) وتبعد حوالي العشر كيلومترات عن مركز المدينة.

نظر كريس إلى ساعته، يبدو أن الوقت قد حان فخلال بضعة دقائقٍ سيحضر بونتي وفورستر.عاد إلى الفندق ووقف مفكراً في البهو ذو الأعمدة الرخامية والزخارف الجصية ونافورة الماء الصغيرة، يا له من منظرٍ يسلب الألباب.

إبتسم كريس عندما تذكر الحكاية التي أخبرته بها عاملة الاستقبال، حيث روت له كيف أن نجم الكوميديا الصامتة (هارولد

لوويد) قام بالتسلق على أعمدة البهو للوصول إلى غرفته بدلاً من استعمال الدرج أو المصعد.

في أحد الأركان جلس رجلٌ ذو بشرةٍ زيتونيةِ اللون، وشعرٍ مُخصلٍ يقلّب إحدى الصحف بين يديه، ويبادل نظرات كريس المرتابة بنظراتٍ خالية من التعبير.

مر كريس من أمامه متجهاً إلى المصعد.

في جناحه بدأ يجمع حقيبة سفره التي لم تعد تحتوي إلا على ملابسه المتسخة، ولقد قام مساء الأمس بطلب بعض الملابس الخارجية والداخلية عن طريق الفندق وسجلها على حساب الغرفة، سيتكفل فورستر بهذا المبلغ.ألقى كريس نظرةً أخيرةً على الجناح، واستنشق عبق الفخامة للمرة الأخيرة، ثم نزل بالمصعد إلى المرآب حيث فتح حقيبة سيارة الـ(مرسيدس) فئة سي، التي كان رجال فورستر قد أحضروها ليلة الأمس بدعوى أن فورستر لا يرتاح بركوب سيارة الـ(مرسيدس)ذات الفئة إي.

وضع حقيبته في صندوق السيارة، وفجأةً سمع صوتاً قوياً لمحركٍ يقترب منه دخلت سيارة الـ(جاغوار) من المدخل الأوسط، وسارت باتجاهه حتى توقفت على بعد بضعة أمتارٍ أمامه، سكت عويل المحرك وفُتح باب السائق.

نزل بونتي وتقدم بوجهٍ متحجرٍ ودونما إلقاء التحية، ليفتح باب مرافق السائق، فخرج فورستر بعناءٍ من السيارة.

تعكز تاجر التحف على عكازه وسار بخطىً مهتزةً خلف بونتي باتجاه كريس.كانت يد فورستر مكورةً في جيبه وكأنه يقبض على شيءٍ ما، وسرعان ما أدرك كريس أنه يحمل سلاحاً، وشعر أن شيئاً مريباً يدور من حوله.

«هل أنت جاهز؟»

أوماء كريس بالإيجاب.

«إذاً هيا بنا» نظر فورستر حوله وكأنه يبحث عن أحد ما.

سمع كريس خطواتاً تقترب فأدار وجهه باتجاه الصوت، كان الرجل ذا البشرة الزيتونية والشعر المُخصل يقترب باتجاههم قادماً من الفندق

«هيا يا ريتسي أسرع» أمره فورستر.

«لقد فهمت الآن، إنه من رجالكم، لقد رأيته في بهو الفندق آنفاً»

أشار بونتي إلى ريتسي، الذي توجه إلى سيارة الـ(جاغوار)، وأخرج منها كيسان بهما بعض الأكواب وإبريق قهوةٍ حافظٍ للحرارة.

«أسرع يا ريتسي» هسهس فورستر، الذي رمق ريتسي بنظراتٍ مشبوهةٍ، حين عاد الأخير ليخرج كيس المقتنيات الأثرية من سيارة الـ(جاغوار).

تذكر كريس كم كان هذا الكيس خفيف الوزن، عندما وضعه في السيارة حين كانوا ما يزالون في (التوسكانا)، فصندوق المجوهرات كان مصنوعاً من خشبٍ رقيقٍ جداً، وذا وزنٍ خفيفٍ للغاية، ويحتوي على أربعة أدراج مغلفةٍ بالقماش.

كانت التحف مرتبةً داخل الصندوق بطريقةٍ مميزةٍ بحيث لا تأخذ حيزاً كبيراً. (الألواح الطينية، العظام، الختم الدائري، ثم المخطوطات، ومسمار الأساس).

ذهب ريتسي مرةً أخرى إلى سيارة الـ(جاغوار)، وأحضر خارطةً جلديةً وضعها على المقعد الخلفي لسيارةالـ(مرسيدس).

«إلى اللقاء أيها الوغد» قال بونتي بصوتٍ منخفضٍ ومتذمرٍ.

«ماذا دهاك؟» همس كريس غاضباً

«لن أسافر معكم» قال بونتي مكتئباً «الآن أدركت لماذا أنت هنا، إنه

تـدخلٌ بـسيطٌ مـن الكونـت شخـصياً، سـوف أسـافر بالـسيارة الأخـرى. سيرافقكم ريتسي»

«سيارتان؟» سأل كريس متفاجئاً.

«عليك أن تسأل فورستر» قال بونتي متبرماً «لقد أمضى الليل قابضاً على سلاحه ليحرس كنوزه بنفسه»

«كما هو الحال الآن» تمتم كريس، الذي أدرك ما يعنيه بونتي.

بدأ فورستر بالتذمر بينما كان يحاول الجلوس على المقعد الخلفي لسيارة الـ(مرسيدس).

لم يتحرك بونتي بقي واقفاً يرمقه بنظراتٍ حاقدة.

كان كريس يفكر بإخبار بونتي عن شكوكه، إلا أنه قرر أن لا يفعل فما كان يحدث هنا، والآن كان على أهميةٍ كبيرةٍ، ولقد حان الوقت للذهاب.

بينما بقي بونتي واقفاً بالخارج، كان كريس قد ركب السيارة، وبدأ يُخرجها من مكانها .عاد بونتي إلى باب يقود إلى الفندق.

«حسناً» قال فورستر الذي كان يراقب تصرفات بونتي مبتسماً برضا.



ألمانيا الشرقية

ليلة الأحد إلى الإثنين

«أين نحن الآن؟»

قال فورستر وهو يسعل ويلهث، بينما عدّل من وضع جلسته ليمسك بظهر المقعد الأمامي.

«لقد دخلنا (مقاطعة التورينغن)» قال كريس وقد جف فمه، لأنه لم ينطق بكلمةٍ منذ زمنٍ طويلٍ. كان فورستر قد استغرق في قيلولة بينما كان صوت شخيره وحشرجة أنفاسه تدفع كريس للعنة والتذمر أحياناً. بينما أبقى ريتسي الجالس في مقعد مرافق السائق عينيه مغمضتين.

كانت سماء تلك الليلة صافيةً، وارتفعت قمم الأشجار المصطفة على جانبي الطريق عالياً في السماء، على الجانب الآخر من طريق السفر كانت تسير الشاحنات خلف بعضها البعض بعد انتهاء الحظر القانوني لسفر الشاحنات في يوم الأحد.

«إذاً سنصل باكراً إلى برلين» قال فورستر برضاً «لابد أن نتناول إفطاراً دسماً، قبل أن نكمل الجزء الثاني من رحلتنا. هل تعرف مكاناً مناسباً في برلين؟»

«سنجد بالتأكيد» قال كريس.

ساد الصمت لوهلةٍ، ولم يتخلله سوى أصوات ضجيج وأبواق السيارات المارة على الطريق. في هذه الأثناء قام فورستر بسكب فنجانٍ من القهوة، وبعد لحظاتٍ رن هاتفه، فأجاب دون أن يذكر اسمه.

فجأة فتح كارلو ريتسي عيناه.

استقام فورستر في مقعده.

عدل كريس المرآة بحيث يستطيع رؤية تعابير وجه فورستر على المقعد الخلفي، والذي بدأ يتحدث بسرعةٍ ملحوظةٍ ويطرح أسئلةً قصيرةً باللغة الفرنسية، فما يكاد يتلقى الإجابة حتى يبادر بسؤالٍ جديد.

ثم أنهى فورستر المحادثة، وقال ثلاث جملٍ لريتسي،الذي أومأ بدوره بثورةٍ عفويةٍ.

كان كريس يتحدث اللغة الإنجليزية بطلاقة، كما أن لغته الفرنسية كانت جيدةً، إلا أن لغته الإيطالية كانت ضعيفةً جداً ولم

يتمكن من فهم مضمون المحادثة التي دارت بسرعةٍ. إلا أنه شعر بتوتر فورستر الشديد .

«أخبارٌ سيئةٌ؟» سأل وقد فكر في انطلاقهم المباغت من (جنيف).

صمت فورستر لفترةٍ طويلةٍ، حدق عبر زجاج النافذة، ثم ضرب بقبضته باطن كفه الأيسر.

«لقد تم السطو على سيارة النقل التي كانت متجهةً إلى متحف اللوفر»

تلاقت نظرات كريس المضطربة بعيني الرجل العجوز، الذي انحنى إلى الأمام ممسكاً بكلتا يديه بظهر المقعد الأمامي.

«و كيف يمكنني فهم هذا؟»

«لقد أخبرتك سابقاً أنني أحاول التكفير عن ذنوبي،وسأعيد تلك الأشياء التي لن أستطيع أخذها معي إلى الجحيم، إلى مستحقيها . شاحنةٌ كبيرةٌ محملةٌ بالتحف الفنية كانت بطريقها إلى متحف اللوفر» سعل فورستر بتوترٍ «لقد قمت بالتبرع لمتحف اللوفر بما تبقى لدي من تحفٍ، تلك التي قام والدي وأنا بجمعها، والاحتفاظ بها على مدى العقود الماضية. معظمها نقوشٌ وشواهد أشوريةٌ، وبضعة قطع من آوربا بالإضافة إلى بعض اللُقى التاريخية المصرية، والتي ستلائم حتماً مقتنيات متحف اللوفر، لقد وعدوني بوضعها في مكانٍ ظاهرٍ مع مجموعة أخرى من التحف المشابهة»

«وكلها لا تقدر بثمنٍ»

«دعك من هذه التلميحات الساخرة» قال فورستر بحنقٍ «فلقد سبق وأخبرتك أنني لست مستعداً لمناقشة القرارات التي اتخذتها مع أحدٍ، أو تبريرها لأيٍ كان، سوف أغادر هذا العالم بعد أن أسلم تلك المقتنيات القيمة لمن سيحافظ عليها بشكلٍ صحيحٍ»

«ولكن يبدو أن أحدهم لا يوافقك الرأي»

تنهد فورستر بتذمرٍ

«تسرنت هاين، لست حقا بهذه السذاجة، أليس كذلك؟»

«أنا لست ملماً بخفايا عالمكم، فأنا أقوم بنقل بضائع خاصةٍ بالأفراد والشركات محاولاً أن أبقي يدي نظيفتان لا أكثر»

«حيواناتٌ مفترسةٌ تلك التي تسيطر على عالمي يا تسرنت هاين، أناسٌ أثرياءٌ جداً ويريدون اقتناء تحفٍ ثمينةٍ ونادرة، حتى وإن بقيت هذه المقتنيات حبيسة الخزائن للأبد، وحده شعور التملك يثير نشوتهم، وهم مستعدون لدفع أي ثمنٍ مقابل ذلك، وبالمقابل فإن الأشخاص أمثالي اللذين يؤمنون لهم تلك التحف لا يتمتعون بالكثير من الضمير»

«تعني أن أحد منافسيك حاول الإستيلاء على تلك التحف؟»

«ربما» أجاب فورستر وهو يقضم الأظافر المجذبة ليده اليمنى «لقد اختفت على أية حال»

أدار كريس رأسه إلى الخلف لوهلةٍ، فرأى الوجه المضطرب لتاجر التحف، وأمكنه بالرغم من بعد المسافة نسبياً، أن يشم رائحة بقايا القهوة وأحماض المعدة الخاوية من فم فورستر.

«هل علينا أن ننتظر نفس المصير» وجه سؤاله الحاسم «لم تخبرني أي شيءٍ عن خطورة هذه الرحلة»

«لا أحد يعلم أننا في طريقنا إلى برلين» ولَكَمَ بقبضته ظهر مقعد ريتسي.

«لو أردت أخذ وجودك هنا كمعيار، فعلي أنْ أفهم أنَّ ما نقوم بنقله بهذه السيارة يفوق بقيمته ذاك الذي كان موجوداً في الشاحنة التي كانت متجهةً إلى اللوفر» صمت كريس لوهلةٍ، وحين لم يتلقى رداً على سؤاله إستطرد قائلاً «لو أن استنتاجي هذا صحيحاً، فهذا يعني أننا مستهدفين أيضاً، ولو كان الحال كذلك فعلي أن أتساءل لماذا لم يتم تأمين سيارتنا بشكلٍ أفضلٍ!»

ساد الصمت لفترة قبل أن يجيب فورستر.

«لا أحد يعلم شيئاً عن هذه السيارة، لأنني أرافق الشاحنة المتوجهة إلى باريس»

«لقد تم السطو على الشاحنة...» قاطعه كريس

«وماذا في ذلك؟» رد فورستر «لقد كان شبيهي وبونتي في الشاحنة الأخرى»

« ... شبيهك؟» صاح كريس «لقد قمت بتحضير شبيه لك لهذا الغرض... هذا يعني أنك كنت تتوقع ما سيحدث فعلاً!»

«لم يلحظ أحدٌ إنطلاقنا بالأمس من مرآب الفندق في جنيف، كان الشبيه ينتظر في مطعم الفندق، بينما كنا نحن ندخل إلى المرآب، كل العالم يعلم أنني لا أتحرك دون أن يرافقني بونتي. ولهذا كان على بونتي مرافقة الشاحنة الأخرى. فلقد قام بونتي بأخذ الرجل الآخر من مطعم الفندق إلى فيللتي، والحادث هو الدليل على أن خطتي قد نجحت»

«يالي من أحمق، إذ تخيلت إمكانية تورط بونتي بحادثة السرقة عندما كنا في (التوسكانا). يا لي من أحمق» هز كريس رأسه «أما الآن فلقد فهمت معنى تصرفك! لقد كنت تعلم أن منافسيك كانوا خلف ذلك الحادث ولهذا لم تبلغ الشرطة...»

شعر كريس بدغدغةٍ في عنقه كان يعرف ذلك الشعور الذي كان دائماً يعتمد عليه، لقد استخدمه فورستر، لقد خطط الرجل لعملية تمويه بل أنه استعان بشبيهٍ له في تحقق ذلك، من كان يستطيع فعل مثل هذا، فلابد وأنه يحسب حساباً لكل شيءٍ.

«كان عليك أن تخبرني» قال كريس بإصرارٍ. فجأةً خطر ببال كريس أن فورستر كان يحتفظ به خلال كل السنوات الماضية لهذه الرحلة.

«وماذا؟» ضحك فورستر بمرارةٍ «ماذا كان علي أن أخبرك؟ أنه علينا

أن نكون مستعدين لحادثة سطوٍ، لا تجعل من نفسك أضحوكةً، لا أحد يعلم بسفرتنا هذه ولا حتى بونتي لغاية مساء الأمس»

«وكيف حدث هذا؟»

«ماذا تعني؟»

«أين وقعت عملية السطو؟ وكيف تمكنوا من فعل ذلك؟»

أطلق فورستر بعض اللعنات بصوتٍ منخفضٍ قبل أن يبدأ برواية ما علمه منذ قليلٍ «بين سانت لورينت وموريتس. حوالي الساعة بعد انطلاقهم. مع أنني أخبرتهم بأن عليهم أن يأخذوا حذرهم»

«منذ متى؟»

«ساعة»

«وكيف؟»

«لقد قاموا بتكبيل الجميع وإلقائهم في الغابة، وأخذوا بونتي معهم، أحد الحراس استطاع حل وثاقه، واتصل برئيسه الذي قام بدوره بالاتصال بي»

بصورةٍ غريزيةٍ نظر كريس في المرآة الأمامية، كان الطريق السريع خالياً باستثناء بضعة شاحنات كانت تسير، وكأنها الأفيال بجانبهم وأمامهم.

ضغط فورستر هاتفه على أذنه بانتظار أن يرد عليه أحدهم. فجأةً أغلق هاتفه «لا يوجد إتصال مع بونتي» وبدأ فورستر يقهقه.

كائناً من يكن ذاك الذي قام بعملية السطو فلقد نجحت خدعة فورستر، تابعت السيارة طريقها في ظلمة الليل.



فجأةً إنقسم الطريق السريع إلى مسارين.على اليمين إمتدت مساحاتٌ من الحقول تليها غاباتٌ، كانت الأرض غير المستوية، وإشارات تحديد السرعة تشير إلى أن هذا الطريق السريع مازال يخضع للإصلاحات.

وفجأةً ظهرت أمامه شاحنةٌ ضخمةٌ فرفع كريس قدمه من على دواسة البنزين وضغط على الفرامل. إندفعت الشاحنة ببطءٍ متجاوزةً شاحنة الـ(رينو) والتي كانت على المسار الأيمن من الطريق.

«ألا يرون أننا نسير بسرعةٍ كبيرة؟ هذه الشاحنات مزعجةٌ جداً، ألا يمكننا تجاوزها؟» هسهس فورستر.

«وكيف لي أن أفعل ذلك؟» رد كريس. عندما كانوا لا يزالون في (التوسكانا) كان يبدو على فورستر التعب لدرجة أنه كان سينهار في أي لحظة، ومنذ أن وصلوا إلى جنيف تحول بأعجوبةٍ إلى شخصٍ نشيطٍ ورشيقٍ. كان كريس يتساءل أي نوعٍ من العقاقير تلك التي كان فورستر قد تناولها حتى يبدو بهذه الحالة الجيدة.

أخذ كريس ينقر بأصابعه على عجلة القيادة مبدياً تذمره، لأن الشاحنة التي تجاوزته لم تكن مسرعةً بما فيه الكفاية. كان فورستر يدمدم دون انقطاع وكأنه كلبٌ يزمجر قبل أن ينقض على فريسته.

راقب كريس شاحنة الـ(رينو) التي تراجعت إلى الوراء وبهذا إتسعت المسافة بينها وبين سيارة الـ(فولفو) التي كانت تسير أمامها لتصبح ملائمةً لدخول الشاحنة بينهما.

«عليك بإعمال الإشارة الضوئية، أطلق بوق السيارة،إقترب منها أكثر أو تجاوزها من على مسار الطوارئ، إنني مستعجلٌ جداً للوصول إلى برلين!»

زاد حنق فورستر عندما لاحظ أن الشاحنة لم تعد على المسار الأيمن، بل حاولت أيضاً زيادة سرعتها لتجاوز سيارة الـ(فولفو).

«هذا لن يعجبه بالتأكيد»

كانت لوحة أرقام السيارة الخلفية متسخةً جداً، ويصعب قراءتها في عتمة الليل.

إستطاع كريس تمييز اسم الشركة اللتوانية ورقم هاتفها وفاكسها، التي كانت ظاهرة على جانب الشاحنة.

إقتربت مقدمة سيارةالـ(مرسيدس) من مقطورة الشاحنة بشكلٍ خطيرٍ.

«إنه يخفف من سرعته» قال ريتسي

«هذا صحيحٌ» قال كريس مندهشاً وضغط بحذرٍ على دواسة الفرامل.

في هذه الأثناء بدأ ضوء الخطر الخاص بالشاحنة بالوميض.

«لديه مشكلةٌ» قال كريس، وزاد الضغط على المكابح، بينما كان ينظر في المرآة الأمامية. من الخلف كانت ثلاثة أضواءٍ قويةٌ تقترب منهم، توقع كريس أن تكون شاحنةً ودراجةً ناريةً.

فجأةً ومضت خلفهم إشاراتٌ ضوئيةٌ لسيارةٍ كانت تقترب منهم بسرعةٍ جنونيةٍ وعدوانيةٍ.

«أيها الأحمق» زمجر كريس، عندما بدأت السيارة بإعمال ضوء المؤشر حتى يخلو أمامها المسار الأيسر.

داس كريس بغضبٍ على المكابح وبدا أنَّ الـ(مرسيدس)قد توقفت خلال ثوانٍ معدودةٍ في مكانها، بينما انخفضت مقدمتها باتجاه الإسفلت.

«دعك من هذا الهراء!» صرخ فورستر «لا أريد أن نتسبب في حادثٍ الآن، لابد من إيصال ما نحمله بسلامةٍ إلى برلين»

نظر ريتسي من النافذة، ثم أشار بصيحةٍ مفاجئةٍ إلى الجهة اليمنى، وهنا ظهرت سيارة الـ(بي إم) مسرعةً، وبدأت تزاحمهم من الخلف في نفس

الوقت علا صوت بوق شاحنة الـ(رينو)التي كانت قد تأخرت إلى الخلف، لتنبيه سيارة الـ(بي إم) التي قطعت خط مسارها .

«ما الذي يحاول فعله؟»

«الأمر واضحٌ» قال فورستر، ونظر بدوره من النافذة «تجاوزه عن اليمين»

«إنه الآن بين الشاحنتين على المسار الأيمن، والشاحنة التي أمامنا أعملت أضواء الخطر أي أن لديها مشكلةً، وبدأت بإبطاء سيرها . وهناك ستفتح مسافةً لتعود سيارة الـ(بي إم) إلى المسار الأيمن. وبهذا يمكننا التخلص منه، بل علينا فعل ذلك!»

راقب كريس كيف أن سيارة الـ(بي إم) تقترب بشكلٍ كبيرٍ من سيارة الـ(فولفو) التي كانت أمامها، وأصبح بشكلٍ عمليٍ محاطاً بالشاحنات من الجهة الأمامية يساراً ومن الخلف.

«هيا إتبعها» صاح فورستر

أدار كريس الـ(مرسيدس)على جهة المسار الأيمن، فبدأت سيارة الـ(فولفو)تطلق بوقها . إبتسم بمكرٍ لأنه تمكن الآن من رد الصاع لسيارة الـ(بي إم) وبدأ بإعمال الإشارة الضوئية بشكلٍ متواصلٍ.

«حتى تعلم كيف كان شعوري»

خففت الشاحنة على المسار الأيسر من سرعتها . وأصبحت مقدمةالـ(مرسيدس) على نصف مستوى القماش الذي كان يغطي المقطورة، والذي انتفخ بفعل قوة الريح.

و فجأةً بدا أن شاحنة الـ(رينو) التي كانت خلفهم بدأت تقترب بشكلٍ كبيرٍ. نظر كريس إلى عداد السرعة الذي لم يتجاوز الثمانين كم/ساعة، وبدأ بالتناقص تدريجياً . أضاءت مصابيح المكابح الخاصة بسيارة الـ(بي إم)، مما إضطر كريس للضغط على دواسة الفرامل.

«اللعنة!» صاح فورستر عندما إرتد جسده إلى الأمام.

«عفواً»

نظر كريس بعناءٍ من نافذة السيارة، لقد فُتح المجال أمام سيارة الـ(بي إم) بينما حافظت الشاحنة الكبيرة في المسار الأيسر على سرعتها وبقيت الـ(رينو) ملاصقةً لسيارتهم من الخلف، في حين أن سيارة الـ(فولفو) إنطلقت بعيداً.

ظهر مخروطٌ ضوئيٌ جديدٌ فالتفت كريس إلى الخلف ليرى غرفة قيادة شاحنة الـ(رينو)تطل عليهم، إلا أن مصدر الضوء الجديد كان من دراجةٍ ناريةٍ خرجت من خلف شاحنة الـ(رينو) وقبل أن يدرك ما يحدث إندلعت عاصفةٌ من الأضواء بإتجاههم.

«أيها الوغد!» صاح كريس.

لقد أضاءت الشاحنة خلفهم كافة أضوائها، إخترقت تلك الأضواء القمرة الداخلية لسيارة الـ(مرسيدس)، أحرق الضوء الثاقب عينا كريس فأحنى رأسه إلى الأمام، وخلال لحظات تحول كل شيء إلى سواد.

إنطلقت الدراجة النارية إلى الأمام وأصبحت بمحاذاة سيارة الـ(مرسيدس)، كان كريس ما يزال ينظر إلى الأسفل، وبدأت السحابة السوداء أمام عينيه تتلاشى بشكلٍ تدريجيٍ، وأصبح بإمكانه أن يرى عداد السرعة.

كانت سرعتهم تزداد بطئاً، في هذه الأثناء صاح ريتسي ومد يده داخل سترته. تحطم زجاج النافذة وارتمى رأس ريتسي إلى جهة اليسار، ورأى كريس الفتحة المحاطة بالجلد المحروق على جبهة ريتسي.

الفصل العاشر

ألمانيا الشرقية

ليلة الأحد إلى الإثنين

كان كيث برود يلوح بسلاحه بطريقةٍ همجية، بينما كان سائق الشاحنة الكبيرة ينصاع مكرهاً لتعليماته، وكان يحدّق به وكأنه يقف أمام تمساحٍ إستوائيٍ ضخمٍ.

لقد أوقفوا شاحناتهم في مرآب إحدى الإستراحات، وانتظروا حتى يُبلغهم فريق الدراجات النارية باقتراب سيارة الـ(مرسيدس).

كان صديقه (ليو أرو) على عكسه تماماً، إذ أنه كان خبيراً بالشاحنات ولذا فقد قام بنفسه بقيادة شاحنة الـ(رينو)التي شكلت الجزء الخلفي من الفخ.

«تمهل!» صاح كيث برود «تمهل أكثر!»

لم يكن له تجربةٌ طويلةٌ في هذا المجال، لقد كانت هذه المهمة الثانية التي تُوكل إليه بعد أن خيب ظن رئيس المجموعة (نويل باينبردج) بأدائه السيئ في مهمته الأولى في (لوس أنجلوس)، حين قاموا بتلقين أحد أساتذة الجامعة درساً، لأنه ذم بريتوريين الكتاب المقدس. وفي لحظةٍ ما صاح «توقفوا». لم يرق هذا (لنويل) وحتى (باري) مدير أمن البريتوريين، تعلم من هذا الخطأ. واليوم لن يسمح لنفسه بارتكاب أي أخطاءٍ.

ولأن سائق الشاحنة الكبيرة لم ينصع لأوامره مباشرةً، قام بتصويب فوهة سلاحه إلى جبهته.

لم يتمكن السائق حتى من التأوه.

«تمهل أكثر!» صرخ برود بينما كان يراقب سيارة الـ(فولفو)أمامه على المسار الأيمن، لم يستطيعوا اللحاق بالشاحنة، لكنها كانت جزءاً من اللعبة، وكانت تشكل الجزء الأمامي من الخطة.

كان عليهم أن يسيروا بسرعةٍ أقل حتى يتمكنوا من إحكام حلقة الفخ من الجهة اليسرى.

«عليك بإعمال أضواء التحذير!»

حدق كيث مجدداً في المرآة الخارجية.لقد ضيقوا الخناق على سيارةالـ(مرسيدس)على المسار الأيمن.

«اللعنة!» رأى برود كيف أنَّ الـ(مرسيدس)خرجت فجأةً عن مسارها، واصطدمت بالدراجة النارية.

في هذه الأثناء إنطلقت يد السائق اليمنى باتجاهه، بينما كانت يده اليسرى ممسكةً بعجلة القيادة، كانت الشفرة الصغيرة سوداء وخشنةً ومتصدعةً في بعض الأماكن.

دُهش برود من الألم الذي انتابه في صدره. إستدارت القبضة أمام صدره وشعر بألمٍ كالحريق.

صُبغ كل شيءٍ أمام عينيه باللون الأسود، وفجأة أصبح غير مبالياً بدخول الشاحنة إلى المسار الأيمن لتحتل مكان الـ(فولفو)التي أفسحت المجال أمامهم، ساد الصمت، وتدحرجت الشاحنة دون إعمال المحرك.

إنحنى السائق من فوق جسد كيث برود، ودفع باب مرافق السائق إلى الخارج.

دُفع برود . ثم أحس بركلةٍ في ظهره، وسقط على الإسفلت. ثم شعر ببرودة!

تَنشّق الغازات المتصاعدة من عوادم السيارات.

بدأت أضواء الشاحنة تصغر شيئاً فشيئاً وهي تبتعد وكأنها فوانيسٌ لسفينةٍ تشق عباب البحر. أين كان أرو والشاحنة؟ أغمض برود عيناه للأبد.

لن يتسنى لكيث برود أن يعرف، أن كل هذه الخطة لم تكن تعني (إيفان داشكو) شيئاً. كان لديه سبب أوحد دفعه لطعنه، لقد تحتم على إيفان داشكو أن يتحمل الكثير من الضرب والإهانة في حياته، إلا أنه كان قد قرر مؤخراً أن أي ضربةٍ ستوجه له مستقبلاً ستكلف الفاعل حياته.



إنقلب ريتسي المربوط بحزام الأمان إلى جهة اليسار، طارت يده اليمنى الممسكة بالسلاح بشكلٍ نصف دائريْ في الهواء باتجاه كريس، ثم ارتطمت بعجلة القيادة.

سقط السلاح بين قدمي كريس الذي أبعد يداه على الفور.

ظهرت ذراع من النافذة الجانبية لسيارة الـ(بي إم) وبدأت بإطلاق النار، تحطم زجاج الواجهة الأمامية ومرت الرصاصة بجانب رأس كريس. رصاصةٌ جديدةٌ إنطلقت من سائق الدراجة النارية، فحطمت زجاج النافذة الجانبية. امتزج صراخ فورستر بصوت طقطقة الهواء المندفع من نافذته وهدير محركات الشاحنة التي لم تهدأ أبداً.

بقوة أدار كريس عجلة القيادة إلى اليمين، فاصطدمت بالدراجة

النارية، وصدر دويٌّ من المعدن المحيط بها . إنقلبت الدراجة النارية وارتطمت بالطريق الإسفلتي، ثم انزلقت إلى أسفل الغابة.

«تمسك!» صرخ كريس وضغط على دواسة البنزين، فانطلقت الـ(مرسيدس) خارجةً من الحصار الذي أحكم حولها مرتفعةً في الهواء باتجاه الغابة.

حلقت الـ(مرسيدس) لأقل من ثانيتين، ثم سقطت على الأرض الزراعية.شعر كريس بقوة ارتطام السيارة بالأرض ففقد إحساسه في منطقة الحوض من شدة الألم، ثم تبع ذلك صوت فرقعةً مكتومةً، واختفى وجهه في وسادة الهواء، على المقعد الخلفي كان رأس فورستر يرتد إلى الوراء بقوة، وكأن جلاداً قام بفصل رأسه عن عنقه.

تكور على نفسه من شدة الألم.

ترنحت السيارة، ضغط كريس على دواسة البنزين فقفزت الـ(مرسيدس) دفعةً واحدةً إلى الأمام، حتى قبل أن تبدأ عجلاتها بالدوران. أبقى قدمه على دواسة البنزين، فأصدر المحرك صوتاً هادراً، وأخيراً انطلقت السيارة باهتزازٍ عبر الحقل.

تطاير رأس ريتسي في كل الاتجاهات، ومع انعدام قوة العضلات، انكسر عنقه مصدراً صوتاً خفيفاً وكأنها طقطقة غصنٍ جافٍ.

بقيت الـ(مرسيدس) معلقةً بشيءٍ ما، وبقيت العجلات تدور حول نفسها بينما ارتفع صوت هدير المحرك، وكأنه العويل.رأى كريس جانب الطريق السريع حيث كانت تقف الشاحنة على بعد ثلاثمائة متر، وقد ارتسمت ظلالها على الطريق السريع تحت سماء الليلة المضيئة، وكانت أشرطة ضوء إنذارها الأحمر تومض بانتظام.

كانت الدراجة النارية ملقاةً في الغابة، بينما تُصدر خيطاً وحيداً من الضوء اخترق ظلام الحقل.

إنقضت سيارة الـ(بي إم) بكشافاتها القوية من جهة اليمين، وبشكل مائلٍ على سيارة الـ(مرسيدس).

أمسك كريس بعجلة القيادة بشكلٍ قويٍ ليتمكن من السيطرة على السيارة، ثم انطلق عبر الحقل، وفي كل مرة كانت السيارة تعلق في أحد الأخاديد المنتشرة في الحقل، وتبدأ عجلاتها بالدوران حول نفسها ناثرةً التراب من حولها ثم تتحرر بارتجاج من تلك الحفر.

أبقى كريس قدمه على دواسة البنزين متوجهاًإلى حافة الغابة، والتي بدت وكأنها ظلالٌ سوداءً في نهاية الحقل، كانت خطته الوصول إلى حافة الغابة، والاختفاء في الظلام الدامس.

كان يتوجب عليه ترك فورستر، فلقد كان تاجر التحف ضعيفٌ، لدرجة أنه لن يتمكن من السير حتى لمسافة العشرة أمتارٍ. لقد كان فورستر والكنوز التي معهم هدف أولئك الرجال، فلو أنه يسمح لهم بالحصول على كليهما لتوفرت له فرصة للهرب.

عليك دائماً أن تهاجم مركز العدو بكل قوةٍ، تذكّر كريس تعليمات مدربه في فرقة الشرطة المتنقلة: التغلب على الخوف هو الطريق الأمثل لبناء الشخصية.

«بالتأكيد لم يكن يقصد تلك القوات الإنتحارية» صاح كريس، وانحرف بسيارته بشكلٍ نصف دائريٍ مبتعداً عن حافة الغابة حتى أصبحت مقدمة السيارة باتجاه الطريق السريع «إلا أنني لا أنوي الهرب»

على نحوٍ غريبٍ تذكر فجأةً فحص القبول في الفرقة رقم 9 التابعة لحرس الحدود، والطبيب النفسي ذاك الذي تسبب حكمه في عدم نجاحه. (إن تصرفاته الغير مدروسة وقراراته الأحادية تعرض حياة الفريق إلى الخطر).

«الفريق هوأنا!» قال كريس بتحدٍ.كان هرمون (الأدرينالين) الذي انبعث في عروقه يطلب المواجهة لا الهروب.

توجه مباشرةً إلى سيارة الـ(بي إم).

«ماذا تفعل؟» نعق صوت فورستر من المقعد الخلفي.

«سباق رعاة البقر!» صاح كريس

«هل جننت!»

«على العكس تماماً، فالهجوم هو خير وسيلةٍ للدفاع، وسيارة الـ(بي إم) ليست بأقوى من سيارة الـ(مرسيدس) خاصتنا»

سارت السيارتان بسرعةٍ كبيرةٍ باتجاه بعضهما.

قفزت خيوط النور المنبعث من الأضواء المستديرة لسيارة الـ(بي إم) فوق الأخاديد.

كان الهواء المتدفق من النافذة الأمامية المحطمة للسيارة، يرتطم بوجه كريس منسحباً على جلده، انحنى إلى الأمام وأخذ يتلمس منطقة الدواسات باحثاً عن سلاح ريتسي حتى وجده.

إندهش عندما أمسك بمسدس الـ(كورث). يبدو أن ريتسي كان خبيراً في هذا المجال، كان مصنوعاً بالكامل من الحديد المطروق على البارد، بينما كانت قبضته من خشب الجوز، ويحتوي على نظام أمانٍ داخليٌ حتى لا يفقد الرامي في الأوقات العصيبة رأسه، عندما كان كريس لا يزال في وحدة الشرطة المتنقلة كان يحلم بامتلاك مثل هذا السلاح.

«لا تفعل!» صاح فورستر.

لم يكن يفصل السيارتان عن بعضهما سوى مائة مترٍ.

«هل أنت خائفٌ؟» رد عليه كريس

«كلا! إلا أنني أريد إنقاذ التحف!»

«وكيف ذلك؟ يبدو أن الطريق سينتهي هنا»

«سأقدم لك عرضاً!»

«جيدٌ!» أجاب كريس «عرضٌ جديدٌ كالذي نحن فيه الآن؟»

«يمكنك النجاح، بشرط أن تتمكن من الإفلات منهم الآن، وأن تبقى على قيد الحياة!»

ضحك كريس بصوتٍ مرتفعٍ، ثم قام بسحب ملقم المسدس ثلاث مراتٍ.

«تمسك!» صاح كريس.

لم يتبقى سوى بضعة أمتارٍ تفصل بين السيارتين، عندما انحرفت سيارة الـ(بي إم) عن مسارها باتجاه اليمين.

«جبناءٌ!» صرخ كريس.

ثم ارتطمت مقدمة الـ(مرسيدس) بالجناح الأيسر الأمامي لسيارة الـ(بي إم). صم الصوت الناتج عن ارتطام الحديد أذني كريس، فصرخ بصوتٍ عالٍ. ارتفع عن مقعده إثر الصدمة، إلا أن حزام الأمان سحبه إلى مكانه. ارتج رأسه للأمام والخلف، ثم ارتطم بساندة الرأس الخلفية المثبتة بمقعده.

مالت سيارة الـ(بي إم) جانباً، وأدار السائق عجلة القيادة لتجنب ضغط سيارة الـ(مرسيدس)، وفجأةً أسرعت السيارتان باتجاه طريق السفر.رفع كريس يده اليمنى وأطلق النار، فاتجهت الرصاصة من أمام جثة ريتسي، وخرجت من النافذة باتجاه سيارة الـ(بي إم)، ثم أدار(المرسيدس) إلى اليمين ليصدمها مجدداً، ارتطمت السيارتان ببعضهما، خفف سائق الـ(بي إم) من سرعته فتراجعت سيارته إلى الخلف قليلاً، وبعد برهةٍ بدأ يصدم سيارة الـ(مرسيدس) من الخلف، مرةً، اثنتان.

ثم مالبثت أن اخترقت رصاصةٌ حديد السيارة.سارت السيارتان بسرعةٍ فوق الجسر الذي بلغ ارتفاعه المترين، ولم يكن مائلاً بشكلٍ حادٍ، فلو أن كريس يتخذ الزاوية الصحيحة لنجح الأمر.

دس المسدس تحت فخذه الأيمن، وتمسك بعجلة القيادة بقوةٍ.

انطلقت السيارة بأقصى سرعةٍ فوق الجسر المائل. بدأت مؤخرة السيارة بالاهتزاز بقوةٍ ثم تحطمت، وانقسمت إلى جهة اليمين منزلقةً إلى الأسفل.

خرجت العجلة الأمامية اليسرى من على حافة الجسر، وتعلقت في الهواء، بينما كانت العجلة اليمنى تدور على الحافة.

«هيا!» صاح كريس.انطلقت الـ(مرسيدس) دفعةً واحدةً على الجسر مرتطمةً بالطريق الإسفلتي، إلا أن حاجزاً ضخماً كان يسد الطريق، إنها شاحنة الـ(رينو). كانت أضواء التحذير مازالت تومض في عتمة الليل.

أدار كريس عجلة القيادة إلى اليمين. ارتطمت سيارة الـ(مرسيدس) بخطاف الشاحنة الخلفي، وارتدت كالكرة باتجاه اليمين. بعد أجزاء من الثانية عاود إطلاق النار باتجاه الجسر. جلجل صوت مكتوم، ثم انزلقت جثة رجل على غطاء محرك السيارة، بينما اخترق رأسه الزجاج المهشم لواجهة السيارة، فمزقت حواف الزجاج المكسور وجه الرجل وشريان عنقه. وعندما اندفع الجزء العلوي من الجثة إلى الداخل، وارتطم بجثة ريتسي تناثرت الدماء على وجه كريس.

إنه سائق الشاحنة، هكذا خمن كريس.



انزلقت الشاحنة من على الجسر، وسرعان ما لاحظ كريس سيارة الـ(بي إم) تنطلق أسفل الجسر بمحاذاة طريق السفر.

ضغط كريس على الفرامل وأدار السيارة باتجاه اليسار، إلا أن محرك السيارة لم يعد يمتلك القوة الكافية. كانت العجلات اليسرى تدور في الهواء، ازداد ارتفاع السيارة، تجاوزت النقطة الحاسمة، وبدأت بالدوران

حول محورها الطولي، ثم هوت من على حافة الجسر منقلبة على سطحها، بينما بقيت العجلات تدور في الهواء باتجاه الأعلى، ثم بدأ المحرك بإصدار صوتٍ متقطعٍ، وكأن البنزين لم يعد يصله.

جلس كريس برأسٍ مائلٍ إلى الأمام، وقد شده الحزام ليبقيه ثابتاً على المقعد، كما حال ريتسي إلى جانبه.

كانت جثة سائق الشاحنة قد رميت إلى الخارج على أثر قوة الارتطام.

و على المقعد الخلفي لم ينبث فورستر ببنت شفةٍ.

حدق كريس بأضواء فرامل سيارة الـ(بي إم) والأبخرة المنبعثة من العادم.

طقطق محرك سيارة الـ(مرسيدس) للمرة الأخيرة، ثم صمت كما محرك سيارة الـ(بي إم) أيضاً.

فجأةً ساد الصمت أرجاء المكان.

فُتحت أبواب سيارة الـ(بي إم) ببطءٍ، أرجلٌ خرجت من كل جهةٍ، ولم يتمكن كريس من رؤية المزيد.

«اللعنة!» هسهس كريس «لقد انتهى أمرنا، كل هذا لأجل بضعة ألواحٍ طينيةٍ حُفر عليها بعض الخدوش»

«تذكر العرض!» همس فورستر بصوتٍ منخفضٍ، حتى أن كريس بالكاد سمعه.

كانت أذني كريس ممتلئةً بالدماء، وكان يسمع كلام فورستر، وكأنه صوت شبحٍ.

«أيها الوغد»

ترددت السيقان قليلاً، ثم اقتربت ببطءٍ من سيارة الـ(مرسيدس). كان شعاع الضوء المنبعث من مصباح جيب يحمله أحدهم يتجه نحو الأرض، وأضاء لدقيقةٍ على حذاءٍ قتاليٍ ذو أربطةٍ سميكةٍ.

ترددت الأرجل مجدداً.

بدأ كريس يتلمس كل ما حوله. ولكنه لم يستطع إيجاد المسدس. استمر في البحث، وأخيراً لامست أصابعه خشب الجوز الخاص بقبضة السلاح، كان لا يزال المسدس تحت فخذه، إلا أنه انزلق للأعلى قليلاً، ثم أمسك به.

«دعك من هذا!»

كان الصوت بارداً جداً وآتياً من جهة اليمين.

أطلق كريس اللعنات

لقد أضاع وقته بمراقبة ذاك الرجل الذي يحمل مصباح الجيب، بينما صوب الرجل الآخر سلاحه باتجاه كريس مرتكزاً على حافة نافذة باب مرافق السائق.

كان وجهه مثلثاً، يتصبب عرقاً ويبدو عليه التوتر.

«سأطلق النار إن أنت قمت بأي حركةٍ، مفهوم؟»

كان كريس يسمع ضجيج طريق السفر، الذي تعالت منه أبواق السيارات والشاحنات، التي كانت تمر بجانب الشاحنة المتوقفة إلى جانب الطريق.

تقدم الرجل بخطوةٍ أخيرةٍ من جهة اليمين، ثم جثم هو الآخر على الأرض.

«إنه نهاية السباق أيها الأحمق»

إنه حقاً وجهٌ إجراميٌ، فكر كريس لا إرادياً.

أنفٌ مكسورٌ، تقاسيم وجهٍ غير متناسقةٍ وتعابيرٌ غبيةٌ. هذا النوع من الأشخاص كان يتوقع منه كل شيءٍ.

وهذه المرة كان توقعه في مكانه.

«أعطني سلاحك بهدوءٍ»

خلف كريس دوّى صوت طلقة، فانتفض جسده، أدار الرجل ذو الملامح الإجرامية وجهه بذهولٍ. تحولت فوهة السلاح بضعة سنتمترات جانباً، جر كريس يده اليمنى باتجاه الصدر وأطلق النار. اخترقت الرصاصة عنق المجرم الجاثم، وألقت قوتها بالرجل إلى الخلف.

استدار وجه كريس إلى الجهة الأخرى، كان رجل العصابة ما زال جاثماً أمام النافذة الجانبية، إلا أن فمه كان ممتلئاً بالدماء، وفجأةً هوى جانباً على العشب.

انزلق المسدس من يد فورستر، وارتطم بالسقف الداخلي للسيارة، ثم قال لاهثاً «مازال أمامنا صفقةٌ لننهيها»



جلس الرجلان على العشب متكئان بظهريهما إلى سيارة الـ(مرسيدس) المقلوبة، كان كريس يحمل زجاجة مياه مما كان فورستر قد أحضره معه.

«هل سنقوم بعمل الصفقة؟»

كان فورستر يتنفس بصعوبة، فلقد أصابته إحدى الرصاصات الأولى في بطنه، إلا أنه رفض أي معالجةٍ لجرحه.

«كلا»

«ولماذا؟»

«هكذا»

«إنها صفقةٌ نزيهةٌ»

إبتسم كريس بمرارةٍ، فلقد كان الرجل في اللحظات الأخيرة من حياته.

«صفقةً نزيهةً، كالتي نراها هنا، الأولى بك أن تسميها عمليةً انتحاريةً»

«سوف تقوم بإيصال كنوزي إلى متحف برلين، وتسلمها للشخص الذي سأعطيك اسمه، ثم تستلم مبلغاً كبيراً من المال، به تستطيع أن تمضي بقية حياتك دون الحاجة إلى عملٍ، أو أن تقوم بإعادة بناء شركتك بشكلٍ جيدٍ»

«سأسافر إلى برلين، وسيتم القبض عليّ، هذا إن تمكنت من الوصول إلى هناك أصلاً»

«إنك لا تفكر بشكلٍ منطقيٍ»

«ولكن أنت!...»

إنتابت فورستر نوبةٌ من السعال خرج خلالها الدم من فمه.

«لن أبقى على قيد الحياة حتى برلين، وبذلك سأوفر على نفسي عناء تجرع كأس السُم، الذي كان من شأنه أن يقتلني. ولأكن صريحاً، فلقد كنت أخشى مواجهة تلك اللحظة، إلا أن كل شيءٍ سينتهي هنا»

أدار كريس وجهه، وانتفض جسده لشدة الألم، فلقد انخفض معدل الأدرنالين في دمه، وعاود الألم إرسال إشاراته إلى الأعصاب.

«كم أنت متشوقاً إلى الموت»

«إنها أمنيتي الأخيرة، عليك إيصال كنوزي الفنية إلى برلين، وستحصل على المال الذي يقدم لك، إن لم تكن جشعاً فسيدفعون لك مبلغاً جيداً، وسيكون على أية حالٍ أقل بكثيرٍ من المبلغ الذي تفاوضت معهم بشأنه»

انتظر كريس لبرهةٍ، وبعد لحظاتٍ بدأ تاجر التحف يئن من الألم.

«لقد توصلت معهم إلى مبلغ (عشرة ملايين يورو) ليقدم كتبرع لليونسكو واليونيسيف، للمساعدة في إعادة إعمار العراق، وهذا لن يتحقق

الآن، إلا أن منظمات المساعدة ستحصل على كامل ثروتي بكل الأحوال، كل شيء مرتبٌ، المهم أن يتم عرض مقتنياتي، هذا هو ما أريد»

«إنك تهذي»

«إنهم في برلين يتوقون بجنونٍ للحصول عليها ...صدقني» ضحك فورستر «وغيرهم أيضا يتمنون ذلك، فهذه التحف لن تتكرر ثانيةً، عليك فقط أن تكبح جماح طمعك وأن لا تطلب الكثير»

«وماذا لو أنهم لا يريدونها؟»

«عندها سيكون لديك الحق في بيعها إلى أي متحفٍ يدفع لك المبلغ الأكبر، أو أن ترسلها إلى إسبانيا أو إيطاليا»

نظر كريس إلى فورستر بصبرٍ.

«ولكن لدي شرطٌ وحيدٌ. لا تبعها تحت أي ظرفٍ من الظروف إلى تجار الآثار، أو إلى جامعي التحف، أو هواة جمع المقتنيات، ولكن يمكنك التهديد بذلك» استدارت عينا فورستر وكان يلهث من الإجهاد.

«أريد أن تصل تلك المقتنيات الثمينة إلى المتاحف العامة، بحيث يستطيع أي زائرٍ رؤيتها والانبهار بجمالها وروعتها»

«ما أزال لا أفهم...»

«ليس من الضروري أن تفهم، في برلين سيتم المحافظة على تلك التحف البابلية، لذلك عليك أن تذهب إلى هناك، وبالتحديد إلى بوابة عشتار»

«لا شيء يضمن لك أنني سأفعل ما تطلبه مني»

«إنك واهمٌ، إنني أعرفك جيداً، لو كان ريتسي مكانك ربما كان سيقوم بما تحاول التلميح إليه، لكن ليس أنت! وما تعتقد أنه كان السبب وراء إعطائي إياك المهام، واختبارك طوال الفترة الماضية؟ لقد قمت بالتخطيط منذ زمنٍ طويلٍ لهذه اللحظة، حتى لو أنني لم أتمنى أن تكون

النهاية على هذا النحو» عاود فورستر السعال مجدداً «بالإضافة إلى أنك فرصتي الأخيرة»

«كم هذا حقيقيٌّ» وقف كريس وهو يحدق بتاجر التحف من الأعلى «هنا ينتهي كل شيءٍ، لا يمكننا إخفاء ما يحدث هنا»

«عليك الانطلاق فحسب» رفع فورستر عيناه للأعلى ناظراً إلى كريس «لا يوجد ما يدل على تورطك! وبونتي سيصمت! إنه حارسي الشخصي، لقد أوصلتموني إلى جنيف، وسنقوم بمحو آثارك، لم تكن يوماً هنا، هنالك شاحنتان ستقومان بعملية التمويه بينما تمضي أنت وحدك مع التحف إلى برلين، عليك فقط المضي قبل أن يظهر أي أحدٍ»

هز كريس رأسه «و ماذا عن الأشخاص الذين أحدثوا كل هذا؟ هل سيقومون أيضاً بـ...»

«وكيف ذلك؟ من يدري بشأنك؟ حتى لو أن أحدهم كان يراقبني... ففي جينيف كنت أنت في الفندق، ولست في فيللتي. لقد أمرتهم بتبديل السيارات. لم يرك أحد . ومن ذا الذي سيعرفك؟»

«و من هؤلاء؟ بهذا المنطق...محاولتان للسطو...»

زم فورستر شفتيه «إنهم منافسين، أوغاداً! لقد قمت على مر أشهر بالتفاوض مع متحفيّ (اللوفر وبرلين)، لا بد وأن شيئاً قد تم تسريبه إليهم، وإلا لما وجدتهم هنا اليوم»

«لقد قمت منذ البداية بترتيب كل شيءٍ...كل خطوةٍ، حتى أنك حسبت حساب ما حدث هنا»

«فلنقل أني لم أخرجها من دائرة الاحتمالات. وماذا في ذلك؟»

صمت كريس مستغرقاً بالتفكير.

«لن أتمكن أبداً من بيع الآثار»

«هـراءٌ، عليـك أن تعـرف هـذا جيـداً مـن خـلال خبرتـك في عملـك السابق. إذا كانت المتاحف تشتري من لصوص المقابر وسارقي القبور فلماذا ليس منك؟» زم فورستر زوايا فمه إلى الأسفل بغضبٍ «خذ رقم الهاتف هذا، إنه للبروفيسور (سولنر)، وسترى أن طمعهم سيكون في مصلحتك، بالإضافة إلى ذلك فإن كل هذه التحف هي ملكي. صحيحٌ أنها مسروقة ولكن حسب كل القوانين الدولية فإن ملكيتها اليوم تعود لي، لا يمكن لأحدٍ أن... إنك تحقق الأمنية الصادقة والأخيرة لرجل يحتضر» سعل فورستر مجدداً، مضى وقتٌ ليس بقصيرٍ قبل أن يطلب فورستر من كريس أن يحضر له حقيبته الجلدية من السيارة. كان على كريس أن يفتح القفل، ثم سحب فورستر بأيدٍ مرتجفةٍ بضعة أوراقٍ من الحقيبة.

«إقرأ»

حدق كريس بالأوراق، ثم جلس القرفصاء إلى جانب فورستر ليتمكن من القراءة، مستعيناً بالضوء المتسرب من داخل السيارة، كان عقد بيعٍ.

بحث فورستر بعناء داخل جيب سترته وبهدوءٍ سحب قلماً. أخذ العقد وكتب اسم كريس في المجال الفارغ لتعبئة الاسم على العقد، ثم ملأ في إحدى الفراغات أسفل الصفحة مبلغ الشراء. وضع فورستر إمضاءه على الصفحة الأولى ثم الثانية، ثم كتب اسمه لإبرام العقد.

«خذ» مد فورستر يده بالعقد إلى كريس «بمجرد توقيعك على هذا العقد، فسيصبح كل شيءٍ ملكك. كان من المفترض أن يكتب اسم المتحف على هذا العقد، إلا أن اسمك قد حل محله الآن، ستأخذ نسخةً من العقد، لتضع اسمك كبائعٍ، واسم المشتري عليه، ومهما حدث عليك أن تُبقي خانة السعر فارغةً، إنها مهمتك!»

«لن ينجح هذا أبداً»

«لماذا؟ إن بنود العقد واضحةٌ تماماً، يمكنهم التأكد من صحة توقيعي

في أي وقتٍ، من خلال محاميي، من بونتي أومن موظفيٍّ، أو من مصرفي، من أي جهةٍ، بضربةٍ واحدةٍ ستزول كل الصعاب»

فكر كريس بمشاكل شركته، بالمهام المتوقفة، وبأحلامه التي لم تتحقق.

«علي التفكير ملياً إن أنا أردت أن...»

«تذكر أن عليك الاستعجال. لأنك لم تكن هنا أبداً»

تذمر كريس ثم مضى.

كانت جثة سائق الدراجة النارية ملقاةً على بعد خطواتٍ منهم، وكان القناص الممدد على الأرض لا يزال يحتضن سلاحه. إنتزع كريس السلاح من القناص، وفتش في ثيابه عن ذخيرةٍ احتياطيةٍ، ثم رفع الخوذتان الواقيتان عن رأسيٍّ الجثتين، رفع الدراجة وحاول تشغيلها عدة مراتٍ، ثم قادها باتجاه سيارة الـ(مرسيدس).

«هل فكرت بالأمر ملياً؟» سأله فورستر بصوتٍ مبحوحٍ «لقد حان وقت رحيلي، وعلي أن أعرف قرارك. بموافقتك فقط سأتمكن من احتمال ما ينتظرني في الجحيم»

كان كريس ما يزال متردداً، إن إستطاع تحقيق كل ما طلبه منه فورستر فسيتمكن من الخروج من كل مشاكله، أما إن أخفق في ذلك فعندها سيقف كما هو الآن.

«حسناً، سأفعل»

إبتسم فورستر بارتياح.

«حسناً. إذاً سأحصل منك الآن على يورو واحدٍ»

نظر كريس إلى تاجر الآثار بارتباكٍ.

«أنا جادٌّ في طلبي فعلاً»

أخرج كريس يورو من جيبه، ورماها في يد فورستر.

«دس يدك في الجيب الأيسر الداخلي لسترتي»

انحنى كريس، وأخرج ظرفاً من جيب فورستر.

«في هذا الظرف ستجد اسم ورقم هاتف الشخص الذي ستقوم بالاتصال به في برلين، أحضر الصندوق»

كانت حقيبة السيارة عالقةً، فلم يستطع كريس فتحها، وبعد محاولاتٍ عدةٍ استطاع أن يفتح جزءاً صغيراً منها، ولأن السيارة كانت مقلوبةً، انزلق الصندوق الخشبي إلى الزاوية إلا أن الفتحة كانت ضيقةً جداً.

جثم كريس على ركبتيه، وأدخل يده في فتحة حقيبة السيارة، وبدأ يسحب القطع الأثرية واحدةً تلو الأخرى، ثم أفرغ الكيس الذي كان يحتوي على بعض الأطعمة والأشربة الخاصه بفورستر، ووضع به التحف.

«كم يؤلمني أن أراك تتعامل مع هذه الكنوز بتلك القسوة»

«هل لديك فكرةٌ بديلةٌ؟» دمدم كريس بعصبيةٍ، وتقدم من فورستر الذي رفع يده اليمنى بإعياءٍ إلى الأعلى.

«أود إلقاء نظرةٍ أخيرةٍ فحسب» قال فورستر بصوتٍ مبحوحٍ «لمسةٌ أخيرةٌ، أرجوك»

أومأ كريس موافقاً، ثم نزل إلى فورستر، وبدأ بإخراج القطع من الكيس. لمعت عينا تاجر الآثار الذي بدأ وللمرة الأخيرة يتلمس أسطح الألواح الطينية برؤوس أصابعه.

و فجأةً سحب يده وقال «خذ معك جواز سفر ريتسي»

«ماذا؟» سأل كريس وهو يرمق كريس بنظرةٍ تنم عن عدم الفهم لما يريده منه، بينما بدأ يعيد التحف إلى الكيس مرة أخرى.

«هيا افعل، إنه تقريباً بنفس سنك. حتى وإن كانت الصورة مختلفةً... لا يمكن للمرء توقع ما قد يحدث...»

بحث كريس في سترة ريتسي حتى وجد جوازالسفر.

«ليس سيئاً» تمتم كريس، عندما وجد جواز السفر الدبلوماسي الصادر عن جمهورية مالطا.

«أليس كذلك؟» ضحك فورستر، وسحب جواز سفره بعناءٍ من جيب سترته «ألق به في سيارة المرسيدس، ولا تنسى أن تأخذ جوالي وسلاحي معك»

«ليس في نيتي أن أخوض حرباً»

«عليك أن تُحضر كل شيءٍ» قال فورستر وقد بدا عليه الارتياح.

«ساعدني. فلم يعد بإمكاني النهوض، خذني إلى سيارة الـ(بي إم)»

أمسك كريس بفورستر من تحت إبطيه وجره إلى السيارة، أطبق تاجر الآثار أسنانه على بعضها مصدراً أنيناً خافتاً.

«مازال ريتسي يجلس في المكان الخطأ، يجب أن يكون على مقعد السائق»

توجه كريس إلى سيارة الـ(مرسيدس) وسحب الحارس بصعوبةٍ إلى مقعد السائق.

«ابحث عن صفيحة الوقود الاحتياطية في سيارة الـ(بي إم)، فإن لم تجدها هناك فعليك البحث في الشاحنة، إنك تعلم...؟»

أومأ كريس موافقاً، ثم بحث في السيارة، وبالفعل وجد صفيحة الوقود، ثم صب الوقود على سيارة الـ(مرسيدس) وأخيراً قام بمد خط من الوقود باتجاه فورستر.

أصبح كريس جاهزاً، قام بإبعاد الدراجة النارية عن المكان. ثم أدارها، وجهزها للانطلاق.

عاد إلى فورستر.

«والآن عليك أن تغادر المكان» أشار له العجوز بيده «لا حاجة للدموع، فإننا لم نكن قريبين من بعضنا لهذه الدرجة حقاً»

لاحظ كريس وجود المسدس بجانب فورستر، إنه ذلك السلاح الذي استخدمه تاجر الآثار من قبل لإنقاذ حياتهما.

«إنه هنا لاستخدامه في حال أن الأمر لم يتم بسرعة، فأنت ترى أنني ما أزال على قيد الحياة، بالرغم من إصابتي القاتلة في البطن، أم أنك تريد أن تتولى الأمر؟»

تلاقت نظرات الرجلين.

«كلا»

انحنى كريس وهمس في أذن تاجر التحف. ضحك فورستر بصوت عالٍ ثم أجابه بكلمةٍ واحدةٍ. أومأ كريس ثم استقام، وألقى نظرةً إلى الولاعة التي كانت بيد فورستر، ثم ذهب. ركب على الدراجة النارية، وانطلق دون أن ينظر خلفه.

بقي فورستر جالساً على الطين ومسنداً ظهره إلى سيارة الـ(بي إم) بينما كان يقبض بيده على اليورو، الذي كان قد ربحه من صفقته الأخيرة.

ضحك فورستر برضاً، ثم شحذ الولاعة فالتهمت النار خيط الوقود. انفجر خزّان الوقود الخاص بالـ(مرسيدس) فتصاعدت ألسنة اللهب إلى السماء، وغطى دوي الانفجار على صوت الطلقة التي خرجت من المسدس.

ارتعش جسد كريس لوهلةٍ عندما سمع دوي الانفجار الصادر من خلفه، رنت كلمة فورستر الأخيرة في أذنه عندما سأله «هل بقي ما تخفيه عني؟»

«الكثير»

الفصل الحادي عشر

الفاتيكان

الإثنين

في البداية رأى العصا المقوسة، فتبادر إلى ذهنه عصا الأسقف ولكن هذه كانت مختلفةً، بسيطةً، وغير مُلّبسةٍ بقشور الذهب، وبدون زخارف عاجيةٍ، ولم تكن لها تلك الرأس الحلزونية المعروفة.

كانت مستقيمةً نوعاً ما، ولم تكن تشبه تلك العُصي التي تُصنع باستخدام أدواتٍ معينة، بل انتشرت عليها عُقدٌ، وكأن فروعاً كانت تريد أن تنمو منها ولكنها قُطعت.

كانت العصا ملساءً بطريقةٍ ملفتة، وخصوصاً في جزئها العلوي قبل بدء انحناء رأسها بقليل. كان ذلك الموضع أملساً جداً، وكأنه قطعةٌ من الماس المشذب... ماسةٌ سوداءٌ، حيث أمسكته الأيادي لملايين المرات. فلقد صَبغتها قذارة الأيدي بلونٍ داكنٍ، لم تكن عصا الأسقف. فيداه لم تكن قذرةً.

وغير ذلك فإن لونها كان رمادياً غامقاً، ويابسةً ومُجردةً من لحاها، وتلونت بفعل الضوء والأمطار.

إتسع رأس العصا الدائري ليصبح على شكل جاروفٍ أشبه بالمجداف، كان يستخدمه للحفر في الأرض باحثاً عن المياه ليسقي قطيعه عند نقص المياه السطحية.

ثم رأى الرجلَ الذي كان يحمل عصا الجاروف.

كان ذلك الرجل متوسط الطول فعلاً، كان يعرفه، لقد رآه عشرات المرات لحد الآن، أم أنها كانت أكثر من ذلك.

إنه يرتدي ثياباً بسيطةً خاليةً من الألوان، منسوجةً من صوف الحيوانات، مطرزةً برسومٍ من الخيوط الذهبية التي لمعت تحت أشعة الشمس، حذائه من الخوص الجاف المجدول بشكلٍ أنيقٍ، وغطى رأسه بقطعةٍ من القماش البسيطة لحمايته من حرارة الشمس.

كان وجهه مستطيلاً وجسده قوياً، وكأنه معتادٌ على العناء والعمل الشاق، وكانت عضلات ساعده تبرز عند أي حركةٍ يقوم بها تحت لهيب الشمس الساطعة، بدا وجهه الجاف وكأنه قطعةٌ من الجلد التي تلونت بالسُمرة، لم يتمكن من تقدير عمر ذلك الرجل.

إتسعت الصورة أمامه حتى ظهر قطيع الأغنام، كالعادة. كانت تتجمع إلى جانب بعضها البعض وترعى بحثاً عن العشب الطري. اختار القطيع موضعاً جيداً، فلقد كانت الأرض الرملية مليئةً بالأعشاب.

وقف الرجل متكئاً على عصاه، وملقياً بالنصف العلوي من جسده على الجزء المستقيم من العصا وممسكاً بها بكلتا يديه، بينما كانت النهاية الدائرية للعصا ترتكز بشكلٍ مائلٍ على الأرض.

وقف وسط القطيع، وكانت حفر الماء تنتشر في أرجاء المرعى. كان يراقب جميع الخراف وينظر بفضولٍ، حين ظهر قطيعٌ آخرٌ من جانب النخلة وعلى بعد مائتي خطوةٍ منه وبدأ بالاقتراب.

صفّر الراعي، فظهر كلبان في المشهد، كانا ذا وجهين ذئبيين، وبينما حاصر أحدهم القطيع على الفور، عدا الآخر بصحبة الراعي باتجاه القطيع الجديد، وقاما معاً بمطاردة الخراف باتجاه قطيعهم، إلى أن تمكن من ضم القطيعان إلى بعضهما فاختلطت الخراف.

سمع بندكت صوت ضربات الأجنحة، قويةً، عظيمةً، وغير متسرعةٍ، بل هادئةً، وواثقةً كالعادة.

نظر الراعي للأعلى، ما زال يرى بقعةً تحلق في السماء، ثم تعاظمت. خرجت المخالب من قدميه القويتين، ثم رأى المنقار، والعينان الطامعتان للصياد الذي جلب الموت معه.

نبحت الكلاب، وبدأ الراعي يهرول بين خرافه.

حمل حجراً بجاروفه، وألقاه باتجاه النسر في اللحظة التي اقترب فيها من الأرض، ألقى بحجرٍ ثانٍ ثم بآخرٍ.

زعق النسر بصفيرٍ عالٍ، وقطع طيرانه باتجاه الأرض مستديراً برشاقة في الهواء.

اتكأ الراعي مجدداً على عصاه، وهو ينظر بمحبةٍ إلى قطيعه الذي ازداد عدده بشكلٍ ملحوظ.

مر وقتٌ طويلٌ دون أن يحدث شيءٌ، ثم عاود الراعي التحرك.

اقترب قطيعٌ آخرٌ من بين تلال الرمال، على شكل مجموعاتٍ وأفرادٍ سارت الخراف عابرةً المرعى باتجاهه.

راقبها الراعي، لايوجد مع ذلك القطيع أي كلابٍ ولا حتى راعي، إنه صيدٌ سهل للنسر. صفر الراعي لكلابه، التي انطلقت تطارد الخراف حتى ضمتها هي الأخرى إلى قطيع الراعي.



انتفض البابا بندكت مذعوراً، لوهلةٍ أضاع شعوره بالمكان، لقد بزغ فجر يومٍ جديدٍ، وأراد الصلاة في كنيسته الصغيرة الملحقة بجناحه الخاص.

جلس على الكرسي ذا المسند الحديدي، الذي كان في منتصف الغرفة. فجأةً انتابه شعورٌ بالقلق، فلقد كانت تلك المرة الأولى التي تتكرر فيها هذه الأحلام بشكلٍ مكثفٍ ومتتالٍ.

نهض وتوجه إلى المذبح، حيث كان ذلك الصندوق الصغير المزخرف بقشور الذهب ما يزال في مكانه، وقد وُضع عليه صليبٌ خشبيٌ بسيطٌ.

فتح الصندوق بينما كان يمسك بيده الأخرى ذلك الصليب المصنوع من الخشب البسيط والقديم جداً، والذي ربما تم حفره في دير (مونت كاسينو) عندما كان القديس بندكت ما يزال على قيد الحياة.

وضع الصليب على المذبح، ثم رفع الصندوق الصغير وجرَّ الدرج السفلي المغلف بالمُخمل إلى الخارج.

كان بداخله لوحٌ طينيٌ، طُبع عليه مجموعةٌ من الرموز، وإلى جانبه عدة مخطوطاتٍ من الأوراق ذات اللون المُصفر.

أخذ المخطوطة الأخيرة وبدأ يقرأ.

لقد كانت واضحةً.

لقد حان الوقت.

ولكن فقط عندما...



انتظر المونسينيور تيساني في الممر الموجود أمام مكتب البابا، وكان يحدق من النافذة. آلمت عيناه الأشعة الساطعة للشمس التي كانت تنتصف السماء تقريباً. استدار إلى الخلف وهو يفكر بكيفية اختيار الكلمات المنمقة لإعلام البابا بفشله، وتأكيده الولاء له في نفس الوقت.

لقد أجرى ذلك اللقاء مع الناشر الأمريكي نزولاً عند رغبة البابا، إلا أنه وخلال دقائق قليلةٍ سيسقط من نظر قداسة البابا كالسقوط الحر من على حافة الجبل.

تخيل تيساني الوجوه الشامتة لزملائه القساوسة، والذين طالما كانوا يحسدونه على علاقته بقداسة البابا، والكاردينال ساشي، وثقتهما به من خلال اختياره هو بالذات لأداء المهام الخاصة. كانوا دائماً ما يحاولون أخذ تفاصيل منه حول ما هو جديدٌ لاستعماله كمادةٍ للثرثرة في كواليس الفاتيكان، ولكنه كان دائماً يكتم عنهم ما يعرفه. والآن إن تخلى البابا عنه فسوف يعاني من التلميحات الشامتة، ويتحول إلى أضحوكة الفاتيكان.

لقد بدأ كل شيءٍ في مساء يوم الجمعة ذاك بعد حديثه مع البابا، عندما استدعاه الكاردينال ساشي إلى مكتبه لمناقشة الحوار الذي دار بينه وبين البابا مرةً أخرى.

«إن البابا ما يزال حزيناً على سلفه، فلقد كان شديد التقدير لإمكاناته، ولهذا فلقد قرر الاعتكاف في الدير لمدة ستة أشهرٍ. إني أثق بك، ولكن عليك أن تزيل بعض الشكوك المتبقية لدى قداسة البابا، ولتحقيق هذا الغرض سيكون من المجدي أن أطلب منك هذا الطلب» صمت الكاردينال لبرهةٍ «هل أنت مستعدٌ؟»

أومأ تيساني موافقاً، إنه لن يعطي الآخرين فرصةً ليشمتوا به.

«إن قداسة البابا ينتظر معلوماتٍ هامةً، والتي كان من المفترض أن يتم تسليمها صباح هذا اليوم في (غروسيتو) عند مُتحف الآثار. معلوماتٌ هامةٌ بخصوص العقيدة، إن كنت تفهم ما أعني... إلا أن ذلك لم يحدث، وقداسته في حيرةٍ من أمره. هل تعلم أنه صاح غاضباً عندما أخبره رئيس شرطة الفاتيكان بذلك؟» هز الكاردينال ساشي رأسه غير مصدقٍ لما حدث «لقد كنت موجوداً بالصدفة، وعلي الآن أن أعتني بهذا الأمر... أرجوك أن

تقوم بهذه المهمة بالنيابة عني، وعليك أن تبقي عيناك متيقظتان حتى لا تبوء مساعينا بالفشل مجدداً. عليك أن تفهم، أنه لا يمكنني ككاردينال أن أصطحب رجلا أمنٍ عاديين لعملية تسليمٍ... وفي نفس الوقت عليَّ أن أنفذ رغبة قداسته! هل تفعل هذا لأجلي؟»

وبهذا رافق تيساني صباح يوم الأحد كل من (أوغوستو بيكوريللي) من لجنة الأمن، وهو بمثابة جهازٍ للمخابرات الوقائية للفاتيكان، و(إلجيديو كالفي) أحد الرجال المائة والعشرين الأقوياء التابعين لجهاز شرطة الفاتيكان. ويعد كالفي أحد رجال الوحدات الخاصة التي تضم ما يقارب اثنا عشر عنصراً، وقد تم تدريبه وإعداده كقناص لمرافقة البابا أثناء زياراته خارج البلاد، وبهذا فهو يخفف جزءاً من الأعباء الملقاة على عاتق الحرس السويسري.

انتظروا كما كان الاتفاق في (غروسيتو)، لم يغفل كالفي للحظةٍ عن مراقبة حقيبة النقود، ومن خلال الرد على أسئلته الحذرة علم تيساني أن بيكوريللي هو من قام بترتيب الاتصالات. لقد تم إلحاق بيكوريللي بخدمة الفاتيكان منذ ثلاث سنواتٍ فقط، بعد أن عمل لحوالي عقدٍ من الزمن مع مجموعة التدخل التابعة لقوات الشرطة الخاصة في مدينة (ليفورنو).

ثم تلقى بيكوريللي اتصالاً من الرجل الذي كان يزوده بالمعلومات، والذي أخبره بأنهم قاموا بتأجيل موعد التسليم مجدداً. أصبح بيكوريللي متوتراً، وهو يحاول تأكيد أن مصدر معلوماته ملتزمٌ تماماً ويمكن الاعتماد عليه. بدأ تيساني يفهم حجم الدور الذي أسنده له الكاردينال، فلقد كان عليه أن يتحمل مسؤولية الفشل بدلاً عن ساشي، لقد تأكد تيساني من ذلك عندما كانوا يعاودون الانتظار صباح هذا اليوم دون جدوى، ودون أن يتصل مصدر معلومات بيكوريللي ولو لمرةٍ واحدةٍ.

جف حلق تيساني عندما خطر بباله أنه لابد للأمر أن يكون على درجةٍ عاليةٍ من الأهمية، حتى يتم إرسال أحد الحراس الشخصيين للبابا مع إلجيديو كالفي. ولكن ماهو ذلك الأمر؟ وأي نوعٍ من الاتصالات تلك التي كان يتمتع بها بيكوريللي، حتى...

هل قام قداسة البابا بارتكاب خطأ ما؟

هل يعاقبه الرب؟

الفصل الثاني عشر

ألمانيا الشرقية

الإثنين

بدأ ارتعاش عضلاته المتشنجة يختفي شيئاً فشيئاً، وتناقص الصداع النابض في رأسه مع كل رشفة قهوةٍ.

جلس كريس في الركن الخلفي للاستراحة محتمياً من نظرات الزبائن القلائل الذين تواجدوا فيها. كانت بقايا طعام فطوره ما تزال أمامه على الصينية، بينما ارتشف جرعاتٍ صغيرةً من القهوة، التي أضاف إليها شيئاً من الكونياك. لقد استطاع جسده التخلص من كمية الأدرينالين التي تراكمت على مر الساعات الماضية، وبدأ يطلب المزيد من التحفيز. في الماضي كان يقوم برياضة المشي بعد الانتهاء من أي مهمةٍ خطيرةٍ، حتى يتمكن من التخلص من بقايا التوتر.

لم يلحظه أحدٌ، فغالبية الزبائن كانوا يجلسون في الجزء الأمامي من الاستراحة محدقين إلى التلفاز. فمنذ فترةٍ وجيزةٍ أذاعت نشرة الأنباء خبراً عن حادثٍ مروعٍ أودى بحياة العديد من الضحايا، وأشار أحد أجزاء النشرة بأنه تم العثور على شاحنةٍ متوقفةٍ في مكان الحادث وبها شخصٌ مقيدٌ، والذي أفاد بأنه سائق الشاحنة، وأنه تعرض لحادث سرقةٍ أثناء توقفه في مرآب السيارات، ثم تحول الحديث فجأةً عن مذبحة حدثت بين مهربين،

على طريق السفر السريع رقم 9 حيث تم عدة مراتٍ الهجوم على اللاجئين القادمين من أوروبا الشرقية، والذين كان من المفترض إيصالهم إلى أوروبا الغربية الثرية.

دارت في رأس كريس فكرة إغلاق هذا الفصل من حياته، بأن يقوم بتسليم هذه الآثار إلى الشرطة، ويدلي بأقوالٍ صريحةٍ وحقيقيةٍ حول ما حدث فعلاً، فلو ضم لحادثة محاولة السرقة التي تمت في التوسكانا لأصبحت هذه هي المرة الثانية التي تتعرض فيها حياته للخطر بسبب مكائد فورستر.

أخذ يلعن بصوتٍ منخفضٍ، فلقد استغله فورستر منذ البداية. لقد أبقى على اتصاله به، لأنه أراد أن يجعل منه حجر شطرنجٍ في لعبته، ليكون هو الجندي الأخير الذي سيقوم بإيصال الطرد. إنه لا شيءٌ، مجرد هدفٍ، صيدٌ تم تزويده بطعمٍ سمينٍ للإبقاء عليه عالقاً بالصنارة.

إنها صفقةٌ عاديةٌ، كل شيءٍ مجهزٌ، كل شيءٍ يمكن توضيحه، كل شيءٍ سهلٌ، كل شيءٍ هراءٌ، لقد أعطى فورستر فرصةً جديدةً لاستغلاله عندما كانا في الغابة. وما يزال هناك ذاك المجهول، الذي يمتلك الإمكانيات اللازمة ليقوم بمثل هذه العمليات في مكانين مختلفين، وفي وقتٍ واحدٍ، والذي كان باستطاعته الحصول على المعلومات التي يحتاجها ولديه مخزونٌ هائلٌ من الأسلحة والقتلة، ومن الواضح أنه لم يكن يخشى شيئاً لا الشرطة، ولا النتائج.

هل ماتزال أمامه فرصةٌ؟

لو أراد الاستمرار في هذا الأمر فعليه أن يكون سريعاً، عندما تصل تلك الآثار إلى المكان المحدد لها فلن تعود ملاحقته مهمةً بالنسبة للعصابة.

إنك تخفي عني شيئاً ما

الكثير

لم تغب الكلمة الأخيرة لفورستر عن ذهن كريس أبداً.

في تمام الساعة السادسة أمسك بجواله.

طلب (إينا) وأيقظها من النوم.

«إنه أنا»

«ومَن غيرك!»

كان صوتها العذب ما يزال غارقاً في النوم، ولقد تنبه إلى نبرة الانزعاج في كلامها، إلا أنه لم يعتذر عن اتصاله بها في هذا الوقت المبكر، ولكنه ترك لها الوقت الكافي للتثاؤب.

«لماذا تتصل في هذا الوقت المبكر؟ إنني ما أزال نائمةً»

«إنني بحاجةٍ لمساعدتك»

«وما يمكنني فعله؟» أصبح صوتها جاداً فجأةً.

«بحثٌ»

«ليس قبل الساعة العاشرة»

«عليكِ الذهاب إلى الشركة، يجب أن تبدئي بالبحث»

تذمرت إينا

«اسمعي!» همس عبر الهاتف «مات الكونت! لقد تم السطو علينا» أخبرها بشكلٍ عامٍ ما حدث معهم «والآن أصبحت أنا المالك للقليل من المجوهرات وبعض الألواح الجصية»

«المجوهرات ستكون لي، أين أنت الآن؟»

«في إحدى الاستراحات على طريق السفر السريع رقم 9. اتصلي بي عند وصولك إلى الشركة» سمع لعناتها وأنهى المكالمة.

نظر حوله للتأكد بأن أحداً لا يراقبه، وفي ذلك الركن المحمي عن الأنظار أخرج أحد الألواح الطينية من الكيس القطني، وأخذ يقلبه بين يديه. تأمل الختم الخاص بنبوخذ نصر الثاني. أما عن مضمون اللوح فلم يتفوه فورستر بجملةٍ واحدةٍ.

ربما كانت الألواح تتحدث عن بطولات ذلك الملك. كتاب تاريخٍ أثريٍّ.

أعاد الألواح بحرصٍ إلى الكيس، بينما كان يتفقد المكان بنظراته. كان العاملين في الاستراحة يستعدون لاستقبال زبائن الصباح، ويرتبون الطاولات في الخارج.

أمسك بالختم الدائري أولاً ثم أعاده، وأخرج أحد العظام، طولها لا يتجاوز العشر سنتمترات، ربما كانت بقايا عظميةً بنهايات مهشمة.

هل هي عظامٌ بشريةٌ أم حيوانيةٌ؟ ولماذا احتفظ فورستر بهذه العظام مع الألواح الطينية؟ لماذا قام بالاحتفاظ بها أساساً؟ كم عمرها؟ هل هي بعمر الألواح؟

وإن كان الأمر كذلك فهل هي ثمينةٌ؟

خلال بحثهم عن تاريخ الإنسان الأول في أنحاء العالم، يقوم علماء الآثار دائماً بالبحث عن البقايا البشرية، ويُنقبّون عن البقايا العظمية تحت الأرض، والتي يعود تاريخها إلى آلاف السنين.

فهل لهذه العظام حقاً تلك الأهمية؟ ربما كانت بقايا عظامٍ لنبوخذ نصر نفسه...

بحَيرةٍ كبيرةٍ أعاد الآثار إلى الكيس، ثم كان هنالك تلك الورقة التي وضعها أيضاً في الصندوق، كانت عبارةً عن خارطةٍ لموقعٍ رسمت خطوطه باللون الأبيض والأسود، وكان أحد أطرافها ممزقاً، وكأنها نزعت من أحد الكتب. بالإضافة إلى أنها ملساءٌ، وذات لونٍ مائلٍ إلى البني، وقد بدت آثار ثنيةٍ في وسطها، بينما دُعّمت جهتها الخلفية بشريطٍ رفيعٍ من الورق الأبيض عند مكان الثنية تماماً.

ويبدو أنها فقدت بعض أجزائها في الزاوية اليمنى من الأعلى، وكذلك من الأسفل. الزوايا الحادة تدل على أن أحدهم قام باستخدام المقص لقطع تلك الأجزاء من الورقة.

كانت الخارطة تصور رسومات لسورٍ أحاط بمناطق قليلة النباتات، وتم الإشارة إلى مناطقٍ ومواقعٍ بأحرفٍ كبيرة، أحادية أو مزدوجة. وكان هنالك خطٌ أبيضٌ واضحٌ يبدأ من النصف الأيسر للورقة عابراً كامل الرسم، وكأنه شارعٌ عريضٌ ومنحنيٌ، رُمز له بالحرف E، إلا أن الخارطة لم تحتوي على تفسيرٍ لمعاني تلك الأحرف.

في مكانٍ ما على الخارطة رُسمت إشارة صليب.

لابد وأن ذاكرته لم تعد تعمل بشكلٍ صحيحٍ، فلقد سمع من فورستر تعليقاً حول هذا، إلا أنه لم يعد يذكر مضمونه.

«إنه لم يذكر شيئاً واضحاً بشأنها» دمدم كريس بصوتٍ منخفضٍ «ربما تكون هي».

في الفيلا كانت ممددةً على الرمال الناعمة في إحدى الفاترينات.

و فجأةً تذكر.

«إنها تعود إلى بقايا بشريةٍ، انقرضت منذ زمنٍ بعيد»

وفي لحظاتٍ شعر كريس أنه بحاجةٍ إلى التمعن في هذه العظام. كان مجرد شعورٍ، ليس أكثر.

وفي هذه الأثناء رن جواله.

«أنا في الشركة»

بدا صوت إينا عملياً الآن.

«مستعدةٌ للعمل؟» سألها وهو يرتشف القهوة.

«عندما أنتهي من تحضير قهوتي سأكون جاهزةً، ما هو الموضوع؟»

في الواقع كان يريدها أن تبحث عن معلوماتٍ حول الشخص الذي سيقوم بتسليمه الآثار في برلين، إلا أنه أصبح الآن مهتماً بشيءٍ آخر.

«حاولي أن تجدي معلوماتٍ عن إمكانية أن يقوم شخصٌ عاديٌ بتحديد عمر الأشياء بطريقة تحليل الكربون المشع»

ضحكت بصوتٍ عالٍ

«ماذا علي أن أفعل؟»

«قومي بذلك فحسب»

«ولماذا»

«لأجل العظام»

«ألا يجدر بك أن تستثمر وقتك في الحصول على مهام جديدةٍ للشركة؟» قالت إينا بنبرةٍ صلبةٍ كالجليد «عن أي عظامٍ تتحدث؟ عظامك أنت؟» ضحكت بسخريةٍ «إن كانت ستوفر لنا المال...»

«نستطيع» قال كريس بنبرةٍ تعرف إينا تماماً أنها جادةٌ.

«هل قلت طريقة تحليل الكربون المشع؟»

«نعم، فبهذا يمكن للمرء أن يحدد عمر الأشياء، لم تكن دراستي في كلية الشرطة هباءً»

«انتظر، واحدةً تلو الأخرى»

صمت وتركها تبحث في الإنترنت

«في مدينة كيل» قالت إينا بعد فترةٍ من البحث تخللها سبابٌ ولعناتٌ «جامعة كريستيان ألبرشت. مختبر لايبنتس لتحديد الأعمار النسبية، والمطلقة للحفريات والنظائر البشرية، هناك تستطيع فحص العظام»

«بهذه البساطة؟»

«حسب المكتوب هنا، فإن المرء يستطيع فحص كل ما يريده، وستكلفك حوالي الثماني مائة يورو، وما هي تلك العظام؟ إنك لم تذكر لي الكثير سابقاً، ماذا يجري؟»

«لاحقاً، والجامعة تريد الحصول على المال؟»

«نعم. في أيامنا هذه لم يعد هنالك شيءٌ بالمجان» ضحكت مجدداً «بل إنهم يعرضون تحليلاً سريعاً... وتستطيع أيضاً أن تقرر كيفية الحصول

عليه، إلا أنه سيحيد عن الدقة بفترةٍ تتراوح بين 40 إلى 80 سنةٍ، كلما أردت تحديداً أدق كلما زاد الثمن»

«وماذا عن المدة؟»

«يبدو أنك لا تريد الانتظار، من أربعة إلى خمسة أسابيع»

«ويطلقون على هذا تحليلاً سريعاً؟»

ساد الصمت لوهلةٍ بين الاثنين.

«في الحالات العادية يضمنون لك النتائج خلال ثلاثة أشهرٍ، حسب ما هو مكتوبٌ هنا»

فكر قليلاً.

ثم قال «ولكن هنالك بديلٌ».



مدينة دريسدن

الإثنين

استغرقت السفرة إلى مدينة (دريسدن) ما يزيد عن الساعتين والنصف. اتخذ كريس مخرج مدينة (فيلدرمان) المتفرع من الطريق السريع، ثم دخل المدينة وتوقف عند متجرٍ صغيرٍ يبيع ملابساً رخيصة الثمن.

هناك اشترى لنفسه عدة ملابس داخليةٍ، وبضعة قمصانٍ قطنيةٍ وبنطال جينزٍ، ثم توجه إلى أقرب محطةٍ للوقود، حيث قام بشراء خارطةٍ للمدينة، ومنشفةٍ، وبخاخٍ لتنظيف الزجاج.

في الحمام النظيف إلى حدٍ ما، قام بتبديل ملابسه.

ثم قام بإلقاء ما كان يلبسه في حاوية تجميع الملابس القديمة، بعدها

ركن دراجته النارية على بعد شارعين من محطة الوقود بين السيارات المصطفة. رش قبضات الدراجة وزجاجها الأمامي بمنظف الزجاج ومسحه بالمنشفة بشكلٍ جيد، متمنياً أن لا تعثر الشرطة عليها بسرعةٍ، هذا لو كانوا يبحثون عن الدراجة أصلاً.

لو أنه محظوظٌ فسيقوم أحدهم بسرقة هذه الدراجة، ولذا فإنه أبقى المفتاح معلقاً بها.

ثم توجه إلى أقرب موقفٍ لسيارات الأجرة، وطلب منه ايصاله إلى مكتب تأجير السيارات عبر أوروبا، والذي كان يتعامل معه دائماً عندما يحتاج إلى استئجار سيارةٍ.

لم يكن كريس يعرف الكثير في مدينة (دريسدن)، ولذا فلقد ضل الطريق عدة مراتٍ قبل أن يصل إلى العنوان الذي يقصده بالقرب من نهر الألب. كانت تلك المنطقة تشكل الحد الفاصل بين مجموعة ثكناتٍ بحاجةٍ إلى إعادة البناء وسلسلةً من الطرقات التي تضم فللاً تاريخيةً يتم ترميمها.

كان من الواضح أن المبنى قد تم بناؤه لهدف معينٍ فهو خالٍ من أي زخارفٍ، وكانت واجهته من الحجر الطبيعي الأملس، وله درجٌ خارجيٌ طويلٌ، وكان سور المدفن يحد الطريق المقابل له تماماً.

صعد كريس الدرج، وعرّف عن نفسه في منطقة الاستقبال. بدا له من المنظر العام أن هذه المؤسسة تضم مكاتب للهندسة الوراثية حصراً، ولاحظ أن كل الأشخاص الخارجين والداخلين من وإلى هذا المبنى بعمر طُلاب الجامعات.

في هذا المكان بدا هو و(واين سندر) الذي خرج من المصعد مبتسماً، كعجوزين.

«واين سندر – الماسة –. إنه دهرٌ من الزمن! يا إلهي إنه حقاً منذ زمنٍ بعيدٍ. تعال!» قال كريس وقد أشرق وجهه.

إحتضنا بعضيهما.

أُطلق لقب الماسة على واين في المدرسة لأنه كان دائماً ولفترةٍ طويلة يحمل معه مكبراً. كان والد واين يقتني مجموعةً من الأحجار المعدنية والكريمة، ولقد تبعه واين في هذا المجال، وكان خبيراً في تحديد الأزمنة.

كان آخر لقاءٍ بين كريس وواين منذ أكثر من عامٍ تقريباً، حين التقيا صدفةً في مطار فرانكفورت. كان كريس عائداً لتوه من اليابان، حيث قام بإيصال طردٍ يحوي أوراق الكربون من أحد أصحاب مصانع السيارات في ألمانيا إلى شريكه هناك، بينما كان سندر قد أنهى مؤتمراً في الولايات المتحدة بخصوص أحد أقسام البحث الخاصة به. ولقد وجدا نفسيهما فجأةً يقفان إلى جانب بعضهما البعض في إحدى مقاهي المطار، ولأنهما كانا مستعجلين فلقد تبادلا أرقام الهواتف على وعدٍ بأن يتواصلا في الأيام القادمة، إلا أنه ومنذ ذلك الحين لم يقم أي منهم بالاتصال بالآخر.

«لقد تفاجئت كثيراً عندما اتصلت بي سكريترتك، وسألتني إن كان بإمكانك زيارتي هنا»

«مساعدتي» ضحك كريس «إنها تهتم بهذا اللقب»

«فليكن إذاً»

في المصعد أخذ كريس يتأمل صديق طفولته. بدا الكبر على واين سندر، لقد فقد الكثير من شعر رأسه، وما تبقى منه كان ذا لونٍ رماديٍ مبيّضٍ.

كان لون جلده باهتٌ، وكأنه لا يرى الشمس، بينما غارت عيناه الزرقاوان في محاجرها، وبالرغم من أنهما كانتا تشعان بالفرحة إلا أن كريس لمح بهما الكآبة.

كان العالِم يرتدي قميصاً وبنطالاً من الجينز، وقد بدا عليهما الاهتراء لكثرة غسلهما، أكمام القميص كانت مثنّيةً إلى الأكواع، بحيث ظهر الشعر الكثيف الداكن، والذي كان مصدراً لتندر أصدقاء واين في شبابه إذ

كانوا يلقبونه بالقرد. فلقد كانا في مدرسةٍ واحدةٍ لفترةٍ طويلة، حيث كان والد واين سندر يعمل كموظفٍ في قسم التشريفات التابع للسفارة الأمريكية في مدينة (باد غودسبيرغ)، وكان يشجع ابنه بشكلٍ متعمدٍ على اختيار أصدقاء من الألمان. وبما أنهما كانا يسكنان في نفس المنطقة، فلقد اعتادا أن لا يفترقا لفترةٍ طويلة.

«لم أكن أتوقع بأننا سنلتقي يوماً في دريسدن» ضحك كريس بسرورٍ، وربت على كتف صديق طفولته «كيف أتيت إلى هنا؟ فعند لقائنا في مطار فرانكفورت لم تحدثني كثيراً عن عملك»

خرجا من المصعد وعبرا الممر بأبوابه الحديدية المتعددة، والتي كانت تُفتح مصدرةً صوت أزيزٍ خفيف.

و أخيراً دخلا في ممرٍ طويلٍ وعريضٍ، تفرعت منه أبوابٌ كثيرةٌ عن اليمين والشمال.

«بعد أن تخرجت من الجامعة عملت في عدة وظائف مملةٍ قبل أن أبدأ مع إحدى الشركات التي تهتم بالتقنية الجينية في (هايدلبيرغ)، ولقد تم بيعها فيما بعد لأنها لم تكن تملك رأس المال الكافي لتمويلها، ولكن أبحاثها كانت هامةً. ثم تم نقل المقر إلى هنا بعد أن قررت حكومة (سكسونيا) تبني ودعم فكرة المدينة البيولجية»

كانت بعض الأبواب مفتوحةً. إلا أن تصميم المكان ذكّر كريس بالمطبخ، ولكن وجود الأنابيب والقوارير الزجاجية المضغوطة وأجهزة الطرد المركزية والميكروسكوبات والمضخات، كانت تؤكد بأنها مختبراتٌ علميةٌ.

«إنها مزارعنا» قال واين سندر ضاحكاً حين انتبه إلى نظرات كريس «إنه المكان الذي نقوم به بزراعة البكتريا، تعال معي»

دخلا إلى غرفةٍ صغيرةٍ بدت وكأنها مكتبٌ، يوجد بها طاولةٌ مرتبةٌ وأمامها كرسيٌ آخرٌ، أشار إليه واين سندر ثم اختفى.

نظر كريس حوله، يبدو أن المكان الذي تم تخصيصه لصديق طفولته متواضعٌ جداً بالنسبة لمنصبه كرئيس مجموعةٍ من الباحثين، كانت مساحة الغرفة لا تزيد عن 15 متراً مربعاً، وطاولة المكتب قديمةً ومهلهلةٌ إلا أن أدوات العمل الخاصة به بدت حديثةً جداً، فشاشة البلازما كانت كبيرةً، وظهرت عليها صورةٌ على درجةٍ عاليةٍ من الوضوح.

عاد سندر يحمل بيده كوبين كرتونيين من القهوة الساخنة.

«إنها خليةٌ في مرحلة الانقسام» قال سندر عندما لاحظ نظرات كريس إلى الشاشة.

«وهل يجدي هذا نفعاً؟» سأل كريس

«ماذا؟ الانتقال؟» إبتسم واين سندر «على بعد بضعة مئات من الأمتار، وفي بناءٍ عالٍ وحديثٍ يوجد أحد معاهد (ماكس بلانك)، العاملين به من أكفاء العلماء، والطلبة الذين حضروا من مختلف بقاع الأرض وأمامهم هدفٌ واحدٌ وهو جائزة نوبل. والحال نفسه في مدينة (لايبزيغ)، والكلية التقنية هنا تعمل أيضاً في مجال التقنية الجينية، فالأموال تتدفق لدعم الأبحاث في هذا المجال، ومؤسساتٌ صغيرةٌ كثيرةٌ انتقلت إلى هنا لتنمو في ظل المعاهد الحكومية الضخمة. فبمجرد أن يتوصل أحدهم إلى شيءٍ مهمٍ، تقوم الشركات الكبرى بشرائه منه، وبذلك يصبح رجلاً مهماً»

«إذاً فالأمر بهذه السهولة» أومأ كريس «ولكن ألم يكن الأجدر بك أن تكون في مكانٍ آخرٍ بدلاً من وجودك في...»

«ليت الأمر كان بهذه البساطة» قاطعه سندر مبتسماً «إنهم يريدونني أن أكون هنا»

«وهل سعدت أسرتك بالانتقال؟»

أدار سندر عيناه.

«هذا فصلٌ آخرٌ من حكايتي، في البداية أتيت وحدي إلى هنا لمدة

سنتين، زواج عطلة نهاية الأسبوع، كان كل شيءٍ على وشك الانهيار. ومع مرور الوقت استطاع الجميع التعود على هذا الوضع – الأطفال أكثر من زوجتي – وكان المدراء على الجانب الآخر سعداءً بوجود أحد أبناء جلدتهم في موقع العمل هنا»

«كم طفلاً لديك؟»

ضحك سندر « أربعةٌ. وأنت؟»

كذلك ضحك كريس «لا يوجد. فأنا لم أعد حتى متزوجاً. بالنسبة لي نجح عملي في تدمير كل شيء، لقد عملت في الشرطة، وفي النهاية كنت دائم التواجد خارج المنزل، تماماً كما تحدث هذه المشاكل دوماً» ثم حدثه بكلماتٍ مقتضبةٍ عن شركته التي قام بتأسيسها فيما بعد.

ساد الصمت لدقيقة، نظر خلالها واين سندر إلى الشاشة بينما كان كريس يراقبه باهتمام.

«ما يجري هنا عبارةٌ عن برنامجٍ متكاملٍ» كان سندر سعيداً حتماً باهتمام كريس «عليه أن يصطدم بالنقطة التالية، فالحاسوب يتحكم ببرنامجٍ يقوم بتحليل السوائل البروتينية»

«يبدو الأمر مثيراً حقاً»

«هو كذلك، فالبروتينات تعتبر بمثابة الملح في الحساء الجيني، إنها تقوم بنقل المعلومات المحفوظة مسبقاً في الجينات»

«لا أفهم شيئاً من هذا»

«إن الأمر بسيطٌ للغاية، فالبروتينات تتكون من أحماضٍ أمينيةٍ، ويوجد منها عشرين. وهذه الأحماض بتركيباتها المختلفة تؤدي مهامٍ خاصةً جداً. فإذا حدث شيءٌ ما في إحدى خلايا جسمك، فيكون أحد البروتينات بتركيبته الخاص جداً للحمض الأميني، هو المسؤول عن ذلك»

أومأ كريس مبتسماً.

«ولهذا اكتفيت أنا بإنهاء الشهادة الإعدادية»

«والآن تحاول أن تكسبني كزبونٍ»

«إن كان هذا ممكناً» إبتسم كريس بمكرٍ «لابد وأن لديكم دائماً ما تريدون نقله، لقد قمت بتأدية مهامٍ لبعض شركات التقنية الجينية، بل وقمت بنقل فيروساتٍ، لم أشعر بالراحة أثناء ذلك إلا أنني كنت أحصل على مالٍ جيدٍ بالمقابل»

«نعم. فقد نقوم أحياناً بطلب هذا النوع من النقل الخاص»

«رائعٌ» ضحك كريس برضاً «ولكنني هنا لسبب آخر تماماً»

الفصل الثالث عشر

مدينة (دريسدن)

الإثنين

كانت العظام ممددة على الطاولة.

- «بشرية أم حيوانية؟»

- «مقياس الحكم هو الخلية» قال (واين سندر) بعد برهة.

- «من أين حصلت عليها؟»

برر (كريس) موقفه بقصة مزج فيها بين الحقيقة والخيال. وكان هدفه أن لا يجر صديقه إلى أعماق هذه القصة بشكل أكبر «لقد توفي والداي منذ عشر سنوات. ووجدت هذه العظام بين الأشياء التي خلفاها لي. لا يمكنك تخيل مدى تفاجئي. والدي وهذه العظام...» وقف ثم بدأ يتجول في الغرفة بتوتر وهو يهز رأسه وكأنه هو نفسه لا يصدق ما حدث «أعرف بماذا تفكر. لقد خطر ذلك أيضاً في ذهني للوهلة الأولى. والدي، عامل البناء، ما يمكن أن تكون علاقته بهذه العظام؟ وقفت مذهولاً أمام الصندوق الصغير» صمت (كريس) متعمداً، ريثما يحضر الكذبة التالية.

- «في ذلك الصندوق وجدت ورقة. كُتب عليها (رهن) وتاريخ يعود إلى عام 1978 وكذلك اسم شخص. قمت بربط الأمور ببعضها فتوصلت

إلى أن والدي كان يطلب مالاً من أحدهم. أنت تعلم أنه كعامل بناء كان يقوم بأعمال إضافية كثيرة».

- «وماذا عن منزل والديك؟» حدق العالِم بصديق طفولته بإمعان.

«قمت ببيعه. في البداية احتفظت بالنقود جانباً. لتحقيق حلمي...، أنت تعلم ما أعني» انتظر (كريس) تعليقاً ساخراً كما كان يفعل معه (سندر) دائماً. إلا أن صديقه بقي صامتاً. «ثم طُرح المارك الجديد في البورصة. اعتقدت أنه بإمكاني تحقيق أرباح من ذلك. كله ذهب هباءً. ولأنني لا أملك رصيداً احتياطياً وأحتاج حالياً لكل سنت، تساءلت في نفسي، لو أن هذه العظام ذات قيمة».

- «(كريس) تاجر الآثار».

- «إني حتى لا أعلم إن كانت هذه العظام تعود إلى إنسان. إن هذا سيساعدني كثيراً. لديكم ميكروسكوبات هنا أليس كذلك؟».

- «هذا صحيح. وإلى ماذا ترمي بسؤالك؟»

- «أريد أن أرى الوحدات العظمية –العظمونات-».

- «وما مدى معلوماتك عن هذا الموضوع؟»

- «ليس الكثير. ولكني تعلمت في تأمين الأدلة أنه بهذا يمكن للمرء تمييز العظام البشرية عن الحيوانية. ففي العظام البشرية يفترض أن تكون العظمونات موزعة بشكل عشوائي. أما في العظام الحيوانية فإنها تكون متصلة ببعضها».

- «أحياناً وليس دائماً». قال (واين سندر) «يوجد خبراء يمكنهم فحص هذا إلا أنه ليس من اختصاصي» كتّف يديه أمام صدره ورمق (كريس) بنظرة متفحصة: «ما كادت مُساعدتك تتصل بي حتى تصل أنت إلى هنا. ماذا لو لم أكن موجوداً...».

ضحك (كريس) بصوت عالٍ.

- «أصبت. حسناً سأعترف أن مختبرك كان الخيار الثاني وأني قررت بشكل تلقائي أن آتي إليك. لقد كنت صباح هذا اليوم في مدينة (لايبزيغ). في معهد علوم نشوء وتطور السلالات البشرية التابع لمعهد (ماكس بلانك)».

- «هكذا إذاً».

- «لقد كنت في مهمة نقل إلى مدينة (بيتر فلد). ولأن هذا المعهد موجود في مدينة (لايبزيغ) فكرت بإنهاء المهمتين معاً. هناك يعمل ذلك السويدي. (بيبو)»

- «يبدو أنك تنتقي الأفضل» عدل (سندر) من جلسته على الكرسي باهتمام «يعتبر (سفانت بيبو) أباً لنظرية تحليل الحمض النووي. لقد كان هذا الرجل أول من قام باستخراج وفحص الحمض النووي من عظام تعود لآلاف السنين. إنها جرأة كبيرة منك أن تطلب منه أن يفحص عظاماً وجدتها في تركة والدك. هل ادعيت أن بحوزتك عظاماً لمومياء من (ألمانيا) تعود لآلاف القرون من الزمن؟» هزّ (سندر) رأسه باستياء «(كريس) لو لم يكن لديك شيء آخر فلن أستطيع تصديق كلمة منك... أعني أنها قد تكون أي نوع من العظام... فلماذا سيهتم (بيبو) بفحصها؟ ولماذا سيستمع إليك أساساً؟»

- «هذا ما حدث بالفعل. فأنا لم أتمكن من الوصول إلى (بيبو). لقد كنت هناك وسألتهم إن كان بإمكانهم مساعدتي. كنت أعتقد أن مثل هذه الفحوصات يمكن إجراؤها في وقت قصير. فالجامعات تقوم بمثل هذه الفحوصات بستخدام طريقة تحليل الكربون المشع لتحديد العمر مقابل بعض مئات من اليورو».

- «إذاً كنت تريد تحليلاً سريعاً في مدينة (لايبزيغ)...»

- «تماماً. ولكنهم أرادوا أن يعرفوا من أين حصلت على هذه العظام، وإن كانت ملكي، ومعلومات من هذا القبيل».

هـز (سـنـدر) رأسـه مجـدداً «(كـريس)! مـرة أخـرى... لـو لم تخبرنـي بالمزيد فلـن أصـدق كلمـة ممـا تقـول! لا تكـاد تجـد عظامـاً في تركـة والـدك حتى تسافر بها إلى أحد فطاحل علم تحليل الأحماض النووية القديمة!».

حدق (كريس) بصديق طفولته، تردد، وتقلصت ملامح وجهه، وأخيراً أجاب بصوت منخفض: «حسناً. إن الورقة التي تركها والدي تحتوي على المزيد من المعلومات التي لم أخبرك بها».

- «هكذا إذاً» تبسم (سندر) برضاً.

- «يدعي أن هذه العظام تعود إلى أحد الجواسيس من (بلجيكا). هنـاك وفي الثمانينيـات مـن القـرن الماضـي تم العثـور علـى أدوات وعظـام حيوانية وهياكل عظمية للإنسان القديم، إنسان الكهوف الـ (نياندرتال). هذا ما كتبه والدي على أي حال. وبهذا فلابد وأن لها قيمة معينة. لقد كان والدي متخوفاً من أن يسأله أحد من أين حصل عليها ولهذا قام بإخفائها ولم يقم ببيعها» ثم رفع (كريس) يديه بإشارة إلى أنه قد أدلى الآن بكل ما لديه.

- «إنسان الكهوف، ولهذا اخترت (لايبزيغ)؟»

- «إنها أقرب ما يكون أليس كذلك؟ لقد كنت أتوق لمعرفة لأي من الكائنات تعود هذه العظام. حيوان؟ أشباه الإنسان؟ إنسان الكهوف؟»

ضحك (سندر) وكان يبدو عليه الرضا؛ لأنه استطاع كشف ما يخبئه صديقه القديم.

- «ولماذا لم تنهي هذه المهمة في لايبزيغ؟»

- «لقد خشيت أنهم ربما لن يعيدوا لي تلك العظام. فالقانون الألماني الخاص باللُّقى الأثرية له حيله. إني أعرف ذلك من خلال عملي في قضية مماثلـة. فالـشروط الخاصـة بالتـسجيل والإثباتـات فظيعـة. وأنـا لا أملـك أوراقـاً ولا إثبـات ملكيـة، لـيس بحـوزتي سـوى تلـك العظـام. فـإن قـاموا

بمصادرتها ... سيتبع ذلك المزيد من المتاعب. لذا فقد فكرت باللجوء إليك. حسناً: هل هذا ممكن؟»

قاد (سندر) (كريس) إلى غرفة ممتلئة بالأجهزة التقنية. وفي زاوية الغرفة جلست سيدة أمام شاشتي مراقبة موضوعتين على طاولة، وإلى يسارها كان هناك جهاز من الحديد اللامع، بلغ ارتفاعه نحو مترين، وبدا بناؤه معقداً للغاية.

تعرف (كريس) إلى طاولة فحص، ورأس أداة تحسس، ورأى شريطاً متصلاً بالشاشة.

- «هل لي أن أقدم لك (ياسمين برسون)، إنها ملاكنا السويدي».

في البداية رأى (كريس) مؤخرة الرأس والشعر الأشقر الغامق، وعندما استدارت نحوهم رأى تلك الابتسامة الودودة التي ارتسمت على الوجه ذو القسمات المتسقة، والعينين الزرقاوين الفاتحتين.

- «مرحباً» قالت (ياسمين برسون) ومدت يدها تجاهه لتحيته. كل شيء فيها كان دقيقاً، وناعماً، ورشيقاً. كانت ترتدي معطفاً أبيضاً فوق بنطال جينز وقميص قطني.

- «إذاً فأنت الصديق صاحب عظام الـ (نياندرتال) الذي يستطيع قراءة العظمونات».

بقيت نظراتها الساخرة معلقة بوجهه لوهلة «من قام بمعانقتك؟ هل أمضيت الليلة الماضية في قفص أحد الجوارح في حديقة (لايبزيغ) للحيوانات؟»

تلمس (كريس) الخدوش الطفيفة على خده. لحسن الحظ كانت تلك هي الآثار الوحيدة الواضحة من صراع البقاء الذي عاشه تلك الليلة.

- «أستعمل طريقة الحلاقة المبللة، وصباح هذا اليوم كانت يدي ترتعش بشدة. كنت أعلم أنني أخضع إلى تحقيق هنا».

- «حسناً». بدا عليها الاقتناع. لمعت عيناها وهي تبتسم له.

لبست أولاً قفازات في يدها، ثم تناولت العظام من يديه. استدارت بكرسيها ووضعت العظام على طاولة الفحص.

- «يبدو كأنه ثاقب آلي ضخم». قال (كريس) «ما هذا؟»

- «إنه جهاز الماسح الإلكتروني» قالت دون أن تقطع عملها.

لاحظ من نبرة صوتها أنها مستمتعة بما تقوم به «إنه يؤدي المهمة دون حاجتنا لأخذ شريحة رقيقة من العظام كما هو الحال عند استعمال الميكروسكوب الضوئي».

أوضحت له أن هذا الجهاز يقوم بتحسس السطح بشكل تدريجي من خلال إرساله حزمة قوية من الإلكترونات.

- «ثم يقوم بنقل النقاط المتحسسة إلى جامع حيث يتم بثها على الشاشة. كل نقطة تتحول إلى بكسل على الشاشة. يمكن تشبيه هذه العملية بما يحدث عند بناء الصورة على شاشة التلفاز».

كان نطقها للغة الألمانية يحمل لكنة خفيفة، مما زاد من جاذبيته.

انتبه (كريس) لنفسه كيف كان يحدق بعنقها ويتأمل خطوطه الناعمة.

- «نحن نتحسس مقطعاً صغيراً فقط» قال (واين سندر)، بينما كانت هي تركز في جيوش من الأزرار والمُنظِمات والضوابط التي ذكرت (كريس) بقمرة الطيار.

- «سينتهي الأمر سريعاً» استدارت نحو (كريس) ولمعت عيناها بسعادة. شعر فجأة بحرارة قوية تنتابه ولم يكن لها علاقة بالفحص.

و أخيراً ظهرت أولى الصور على الشاشة. قامت (ياسمين برسون) بتكبير حجم الصورة على إحدى الشاشات بينما أبقت على صورة الموضع الذي يتم فحصه من العظام بحجم عادي على الشاشة الأخرى.

- «هناك، هذه الدوائر الصغيرة هي العظمونات» شرح له (واين سندر) بهدوء «إنه يشبه القضيب المفرغ قليلاً وفي قناته الوسطى تمر الأوردة الدموية».

نظر (كريس) إلى الصورة العامة لشريحة العظام المختارة فبدت له ككتلة كثيفة وصلبة.

- «إن العظمونات هي المعززات الرئيسة داخل العظام وتوجد في العظام المحيطية. أي في قشور العظام» قال (واين سندر) بموضوعية خارقاً جدار الصمت.

- «يوجد قنوات بداخل العظمونات. فهي ليست سوى نظام من القنوات مصغرة جداً».

نظر (كريس) إلى الشاشة التي تظهر الصورة المُكبرة. فرأى التصوير المضخم للشريحة العظمية ببنائها الفاتح والغامق. تعرف على حلقات صغيرة قد تم تكبيرها بشكل ملحوظ.

- «وبين القنوات الطولية، هناك أيضا قنوات عرضية. نظام متشابك. إنه عمل إعجازي!»

بدا كأن العظام مكونة من عدة أجزاء متفرقة وليست متداخلة بشكل كامل ببعضها البعض. ذكّر ذلك البناء (كريس) بالمنازل الجاهزة المكونة من أعمدة وألواح غير متداخلة بشكل تام. إلا أنه لم يتمكن من ملاحظة نظام موحد، فكانت القضبان تظهر في العظام بشكل غير منتظم.

- «إنها تمتد إلى المحور الطولي للعظام. تسير دائماً باتجاه القوة الفاعلة الضاغطة».

نظر (كريس) جانباً. كان صديق طفولته مستغرقاً تماماً في الفحص، منحنٍ قليلاً ومستنداً بكلتا يديه إلى الطاولة، وبدا كأنه نسي كل ما حوله.

- «إنها بطول عشرين مليمتر ويبلغ قطرها بين 150 إلى 200

ميكرومتر». نظر (واين سندر) إلى الشاشة بانبهار «وتتكون العظمونات من صفائح يصل عددها إلى العشرين والمبنية من مخاريط متوازية من الكولاجين الليفي ذي النمط 1. وتمتد تلك اللوالب في الشرائح المجاورة بشكل متعاكس و...»

- «(واين)، كف عن التحدث بهذه اللغة الصينية المختصة» قالت (ياسمين برسون) ضاحكة، عندما انتبهت إلى نظرات (كريس) المرتبكة.

- «تماماً» نظر (كريس) بشُكر إلى الشابة السويدية، التي بادلته نظرة تحمل معنى، لا داعي للشكر.

- «وما هي أهميتها؟»

- «عليك مبدئياً أن تعرف مهامها». هز (سندر) رأسه مستنكراً «يبدو أنك لم تتعلم الكثير من دراستك تقنيات الجرائم».

- «إنها الحاملات الرابطة الرئيسة» كان صوت (ياسمين برسون) مخملياً وناعماً، فشعر (كريس) أن ظهره يتصبب عرقاً.

- «إنها تقوم بإعادة بنائها بشكل مستمر. فإن تغير مركز الثقل على العظام من خلال كسر عظمي مثلاً، فإن العظمونات تتلاءم مع هذا التغير من خلال إعادة البناء».

- «إذاً لا بد من أن يكسر أحدهم عظامه حتى يحدث تغيير في البناء».

- «إن العظام دائمة التعرض لتغيرات في الضغط» رد (واين) بصبر« عندما يبلغ المرء الثلاثين عاماً تبدأ عملية تراجع بناء العظام ببطء. وهذا وحده يؤدي إلى تغير في الضغط. النسيج العظمي يستمر في إعادة البناء. وبهذا فإنه مع مرور الزمن يتكون بناء مميز».

حدق (كريس) مجدداً في الشاشة. كان البناء واضحاً للعيان. بين العظمونات كانت هناك كتلة لم يستطع تفسيرها.

- «هذه صفائح الربط» قالت (ياسمين برسون) التي كانت تراقبه ضاحكة «وهي ناتج إضافي لعملية إعادة بناء العظمونات. يمكنك اعتبارها حصىً لملئ الفراغات بين العظمونات».

- «يبدو أنني ما أزال ذكياً كما في الماضي» قال (كريس) ورفع يديه مستسلماً «لا يمكنني القول إن كانت متصلة ببعضها بتسلسل أو أنها متفرقة بطريقة عشوائية. هل هي بشرية أم حيوانية؟»

تابع (سندر) النظر إلى الشاشة وهو يطرق برأس إصبعه عدة مرات على الصورة المكبرة «تبدو أنها متفرقة بطريقة عشوائية... وعلى الجانب الآخر... يمكننا أيضا القول أنها مترابطة بشكل تسلسلي، ولكن...»

- «عظام بشرية».

- «نحن لسنا اختصاصيين في العظام». قال (واين سندر) «ما رأيك، (ياسمين)؟»

- «إنه (نياندرتال). أليس كذلك؟» برقت عيناها «في الحقيقة أنا لا أعرف بالضبط».



جلسوا مجدداً في مكتب (سندر).

- «كنت أنتظر نتيجة واضحة».

- «أعرف ذلك. ولكني سبق وحذرتك أننا لسنا خبراء في هذا المجال. إضافة إلى ذلك، من المفروض أنك تعلم درجة الصعوبة في مثل هذه الفحوصات».

أومأ (كريس). وبالرغم من أن فن تشريح العظام يقف منذ زمن

طويل على أسس متينة، إلا أن الأطباء الشرعيين لم يكونوا ليسمحوا بانتزاع نتائج سريعة منهم وخصوصاً عند عدم توفر عينات من الأنسجة.

- «بالطبع إن النتيجة الحاسمة تتوفر في حال تحليل الحمض النووي. عندها فقط ستُفتح أمامنا كافة الأبنية النسيجية لهذا الكائن، الذي كان يدب بهذه العظام على الأرض. ولهذا فإن محاولتك في (لايبزيغ) كانت صحيحة».

- «يمكنكم هنا أيضاً إجراء تحليل للحمض النووي. هل يمكنك فعل هذا؟»

- «إن أمكننا التوصل عبر المقارنات أن هذه العظام تعود إلى إنسان الكهوف وأن حمضه النووي لا يختلف عن الحمض النووي لإنسان اليوم. فسيكون هذا سبق رائع حتماً» ضحك (واين). برقت عيناه وأعادت تلك الابتسامة العريضة شيئاً من أيام الشباب المرحة إلى تعابير وجهه. رأى (كريس) لوهلة (واين سندر) القديم يعود إلى الحياة.

- «لا تنزعج من كلامي» عاود (سندر) الضحك.

- «لقد أثبت سفن بيبو من خلال تحليل الحمض النووي عكس ذلك تماماً. فالحمض النووي الخاص بالـ (نياندرتال) وذاك الخاص بالإنسان الحديث يختلفان بشكل كبير عن بعضهما، بحيث أنه لا يمكن للـ (نياندرتال) أن يكون أصل إنسان اليوم وهذا ما ينافي ما ينادي به بعض العلماء حتى الآن».

- «ولكن بتحليل الحمض النووي سنعرف حتماً أكثر مما نعرفه الآن. فهل ستقوم بهذا؟»

- «إنك تتخيل أن الأمر بهذه السهولة. أليس كذلك؟ ولكن الحقيقة ليست هكذا. إن عزل الحمض الأميني عن المادة الأساسية يعني، تحريض انقسام للخلايا وتفكيك الكروماتين... الآلات موجودة».

- «إذاً».

- «أستطيع الاعتماد على أساس الكروموسومات، حين أتيقن من أن عددها ثمانية وسبعين، وبهذا تعود تلك العظام إلى كلب؟ أو إن كانت ستة وأربعين كروموسوم، فعلي أيضاً أن أقوم بفحص نواة الخلية أوحمض الميتوكوندريا الوراثي؟»

صمت الاثنان.

أخيراً أومأ (سندر). «سأقول لك شيئاً واحداً من الآن: لا أستطيع أن أعدك أن هذا الأمر سينجح. وخصوصاً عندما أرى كيف أنك قمت بنقل العظام في كيس قطني ملفوفة بأوراق المرحاض التي أخذتها من حمام إحدى الاستراحات الموجودة على طرق السفر في هذا العالم... وفي مثل هذه الحالة سيضرب أي عالم بيديه على رأسه».

- «أعلم. لقد تعلمت ذلك في الدرس الأول من تقنية الجرائم... أعلم».

- «فوجود الأوساخ وبقايا الحمض النووي لشخص ما لمس هذه العظام أو خلية جلدية، سيفسد العينة».

- «هل مازال لديك المزيد من الأخبار السيئة؟» ضحك (كريس). لقد علم أنه عندما يبدأ صديق طفولته بالجدال فإنه يكون على وشك قول شيء ما.

- «في العادة تتراكم الأحماض النووية في السنوات التي تلي موت الأعضاء. الحمض النووي جزء من الأحماض الأمينية وبهذا فإنه حساس بالنسبة للمياه والأكسجين. وعند توفر الشروط المناسبة للتخزين فإن عملية التلف هذه تكون أبطأ ويصبح بالإمكان الحصول على حمض نووي سليم أو قطعة سليمة. هل حافظت العظام على جفافها أثناء التخزين؟»

- «نعم. طالما كانت بحوزتي» أجاب (كريس) «لقد احتفظ والدي بها داخل صندوق خشبي. أما أنا فبالتأكيد لم أضعها تحت صنبور المياه».

أومأ (سندر) «حسناً...»

- «هل يمكنني انتظار التحليل؟» سأل (كريس) متلهفاً.

- «إن كان لديك وقت» هز (سندر) كتفيه «قد تأخذ بضعة أيام. أولاً يجب أن نحضر مواداً من العظام. بضعة جرامات فقط. سنقوم بطحنها بشكل جيد وبعدها نقوم بترطيب هذا الطحين بقليل من محلول ملح الفوسفات ثم نأخذ عينات بأنابيب ماصة ونقوم بعملية فصل لبلازميد الحمض النووي. ثم نترك هذا الناتج ينمو حتى يصبح لدينا الكمية الكافية من المواد التي نحتاجها للفحص. نقوم بتغذيته بمصل متعدد السكاريد والأحماض الأمينية. وفي النهاية نقوم بإيقاف عملية انقسام الخلايا باستخدام مشتقات الكولشيسين. وعندما تنمو... -هذا في حال أنها نمت-، تنتظم الكروموسومات بالشكل الذي تكشف فيه أمامنا جميع أسرارها. نقوم بعملية فصل متكررة من خلال جهاز القوة الطاردة، ونلونها باستخدام كحول الميثيل وحمض الخلّيك الجليدي، حتى نستطيع تمييز ما نرى. هذه هي الإجراءات، وليست العملية بالسرعة التي تتخيلها. إن الموضوع يختلف عن فحص شريحة من التفاح تحت الميكروسكوب. اتفقنا؟»

- «اتفقنا».

أومأ (سندر) فتبعه (كريس) إلى أحد غرف المختبرات. وكما فعل صديق طفولته كذلك قام (كريس) بدوره بارتداء معطف أبيض، وقفازين مطاطيين، وكمامة للفم، وقناع يغطي كامل الرأس وله نافذة من زجاج الإكريليك أمام الوجه.

توجه (سندر) إلى منضدة طويلة كانت محمية بلوح من الزجاج يرتفع إلى السقف.

رفع أحد نوافذ اللوح الزجاجي إلى الأعلى بحيث يمكنه إدخال يديه إلى الصندوق الزجاجي ثم وضع العظام على الأرضية الصلبة. أخذ (سندر) الأنبوب الطويل ذا الرأس الثاقبة، الذي كان معلقاً على خطاف. ثبت قرصاً منشارياً صغيراً على رأس الجهاز ثم قام بتشغيله. ذكر صوت الأزيز المزعج (كريس) بزيارته الأخيرة إلى طبيب الأسنان.

فجأة ظهرت (ياسمين برسون) في الغرفة حاملة بيديها مجموعة من الأوراق طبعت عليها صور لبُنية العظام.

أوقف (سندر) الجهاز ونظر إليها متسائلاً.

- «ربما علي أن أخبركم بشيء قبل أن تبدأا. لقد لاحظت أمراً ما هنا...»

- «ماذا؟ ما هو الذي لاحظته؟» سألها (كريس) بنبرة فضولية.

- «أنتم الرجال دائماً لا تنتبهون إلى الأمور الواضحة» ثم ضحكت.

- «ماذا تقصدين؟» دمدم (واين سندر) محذراً.

- «منذ ثلاثة أشهر قمت بفحص عظام أخرى تحت المجهر. ولقد رأيت تلك الدوائر الصغيرة أيضاً... إلا أن الدوائر في هذه العظام تبدو مكسرة. هذا غريب».

رفعت ورقتان مما تحمل أمام (كريس) و(سندر)، وأشارت بسبابتها إلى الصور.

حدق (سندر) بالموضع الذي أشارت إليه.

- «معك حق». قال (سندر) بعد لحظات «مكسرة أو مقطوعة على أي حال محطمة بشكل أو بآخر. هذا صحيح».

- «الكل». قالت (ياسمين برسون) «في العظام الأخرى لم يكن هذا هو الحال».

أنصت (كريس) إلى نبرة صوتها المتدبرة. وكأنها تشك في أمر ما.

- «العظام التي فحصتها منذ ثلاثة أشهر كانت كمساعدة مني لمعهد الطب الشرعي، حيث تعطلت أجهزتهم ولم تصلهم قطع الغيار. كنت أتحدث وقتها مع الأطباء الشرعيين بينما كانوا ينظرون إلى صور العظام على الشاشة».

- «حسناً. وماذا بعد؟» تمتم (سندر) وقد نفذ صبره «وما معنى ذلك كله؟ هذا إن كان له معنىً».

- «وقتها قال الطبيب الشرعي أنه بمساعدة العظمونات يمكن التعرف على عمر الإنسان. فعند الشباب تكون سليمة».

- «حسناً... أكملي».

- «كلما تقدم الكائن الحي بالعمر، تحطم المزيد من العظمونات. والحال هنا أن جميعها مكسرة. إن كان ما أخبرني به الطبيب الشرعي صحيحاً، فهذا يعني أن هذه العظام قديمة».

أطرقت قليلاً، وهمست كأنها تحدث نفسها «بل قديمة جداً».

الكتاب الثالث

الاكتشاف

إله الكتاب المقدس هو نفسه
إله السرد الوراثي (الجينوم)

(فرانسيس كولنس)،
مدير مشروع الجينوم البشري

الفصل الرابع عشر

(فيلكابامبا، الإكوادور)

الإثنين

- «بحق الجحيم! ما الذي أتى به إلى هنا؟» تلمست (زوي بورسل) المنضدة الخشبية البسيطة وهي تنظر حولها ببرود. خِزانة صغيرة وطاولة وكرسيان خشبيان شديدا القساوة. كل شيء من الخشب.

كانت (زوي) في منتصف الأربعينيات، وبصفتها المسؤولة المالية، كانت تدير القسم المالي لشركة (تيسابي)، إحدى أكبر الشركات المصنعة للعقاقير في العالم. كان شعرها الفحمي الأسود متوسط الطول يحيط بوجهها المثلث بملامحه الناعمة، المُزين بطريقة خفيفة وعينيها ذواتي اللون الأخضر القاتم.

فقط زوايا فمها المنحنية للأسفل كانت تشير إلى الطريق الصعبة التي قطعتها في سبيل عملها. كان جسدها رقيقاً، وعادة ترتدي زياً داكناً مع قمصان بيضاء، ولم تكن تشعر بالراحة ببنطال الجينز والقميص القطني اللذين كانت تلبسهما اليوم.

وبصفتها المديرة المالية كانت مهمتها الأساسية تتمثل في دفعها المستمر لأسهم شركة (تيسابي) إلى الأعلى.

إلا أنه وفي هذه المرحلة لم يكن الحال كذلك. وسيتوجب عليها بعد دقائق تبرير الموقف لـ (هانك تورنتن) رئيس مجلس إدارة الشركة.

- «هذا هو عالم (هانك) الحقيقي». قال (ند بيكر)، الذي وقف عند الباب المفتوح ينظر إليها باستمتاع، «(هانك) عالِم ولا يحتمل الفخامة في محطة أبحاثه».

كان (ند بيكر) ذا ملامح ناعمة وعينين عبقريتين، وطول متوسط، يمارس رياضة الجري لمسافة عشرة كيلو مترات بشكل يومي. كما أنه يعمل عالماً في الهندسة الوراثية.

اختارته ليكون مستشارها في الشؤون العلمية حتى لا تكون وحدها في مواجهة أي أسئلة متخصصة.

كانت (زوي بورسل) مختصة في الاستثمارات المصرفية، وملمة بعالم المال والاستثمارات.

ولأن العلوم الطبيعية كانت صندوقاً أسود بالنسبة لها، وهو في الحقيقة المجال الذي تعمل به (تيسابي)؛ كانت مضطرة للخضوع إلى تعليمات الرئيس التنفيذي (أندرو فولسوم)، الذي كان هو أيضاً عالماً في الهندسة الوراثية كرئيس مجلس الإدارة.

كانت تعلم أنها ستكون رئيساً تنفيذياً أفضل من (فولسوم). وعلى (هانك) أن يعطيها تلك الفرصة. إلا أن الرجل كان دائماً يولي المناصب العليا للعلماء بدلاً من خبراء المال. على الأقل حتى الآن. ولكن (زوي) كانت تحتفظ في جعبتها بورقة رابحة.

- «العالم الحقيقي، شيء مضحك!» تنهدت «تحليل مياه، رصد نمو الأشجار، حصد الطحالب والنباتات، والبحث في روث الخفافيش عن بذور غير مهضومة... هل هذا رئيس مجلس إدارة مؤسسة!».

- «هذا هو العلم. (زوي)!» رد (ند بيكر) بلطف.

خرج الاثنان إلى الثكنة الرئيسة.

- «هكذا هو الحال هنا. (فيلكابامبا) البقعة الساخنة حيث ينمو

عدد كبير من النباتات. لا يوجد مكان في هذا العالم يُعمّر به الناس كما هو الحال هنا. فهم يصلون إلى أعمار تتعدى المئة عام أحياناً. هذا ما دفع العلماء إلى البحث عن الأسباب».

- «حسناً» زمجرت (زوي)، بينما كانت تصعد الدرجات الصغيرة الثلاث المتبقية للوصول إلى باب البيت الخشبي

- «تمنَّ لي الحظ في هذه المعركة يا (ند)».

عبرت باب الثكنة مروراً بباحثين متسخين كانوا يجلسون أمام حواسيبهم المحمولة بعد زحفهم في الغابات، ليسجلوا ملاحظاتهم، محولين مغامراتهم في الغابات إلى أعمال بطولية.

هزت (زوي) رأسها بتقزز عندما رأت أحدهم يرفع خفاشاً مشرحاً بيده ويضحك.

فتحت الباب، ودخلت إلى الغرفة الخلفية.

لم يلقِ (هانك تورنتن) إليها حتى نظرة.

- «مرحباً (زوي). من صوت ضحكاتهم عرفت أنك أنت. (أندرو) هنا أيضاً».

كانت خصلات شعر (هانك) المموجة دهنية ومتسخة. آثار من غبار الطلع كانت عالقة في شعره بينما كانت رؤوس أصابعه سوداء.

أومأت (زوي) برأسها محيية (هانك) و(فولسوم).

جلس الرئيس التنفيذي لـ (تيسابي) جانب (تورنتن) إلى طاولة خشبية مطلية باللون الأبيض. وعلى غير عادته في ارتداء الثياب الفاخرة، كان (فولسوم) يرتدي كما (تورنتن) بنطال جينز وقميصاً منقوشاً بالمربعات. عيناه الذئبيتان كانتا ترمقانها بنظرات شامتة.

بينما اصطفت كؤوس تحمل نباتات على لوح الخشب المضغوط، كانت الأوراق والأزهار تنتشر على سطح الطاولة.

تفحص (هانك تورنتن) تركيب إحدى الأوراق مستخدماً زجاجة تكبير.

- «ضعي حاسوبك المحمول في مكان ما بحيث لا تؤذي به هذه المعجزات النباتية».

كان (هانك تورنتن) يبلغ الخامسة والثلاثين من عمره، وقد تولى منصب رئيس مجلس إدارة (تيسابي) منذ ثلاث سنوات. وبوصفه أحد كبار المساهمين في تلك المؤسسة العائلية سابقاً، كان توليه هذا المنصب، بعد انسحاب والده، أمراً مفروغاً منه. كان يسعى إلى تحقيق الاندماجات، بحيث يقرب المؤسسة من خلالها إلى مصاف أكبر شركات تصنيع العقاقير، وكان يقوم بإدارتها بطريقة ممتازة مستعيناً بمستشاريه، ولكن بالطريقة التي يضمن بها بقاء السلطة في يده.

- «ماذا يقول الـ (وول ستريت)؟»

- «لقد تمكنا من السيطرة على الأزمة تقريباً». أجابت (زوي بورسل)، «لقد تمكنا من المحافظة على قيمة السهم عند ثمانية عشر دولاراً. كاد سهم عقار (أفينكس) أن يقضي علينا. وكما يبدو إننا لن نستطيع طرحه حالياً في الأسواق. هذا ما قالته الإدارة الأميركية للأغذية والأدوية».

- «أعلم ذلك. فأنا أيضاً أستطيع متابعة ذلك من خلال حاسوبي. لم تكن بوابة رئيس مجلس الإدارة بالفكرة السيئة منك. أحسنت يا (زوي). ولكن كيف حدثت الأزمة؟»

- «السبب كان تحكيم ثالث لـ (أفينكس)، الذي دحض تحكيمنا الخاص وفحوصاتنا المخبرية. كان من المفترض أن يصبح (أفينكس) منتجنا الأقوى في السوق. إلا أن التحكيم الثالث أفاد أنه عديم الفاعلية ويؤدي إلى ظهور الكثير من الأعراض الجانبية السيئة. كان على (أندرو) أن يحذرني

مسبقاً! لقد توجب عليه أن يقوم بسحب (أفينكس) من السوق في وقت مبكر جداً».

- «والتخلي عن ربح ما يقارب مئات الملايين من الدولارات؟»

- «ولكن ما كانت أسهمنا ستهبط إلى هذا المستوى. هل تدرك أي ثروة تلك التي أضعتها؟»

- «لقد أجريت حساباتي بهذا الشأن. وباقتراحك كان سعر الأسهم سيهبط بسرعة أكبر. ولكننا خسرنا الثروة. أما بتلك الطريقة، استطعنا أن نستفيد من مردود مبيعات العقار كل يوم» -تجرع (تورنتن) رشفة من زجاجة الجعة خاصته- «سيعاود سعر السهم الارتفاع. أليس كذلك؟ أليست هذه هي مهمتك؟»

صوب نحوها إحدى نظراته الحادة التي لم تفهم معناها في البداية. إلا أنها أدركت بعد لحظات أن المعركة قد بدأت ولا مجال للتراجع.

- «تقديرات (أندرو) للعواقب كانت مخطئة، وكان قليل الحديث مع إدارة الأغذية والأدوية. ونحن نقوم بشراء براءات الاختراع الخاطئة».

استدار رئيس مجلس الإدارة ونظر من النافذة.

- «نحن نقوم سنوياً بشراء براءات اختراعات لجينات لا نستطيع استخدامها».

- « ... لا نستطيع استخدامها بعد». تمتم (فولسوم) بنبرة متعالية ورمقها بنظرة احتقار.

- «عالمٌ ما يقوم باكتشاف تسلسل جيني، فيبادر بتسجيل براءة اختراع، ونحن نشتري حقوق استخدامه، لأننا قد نستفيد منها في وقت لاحق».

كانت (زوي) تدرك أنها غير محقة بخصوص (فولسوم). فبالتأكيد كان بين براءات الاختراع تلك ما يمت بصلة وثيقة لأبحاث الشركة. إلا أن

الكثير منها تم شراؤه بناءً على التوقعات، وذلك بسبب العادة السيئة لدوائر تسجيل براءات الاختراع، التي كانت تسارع إلى حجب إمكانية استخدام أي اكتشاف لسلسلة جينية بعد أن يتم تسجيله.

- «تعالي إلى هنا يا (زوي)». تقدم (هانك تورنتن) من النافذة، فتحها وانتظر حتى تقف هي إلى جانبه. «هل ترين ذاك الجبل والوادي؟»

- «نعم»! تعجبت حيث كان ذلك الهواء منعشاً، بالرغم من وجودهم جنوب (الإكوادور) وبارتفاع ألف وست مئة متر. وحتى في أعلى مناطق الجبل كان كل شيء أخضر. تذكرت فجأة أن الثكنات لم تكن مجهزة بالمدافئ.

- «هذا الوادي يسمى أيضاً (الوادي المقدس) والجبل أيضاً هو جبل مقدس (مندينجو)». قال (هانك) كأنه يحدث نفسه.

- «أعرف ذلك. لقد كان الملجأ الأخير لشعوب الإنكا».

- «كم المعلومات الضئيلة التي نعرفها عن هذا الجبل، هو نفسه كم المعلومات التي نعرفها عن جبل براءات الاختراع، التي نقوم بجمعها. نحن نبحث على أمل أن نصل يوماً إلى الاكتشاف الكبير. هل تفهمين ما أعني؟»

أرادت (زوي) الإجابة، إلا أن رئيس مجلس الإدارة أشار إليها بيده آمراً: «الكارثة الحقيقية كانت أنه في الاختبار الثالث تم الاستشهاد بدراستنا. التي كانت قد أشارت قبل طرح المنتج إلى ما أثبتته نتائج الاختبار».

- «حقاً. لقد كان (أندرو) ومعاونيه يغطون في نوم عميق. لم يكن لهذا أن يُثبت في التقرير».

- «هذا صحيح من ناحية». عاود رئيس مجلس الإدارة الجلوس، وتفحص بنية ورقة النبات بيده، «لقد نال (أندرو) نصيبه من التوبيخ أيضاً. ولكن مجال الأمن هو من اختصاصك. إننا لا نعلم بعد، أي حيوان ذاك الذي قام بالروث في حظيرته الخاصة! لكن أداءك كان سيئاً يا (زوي)».

ابتلعت (زوي بورسل) لعابها. لقد فوضها (فولسوم) منذ ما يزيد عن العام بشؤون الأمن.

- «في مثل هذه المؤسسة الكبيرة لا يمكن تأمين كل شيء». أخبرها (فولسوم) في إحدى اللقاءات الثنائية «ولو حدث شيء سيئ فستُلف مشنقة جميلة حول عنقك».

كان ما يزال عليها الاحتمال. فلا بد أن تحين لحظتها المواتية.

إلا أن (فولسوم) باشر ببدء هجومه التالي: «يبدو أن هناك خللاً أمنياً» قال بصوت متحفز، «هناك من يريد بيع نتائج أبحاثنا للمنافسين! (زوي)، ماذا ستفعلين لحماية مرهم الحروق الجديد خاصتنا؟»

حاولت (زوي بورسل) التقاط أنفاسها.

ابتسم (فولسوم) الذي كان يستمتع بمباغتته لها، «إنه أمر مزعج ولكنه بسيط...»

- «أنا لا أراه كذلك» نظر (هانك تورنتن) إلى الأعلى بينما تعلقت يده الممسكة بالزجاج المكبر في الهواء، كأنها حشرة. «(زوي) إنها مليارات من اليورو تلك التي يريد أحدهم سرقتها منا».

كان علماء (تيسابي) يعملون منذ سنين على أبحاث حول استخلاص مضاد حيوي من جلد الإنسان، وكانوا على وشك طرح مرهم حروق جديد في الأسواق.

الجلد هو أكبر جهاز للإنسان، يحيط به ويحميه ويعزله عن بيئته الخارجية.

ولأن الجهاز المناعي للإنسان هو أقوى وأقدم نظام دفاعي على الإطلاق، كان من الأولى الاستفادة منه.

في نهاية التسعينيات تم االتوصل إلى أن الجلد البشري يقوم بإنتاج مضادات حيوية زلالية، تقوم بالقضاء على الفيروسات والبكتريا والفطريات

بسرعة مذهلة، بسرعة أكبر بكثير من المضادات الحيوية العادية. لم يكن لدى العوامل المسببة أي وقت لبناء مقاومة. تم إيجاد الآلاف من المواد على الجلد، في السائل الدمعي، في الأمعاء، في الرئتين وفي كريات الدم البيضاء...

- «نحن نعمل على معالجة الموقف». أطرقت (زوي)، فمنذ أيام أخبرها (بيتر سولفان)، مدير أمن (تيسابي)، عن الاختراق الأمني الذي حدث. لقد حصل (سولفان) على نصيحة من أحد رجاله. لم تكن تتوقع أن الأمر كان قد وصل إلى مسامع (فولسوم).

- «لم يحدث شيء بعد، (سولفاني) يقوم بجمع معلومات حول أسماء الأشخاص وأماكن التسليم. سنقوم بمنعهم».

أطرق (هانك تورنتن)، «اعتنِ بالأمر بشكل شخصي. عليك أن تقومي بوضع حد لهذه المهزلة!».



جزر (كايمان)

الإثنين

ألقى (بيتر سولفان) نظرة أخيرة على الطائرة التي كانت من طراز جولف ستريم G550، البالغ طولها خمسة عشر متراً وعرضها أكثر من مترين، وتتسع لتسعة عشر راكباً. جلس رجاله الستة على المقاعد الجلدية الوثيرة ذات اللون الزعفراني، وبدا أنهم مستمتعون بالجلوس في الدرجة الفاخرة.

ولأنه لم يكن يعلم حقاً ما ينتظرهم، طلب طائرة الشركة الكبيرة، التي يمكنها الطيران لمسافة 12000 كم، والمجهزة للرحلات ذات المسافات الطويلة.

وقف مدير أمن شركة (تيسابي) في ممر الطائرة. كادت الحرارة

المصحوبة بالرطوبة تمنع الهواء من الدخول إلى فمه. بسرعة البرق شعر بالعرق يتصبب من كل مسام جسده الممتلئ، وفي أجزاء من الثانية أصبح رأسه الحليق رطباً.

- «هل علي أن أرافقكم؟» سأل (بيت سبارو)، أحد قادة المجموعات ورمق (سولفان) بنظرة قلقة. بدا (سولفان) بوجهه الشاحب ووجنتيه المتدليتين والعرق المتصبب، كأنه على وشك أن يصاب بنوبة قلبية.

- «كلا!» فلم تكن تعلم أسماك القرش الشابة قساوة لحمه بعد.

أخذته السيارة، التي كانت بانتظاره، مباشرة إلى بناء حديث يضم مجموعة من الشركات. كان بها عدة مكاتب، -تقارب المئة- لشركات بسيطة اتخذت من هذا المبنى مقراً لها. كان عدد العمال المراسلين الذين يتبعون لهذه الشركات يعد بعشرات الآلاف، ولم يكن مالكوها يظهرون إلى العلن. كان هؤلاء الأشباح الذين يديرون الأعمال النظيفة وغير النظيفة، هم الثراء الحقيقي لجزيرة (كايمان)، التي تتبع للتاج البريطاني، وأصبحت منذ الثمانينيات أحد أهم مراكز العالم في استضافة الشركات الأجنبية.

كان الثراء يعتبر هنا مقياساً لكل شيء. وهكذا تم استثمار المليارات من الأموال، التي تم جمعها عن طريق الاتجار بالمخدرات، وفي مشاريع نظيفة، وانتشرت في دوائر المال العالمية.

عرّف (سولفان) نفسه لموظفة الاستقبال في مكتب المحاماة، وتمت مرافقته من قبل أحد العاملين اللطفاء إلى قاعة الاجتماعات. انتظر وحيداً بينما كان يتفحص الغرفة بنظره. كان أثاث القاعة داكناً، وامتلأت الجدران بالرفوف التي تحمل المراجع القانونية. على أحد الجدران البارزة عُلقت لوحة زيتية لمؤسس هذا المكتب. كان الهواء البارد الصادر عن أجهزة التكييف في القاعة تحدياً جديداً لدورته الدموية بعد الحرارة والرطوبة العاليتين اللتين كانتا في الخارج.

عندما فُتح الباب، كادت أنفاسه تتوقف. هاهي تقف أمامه -الحلم الكاريبي-.

كانت السيدة ممشوقة القوام، بأذرع وأرجل طويلة، وتقدمت باتجاهه بخطوات واثقة للغاية. كانت ترتدي تنورة سوداء محاكة بأناقة، أظهرت تفاصيل جسدها المثير، وقميص ذهبي اللون.

- «يوم سعيد. (نوانا ويب)». قالت السيدة.

دارت حول طاولة الاجتماعات، فذكرت مشيتها (سولفان) بأنثى النمر الأسود.

جلس في الجهة المقابلة لها. بينما كانت نظرات عينيها السوداوين اللامعتين ترمقانه بسخرية.

- «أنا محامية، وأمثل الرجل الذي كنت على موعد عمل معه. هل كانت رحلتك مريحة؟»

- «جداً. أشكرك». تأمل شعرها الأسود ذا اللمعة الزرقاء، وتذكر تلك القصة التي سمعها منذ سنوات في (الأنتيل). لقد فكر الرب بعقاب مناسب لآدم الذي كان دائم التذمر والملل. وفي أحد الأيام اعتصرت من جسد آدم عدة سوائل، واستعار من الشيطان الملح السحري، ثم خلط المواد ببعضها جيداً فخرجت أنثى (الأنتيل). ومنذ ذلك الحين أصبح لدى آدم الكثير مما يشغله فتوقف عن التذمر.

- «هل ستعود اليوم؟»

- «للأسف فور انتهاء اجتماعنا هذا». قال (سولفان) بنبرة آسفة، بينما استرق نظرات إلى انحناءات القميص حول صدرها الممتلئ.

- «جيد جداً وفعال. أود أن أراه». قالت (نوانا ويب) دون تردد.

انتزع (سولفان) نظراته بعيداً عن عينيها، وحمل حقيبة الملفات خاصته ووضعها على الطاولة. فتحها وأدارها باتجاهها.

ألقت نظرة سريعة على محتويات الحقيبة ثم ابتسمت، «أعتقد أنه لا مانع لديك أن يقوموا بعدها؟»

- «كلا». زفر من أعماقه عندما لمح أسنانها ناصعة البياض.

دخل رجل نحيل يرتدي بذلة رسمية، حمل الحقيبة وجلس في أحد الأركان الخلفية للقاعة.

أمامها على الطاولة ظهر فجأة ذلك الظرف. ومع أنها كانت طوال الوقت تحمله بيدها إلا أنه لم يلاحظه.

- «هل هذه زيارتك الأولى لجزيرة (كايمان)؟»

- «كلا». تجولت نظراته في الجلد اللامع من العنق إلى بداية فتحة الصدر.

- «وهل تقوم بزيارات عمل متعددة إلى هنا. كما الكثيرين غيرك؟»

- «في الماضي نعم». نظر إليها (سولفان) مبالغاً في رسم ابتسامة الفائز على شفتيه.

- «إني أعرف الشاطئ ذا الأميال السبعة برماله البيضاء الناعمة. إنه كالحلم».

- «أتمنى أن تكون كافة الأمور قد تمت كما كنت تأمل. وإن كان الحال غير ذلك فمكتبنا مستعد دائماً لاستقبال المزيد من الموكلين».

- «كنت أود مقابلة شريكي في العمل هنا...»

ابتسمت له المحامية بتعالٍ.

- «ولهذا نحن هنا. السرية هي أهم ما يميزنا».

وجهت المحامية نظرها إلى الموظف الذي أومأ لها أن كل شيء على ما يرام ثم غادر غرفة المكتب.

- «أرجو أن لا أكون قد دفعت ثمناً أغلى من المعلومات التي سأحصل عليها» قال (سولفان).

- «هذا ليس من شأني».

انتبه (سولفان) إلى جاذبية فمها ثم انتقل بنظره إلى الحاجبين المرسومين بعناية.

- «عشرة ملايين تعتبر مبلغاً كبيراً». تمتم أخيراً، بينما كان يفكر أنه في عمليات تبييض الأموال يُدفع نصف المبلغ تقريباً لمن يقوم بعملية الغسيل.

- «هل تجده كذلك؟»

دفعت المحامية بالظرف على الطاولة.

للحظة، اجتاحته رغبة في جرها إلى الطاولة ومعانقتها. ترددت يداه ثم أمسك بالظرف.

فتحه. وجد بداخله قطعة من الورق طُبع عليها بالآلة الكاتبة اسم شخص وشركة، إضافة إلى تاريخ، زمن ومكان للقاء.

عندما نظر إليها كانت عيناها الداكنتان ترمقانه بخوف.

أومأ، وودعته بابتسامة باردة.

بعد ساعة كان يجلس في الطائرة مجدداً، ويفكر في تلك المرأة الجميلة، صعبة المنال.



(فيلكابامبا)

الإثنين

كانت تغلي، وتلعن نفسها لأنها لم تكن مستعدة لحركة (فولسوم) الأخيرة. كان معها ورقة رابحة وكان عليها أن تنتصر.

- «لدينا مشكلة أكبر بكثير يا (هانك)» -سددت باتجاه هدفها- «ف

(أنــدرو) يتحمــل مــسؤولية مــوت إنــسان. في مرحلــة الدراســة قبــل الإكلينيكيـة. إن خـرج ذلـك إلى النـور فـإن الـسهم سـيهوي بـسرعة مـصعد قُطعـت حبالـه. علينـا أن نحـضر أنفـسنا، وأن نطـور اسـتراتيجية، لبيعـه بطَريقة فعّالة».

- «بيع رجل ميت بطريقة فعالـة؟» قـال (فولـسوم) بنبرة لاذعـة، وهـزّ رأسه باستياء.

ثم صرخ: «علينا أن نخفي هذا الأمر تماماً!».

- «(زوي)! عـدم حـدوث وفيـات أثنـاء تجريـب العقـاقير أمـر لا يمكـن ضـمانه منـذ البدايـة». رد رئـيس مجلـس الإدارة بهـدوء ونظـر إلى (فولـسوم) بازدراء.

- «قد تلعب الخبرة دوراً مهماً في القدرة على تخفيض نسبة المخـاطر لأدنى درجة، لأن النتائج بالنسبة للشركة تكون كارثية دائماً. انهيار الأسـهم، تحقيقـات، نيابـة، ومـصادرة نتـائج الأبحـاث...، تعلمـين هـذا طبعـاً!». وضـع (تـورنتن) رأسـه بـين يديـه «تعويـضات بأرقـام فلكيـة وتوقيـف الـشركة عـن ممارسة نشاطها لأشهر، (زوي) هل كنت تعنين ما قلته؟»

ازدردت لعابها. فدفاع رئـيس مجلـس الإدارة دعـم موقـف (فولـسوم). عليك أن تتابعي... — قالت في نفسها-

- «هذا لن يبقى سراً. أيام (أندرو) أصبحت معدودة. لقد حدث هـذا في مشروعه. لقد كان هنـاك عنـدما فـارق الرجـل الحيـاة. لا يجـب أن تـصل الأمـور إلى حـد تقـديم اسـتقالته بـسبب الـضغوط الخارجيـة. فعـدم أخـذ الأسواق بجدية أمر قاتل».

- «الأسواق. وما هذه أيضاً؟»

اشـرأب عنـق (هانـك تـورنتن) ووضـع الزجاجـة المُكبرة علـى الطاولـة. بينما تلاشت الملامح الصافية لوجهه.

- «(زوي). الأسـواق ليـست إلا مُنـتج اصـطناعي للمـال». ابتـسم (فولسوم) بانتصار، «الأسواق لا تساوي شيئاً من دون المصدر. ومصدرها يوجد هنا».

أشار (هانك تورنتن) إلى النبتة «إنها نبتة طبية تم العثور عليها، فحصها، إعادة اكتشافها، دراستها، تقييمها، تصنيعها، وإيصالها إلى الناس لتساعدهم. بعد ذلك، وفعلاً بعد ذلك كله تأتي الأسواق والمال والأسهم» صمت (تورنتن) مدة محسوبة، تابع: «فبالأسهم لا يستطيع المرء علاج السرطان ولا حتى زكام بسيط. والأمن يقع في نطاق مسؤوليتك».

نظرت (زوي) بغضب «هل كنت تعلم...؟»

- «طبعاً أعلم بذلك. هل تعتقدين أن (أندرو) سيخفي عني أمراً كهذا؟»

- «(هانك) هل ستقوم بإخفاء الأمر؟»

- «أنا؟ لا، بل أنت».

هزت رأسها بحنق وأطفأت حاسوبها المحمول. شعرت بالإعياء. كيف لها أن لا تُقدّر الموقف بشكل أفضل؟

لقد قام (هانك) بتحميسها طوال الوقت لتَصيُد أخطاء (أندرو)، وها هو ذا يتخلى عنها الآن.

إنه شخص يحب الاستعراض. دارت تلك الأفكار في رأسها مع شعور بالمرارة. كلماته. لم تكن تتخيل أنها ستخسره هو أيضاً.

- «(هانك). أعتقد أنني أخطأت التقدير» حاولت الابتسام.

وقف وأمسك كتفيها بقوة، جرها باتجاهه حتى أصبح فمه عند أذنها اليمنى.

- «لن ينجح الأمر بهذه الطريقة. عليك إخفاء الجثث.

اعتنِ بشكل شخصي بهذا الاختراق الأمني. هل تفهمين؟ وعليكِ أن

تدركي أنك تتحركين في عالم تزداد فيه سيطرة العلماء. كما عليكِ أن تتعلمي أشياء أكثر لتتعايشي معه».

كان صوته قوي ومرتعد يصدر صفيراً مزعجاً. بينما قامت عيناه الخضراوتان بتشريحها بنظراتهما. عند استخدامه تلك النظرات يصبح له ذلك الحضور الطاغي، كأنه سحر الكهنة.

- «وفي النهاية ما الذي نبحث عنه جميعنا هنا؟» نظر إليها بتحدٍ «ولا تفكري بتفاهة يا (زوي). فكري بأمور كبيرة».

كان (أندرو فولسوم) يجلس على كرسيه بتوتر.

- «هل تعتقدين حقاً يا (زوي) أني لا أعرف عن ماذا يبحث (أندرو) كالمجنون؟ أتعتقدين أن بإمكانه أن يقوم بهذا دون موافقتي؟ هل علي إخبارك بما حدث في مختبرات العالم، عندما أعلن هذا البروفسور من جامعة (فرايبورغ) في (ألمانيا)، أنه اكتشف الكروموسوم رقم 4 المسؤول عن الشيخوخة؟»

تنحنح (فولسوم)، إلا أن رئيس مجلس الإدارة لم يُعر انتباهاً لنائبه.

- «(أندرو) وأنا نبحث عن الشيء ذاته. أنا عن طريق النباتات، وهو عن طريق البشر. وللوصول إليه فإن كل شيء سيكون مسموحاً».

الفصل الخامس عشر

(دريسدن)

ليلة الإثنين إلى الثلاثاء

قامت (ياسمين برسون) باختيار مطعم البيتزا.

- «رائع!»، قال (واين سندر) عندما دخلوا إلى البهو الخارجي للمطعم «شهية طيبة. سأتذكر هذا المطعم، لماذا لم نأتِ إلى هنا من قبل؟»

كانت الطاولات المغطاة بالملاءات الناصعة البياض تقف تحت أشجار الزيزفون وقد رُتبت عليها فوط مُنشّاة.

ذكّرت الأوعية الفخارية الممتلئة بالأزهار (كريس) بالتوسكانا.

أعمدة الإضاءة ذات الارتفاع المتوسط والأضواء الصفراء أضفت على المكان لمسة من الشاعرية.

تماهت الأصوات المكتومة والضحكات الخافتة، وخرير مياه النافورة مع هواء المساء العليل الدافئ.

جلسوا على آخر طاولة متوفرة وطلبوا نبيذاً أحمر وبيتزا. بقيت (ياسمين برسون) صامتة لوقت طويل، وكانت تبتسم عندما كان الرجلان يضحكان بينما يسردان ذكريات الطفولة المرحة.

وبدأت الثقة تعود شيئاً فشيئاً بعد فراق السنين.

- «أنا أحسدك. شركة خاصة، سيد نفسك واستقلالية إلى حد ما.

إنه حلم... حسناً، ربما». قال (سندر) وهو يفكر ثم رفع كأسه ليشرب نخب (كريس).

- «كيف وصلت إلى هذا؟» سألت (ياسمين) بفضول.

أعاد (كريس) بعجالة ما كان قد قصه على (سندر) ظهر هذا اليوم، «وفجأة يقوم المرء بذلك. ولكن الأمر ليس سهلاً». طرح (كريس) بعض همومه -على الطاولة-، التي تتعلق بزبائنه، والبحث المستمر عن مهام جديدة حتى يستطيع الاستمرار. وفي الختام تحدث عن خسارته لزبائن كثر بعد ما قام به في (ميونخ)، «غالباً ما يتم دفع ثمن الأخطاء والثقة الزائدة بالنفس بشكل مباشر. فما زال اليخت الذي طالما حلمت بامتلاكه بعيد المنال».

- «أي يخت ذاك؟» أصغت (ياسمين) باهتمام.

نظر في عينيها الزرقاوين وتمنى لو أنهما كانا لوحدهما.

أحس مجدداً بذلك الشعور الذي انتابه عندما التقى زوجته للمرة الأولى، وقد ظن أن هذه الأحاسيس لن تعود ثانية.

- «إنك ما تزال متمسكاً بحلمك». قال (سندر) ودسّ قطعة من البيتزا في فمه.

- «بالتأكيد! ما زلت مقتدياً بخطى القبطان (جيمس كوك)، الذي جاب بلاداً لم يسبقه إليها أحد. اكتشافات كبيرة تلك التي حققها كـ (تاهيتي) وجزر (الإيستر)».

- «هذا أمر رائع!». قالت (ياسمين برسون) ضاحكة بينما ألقت بخصلات شعرها إلى الخلف، ونظرت إلى (كريس) مشجعة «وأخيراً أقابل شخصاً يحلم بشيء غير الحصول على جائزة نوبل».

- «هل هذا هو حلمك؟» وجه (كريس) سؤاله نحو (واين).

- «إنه هدف كل عالم» أجاب (سندر) بجدية تامة.

- «يجب أن تعلم أن العلماء يخوضون حروباً دامية فيما بينهم» ثم أوضحت (ياسمين برسون) بصوت حميم «فكل منهم يحسد الآخر على نجاحه».

- «أعتقد أنك تبالغين كثيراً» علق (سندر).

- «بل قليلاً فحسب».

رن هاتف (سندر) المحمول. نظر إلى الشاشة الصغيرة للحظات ثم ضغط زر إنهاء الاتصال.

- «لا أستطيع تصديق ذلك. فأنتم تعملون في مجال ما تزال فيه أمور كثيرة للاكتشاف». قال (كريس).

- «لا تنسَ أننا نعمل في مؤسسة ربحية. يحيط بها ساتر ضخم من السرية حتى لا يخرج شيء إلى العلن. إن التكتم الذي يحيط بعملنا لا تجده حتى في أجهزة الاستخبارات».

- «ولكن ماذا عن تقارير الأبحاث العلمية...»

- «... غالبيتها تصدر عن علماء يعملون في الجامعات والمعاهد التي تقوم الحكومة بتمويلها، ولهذا فهي مجبرة على إعلان النتائج العلمية».

رنّ جوال (سندر) مجدداً، وهذه المرة قام بالرد على الاتصال «سأحضر حالاً» هذا كل ما قاله.

رمقته (ياسمين برسون) بنظرة قصيرة ثم وجهت حديثها إلى (كريس) «وماذا عن القبطان (كوك) الآن؟»

- «سأقوم حتماً بالإبحار إلى وجهاته الثلاث، الأولى بسفينة (إندفر) خاصتي. (تييرا ديل فيجو)، (تاهيتي)، (نيوزيلاندا)، (أستراليا) - الأرض الجنوبية المجهولة - التي تم وصفها من قبل رسام الخرائط الروماني (بومبونيوس ميلا)». بدا الحماس والتشوق في صوت (كريس).

- «لقد أخبرتك سابقاً أن نهاية (كوك) كانت أليمة» ابتسم (واين سندر).

- «وكيف هذا؟» سألت (ياسمين برسون).

- «في رحلته الأخيرة تم قتله وتقطيعه من قبل سكان (جزر الهاواي). ثم أُعيدت قطعة متعفنة من فخذه بلغ وزنها ثمانية أرطال. بعدها تم العثور على فروة رأسه مع أذنيه. أما عظامه فقد تم طهيها لاعتقادهم بالقدرة السحرية الكامنة في عظام القادة الكبار».

انكمش وجه (ياسمين برسون) بتقزز.

- «إنك لن تستطيع إخافتي. فقد أخفقت في هذا سابقاً». تمتم (كريس). كانت الطقوس نفسها التي كان الاثنان يقومان بها في أيام شبابهما. فما يكاد (كريس) أن يستغرق في أحلامه حتى يذكره (سندر) بتلك النهاية المأساوية للمكتشف الكبير.

- «أعلم ذلك» قال (واين سندر).

- «ولكن لتحقيق هذا أحتاج للمال. وهذه هو العائق حالياً».

تثاءب (كريس) لشدة إعيائه. لقد مضى أكثر من 30 ساعة على استيقاظه من سرير الفندق في (جنيف) صباح الأحد. ولقد أبقاه التوتر متنبهاً، إلا أن مفعول النبيذ الأحمر بدأ بالظهور.

- «لقد أخبرتك أن سفينة (إندفر) كانت تقوم بنقل الفحم، وكان لها حيزوماً مسطحاً، فهي أشبه بالتابوت. طولها 30 متراً، تفوح منها الروائح الكريهة، مهترئة ومليئة بالقمل كما جميع سفن ذلك العصر».

«لكن سفينة (إندفر) خاصتي ستكون حديثة. سريعة وقاطعة للمياه. إنها زورق شراعي بكامل العدة والعتاد المتقدم».

- «هل حصلت على رخصة قيادة المراكب الشراعية؟»

شرب (سندر) الجرعة الأخيرة في كأسه وقام واقفاً، «(كريس)،

علي الذهاب الآن، فالوضع في بيتي سيء للغاية. لقد سعدت بلقائك، المرة القادمة سنقضي وقتاً أكبر مع بعضنا. سأتصل بك عند ظهور النتائج»، ثم استدار (واين سندر) إلى مساعدته ضاحكاً: «انتبهي يا (ياسمين). لقد بدأ حلمه في مرحلة المراهقة عندما قرأ مقالاً حول (جيمس كوك)، وكان يصف طقوس ممارسة الجنس في (تاهيتي)، التي رصدها (كوك). وهذا هو دافعه الحقيقي» ضحك (سندر) بشكل مستفز ثم رفع يده محيياً وغادر المكان.

- «ماذا حدث؟» سأل (كريس) وهو يراقب صديق شبابه من الخلف.

- «زوجته» قالت (ياسمين برسون) بين رشفتين من النبيذ «كان الاتصالان الهاتفيان عبارة عن دعوة للرقص».

- «كانت تستطيع المجيء معنا».

- «إنهم أربعة أطفال. هل تعلم ما يعنيه ذلك؟»

- «لا».

- «بالضبط». ترددت (ياسمين) لوهلة، ثم نظرت إلى (كريس) «إن زواجهما أصبح على شفى الانهيار. لقد كان ينتظر شيئاً آخر من الزواج غير تبديل غيارات الأطفال، وغسلهم، وإطعامهم، وتركيب قطع الليغو أو تدريب على القراءة لطفل في الصف الثاني الابتدائي. لقد تبين لهما منذ عدة أيام أن ابنهم ذو الخمسة عشر سنة يقوم بترويج المخدرات. ولقد ألقى بالمسؤولية على زوجته».

- «ليس لدي ما أقوله في هذا الشأن».

- «إن هذا يوتره ويجعله عصبي المزاج وقليل الصبر. إن حاله يزداد سوءاً. وخصوصاً في الأشهر الأخيرة. وبالتأكيد، هو يحلم كعالم بتحقيق اكتشاف مذهل. ولو كان الأمر بيده لبقي يعمل في المختبر ليلاً ونهاراً».

- «يبدو عليه الإرهاق والتشتت».

- «بالتأكيد. فمن ناحية يؤنبه ضميره، ومن ناحية أخرى يريد استكمال أبحاثه. وهنا دائماً الخلاف حول هذا. إني قلقة عليه للغاية».

❖ ❖ ❖

أدارت المفتاح وجرت الباب باتجاهها ثم دفعته دفعة صغيرة إلى الداخل.

- «ألن يزعجك هذا حقاً؟»

- «لا» نظرت إليه بابتسامة سعيدة وواثقة.

دخل (كريس) خلفها إلى الشقة.

عندما سألها إن كانت تعرف فندقاً أو نزلاً صغيراً في المنطقة، قالت له أنه باستطاعته المبيت عندها، «في غرفة منفصلة!» استدركت ضاحكة.

كانت الشقة تقع قرب المعهد، ومكونة من ثلاث حجرات، وقد تم تجديدها من وقت قريب. كان الأثاث ذا ألوان فاتحة وتم ترتيبه بطريقة أنيقة بينما عُلقت رسومات حديثة على جدران غرفة الجلوس.

- «ستنام في مخزن الأثاث». أرشدته إلى مكان نومه في الغرفة الثالثة، التي كانت تحتوي على أريكة تصلح للنوم أحاطت بها أكوام من الصناديق، وعدد كبير من الرفوف الخشبية الغير مركبة.

- «أتمنى أن لا تزعجك هذه الفوضى. وإن كان كذلك، فللأسف لا يمكنني تغيير الوضع، حيث إنني انتقلت إلى هنا منذ وقت قريب، ولم أنتهِ بعد من ترتيب الشقة».

تركته وحده في الغرفة فوضع أشياءه على الأرض.

كان هناك حقيبتي سفر إلى جانب الباب. ظهر من إحداها طرف

دمية قماشية لتنين أخضر اللون. انحنى (كريس)، وفتح الحقيبة فوقع نظره على علبتين بلاستيكيتين. سحب إحداهما إلى الخارج فوجد صورة لوحش آلي مرسومة على المغلف الخارجي. كان رأسه مربعاً، وله قناع حديدي، وعيناه صفراوتان، ويدان كالمقص. وقد كُتب على العلبة (بيونكل) المقاتل الآلي.

إن هذه اللعبة المصنوعة من المعدن غير ملائمة للأطفال. هكذا فكر (كريس) ثم أخرج اسطوانتين مضغوطتين من الحقيبة، كُتب عليهما أسطورة (قطار نوي)، مسموح برؤيته والاستماع لمحتواه من عمر الست سنوات.

أعاد كل شيء إلى الحقيبة، وبينما كان يقف محتاراً، فتحت (ياسمين) الباب.

- «يا إلهي، كم يبدو عليك التعب. برغم ذلك يمكننا شرب القليل من النبيذ قبل خلودك إلى النوم الطويل». كانت قد بدلت ثيابها وارتدت بيجامة حريرية صفراء اللون، مكونة من قطعتين.

- «بكل سرور».

- «إلى المطبخ». قالت، وسبقته إلى الخارج. تبعها وأحضر زجاجة النبيذ المفتوحة من المطبخ بينما قامت هي بوضع كأسين فارغين على طاولة غرفة الجلوس وارتمت على الأريكة وجرّت غطاءً على كامل جسدها حتى ذقنها.

- «أحياناً أشعر بالبرودة».

صب النبيذ في الكؤوس ثم جلس على الأريكة الأخرى.

ساد الصمت.

كان طوال وقت المساء يفكر كيف ستكون ردة فعلها لو أنه حاول مغازلتها. عندما عرضت عليه المبيت في شقتها، اعتقد أنها دعوة مباشرة

له للتقرب منها. وسرعان ما أصبحت شديدة البعد والبرود، والآن تصدر إشارة واضحة من الرفض وهذا ما أوقعه في حيرة.

ذلك الشعور المتبادل بالراحة، الذي ساد بينهما طوال المساء، وتلك التعليقات المرحة التي كانت تطلقها أثناء الحديث، كل ذلك اختفى تماماً. حتى أنه بدأ يفكر بالمبيت في فندق.

كانت تحدق إلى كأسها بينما ترتشف بعض الجرعات من النبيذ الأحمر بين الفينة والأخرى. كانت عيناها متحجرتين ورطبتين.

تجولت نظرات (كريس) في أرجاء الغرفة، ثم توقفت عند أحد الجدران الذي عُلقت عليه بعض الصور الشخصية. كانت هناك صورة لزوجين من العجائز، وأخرى لـ (ياسمين) وهي تقف بين مجموعة في مُختبر الأبحاث، وثالثة لها وهي ترتدي لباساً أخضر اللون...

- «هل هذه شقيقتك؟» سأل (كريس) بعفوية عندما رأى صورة سيدة تقف إلى جوار (ياسمين) وإلى جانبهما صبي صغير. كان من الصعب عدم التوصل إلى أنهما شقيقتان مع أن وجه السيدة كان يوحي أنها أكبر سناً، ويحمل خطوطاً تنم عن المعاناة. وبالرغم من أن وجه الصبي لم يكن يوحي أنه قد تجاوز الست سنوات أو السبع، إلا أنه كان ينظر إلى عدسة التصوير بعينين تنمان عن معرفة تفوق عمره بكثير. تذكر (كريس) الألعاب التي رآها في حقيبة السفر.

عندما لم يسمع ردها، استدار نحوها فوجدها تمسح عينيها بكفيها.

- «نعم إنها شقيقتي، وهذا ابنها الذي يبلغ الآن السابعة من عمره. يعيشان جنوب (السويد)». كان صوتها يحمل شيئاً من التكتم، كأنها لا تريد الحديث عن هذا.

- «لا يوجد زوج؟»

- «فقط عند تكون الجنين ثم تخلى عنها بعد الولادة مباشرة».
انكمش وجهها، «أنا متعبة. سأخلد للنوم». قالت باقتضاب.
- «لقد رأيت حقيبة السفر وبداخلها التنين القماشي».
أومأت، ووضعت الكأس على الطاولة بحركة واحدة ثم نحّت الغطاء جانباً وقفزت واقفة.
- «سأذهب غداً لزيارتهما».



احتاج (كريس) إلى دقيقة ليدرك أين هو. إنها التاسعة والنصف صباحاً.
نهض ثم فتح الباب المؤدي إلى الممر. من خارج الشقة تسلل إليه صوت طفل يلهو بينما تقوم والدته بتأنيبه. ثم سمع قرقعة الأطباق الصادرة من المطبخ وقد عبق المكان برائحة القهوة.
- «صباح الخير». قال متعباً.
- «أهلاً». وقفت أمام جهاز تحميص الخبز ونظرت إليه من فوق كتفها. لقد عادت تلك الابتسامة المشرقة، التي عرفها في المعهد وفي مطعم البيتزا. وبالرغم من أنها كانت مصطنعة نوعاً ما، إلا أنه لم يعد يشعر بذاك المزاج الكئيب الذي خيم عليهما في الليلة الماضية.
- «هل نمت بشكل جيد؟»
- «كل شيء على ما يرام» ابتسم وانسحب إلى الحمام، حلق ذقنه وبالغ في الاستحمام. ثم ارتدى أحد القمصان القطنية التي قام بشرائها من أحد المتاجر الرخيصة في اليوم الفائت.

- «يا له من قميص أنيق». قالت (ياسمين) مازحة، عندما دخل المطبخ ورأت ذاك القميص الذي يحمل رسماً لشاطئ البحر «النخلتان هما أكثر ما أعجبني».

كانت ترتدي بنطالاً من الجينز وقميصاً فاتح اللون وقد زينت وجهها بشكل خفيف، بينما وقفت تتفحص بعض الأوراق الخاصة بالسفر التي كانت تحملها بين يديها.

- «إنه شراء عشوائي، فلم أكن أحمل الكثير من الثياب معي».

جلس إلى الطاولة الصغيرة، ونظر إليها وهي تلقي نظرة أخيرة على تذكرة السفر.

- «هل ستسافرين اليوم؟»

- «نعم».

صب كوباً من القهوة لنفسه وانتظر. إلا أنها لم تضف شيئاً لإجابتها المقتضبة.

- «لم أفهم بشكل جيد ما قلته ليلية أمس، فقد كنت متعباً جداً. هل ستسافرين إلى شقيقتك وابنها؟»

- «الأصح، إلى ابن شقيقتي، نعم».

لاحظ لوهلة تغيراً في نبرة صوتها. بدا له مجدداً تلك النبرة الصادة التي عرفها الليلة الماضية.

وقفت وظهرها له، وهي تتابع ترتيب حقيبة يدها، ثم وضعت بعصبية شيئاً ما على سطح خزانة المطبخ.

اللعنة، فكر (كريس)، لقد كان من الواضح أنني قمت باختيار الموضوع الخطأ.

- «لم تخبريني الكثير عن نفسك. ما هي طبيعة عملك بالضبط؟» قال (كريس) وتمنى أن ينجح في كسر التوتر الذي ساد حوارهما.

- «أنا؟ -ضحكت بارتباك- باحثة في الكيمياء العضوية. أولاً في معهد (ماكس بلانك) حيث تعرفت على (واين). ثم ساعدني في الحصول على وظيفة في الشركة. ومنذ ذلك الوقت وأنا أساعده. أبحاث عن الجزئيات، البروتينات، التي كان يطلق عليها سابقاً اسم الزلال والإنزيمات. إنها المواد الدقيقة في الجسم، التي تنقل الرسائل وتستطيع فعل الكثير».

جلست إلى الطاولة وكانت عيناها الزرقاوين مضيئتين وصافيتين، وقد عادت إليها تلك الابتسامة الجميلة. ارتشفت قهوتها.

- «كيف يأتي المرء إلى (دريسدن)؟ ولماذا إلى هذه المدينة بالذات؟»

- «صدفة». ابتسمت «كان لي صديقة بالمراسلة تقيم في (دريسدن) أتيت ذات مرة لزيارتها. تطورت هذه الصداقة وكنت أبحث عن مقعد دراسي في الخارج. وكانت هذه المدينة تعيش حالة مثيرة من إعادة البناء. هذا هو السبب».

- «إنك لم تأكلي شيئاً» أشار (كريس) إلى الخبز المحمص فاكتفت بهز رأسها رافضة.

- «لقد تناولت فطوري».

أخذ (كريس) قطعتين من الخبز ودهنهما بقليل من الزبدة والمربى، «البروتينات. كنت أعتقد أن الجينات...»

- «إنه أمر معقد بالنسبة لغير المختصين».

- «حاولي».

- «تشكل البروتينات نسبة 50 بالمئة من الوزن الجاف للخلايا، وهي أهم مجموعة من المواد في الأعضاء. فهناك ما يزيد عن العشرة آلاف نوع من البروتين يعمل في الأعضاء البشرية. بروتينات للبناء والنقل والتخزين. وتقوم البروتينات التي تعمل كأجسام مضادة في بناء جهاز المناعة لجسمك وتقضي على أي دخيل».

ابتسم (كريس)، «لقد فهمت منذ البداية. أنت تهتمين بتلك الأشياء الصغيرة، التي يقدمها علم الأحياء».

- «يمكنك الاستمرار بالتهكم. الوحدة الأصغر التالية هي الأحماض الأمينية التي تتكون منها البروتينات».

- «لقد سمعت عنها سابقاً». علّق مازحاً «يوجد منها عشرين أليس كذلك؟»

- «هل تهتم بهذا حقاً؟ فالمرء لا يصادف الكثير من المهتمين بهذا الشأن».

- «كنت أود زيادة مدخراتي ولهذا قمت باستثمارها في شراء أسهم لشركات التكنولوجيا الحيوية، التي ازدهرت بها الأسواق الجديدة في تلك الأيام. كان بإمكاني تحصيل ثمن سفينة (إندفر) خاصتي خلال عامين، هذا ما قاله لي مستشار الاستثمارات آنذاك».

- «يا إلهي. تلك السفينة (إندفر) مجدداً. هل ذهب كل شيء أدراج الرياح؟»

- «بضعة من الفتيان العباقرة قاموا بصرف مالي لشراء بعض الأنابيب المخبرية وبعض الخراطيم، التي جلبت مردوداً جيداً، ثم ذهب كل شيء».

- «لقد أحرز العلم قفزات كبيرة، لكنها لم تكن بتلك الأهمية التي يتم نشرها. عليك تخيل الأمر كالكون، فقد تم اكتشاف بعض الكواكب بحيث يمكن للمرء النظر إلى نقطة معينة وتفسير بعض الأمور. إلا أنه لا يمكننا حتى تحديد حجم ذلك الذي نحاول اكتشافه. كيف لنا ذلك؟»

وقفت، ووضعت كوبها في حوض الغسيل ثم قامت بإعادة الزبدة والمربى إلى الثلاجة.

- «علي الذهاب قريباً ...»

أومأ، ثم ساعدها في ترتيب المطبخ.

- «ماذا عنيت بذلك؟» سألها بعد برهة.

- «حتى زمن قريب اعتقد العلم أن الجينات هي التي تتحكم في كل شيء. إلا أننا أدركنا اليوم أن البروتينات والأنواع المختلفة من الأحماض الأمينية، تلعب دوراً أكبر بكثير مما كان يُعتقد. خذ الأفاعي كمثال...»

- «الأفاعي؟»

- «نعم. سُمها. لقد تم حديثاً التوصل إلى أن سُمها عبارة عن خليط معين تحمله بداخلها، مكون من الأحماض الأمينية. أو خذ البكتيريا. فقد تم اعتماد نظرية أن البكتريا لا تهرم. واليوم تم إثبات أن البكتريا تهرم كما كل شيء حي».

- «أفهم ما تريدين قوله».

وقفا إلى جانب بعضهما أمام حوض الغسيل. هو يقوم بغسل الأطباق والأكواب، وهي تقوم بتجفيفها. تلامست أذرعهما عدة مرات أثناء ذلك. لاحظ فجأة أن الزغب الموجود على ذراعها قد وقف، كأنه صعق بالكهرباء. لم يجعله الاضطراب الذي شعر به يفكر بشكل واضح.

- «نحن نضع البداية. لقد قمنا بفتح الباب بشكل بسيط. كيف يمكننا فهم هذا؟ وأن تقول بثقة أن ذلك يكون كذا وكذا، وأن الآخر كذا وكذا...»

- «هل سنرى بعضنا مرة أخرى؟»

- «لنبدأ بكلمة لماذا. فإذا نظرنا إلى الأدوية التي يتم طرحها اليوم في الأسواق، فإننا نعلم فحسب أن لها هذا أو ذاك التأثير، ولكننا لم نكتشف بعد لماذا يحدث ذلك».

أمسك بيدها وجذبها نحوه. انزلق جسدها بعفوية تجاهه.

- «هل سنرى بعضنا مرة أخرى؟»

- «هل ترغب بهذا؟»

أحس بجسدها الدافئ والطري. اجتاحته رغبة جامحة. اقتربت

بجسدها فجأة تجاهه وابتسمت. استنشق عطرها الناعم، ودفعت يدها اليسرى الملتفة حول عنقه برأسه بحيث أصبح قريباً جداً من وجهها.

كانت شفتاها نصف مفتوحتين، وأمسكت أسنانها البيضاء بشفته السفلية بشكل مباغت وبدأت بشدها بلطف.

- «نعم! -همس وهو يتأمل الغمازة في زاوية فمها اليمنى- نعم، بكل تأكيد. وأنت؟»

- «منذ الدقيقة الثانية».

عادت مجدداً لتقبيل شفته السفلى. تفاجأ عندما سحبت النصف السفلي من جسدها إلى الخلف.

- «ولماذا منذ الدقيقة الثانية؟»

- «ليس الآن».

- «أعتقد أن عليك الذهاب...»

- «خلال ساعتين» قالت وقد لمع بؤبؤ عينيها.

ثم أفلتت جسدها بدفعة واحدة من بين ذراعيه. وخيم ظلال على وجهها، باحثة في عينيه عن إجابات لأسئلة لم يكن يعرفها. ولمح وشاحاً من الأسرار لم يستطع تفسيره.

- «أرجوك، ليس الآن. إن الأمر صعب جداً، وسأقوم...، كم تمنيت لو أننا تعرفنا إلى بعضنا قبل هذا اليوم ولو أنك كنت معي في...؛ لتساعدني...، ولكن...» -بدا صوتها يائساً- «إننا نرغب بالتأكيد برؤية بعضنا مجدداً... السبت، حسناً؟ هل هذا ممكن؟ وعندها ربما...، سنبقى على اتصال هاتفي...»

- «ما الأمر؟»

- «أرجوك! لا تسألني... آسفة... ليس الآن».

الفصل السادس عشر

مدينة (كولونياً)

الخميس

وقف (كريس) أمام نافذة مكتبه المطل على حديقة (كولونيا) لوسائل الإعلام، ينظر إلى الساحة ذات البركة المائية فوق مرآب السيارات. كانت الساحة تخلو من أي إنسان بينما كانت هبات الرياح تَجلد سطح الماء.

لقد وعدته أن تتصل به، لكنها لم تفعل حتى الآن. لم يكن يعلم أين هي. هل مازالت تزور ابن شقيقتها؟ أين اختفت؟ لقد ترك لها رسالة على المجيب الآلي الخاص بهاتفها إلا أنها لم تعاود الاتصال به. هل يجري وراء وهم؟

حدق في الموجات الرمادية الصغيرة لمياه البركة، ثم إلى السماء الملبدة بالغيوم. طقس كئيب، وأفكار يائسة أو أنه العكس. استدار دون أن يستقر على فكرة.

كان مكتبه في الطابق السابع بمساحة عشرين متراً مربعاً. على الجدران ثبتت رفوف للملفات، وزينت مساحات من الجدران البيضاء بمطبوعات ضخمة للرسام والفنان الأميريكي (آندي وارهول).

نظر بتجهم إلى تركة (فورستر).

على السطح الزجاجي لمكتبه كان هناك بعض الأوراق التي تحوي حسابات للأسبوع القادم، ووراءها الألواح الطينية والعظام.

انعكس ضوء مصباح القراءة على سطح الألواح الطينية فلمعت حبيبات الرمل المكونة لها بلون مُحمر بينما بدت بعض مواضع من العظام ذات لون عاجي.

لقد كان (واين) قد اتصل به صباح هذا اليوم ليعلمه أنه لم يتمكن من الحصول على أي نتائج. فالحمض الوراثي المستخلص من العظام لم يستجب لمصل النمو. إنه ميت.

- «عليك أن تعترف بالحقيقة». قال له (سندر) محذراً «من أين أتت هذه العظام حقاً؟ إن معرفة هذا سيشكل نقطة ارتكاز مهمة بالنسبة لي».

تردد (كريس) في البداية. ثم أخبره عن الألواح الاثني عشر، وعن المهمة المشؤومة لنقلها إلى (برلين). فما كان من صديق شبابه إلا أن ضحك بمكر.

- «إن تخيلاتك تزداد إثارة! دعك من هذا الهراء يا (كريس). إن لم تشأ أن تخبرني بالحقيقة، فلا داعي لهذا كله». ثم أغلق (واين) الخط.

واتضح لـ (كريس) صحة الحكمة القديمة القائلة أن الحقيقة دائماً ما تكون أغرب من الخيال.

لم يعد هناك فائدة من وجوده هنا. فقد ناقش خطة العمل للأسبوع القادم مع (إينا). وعليه أن يركز تفكيره الآن بما ينوي الإقدام عليه.

جلس أمام جهاز الحاسوب وبدأ بالبحث في الشبكة العنكبوتية عن أحدث الأخبار في جريدة (جنيف). لقد تم التعرف على (فورستر). لقد توصلوا إلى شخصية المستأجر من خلال سيارة المرسيدس وشركة التأجير.

كان البيان الأخير قد صرح أن شرطة (جنيف) قامت بعقد مؤتمر صحفي حضره كذلك المحامي المسؤول عن إدارة تركة (فورستر). ولقد قال المحامي أنه ليس بإمكانه تفسير وجود (فورستر) في الأراضي الألمانية، حيث إن سيارة خاصة لنقل المقتنيات الأثرية الآشورية كانت بطريقها إلى (اللوفر). ولقد تم السطو عليها.

ووفقاً لوصية (فورستر)، لقد ترك ما تبقى لديه من تحف أثرية لعدد من المتاحف. وأوصى أن تذهب كافة الأموال التي سيحصل عليها من عملية البيع وكل ما لديه من ثروة إلى اليونسكو واليونيسيف بهدف المساعدة في عملية إعادة إعمار العراق. على أن يتم تخصيص النصيب الأكبر لمنطقة (بابل) وما حولها.

لم تُذكر كلمة عنه أو عن الطرد الذي بحوزته. فكر (كريس) بارتياح. ثم ما لبث أن خطر بباله أنه لو كانت الشرطة تبحث عنه فإنهم؛ لأسباب تكتيكية لن يقوموا بالتصريح عن تلك المعلومات، لأنهم يطمحون للوصول إليه.

مرة أخرى نظر إلى الحسابات. لقد بدت سيئة للغاية. ثم أخذ الهاتف الجوال الخاص بـ (ريتسي) وطلب الرقم الذي أعطاه إياه (فورستر).

- «نعم». بدا الصوت في الجانب الأخر مليئاً بالدخان.

تردد (كريس) متفاجئاً. فلم يخطر له أن الشخص سيكون امرأة.



(صوفيا أنتي بولس) بالقرب من مدينة (كان)

الخميس

وقفت (ياسمين برسون) بأرجل مرتعدة في دهليز المستشفى وهي تنظر إلى داخل الغرفة ذات الباب المفتوح وإلى ذلك الجسد الصغير جداً تحت الغطاء على سرير المرضى البالغين.

نظر (ماتياس كيلسون) بوجهه الجامد وجلده المريض الشاحب إلى أمه، التي كانت تجلس على حافة السرير وتبتسم له مشجعة. بينما كانت

رسومات القراصنة الباحثين عن الكنز، المنقوشة على بياضات السرير ذات الألوان الزاهية، تسخر منهم جميعاً.

كان الطفل ذا السنوات السبع يرفع بيديه الضعيفتين مجسم (بيونكل) المقاتل الآلي إلى الأعلى.

كان يصدر نشيجاً بصوته الضعيف، كأنه فأر، كان يعيد تمثيل احد مشاهد فيلم أسطورة (قطار نوي). فقد شاهد الفيلم الذي أحضرته له (ياسمين) معها منذ ساعتين ثم استغرق في نوم عميق بعد شعوره بالإعياء.

تغرغرت الدموع في عيني (ياسمين) وتلاقت نظرات الأختين. لم تظهر أي دموع في عيني (آنا كيلسون) ولكنهما كانتا غارقتين في حزن عميق.

في الدهليز كان (جاك دوفور) يتقدم بخطوات هادئة ثم دخل الغرفة دون أن ينظر إلى (ياسمين). تحدثت (آنا) إلى (ماتياس) بصوت منخفض وعميق، بعدها وقفت وتبعت الطبيب. عبروا الدهليز إلى غرفة الزوار.

جلست السيدتان بصمت محدقتان إلى (دوفور)، الذي بدا عليه شيء من المعاناة والتفكير وهو يأخذ ملف الأوراق من فوق الطاولة الصغيرة.

- «يؤسفني أن أعلمك -اتجه نحو (آنا)- أن ابنك يعاني فعلاً من عوز البروتين الفا 1، انتي تريبسين الوراثي. وبانتشار النمط الظاهري ZZ تصل نسبة إنتاج المصل إلى 20٪ كحد أعلى من التركيز الطبيعي، مع وجود خطر كبير في إمكانية إظهار صورة المرض».

لقد قام الطبيب بتأكيد ما كانتا تعلمانه مسبقاً. فقد حدثت طفرة في الذراع الطويلة للجين رقم 14. فتم استبدال الحمض الأميني الجلوتامين، بالحمض الأميني ليسين.

ألفا 1، مضاد التريبسين ينتمي إلى بروتينات المرحلة الحادة، ويتكون بكميات كبيرة في الكبد عند حدوث التهابات وذلك لمقاومة البروتينات

البانية للزلال. وعند تبادل الأحماض الأمينية تتغير طيات الببتيد، فيتراكم هذا الإنزيم في مكان تكونه من خلايا الكبد عوضاً من أن يكون في خدمة الجسم كمصل. وقد يؤدي التجمع المغلوط لهذا الإنزيم إلى تدمير خلايا الكبد.

- «إن (ماتياس) مصاب بأخطر أنماط هذا المرض، الذي يتطور إلى مرض مزمن في الكبد».

حدقت (ياسمين) في وجه شقيقتها، الذي شقت جلده خطوط عميقة، كأنها الأخاديد. وتحولت شفتيها إلى خطين مطبقين على بعضهما لشدة الأسى، بينما تحولت تجاعيد الضحك إلى خطوط تعكس الأسى.

كانت (ياسمين) تدرك كم أن (آنا) تلوم نفسها لأنها لم تبادر إلى مساعدة ابنها في وقت مبكر. ولكن هذا كله هراء. فلم يكن ذاك المرض من النوع النادر جداً، ولم يكن تطوره إلى مرض كبدي بالأمر المحتوم.

- «بناء على ما أشرت إليه، إنكم لم تتمكنوا من إيقافه» -خرجت الكلمات بصعوبة من بين شفاه (آنا)- «فقد قال الأطباء أن عملية زراعة كبد جديد هي الحل الوحيد الممكن لإنقاذه. يا له من كابوس».

- «ولماذا لم يتم هذا حتى الآن؟». سأل (دوفور) وشعر بقشعريرة تجتاح أعماقه. دائماً هذا السؤال: لماذا؟. لماذا لم تنجح التجربة مع (مايك غيلفورت)؟ لماذا مات ذاك الشاب الأميريكي؟ ولماذا أقنعه بالخضوع لتلك التجربة؟ لماذا لم يعرفوا بعد...؟ لماذا هذا الطفل الصغير الآن؟

- «في البداية يجب العثور كبد ملائم لطفل صغير. ويشترط أن لا تكون نسبة التفاوت بين وزن المتبرع والمتلقي أكثر من خمسة وعشرين بالمئة. وبموت طفل آخر كان من المفترض إنقاذ (ماتياس). إلا أن حجم الكبد لم يكن ملائماً. بالرغم من أن هذا لا يحدث في عشرين بالمئة من الأعضاء المتبرع بها».

استغرقت (ياسمين) بالتفكير فيما مرت به شقيقتها حتى الآن.

لقد ناقشتها شقيقتها عدة مرات في أمر التبرع بالكبد الحي. بما أن الكبد يتكون من فلقتين، وتكون الفلقة اليسرى أصغر بوضوح من الفلقة اليمنى. بهذا تتاح فرصة تبرع أحد الوالدين الأصحاء بالفلقة اليسرى إلى الابن. وهذا سيؤدي إلى تقليل عدد الأطفال المسجلين على لائحة الانتظار.

تذكرت (ياسمين) بألم تلك الليلة التي سألتها فيها شقيقتها إن كانت هي أيضاً مستعدة لتقديم مثل هذه التضحية.

- «لا يمكنني الإجابة على هذا السؤال. من الناحية النظرية البحتة سيكون الرد سلبياً حتماً. لا يمكنني أن أقول لك ببساطة: حسناً سأفعل هذا. عندما يكون السؤال محدداً، عندها فقط سأتمكن من الإجابة. فأي إجابة في غير تلك الحالة ستكون غير صادقة. لماذا تسألين؟»

لم تستطع (آنا) كبح دموعها فانهارت باكية. ثم صرخت قائلة: «لقد قررت أن أتبرع بالجزء الأيسر من كبدي لابني!»

ثم تابعت: «إلا أن هذا لن يتحقق! فزمرة دمي مختلفة. والتوافق في زمر الدم يعتبر شرطاً أساسياً».

لمدة يومين كانت (ياسمين) تتجول بين غابات بلادها، كأنها مخدرة، بعدها قامت بإجراء الفحوصات الحاسمة. ولكن زمرة دمها هي الأخرى لم تكن مناسبة، وهذا ما جنبها اتخاذ أصعب قرار في حياتها.

ثم لاح أمل جديد، عندما بدت عملية نقل لجزء من الكبد ممكنة. كاد التبرع بالجزء الأيسر من كبد رجل غريب أن ينقذ حياة (ماتياس). إلا أن نتائج فحوصات المناعة التي تسبق العملية كانت سلبية.

فقد أظهر تحليل نقل الدم تنافراً بين مصل المتلقي وخلايا الدم البيضاء للمتبرع. وفي هذه الحالة ستكون عملية النقل مميتة.

كان العلاج الجيني هو الحل الأخير بالنسبة لـ (آنا) لإنقاذ حياة ابنها

«(ياسمين)، إنك تعملين في إحدى هذه الشركات. وأنت تعلمين جيداً إلى أي مدى وصلتم حتى الآن. وأنت تعرفين بالتأكيد أين يتم تطوير العقاقير التي بإمكانها إنقاذ ولدي! حتى وإن كنتم تستخدمون المياه المُبخّرة، سجلي أسمائنا. ولا يهم في أي مكان من العالم يحدث هذا».

صاحت (آنا)، هددت، بكت، ترجتها، عانقتها، ضمتها، بل عصرتها تقريباً، دفعتها ثم انهارت إثر نوبة البكاء الحادة.

جمعت (ياسمين) معلومات حول هذا في مؤسسة (تيسابي) وقامت بترتيب الاتصال.

طردت تلك الذكريات من رأسها، وأصغت إلى الأسئلة التي كان يطرحها (جاك دوفور) بصوت هادئ.

- «ماذا عن الأب؟ لماذا لا يحاول المساعدة في هذا الأمر؟»

- «لقد اختفى بعد الولادة بقليل. ولده بحاجته وهو غير موجود».

كان صوت صرير أسنان (آنا) يخترق أضلاع وأرجل (ياسمين).

نظرت (ياسمين) إلى الطبيب بريبة. بدا لها (دوفور) غارقاً في التفكير ومتردداً بطريقة غريبة، وكان يحدق بالطاولة بشكل متكرر.

كان إقرار الموافقة مايزال موجوداً عليها. حيث أشير إلى موضع التوقيع بنقاط متتالية. بينما أُحيطت الفقرات القانونية الحرجة التي تشير إلى حماية الأطباء محاطة وقد طبعت بخط عريض.

- «نحن بحاجة إلى إجراء بعض الفحوصات قبل أن تقومي بالتوقيع» قال (جاك دوفور) فجأة.

- «هذا سيؤدي إلى تأجيل عملية البدء بالعلاج لبضعة أيام. إلا أنني أريد التأكد بشكل جازم».



مدينة (كولونيا)

الخميس

- «من هناك؟» سأل الصوت الأنثوي

- «بروفيسور (سولنر)؟»

- «من يتكلم؟»

احتاج (كريس) إلى بضعة ثوانٍ لتجاوز المفاجئة «هل تعني لك (بابل) شيئاً؟ اللقاء المرتب يوم الإثنين الماضي باكراً، الذي للأسف لم يتحقق».

- «من أنت؟ إن لم تعرفني بنفسك فسوف أُغلق الخط». كان صوتها هادئاً، حازماً ومسؤولاً. وبدت ثقة هذه السيدة بنفسها شديدة الوضوح.

- «إنه بخصوص تسليم الآثار إلى متحف الشرق». ترقب (كريس) ردة الفعل. لقد سمع أنفاسها، وكأنها تصعد الدرج أثناء حديثها على المحمول. صدر صوت خفيف ثم قُطع الخط.

عاود (كريس) الاتصال، إلا أن الخط كان مشغولاً.

تذمر ولعن، ثم ضحك بمرارة. كيف له أن يتخيل أن كل شيء سيتم بسهولة؟ بعد نصف ساعة تمكن مجدداً من سماع صوت السيدة المُدخنة على الهاتف.

- «لماذا تقومين بإغلاق الخط؟ إن كررت ذلك ثانية فسيُسعد هذا متحف (اللوفر). فالآثار بحوزتي».

ساد الصمت.

- «أنت لست الشخص الذي قمنا بالتفاوض معه حتى الآن».

- «هذا صحيح، فمن كنتم تتواصلون معه انسحب من الصفقة، وبتعبير آخر لم يعد لديه أي اهتمام بها، ولقد قام بنقل كافة التوكيلات لي».

ومجدداً ساد الوجوم على الجانب الآخر. ابتسم (كريس) برضاً، لقد تخطى لتوه العقبة الأولى.

- «حسناً. يمكننا محاولة ذلك» أخيراً قالت البروفسورة ذلك بارتياح. «هل الشخص الذي كان على اتصال معنا هو ذاك الذي كتبت عنه الصحف السويسرية بإسهاب منذ يومين؟»

هنا سكت (كريس) للحظة.

- «كيف خطر ذلك ببالك؟»

- «وهل تعتقد أن خبر السطو على حافلة تنقل آثاراً آشورية إلى متحف (اللوفر) لن يلقى اهتمامنا؟ لقد انتشر هذا النبأ داخل الوسط في غضون ساعتين. ولقد تابعت كذلك المؤتمر الصحفي صباح هذا اليوم بخصوص الحادث على طريق السفر رقم 9، هل كان هذا أنت؟»

- «كلا. وأياً كان ذاك الذي قام بتلك الجريمة، فإنه قد ضرب في المكان الخطأ. فالألواح الطينية معي. لقد كنت حتى الآن أنتظر التعليمات. ومن الواضح أنها لن تأتي...، ومع هذا فإنني سأقوم بتنفيذ الجزء الخاص بي من العقد».

- «هل تعني أن سفر (فورستر) إلى (برلين) لم يكن إلا حيلة تمويهية، بينما تقوم أنت عملياً بنقل الألواح الأثرية؟»

- «رائع أيها السيدة البروفسورة، استمري بالتفكير هكذا». قال (كريس) في نفسه.

- «هل كنت تعرفينه؟»

- «(فورستر)؟ كلا ليس شخصياً، -اصطنعت سعلة خفيفة- ولكنه معروف بالنسبة لي، كتاجر تحف طبعاً. إنه رجل ذو سمعة مريبة».

- «وبالرغم من ذلك تريدين شراء التحف منه؟»

- «إنها صفقة مشروعة». قالت ببرود.

- «وماذا الآن؟» سأل (كريس) بعد لحظات «فأنا سأحل مكانه».

- «اذهب إلى الشرطة».

- «لن أفعل هذا. فنحن نتحرى الكتمان التام في مجالنا، وليس من الوارد اللجوء إلى الشرطة».

- «ماذا تعتقد، كيف سيبدو هذا، إن قمت أنا الآن...»

- «أنا المالك وهذا مثبت في العقد».

ساد الصمت لوهلة... «هل تريد مالاً؟»

- «نعم. طبعاً».

- «إن جمعية الشرق وممولوها ليسوا تجاراً».

- «وأنا لا أعمل في جمعية خيرية».

- «أراد (فورستر) تسليمنا الآثار دون مقابل».

- «لقد أخبرني (فورستر) أنه تم الاتفاق على السعر».

ساد جو من التوتر الحاد، كأن الجوال قد شحن بطاقة عالية.

- «لقد كان عرضنا الأخير مئة ألف يورو».

- «إنك لا تجيدين الكذب». ضحك (كريس) بتهكم.

- «حتى أختصر الوقت. لقد تم الاتفاق على مبلغ عشرة ملايين. على أن يتم تحويلها إلى اليونيسيف واليونسكو. وكان من المفترض أن تري الآثار صباح يوم الإثنين، يوم الثلاثاء تقومون بتحويل المبلغ ويوم الأربعاء يتم التسليم. هكذا كان الاتفاق».

- «ماذا لديك لتسلمه؟» لم يبدُ أي ذهول أو يأس على العالمة.

- «ألواح طينية سومرية».

- «اذهب إلى الشرطة وأوضح لهم الأمر، وبعدها يمكننا إتمام الصفقة في أي وقت».

- «سوف يصادرون كل شيء».

- «تماماً. هل علينا أن ندفع ثم تصادر المقتنيات وهي بحوزتنا؟ إنك لا تقنعني. هذه اللقى تعود لنا أصلاً وتمت سرقتها».

ابتسم (كريس) فقد تنبأ (فورستر) بما سيحدث.

- «تعتبر القوانين السويسرية فيما يخص الآثار ملائمة جداً للمهربين. حيث يحصل المرء على الآثار ويقوم بتخزينها مدة خمس سنوات في مستودع الجمارك، بعدها يصبح له الحق في امتلاكها. وأنت تعلمين جيداً أن هذه اللقى كانت بحوزة (فورستر) مدة أطول من تلك بكثير. فلن يفيدك ما قلته في مثل هذه الحالة».

- «توجد اتفاقيات دولية».

- «اتفاقيات اليونسكو؟» ضحك (كريس) ساخراً. «قانون نقل الملكية الثقافية؟ ينص على مضي ثلاثين عاماً كمدة للتقادم. وهذه المدة تجاوزها أيضاً. إضافة إلى أن الكثير من هذه القوانين لا تزال في كثير من البلاد معلقة للبحث. وفي (ألمانيا) لم يتم تطبيقها بعد. وذلك لسبب بسيط. وهو أن (ألمانيا) إحدى أكبر أسواق تجارة الآثار. إنه الرياء في كل مكان».

- «وما هو تصورك للأمر؟»

- «سأقدم لكم سعراً خاصاً. مليون يورو مكونة من ألفين وخمس مئة ورقة، تدفع لي نقداً. هذا العرض متوفر لمرة واحدة فقط. إن لم يكن لديكم اهتمام، فسيسعد هذا حتماً (اللوفر) أو المتحف البريطاني. فلطالما آلمهم أن يكون مكتشف (بابل) هو الألماني (كولدوي)».

مرة أخرى ساد الصمت.

- «هل لديك اسم؟»

- «(ريتسي). هل يعجبك هذا؟»

- «إيطالي؟ سيد (ريتسي)، إنك تتحدث الألمانية بطلاقة. عاود الاتصال بي مساء الغد».

- «كلا. غداً صباحاً. فإما أن ننهي الصفقة غداً أو لا».

الفصل السابع عشر

(باريس)

مساء الخميس

كـان (هنـري مـارفن) يطـل مـن جناحـه في الفنـدق الفـاخر علـى (الشانزلزيه)، كان قد أزاح الستائر جانباً بينما أبقى يديه متشبثتان بالقماش. كاد ينفجر وهو يحاول كبت غضبه عندما رأى الألوية المطبوعة على الدفاتر الصغيرة التي أراد البريتوريانيين من خلالها نشر أفكارهم في (أوروبا).

يوم الأربعاء القادم ستبدأ فعاليات المؤتمر الذي دعت إليه جمعيتهم الدينية، والذي ستنطلق من خلاله حملتهم الدعائية في (أوروبا). وخلال هذا سيتم التعريف بالكتيب الصغير.

عاد الناشر إلى أريكته، وتأمل تلك المعالم الناعمة لوجه (إريك مايكل لافاليـه)، الـتي أظهرتهـا بطريقـة أكثـر وضـوحاً تلـك النظـارة المـصممة خصيصاً. لم يلحظ حتى شعرة خيط على بذلته الداكنة، وتوقع (مارفن)، أن هذه البذلة لا تعني لذلك الرجل أكثر من منحه منظراً أنيقاً وشعوراً بالأمان.

كـان (لافاليـه) شـاباً ذكيـاً ومثقفـاً، درس علـم الفلسفة، وهـو خـبير باللغات القديمة، التي كانت تَعد دراستها، سابقاً، بمستقبل زاهر. لقد قام بدعم من أحد أساتذته باكتشاف ونشر ترجمة لمخطوطات آكادية حول

عـرش المغتـصب (سـرجون)، في مجلـة اللـوفر. لقـد حقـق هـذا الملـك 34 انتصاراً على ملك أوروك ومن ثم أسس الامبراطورية الآكادية العظيمة التي حكمت بلاد ما بين النهرين لمدة مئة وستين عاماً.

إلا أن القانون حرم هذا الشاب من مكانته الاجتماعية والعلمية، حين تم القبض عليه عندما كان يقوم بتزوير شهادات لقطع أثرية لصالح أحد التجار المحتالين. وكانت تباع هذه الشهادات مع القطع الأثرية لإيهام المغفلين من جامعي التحف بأنها ذات قيمة أثرية عالية.

دفعت هذه المشكلة بـ (لافاليه) إلى أحضان البريتوريانيين، وهنا انتبه (مارفن) لهذا الشاب وبدأ الاعتناء به.

إنه ما يزال بحاجة الشاب الفرنسي. وكان على (جاستن باري) أن يحصل أخيراً على البضاعة التي أراد (مارفن) عرضها على البابا. وبالمقابل يريد أن يحصل على اعتراف بالبريتوريانيين كأخوية دينية أو ربما كحبرية خاصة. وبهذا يستطيع تتويج انتخابه كرئيس للبريتوريانيين.

الثلاثاء سيكون اليوم الكبير. على الدرجة نفسها مع (الأبوس داي)! هذا حقه! وسيكون هو على قمة الأخوية الدينية!.

سيقود رعية تضم أكثر من مئة وخمسين ألف من المؤمنين في جميع أنحاء العالم، بإيمان لا يتزعزع ويُقادون بطريقة أشد من (الأبوس داي)، وسيتبعونه إلى كل مكان، لا أحد سيجادله فيما ينوي فعله.

وحتى تحصل الحملة الدعائية على المزيد من الدعم، سيتم الكشف عن بعض أعضائها من المشاهير. وستعلم القارة العجوز أخيراً، لماذا يدور هذا الصراع الدامي في (الولايات المتحدة) بين العلم والإيمان. وستصل هذه الشرارة إلى هنا لتحول معابد هؤلاء الكفرة إلى ركام ورماد. لم يدرك العلماء بعد أنه مستعد للذهاب إلى النهاية!

والآن فشل (لافاليه) في تصميم كتيب يوقظ مشاعر الناس

ويشدهم. إلا أن (لافاليه) لم يكن متكلفاً ولم يكن الشخص الذي يعرف أي نوع من العشب الروحي ذاك الذي تحتاجه تلك الخراف المضطربة.

- «بغض النظر عن التأخر في عملية التحضير لطباعة ذلك الكتيب، فإن الأمر الأسوأ عزيزي (لافاليه) هو أن تصميم ومحتوى الكتيب لم يكونا بالمستوى المطلوب أبداً. الكثير من الفيزياء والعلوم الكونية، والقليل جداً حول الحفريات وعلم الأحياء الدقيقة والتفكير البشري الصحيح! لماذا لم تلتزم بنماذجنا المحفوظة؟»

- «أردت تقديم شيء جديد». قال الفرنسي ببساطة.

- «أعني لو أنك التزمت بالحجج التي قمت أنا باختيارها، لزاد ذلك من قوة الإقناع».

- «كلمة شرف! كلمة شرف! صدقني. لقد قمنا بتغيير هذه النصوص عدة مرات ونعرف تماماً قوة تأثيرها». أخذ (مارفن) أحد الكتيبات وبدأ يقرأ وهو يهز رأسه مستنكراً: «علينا أولاً أن نرد على الجدل الدائر بيننا وبين العلماء، ونوضح لهم أنه لا يوجد سوى نموذجين لبدء الخليقة. إما الطريقة العشوائية أو الطريقة المدروسة. النشوء والارتقاء، أو الخلق الإلهي».

رمق (مارفن) الفرنسي بنظرة حنونة، كأنه الأب الصديق بالرغم من أنه كان يود لو أنه يرسله إلى الجحيم.

- «ومن ثم عزيزي (لافاليه)، يجب أن تأتي إحدى حججنا. علينا أن لا ندع الناس في هذه الحيرة وقتاً طويلاً. كان علينا أن نبين لهم منذ البداية أن نظرية النشوء والارتقاء مجرد أحد النماذج، بمعنىً آخر هو إيمان العلماء. وبينما تبنى عقيدتنا على الإيمان بالخلق الإلهي كدين، فإن عقيدتهم تبنى على العلم فحسب. وبهذا فإنك تقول باختيارك لهذه الكلمات أن نموذج النشوء والارتقاء مجرد نظرية وليس أكثر».

نظر (لافاليه) إلى الناشر الأميريكي بحيرة: «أنت تعلم جيداً أن

مصطلح نظرية، يتم استعماله في العلم بمعنىً مختلف تماماً، فهو يعبر عن أعلى درجات المعرفة».

- «(لافاليه) ولكن هذا هو المقصود بالضبط، علينا مهاجمتهم من هناك».

- «أنا أيضاً عالم في الفلسفة الإنسانية، ويسري مصطلح النظرية بالنسبة لي».

- «ولكن ليس باللغة العامية (لافاليه). يجب أن نبدأ من هنا. وهنا أيضاً يكمن خطؤك. يجب أن نتعامل على أساس المستوى اللغوي للقارئ، ونطرح حججنا من خلاله. بالنسبة لهم تبقى النظرية مجرد فرضية، لم يتم إثباتها».

أظهرت إيماءات وجه (لافاليه) مدى امتعاضه من التلاعب بمعنى مصطلح النظرية.

- «علينا أن لا أن نبقى...» تمهل ليجد التعبير المناسب.

أمال (مارفن) رأسه ورفع حاجبيه. كان متشوقاً لمعرفة كيف سيتمكن (لافاليه) من الخروج من هذا المأزق. فقد مر (مارفن) بالكثير من التجارب مع أعضاء جدد كانوا متأثرين بالأفكار العلمية البحتة، فوقعوا هنا في مثل هذا الارتباك.

- «... نختبئ خلف هذه التعبيرات الدلالية. فنحن لسنا مضطرين لذلك».

- «معك حق عزيزي (لافاليه)، إلا أن العالم ليس بتلك العدالة التي تتمناها. لقد اخترع أعداؤنا الطفرة لأنهم لم يتمكنوا حتى الآن من التوصل إلى ما يربط بين الكائنات وحيدة الخلية والإنسان، ولا أي برنامج للحمض النووي استطاع أن يثبت تحول الأنواع. البكتريا تحوي جينات لأنواع من البكتيريا ليس أكثر. لم يعثروا على جينات بشرية متحولة أو على جينات من سمك القرش».

مع كل كلمة كان صوت (مارفن) يرتفع ويصبح أكثر انفعالاً. وما لبث أن احمر وجهه الهادئ وتوجهت سبابتاه كالأسهم نحو (لافاليه).

- «إنهم يحاولون يائسين الاحتجاج بتشابهات مختلقة وأعضاء ضامرة. فتصبح الخياشيم بالنسبة لهم القنوات الداخلية للأذن البشرية. إنهم يدعون حدوث عدد لا متناهٍ من الطفرات العشوائية ليفسروا من خلالها تكون مخلوق معقد كالإنسان. كم هائل من الصدف العشوائية، التي لا يمكن حدوثها حتى من الناحية الإحصائية. وهنا يمكننا تجاهل ذلك الأمر الصغيرة. أليس كذلك؟ وأنا لا يعجبني على الإطلاق عدم ذكرهم لاسم الإله الخالق ولو لمرة واحدة».

- «مونسينيور (مارفن)، لقد التزمت بالتطورات التي حدثت في بلادكم فحسب. ففي أحدث نقاشاتهم لم يذكر أولائك، الذين يحاربون العلماء ونظرية النشوء والارتقاء، اسم الرب. وكان ذلك متعمداً».

- «أعلم». قال (مارفن)، وشرب القليل من النبيذ الأحمر ثم وضع الكأس بعصبية على الطاولة «فالخدعة الجديدة التي يستخدمها بعض مثيري الفتن من البروتستانتيين، أنهم يقارنون بينهم وبين العلماء لأنهم يريدون إقناع الناس. وفي سبيل هذا هم يتجاوزون نقاط الهجوم أملاً بالتقدم. ولقد سمى الرئيس هذا بالنقاش بين مدرستين فكريتين».

لم يبدُ على نظرات (لافاليه) أنه قد فهم ما عناه الرجل الأكثر نفوذاً بين البريتوريانيين «وما هو الخطأ في ذلك؟ إن كان هذا سيؤدي إلى تحقيق الهدف وإسقاط القناع عن وجه العلم ونظرية النشوء والارتقاء».

- «الخلق هو صنيعة الإله! إنه مذكور في السفر الأول والثاني من العهد القديم في الكتاب الأول لموسى. ويشرح بدء الخليقة بعشر خطوات خالية من المغالطات وبالتسلسل نفسه الذي يبينه العلم أيضاً في المراحل الأساسية لنشوء الحياة...»

جمع (مارفن) نفسه وخفض نظراته بعيني (لافاليه)، كأنه منوم مغناطيسي.

- «في البداية كان خلق السماء وكل العالم، أي الكون. ثم تسلل الخيط الأول للضوء، الذي سماه الإله بالنهار، ستار الغاز والغبار، اللذان يعتبران من شروط وجود الحياة. فصل الله السماء عن الأرض وبهذا خلق الدورة الهيدروليجية. الحرارة والضغط، والخطوة الرابعة، أوجد اليابسة والبحر...»

ازداد اندماج (مارفن)، وأشار له (لافاليه) بيده باسترضاء، لكن البريتورياني لم يتوقف.

- «...وفي الآية الحادية عشرة أوجد المياه الصالحة للحياة، الضوء وكميات كبيرة من ثاني أكسيد الكربون. وفي المرحلة السادسة بدأت النباتات بإنتاج الأكسجين، وبهذا تغير الجو وأصبح شفافاً، وأصبح بالإمكان رؤية الشمس والقمر في السماء، اللذان يلعبان دوراً في تحديد الزمن، اليوم، النهار والليل وفصول السنة. وأمر الله أن تدب الحياة في المياه، والهواء، وأوجد الدواب والحيوانات البرية على الأرض» -أخذ نفساً ثم تابع- «ثم خلق الله الإنسان، وفي اليوم السابع أنهى الخليقة، ومنذ ذلك الحين لم يوجد شيئاً جديد بعدها!»

تحول صوت (مارفن) العالي إلى شبه همس: «(لافاليه)، عليك أن تنتبه لهذا. بناء على حساب الاحتمالات، فإن احتمال أن يكون موسى هو الذي خمن ودون هذا التسلسل الصحيح، سيتجاوز الملايين. وبغض النظر عن التسلسل، فكيف توصل موسى إلى تلك الخطوات تحديداً، التي عرفها العلم الحديث فيما بعد واعتبرها أساساً لتكون الأرض والحياة؟ على العكس تماماً من أساطير الخلق الأخرى والمليئة بالمغالطات!»

- «مونسينيور (مارفن)، أنا أوافقك الرأي تماماً...»

- «إنه خلق الله!» ارتفع صوت (مارفن) مجدداً «على الجميع أن يعرف هذا! نحن البريتوريانيين حماة الكتاب المقدس. وهنا يكمن تميزنا عن البروتستانتيين. نحن نخلص لإلهنا. والذين يجادلون دون ذكره فإنهم يخونونه وينكرونه. إنهم ليسوا أفضل من أولئك الذين يؤمنون بنظرية النشوء والارتقاء».

- «مونسينيور (مارفن)، فلماذا قام الفاتيكان إذاً بالاعتراف بنظرية النشوء والارتقاء؟»

- «بلبلة، (لافاليه)، بلبلة في أعلى المستويات. ولكن مهمتنا المقدسة ستُدعم...» قطع رنين المحمول كلام (مارفن)، أخذ رشفة من النبيذ الأحمر ثم أجاب باقتضاب: «نعم».

وقف (مارفن) فور سماعه اسم المتصل، وتوجه إلى الحجرة المجاورة. كان (لافاليه) بمثابة مساعد لـ (مارفن). فقد كان قريباً من المقدسين، لكن بقي عليه أن يجتاز الاختبار الأخير. وحتى ذلك الحين لم يكن يحق له معرفة كل شيء.

- «أخبرني» ضاقت عينا (مارفن) حتى بدتا كأنهما خطين.

- «ومن هو ذاك الخنزير؟»

- «يدعى (ريتسي)» قال الصوت الذكوري عبر الهاتف.



(برلين)

بعد قليل

جعل الاتصال الهاتفي ضغط (جاستن باري) يرتفع حتى احمر جلد وجهه القاسي وكاد أن يصاب بنوبة قلبية. وبالرغم من أن (مارفن) لم يشر إلى فشله يوماً، إلا أنه كان يدرك أن هذه هي فرصته الأخيرة.

مسح بيده على شعر رأسه الداكن ذو القصة العسكرية القصيرة، ارتشف جرعة من الكونياك ثم ألقى بنظرة باردة إلى نائبه (كولين غلاسر).

كان (كولن غلاسر) يكاد يكون توأماً للممثل (آلان ديلون). اختاره (مارفن) دون أن يستشيره منذ نحو عام ليصبح رئيساً للأمن في (أوروبا)، وقد أوضح له أنه هو من سيقوم بالتحكم في كل الأمور.

كان (باري) يشغل منصب رئيس الأمن ومنتسب إلى البريتوريانيين منذ خمس سنوات. لم يكن يعني له الإله شيئاً إلى أن انفجرت قنبلة بجانبه أثناء مشاركته في حرب الخليج الأولى في العراق. وقد نجا من الموت المحقق بأعجوبة.

هناك، وفي ليالي الصحراء الهادئة والصافية عاد بذاكرته إلى صلوات الطفولة. ذات ليلة وعلى سريره العسكري في إحدى الخيام المنصوبة في الصحراء العاصفة، وبين أصوات شخير زملائه، قطع على نفسه عهداً جديداً مع الله، أن يبقى مخلصاً وتابعاً له إلى الأبد.

بعد الحرب ساقته أقداره إلى وحدة مكافحة التجسس في قاعدة القوات البحرية الأميريكية في (سان ديغو)، حيث تعرف بعد سنوات على البريتوريانيين وانضم إليهم. تفاهم (مارفن) مع (باري) منذ الوهلة الأولى. فقد وجد الاثنان طريقهما إلى الله من خلال الحرب. (مارفن) في (فيتنام) و(باري) في حرب الخليج. وكلاهما واجه في الحرب ذلك الاختبار الصعب، الذي أرشدهما في النهاية إلى الطريق الصحيح.

إضافة إلى ذلك كان (مارفن) معجباً بخبرة (باري) في مجال التجسس الوقائي، الأمر الذي جعله يعينه رئيساً للأمن.

شكل (باري) فريقاً للأمن يدين بالولاء التام لـ (مارفن). كانت مهمته الأخطر حتى الآن هي مطاردة الآثار، وذلك لأن اعتراف الكنيسة بجمعيتهم كأخوية دينية كان مرهوناً بنجاحهم بتلك المهمة.

- «لا يجب أن نخفق هذه المرة» -تمتم (باري) وارتمى على الأريكة في أحد أفخم فنادق (برلين)- «وإلا فسينتهي أمري».

- «هذا لن يكون». قال (غلاسر) وهو يحدق في شاشة التلفاز الذي أعاد رفع صوته بعد أن كان قد أوقفه أثناء مكالمة (باري) الهاتفية.

إنك تنتظر تلك اللحظة، فكر (باري)، وصب لنفسه كأساً جديداً من الكونياك بينما كان يلخص أحداث الأيام الأخيرة.

لأشهر طويلة لم يتمكنوا من التوصل إلى أن (فورستر) هو المشجع السري للمتاحف، فقد كان يقدم عروضه للمتاحف البرلينية من خلال مراسلين وقنوات مختلفة. ومنذ نصف أسبوع فقط، تمكنوا من النجاح في ذلك. عندما قاموا بتعقب أحد الرسل من (برلين) إلى (جنيف) عند توجهه إلى إحدى شركات الأمن.

وقع اختيارهم على (فريدريك بيرغ). كان رجلاً في سن التقاعد، متين البنيان، ممتلئ الجسم وذا وجه متحجر المعالم وعينين بنظرات نادمة دوماً.

كان يعمل كموزع للموظفين في شركة الأمن التي عينت المراسل الأخير، وكان مستعداً لبيعهم كل ما يريدون معرفته من معلومات مقابل حفنة من الدولارات.

حصل (باري) على المعلومات الحاسمة من (بيرغ) عند لقائه به ظهر يوم السبت في كاتدرائية (سانت بيير) في البلدة القديمة في (جنيف).

- «قام موظفونا بملئ الشاحنة منذ صباح هذا اليوم. ستنطلق مساء الغد متجهة إلى متحف (اللوفر) في (باريس). ستصل صباح يوم الإثنين وسيتم تفريغها. وتتابع الثلاثاء طريقها إلى (برلين)، ثم تعود بعد ظهر الأربعاء».

كانوا منذ أيام يراقبون فيلا (فورستر) في ضاحية (كولونيه

بيلليريفي) في (جنيف) ولقد رصدوا وصوله إلى هناك بعد ظهر يوم السبت. لقد أبقاهم ذلك العجوز على الطرقات طوال يوم الأحد. فقد ذهب للتنزه في إحدى الحدائق في حي (ملانجو) وأُعجب خلال زيارته لمتحف تاريخ الطبيعة بنسخة الهيكل العظمي الخاص بالأثيوبية (لوسي)، قبل أن يتوجه بعد الظهر إلى مطعم فاخر في أحد الفنادق العريقة، للاستمتاع بتناول وجبة غنية.

كان حارسه الشخصي (أنتونيو بونتي) يرافقه طوال الوقت. ثم أعاد تاجر التحف إلى الفيلا، وفي وقت متأخر من ذلك المساء انطلقا مع الشاحنة باتجاه (فرنسا).

قاموا بمتابعة الشاحنة وكانت عملية السطو على وشك الحدوث عندما اتصل بهم (بيرغ) ليخبرهم بذلك النبأ المرعب.

- «إنه لا يرافق الشاحنة المتجهة إلى (اللوفر)».

- «لقد رأيته بنفسي بسيارته الجاكوار» -أجاب باري- «وكان حارسه الشخصي برفقته».

- «هذه هي الخدعة. وجود (بونتي) مجرد تمويه. إنه يرافق شبيهاً تم اختياره بعناية فائقة. ولكنه ليس (فورستر)».

- «كيف لك أن تكون متأكداً إلى هذا الحد؟»

- «لقد تحدثت لتوي مع مديري. قام بمراقبة انطلاق الشاحنة من الفيلا، وعاد إلى المكتب منذ دقيقتين. وقد لاحظ وجود الشبيه وسأل (بونتي) عن ذلك. الأشياء المهمة بحوزة (فورستر) الحقيقي، الذي انطلق منذ ساعتين في طريقه إلى (برلين)».

شلّ اتصال ذلك الخائن تفكير (باري) لدقائق، ثم قرر تصديق ما قاله (فريديك بيرغ). فغير اتجاهه منطلقاً إلى (برلين)، بينما قام (كولين غلاسر) وفريقه بالسطو على الشاحنة الأخرى عند الحدود الفرنسية.

لم يكذب (فريدريك بيرغ)، وكان (باري) سعيداً لأنه أعطاه المزيد من الدولارات.

عندما صوب (غلاسر) فوهة مسدسه إلى جبين (بونتي) استطاعوا معرفة رقم السيارة ونوعها ومواصفاتها، الحارس الأمين لتاجر الآثار.

أعطى (باري) تلك المعلومات التي تمكن من الحصول عليها إلى الفريق الاحتياطي المتجه إلى (برلين).

انطلق فريق الدراجات النارية من (برلين) وقطع نحو مئتين وخمسين كيلومتراً على الطريق السريع حتى وصل إلى تقاطع (هيرمس دورف)، حيث يتقاطع الطريق السريع رقم 4 من الغرب مع الطريق السريع رقم 9 من الجنوب. ومهما كان اختيار (فورستر) فسيكون الطريق السريع رقم 9، هو الذي عليه أن يسلكه للوصول إلى (برلين).

ثم قام الفريق بالتعرف على السيارة عند منطقة إصلاح طرق خلف التقاطع مباشرة، حيث افتعلوا وجود عطل في إحدى الدراجات النارية، وقاموا بإعطاء إشارات ضوئية للسيارات المارة للتخفيف من سرعتها.

حسنت تلك الأخبار من مزاج (باري) للحظات. فقد قام (نويل باين بريدج) بترتيب كل شيء، وتمت السيطرة على شاحنتين. إلا أنه من خلال جهازه الجوال الذي أبقاه مفتوحاً، كان على (باري) أن يتابع تفاصيل فشل العملية دون أن يتمكن من التدخل. فقد كان على بعد مئات الكيلومترات عندما تم محو فريقه.



مدينة (دريسدن)

مساء الخميس

جلس (واين سندر) أمام جهاز الحاسوب الخاص به يلعن تلك الإجراءات الأمنية المشددة للمؤسسة، التي تحول دون قدرة العاملين على تحميل أو نسخ أي معلومات من أجهزتهم دون إذن المشرف على بنك المعلومات. الذي كان يراقب بدقة ما يمكن نسخه من معلومات. وفي حالات الارتياب، قد يقوم المشرف بالاتصال بالمكتب الرئيس للمؤسسة لسؤالهم عن كيفية التصرف. إلا أنهم لم يكونوا بالدقة المطلوبة فيما يخص تبادل البريد الإلكتروني وسيل المعلومات.

في كل فرع من فروع المؤسسة كان هناك مختص واحد على الأقل في مجال الكمبيوتر، الذي كان يخضع لإدارة المكتب المركزي، حيث يتم هناك إبلاغ الأمن عن أي أمر مريب يحدث.

إلا أنه بقي أمر واحد لم يتمكنوا من السيطرة عليه: ألا وهو الأوراق. فلم يستطيعوا ضبط ما يتم طباعته بشكل يومي على الأوراق.

ضغط (سندر) على زر الطابعة، التي بدأت بطباعة المعلومات على الأوراق. اضطر (سندر) لإعادة ملئ الطابعة ثلاث مرات بالأوراق. ثم أخذ الرزمة المطبوعة ودسها في الحقيبة التي أحضرها معه.

كان على وشك أن يطفئ أنوار مكتبه عندما تذكر (كريس) وتحليل العظام الخاص به. لم يطرأ أي تغيير على العينة حتى الآن. فقد كانت الخلايا ميتة ومعها الحمض النووي. محلول النمو لم يحدث أي مفعول. ولم يعد (سندر) يتوقع أن هذه الحقيقة ستتغير. لقد استخدم مجموعات أولية مع محلول مغذٍ قوي دون أي نجاح. احتوى المحلول المغذي على فيتامينات متنوعة، سكر، أملاح، أحماض أمينية ضرورية، حمض الجلوتامين، حمض السيستين المُذاب. كانت درجة حرارة الحاضنة تساوي 37 درجة مئوية

تماماً. وبهذا قام بتحضير كل ما هو مطلوب لتحويل تلك العينات من العظام الميتة إلى مزرعة من الخلايا الصالحة للفحص.

ربما لم يكن هذا المحلول المغذي بالقوة المطلوبة. فعندما تكون بقايا الخلايا قديمة ومتآكلة، قد تحتاج إلى محفز قوي لمساعدتها على الانقسام. هذا إن كان هناك حياة متبقية في هذه الخلايا أصلاً.

لم يفكر خلال الأيام الثلاث الماضية بصديق طفولته كثيراً، فقد كان شديد الانشغال بمشاكله الخاصة. حيث توجّب عليه أن يجمع أحدث المعلومات في مذكرته، التي احتوت على كافة المعادلات ونتائج الأبحاث والخطوات التفصيلية للمنتج. وقد استغرق وقتاً طويلاً لإحداث ثلاثة أخطاء متعمدة ودقيقة حتى يتمكن من حماية نفسه.

كانت قصة (كريس) وتلك العظام، مجرد محاولة صغيرة لصرف الأنظار عما ينويه فعلاً، إضافة إلى أنها خدمة لصديق شبابه بالرغم من عدم اقتناعه بما رواه له من أحداث. فقد فاقت القصة التي رواها له (كريس) صباح هذا اليوم على الهاتف كل توقعاته. تاجر آثار يريد أن يكفر عن ذنبه، وصيته الأخيرة... عملية نهب وسطو... هل يعتبره أحمق لهذه الدرجة؟

لا يهم، إن أراد صديقه الاحتفاظ بأسراره فهو أيضاً لديه ما يخفيه.

تنهد (سندر)، ونظر حوله مجدداً، ثم قرر أن ينهي تلك اللحظات العاطفية. كل دقيقة يمضيها في هذا المختبر تبقيه بعيداً عن مشكلات بيته. فقد وصلت الأمور هناك إلى حد لا يحتمل. ففي الليلة الماضية نشب خلاف كبير بينه وبين زوجته عندما أخبرها أن عليه السفر مرة أخرى.

وضع حقيبته وتوجه إلى المختبر. كان يريد ترك ورقة لـ (ياسمين) يخبرها فيها أن عليها تدمير الخلايا المزروعة عندما تأتي في عطلة نهاية الأسبوع لإطعام الحيوانات.

ما هذا الانفجار العظيم!. فتح باب حاضنة الخلايا، وفي قعرها حيث وضع بالأمس المحلول المغذي، نمت الخلايا بشكل مخيف حتى أن بعض الأوعية كانت ممتلئة بشكل كامل بتلك الخلايا.

- «أمر لا يصدق» -تمتم (واين سندر)- «ربما ستحصل فعلاً على نتائج التحليلات يا (كريس)».

ارتدى قفازين ووضع كمامة غطت أنفه وفمه، وسحب بعض الخلايا من الحاضنة، ووضعها مجدداً في أنبوب يحوي على المحلول المغذي. لم يكن يعلم حقاً لماذا يقوم بهذا، ولكن جرت العادة على تحضير خلايا احتياطية من الخلايا المزروعة؛ لاستخدامها في حال الحاجة لإعادة عملية الفحص في حال حدوث خطأ ما.

نظر (سندر) إلى ساعته. ربما يستطيع إنهاء عملية التحليل إن أسرع بالعمل. شرط أن لا يكون ذلك على حساب جدول أعماله. فالصداقة لن تكون على حساب المصلحة الخاصة.

انتابه شعور غريب بالتوتر والسعادة العميقة، كأنه يقوم للمرة الأولى بتحضير النمط النووي. فبحساب عدد الكروموسومات سيستطيع إخبار (كريس) إذا ما كانت تلك العظام بشرية أم إلى أي من الحيوانات تعود.

- «(كريس)، إن كانت ستين كروموسوماً فإنها تعود إلى البقر. وإن كان عددها ثمانية وأربعين فإنها تكون لنوع مثلي».

الفصل الثامن عشر

مدينة (برلين)

الجمعة

كانـت المنطقـة المحيطـة بمتحـف (بيرغـامون)، كأنهـا ورشـة عمـل ضـخمة. فقـد تم تكـسير الـشارع في عـدة مواضـع؛ لمـد أنابيـب جديـدة ولتحسين طبقة الإسفلت.

بعد بحث طويل تمكن (كريس) من العثور على مكان لإيقاف سيارته إلى جانـب جامعـة (هومبولـد) حيث أدار اللوحـة التي تحمـل عبـارة: -مكـان مخصص لآليات الورشة- باتجاه الرصيف. فقد كان مـن غير المحتمـل أن تحتاج تلك الآليات إلى الموقف في مثل هذا الوقت من يوم الجمعة.

قام أحد المارة بتأنيبه على تصرفه وهدده بالاتصال بالـشرطة ثم تابع سيره متذمراً بينما توجه (كريس) نحو جسر القصر. كانت الحديقة ممتلئة بالراغبين بالاستمتاع بدفء حرارة الشمس اللطيفة من بعد ظهـر ذلك اليوم.

خلع (كريس) سترته القطنية، وألقاها على العشب ثم وضع حقيبته تحت رأسه واستلقى على ظهره ناظراً إلى نافورة الماء النابعة من البركة ثم أغمض عينيه تاركاً أشعة الشمس تنشر حرارتها اللطيفة على وجهه بينما كان يسمع الأصوات والضحكات من حوله.

انطلق هذا الصباح من مدينة (كولونيا) باتجاه (برلين)، وقام بحجز غرفة في نزل صغير في ضاحية (فيلمرزدورف) حيث كان معتاداً على النزول به عند زيارته لـ (برلين).

عندما رن هاتفه المحمول اعتقد أنها (إينا) وتريد سؤاله عن مهمة ما. إلا أنها كانت (ياسمين) «يسعدني سماع صوتك مجدداً» قال بلطف «أين أنت؟» تماسك محاولاً تهدئة نفسه بالرغم من أنه كان سيرقص فرحاً لشدة سعادته.

- «مازلت في السفر». قالت بصوت بارد وبعيد.

بُهت (كريس) من تلك البرودة، فلقد تحدث عدة مرات على المجيب الآلي الخاص بها وكان قلقاً عليها.

- «هل أصبحت ذكرى من الماضي بالنسبة لك؟» سألها «حيث كان من المفترض أن تبدأ قصتنا؟»

- «عفواً؟»

- «أنا سعيد باتصالك...»

- «المعذرة، فتركيزي مشتت» بدا صوتها فجأة أكثر رقة.

- «ما الخطب؟ أولاً لم تقومي بالاتصال، وأنا لا أعلم أين أنت، والآن... لقد أردنا اللقاء في عطلة نهاية الأسبوع. ماذا حدث؟»

صمتت. ثم سمع أنيناً. هل تبكي؟ انتصب (كريس) جالساً.

- «(ياسمين). ما الأمر؟»

- «ليس الآن، حسناً؟» صمتت مجدداً، ثم بدا صوتها متماسكاً «أنا في طريق العودة. سأكون سعيدة إن كان باستطاعتنا اللقاء في عطلة نهاية الأسبوع. غداً اتفقنا؟»

- «سأكون سعيد بذلك جداً».

- «متى؟»

- «قبل الظهر على أبعد تقدير. فمدينة (دريسدن) لا تبعد كثيراً عن (برلين)».

«(برلين)؟ ولماذا أنت في (برلين)؟»

ضحك، «علي أن أنهي صفقة هنا ولكن بعدها سأكون متفرغاً» - صمت قليلاً- «أنت أيضاً؟ هل ستتفرغين غداً لكلينا فقط؟»

- «ربما». قالت بتردد.

- «هل باستطاعتي مساعدتك؟»

- «سأخبرك غداً بكل شيء، وبعدها ستفهمني، حسناً؟ أنا لا أريد قول أي شيء الآن. أرجوك! فالموضوع لا يتعلق بك».

وقف (كريس)، وحرك قدميه المرتخيتين وتوجه نحو متحف (بيرغامون)، الذي كان مبناه يضم متحف الشرق الأدنى كذلك.

كانت ورشة أعمال الطرق توجد في الشارع الصغير الممتد أمام المتحف أيضاً. حُجب مبنى المتحف بالسور المرتفع الخاص بورشة الأعمال، الذي أحاط به بينما تم تجهيز طريق إسمنتي خاص بالمشاة.

عبر (كريس) الطريق إلى الجانب المقابل للمتحف، ونظر إلى ذلك المبنى الضخم ذي الأجنحة الثلاث، الذي استغرق بناؤه من عام 1930 حتى إتمامه نحو خمسين عاماً. لم يرَ سوى بضعة من الزوار يصعدون الدرج الممتد من الشارع ماراً فوق مياه قناة (كوبفرغرابن) وصولاً إلى بوابة الدخول.

اتجه مسرعاً نحو التقاطع التالي ثم استدار إلى اليسار. إلى يمينه كان ذلك المطعم الصغير الموجود خلف السور المربع لمحطة قطار الضواحي. وعلى الرصيف رُتبت الطاولات والكراسي في صفين. وبما أن الأماكن كلها كانت محجوزة، كان عليه أن يقبل بالجلوس قرب موقف الحافلات مستنداً إلى عمود الاستعلامات، بينما لمح بعينيه شابين يقفان في حالة انتظار وهما يرتديان زياً من الجلد خاص بسائقي الدراجات النارية.

من مكانه كان يستطيع أن يرى الشارع المتجه إلى المتحف. ثم طلب فنجاناً من الكابتشينو وكوباً من الماء.

كانت (رامونا سولنر) هي التي اقترحت هذا المكان، بعد أن رفض (كريس) أن يكون اللقاء داخل المتحف. وبالرغم من رغبته الشديدة بمشاهدة بوابة عشتار، إلا أن خطر القبض عليه بتهمة السرقة وهو يحمل في حقيبته تلك الألواح الأثرية، كان كبيراً جداً.

حضرت البروفسورة قبل الموعد المحدد بخمس دقائق، وبدا أنها وصفت له نفسها بشكل جيد. فتعرف (كريس) فوراً على تلك السيدة ذات الجسم المتناسق والرقيق، وذاك الشعر الناعم الطويل ذي اللون الجوزي والمنسدل حتى أسفل الظهر.

كان وجهها يعكس شباباً وحيوية، بينما تجولت عيناها في أرجاء المكان. كانت ترتدي قميصاً كريمي اللون وتنورة وسترة بلون أزرق الداكن. قدر (كريس) عمرها بنهاية الثلاثينيات. كان الرجل بجانبها أطول منها بمقدار بسيط، وكان يرتدي بذلة غامقة. دخل الاثنان إلى المطعم ثم عادا فخرجا بعد برهة وجلسا إلى إحدى الطاولات الفارغة في الخارج. رمقت البروفسورة وجوه الحاضرين، كأنهم ثلة من الطلاب الجدد.

فكر (كريس)، أيها السيدة البروفسورة (رامونا سولنر)، يبدو أنك داهية. ثم انتظر مدة عشر دقائق وراقبهما أثناء طلبهما المشروبات.

بدا التوتر على مرافقها بينما كان يجلس على كرسيه. لم تكن تلك البذلة التي بدت للناظر عن بعد كأنها زي رسمي لرجل أعمال، سوى بذلة كهنوتية ذات ياقة بيضاء. وهي تعتبر اللباس الرسمي للقساوسة خارج الدير. لقد كان الرجل قسيساً. وكان يبدو عليه الارتباك.

لا يوجد شيء مثير للريبة، فكر (كريس)، الذي ألقى بنظرة تفحصية

أخيرة على الشارع وزبائن المطعم. ثم وقف ومرّ بين الطاولات المصطفة على الرصيف.

- «السيدة البروفسورة (سولنر)؟»

- «نعم؟» كانت عيناها متيقظتين وذاتا لون جوزي كلون شعرها. لقد تعرف على صوتها المبحوح من خلال اتصالاتهما الهاتفية. وهكذا بدت له أكثر جاذبية.

- «إن لم يكن لديكما مانع، فأنا سأشعر براحة أكبر في ذلك الركن» قال (كريس) هذا وأشار إلى طاولة في الركن الخلفي ثم توجه إليها.

- «إنه مكان جيد لمراقبة المحيط. أليس كذلك؟» قالت بنبرة مازحة بعد أن جلست على الكرسي المقابل لـ (كريس). ارتسمت خطوط متهكمة حول فمها تعكس نوعاً من التعالي.

- «شيء من هذا القبيل» تمتم (كريس).

- «بماذا علي أن أناديك؟»

- «لنبقى على (ريتسي)».

كانت قد اتصلت به صباح هذا اليوم لتخبره برغبتها بتأجيل اللقاء إلى الأسبوع القادم. إلا أن (كريس) أصر على هذا الموعد مهدداً بأنه في مثل هذه الحالة سيقوم بلقاء أحد ممثلي المتحف البريطاني يوم الإثنين المقبل.

- «حسنا – يا (ريتسي). والآن حصلت على اللقاء الذي كنت تتوق إليه. ماذا لديك؟» أصبح صوتها فجأة يحمل نبرة ساخرة.

تفحصت (كريس) مرافقها بعينيه.

- «آه. أعتذر» ضحكت بتعالٍ. «أقدم لك (توماس برانداو) إنه من أصدقاء فنون الشرق الأدنى».

- «وقس أيضاً. لماذا أنت متوتر هكذا؟» سأله (كريس) «هل هناك ما يسبب لك الإزعاج؟»

كانت يدا (برانداو) تلتف حول كأس النبيذ الأبيض.

- «لا يروقني هذا النوع من الأجواء التآمرية والسرية».

- «لا يوجد شيء من التآمرية أو السرية فيما نفعله. كل ما هنالك أنني أحاول إعطاءكم شيئاً تركه لكم رجل يدعى (فورستر). ليس أكثر».

- «وما هو هذا الشيء؟» سألت وهي تلف رجليها على بعضهما وتشبك يديها فوق الجزء الأعلى من فخذها تماماً في الموضع الذي تنتهي عنده حافة تنورتها على الرجل العارية ذات اللون المُسمر.

أجبر (كريس) نفسه على عدم الاستمرار في النظر ثم رفع حقيبته من الأرض ووضعها على الطاولة. أخرج منها ظرفاً وسحب منه عدة صور.

-«مجرد صور؟» أخذت البروفسورة الصور وألقت عليها نظرة سريعة ثم أعادتها بملل إلى (كريس) «إن لم يكن لديك المزيد ... لقد أردت هذا اللقاء...»

- «مازلنا في المرحلة الأولى... إنك لا تعتقدين حقاً أنني سأقوم بحمل تلك الكنوز النفيسة معي في كل مكان».

- «لقد وصلت مع (فورستر) لأبعد من هذا»، -أجابته بلؤم- «فهو على الأقل قام بإرسال نسخة من النص لي».

- «هذا أمر جيد» -ضحك (كريس) مستمتعاً- «فإنك الآن تعلمين قيمة تلك المقتنيات».

ابتسمت، كأنها تفكر بشيء ما ثم ضربت بكف يدها على سطح الطاولة «(ريتسي)، وبغض النظر عن الاسم الذي تود أن تسمي نفسك به: هل تدرك حقاً قيمة تلك المقتنيات التي بحوزتك؟»

- «أخبريني أنت» تمتم (كريس).

- «إن تلك الألواح لا تقدر بثمن، إن أردنا تقييمها بالنسبة لتاريخ الحضارات في العالم».

- «وهي تعود للجمعية الألمانية للشرق». تدخل (برانداو) في الحوار بصوت يحمل رعشة تنم عن احتقار مكبوت. - «فهو الذي قام بتمويل عمليات التنقيب في (بابل)، حيث تم العثور على تلك القطع الأثرية. في ذلك الوقت قام المجمع بتسجيل حقوقه في ملكية تلك اللقى. يجب أن تكون سعيداً بأننا لم نقم بإبلاغ الشرطة».

- «يوجد آخرون يتمنون الحصول عليها ...»

- «طبعاً يوجد هؤلاء» قالت (رامونا سولنر) وقد لمعت نظرة التهديد في عينيها الجوزيتين «متاحف أخرى أو هواة جمع التحف. ولكن (فورستر) لم يشأ تسليم تلك القطع لأي من هؤلاء. على الأقل كانت تلك هي الفكرة التي وصلتني منه».

- «هل التقيت به من قبل؟»

- «كلا. كان يرسل مندوبين عنه. (فورستر) نفسه لم يحضر أبداً، لكننا تحدثنا عدة مرات عبر الهاتف».

- «وبناء على هذا فإنك حتى الآن لم تري تلك الألواح الطينية على أرض الواقع؟» سأل (كريس) الذي كان يزداد يقيناً أن (فورستر) قد خدعه بشكل كبير.

- «كلا. كل ما رأيناه حتى الآن كان مجرد صور. وإن كانت أفضل من تلك التي تحتفظ بها في الظرف معك. كما أنه لدينا أجزاء من النص وترجمته. هل لديك المزيد؟»

تردد (كريس). إلا أنه لن يستطيع التقدم في مفاوضاته إن لم يقم بتقديم الأدلة. فقام بإخراج تلك الصحيفة الصفراء المتآكلة الأطراف، التي وجدها مع الألواح.

أمسكت (رامونا سولنر) بالورقة بتأنٍ وأخذت تحدق بها.

تابعت بسبابة يدها اليمنى الخطوط المرسومة على الخارطة، التي كانت تؤدي دائماً إلى إشارة الصليب في أسفل الصفحة.

- «هل تعلم ما هذا؟»

- «كلا» قال (كريس) «ليس لدي أدنى علم. تبدو، كأنها مطبوعة من أحد الكتب».

- «وهي كذلك» تجاهلت يد (برانداو) الممدودة، واستمرت بالإمساك بالورقة. «هذه خارطة لموقع من كتاب –عودة قيام بابل– من عام 1913. كتبه (روبرت كولدوي)، الرجل، الذي قام بالتنقيب في (بابل) بتكليف من مجمع الشرق الألماني. لقد قام (كولدوي) بنشر نتائج التنقيب في هذا الكتاب.» أدارت البروفسورة الرسمة بين يديها.

- «بيان رموز الخريطة مفقود... هنا في اليسار نهر الفرات. هذا هو الموقع بأكمله. تم تحديده وتصويره بطريقة عبقرية» قالت في النهاية.

- «وما هو وجه الخصوصية في هذا؟»

- «يبدو حقاً أنه ليس لديك أي معلومات. أليس كذلك؟» تمتم (برانداو) ونظر إلى (كريس) بازدراء.

- «كلا ليس لدي معلومات».

كان (كريس) يود لو أنه يصفع ذلك القس على وجهه. فكل دقيقة تمر تجعل من وجود هذا الرجل أمراً مزعجاً.

- «يعتبر (كولدوي) أباً للتنقيب الحديث» -شرحت (رامونا سولنر)- «فقد كان أول من قام بالتنقيب بشكل منهجي وبطريقة قياس الأراضي. ومازالت طريقته هذه تشكل أساساً لأعمال التنقيب الحديثة. فقد أوجد معايير متطورة لعلم الآثار».

- «هل دخلت المتحف؟» قاطعها (برانداو) بشكل مفاجئ.

- «كلا». أجاب (كريس).

- «خسارة». -كان صوته يقطر احتقاراً- «في هذه السنة بالذات يوجد ركن صغير يعرض معلومات حول شخص (كولدوي) وانجازاته. إنها الذكرى المئة والخمسين لميلاده. عليك زيارته فهذا سيساعد على توسيع الثقافة».

- «حسناً الآن» تدخلت البروفسورة ونفضت الرسمة التي كانت تحملها بيدها «إشارة الصليب هذه تدل على الموقع الذي تم العثور فيه على الألواح. التي تريد التخلص منها».

- «وكيف عرفتي ذلك؟»

- «من (فورستر)، ومن سواه؟»

مد (كريس) يده فناولته الرسم، وبدأ يحدق به.

- «إن إشارة الصليب توجد في موضع تمت الإشارة إليه بالحرفين — EP — وإلى جانبه حرف -Z- فما معنى ذلك؟»

- «يا إلهي!» أدار (برانداو) عينيه بازدراء.

- «لقد قام (كولدوي) باكتشاف معبد كان قد تم بناؤه لتقديس أحد الآلهة التي لم تكن معروفة آن ذاك» قالت البروفسورة وقد رمقت القس بنظرة تحذيرية. «وهذا ما يبرر وجود الحرف -Z-. واليوم توصل الباحثون إلى أن هذه الآلهة هي عشتار، آلهة العدالة. وربما تعني لك قوانين حمورابي شيئاً. لقد تمتعت (بابل) بنظام قانوني مميز، وخصوصاً فيما يخص حماية الضعفاء. وكان لهم آلهة لكل شيء. فالرموز -EP-تشير إلى معبد الآلهة (نينورتا)».

- «أخبريني عن محتوى تلك الألواح».

راقب (كريس) القس، الذي كان مزاجه يتأرجح بين العصبية وقلة الصبر. وكان يتمايل على كرسيه ويعدل جلسته حسب المزاج الذي كان يعتريه في تلك اللحظة. تارة ينفض الغبار عن سترته، وتارة يتنهد بتوتر أو تنقبض ملامح وجهه بشكل عابس.

- «وكيف لنا أن نعلم؟ أود تذكيرك أنك أنت من لديه تلك الألواح».
ضحكت بانتصار ثم قامت بجذب طرف تنورتها بطريقة استعراضية.
- «ولكنك حصلت على نسخة من النص. هذا ما قلته سابقاً».
ضحك (كريس) وثبت نظراته في عينيها «ولقد أثارك محتوى ذلك النص وإلا ما كنت لتقبلي بالسعر الذي طلبه منك (فورستر)».
مضت ثوانٍ معدودة قبل أن تنطفئ تلك الشرارة التي لمعت في عينيها.
- «ذلك الاتفاق يعتبر سارياً فقط في حال كان كل ما ادعاه (فورستر) صحيحاً...»
- «ستحصلين عليها الآن بمبلغ أقل بكثير».
- «يجب أن أرى الألواح أولاً».
- «إن قمت بتسليمي المال...» ابتسم (كريس) «لا أرى أي حقيبة بحوزتك. فمن غير الممكن حمل مثل هذا المبلغ في جيب البنطال ببساطة».
- «المال لا يوجد معنا هنا».
- «خسارة. لم أكن أتوقع أنك تريدين إلغاء الصفقة».
- «لا أريد ذلك. أود فحص التحف الأثرية أولاً ثم نحضر المال».
حتماً عليهم أن يقوموا بهذا. نظر إلى الطاولات المحيطة بهم قبل أن يدخل يده في حقيبته.

لقد كانت بداية عادية للدخول في عطلة نهاية الأسبوع. كان الناس يستمتعون بأشعة الشمس، ويتبادلون الأحاديث حول أمورهم اليومية، وعن مدرائهم الحمقى. مرت حافلة نزولاً في الشارع ثم توقفت وفتحت أبوابها مُصدرة صفيراً خفيفاً.

أدار رأسه فرأى الزوجين بزيهما الأسود لسائقي الدراجات النارية مازالا في حالة انتظار. كان رأس الرجل حليقاً، بينما زينت الفتاة عينيها بطلاء كثيف.

لاحقت عينا كل من (برانداو) و(سولنر) نظرات (كريس) المتجولة بدقة. ابتسمت مستمتعة، بينما هز القس رأسه.

أدخل (كريس) يده في الحقيبة وسحب علبة مصنوعة من البلاستيك الصلب المضاد للصدمات ثم فتحها.

تنهد (برانداو) بصوت عالٍ بينما فتح (كريس) اللفافات القطنية التي كانت تحيط بالألواح الطينية.

- «يبدو أنك ممن لا يتذوقون الفن». تمتم القس.
- «بل يبدو أنني رجل عملي». أجابه (كريس).
- «هل تسمح لي؟» سألت البروفسورة.

تلاشت كل الشكوك التي انتابتها في الدقائق الماضية. وتحولت تلك المرأة التي كانت منذ برهة تتمتع بروح التهكم وتتحلى بالصلابة إلى المختصة والخبيرة التي تمنح كامل تركيزها لتلك القطع الأثرية النادرة.

انزلقت يداها على الألواح الطينية. وأظهر ارتعاش أصابعها لـ (كريس) مدى شوقها لحمل تلك الألواح بين يديها.

تصاعدت ضحكات عالية من الطاولة المجاورة تماهت مع رنين الكؤوس وأصوات أدوات الطعام. إلا أن البروفسورة كانت قد دخلت في عالمها الخاص، الذي لم تعد معه قادرة على إدراك ما يدور حولها.

أمسكت يداها بتلك الألواح الطينية الصغيرة بعناية، لا يتجاوز طول الواحد منها العشرة سنتمترات. كانت ممتلئة بالرموز المتلاصقة ومالت السطور بطريقة خفيفة إلى الأسفل، كأن الكاتب لم يتمكن من المحافظة على استواء الخط على طول اللوح.

كانت البروفسورة تقلب الألواح بين يديها، وتقربها إلى عينيها بشكل مبالغ فيه، بينما بدا على وجهها المسترخي بعض علامات الخيبة.

- «للأسف» قالت البروفسورة أخيراً، ثم مددت الألواح بحزم على قطع القماش.

- «ما الخطب؟» سأل (برانداو)، ونظر إليها أولاً ثم إلى (كريس) «أليست هي تلك التي...؟»

- «نعم وكلا» رمقت البروفسورة (كريس) بنظرة حادة «(ريتسي) يعلم أكثر مما يدعي».

استمر (برانداو) بهز رأسه مستغرباً مما يحدث ثم أمسك بطرف القماش الحامل للألواح وجرّه باتجاهه. احمر وجهه وبدأ قلبه ينبض بقوة، كأنه مضخة مياه جوفية. عندما أمسك بالألواح بحماس انزلق القماش عن الطاولة، لعن (برانداو) بينما كان يحاول التقاط القماش من الأرض برؤوس أصابعه بطريقة تثير السخرية ثم وضعها على الطاولة، وعاد ليمسك الألواح مجدداً.

أمسك (كريس) بذراع القس قبل أن تلمس يداه تلك الألواح.

- «لا تفعل. فهي للشخص المختص وإن حملتها فربما ستسقط منك على الأرض».

- «دع ذراعي!» -همس القس- «إني لا أقبل أن ألتقي بلص وأفّاق، ثم يقوم بإهانتي أيضاً!»

زاد (كريس) من ضغطه حتى سحب القس يديه عن الألواح.

وعندما أفلت (كريس) الذراع أشاح القس بنظره عنه متمنياً له عذاباً أليماً في الجحيم، بينما كان (كريس) يبتسم.

- «أحد هذه الألواح تعود إلى نبوخذ نصر فختمه واضح عليها» نظرت البروفسورة إلى (برانداو) «ولكنه ليس واحد من الألواح التي تعطي هذه اللقى قيمتها الحقيقية».

- «عفواً» ابتسم (كريس) «ولكن كان علي أن أجري هذا الاختبار البسيط. وإلا فكيف لي أن أعرف أنك أنت الشخص الذي تدعين؟»

- «الريبة تملأ حياتك أليس كذلك؟» فاض صوت (برانداو) بالاحتقار.

- «لقد مات (فورستر)، ألا يكفي هذا؟» هز (كريس) رأسه. كان (برانداو) رجلاً غير مريح، ولكنه غير مؤذي ويبدو أنه يعيش خلف أسواره الخاصة على جزيرة السعادة الغامرة. لو أنه عمل لشهرين فقط في قسم الشرطة الجنائية لغير الرجل من طريقة تفكيره حتماً. «وماذا كُتب عليها؟»

- «أحقاً لا تعلم؟» نظرت (رامونا سولنر) إلى (كريس) غير مصدقة. ثم ضحكت «ومن أين لك أن تعلم؟ لقد دوّن نبوخذ نصر الثاني نجاح إحدى حملاته العسكرية على الـ (كيش)، حيث انتصر عليهم وضمهم إلى مملكته. على الأقل هذا ما تنقله الترجمة التي أرسلها (فورستر). فهذا اللوح يصف الفتح المظفر لمملكة الـ (كيش)، إذا كان بالإمكان اختصار ما حدث في هذه العجالة. فبعد الانتصار قام نبوخذ نصر الثاني بأخذ بعض المقدسات من معبد الإله (نينورتا) في (كيش)، التي أصبحت منذ ذلك الحين الآلهة المقدسة (نينورتا) في (بابل)».

- «(كيش)؟» تذكر (كريس) أنه سبق وأن سمع بهذا الاسم من (فورستر) عندما كانا ما يزالان في (التوسكانا).

- «إنها إحدى ممالك منطقة ما بين النهرين في زمن السومريين، وكذلك آورك».

- «لا تبعد عن بابل» قال (برانداو) بتعالٍ «تقريباً على مرمى البصر. تبعد أقل من مئة كيلومتر. كان ذلك زمن المدينة الدولة، فكل مدينة تشكل مملكة. والوقت الذي بدء به بناء نظام الدول كان دموياً وشرساً».

قطب (كريس) جبينه «وما العلاقة التي تربط بين رجل دين وألواح طينية من زمن السومريين، وآلهة (بابل) الوثنية؟»

الفصل التاسع عشر

مدينة (برلين)

الجمعة

تشوق (كريس) لسماع إجابة القس، إلا أن (برانداو) نظر إلى البروفسورة بصمت تاركاً لها الحديث.

- «عندما قام ذلك الرجل المجهول بتقديم عرضه لنا من خلال وسطائه، وبعد أن علمنا من أين أتت هذه اللقى والتاريخ الذي يفترض أن يكون مرتبطاً بها، قمنا بالطبع بالبحث في أرشيفنا. وهذا أمر منطقي أليس كذلك؟» لمعت عينا (رامونا سولنر)، كأنها تلقي محاضرة على أحد تلاميذها.

«لقد ذكر (كولدوي) فعلاً في أحد تقاريره التي أرسلها إلى مجمع الشرق، أن اثنين من عمال التنقيب التابعين لبعثته قد لقوا حتفهم. ولقد عزا وقوع هذه الحادثة لعمليات ثأرية شخصية بين قبائل تلك المنطقة»، - فكرت قليلاً- «إضافة إلى ذلك، لقد تكررت عمليات سطو قام بها البدو هناك».

- «هل تعنين أن رواية (فورستر) عن كيفية سرقة هذه التحف كانت صحيحة؟»

بدا على (رامونا) أنها تزن الأمور في عقلها. انتهز (كريس) تلك

الفرصة ليلقي نظرة إلى زبائن المطعم الآخرين، الذي لم يكن أحد منهم مكترثاً بما يدور على طاولتهم.

- «وهل أخبرك أيضاً بما حدث في نهاية العشرينيات من القرن الماضي؟» سألته أخيراً.

هز (كريس) رأسه نافياً.

- «لقد تم عرض هذه التحف الأثرية علينا من قبل».

لم يتفاجأ (كريس). فمن الطبيعي أن يسعى السارق والقاتل للحصول على المال.

- «هل تعلم أن الفضل في وجود مقتنيات مجمع الشرق ومتحف الشرق الأدنى بأسره وكذلك الكثير من التحف الموجودة في متحف (برلين)، يعود إلى رجل واحد؟ هل سبق لك أن سمعت عن رجل يدعى (جيمس سيمون)؟»

- «كلا».

- «وكذلك الحال في (برلين) كلها تقريباً. فإن طرحت هذا السؤال على أي شخص هنا فإنه لن يستطيع الإجابة». هزت (سولنر) رأسها باستياء «حتى إنهم لم يقوموا بتسمية أي من الشوارع باسمه».

- «ومن كان هذا الشخص؟»

- «ولد (جيمس سيمون) لأحد العائلات الألمانية التي كانت تعمل في التجارة، وتعود جذورها إلى ولاية (مكلنبورغ)، ولقد استطاعت أن تُكون ثروة من العمل في القماش. وكان الفن بأشكاله المتنوعة هو أحد هواياته السرية. فقام بجمع عدد كبير من المقتنيات الأثرية كما لو أنه كان يدعم عمليات التنقيب».

- «عليك أن تخبريني المزيد فليس لدي أي معلومة عنه» تمتم (كريس).

- «منذ عشرات السنين بدأ البريطانيون والفرنسيون عمليات التنقيب عن الآثار في صحارى مصر وبلاد ما بين النهرين. وأرادت (ألمانيا) أن يكون لها نصيب في هذا، إلا أنه لم يوجد من يقوم بتنظيم هذه العملية وتحضير كل ما يلزم لإنجازها. فأخذ (سيمون) هذا الأمر على عاتقه وقام بتأسيس مجمع الشرق الألماني، وتمكن من خلال علاقاته وثروته من الحصول على موافقة تسمح للألمان بالتنقيب في منطقة الشرق الأدنى. لقد كان هو الذي أمد الكثير من منشآت التنقيب بالمال اللازم، وكذلك بتأمين الموافقات على الحفر. وهو أيضاً الذي أوصى بكل ما كان بحوزته من مقتنيات أثرية، والكثير من الأعمال الفنية للمتاحف. لو لم يوجد ذلك الرجل، لما وصلت متاحف (برلين) إلى ما هي عليه اليوم».

- «هكذا هي الحياة» تمتم (كريس) «ومتى دخل (فورستر) في اللعبة؟»

- «في نهاية العشرينيات، توجه رجل مجهول إلى (سيمون) وعرض عليه أن يشتري منه مقابل الكثير من المال، تلك الألواح التي هي بحوزتك الآن. وكان ذلك بالأسلوب نفسه تماماً، عن طريق وسطاء تم إرسالهم من مجهول».

- «ولماذا لم ينجح الأمر آنذاك؟»

- «لا نعرف بالضبط. ولكن يبدو أن هذا الوسيط التقى أحد ممثلي المجمع، وليس (سيمون) نفسه. على الأقل هذا ما استنتجناه من مضمون التقارير التي وجدناها. وربما لم يتمكن (سيمون) من تجميع هذا المبلغ من المال. فقد حولته الحرب العالمية الأولى إلى رجل فقير، كما الكثيرين غيره. فلم يعد ذلك الثري كما كان الحال قبل الحرب. انتهى كل شيء. إضافة إلى ذلك، كان مريضاً جداً. وفي مثل هذه الظروف لا يمكن إتمام الصفقة. على أي حال، لقد كان هناك وسيط في (برلين)، وهذا الوسيط قام فيما بعد... بالاتصال بالكنيسة».

غاص (كريس) في ذكرياته. فلم يخبره (فورستر) بأي شيء عن هذا الأمر عندما كانا في (التوسكانا) أو حتى ليلة الحادث على الطريق السريع.

- «أردنا طبعاً تتبع هذا الخيط. وكنا نعلم أن بعض المستندات قد وصلت إلى السفارة البابوية. وبعد ذلك بمدة وجيزة عاد السفير البابوي إلى روما. وحاولنا معرفة المزيد منذ أن تواصل معنا (فورستر) للمرة الأولى منذ أكثر من نصف عام. والآن عرفت دور (برانداو) في هذه الصفقة كما تسميها. إنه ناشط في مجمع الشرق، وهو موظف في الأبرشية، وقام بدعم الأبحاث في روما بعد أن تمكن أحدهم هنا من التوصل لما حدث آنذاك».

- «وماذا بعد؟» سأل (كريس) بحماس لا يمكن إخفاؤه.

- «كان للكنيسة علاقة ازدواجية مع عمليات التنقيب في بلاد ما بين النهرين» -شرحت (رامونا سولنر) بهدوء- «فبعد الثورة الفرنسية انحسرت سلطة الكنيسة، وتم الحجز على الكثير من ممتلكاتها في عدة بلاد. كما أُغلقت الأديرة ومُنعت الجمعيات الدينية. لقد كان يُنظر إلى الكنيسة على أنها رأس النظام الإقطاعي. ثم تلقت ضربة أخرى. ضربة وجهت ضد العقيدة، ضد ثوابتها».

- «هلّا حدثتني أكثر؟» قال (كريس) «يبدو أن الأمر مثير».

فهو لم يكن يعرف الكثير عن تاريخ الكنيسة فضلاً عن عدم إلمامه بأغوار التفاسير الدينية. فتربيته الدينية كانت بروتستنتية، وانتهت بدرس التثبيت. صحيح أن زواجه كان كنسياً إلا أن زياراته التالية للكنيسة كانت بهدف سياحي بحت.

- «من خلال أعمال التنقيب في بلاد ما بين النهرين وفارس، التي بدأت أساساً في الربع الأول من القرن التاسع عشر، وكانت تجرى من قبل الإنجليز والفرنسيين حصرياً، ظهرت إلى النور الكثير من الكنوز والمباني التي تعود إلى آلاف السنين. وكذلك الألواح الطينية».

أومأت البروفسورة مشيرة إلى اللوح الصغير الموجود على الطاولة.

- «وبذلك تأسس علم جديد وهو علم الآثار الآشورية، يختص بالآشوريين، الذين أسسوا أول مملكة في تلك المنطقة. وهو العلم الذي أختص به أنا. وعندما تم فك تلك الرموز وترجمة النصوص، ظهرت تلك الأمور المثيرة الموجودة على الطاولة» صمتت قليلاً وارتشفت بعض الماء.

- «وما كان ذلك الشيء المثير؟» سأل (كريس).

استعد القس للإجابة وقد قطب ملامح وجهه. إلا أن العالمة كانت قد رمقته بطرف عينها بنظرة ذات معنىً. ثم بادرت بالحديث.

- «تم التعرف على شعوب ومواقع كانت قد ذُكرت في كتاب العهد القديم، وبهذا بدأت عملية مراجعة لمصداقية محتوى الكتاب المقدس. حيث وجدت تناقضات. وكانت أحياناً تناقضات عميقة. فظهرت التشكيكات في الكتاب المقدس. ومن أهم تلك الاكتشافات، أن فقرات كاملة وردت في العهد القديم كان قد تم تدوينها بشكل أدبي على مثل هذه الألواح في عصور أقدم منه بكثير».

- «الكتاب المقدس منقول؟» لمعت عينا (كريس) باستمتاع.

- «هذا ما توقعته تماماً» خرق (برانداو) صمته «الكتاب المقدس ليس منقولاً. فالكتاب المقدس من الله. وهو يعلم الحقيقة التي نحتاجها لخلاصنا وليس فيه أدنى خلل».

- « ولكن ماذا لو...»

- «نحن المسيحيون نقدس العهد القديم ككلمة الله الحقّة. هل تريد التشكيك في جوهر الكتاب المقدس؟»

- « حسناً. ربما » قالت (سولنر) بنبرة منبهة « على أي حال لقد دارت خلافات حادة. وبدأ المجتمع متابعة عمليات التنقيب باهتمام لأنها طرحت فجأة أسئلة حول مصداقية محتوى الكتاب المقدس. ففي (ألمانيا) أثار العالم

(فريدريش ديليتش)، الذي كان يرأس قسم الشرق الأدنى في المتاحف الملكية، عاصفة حادة عندما ادعى أنه ليس فقط المحتوى الأدبي للكتاب المقدس بل والديني والأخلاقي أيضاً قد تطور من رواد بابليين. حتى أنه أنكر كون العهد القديم من وحي الله».

- «إنها ترهات لفرد» همس (برانداو) بعصبية «إنه هجوم ساذج على أكثر كتب عقيدتنا قداسة».

- «سافر (ديليتش) إلى (أوروبا) و(أمريكا) مؤججاً بمحاضراته عواصف من الجدل والأسئلة حول مصداقية محتوى الكتاب المقدس».

- «انهالت عليه الانتقادات من كل صوب. حتى أن القيصر (فيلهيلم) الثاني قام بتأنيبه. (ديليتش)!» ثم حرك (برانداو) يده بإشارة ازدراء.

أحس (كريس) بالتوتر الذي ساد النقاش بين العالمة والقس. بينما تسرد (سولنر) حقائق يسارع القس بالرد عليها بطريقة الشرح.

- «لقد تم حصر الكنيسة بهذه الطريقة في الزاوية. هل هذا ما يمكنني فهمه؟» سأل (كريس).

ضحك (برانداو) باستهزاء.

- «هذا ليس كافياً لإحداث ما تقول. لقد اعتادت عقيدتنا على التصدي لمثل هذه الترهات ودحضها».

- «وهل يوجد المزيد؟»

- «بالطبع» أخذت (سولنر) بأطراف الحديث مجدداً «فهناك منتقدي الكنيسة، الذين يبحثون بعلمية تامة حول هذا الموضوع بالتحديد، ويريدون أن ينزعوا القناع عن وجه العقيدة المزيفة، كما يقولون».

- «إنهم ضالين، يحاولون أن يدنسوا كل ما هو مقدس بذريعة الكشف عن الحقيقة. ولكن هيهات أن يصلوا إلى مبتغاهم».

- «لا ينبغي لك أن تتهم كل العلماء بأن دوافعهم سيئة دائماً»

استدارت البروفسورة فجأة إلى مرافقها «لن يجدي نفعاً أن نخوض هنا في جدل بين العلم والدين».

سبب ذلك التوتر الحاد بين الاثنين نوعاً من الإرباك لـ (كريس). فكيف يكون اهتمامهما بهذه الألواح مشتركاً إن كانت نظرتهما لأهميتها بهذا الاختلاف؟ ماذا يدور هناك خلف الكواليس؟

دس (كريس) يده مجدداً في حقيبته وأخرج لوحاً طينياً آخر وكان أيضاً ملفوفاً كما الأول بقطعتين من القماش القطني.

- «هذا أحد أقدم الألواح الطينية» قال هذا، ورفع القماش عن القطعة الأثرية «لقد شرح لي (فورستر) كيف يمكن معرفة ذلك من خلال الرموز والمواد المستخدمة في صناعة اللوح. لا بد أنك تعرفين ذلك أيضاً».

أومأت البروفسورة.

- «أخبريني عن أهمية هذه الأشياء ثم نبدأ صفقتنا. سأختفي وتستطيعان متابعة جدلكما. فلدي مشاكل أخرى».

وكما فعلت سابقاً قامت بفحص اللوح الصغير بمنتهى التركيز. وبعد مرور بعض الوقت سحبت مكبراً يدوياً صغيراً من حقيبتها.

لدقائق انحنت إلى الأمام وتفحصت الرموز المحفورة على ذلك اللوح الصغير.

- «إنه بالفعل أحد أقدم الألواح. وما استطعت التوصل إليه على عجالة هو تطابق النص الموجود هنا مع بعض فقرات الترجمة التي أرسلها لنا (فورستر)».

- «أيها؟» زمجر (برانداو).

- «الطوفان الكبير».

- «الطوفان الكبير؟» ضحك (كريس) باستمتاع «هذا موجود في معظم الثقافات تقريباً، حتى أنه تم العثور على دلائل في البحر الأسود

تشير إلى حدوثه فعلاً. فعلى عمق كبير تحت سطح البحر وجدت بقايا قرىً غارقة. فما وجه الأهمية في هذا؟»

- «وكذلك في المدينة الملكية (أور) في سومر تم العثور على أدلة. طبقات طينية بسمك أمتار بين مستويات الأرض. وفي تاريخ زمني متطابق. ولكن ما يوجد هنا أكثر من ذلك. إنه أقدم تصوير للطوفان الأعظم» مررت يدها على شعرها ملقية إياه إلى الخلف. «إنه أقدم من وصف الطوفان الكبير في ملحمة (جلجامش) حتى إنه أقدم من سرد الملك (زيوسودرا) الذي يعد الأقدم حتى وقتنا هذا».

فكر (كريس)، فبعد عودته من (دريسدن) أمضى اليومين الماضيين في (كولونيا) بجمع المعلومات حول أصول الكتابة وتاريخ بلاد ما بين النهرين حتى يتمكن من التعرف على ما سيقوم بنقله.

وخلال هذا قرأ عن تلك الملحمة التي تصور مغامرة الملك (جلجامش). فأصول هذا الملك تعود إلى (أوروك)، التي كانت أول أكبر المدن الملكية في (سومر). ولقد أمضى حياته في البحث عن الحياة الأبدية دون أن يجدها. وتم وصف الطوفان الكبير في هذه الأسطورة.

- «ما هو أو من هو (زيوسودرا)؟» سأل (كريس).

- «حسب رواية الكتاب المقدس، إن الله أعطى نوحاً والبشرية معه فرصة النجاة من الطوفان. وذلك رحمة من الله».

قاطع القس البروفسورة ((... **فمحا الله كُل قائم كان على وجه الأرض**)). هل تعرف هذا يا (ريتسي)؟» نظر إلى (كريس) بجدية «أم أنك مُلحد؟ وبارك الله نوحاً وبنيه وقال لهم: ((**انموا وآكثروا واملأوا الأرض... ها أنا ذا مقيم عهدي معكم ومع نسلكم من بعدكم... وأقيم عهدي معكم، فكل ذي جسد لا ينقرض بعد اليوم بمياه الطوفان، ولا يكون بعد اليوم طوفان ليتلف الأرض... هذه علامة العهد الذي أنا جاعله**

بيني وبينكم وبين كل ذي نفس حية معكم مدى الأجيال للأبد)) الكتاب المقدس، (ريتسي)، الرواية الحقيقية توجد في الكتاب المقدس».

نظرت العالمة إلى القس وانتظرت حتى يصمت.

- «إن نص سرد (زيوسودرا) حول الطوفان الكبير أقدم من ملحمة (جلجامش)، التي اعتبرت لزمن طويل أقدم ما دوّن حول الطوفان الكبير. بل إنه يقول شيئاً مختلفاً تماماً: فهناك أقسمت الآلهة على أن تدمر البشر، وذلك لأنهم أزعجوا هدوءهم. لقد أصبح البشر يشكلون عبئاً عليهم بعد أن خلقوهم من طين، حتى يصبحوا عبيداً يعملون لأجلهم. ولماذا عاش البشر؟ ليس لأن الآلهة أو الرب أراد أن يكون حليفهم، كما يروي الكتاب المقدس. كلا. بل بسبب الخيانة. لقد أفشى أحد الآلهة ويدعى (إنكي) إلى (زيوسودرا): يا (زيوسودرا)، أيها الساكن في مدينة (شورياك)،/ دمر بيتك،/ ابني سفينة،/ ازهد بالثروة،/ دع الآلهة،/ واحتفظ بالحياة. لقد ادعى (فورستر) أن قصة الطوفان الكبير المذكورة في ألواحه أقدم بكثير من سرد (زيوسودرا)».

بدأ (كريس) يفهم سر اهتمام العالمة. فبالنسبة للباحثين في التاريخ القديم سيكون من المبهر ظهور وثائق أقدم. ولكن هل سيكون العثور على نصوص تحوي المضمون نفسه أو شبيهاً له مبهراً حقاً؟

- «لابد أن هناك المزيد الذي يختفي وراءها ...»

نظرت (رامونا سولنر) طويلاً إلى (كريس) قبل أن تجيبه.

- «لقد أعطانا (فورستر) أجزاءً من النص المترجم فحسب...»

- «وماذا في ذلك؟»

- « ... ولكن إن كان ما في الترجمة صحيح، فإنه...» ترددت قليلاً ثم تابعت «هذه الألواح تعود إلى ملك عاش بعد الطوفان الكبير، الذي يعيد سرد قصة (زيوسودرا)...»

- «هيا أخبريني» ألح (كريس). «إذا كان كل ذلك معروفاً على أي حال، وتم العثور على نسخة (زيوسودرا)، فما كان الجديد في العثور على رواية مماثلة أو نموذج جديد؟»

- «يتابع الملك السرد، يؤكد رواية (زيوسودرا) ثم يأتي ما هو جديد، نعم، شيء لا يمكن تجاهله».

- «لماذا تحاولين إضفاء تلك اللمسة من الإثارة؟»

- «يحتوي النص إلى جانب أسطورة (زيوسودرا)، على رسالة مختلفة تماماً».

رأى (كريس) كيف وضع (برانداو) يده على ساعد البروفسورة، محاولاً لفت نظرها. إلا أنها رفعت صوتها وخرجت منها الكلمات بصوت، وطريقة، ولفظ يوحي بخطورة ما ستقول: «اللوح يحتوي على أجزاء من الوصايا. على صورتها الأولية القديمة».

- «الوصايا؟» تنفس (كريس) بعمق وتردد قبل أن يظهر جهله بهذا الخصوص «وما هذا؟»

تنهد (برانداو) بازدراء.

- «هل حقاً لا تعرف ما هي؟» نظرت إليه البروفسورة بجدية.

- «كلا. وهل يتوجب علي ذلك...؟»

- «إنها الوصايا ...»

- «الوصايا العشر في الكتاب المقدس؟ من العهد القديم؟»

الفصل العشرين

مدينة (كان)

الجمعة

اتجهت العبّارة صوب جزيرة (سانت أونورات). جلس (دوفور) في القسم الخلفي، وتأمل تلك الصورة البانورامية الضخمة لجبال الألب البحرية، شمال شرق مدينة (كان). كان يقطن مدينة (فالبون)، بالقرب من مركز أبحاث (تيسابي). إلا أنه لم يذهب اليوم إلى المشفى بل قاد سيارته تلك الكيلومترات القليلة إلى مدينة (كان). وهناك أوقفها في المرآب الكبير الذي يقع في الجهة الجنوبية الغربية من نهاية الميناء، ثم اشترى تذكرة ووقف مع السياح على رصيف الميناء ينتظر قدوم العبّارة التي ستقلهم إلى الجزيرة.

عند وصولهم إلى جزيرة (سانت أونورات)، عبر رصيف الميناء واتجه يساراً، بينما سار السياح إلى الأمام باتجاه الدير.

سار تحت سقف من خشب الصنوبر يقع في الجهة الشرقية من الجزيرة، التي لا يتجاوز طولها الكيلومتراً والنصف، وعرضها الخمس مئة متر، بينما انعكس اللون التركوازي لمياه البحر على يده اليسرى.

وبعد مدة وصل إلى بقعة جرداء بُنيت عليها كنيسة صغيرة. كانت جدرانها من أحجار الغابة، بينما غطى سقفها القرميد الأسطواني. وشكلت

الأحجار المربعة الضخمة إطاراً وداعماً للباب المحشور والمختفي نوعاً ما. كانت ألواح الخشب غامقة، بل سوداء تقريباً.

وتخللته الشقوق في المواضع التي تتلاصق بها الألواح مع بعضها. كان الباب مغلقاً وبدا القفل صدئاً.

- «هل وجَدت الروح الخاطئة طريقها؟» تقدم جسد الأب الممتلئ قادماً من جهة الكنيسة المقابلة للبحر باتجاه البقعة الجرداء. بان ثوب الراهب بلونه الرمادي الفاتح من بين ظلال الأشجار.

توجه (دوفور) إلى الأخ (هيرونيموس)، الذي كان يتأمل الواجهة بكل حب.

- «لقد وعدت رئيس الدير أن أقوم بترميم كنيسة لوترنيتي لإرضاء الرب. هذه هي المهمة الأخيرة التي وضعتها لنفسي».

دارا حول الكنيسة التي اتخذت النهاية الشرقية من بنائها شكل زهرة البرسيم بأجزائها الثلاث النصف دائرية ونوافذها الصغيرة.

- «إنها لا تبدو بحالة سيئة جداً» قال (دوفور) عندما لاحظ الأسطوانات القرميدية التي كانت تحمي الزجاج المتسخ للنوافذ.

- «هذا صحيح. فبالمقارنة مع الكنائس السبع الموجودة على هذه الجزيرة تعتبر بحالة جيدة نسبياً. في عام 1993 تم ترميم كنيسة القديس (كابراسيوس) التي تقع في النهاية الأخرى للجزيرة.

وبالرغم من أن كنيسة (سانت سوفيير) بحاجة ماسة إلى الترميم إلا أن كبر حجمها يجعل الأمر فوق طاقتي».

كان هناك باب آخر للكنيسة في الجهة الشرقية، وكان حاله كحال الباب الأمامي تملؤه الشقوق. فجأة ظهر مفتاح كبير في يد (هيرونيموس) الذي استخدمه في فتح ذلك الباب.

- «لماذا هنا؟» تردد (دوفور) بالدخول خلف (هيرونيموس) إلى داخل الكنيسة شبه المظلمة «إنها كنيسة المقبرة»

- «إنها ملائمة تماماً. فأنت تحمل رائحة الموت. لقد قمتم بالقتل! أنت قمت بالقتل!»

صمت (دوفور) متأثراً

تجولت نظراته على الأرضية الحجرية الغير مستوية، التي اصطفت عليها عدة مقاعد خشبية.

في النهاية الدائرية للكنيسة إلى جهة اليمين، برز لوح حجري متوسط الارتفاع. كان الصليب الرفيع المحفور في وسط اللوح هو الرمز الوحيد الذي يشير إلى الهوية المسيحية لهذه الكنيسة.

- «جاك. لقد دعيتك للقائي هنا في هذا المكان لأتحدث معك. وأنت تعلم عن ماذا؟»

- «لقد كان حادثاً!» قال (دوفور) بنبرة منهكة.

- «لا تكذب!» همس (هيرونيموس).

في الضوء الخافت للكنيسة لم يتمكن (دوفور) من رؤية شيء سوا معالم الرأس المميز للقس. بينما كان الظلام يغطي وجهه. «ألم أعلمك في صغرك وصايا الرب؟ أولم تعد أن تحفظها؟ كيف تملكك الشيطان؟»

كان الأب (هيرونيموس) هو من قام بتعليمه سبل الرب في صغره، وهو أيضاً من استمع لأول اعترافاته. وحتى عندما تم رسمه كأسقف، أبقى الأب عينه على الشاب (دوفور). ثم انتقل (هيرونيموس) إلى (روما)، وأخذت العلاقة بين الاثنين بالفتور.

- «لم يتملكني الشيطان!»

- «لا تعارضني!» صاح الأب (هيرونيموس) فجأة «أنا أعرف ذلك أكثر منك. لقد رافقت هذا الشاب في طريقه إلى الرب، بينما كنت أنت مع

رئيسك في العمل تفحصان العينات تحت المجهر. لو كنت أعلم كم أنتما بائسين... لقد قمتما باستغلالي. أنت من استغلني».

أخفض (دوفور) رأسه بصمت. فعندما علم أن الأمر قد انتهى، قام بطلب المساعدة من القس؛ وذلك لإجراء الطقوس الدينية الخاصة بالموت.

فبعد عودة الأب (هيرونيموس) منذ ما يقارب نصف العام وجد ملاذاً له مع إخوانه الرهبان الثلاثين في دير السيسترين البندكتيين الذي يقع في جانب الجزيرة المطل على البحر المتوسط.

والذي يعتبر أقدم النماذج لأبنية الأديرة على الإطلاق. لقد التقيا مصادفة قبل ثلاثة أشهر في بلدتهما الأصلية (كولوبريريس)، ومنذ ذلك الحين لم يقم (دوفور) بزيارة القس في الدير إلا مرة واحدة.

- «لم أشأ أن أترك (مايك غيلفورت) يموت دون أن تباركه الكنيسة. كانت الخدمة الأخيرة...»

- «وماذا عن الرب؟ لماذا لا تقوم بخدمته؟ لماذا تساعد على نشر الإلحاد في العالم؟ لماذا تقوم بارتكاب الخطيئة بحق خلق الرب؟»

صاح القس بصوت عالٍ تردد في أرجاء الكنيسة المظلمة «(جاك). هل ما زلت تؤمن؟»

- «بالطبع».

- «إني لا أصدقك. (جاك) أنا لا أصدقك» خرجت زفرة عميقة من صدر القس «(جاك). لقد عملت لسنوات طويلة في (روما)، وكان علي أن أشتغل في أمور كثيرة. بما في ذلك علم الهندسة الوراثية. (جاك) لقد وهبت نفسك للشيطان!»

- «أردت أن أساعد، أخترع، أكتشف، أبحث، أعلم لماذا الأمور على هذا النحو، كيف تكون...»

- «الكذبة!»

- «الحقيقة الخالصة...»

- «ليس سوى كذبة!»

- «أيها الأب، أرجوك... نحن نعتقد أننا وجدنا الطريقة التي تمكننا من استخدام إنزيم التيلوميراس بنجاح في عملية إعادة ترميم الكبد».

نظر إليه الراهب متفاجئاً.

- «التيلوميراس؟» هز القس رأسه «لو لم تخني ذاكرتي، فإنه الإنزيم الذي يقوم بإعادة ترميم أو إطالة نهايات الكروموسومات، عندما تقصر».

- «من أين...؟» قاطع (هيرونيموس) كلام (دوفور).

- «لقد أخبرتك سابقاً، أنه كان علي في (روما) أن أشتغل أيضاً بعلم الهندسة الوراثية...» ولدرجة أعمق مما يمكنك توقعها، أنهى (هيرونيموس) جملته في نفسه.

أومأ (دوفور) «التيلوميرات عبارة عن أغطية صغيرة موجودة على نهاية الكروموسومات الحاملة للمادة الوراثية، وتقوم بالمحافظة على سلامة الحمض النووي. وهي تحمي نهايات الكروموسومات حتى لا تلتصق أثناء انقسام الخلية بنهايات أخرى. وهي تكرارات معينة لأزواج قاعدة الحمض النووي. هذه النهايات هي المواضع التي تبدأ بها مضاعفة انقسام الخلية. وللإنسان عدة آلاف من هذه الأزواج في نهايات الكروموسومات، ويعتمد ذلك على نوع الأنسجة، فإما أن تكون أكثر أو أقل. ومع كل انقسام خلوي، أي تجدد للخلية يفقد الإنسان بعض من تلك الأزواج، وبذلك تقصر نهايات الكروموسومات. وعند نفاذها تتوقف الخلايا عن الانقسام».

- «والذي تكون تيلوميراته أطول منذ البداية، يعيش وقتاً أطول، لأن خلاياه يمكنها أن تنقسم أكثر. أنا أعرف موقف العلم من هذا».

- «ولكن يوجد إنزيم، يستطيع أن يعيد إطالة نهايات الكروموسومات أو أن يوقف عملية تقصيرها».

- «التيلوميراس. هذا الإنزيم يمنع التيلومير من الوصول إلى تلك النقطة التي يكون بها بالقصر الذي يحول دون إعادة انقسام الخلية. فيتوقف عامل الهرم وتستمر الخلايا بالانقسام».

- «إنه إنزيم الخلود» -تمتم الأب (هيرونيموس)- «الذي تابعته الأبحاث العلمية بكل اهتمام. وعندما خرجت التقارير الأولية إلى العلن زحفت تشكيكات الفاتيكان كما خرجت الأفعى التي أسقطت آدم من الجنة. لو أن كلمة الرب...»

- «ولكنه إنزيم الموت أيضاً» -تنهد (دوفور)- «ففي ثمانين إلى تسعين بالمئة من حالات أمراض السرطان يكون هذا الإنزيم نشطاً. إنها تتجاوز الموت الطبيعي للخلية، مما يحول دون موت الخلايا السرطانية، ويؤدي ذلك إلى تزايد نموها إلى ما لا نهاية، وبهذا تقوم بالقضاء على أعضاء الكائن الحي. ومنذ بضعة أعوام تجرى تجارب يتم من خلالها معالجة الخلايا بإنزيم يجعلها لا تهرم في الوقت المفترض لها، وكذلك لا تتطور إلى أورام سرطانية. لقد عرفنا أنه عند تَكون الخلايا السرطانية فإن التيلوميرات تَقصر بشكل مفاجئ وتنتشر الخلايا السرطانية، لأنها تُنشط إنزيم التيلوميراس بينما تستطيع إبقاء التيلوميرات ثابتة، وبهذا تموت الخلايا السرطانية، طالما لم تكن في الوضع الملائم لذلك. من الواضح أنه توجد مجموعة من العوامل المختلفة التي تؤدي إلى تكون السرطان بفعل إنزيم التيلوميراس، وهنا بدأنا العمل».

- «إن التيلوميراس يعمل فقط في الخلايا التي ما تزال تنقسم. كما في خلايا الجلد أو الكبد، ولكن خلايا الدماغ وخلايا عضلة القلب تتوقف عن الانقسام لدى البالغين. إنكم مخطئون».

- «أيها الأب، إننا نقوم باكتشاف هذا المحيط الضخم بالقيام بعدة عمليات غطس صغيرة. والحقيقة هي، أننا نجحنا بذلك عندما أجرينا

تجارب على دودة النيماتودا، فقد قمنا باستنبات التيلومير باستخدام الإنـزيم. واستطعنا بذلك تمديد متوسط عمرها من عشرين إلى أربعة وثلاثين يوماً. إنها زيادة في عمرها بنسبة تزيد عن الخمسين بالمئة.

- «أيها المشؤومون، ماذا دهى عقولكم؟ التقدم في العمر هو إجراء بيولوجي يتعلق بالارتباط الاجتماعي، الضغط العصبي، واللياقة البدنية والنفسية. إن عملية زراعة التيلومير وحسب علمي تكون باستنبات جزء بديل. فيأخذ المرء خلية من أحد غضاريف ركبة معتلة ويعمل على تمديدها باستخدام التيلوميراس ثم يعود فيزرعها ثانية».

- «يوجد أكثر من ثلاث مئة نظرية حول تقدم السن. إلا أنه لا أحد يعرف حتى الآن كيف تتم بالفعل. وقد تكون نظريتنا خاطئة أيضاً. فالتيلوميرات تتكون من قسمين فاعلين. الأول هو الجزء الأكبر من البروتينات والثاني هو الحمض النووي الريبي المعروف بـ RNA، ويمكن زيادة طول نهايات التيلومير بواسطته. والجين المسؤول عن جزء البروتينات يوجد على الكروموسوم الخامس بينما يوجد الجين المسؤول عن جزء الـ RNA على الثالث».

حدق الراهب بالباحث الذي بدا عليه الزهو، وذكره ذلك بحالة الرضا التي يصل إليها عندما يتفرغ تماماً لعبادة الرب.

- «لقد بدأنا قبل تلك النقطة التي تقصر بها التيلومير الخاصة بالخلية، وقبل أن تبدأ الخلايا السرطانية بالتكون بفعل إنـزيم التيلوميراس. فنحن نسعى إلى تجديد خلايا الكبد المصاب باستخدام بروتينات التيلوميراس الصحيحة، ودون أن ندع مجالاً لتشكل الخلايا السرطانية».

فهم (هيرونيموس). إنهم يحاولون استخدام الإنـزيم تماماً عند تلك اللحظة التي لا يمكن عندها حدوث نمو عشوائي للخلايا.

- «لقد قمنا بإختبار بروتينات مختلفة، التي يتكون منها إنـزيم

التيلوميراس، وأثبتت نجاحاً ملحوظاً في تجاربنا على الحيوانات» قال (دوفور) عندما لاحظ النظرة الغاضبة للقس «وبهذا استخدمنا الإنزيم للاستمرار في انقسام الخلايا دون ظهور تأثيرات ضارة. ثم قمنا بالخطوة التالية. ففي حالة (مايك غيلفورت) تم استخدام بروتينات التيلوميراس، التي سبق استخدامها في تجاربنا على الحيوانات دون ظهور أي آثار جانبية. كانت خلايا كبده مصابة بشكل بسيط، وبحسب كل الملاحظات العلمية كان التيلومير من حيث الطول بعيداً جداً عن النقطة التي قد تُحدث فيها إنزيمات التيلوميراس طفرة فتتشكل الخلايا السرطانية».

- «فكيف مات إذاً؟»

- «إننا لا نعلم» قال (دوفور) بصوت منخفض «ربما بُنية البروتين أو جزء خاص من حمضه النووي، تسببت في تفجر الخلايا السرطانية. أو ربما الفيروسات المُعدية، نحن ببساطة لا نعلم» نظر (دوفور) إلى الأرض «إنني أبحث عن التكفير عن ذنبي، أريد الاعتراف!».

- «كلا!».

كان (دوفور) يشعر باليأس، فهو من قام بحقن (مايك غيلفورت). ونظرات الثقة العمياء التي نظر بها (غيلفورت) إليه ما زالت تلاحقه. فقد ابتسم له الشاب بينما كان هو يضغط على مكبس الحقنة.

- «أبتي يكاد شعوري بالذنب يقتلني!».

لقد قام بتأجيل الفحص التالي لـ (ماتياس كييلسون)، حتى وإن كانت أمه تعلق كل أملها على ذلك. نظرت إليه دون أن تفهم السبب، إلا أنه لم يكن بمقدوره أن يشرح لها ولن يفعل ذلك. كان عليه أن يكتشف المسببات أولاً.

ارتعش القس (هيرونيموس) من ضربة القدر الإلهية المزدوجة. من جهة، إن التحديد المسبق لعدد مرات انقسام الخلايا بناء على طول

التيلومير يحد من مدة الحياة. وإن تم تجاوز ذلك الحاجز فإنه من ناحية أخرى قد تحدث طفرات مرضية في الخلايا بطريقة لا متناهية مما يؤدي إلى موت الأعضاء.

ومرة أخرى تتحقق كلمة الرب. وأيضاً هذا الجزء من الخطة الإلهية كان مذكوراً في الكتاب المقدس: **((هو بشر وتكون أيامه مئة وعشرين سنة))**.

الفصل الواحد والعشرون

مدينة (برلين)

الجمعة

ضبط (كريس) سرعة خطواته لتلائم خطوات العالمة. مرّا أمام متحف (بيرغامون)، اتجها يساراً، سارا بمحاذاة الحائط الخلفي للمتحف القديم ثم تحولا مجدداً باتجاه حديقة (لوست غارتن).

لقد أملى كامل شروطه ليمكنها من فحص كل الألواح التي بحوزته، وبعد تردد قصير وافقت البروفسورة على كافة شروطه.

اعترض القس ذو الوجه المشؤوم، لأنهم لم يسمحوا له بمرافقتهم، وأخيراً كان عليه أن يستسلم ويمضي. إلا أن (كريس) كان قد سمع ما قاله، بأنه سينتظرها في مكاتب اتحاد المولين.

- «علينا الاتجاه يساراً» قالت (رامونا سولنر) أثناء مرورهما أمام الواجهة الأمامية للكنيسة الكاتدرائية. على الجهة المقابلة من الطريق كان يقبع قصر الجمهورية، إنه أحد آثار الحقبة الشيوعية في ألمانيا الشرقية، الذي ما زال بانتظار تنفيذ أمر إزالته منذ سنوات.

قطعا جسر (ليبكنخت)، الذي يصل من جهته الشرقية بين جزيرة المتحف والمدينة. على الجانب الآخر وقفت البروفسورة تبحث في حقيبة يدها عن بطاقة المرآب.

استغل (كريس) الفرصة ونظر إلى الخلف. كانت إحدى المجموعات السياحية تعبر الجسر خلفهم، عائدة من جولتها باتجاه الحافلة أو الفندق.

في وسط المجموعة شاهد (كريس) زوجين. وعلى العكس من باقي أفراد المجموعة، بدت عليهما الجدية ولم يكونا يتبادلان الحديث مع أحد. كلاهما كان يرتدي بزّة جلدية سوداء خاصة بسائقي الدراجات النارية وأحذية ثقيلة.

كان الرجل حليق الرأس وقد علق في كل من أطراف حاجبيه حلقة حديدية صغيرة، واعتلت وجهه ابتسامة غامضة.

بينما كانت الفتاة تضع حلقاً فضياً على أنفها، وكانت عيناها مزينة بشكل كثيف وجفناها مطليان باللون الأحمر.

وعندما كانا على بعد عشر خطوات. تذكر (كريس) أنه رآهما يقفان على محطة الحافلات بالقرب من المطعم.

هل كانت صدفة؟

ليست صدفة.

استدار (كريس) وحدق في الطريق المنحدر. على الجهة اليسرى وقف بناء جديد ذو واجهة من المرمر والزجاج. كانت بوابة المرآب، الذي ركنت البروفسورة سيارتها فيه، تطل على الشارع.

إلى الأمام كان هناك تقاطع طرق، يليه على الجهة المقابلة من الشارع بدت المساحة الخضراء أمام برج التلفاز.

- «علينا الدخول من هنا» قالت (رامونا سولنر)، عندما تابعا سيرهما خلال زقاق يمر بين الأبنية المتلاصقة.

- «لاحقاً، علي أولاً أن أتأكد أنهما لا يتبعاننا».

عجل من خطواته، وسار نحو التقاطع ثم اتجه يساراً. تذمرت البروفسورة، وتبعته مسرعة. استدار عدة مرات إلى الخلف بينما كان

يتوقـف بطريقـة مفاجئـة أمـام واجهـات المحـلات، مقلبـاً بعـض الملـصقات والبطاقات المعروضة أمام الأكشاك السياحية.

- «قليلة جداً هـي المرات التي رأيـت فيها هـذه الحالـة الواضحة من جنون الارتياب. على طبيبك النفسي أن يهتم بك بشكل أفضل» وقفت إلى جانبه وتأملت اللوحات الجدارية المختلفة للمعالم السياحية المهمة لمدينة (برلين).

دخل (كريس) من البوابة الكبيرة التي كُتب عليها بأحرف ملونة (الحياة البحرية). اشترى تذكرتين من كوة التذاكر الموجودة في الداخل.

أخبرته بائعة التذاكر أن تذكرة الدخول إلى معرض الأحياء المائية تشمل أيضاً جولة بمصعد الأسطوانة المائية الموجودة في المبنى المجاور. أومأ (كريس) بعجالة ثم غاص في ظلمات بهو المعرض وبرفقته (رامونا سولنر).

قادهما الخيط الضوئي الرفيع إلى حجرات مختلفة تضم أحواضاً مائية متباينة الأحجام. إلى جانب الأسماك المحلية يستطيع المرء مشاهدة المناظر الطبيعية للحياة المائية وسكانها.

بينما مرّ (كريس) أمام بعض الأحواض دون أن يلاحظها ووقف متأملاً لأوقات طويلة أمام أخرى، وكان يلتفت خلفه بين الحين والآخر.

سارت البروفسورة خلفه بصمت، متجنبة التفوه بأي تعليق بعد أن أخبرها (كريس) بنبرة غاضبة أن موت (فورستر) لم يكن من وحي خياله المريض بجنون الارتياب.

كان هناك أطفال صغار يضغطون أنوفهم على الألواح الزجاجية للأحواض، وكان بعض الآباء يشرحون لأبنائهم أن بعض الأسماك لا يمكنها العيش إلا في المياه العذبة. بينما تمنى رجل بعمر الستين أن تكون إحدى سمكات الشبوط الكبيرة هي وجبة عشائه في ليلة الميلاد القادمة.

توقف (كريس). ففي أحد الأحواض كانت أسماك الشفنين

بأحجامها المختلفة تسبح بحركات متأنية عند أرجلهما في أعماق الحوض. واستمرت بالانزلاق بخطوط دائرية منتظمة أمامهما .

إتكأ إلى الحائط الحجري الموجود إلى جانب أحد حواف الحوض وانتظر. وفي هذا الموضع كان يتوجب على كل من بدأ جولته بعدهما أن يمر أمامهما .

وبعد مدة وجيزة، لم يستطع (كريس) ملاحظة أي شيء غير عادي، إلا أنه فضل الانتظار لدقيقتين إضافيتين.

- «لقد قلت لي سابقاً أن النص يحتوي على أجزاء من الوصايا العشر بصيغتها الأساسية، وهذا ما يجعله جذاباً بالنسبة للدين ومهماً بالنسبة للعلم. ماذا كنت تعنين بذلك بالضبط؟»

- «لقد تأخرت بطرح سؤالك، لقد توقعت أن تطلب المزيد من المعلومات في حينها».

- «بدا على (برانداو) الانزعاج ولم أرد أن أستفزه أكثر. وكنت مهتماً بالتوصل إلى اتفاق حول الصفقة أولاً. ولكن يمكنك أن تخبريني الآن».

نظرت (رامونا سولنر) إلى إحدى سمكات الشفنين التي سبحت باتجاهها «ماذا تعرف عن الوصايا العشر أو الكتاب المقدس أو بمعنىً آخر، عن نشأة العهد القديم؟»

فكر (كريس) «يحتوي على كلمة الرب، وفي زمن ما قام شخص بتدوينها . هذا ما تقوله الكنيسة».

تذكر بشكل ضبابي تلك الأسئلة والاعتراضات التي وجهها يوماً إلى القس، الذي كان ببساطة يتجاهل الإجابة عنها «ثم تم تسريبها لاحقاً، ولم تعد ذات أهمية. حدث هذا منذ زمن طويل جداً».

- «لابد أنك تعلم أن الوصايا العشر هي جوهر قوانين العهد القديم؟»

- «أنت الخبيرة هنا ...»

- «إن قام المرء بملاحظة نص الوصايا العشر وتحليلها من عدة زوايا، وعلى أساس علمي، يمكنه التوصل إلى ما يلي: في الأساس لم تكن كلمة الرب، بل مجموعة من عظات الأنبياء، التي تم بعد ذلك صياغتها إلى قانون سماوي لا يقبل الدحض».

- «ماذا تعنين بهذا؟»

- «تتنوع الوصايا بين واجبات ومحرمات، بين كلام الرب وكلام يهوه. إنها تحوي على شرائع طويلة وقصيرة، بسبب أو بغير سبب. هذا الاختلاف في التوازن يُظهر التباين بين الجوهر وبين الزيادات التي تمت إضافتها فيما بعد».

- «هل تعنين أنه لا يوجد نص أصلي موحد؟ بل إنه جدار مبني من مجموعة من الحجارة بدلاً أن يكون سداً من حجر المنليث؟»

- «بالضبط. هذه هي تفسيرات العلماء على أي حال، لقد قاموا بتحليل نصوص الكتاب المقدس. إنه ليس تخصصي، ولكنني سأحاول أن ألخصه. إنهم يقولون، لقد تم العثور على سلسلة أساسية من الوصايا، التي قد تكون أُخذت من عظة (إرميا) النبي في الهيكل. وهناك كُتب:

((أتسرقون وتقتلون وتزنون وتحلفون كذباً وتبخرون للبعل وتسيرون وراء آلهة أخرى لم تعرفوها)) وقد وجدت قائمة المعايير هذه بالترتيب نفسه تماماً في الوصايا العشر. وقد تم نَظم الإعلان النبوي للإرادة الإلهية في سلسلة من الوصايا. وحسب رأي العلماء إن النشأة الجدلية ما تزال واضحة».

- «هل تقصدين، أن أصول الوصايا العشر تعود إلى نبوءات».

- «تماماً. لقد تم تنظيمها بهذا التسلسل لاحقاً. إلا أن الوصايا التالية لا تعود إلى النبوءات، بل تم اقتباسها من مُهر لقوانين أخرى ومن

طقوس عبادية. (أنا يهوه) أتت من العبادات. وبهذا تم تعريف سلسلة الوصايا على أنها وحي إلهي. يُثبت يهوه ادعائه الأساسي هذا من خلال إخراجه لإسرائيل من أرض مصر.

ومن هنا يستخلص مطلبه: (لا يكن لك آلهة أخرى إلى جانبي) وهذا ما تم تقريبه ليصبح في البداية. إنها أولى الوصايا».

- «مثير، ولكنه مُعقد» تمتم (كريس).

- «يلاحظ تتابع الشرائع الأخلاقية. فيما تضفي ثلاثة من الوصايا أهمية إضافية خصوصاً على الوصية الأولى: لا تنطق باسم الرب باطلاً، لا تصنع لك تمثالاً، ولا صورة، وقدس يوم السبت. ولقد تأثر كل من الدين اليهودي والمسيحي بهذه الوصايا الثلاث. ولقد تجلى انصياعهم للوصية الأولى باتباعهم تلك الوصايا الثلاث».

حاول (كريس) البحث في داخله عن أي ردة فعل، عن القليل من الاعتراض، عدم التصديق، أو الثورة على هذا التحليل الرصين. لا شيء... بل كان معقولاً.

- «إذاً فأنت تدعين، أن موسى لم يتلقَ الوصايا العشر في سيناء من الله مباشرة، كما ورد في الكتاب المقدس».

- «التفسيرات العلمية تقول: نعم. هذا صحيح».

نظر (كريس) في عيني البروفسورة الجوزيتين.

- «أنت عالمة. فهل أنت مؤمنة أيضاً؟ هل ما زلت تستطيعين الإيمان؟»

ضحكت بارتباك.

- «إنك تطرح السؤال بطريقة خاطئة. فلو كنت من المتزمتين، الذين يرون نصوص الكتاب المقدس كسطور معبودة، وعمل متكامل، ويؤمنون بما جاء به بشكل حرفي، وبأنه لا إمكانية لتأويله، لكنت سأواجه مشكلة بالتأكيد.

إمـا أن آخـذ الكتـاب المقـدس بحرفيتـه وأرفـض أي شـيء آخـر، وخصوصاً الحقائق العلمية. أو أن أعتبر الكتاب المقدس عملاً روائياً لمجتمع كان مازال يبدأ بالتشكُل. أو كاكتشاف، يوضح الماضي ويُسترشد به لصنع حاضر أفضل، كتاب تاريخ، وهكذا يصبح مفتوحاً للجميع، وكذلك للمفاهيم المنافسة».

- «وما علاقة كل هذا بالألواح الطينية؟»

وبدلاً من الإجابة، حدقت البروفسورة في أحد الزوار المارين، الذي رمقها بنظرات جريئة.

- «هل تعرفينه؟» سألها (كريس).

- «أنا؟ لا» ضحكت مستمتعة «إني أحدق بالرجال الذين يحاولون لفت انتباهي بنظرات مباشرة. وغالباً ما تنجح هذه الطريقة في صدهم، أكثر من الكلمات».

- «إن كان كل ما قلته صحيحاً. فأين الرابط؟»

- «الألواح الستة الجديدة ترجع إلى عهد نبوخذ نصر الثاني. إلا أن ذلك غير مهم في هذا السياق. فقد دَوّن فيها معاركه وانتصاراته على الـ (كيش)» -صمتت مدة وجيزة، كأنها تطلب انتباهه الكامل- «الألواح الأقدم، التي سطا عليها نبوخذ نصر في تلك المعارك ثم خبأها في معبد (نينورتا) في (بابل)، هي التي تحتوي على الأمر المثير. يصف الملك كيف دُمرت المملكة بعد الطوفان الكبير في (كيش)، والوصايا التي تلقاها في تلك الأثناء ((**عدم تقديس إنليل وزيابا ولعنهما، وتقديم الأضاحي للآلهة الأخرى، والقتل، والسرقة، والخيانة الزوجية، والقسم الكاذب كلها خطايا، يجب على شعبي أن ينبذها. هذا ما يقوله (نينورتا) المُبشر وإله (كيش).**)) هل فهمت؟»

- «هل تقصدين أنها متطابقة مع النبوءات التي يفترض أنها كانت أساساً للوصايا العشر، إن كان ما قلته عن نشأتها صحيحاً».

- «تماماً. فما يزداد وضوحاً، هو أنه علينا قراءة الآداب العبرية القديمة، أي الكتاب المقدس والعهد القديم، كجزء من التاريخ القديم لثقافة الشرق والأديان».

فجأة اتضح لـ (كريس) ما قد كشفته له العالمة. قد تكون تلك المعلومات ليست بالأهمية الكبيرة بالنسبة له. إلا أنها حتماً لن تُستساغ من قبل المخلصين باتباع الكتاب المقدس.

- «نصوص كثيرة ومتشابهة من بلاد ما بين النهرين و(مصر) ومملكة الحثيين و(أوغاريت)، معروفة منذ زمن، وقد تم تفسيرها علمياً بشكل أفضل. لم تعد كل آراء ودوافع العهد القديم، وشروط المجتمع، وحتى نظرة الرب لإسرائيل القديمة، دون ترابط. ويمكن قراءة إثبات ذلك على أقدم الألواح التي تم العثور عليها. بل ويمكن القول أن هذا الاكتشاف يشكل انتصاراً للعلم على العقيدة».

الفصل الثاني والعشرون

مدينة (برلين)

الجمعة

في هذه اللحظة دخل الشاب والفتاة المرتديان زيّ سائقي الدراجات النارية من بوابة الدخول الرئيسة.

إنهما مستمران في متابعتنا ولم يهتما بمشاهدة سمك الشفنين، فكر (كريس)، عندما رآهما يختفيان بعيداً. إنهما لم يلحظا سمك الشفنين بالرغم من أن الجميع يتوقف هنا. أحد أكثر الموجودات إثارة لم يسترعي انتباههما ولو لمدة ثانية.

لا يمكن أن يكون ذلك مصادفة؟

هل وقع في الفخ؟ هل تلك المرأة التي ترافقه هي فعلاً البروفسورة؟

في حال أنهما ملاحقان فما يزال بإمكانهما العودة إلى المدخل الرئيس مرة أخرى، ومغادرة معرض الأحياء المائية. وعندها سيعلم متتبعيهم، أن أمرهم قد اكتُشف. لا أحد هنا يعاود الخروج من بوابة الدخول. لا بد أن هناك من يؤمن مراقبتهما من الخلف. على الأقل هذا ما كان سيفعله لو كان مكان متتبعيه.

قرر المضي قدماً، كي يتأكد إن كانا ملاحقين حقاً، وفي هذه الحال عليه أن يلعب معهم لعبتهم.

- «تعالي!»

- «وأخيراً» حولت (رامونا سولنر) نظراتها من سمك الشفنين.

هرول (كريس) عبر صالات المعرض ذات الضوء الخافت ثم توقف في الصالة الأخيرة، حيث كانت أفراس البحر تحرك ذيولها لتغوص تحت مياه الحوض ثم تعود لترتفع إلى السطح.

عبرا حاجزاً في صالة البيع. كان الشابان ذوا البزّات الجلدية السوداء يقفان أمام رفوف معدنية عليها أسماك بلاستيكية قابلة للنفخ. مر (كريس) من جانبهما متجهاً إلى الخارج.

وجدا أمامهما ممراً يزيد عرضه عن العشرين متراً يقود إلى المبنى المجاور. وكان مكتظاً بكراسي وطاولات تعود إلى المقهيين الموجودين فيه.

- «علينا التوجه يميناً إن أردنا التوجه إلى سيارتي» قالت العالمة.

أدار وجهه فوجد الشابين يتبعانهما «ليس بعد!» تمتم (كريس).

اندفعت عائلة أمامهما عبر باب كهربائي ذو زجاجٍ داكن ويؤدي إلى المبنى الموجود على الجانب الآخر.

جولة أخيرة للتأكد، فكر (كريس)، ثم تبع العائلة.

في الداخل وجدا نفسيهما يعبران مطعماً قبل أن يصلا إلى البهو الداخلي الرئيس.

خمّن (كريس) ارتفاع هذا البهو المريع بنحو الأربعين متراً. كانت الجدران ذات النوافذ المتطابقة التصميم، توحي بأنهما في فناء مسقوف.

في وسط البهو ثُبتت أسطوانة مستديرة بارتفاع أكثر من عشرين متراً، على عمود بارتفاع يقارب العشرة أمتار. كان المنظر يبدو، كأنه قطعة من البوظة المثبتة على عود يقف بشكل عمودي على أرض القاعة.

كان العود مستديراً ويحتوي على مصعد زجاجي بطابقين، ولقد سُد

مدخله بعمودين حديديين تصل بينهما حبال. كان بالإمكان رؤية السلم الحلزوني المعدني داخل القُمرة الزجاجية للمصعد، الذي كان يقود إلى الطابق الثاني. قدّر (كريس) أن ذلك المصعد يتسع ربما لثلاثين شخصاً موزعين على طابقيه.

كان قطر الأسطوانة العظيمة المثبتة فوق العمود يبلغ نحو عشرة أمتار، وقد ملئت تماماً بالمياه. إنها حوض للأسماك، وبداخله انتصب أربعة أعمدة من البازلت بينما كانت أسماك ذات ألوان زاهية تسبح في مياهه. وكان المصعد الزجاجي ينزلق في طريقه إلى الأعلى عابراً ذلك الحوض الضخم.

أمام مدخل المصعد وقف حشد من الناس. وكان رجل بزي أزرق يقف أمام حاجز من الحبال محاولاً منع أحد الزوار المنتظرين من الدخول إلى الموقع. ترددت أصداء أحاديث الزوار المتحمسين في أرجاء القاعة.

أدار (كريس) وجهه إلى الخلف باتجاه المطعم.

إنهما هناك.

طويلان وضخمان بوجهين عابسين. كان الرجلان يحدقان إليه بشكل واضح. وقفا أمام مدخل المطعم بساقين متباعدتين وأيدٍ ملتفة حول بعضها البعض، كأنهما يقولان له «لن تخرج من هنا!».

كان شعرهما قصيراً، وقد ارتديا سترات رقيقة ومنتفخة مناسبة تماماً لإخفاء الأسلحة. وإلى جانبهما وقف الشاب والفتاة بزيهما الجلدي الأسود، وكانت الفتاة تبتسم له بوقاحة.

نظر (كريس) إلى أعلى، كان المصعد قد وصل إلى الجزء العلوي من الحوض. خرج الركاب من المصعد وعبروا الجسر متجهين إلى أطراف القاعة. رأى (كريس) على ارتفاع نحو 25 متراً طبعات الأقدام الداكنة على الأرض الزجاجية ذات اللون الحليبي.

- «تعالي معي!» أمسك (كريس) العاملة من مفصل يدها وسحبها معه.

- «ماذا دهاك؟ إنك تؤلمني!».

- «قريباً».

بخطوات سريعة عبر القاعة وهو يتساءل عن أهمية ذلك الهيكل المعدني الذي يعلوه بعدة أمتار. إنه يمتد من منطقة المطعم وحتى المصعد. في منتصف سقف القاعة رأى المزيد من السقالات المعدنية تمتد من الجوانب باتجاه المصعد، كأنها جهزت لتركيب جدران مسبقة الصنع.

في ركن آخر من البهو انتصب فاصل خشبي في القاعة أمامه طاولات عالية وقف إلى جانبها مجموعة من الناس يحملون معهم حقائب سفر وأمتعة.

استوعب (كريس). إنه فندق. ثم أصداء الأصوات. لقد حاولوا لاحقاً فصل بهو استقبال الفندق عن منطقة المصعد. وسيقومون بتركيب ألواح زجاجية عازلة للصوت على تلك السقالات الممتدة في أعلى القاعة حتى يتم منع تسرب الضوضاء إلى منطقة الفندق، وفي الوقت نفسه يمكن لضيوف الفندق رؤية حوض الأسماك الضخم.

لمح (كريس) مخرجاً آخر، وكان من الواضح أنه يقود إلى الفندق. شعر (كريس) بالارتياح لوهلة، ثم سرعان ما تلاشى عندما رأى أن هناك شخصين يحرسان هذا المخرج أيضاً. كان أحدهم متوسط الطول، وذو شعر أشقر غامق، ولحية كثيفة. بينما كان جسم الآخر يشبه مصارع الحلبة مما جعل (كريس) يتصبب عرقاً عندما تخيل الضغط الذي ستسببه ضربة ذراعي ذلك الرجل على سلسلة ظهره.

رفع الرجل الأشبه بالمصارع يده اليمنى بهدوء شديد حتى وصلت إلى ارتفاع صدره، ثم وجه سبابته بشكل مباشر مشيراً إلى (كريس).

- «اللعنة!» تمتم (كريس)

استدار إلى الخلف وجرّ البروفسورة معه، واتجها نحو منتصف القاعة. كانت تعترض على تصرفاته إلا أنه لم يكن يكترث لها.

في تلك الأثناء كان المصعد قد وصل إلى الأسفل وبدأ يحمل لفيفاً جديداً من الزوار. وكذلك انزلق الشاب والفتاة المرتديان بزّات سائقي الدراجات النارية إلى الداخل. لقد كانت فرصتهما الأخيرة للهرب.



- «ما الذي يحدث؟» سألت (رامونا سولنر) بحنق.

- «كأنك لا تعلمين...» نظر إليها (كريس) ببرود «إن كان لا بد أن ينتهي الأمر هنا، فستكونين أنت أيضاً معي. هل فهمت ما قلته؟ في الوقت الحالي أرى الأمر هكذا: أنت تنتمين لهؤلاء، هل فهمتي؟»

- «أنتمي لمن؟»

- «انظري حولك».

أدارت البروفسورة رأسها في كل الاتجاهات.

- «هل تقصد الرجلين الواقفين هناك عند المدخل؟»

- «تماماً. إنهما هنا لأجلي. والاثنان إلى يسارنا أيضاً...»

- «ومن أين لك أن تعرف...» صمتت. كانت أيدي الرجال اليمنى طويلة بشكل ملفت، تكاد تصل إلى ركبهم. فقط عندما ألقت بنظرة ثانية انتبهت إلى المواسير الحديدية «إنهم يحملون أسلحة...»

- « ... مزودة بكاتم للصوت. ولماذا يا ترى؟»

خطا (كريس) بضع خطوات قصيرة داخلاً إلى المصعد ساحباً العالمة

وراءه. فمواجهة خصمين سيكون حتماً أسهل من مواجهة أربعة. دخلا المصعد متجاوزين المُرشد، وزجا بنفسيهما بين الجموع المحتشدة داخله ثم وقفا على الدرجات الأولى للسلم اللولبي. هناك في الأعلى، وعند بوابة الخروج كان الشابان ذوا البزّات الجلدية السوداء بانتظارهما.

في اللحظة الأخيرة قفز المصارع ورفيقه ذو الذقن الكثيفة إلى داخل المصعد. هز المُرشد رأسه باستياء. ثم أُغلقت الأبواب.

بدأ المصعد يتحرك بهدوء صاعداً إلى الأعلى. طلب المُرشد من الجميع الانتباه، وبدأ يشرح بزهو عن تلك الأسماك المتنوعة التي كانت تسبح حولهم.

لم يرفع (كريس) عينيه عن متتبعيه الواقفين في الأسفل عند باب المصعد. في البداية كانا ثابتين مكانهما، إلا أنهما وبعد مدة وجيزة بدءا بالتحرك باتجاه السلم دافعين نفسيهما بين جمع ركاب المصعد المتذمرين.

كان (كريس) ما يزال قابضاً على معصم (رامونا سولنر)، التي كانت تتململ تحت قبضته.

- «توقفي» همس (كريس) بامتعاض. كان فمه ملاصقاً لأذنها «إني ما أزال حتى الآن لا أعلم إن كنت تنتمين لهم. إلا أنه علي اعتقاد ذلك. ولهذا فعليكِ أن تعتبري نفسك رهينتي!»

- «إنك تهذي بلا شك!» تمتمت بعصبية، ولمعت عيناها بغضب «وما عساك تفعل إن قمت الآن بالصراخ هنا؟»

- «ربما ذلك سيساعدنا. ولكن من الأفضل أن تساعديني في اللحظة المناسبة».

نظرت إليه بعينين تملؤهما الأسئلة.

- «انتظري!» قال لها، ونظر إلى الأعلى حيث يقف الشاب والفتاة.

كان الشاب يتلمس سترته الجلدية ثم دس يده اليمنى في جيبه

الداخلي. وفي الأسفل أصبح الرجل ذو اللحية الكثيفة قريباً جداً من المُرشد.

- «عليك الصعود إلى الطابق العلوي إن كنت تود الرؤية بشكل أفضل» خاطبه المُرشد باستياء.

لفتت الصيحات المتفاجئة انتباه (كريس). ثلاث غواصين كانوا يسبحون حولهم داخل حوض الأسماك.

- «نعم. إن ما ترونه حقيقي» قال المُرشد «هؤلاء الغواصون يقومون بتنظيف زجاج الحوض بشكل يومي، إلا أنهم تأخروا اليوم كثيراً عن موعدهم».

كان الغواصون يحملون عبوات صغيرة من الهواء المضغوط على ظهورهم، ويمسكون قطعاً من الاسفنج بأيديهم.

- «يبلغ سمك زجاج الأكريليك الخاص بهذا الحوض، ثمانية سنتمترات في الأعلى واثنين وعشرين سنتمتر من الأسفل. أما عرض الحوض نفسه فيبلغ ثلاثة أمتار... فعلاً...، لا يمكن للمرء رؤية ذلك... كمية المياه تبلغ المليون لتراً، وتحتوي على أكثر من 2500 من الأسماك التي تم جلبها من بيئات حيوية مختلفة وكلها تعيش في هذا المحيط المائي الاصطناعي. نعم، هذه هنا هي أسماك نابليون، وهناك يمكنكم رؤية أسماك الفراشة».

لم يعد يفصل بينهما وبين ملاحقيهما سوى زوج من العجائز، وشاب كان متشبثاً بسور السلم ولم يتحرك أبداً، بالرغم من كل محاولات المتتبعين لإبعاده. كان ذلك الشاب يزيد من شد عضلات جسمه كلما حاول الرجل ذو اللحية الكثيفة زيادة الضغط عليه.

- «عند وصولنا بعد لحظات إلى الأعلى، أرجوا منكم أن تعبروا الجسر ثم تستخدموا المصعد الآخر للنزول. نشكركم على زيارتكم».

أقلت (كريس) العالمة وأنزل حقيبة الظهر من فوق كتفه ثم انحنى قليلاً إلى الأمام بحيث يخفي حقيبة الظهر عن عيون الفضوليين. بأصابع متأنية جرّ السحاب ودس يده داخل الحقيبة، في البداية تحسست يده العلبة البلاستيكية التي تحتوي على الألواح ثم أخيراً لمست أصابعه المعدن.

سحب مسدس (ريتسي)، ودسه في حزام بنطاله. هدّأت برودة معدن السلاح من أعصابه. لم يعد يشعر أنه أعزل تماماً.

توقف المصعد ببطء، وفُتحت أبوابه المؤدية إلى الجسر.

- «أبي. إن الرجل يحمل مسدساً».

قَدر (كريس) عمر ذلك الصبي بخمس أو ست سنوات. كان يقف على درجة أعلى من تلك التي يقف عليها والده، وكان يحدق بـ (كريس) بفضول متناهٍ. في البداية كانت نظرات الأب إلى (كريس) تنم عن الاستغراب، ثم سرعان ما تحولت إلى نظرات مذعورة.

- «اهربوا! هيا اهربوا!».

صاح بزوجته وابنته اللتين كانتا تقفان على الدرجة التي تليه «هيا تحركوا! إن الرجل يحمل سلاحاً حقاً!».

فجأة بدأ الجميع بالصراخ. ولأن التقدم إلى الأمام لم يكن ممكناً؛ ازدادت صيحات الذعر ارتفاعاً. نظر (كريس) إلى الأعلى حيث كان المَخرج. هناك وقف الشاب والفتاة قاطعين الطريق. إلا أن اندفاع الجموع المذعورة الخارجة من المصعد أجبرتهما على التنحي جانباً. صعدت العائلة التي كانت تقف أمام (كريس) الدرجات القليلة المتبقية إلى الأعلى ثم اختفت بين الجموع الهاربة على الجسر.

تلقى (كريس) ضربتين على ظهره. كان الزوجان العجوزان خلفه يحاولان الاندفاع إلى الأمام.

- «عليكِ الالتصاق بي من الخلف!» صاح بالبروفسورة، وصعد

الدرجات القليلة المتبقية. وقف الشاب والفتاة أمامه فجأة. قفز (كريس) دافعاً بجسده الفتاة. فجسدها لن يستطيع مقاومة ثقله كجسد الرجل.

ارتطمت أجسادهما ببعضهما وأحس (كريس) بصدرها الطري. وهنا ومض ألم حاد في جهة كليته اليمنى.

لوهلة لم يعد يتمكن من الرؤية لشدة الألم فسقط مع الفتاة على الأرض. أدار رأسه فانغرزت أسنانها الحادة والمؤلمة في أذنه اليسرى. من الأعلى اتجهت قبضة نحوه وأصابته في أعلى الصدغ. اندفع رأسه نحو الأسفل وارتطم بحافة أنفها. صرخت الفتاة من تحته.

قفز واقفاً، ومدّ يده اليمنى، وصدّ بيده اليسرى الضربة التالية، ثم أصابت حافة يده الجهة اليسرى من رقبة المهاجم، الذي تهاوى على الأرض دون أن يصدر أي صوت.

قفز (كريس) على الجسر.

- «هيا! تعالي!» صاح. فهرولت (رامونا سولنر) خلفه.

هناك في الأسفل اشرأبت الأعناق إلى الأعلى حيث ترددت الصيحات من الأعلى إلى الأسفل.

عدت العائلة أمامهما، كان الأب مستمراً بالصراخ بينما يجر ابنه خلفه. تقدم (كريس) إلى وسط الجسر ثم استدار إلى الخلف.

قفز الرجل ذو بنية المصارع خلفه على الجسر ثم جثا على ركبتيه، ورفع يده اليمنى في الهواء مصوباً فوهة سلاحه باتجاه (كريس) مباشرة.

- «إلى الأسفل!» صاح (كريس) بـ (رامونا سولنر)، التي أسرعت مارة من أمامه «انبطحي أرضاً!».

رمى (كريس) بنفسه إلى اليمين على أرضية الجسر ذات اللون الحليبي، بينما انبطحت (رامونا سولنر) خلفه.

مرت الطلقة فوق رأسه.

ضغط (كريس) على زناد سلاحه فارتج المسدس في يده، وتردد صوت الطلقة في أرجاء القاعة. أصابت حافة السور المعدني فدوى صوت أزيزٍ حاد.

تعثر الزوج العجوز على الجسر خلف الرامي. ارتطمت السيدة بالقناص الجاثم على ركبتيه فسقطت فوقه. حاول زوجها الإمساك بها فهوى هو أيضاً إلى الأرض.

وبهذا أصبح المرمى خالياً أمام الرجل ذو اللحية الكثيفة الذي وطأ الجسر خلف الزوجين العجوزين.

جهز (كريس) سلاحه مجدداً.

رفع الرجل ذو اللحية الكثيفة يديه فأصابته الطلقة في الجزء الأعلى من منطقة الصدر. تدحرج إلى الخلف واختفى عن الجسر. نهض (كريس) وأسرع باتجاه قُمره المصعد.

قام ملاحقه ذو الجسد الأشبه بمصارع الحلبة، بدفع العجوزين اللذين كانا مرتميين عليه جانباً.

ضرب (كريس) رأس الرجل بمؤخرة سلاحه فانكمش الأخير على نفسه وسقط مجدداً على الأرض منهاراً.

تابع (كريس) طريقه بعجالة ونظر داخل قُمرة المصعد. وفيها كان الزوجان متعلقان ببعضهما، كأنهما زوج من العِث الذي أصابه الدوار جراء رشة بالمبيد الحشري.

في تلك الأثناء تعثر الرجل المصاب بالطلقة جانب حجرة المصعد وباتجاه موازٍ لحافة حوض السمك ثم تمسك بالسلم، الذي كان يستخدمه الغواصون للنزول إلى الحوض. كان الدم يغطي الجزء العلوي من قميصه وكانت بقعة الدم تتسع، كأنها زهرة تتفتح بسرعة. ثم ما لبث الرجل أن فقد توازنه وانزلقت يده عن حافة السلم وسقط بشكل رأسي

في الحوض. تناثرت المياه إلى الأعلى وبدأت قدماه تتخبط في المياه بحركات بهلوانية ثم ما لبث أن فُتح كفه وهوى منه المسدس إلى أعماق الحوض. سبح أحد الغواصين من الأسفل باتجاه الرجل وأمسك بالجسد المنتفض بينما كانت خيطان من الدماء تحيط بجسديهما، ثم تحولت إلى وشاح أحمر مازال يختلط بالمياه حتى تحول إلى لون زهري شاحب يحيط بالرجُلين.

ارتطم الرجلان ببعضهما حتى بديا كأنهما يتصارعان. ثم حاول الغواص أن ينتزع نفسه من بين يدي الرجل المصاب. إلا أن الأخير لم يدرك أن الغواص كان يحاول مساعدته.

وعلى هذه الحال كان الرجلان يغرقان إلى الأسفل وبالرغم من أن الغواص كان يحرك الزعانف المطاطية التي كان يرتديها بقدميه، إلا أن قوة حركته لم تمكنه من رفع الجسدين المتشابكين إلى الأعلى. كانا ملتصقين ببعضهما البعض وتلتف أجسادهما في الماء، كأنها زوج من الأفاعي في رقصة حميمة.

توهجت شرارة بيضاء ساطعة.

اندفعت بعدها المياه من كل جانب إلى الأعلى وتصاعدت غمامة من الفقاقيع من الجسدين فتناثرت نثرات لحمية وأجزاء من العضلات، وأحشاء بشرية في المياه. وتدفقت الدماء من بقايا الأجساد، كأنها محطة مضخات.

حدق (كريس) بدهشة في موقع الانفجار، حيث تلونت المياه هناك بلون الدماء الأحمر. إنها قنبلة يدوية، خطر ببال (كريس)، يبدو أن الرجل المصاب قام بتفعيل قنبلة يدوية.

في اللحظة التالية انفجر الجدار الزجاجي للحوض. تردد الصوت الفريد لصرير زجاج الأكريليك المتحطم في أرجاء المكان.

- «يا إلهي!» وقفت (رامونا سولنر) إلى جانب (كريس) بشكل مفاجئ وارتمت بين ذراعيه محتمية بهما.

تدفقت المياه من ارتفاع يبلغ نحو العشرين متراً إلى أسفل القاعة من الفجوة التي حدثت في الحوض. وكالليل الذي يتسلل إلى النهار، بدأ الصدع يمتد من الفتحة المحدثة في الأعلى بشكل طولي باتجاه أسفل الحوض. تردد الهدير الصاخب للمياه المرتطمة في الأرجاء. ودفع شلال المياه بقايا الأشلاء البشرية باتجاه القاعة.

استدار (كريس) فرأى الزوجين يركضان فارين على الجسر. كان الرجل ذو جسم المصارع ما يزال ملقىً على الجسر في حالة غيبوبة، بينما يمر من فوقه ما تبقى من الفارين.

حدق (كريس) إلى الحوض مجدداً. كانت قوة امتصاص المياه قد سحبت بقايا الأشلاء البشرية باتجاه الشرخ. ثم تلاشت في دوامة من المياه والأسماك، التي انسكبت في القاعة.

امتزج صوت صرير قوي مع هدير المياه، ثم انشطر الزجاج على طول الشرخ.

بدوي يصم الآذان اندفعت مياه الحوض إلى القاعة. رأى (كريس) أجساد الغواصين الآخرين، اللذين كانا ينتفضان محاولان مقاومة قوة الامتصاص التي ما لبثت أن تغلبت عليهما وألقت بهما إلى القاعة مع فيض مليونِ لتر من المياه.

الفصل الثالث والعشرون

مدينة (براغ)

بعد ظهر يوم الجمعة

- «إنـي لا أراه» قالـت (زوي بورسـل) وحـدقت بـالمحيطين حولهـا بعصبية.

كانت تعليمات (تورنتن) في (فيلكابامبا) أن تشرف هي شخصياً على عملية القضاء على ذلك الوغد، الذي أراد بيع نتائج أبحاث شركة (تيسابي) إلى المنافسين. وهذا ما دفعها إلى المجيء إلى مدينة (براغ). وهـي تقف الآن عند جسر برج البلدة القديمة وتحاول التركيز في الحشود البشرية التي تمر على جسر (تشارلز).

- «لا تحدقي بالناس هكذا. إنك تثيرين الانتباه بشكل كبير» وبالرغم من أن (بيتر سولفان)، مدير أمن (تيسابي)، كان أحد الأشخاص الذين يثيرون اشمئزازها، إلا أنه كان في الوقت نفسه يدفعها إلى احترامه «كل شيء تحت السيطرة».

كان رأسه الحليق تماماً يزيد من شعورها أنه شخص لا يكترث بالآخرين. كانت وجنتاه المتدليتان يتناقضان مع جسده الممتلئ جداً لدرجة تجعله مهدداً بالتعرض لأزمة قلبية في أي لحظة.

قبل ما يزيد عن أسبوع أخبرها (سولفان) بأمر الخيانة التي كانت

علـى وشـك أن تحـدث في محاولـة لبيـع نتـائج الأبحـاث. وأرادت أن تعـرف مصدر المعلومات.

- «لقد استخرجتها بصعوبة من أحد أصدقائنا الذين يعملون لدى المنافسين، ولقد كلفتنا الكثير، بل وأراد الحصول على المزيد، إن هـو أخبرنا عن الشخص ومكان إتمام الصفقة» هكذا كانت إجابته، وأعطته هـي الإذن بـإجراء عمليـة التـسليم علـى جزيـرة (كايمـان)، بينمـا طـارت هـي إلى (فيلكابامبا).

لم تكن متأكدة من أن (سـولفان) قد قام بإخبار (فولسوم) بالأمر. الذي قام بدوره بحصرها في الزاوية عند لقائهما مع رئيس مجلس الإدارة في (فيلكابامبا). وعدم معرفتها تلك كانت تقف سداً بينها وبين (سـولفان). إلا أنه كان عليها أولاً أن تمنع محاولة الخيانة وبعدها يأتي أي شـيء آخر، بمـا في ذلـك الـثمن الـذي دفعـه (سـولفان) علـى جزيـرة (كايمـان) لـشراء المعلومات حول موعد التسليم.

- «إن لم ينجح هذا الأمر فسوف أطيح بك عن كرسيك!» همست محذرة «عليك أن تمسك به! وإياك والمراوغة!».

وبـالرغم مـن أن صـوتها كـان أشـبه بفحـيح الأفـاعي. إلا أن (بـيتر سولفان) تابع قضم فطيرة البطاطا التشيكية، وقد بدا الصحن الكرتوني في يده كالبقعة الداكنة التي تشبعت بزيت فطيرة البطاطا.

لقـد أفـسدت عليـه هـذه الحـشرة اللعينـة كـل مـساعيه بأسـئلتها الكثيرة المستفزة، وبادعائها المستمر بأنها تعـرف كل شـيء بشكل أفضل. كـان (سـولفان) يقـود ثلاثـة فـرق كـل منـها مكـون مـن رجلـين. في مهمتـه الأخيرة في مدينة (براغ) في نهاية عـام 1985، كان فريقه مكون من أكثر مـن عـشرين رجـلاً. كـان ذلـك أثنـاء الحـرب البـاردة. لقـد مـر الآن نحـو عـشرين عامـاً علـى تلـك الحقبـة. وخمـسة عـشر عامـاً منـذ أن قـاموا

بالاستغناء عن خدماته. فبين يوم وليلة بعد انتهاء الحرب الباردة أصبح الكثير من العاملين لدى الـ (سي أي إيه) (مكتب الاستخبارات المركزية الأميريكي) بلا فائدة.

ولقد حالفه الحظ بالحصول على منصب مدير الأمن في شركة (تيسابي). وبقيت علاقاته التي كان قد أسسها أثناء عمله السابق ذات قيمة كبيرة. فقد قام أحد معارفه القدامى بإمداده بتلك المعلومات، وبهذا استطاع أيضا أن يمول حياته المرفهة بشرائه يختاً أمام جزر (الباهاما).

- «لقد قام الهدف بالاتصال منذ قليل»، أعلن (بيتي سباروف)، قائد المجموعة الأولى «كان عرّابه رجلاً، متوسط الطول، يرتدي بذلة غامقة وقميصاً أزرق فاتح، من دون ربطة عنق، إنه في مثل عمري تقريباً، ومتوتر قليلاً. وقد اختفى باتجاه العنصر رقم واحد».

- «ماذا يعني هذا؟» سألت (زوي بورسل).

- «لقد تم التواصل مع جرذ الجهة الأخرى. لقد حان الوقت. رقم واحد هو أنا». مد (سولفان) رأسه فرأى بعد لحظات مرسال الجهة المستلمة يخرج من بين جموع الناس. ثم يتوقف عند فرقة فلكلورية مؤلفة من ستة أشخاص.

ظهر الخائن وهو يسير بخطوات مسرعة على الجسر ويمر إلى جانب الفرقة الفلكلورية دون أن يتواصل ولو بنظرة واحدة مع المرسال.

أحسنت صنعاً، فكر (سولفان). لو أنك تقوم بتحويل سرعتك أو تقوم بأي حيلة، لكان بإمكانك مضايقتنا فعلاً. إلا أننا لن نسمح أن تصل الأمور إلى هذا الحد.

وعندما ابتعد المرسال عن الفرقة الموسيقية، تأهب (سولفان). لن تستطيع التلاعب معي. تمدد جسد (سولفان)، كأنه وتر قوس الرماية، وتقدم بديناميكية عالية، لم يكن لأحد أن يتوقعها من هذا الجسد الضخم

الممتلئ. بينما كان يعطي بعض التعليمات لرجاله من خلال جهاز اللاسلكي الصغير المثبت بسترته.



مرّ (واين سندر) من جانب الفرقة الفلكلورية دونما انتباه. وكانت وجوه المارة تعبر من أمامه بسرعة. بينما تحول توتره إلى حالة من الانتباه والحذر التامين. صعد ببطء إلى جسر (تشارلز). وبدأ يشعر بثقل تلك الرزم من الأوراق التي كان يحملها في الحقيبة المعلقة على كتفه.

- «هل تريد التراجع؟» سأل نفسه مجدداً. وكانت الإجابة، «لا»، كما دائماً. ثم تابع سيره بخطوات مسرعة. «لا وألف لا. إنها فرصتك فاغتنمها مهما كلفك الأمر!»

- «إنك تسافر إلى مدينة (براغ) للعب القمار مجدداً». صاحت به زوجته قائلة قبل سفره. ففي العامين اللذين قضاهما وحده في مدينة (دريسدن) تحول إلى لاعب قمار. في البداية كان يذهب إلى صالة اللعب بهدف التسلية، ثم ما لبث أن بلغ مرحلة الإدمان. لقد خسر، ولم يمتلك القوة الكافية للتوقف في الوقت المناسب. فبدأ يسحب من مدخراته، وشيئاً فشيئاً خسر كل ما كان يملك.

كادت زوجته تُجن، وكان قد قطع لها وعداً بكل ما هو مقدس أنه سيقلع عن اللعب إن هي أتت للعيش معه في مدينة (دريسدن). والحقيقة أنه استطاع أن يكبح جماح رغبته في اللعب مدة وجيزة.

إلا أن توقعاتها كانت في محلها. فقد عاود اللعب. ولكنه كان يتجنب صالات القمار الكبيرة والمشهورة، ويرتاد صالات صغيرة وغير مرخصة.

وبهذا بلغت ديونه ما يزيد عن مئتي ألف يورو. وحصل على قروضه الأخيرة من أحد المقرضين الخاصين الذي ألزمه بدفع فوائد مرعبة؛ لأن مصرفه لم يبدي استعداداً لرفع سقف ديونه لديه.

- «إنني مسافر إلى مدينة (براغ) لتأمين مستقبل أفضل لنا. صدقيني!» قال لها قبل أن يذهب إلى المختبر لطباعة المعلومات.

كانت معلوماته حول المضادات الحيوية البروتينية التي ينتجها جهاز المناعة الخاص بالجلد البشري لا تقدر بثمن، فهي تقوم بالقضاء على الجراثيم وإعادة ترميم الأوردة بطريقة ذاتية. بالاكتشافات الجديدة لأقدم نظام دفاعي للجسم البشري أصبح بالإمكان تطبيق طرق علاجية حديثة، وطرح مراهم دوائية جديدة تماماً للحروق والجروح في الأسواق. فهو يقدم معلومات تُمهد لطور جديد من الأدوية العلاجية.

أجواء ساحة المدينة القديمة جعلته يتنفس الصعداء لوهلة. فعلى يساره كان مبنى البلدية ذو الساعة الفلكية التي تعود إلى القرن الثالث عشر، التي يتجمع حولها الناس على رأس كل ساعة للاستمتاع بمشاهدة حركات قطعها الفنية.

وعلى يمينه في الجهة الجنوبية للساحة، رأى صف الأبنية بواجهاتها التي تم زخرفتها بعناية فائقة في عصر النهضة، والتي طالما جذبت انتباهه في زياراته السابقة لهذه المدينة.

أصبح هدفه على بعد مئة متر. حيث يقف النصب التذكاري لـ (جان هوس) محاطاً بالأعشاب والنباتات من جهته الخلفية بينما كانت جهته الأمامية عبارة عن أدراج نصف دائرية يجلس عليها بعض المارة للاستراحة.

تردد قليلاً. ولكن ليس بسبب الخوف. كلا، فعلى العكس تماماً كان

يستمتع بتلك اللحظة. فقد كانت تلك الساحة ذات النصب التذكاري تمثل له طاولة القمار التي سيلعب عليها اللعبة الرابحة الأكبر في حياته.

إنه يمسك بزمام الأمور. فقد اشترط عليهم تأمين نفسه بأن يغير ثلاثة من نهايات المعادلات بطريقة خاطئة. وقد قبلوا عرضه على مضض، وبهذا يستطيع أن يضمن أنهم لن يتلاعبوا به.

وسيكون الألماس هو الثمن لتلك المعلومات التي سيقدمها لهم (سندر) الملقب بالماسة. فهو أكثر عملية من الأموال النقدية، ولن يكون هناك تتبع للتحويلات المصرفية إلى حسابه في أحد بنوك (سويسرا). وبالرغم من درايته بالألماس، إلا أنه لن يعطيهم المعادلات الصحيحة حتى يقوم بتحويل تلك الماسات إلى نقود. إضافة إلى أنه سيحصل على خمس مئة ألف يورو نقداً كعربون، وسيقوم باستخدام بعضاً منها للعب في إحدى صالات القمار هذه الليلة.

ضحك برضاً.

ثم يعود إلى مدينة (دريسدن) ليرى ما حل بعينات العظام الخاصة بصديقه (كريس). فبانقسام الخلايا واجه حقيقة مرعبة...

لابد أن الحظ يحالفه تماماً في هذه المدة، أخيراً، أخيراً وبعد كل خيبات الأمل التي مر بها! اليوم سيحصل على المال، وقريباً ربما يحقق سبقاً علمياً.

واحدة تلو الأخرى، قال في نفسه. فربما ارتكب خطئاً ما بسبب ضغط الزمن واستعجاله، فلا يكون الاكتشاف المرتقب اكتشافاً أصلاً. أما الآن فعليه أن يحصل على المال أولاً...

فجأة، وقفت أمامه شابة متوسطة الطول ترتدي بنطال جينز وقميصاً فوقه سترة خفيفة. كان شعرها الأحمر ينسدل على كتفيها، وقد ارتسمت على وجهها ابتسامة لطيفة، ووضعت على عينيها نظارة ذات إطار مربع؛ مما جعلها تبدو أكبر من عمرها.

- «معذرة، هل تعرف هذا المكان جيداً؟» سألته بطريقة خجولة وباللغة الألمانية. بينما كانت تحمل بيدها خارطة نصف مفتوحة للمدينة، وتلوح بها أثناء الحديث.

كاد (سندر) أن يرد بطريقة غير ملائمة، لأنها أخرجته من حالة التركيز التي كان عليها، إلا أنه قرر أخيراً الاندماج في الحوار. ربما كان السبب يكمن في رأسها المنحني قليلاً أو في ابتسامتها التي تنم عن حاجتها الماسّة للمساعدة.

- «ما هو المطلوب بالضبط؟»

- «أريد الذهاب إلى متحف (دفوراك)».

هز (سندر) رأسه معتذراً.

- «فأنا أيضاً لم أزره من قبل. إن لم يكن معك كتيب دليل السائح، فعليك...»

كان ما يزال ينظر إليها بشفقة حين شعر أن حقيبته الجلدية انزلقت عن كتفه. وفجأة تلاشى ذلك الثقل عن عظمة كتفه، الذي كان يسببه ضغط سَير الحقيبة التي كانت تحمل أوراق خيانته. ارتطمت نهاية السَير الجلدي بوجنته قبل أن يسقط متسارعاً نحو الأسفل. وحلقت يده اليمنى في الهواء، التي كان يسند بها الحقيبة من الأسفل حيث تحررت من الوزن. وأصبحت المساحة، بين جسده ويده اليمنى، خالية.

التفت (واين سندر).

كان اللص قد ابتعد بمسافة تزيد عن خمسة أمتار قاطعاً الساحة باتجاه ممر (ميلنتيكوفا)، زقاق ضيق قبالة مبنى البلدية.

- «أيها الوغد!» صاح (سندر).

صعد الدم إلى رأسه بلمح البصر، وتسارعت نبضات قلبه حتى كادت عروقه تتفجر. بدأت الأفكار السوداء تحاصره من كل جانب، «تمت

خيانته... غشوه... تم بيعه إلى أوغاد ...» ليس بهذه السهولة! ركض خلف اللص، إلا أن قدميه كانتا ثقيلتان، كأنهما مُكبلتان بأصفادٍ حديدية. وفي عجالته ارتطم ببعض السياح. «أفسحوا الطريق» صاح وهو يتابع عدوه.

اختفى اللص عن الأنظار. تسلل إليه اليأس، وشعر كأن رأسه سيتفجر. ذهب كل شي هباءً. انتهى كل شيء!

- «مُغفل!».

في تلك الأثناء قام رجلان بتجاوز (سندر). كانا شابان قويين وسريعي الحركة. شقا طريقهما بين جموع الناس دونما اكتراث، يصيحان في الناس ويرميان كل من يقف بطريقهما أرضاً. لقد فهم.

ربما سيقومان الآن بـ...

اتضحت الصورة فجأة أمام (سندر). فقد كان اللص ممسكاً بالحقيبة الجلدية بيده اليمنى، بينما أوقفه رجل كان يلف قبضته اليسرى حول ياقة قميصه ويشير له بيده اليمنى، أن يسلمه الحقيبة.

إنه الوسيط الذي كان ينتظره.

وبالتالي فإن هذا يعني...

عاوده الأمل مجدداً.

ربما كانت تلك بالفعل مصادفة حمقاء، وأنه وقع ضحية لأحد لصوص الحقائب المألوفين. أسرع خلف الرجلين اللذين كانا قد سبقاه باتجاه اللص. لن يتمكن ذلك اللص من مواجهة الرجلين أو الإفلات من قبضة الوسيط.

وبينما كانت الفرحة تغمر قلبه، ظهر ثلاثة أشخاص خلف الوسيط: سيدة نحيلة بشعر داكن، معها رجل شاب وآخر ذو جسد ضخم، ورأس حليق.

تعجب (سندر) من السرعة التي كان يتحرك بها ذلك الرجل بالرغم

من جسمه الممتلئ. سقط المرسال فجأة جاثماً على ركبتيه ثم ارتمى على أرض الساحة منهاراً وقد شُد رأسه حتى النهاية متجهاً إلى الأعلى.

بدأ (سندر) ينتحب.

وقف الرجل ذو الجسم الضخم في الشارع، كأنه تمثال رودس الضخم. كانت يداه ممدودتان وتشيران إلى الرجلين الآخرين، اللذين سقطا أرضاً على بعد بضع خطوات منه.

ثم قام الرجل السمين بالقبض على ذراع اللص وجره بعيداً عن الزقاق متجهاً به إلى نهاية الساحة.

ركض (سندر) خلفهم.

الفصل الرابع والعشرون

مدينة (برلين)

الجمعة

أصوات الصراخ جعلت (كريس) يهرع مسرعاً. فعلى الجانب الآخر من الجسر كان هناك ما يعيق تدفق الجموع الهاربة. ومباشرة ظهر على الجسر رجلان من بين الحشود البشرية، خلفهما كان آخر ركاب المصعد يحاول الفرار متجهاً نحو الأدراج.

إنه الفريق الآخر، فكر (كريس)، لقد استخدموا المصعد الداخلي للصعود من البهو السفلي إلى الأعلى.

كان وجهيهما مشحوذان بالعزيمة. ولم يحاولا إخفاء المسدسات المزودة بكاتم الصوت التي كانا يحملانها.

- «ماذا سنفعل الآن» سألت البروفسورة.

تذمر (كريس)، اللعنة كم من حُسن الحظ عليه أن يجلب حتى يتمكن من الفرار من هؤلاء؟

- «اتبعيني! هيا ... وأسرعي...»

قفزا من على الجسر إلى منطقة المصعد، دخلاه ونزلا السلم الداخلي مسرعين. كان مرشد المصعد يجثم مذهولاً أمام لوحة التحكم ممسكاً كتفه بيده اليمنى.

- «هيا لنعد إلى الأسفل؟» صاح (كريس) ودفع الرجل في ظهره. الذي ضغط بدوره على أحد الأزرار فأُغلق الباب العلوي للمصعد. «حظ سيء» تمتم (كريس)، بينما سدد أحد الرجلين فوهة سلاحه باتجاه زجاج المصعد.

- «ماذا يجري هنا!» سأل مرشد المصعد متلعثماً، بينما كانت القُمرة تستمر في الهبوط إلى الأسفل.

كان كل جسده يرتعد، بينما يحدق بنظرات جامدة إلى لوحة التحكم.

- «ألا يمكن لهذا الشيء أن يتحرك بشكل أسرع؟» صاح (كريس).

كانت الأطراف الحادة لزجاج الجدار الخارجي المحطم للحوض ترسم خطاً مميتاً. بقايا من الأشلاء البشرية والأسماك الميتة عَلقَت على الزجاج المسنن، كأنها تُحمل على رؤوس الرماح. بينما غمرت المياه أرجاء القاعة وتسربت من بين الجدران. بدأ سطح المياه بالعودة إلى الهدوء تدريجياً، وانخفض ارتفاع الأمواج. كانت أجساد الغواصين المقذوفة خارج الحوض قد تكورت على أرض القاعة المغمورة بالمياه.

توقف المصعد.

- «افتح الباب» قال (كريس) وهو يشير بفوهة مسدسه باتجاه المخرج.

- «ولكن الماء...»

- «لا تقلق فإنك لن تغرق» -صرخ (كريس)- «هيا افتح الباب!».

فُتح الباب وتدفقت المياه إلى داخل قُمرة المصعد. قفز (كريس) إلى المياه التي بالكاد بلغ ارتفاعها منطقة حوضه، ودفع بجسده إلى الأمام عابراً المياه، وتبعته (رامونا سولنر).

- «علينا الخروج من هنا!» صاح مجدداً. وقد حدد البوابة التي دخلا منها كهدف عليهما الوصول إليه.

تناثرت المياه من حوله عندما اخترقت رصاصتان المياه في منطقتين بالقرب منه، كأنهما طوربيدان صغيران اختفيا في المياه.

رفع (كريس) رأسه إلى الأعلى وهناك، على ارتفاع 25 متراً استطاع أن يرى رأساً وذراعاً. ثم لمع شيء ما.

هذه المرة عوت الرصاصة خلف رأسه مباشرة.

صرخت (رامونا سولنر) بصوت عالٍ عندما ارتطمت الرصاصة التالية بالمياه أمامها.

- «أسرع!». وأخيراً وصل (كريس) إلى ركن المطعم، وخرج من الجزء المكشوف من القاعة.

نظر حوله. تبعته البروفسورة بوجه شديد الاحمرار. تابع (كريس) سيره مسرعاً، وتدفقت المياه إلى الممر الخارجي بعد أن فُتح باب المدخل الرئيس، ثم توزعت خارجاً بجميع الاتجاهات. فاضت المياه المتدفقة على الكراسي والطاولات الموجودة في الممر. إلى اليمين وباتجاه شارع (ليبكنخت) تجمع أول الفضوليين يتناقشون باهتمام بالغ حول ما يجري.

- «إلى اليسار!». صاحت (رامونا سولنر).

نظر (كريس) إلى الخلف. كان هناك رجل يتبعهما مسرعاً. لابد أنه الرجل الثاني، وقد نزل من على الجسر مستخدماً المصعد الداخلي للمبنى.

ركضا عبر الممر باتجاه الشارع محاولان الاختفاء عن نظره.

- «إلى اليمين!» صرخت خلفه عندما توقف أمام المفرق التالي عند إحدى نوافير المياه الصغيرة. تجاوزته مسرعة ودخلت إلى أحد الأزقة وهي تفتح حقيبة يدها باحثة فيها عن بطاقة المرآب.

وفي الزقاق، على بعد نحو المتر من مدخل المرآب توقفت أمام عمود فضي اللون ولامع وبارتفاعٍ متوسط.

حاول (كريس) دفع الباب، لكنه كان مغلقاً.

بأصابع مرتعدة، مررت (رامونا سولنر) البطاقة أمام القارئ الآلي المثبت بالعمود. فلم يحدث شيء.

- «اللعنة!». صرخت وضربت بقدمها الأرض. ركض المُلاحق باتجاهها بكل قوته. قفز (كريس) من أمام الباب ووقف في طريقه. وقبل ثلاث خطوات من (كريس) قفز الرجل مُجدفاً بقدميه في الهواء.

ألقى (كريس) بنفسه إلى الأرض وتدحرج على كتفه مبتعداً. حلّق المُلاحق بجانبه ثم سقط مرتطماً بالأرض. بحركة واحدة أصبح (كريس) عنده. دفع قدمه بقوة راكلاً المطروح أرضاً على حافة ذقنه، فبقي الأخير مستلقياً على الأرض مستسلماً للدوار الذي أصابه.

مررت (رامونا سولنر) بطاقة المرآب مجدداً أمام القارئ الآلي.

صدر صوت غريب وخافت جداً، ثم فُتح باب المرآب. انزلقا من فُتحة الباب، ونزلا على الأدراج الإسمنتية بسرعة. بدأ الزجاج خلفهما بالارتجاج تحت الضربات الغاضبة للمُلاحق.



كان (كريس) قد أوقف سيارة المرسيدس المكشوفة من نوع SL في ساحة (مونبيجو)، ليس بعيداً جداً عن المرآب. جلس على مقعد السائق وهو يقرع على عجلة القيادة برؤوس أصابعه بحركات عصبية. كان التوتر ما يزال يجعله يشعر، كأن كرة حديدية قد استقرت في أمعائه، إلا أنه بدء يفكر بشكل أكثر وضوحاً.

- «إنك لن تستطيعي إقناعي ببساطة. فبالتأكيد لم أقم أنا بخيانة نفسي. وبهذا لا يبقى أمامي سواك أنت والقس».

كان (كريس) قد خلع حذاءه وجواربه. علق الجوارب أمام فتحات مكيف السيارة وقد أداره إلى أعلى درجة من الهواء الساخن حتى تجف بسرعة.

- «لا أعلم حقاً ما علي قوله. إلا أنه لا مصلحة لي في خداعك. فأنا أريد الألواح!». كانت البروفسورة تدخن السيجارة تلو الأخرى. وقد بدأت عضلات جسدها بالارتخاء تدريجياً.

كانا يسمعان أصوات صفارات سيارات الشرطة والإسعاف، التي كانت متجهة إلى موقع الحادث، بين الفينة والأخرى.

- «ألسنا قريبين جداً؟» كانت تنتفض في كل مرة تسمع بها أصوت الصفارات.

- «لماذا؟ هل يعلم أحد نوع السيارة التي تقودينها؟ لديهم الآن ما يشغلهم عن تفتيش السيارات الواقفة. مازال لدينا بعض الوقت».

فعليهم الآن إجراء التحقيقات، تقليب كل التفاصيل، إعادة سماع القصة مجدداً، والعثور على المفارقات؛ للبدء بتحديد خيوط الحادث. الأعمال المعتادة لرجال الشرطة. نفخ مغتاظاً.

- «لقد أخبرتني سابقاً أنه كان هناك محاولة لإتمام صفقة بيع في العشرينيات من القرن الماضي، ولكنها لم تنجح. وقام أحدهم بإعلام الكنيسة بالأمر. حدثيني أكثر حول هذا».

- «نحن لا نعلم الكثير. لماذا؟ كل شيء في الخفاء. مَن مع مَن... الأجزاء النصية، التي أرسلها لنا (فورستر) قبل نحو نصف عام، استطعنا ترجمتها وفهمها».

- «كيف ذلك؟ لقد قُلتِ أن البحث في أرشيف الكنيسة باء بالفشل».

- «صحيح. إلا أننا وجدنا أجزاءً لإحدى المخطوطات في صندوق لم يتم الانتباه إليه مسبقاً، كان موجوداً في مخازن المتحف».

- «وكيف لمثل هذا أن يحدث؟»

- «حقيقة الحياة، وواقعية الألمان. ما تزال مخازن المتحف مليئة باللُقى التي لم يتم التعامل معها بعد. وهذا يحدث في كافة متاحف العالم. الكثير منها ينام في أركان الأقبية» توقفت قليلاً.

- «إضافة إلى وجود عامل آخر. فـ (سيمون)، أكبر داعم ومشجع للمتاحف في (برلين)، كان يدين باليهودية. يمكننا القول: أننا محظوظين، لأنه لم يتم إتلاف وتدمير كل ما تم نقله في السنوات المأساوية التي مرت في الثلاثينيات والأربعينيات من القرن المنصرم. ولسبب ما، لم يهتم أحد بتركة ذلك الرجل».

قاطعها (كريس) بإشارة من يده وهو يحدق في الرجل المسن الأشعث، الذي كان يمر مبتسماً بجوار السيارة وينظر إليهما بفضول. مسح الرجل بيده على الرفراف الأيمن للسيارة، ثم ما لبث أن كوّر يده بشكل قبضة وضرب بها بغضب على حديد الصندوق الخلفي.

- «أيها الوغد!» تمتمت العالمة بعصبية.

- «لا عليك منه. لقد أحبطته الحياة! وماذا حدث بعد ذلك؟»

- «بعد الحرب، قام الروس بالسطو على الكثير من المتاحف، وفي نهاية الخمسينيات حدثت موجة كبيرة من إعادة الموجودات، بين الرفاق الاشتراكيين. ولكن كان التركيز آنذاك على أعمال إعادة الإعمار. ومجدداً بقيت بعض اللقى حبيسة المخازن».

كانت أعصابها تزداد هدوءاً كلما استمرت في الحديث. فالتركيز في أمور تعرفها وتألفها، ساعدها في التغلب على تلك الصدمة الدموية التي عاشتها.

- «وكيف عثرتم على الصندوق الذي يحتوي على تلك الأجزاء؟»

- «لقد بدأنا منذ مدة بالتحضير لمعرض عن (كولدوي)، الذي سيتم افتتاحه الآن في المتحف وذلك بمناسبة ذكرى ميلاده المئة والخمسين. ولهذا

بحثنا في السنوات الأخيرة في المخازن، وقمنا بتأمين الوثائق اللازمة وتصنيفها. ثم جاء عرض (فورستر)، ولم يكن من الصعب استنتاج أن مخطوطته كانت قد كُتبت منذ زمن طويل».

- «وكيف ذلك؟»

- «لقد تمت طباعة ترجمة جزء من نص اللوح بواسطة الآلة الكاتبة. وبهذا لم يكن من الصعب معرفة أن ذلك النص يعود لقرون قديمة ماضية. كان من الواضح أن (فورستر) قام بتصوير أجزاء من النص. وللأسف لم تكن تلك النسخ المصورة كاملة. فقد قُطع النَص من أوسطه».

- «ولهذا تريدين رؤية الألواح أولاً، لتتأكدي من أنها بتلك الأهمية التي كان عليها ذلك النص الذي تعرفينه».

- «تماماً. على أي حال، لقد بحثنا بشكل مركز في النص الذي أرسله (كريس)، وقمنا بترتيب الأجزاء مع الانتباه لما قد نكون أهملناه سابقاً. كان عملاً مضنياً إلى أن توصلنا إلى الدلائل التي أوضحت لنا الأحداث التي جرت في ذلك الزمن».

- «ولكنكم لم تحصلوا على المخطوطة التي تعود إلى العشرينيات». قال (كريس) مستنتجاً.

- «كلا. لقد اختفت».

- «وهي لا توجد في أرشيف الكنيسة أيضاً؟»

- «كلا، حسب علمي».

- «الحقيقة هذا الأمر ليس بتلك الأهمية بالنسبة لي» قال (كريس) «وماذا عن المال؟»

- «وماذا عن الألواح؟ إنك لم تحضرها جميعها معك في حقيبتك».

- «باستطاعتنا إتمام هذه الصفقة بشكل رائع خلال ساعتين. أنا أريكِ الألواح وأنت تسلميني المال».

تنهدت بعصبية، «طمعك بالحصول على المال في جانب، وعلى الجانب الآخر توجد الحقائق! فأنا لا أتجول في مدينة (برلين) حاملة هذا المبلغ الضخم من المال! وخصوصاً إن لم أكن أعلم ما سأحصل عليه بالمقابل!».

- «ستعلمين قريباً. هل تريدين هذا أم لا؟»

- «إن كانت الألواح الأخرى تحتوي على ما أشارت إليه الألواح الأولى، فسيبقى الثمن الذي عرضناه ثابتاً. (براندوا) بانتظار مكالمتي الهاتفية. وبعدها تستلم المال».

- «في هذا المساء» أصر (كريس).

- «كما تم الاتفاق عليه سابقاً. في هذا المساء».

- «أصبحت مستعجلة فجأة».

رفعت (رامونا سولنر) يديها بإشارة توضيحية: «لابد من حماية الآثار من المجانين أمثالك أو كاللذين حاولوا السطو علينا هذا اليوم. وفقط لأن هذه هي قناعتي، فأنا ما أزال هنا حتى الآن».

هز (كريس) رأسه باستياء، «أنت تكذبين»، قال بلؤم.

- «كل البشر في هذا العالم من القديسين! هيا، عليك الاعتراف بأنك تطمحين للحصول على الألواح مهما كلف الأمر! هذا عرض غير مسبوق، معظم العلماء يحلمون طيلة حياتهم أن يحظوا بمثل هذه الفرصة. فلا تلوميني على صراحتي».

ساد صمت بارد للحظات، ثم تنحنحت.

- «حسناً الآن، أريد أن أفحصها، أريد أن أقوم بأبحاث حولها والكتابة عنها. نعم، اللعنة هذا صحيح! إنها فرصة نادرة جداً ومن الأرجح أنها لن تتكرر مرة أخرى. هل تشعر الآن بالارتياح بهذا الاعتراف؟»

- «طبعا. بالتأكيد». تمتم (كريس) مازحاً. «والآن سأريك إياها» ثم أدار محرك السيارة.

- «ولكن مازال لدي سؤال آخر: هل لديك بالفعل الحقوق القانونية لامتلاك هذه المقتنيات؟»

- «لقد قمت بإبرام عقد شراء» كان (كريس) يدرك إلى أين تريد أن تصل. ففي حال حدوث أي مشكلة، فإنها ستقوم بالانسحاب، ولعب دور الحمل البريء.

- «ولم تلطخ يديك بالدماء؟»

ضحك (كريس) مقهقهاً، «ألم تكوني معي منذ قليل... هل نسيتي؟ لقد قمت بالدفاع عن نفسي فحسب. وبما أننا نتحدث حول هذا الموضوع، فكيف يبدو الأمر بالنسبة لك؟»

- «هل فقدت عقلك؟»

- «وماذا عن لفتتك للأعمال الخيرية؟» سألها.

ترددت قليلاً، «جمعيتنا لا تملك الكثير من الموارد كما نتمنى. ولهذا فإن (برانداو) سيقوم بدفع المال لشراء المقتنيات التي عرضها علينا (فورستر). ستبقى تلك اللُقى الأثرية مُلكاً له، إلا أنها ستُعرض في المتحف بصفة إعارة مستمرة».

- «هذا أمر جيد، أن تجدوا مهتماً جديداً للتحف الأثرية. هل هو (سيمون) آخر؟»

- «إنك لا تدرك كيف تسير الأمور في هذه الأيام. بالرغم من دعم الأشخاص والشركات لنا، إلا أن هذا لا يكفي أبداً. هل تعلم تكلفة الحفاظ على الثقافات؟»

- «الآن فهمت من أين أتيت بالمال بهذه السرعة. كنت متشككاً في البداية. ومن هو ذاك الشخص؟»

- «إنه ناشر. والرجل قريب من الكنيسة».

«آهـا، إذاً فـإن (برانـداو) يقـوم بـدور الحمايـة. فهمـت الآن». تبـسم (كريس) برضاً.

- «الرجل مهتم بشكل خاص باللُقى الأثرية الخاصة بالشرق الأدنـى. وهو يقوم بدعمنا، كما أنه يدعم (اللوفر) والمتحف البريطاني. إنـه مهووس بكل ما هو جديد من اللُقى الأثرية ونتائج الأبحاث».

- «هل مازلتم تقومون بالتنقيب؟»

- «بالطبع. حالياً، الأمـر علـى درجـة مـن الخطورة، إلا أن التنقيبـات استمرت لقرون مضت، بمراحل متقطعة بعض الشيء».

- «ولماذا كل هذا الاهتمام الذي يبديه هذا الرجل بنتائج التنقيبات؟»

- «إنـه شـديد التدين. ويقـوم بنـشر مطبوعـات كنسية، وهـو حـسب علمي، عضو في إحدى الجمعيات الدينية».

- «هل يمكن أن يكون هو وراء عملية السطو؟»

- «لديك أفكار غريبة»، -هـزت (رامونا سولنر) رأسها باستنكار- «لا يمكن أن يدفع الرجل تلك الأموال، ثم يقوم بالسطو علينا».

حـرك (كـريس) الـسيارة مخرجاً إياهـا مـن مكـان وقوفها، لقـد مـرت ساعة على انتظارهما هنا.

- «سـأريكِ الآن كـل الألـواح. علينـا التوجـه إلى ضـاحية (فيلمرزدورف)».

فجـأة دبـت الحيـاة في الـشوارع، تجمُعـات مـن النـاس في كل المقـاهي والحانات للاستمتاع بتلك الليلة الدافئة.

- «ما كُل تلك الحشود» قال (كريس) متذمراً.

- «شـارع (أورانـين بـورغ). هنـاك عنـد التقـاطع عليـك أن تتجـه إلى اليمين، ثم إلى اليسار، هذه هي الطريق الأنسب».

- «وأين سنصل بعد ذلك؟»

- «إلى (بابل) الجديدة في هذه المدينة».

قاد السيارة حَسب إرشاداتها.

- «هل قمت بدراسة تلك الأجزاء من النصوص بشكل جيد؟»

- «بالطبع»، قالت (رامونا سولنر) وحدقت بـ (كريس) بنظرات مشوشة.

- «إذاً هل يمكنك أن تخبريني شيئاً حول العظام؟ ماذا يوجد عنها في النصوص؟»

ضحكت البروفسورة بسخرية.

- «عظام؟ ليس لدي علم بأي عظام. إنني أسمع بها الآن للمرة الأولى».

- «ربما يوجد شيء حول تلك العظام في النص المترجم؟»

استغرقت في التفكير مدة طويلة.

- «صحيح... لقد أخبر نبوخذ نصر في ألواحه -هذا في حال كان محتوى الوثائق المصورة حقيقي- أنه قام باحتلال (كيش)، ونقل إلى (بابل) كل المحتويات المقدسة التي كانت موجودة في معبد (نينورتا) في (كيش). لقد أعاد توحيد المملكة، وأخذ معه عظام الراعي لمعبد (ننيورتا)».

- «ومن هو (نينورتا)؟»

انتفض (كريس) وأطلق بوق السيارة بجنون حين تجاوزته إحدى السيارات المسرعة في شارع (شاوسيه) الضيق والممتلئ بالحفريات.

انتظرت (رامونا سولنر) إلى أن أنهى (كريس) لعناته.

ثم تابعت الإجابة «كان (نينورتا) إله المدينة في (كيش) كما كان (مردوخ) إله المدينة في (بابل). كان عالم الآلهة آنذاك واسع جداً وكثير التنوع. كان لكل شيء آلهة خاصة. وبعض الآلهة كانت تجمع الكثير في آن معاً. ففي عالم الآلهة الخاص بالحضارة السومرية، يعتبر (نينورتا) إلهاً

للمدينة، وإلهاً للحرب، وإلهاً للتكاثر، وإلهاً للنباتات، هو أيضاً ابن إله الرياح وابن (إنليل)، مستشار الآلهة. وتقول مصادر أخرى أن (زبابا)، إله (كيش)، قد تجلى بداخله. وحسب ما ذُكر في أحد الألواح، فإن (نينورتا) قام بنقل المملكة إلى (كيش) بعد حدوث الطوفان الأكبر».

- «ومن كان راعي المعبد الذي أخبر عنه نبوخذ نصر؟»

- «ربما كان أحد الملوك. لقد ورد ذكر أحدهم بذلك اللقب، ويعتقد أنه كان أول من وحد المملكة السومرية. وقد يكون مجرد كاهن في المعبد. فهذا اللقب ما يزال ليومنا هذا مرادفاً للشخص الذي يحمي الرعية ولو بالمعنى المجازي.

فكان الراعي يعتبر في الأزمنة السالفة منصباً مرموقاً ومهماً. وقد وصلت إلينا الكثير من الصور الشعرية المرتبطة بهذا المصطلح. الرعاة يعيشون حياة البداوة، يرافقون قطعانهم، وغالباً ما يكون ذلك بعيداً عن المناطق المأهولة، وفي المراعي قليلة الخضرة وهم مسؤولون عن الحفاظ على القطيع» ثم صمتت.

- «أكملي حديثك. فأنا أُنصت إليك».

- «ومن كل هذه الأسباب تأتي أهمية تلك الألواح. فلم تتوفر حتى الآن أي نصوص تعود إلى العهود التي تلت الطوفان الأكبر بشكل مباشر. فمن الواضح أن كُل المخطوطات المعروفة اليوم تم تدوينها في عهود متأخرة جداً، إنها تعود إلى زمن (أوروك). وما زال الكثير يختفي في الظلام».

- «هل تعتقدين أن لتلك العظام أي قيمة؟ سواء كانت تعود لأحد الملوك أو لذلك الإله... (نينورتا)؟»

ضحكت (رامونا سولنر) بصوت عالٍ.

- «ذات قيمة؟ ماذا تعني بهذا؟ أتعلم أن كل تلك العظام التي عُثر عليها أثناء عمليات التنقيب في مدينة (خرسباد) ومدينة (سوزا) و(بابل) أو

(أورك) يتم طلبها وتمويلها اليوم. في كل مقبرة تم اكتشافها يوجد أكوام منها . وكل عظمة يتم العثور عليها تعتبر ذات قيمة. خصوصاً بالنسبة لهواة جمع اللقى الأثرية. فهناك من يعتقد وجود قوة سحرية في تلك العظام. وعندها يجب على المرء أن يعتقد بذلك بشكل قاطع» ضحكت مجدداً. «ومن الأولى أن تكون عظام الآلهة ذات قيمة أكبر. فهي نادرة جداً».

- «ولا بد أن تكون الكنيسة الكاثوليكية خير مثال على ذلك...»

- «تماماً» نظرت إلى (كريس) مازحة «فالكنيسة الكاثوليكية مليئة بالكثير من تلك اللقى الأثرية، وأظافر القديسين، ومسامير الصلب، وقصاصات صوفية من أثواب الرهبان، ونشرات خشبية يعتقدون أنها من صليب المسيح. وأنا أرى أنها شكل من أشكال العبادات الوثنية».

- «لحسن الحظ أن قسيسك ليس معنا الآن» تبسم (كريس) «إذاً فأنت تعنين...»

- «أنا لا أعني شيئاً. إن كان هناك عظام فسنقوم بتحديد عمرها. ثم يمكننا أن نعرضها ونقول، أنها قد تعود إلى أحد الملوك أو أحد الآلهة السومرية. وإن قمت بزيارة متحف الشرق الأدنى، فسوف ترى، أننا اليوم تمكنا من عرض مقبرة بأكملها».

صمتت حين لاح على يسارهما تحت ضوء الأشعة المحمرة لشمس الغروب ذلك المبنى الضخم. وقد امتد السقف الزجاجي ذو الثلاث مئة متر الخاص بمحطة قطارات (برلين) من الشرق إلى الغرب. تكسرت أشعة الشمس على عشرة آلاف وحدة من الألواح الزجاجية المقطعة بعناية.

«انظر إلى هذا» قالت (رامونا سولنر)، وأشارت إلى أربعة من الحاملات الحديدية كل منها بارتفاع يزيد عن سبعة أمتار. «إنها بابل خاصتنا. تلك هي الأبنية البرجية. الحاملين الحديديين يمسكان ببرجي المكاتب، التي سيتم بناؤها فيما بعد بشكل عمودي كهيكل من الحديد

والخرسان المسلح، ثم يتم إنزاله كجسر متحرك على نفق القطار. ويبلغ قطر الحبل الحديدي نحو ثلاثين سنتيمتراً. ألم تأتي إلى هنا من قبل! أمر لا يصدق».

- «بذخ وتبذير للأموال، هذا ما تعنيه».

- «مليارات. فوحدها عملية بناء المحطة كلفت سبع مئة مليون يورو، والمفترض أنها كانت ستكلف مئتين وخمسين مليون يورو فقط».

ألقى (كريس) نظرة سريعة على ورشة البناء، التي أطل منها برجا المكاتب، اللذان سيخترقان لاحقاً السقف الزجاجي.

- «عند التقاطع القادم إلى جهة اليسار نصل إلى منطقة الحكومة وحديقة الحيوان. ثم نتابع الطريق إلى ضاحية (فيلمرزدورف)» قالت فقاد السيارة متجهاً إلى خط الالتفاف.

مرت سيارة فورد مونديو مسرعة إلى جانبهما الأيمن مصدرة صوتاً عالياً من محركها. زادت السيارة من سرعتها والتفت بشكل مفاجئ بكل قوتها.

تلقى (كريس) ضربة قوية في ظهره وارتمى إلى الأمام. أمسك حزام الأمان بالنصف العلوي من جسده وجرّه إلى الخلف. ضغطت (رامونا سولنر) يديها على تابلوه السيارة وصرخت مذهولة.

سارعت المونديو باتجاههما مجدداً مسددة ضربتها التالية من الخلف. في المرآة الخلفية رأى (كريس) القضبان اللامعة المثبتة على مقدمة سيارة الدفع الرباعي.

داس بقوة على دواسة الوقود، وأدار عجلة القيادة إلى أقصى اليسار منطلقاً بسيارته في الاتجاه المعاكس للسير. مرت السيارتان بشكل مائل إلى جانب بعضهما البعض، ثم ارتطمت سيارة المونديو بجانبها عند المقعد الخلفي بسيارة المرسيدس المكشوفة. وفي الوقت نفسه تم صدم السيارة من

الأمام. بينما قامت شاحنة صغيرة بكشط مقدمة سيارة المرسيدس من الأمام.

ومرة أخرى صدمت سيارة الدفع الرباعي الموجودة خلفهما سيارتهما المكشوفة. وبعد أجزاء من الثانية اقتربت الشاحنة الصغيرة المحملة بكومة من الرمال لتصبح إلى جانب سيارة الدفع الرباعي عند صندوق سيارتهما الخلفي.

- «فلنخرج من هنا! هيا — بسرعة!».

دفع (كريس) الباب، وقفز إلى الخارج جاثماً على الأرض وسحب مسدس الكورث من حزامه. ثم جر حقيبة الظهر مخرجاً إياها من تحت مقعد السائق. نظرت البروفسورة إلى المقعد الخلفي، حيث كانت سترتها ملقاة هناك، ترددت قليلاً، تذمرت ثم انزلقت من على مقعد مرافق السائق إلى مقعد السائق. أمسكها (كريس) من كتفها وجرّها إلى الشارع.

- «انتبه!» صاحت بينما كانت عيناها تتابع فوهة سلاح (كريس) التي كانت تتراقص أمامها.

ألقى (كريس) بالحقيبة على كتفه، قفز من مكانه ودار حول الجزء الخلفي من الشاحنة الصغيرة. من جهة اليسار انطلقت صيحات رجال وصرير فرامل، وتردد دوي جاف لصوت الاصطدامات المتتالية.

قفز (كريس) على مقدمة إحدى السيارات، وحط في الجهة الأخرى على الطريق المعبد بالإسفلت.

- «انتظر من فضلك!»

كانت العاملة خلفه قد تسلقت هي أيضاً غطاء محرك السيارة، وانزلقت بتنورتها بشكل مؤلم إلى الأرض. ثم نادته مجدداً.

- «أسرعي! أسرعي!» صاح (كريس).

ركضا عابرين الشارع، ووصلا إلى ممر المشاة، الذي كان محاطاً

بسياج من الأسلاك الحديدية، تكدست خلفه حاويات سكنية لعمال البناء.

أسرعا معاً بينما كانت نظرات (كريس) تتفحص الشارع محاولاً البحث عن خطر محتمل قادم من بين سيل السيارات. من أين أتى كل هؤلاء الملاحقين؟ أي غلطة تلك التي قام بارتكابها؟

جعلته صيحات (رامونا سولنر) ينظر جانباً. لم تعد إلى جانبه...

تردد صدى صوتها مجدداً، فنظر إلى الخلف. لقد تعثرت ووقعت على الأرض على بعد نحو خمس عشرة خطوة منه.

وإلى جانبها توقف أول المطاردين. كان شعر الرجل غامقاً وأشعثاً، ووجهه يشبه النسر، وقد تدلت أكياس دمعية سميكة تحت عينيه.

رفع المُلاحق سلاحه بيده اليمنى. ثم التفت يده اليسرى حول شعر العالِمة الطويل.

الفصل الخامس والعشرون

مدينة (برلين)

مساء الجمعة

استمر الرجل بجر شعرها بحيث أرجع رأسها إلى الوراء فتقوس الجزء العلوي من جسدها إلى الخلف.

- «ألقِ سلاحك وتعال إلى هنا!».

عشر خطوات تلك التي كانت تفصل بينهم.

- «لا تحاول أن تلعب معي تلك اللعبة. فهي بالتأكيد واحدة منكم!» قال (كريس) ولم يتحرك من مكانه.

- «تقدم إلى هنا وإلا أرديتها قتيلة! هيا! ارمي سلاحك!».

لا تلقِ سلاحك أبداً، ارفع يديك إلى الأعلى، ولكن لا تتخلى عن سلاحك! فكر (كريس).

بحركة بطيئة للغاية، وضع (كريس) قدمه اليمنى إلى الأمام وأرجع اليسرى إلى الخلف. سحب القاتل شعر العالمة بقوة أكثر، فجثمت على ركبتيها وتشبثت يداها بذراع جلادها.

- «ألقِ سلاحك!».

هز (كريس) رأسه رافضاً، ومرة أخرى تقدم خطوة بطيئة إلى الأمام.

تعالت الصيحات المذعورة من جهة الشارع المكتظ بالسيارات. إنهم يلعبون مسرحية القتل خاصتهم على مسرح مكشوف.

بشكل بسيط أدار الرجل رأسه جانباً، ونظر بطرف عينه باتجاه موقع الحادث، حيث كان بقية الملاحقين عالقين بين أرتال السيارات.

كانت مجرد ثوانٍ تلك التي مضت، إلا أن ذاكرة (كريس) قامت بحفظها، كأنها بلا نهاية.

مجدداً تقدم خطوة إلى الأمام، ثم توقف وانتظر. توقف الزمن. كان هناك دائماً ما يصرف انتباهه. ستحين الفرصة. وإلى ذلك الوقت لابد أن يحتمل، وأن يحالفه الحظ.

جلجل أزيز طلقة من بين أرتال السيارات، فنظر القاتل بطريقة عشوائية إلى الخلف. بحركة عفوية سقطت يد (كريس) اليمنى، التي تحمل مسدس الكورث، إلى الأسفل. بحركة انسيابية توجهت فوهة السلاح نحو الهدف. وفي اللحظة نفسها ضغط بإصبعه على الزناد فارتجت فوهة السلاح إلى الأعلى بفعل الحركة المرتدة للطلقة. اخترقت الرصاصة الجهة اليسرى لرأس القاتل تماماً فوق الأذن. فتحول السلاح بعيداً عن عنق العالمة باتجاه (كريس). ارتطمت الطلقة بالإسفلت فتناثرت الشظايا، ثم هوى القاتل أرضاً بينما كانت يداه ما تزالان متشبثتين بشعر العالمة. انهارت العالمة وسقطت على الطريق المعبد إلى جانب جلادها. داس (كريس) بقدمه اليسرى على معصم القاتل ثم قام بانتزاع السلاح من يده، ورمى بها جانباً. ثم حل الأصابع المتعلقة بشعر (رامونا سولنر)، وسحبها من معصمها لمساعدتها على الوقوف.

كانت خفيفة كالريشة كأن لا وزن لها. تبعته لاهثة، وبخطوات متعثرة.

- «هيا تعالي! استمري! تابعي!».

- «لم أعد أستطيع الاستمرار». ثم سقطت على الأرض. توقف (كريس) وعاد لإنهاضها. صاحت وبدأت بشتمه. سارع معها إلى زاوية الشارع التالية، ثم انعطف إلى اليسار. حجبت الأسوار المعدنية العالية المخرج المفترض أن يكون للنفق الشمالي الجنوبي الواقع في الحي الحكومي.

أفسحوا الطريق، فكر (كريس). ابتعدوا عن الطريق الرئيس!

وفجأة ظهر مخرج إلى جهة اليسار، يحده سور يحيط بسكن للعمال وأحد المنازل. عدا (كريس) على الطريق المعبد بالحجارة المربعة. أفسحوا الطريق فحسب!

كان المخرج يمتد مسافة مئتي متر وينتهي عند أحد المنازل.

- «مكتب تخطيط...» قرأ (كريس). ركضا على طريق ضيق يمر أمام المنزل، وتوقفا فجأة أمام أرض رملية واسعة، برز منها جدار إسمنتي ذو ارتفاع متوسط.

لا يوجد أي ساتر! وكذلك لا يمكنهما العودة من حيث أتيا.

تدحرجت سيارة داكنة اللون على الدرب الذي كان يمتد خلفهما.

- «ما هذا؟» صاح (كريس).

- «لا أعرف... ربما...»

خَمّن ما يحدث. لا يمكن أن يكون مخطئاً.

كانت قدماه تغوصان في الرمال الناعمة حتى الكاحلين.

كانوا على بعد نحو ثلاثين متراً منه ومن العالمة، ومازالوا يقتربون منهما أكثر. طنت رصاصتان بجانب رأسه كأنهما زوج من الدبابير.

وأخيراً استطاعا الوصول إلى الجدار الإسمنتي، فحدق (كريس) في الحفرة الضخمة. تحته كانت ثماني سكك حديدية قادمة من الشمال تمتد إلى داخل محطة (برلين) للقطارات.

اندفعا نزولاً على السلالم الإسمنتية الضيقة التي تقود إلى السكك

الحديدية، ثم أسرعا نحو اليسار. أمامهما امتدت تلك السكك الحديدية إلى داخل نفق نصف دائري يشبه فم سمكة القرش.

- «لا أستطيع المتابعة!» قالت (رامونا سولنر) بينما توقفت على السكة الحديدية تحدق لاهثة في تلك الفُتحة العظيمة. فالركض على الرمال أنهك قواها بالكامل.

- «هيا! تحركي! هيا!».

على بعد بضعة سنتمترات تطاير الشرر، عندما أصابت رصاصة حديد السكة التي إلى جوارها ثم ارتدت مصدرة أزيزاً مزعجاً.

ومجدداً سدد القناص المتموضع على الجدار الإسمنتي في الأعلى، طلقته التالية. اندفعا داخل النفق وقفزا من على القضبان إلى منصة انتظار القطارات.

بعد بضعة أمتار تغيرت الصورة. فبدلاً من الأرض المرصوفة بالرخام الذي تم إحضاره من المحاجر الصينية، وجدا نفسيهما يركضان على أرض إسمنتية عارية. كانت نصف الجدران فقط هي المغطاة بالبلاط. وإلى جانبهما ارتفعت سقالات البناء بألواحها الخشبية الضيقة إلى ما يقرب من السقف.

وعلى الرغم من خلو المكان من البشر، إلا أن ضوضاء البناء القادمة من بعيد كانت تجلجل في الأرجاء. ففي هذا الكهف العملاق كانت أعمال البناء مستمرة على مدار الساعة. فتسعة سنوات هي المدة المحددة لإنهاء هذا النصب النموذجي للعمارة الحديثة.

بدا ضجيج معدات البناء آتياً من كل صوب. ترددت أصوات ضربات المطارق في كل الأرجاء، وتعالى أزيز المناشير الكهربائية، بينما وصلت كلمات التذمر والشتائم الصادرة من المناطق النصف معتمة إلى مسامعهما. ثم ما لبث أن اختلط صخب أعمال البناء بالأغاني. خُيّل لـ

(كريس) أنه في كنيسة؛ فقد وفر ذلك المبنى الخالي إمكانية كبيرة لتردد صدى الأصوات.

صعدا إلى الطابق التالي مستخدمين سلماً إسمنتياً آخر. نظر (كريس) إلى أسفل السلم.

في الطابق السفلي المعتم استطاع بالكاد سماع تحركات الملاحق الأول. فجأة صرخت (رامونا سولنر)، وهوت منهارة على الأرض.

ألقى (كريس) نفسه إلى جانبها على الأرض الإسمنتية، بحيث أصبح رأسه عند قدميها. فرأى الكدمة الدامية على ساقها. كانت الطلقة قد مزقت الجلد واللحم. لم يسمع صوت الرصاصة! كاتم للصوت، فكر (كريس).

- «لقد تمت إصابتي!» لهثت، بينما كانت الدموع تملأ عينيها.

- «إنها مجرد إصابة سطحية! ليس بالأمر السيئ جداً. فلنتابع!».

إلا أنها بقيت على الأرض الإسمنتية ذات اللون الرمادي الفاتح دون أي حركة.

- «لا يمكننا البقاء هنا!». حدق (كريس) إلى أسفل السلم.

صعد الملاحق على الدرجة الأولى للسلم محاولاً الخروج من العتمة التي كان يحتمي بها، بتردد.

- «نعم، أيها الوغد». دمدم (كريس) ورفع يده مستعداً لإطلاق النار. قفز الرجل إلى الوراء واختفى خلف سهم إسمنتي ضخم. «نحن هنا بلا أي ساتر».

سمعا صوت الزجاج المسحوق تحت خطوات جزمة ثقيلة. خلفهما كان حشد من عمال البناء ينزلون السلالم ضاحكين، صمتوا لوهلة، ثم تحاوروا فيما بينهم بطريقة مرتبكة.

دسّ (كريس) سلاحه في حزام بنطاله بعجالة. تحلق عمال البناء

على شكل دائرة وكانوا يتحدثون بإشارات عنيفة. كانت رائحة الإسمنت والبارود تفوح. إسبان؟ برتغاليون؟ سارع (كريس) للدخول بين ثلة الرجال ساحباً العالمة إلى الأعلى.

- «لقد تعثرت»، قال (كريس) مشيراً إلى الكدمة الدامية على ساقها.

- «أنا أجمع الأخبار للجرائد! أنا مراسل!» قال (كريس) مبتسماً بارتباك وبلغة إنجليزية أثناء مروره بين الرجال، الذين كانوا يتحدثون بشيء من عدم اليقين. أحس بأيدٍ على كتفيه، أرادت إيقافه.

- «أنا أبحث عن قصة جيدة!» قال باللغة الإنجليزية مجدداً ثم اندفع إلى الأمام جاراً العالمة معه خارج تلك الدائرة البشرية. دمدم أحد عمال البناء بكلمات غير مفهومة ثم هبط السلم إلى الأسفل. انفض تجمع الرجال وأسرع (كريس) بصحبة العالمة إلى صعود السلالم. فجأة تصاعدت الصيحات مجدداً من الطابق السفلي، حيث وجد عمال البناء ذلك الملاحق.

وصلا إلى الطابق التالي حيث كانت القاعة جرداء وخاوية من أي ساتر. كانت سقالات البناء ترتفع عالياً من منطقة القضبان الحديدية في الأسفل إلى حدود السقف الممتد فوق رأسيهما، وكانت تلك السقالات ملفوفة بأغطية بلاستيكية زاهية اللون.

- «هيا فلنستمر بالصعود!» ركض (كريس) عابراً المستوى الفاصل بين الطابقين واتجه نحو السلم التالي. بينما تراجعت (رامونا سولنر) مترنحة إلى الخلف.

أثناء ذلك نظر (كريس) من فوق كتفه إلى الوراء. كان اثنان من الملاحقين قد صعدا السلم بسرعة وأصبحا خلفهما على المستوى الفاصل بين الطابقين. كان أحدهما يربط جبينه بربطة قماشية تمنع شعره الأشقر الطويل من النزول على وجهه، بينما كانت تسريحة شعر الآخر، الأشبه بشعيرات الفرشاة، تزيد من إبراز وجهه البيضوي الشكل.

كانت (رامونا سولنر) تركض بشكل منحنٍ، كأنها كوكب يغادر مداره.

نظر (كريس) إليها متعجباً. لماذا... اللعنة!

بقعة صغيرة كأنها الشامة زينت قميصها الفاتح اللون تماماً بين لوحي كتفيها. بدأت تلك البقعة بالاتساع والنمو بشكل سريع. ثم فجأة بقعة أخرى تموضعت إلى اليمين أسفل الأولى. فقدت السيطرة على جسدها، وحلقت ذراعيها متباعدين عن بعضهما البعض.

بشعور مليء بالعجز غرس أظافر يده اليسرى في حزام الحقيبة المعلقة على كتفه.

هوت متعثرة إلى الأمام، داست في فراغ مسار القضبان الحديدية، ثم ارتطمت بسقالات البناء المغلفة بالأغطية البلاستيكية.

لم تقم أصابعها حتى بمحاولة التمسك بالغطاء البلاستيكي. سقطت داخل الغطاء الذي عاد فنبذها خارجاً، كأنه لعبة ترمبولين عموديه، فهوت إلى الأعماق.



- «لقد أصبحنا قريبين جداً. سنتمكن منه قريباً». اخترق الصوت الرصين لـ (كولن غلاسر) جهاز اللاسلكي.

تنفس جستن باري الصُعداء. لا يمكن أن تنتهي العملية بالفشل هذه المرة أيضاً. فهو يجلس حتى الآن على كومة من الجثث، ذلك إن أراد إدخال ما حدث على الطريق السريع في الحسبان.

لا يهم. ما يهم الآن هي التحف الأثرية فحسب. لقد قام باري

بإحضار الفريق، الذي قام بالسطو على سيارة (فورستر) التي كانت متجهة إلى متحف اللوفر، معه إلى (برلين). وذلك لاعتقاده أن تلك التحف لابد أن تصل إلى (برلين). وكان محقاً في ذلك. فاتصال (ريتسي) بـ (رامونا سولنر) أعاده إلى اللعبة مجدداً. حيث قام (براندواو) بإيصال المعلومات على الفور، بينما كان (مارفن) ينتظر سماع أخبار النجاح.

إلا أنهم كادوا أن يخفقوا مجدداً، حين أضاعوا ذلك الوغد عند مرآب السيارات ثم عادوا ليجدوه بعد عملية طويلة من البحث. فقد توقفت شريحة المتابعة مدة زمنية طويلة عن إرسال أي إشارة. بالرغم من أنها كانت على درجة عالية من التقنية الحديثة. لابد أن (براندواو) قد ارتكب خطأً ما عندما قام بدسها لذلك الوغد أثناء وجودهم في المطعم. فقد كان القس متوتراً جداً.

وقف (باري) بسيارته أمام مدخل المبنى الذي كُتب عليه «مكتب تخطيط». وكان بهذا بعيداً بشكل مناسب عن تلك الفوضى التي عمّت الشارع. وبالرغم من وصول سيارات الشرطة إلى موقع الحادث، إلا أن رجاله كانوا قد اختفوا في الوقت المناسب.

قفز (باري) خارجاً من سيارته «سندخل الآن إلى هناك وسننال منه».



رآها (كريس) تسقط في الهوة.

كان الملاحقون على بعد عشرين خطوة خلفه. أسرع القاتل ذو العصبة السوداء إلى مكان سقوط البروفسورة، بينما وقف الآخر في القاعة

بـرجلين متباعـدتين وسـاعدين ممـدودين، وقـد تـشبكت كلتـا يديـه حـول مسدسه استعداداً للطلقة الأخيرة.

أثناء سيره كان (كريس) قد سحب سلاحه من حـزام البنطـال، وألقـى نفسه علـى الأرض بـشكل مائـل. ارتطـم بـالأرض، تـدحرج حـول نفـسه ثـم ضغط على زناد مسدس الكورث. تردد صدى الطلقة في أرجاء القاعة.

انقلب الرجل ذو الرأس البيضوي إلى الخلف، بينمـا اسـتمر بالـضغط على زناد سلاحه. وبالرغم من تلاحق الأعيرة النارية إلا أنه لم يُسمع لها أي صوت. فقد ابتلع كاتم الصوت ضجيج الطلقات.

سمـع الأشـقر صـوت طلقـة (كـريس) فحـول نظـره مـن الفجـوة. رأى زميله يهوي فركض باتجاهه.

أسرع (كريس) بالـصعود علـى الـسلالم. في الطـابق التـالي، علـى بعـد عشرين خطوة منه، كان هناك أحد العمال الذي يدفع أمامه عربة ويمـر بهـا عبر متاهة.

كانـت مـواد البنـاء مكومـة في كـل مكـان علـى الأرض. ألـواح خـشبية، تجهيزات التغليف، صـفائح الـراتنج، وأكـوام الحجـارة والأنقـاض، تكدس كل شـيء فـوق بعـضه الـبعض وبارتفاعـات متباينـة، فمنـها مـا كـان بطـول رجـل وآخر بارتفاع يصل إلى الركبة. كانت عجلات العربة تصدر صريراً عند كل منعطف.

كان العامل يضع في أذنيه سـدادات مانعـة للـضوضاء، ثـم توقـف علـى الجانـب الآخـر مـن أكـوام الأنقـاض عنـد شـباك مربعـة الـشكل، وضـع في وسـطها حاويـة معدنيـة. كـان المكان المقابل للحاويـة ممتلئاً بالـدلاء، أكيـاس الجص، وبقايا خشبية وأحجار. وإلى جانبها اصطفت مجموعة مـن العبـوات البلاستيكية الزرقاء.

أخرج العامل مفتاحاً من جيبه، وفتح القفل المعلق علـى بـاب الـشباك

المعدنية. ثم أزاح شبكتان عن بعضهما ودفع العربة إلى داخل المربع ووضع بها أربع عبوات بلاستيكية. تجول (كريس) بين تلك الأكوام من مواد البناء باتجاه الرجل، كان هدفه الوصول إلى السلالم المؤدية إلى الطابق التالي، الواقعة إلى يسار الشباك المربعة.

كان هناك ممر عريض على يمين القفص الشبكي يقود إلى قاعة أخرى واسعة وخاوية. في منتصف الممر كان هناك حاجز مكون من طبقات من أكياس الإسمنت بعرض مترين، وبارتفاع يصل إلى الورك، وعنده تنتهي منطقة الركام.

جرّ العامل العربة خارج القفص المعدني، أغلق الشباك مجدداً ثم قام بتأمين المكان بوضع القفل الخارجي.

فجأة وقف رجلان في الممر. كان أحدهما أعسر وله آثار ندبة شوهت وجهه تحت عينه اليسرى. بينما ارتدى الآخر قبعة لاعبي البيسبول، وقد أدار مظلتها إلى الوراء فبرزت من خلف رقبته.

أطلق الرجل ذو القبعة ضحكة عالية ومتذمرة. علا العبوس وجه الأعسر فظهرت آلاف التجاعيد، التي بدت كأنها ثلمات أمام ضحيته. وتدلت أسلحتهما المزودة بكواتم الصوت، كأنها العصي حتى وصلت إلى ركبهما.

ألقى (كريس) نفسه خلف كومة من الحجارة. سمع صوت خطوات قادمة من الخلف. تقدم الرجل الأشقر ذو العَصبة الذي أطلق الرصاص على (رامونا سولنر).

لقد وقعت في الفخ! فكر (كريس). تطايرت شظايا الحجار على وجهه. انطلق الرصاص من الجهتين فمر من أمامه، ومن فوقه ليستقر في كومة الحجارة. تابع (كريس) الزحف ثم نهض، وركض باتجاه العمال.

جحظت عينا الرجل، الذي كان يدفع العربة فارتطم بكومة الحجارة.

انقلبت العربة وتدحرجت العبوات التي كانت بداخلها على الأرض الإسمنتية. بينما هرب العامل بإتجاه الدرج.

بينما كان (كريس) يتنقل بين أكوام الركام، كانت حقيبة الظهر التي يحملها تنزلق من على كتفه بفعل الحركة السريعة. ثم وصل إلى كومة الحجارة الأخيرة التي انقلبت العربة بجانبها.

بدا أمامه الطريق المكشوف المؤدي إلى الدرج، الذي اختفى العامل لتوه من على نهايته العلوية.

عوت الرصاصات فوق رأسه.

لا يوجد ساتر! إنها النهاية!



بدا كأن حمامات الأدرينالين لا تنتهي، بينما كانت أفكار (كريس) تدور بسرعة، كأنها قطار الرعب. تخيل نفسه يزحف بين أكوام الركام ويطلق النار من مسدسه عند خروجه من خلف السواتر.

بدّل مخزن الرصاص.

- «هيا استسلم يا (ريتسي)! إننا لا نريد قتلك! نحن نحتاج لحقيبة الظهر خاصتك فحسب! هل نعقد صفقة؟ ماذا رأيك بهذا؟!»

كان الصوت الآتي من الجهة اليسرى تقريباً، واضحاً ومتوتراً. خمّن (كريس) أن يكون صادراً من الرجل الذي يرتدي قبعة البيسبول. الذي ترددت ضحكته المنفرة في أرجاء المكان. كانت لهجته واضحة وخالية من الأخطاء تقريباً، إلا أن الاستراحات التي كانت تفصل بين كلماته فضحت أصوله الأجنبية، كأنه كان يبحث عن التعبير المناسب التالي.

زحف حول العربة على الجانب الآخر من كومة الركام، رفع رأسه ونظر باتجاه حزمة الألواح الخشبية، التي كان الأشقر يختفي وراءها.

- «لا يمكنك الخروج من هنا! أنت تعلم جيداً أنه لا يوجد ما يؤمن ظهرك!» تردد الصوت الواضح والساخر في أرجاء المكان.

خرج الأشقر من خلف الساتر.

- «إنها مجرد خدعة» تمتم (كريس)، ثم قفز عالياً بينما قام بسحب زناد مسدس الكورث خاصته مرتين.

أسرع الأشقر بالاختباء خلف الساتر مجدداً.

تمدد (كريس) على بطنه وبدأ بالزحف بعيداً عن تلة الحجارة باتجاه كومة الركام. انطلق الرصاص فارتطم بالمكان الذي كان جاثماً به لتوه.

زحف على كوعيه فبدا كأنه سحلية (غالاباغوس) تسير على أرجلها القصيرة.

أسرع بإلقاء نفسه جانباً ثم تنفس الصعداء. لقد كانت الكومة التي اختبأ خلفها، عالية وتمنحه الحماية المطلوبة. لكنهم إن تمكنوا من العثور عليه هنا فسينتهي الأمر. فلا يمكن لصفائح الراتنج أن تحميه من طلقات الرصاص.

- «إنها فرصتك الأخيرة يا (ريتسي)، هيا أخرج!».

بدا الصوت متردداً، بل غير واثق. وأقرب من ذي قبل!.

«إنهم لا يعلمون مكان وجودك»، فكر (كريس). إلا أنهم يقتربون.

تدحرج شيء ما على الأرض. ثم سمع لعنة.

تابع (كريس) الزحف. فما زال أمامه جبلين من الركام، بعدها يأتي ذلك الممر الضيق بعرض متر تقريباً، ثم ساحة من الخشب يبدو أنها بُنيت بشكل مؤقت، بينما بانت خلفها هوة القضبان الحديدية المحاطة بالسقالات.

سمع نقراً على شيء معدني. ثلاث مرات. ثم لثلاث مرات أخرى سمع صوتاً جافاً لسحب سريع لمسارات حديدية. مخازن سلاح جديدة، فكر (كريس). سيطلقون الحد الأقصى من النيران. إنهم قادمون!

إتكأ على يديه ورفع نفسه إلى الأعلى في وضع القرفصاء، ثم أطل من فوق كومة الحجارة. على بعد عشر خطوات وقف الأشقر بشكل منحنٍ، بينما كان يعطي إشارات بيده اليسرى. خفض (كريس) رأسه بسرعة إلى الأسفل.

لابد من وضع نهاية لكل هذا. قام بتقصير حزام الحقيبة، بحيث تلتصق الحقيبة بالظهر تماماً. دسّ مسدسه في حزام بنطاله، قفز، وعدا مسرعاً، بينما كان رأسه يدور في جميع الاتجاهات. انقض القتلة الثلاثة على كومة الحجارة، التي كانت تخفي عربة الدفع المقلوبة خلفها، دون أن يلحظوا أنه قام بتغيير موضعه.

أطلقوا النار!

عرف ذلك عندما رأى ارتجاج أسلحتهم بأيديهم بفعل القوة المرتدة للطلقات.

قفز (كريس).

لقد كان من شأن طريق (رامونا سولنر) إلى الموت أن ينقذ حياته.



عبر (كريس) الساحة الخشبية المؤقتة، ووثب باتجاه الأغطية البلاستيكية الملفوفة حول سقالات البناء.

انتفخ الغطاء لاستيعاب وزن جسمه، فطقطقت القضبان وارتجت

تحت وطأة الثقل. ارتطمت قصبة رجله اليمنى بإحدى الألواح الخشبية، وكاد الألم أن يفقده وعيه.

في تلك اللحظة اندلعت النيران. فقد أصابت الطلقة الأخيرة للأعسر إحدى عبوات الوقود الزرقاء.

وصل تمدد الغطاء إلى الحد الأقصى، وأصبح جسد (كريس) لأجزاء من الثانية، كأنه لاعب القفز الحر الذي وصل إلى أقصى تمدده، ثم قذفه الغطاء بقوة إلى الخارج فهوى إلى الأسفل.

من الخلف اكتسحت المكان موجة من الضغط دافعة أمامها شظايا من الحجارة والخشب.

اجتاح الانفجار القتلة فعصف بهم، كأنهم حبات من الرمل المتناثر.

تطاير الرصاص فوق (كريس) كعاصفة من حبات البرَد فتحطمت مواد البناء داخل الغلاف البلاستيكي، ومزقته إلى آلاف القطع.

عندما اقتربت موجة الضغط، كانت يده اليسرى ما تزال على حافة السطح الإسمنتي.

انغرس سرب من الأسهم الصغيرة في ظهر كفه كما اخترقت ذراعه اليسرى.

سقط إلى الأعماق مرتطماً بالقضبان والحواف الحديدية. تسببت تلك الصدمات بحدوث ضغط على أضلاعه كما أن إحدى الضربات التي أصابت كبده كادت تؤدي إلى دخوله في غيبوبة.

تخدرت يده اليسرى، وبسرعة سعى بيده اليمنى إلى التشبث بأي مكان. ارتطم رأسه بالحافة المعدنية المثبتة على أحد الألواح الخشبية. في الأعلى عصفت موجة الضغط الناجمة عن الانفجار وأدت إلى اهتزاز السطح الإسمنتي.

صدمة قوية أوقفت سقوطه وكادت تمزق عضلاته. في الأعلى كانت عاصفة من نثرات الحجارة والخشب تمر على السقف الإسمنتي المعلق.

أصبح الضغط المفاجئ على بطنه لا يحتمل.

كان معلقاً بارتفاع متوسط، بينما تدلى رأسه إلى الأسفل باتجاه القضبان الحديدية. فقد التف حزامه من الخلف حول جزء من أجزاء سقالات البناء. فضغط حزامه على أحد أوردة بطنه مما تسبب له بألم حاد كاد أن يفقده صوابه.

ومع أقل حركة يقوم بها، كان الألم اللاذع، الذي سرعان ما يتحول إلى الحارق، يجعله يصرخ.

بصورة مشوشة رأى (كريس) في الأسفل منصة صعود الركاب. لم يتمكن من تقدير الارتفاع. في حال سقوطه، فإن ذلك سيؤدي إلى تَهشم العظمة الأخيرة في جسده. أصدر أنيناً عميقاً عندما دفع بجسده إلى الخلف وتأرجح في الهواء ليمسك بيده اليمنى أحد الأعمدة ويقرب نفسه من سقالات البناء. حرك قدميه بقوة في الهواء، حتى وجدت قدمه اليمنى موطئاً على إحدى الحواف. شعر أن الضغط على بطنه قد بدأ بالاختفاء، فتلمس ظهره بيده اليسرى حتى تمكن من حل حزامه من على الخطاف الحديدي الذي كان عالقاً به. إلا أنه سقط مجدداً وارتطم على أحد الألواح، الذي كان يبرز من السقالات.

اشتم رائحة الإسمنت، ولم يتحرك.

كان هناك صوت داخلي يهمس له دائماً، أن عليه أن يتقدم. لكنه لم يقنعه، فكل حركة يقوم بها سترتبط بألم شديد.

- «علي أولاً أن أرتاح لاستجماع قواي» -أغمض أجفانه- «سأخلد للراحة مدة دقيقتين فحسب، ثم سأعاود المحاولة».

في لوحة ضبابية رأى الجسد الهاوي والوجه المهشم للبروفسورة، ثم

بدا الوجه المشؤوم لـ (برانداو) ذو النظارات الدائرية. ظهر وجه آخر. كان جاداً ومنزعجاً نوعاً ما.

انضمت أصوات إلى الصورة، كانت تعطي تعليمات عنيفة، بالرغم من أن كل شيء كان يبدو سلمياً.

شعر كأنه يطوف. ولمدة ثوانٍ لم يعد يحتمل الألم. صرخ، وتصبب العرق من كل مسامة في جسمه كأنه نافورة مياه صغيرة.

من وراء حجاب رأى (برانداو) عند حقيبة الظهر خاصته. حيث قام (برانداو) بفتح القفل المثبت على علبة البلاستيك الصلبة، ثم تحسس بأصابعه الأقمشة القطنية، حتى وجد شريحة المتابعة الصغيرة.

إنه لم يلحظ ذلك. ولكنه أيضاً لم يتوقع ذلك منه.

- «حقيبة الظهر، مفتاح غرفة الفندق، الوغد... يسلبك كل شيء».

أدرك (كريس). لم يكن حلماً.

لقد حدث ذلك بالفعل.

الفصل السادس والعشرون

الفاتيكان

صباح السبت

دخل المونسينيور (تيساني) إلى غرفة العمل بتردد. بدا البابا الجالس خلف طاولة المكتب الضخمة على كرسيه ذو الظهر العالي، هشاً تقريباً. بقي (تيساني) واقفاً وقد وجه نظره إلى النقوش التي زينت ورق الجدران الفاتح الموجود خلف البابا.

انتظر حتى دعاه البابا للاقتراب من طاولة مكتبه. جلس (تيساني) على أريكة أمام المكتب وحدق في الأنبوب الزجاجي الذي كان يضم نثرات من عظام القديس (بطرس). ربما أمده الوجود الرمزي للحواري الأول بالقوة التي كانت روحه المتوترة تصبو إليها.

– «مونسينيور، تبدو متعباً».

– «إن المهمة التي ألقى بها قداستكم على كاهلي تسبب الضغط العصبي مع مرور الوقت». أحنى (تيساني) رأسه قليلاً كإشارة إجلال أمام الأب المقدس.

– «لقد أخبرني سكرتيري أنك كنت شديد الإلحاح. ألا يوجد وقت لذلك؟». أخفض البابا عينيه وقرأ النص، الذي كان موجوداً أمامه على طاولة المكتب.

- «علـي أن أبلغكـم بالمـستجدات دون تـأخير...، لقـد اتـصل (هنـري مارفن) صباح هذا اليوم».

رفع البابا رأسه وبدا مستغرقاً في التفكير.

- «مازال (مارفن) يبحث عن إجابة، بالمعنى الإيجابي. فقد اقترب موعد انتخابه كرئيس لبريتوريني الكتاب المقدس. (مارفن) يدعي أن لديه الدليل على تلك الهرطقة...»

قطع (تيساني) حديثه. تشابكت يدا البابا المرتعشة، كأنه يقوم بأداء الصلاة لمدة وجيزة، ولكنها ملحوظة. اغرورقت عيناه بالدموع. لوهلة خطرت على بال (تيساني) فكرة مجنونة. هل وصل (مارفن) للهدف؟ لماذا؟ وبأي وسيلة؟

- «إنه مستعد لتسليم تلك الأدلة لقداستكم، حتى تتم حماية الكتاب المقدس. وقال أنه متأكد من أن...»

- « ... وما هو المقابل؟» نظر البابا إلى (تيساني) بقلق.

- «ما يهمه، هو المساواة القانونية مع (الأبوس داي). إنه ينتظر أن تقوموا قداستكم بالاعتراف غير الرسمي على الأقل...»

- «إنه ببساطة لا يريد أن يدرك، أن الدين والعلم قد توصلوا إلى توافق على تقسيم العالم إلى المادي والإيماني. وهذا ما يترك كليهما يعيش. إنه يؤذي بذلك التوافق الذي تم التوصل إليه بشق الأنفس. حتى أن بعض الأساقفة أصبحوا يؤيدون حملته تلك. لو أنه فقط...» توقف البابا عن الكلام. نهض من مكانه وبدأ بالسير المتوتر في أرجاء المكتب. «أين هو؟».

منذ متى يضرب أحد الباباوات بقبضته داخل كفه المفتوح؟ فكر (تيساني) مطرقاً بنظره إلى الأرض.

- «إنه في (فونتينبلو)، فهو كما تعلمون، المقر الرئيس في (أوروبا)...»

- « ... من حيث يريد إطلاق حملة كبيرة لترويج أفكاره، وذلك على

حساب الكنيسة الأم المقدسة. وعلى ماذا تحث؟ وما هي الأدلة التي بحوزته؟»

- «ألواح طينية سومرية. نصوص من الهرطقة، التي يمكن تفسيرها بشكل خاطئ» تفاجئ (تيساني) بأن البابا لم يسارع بإبداء رفض واضح.

- «ليس أكثر؟»

- «ماذا تعني قداستك؟»

- «ألم يذكر المزيد من الأدلة أو الموجودات؟»

- «إنكم تريكونني. لا، لقد تحدث عن الألواح الطينية السومرية التي تحوي النصوص التي سبق أن ترك لنا صورة عنها. أتتذكرون...»

بقي (بندكت) واقفاً. لوح بيده ثم تابع المشي. فكر في الأيام الأخيرة التي ملأتها الشكوك. لقد راهن على الحصان الخاسر. رفض عرض (مارفن)، لأن صعلوكاً آخر أراد المال مقابل تلك التحف. لكن ذلك الصعلوك لم يقم بتوريدها. وأصبح السبب الآن واضحاً.

هل كان ذلك اختباراً من الرب؟ هل (مارفن) بلاء من الله؟

أنّب البابا نفسه. فليس له الحق بالتشكيك في وسائل الرب، حتى وإن لم يفهمها.

- «مونسينيور (تيساني)، لدي واجبات... وإن كنت لا أوافق، إلا أنه عليك السفر إلى (مارفن)، ورؤية تلك الأدلة التي بحوزته».

- «هل سيحصل على ما يريد؟» لم يكن (تيساني) يوماً أبعد عن فهم تقلب آراء قداسة البابا كما اليوم.

- «عليك السفر بسرعة، ودون إثارة الانتباه».

- «يمكنني استخدام طائرة ركاب صغيرة خاصة برجل أعمال، لطالما قدم لنا المساعدة».

- «انتبه...» ضم البابا يديه إلى بعضهما وسار بطريقة قلقة، ثم

استدار نحو (تيساني) ونظر إليه بإمعان «انتبه إلى العظام، مونسينيور! عليك الانتباه إن كان هناك عظام ضمن تلك التحف!»

انتظر البابا، حتى ذهب المونسينيور. ثم نظر إلى ساعته. على الحكام أن يحكموا دوماً دون أخذ يوم للراحة. أمسك بسماعة الهاتف.

لقد احتاج ما يقارب نصف الساعة للوصول إلى الشخص الذي يريد التحدث معه.

- «آه، عزيزي الرئيس — نعم، إني أتذكر جيداً، أمنياتكم المباركة عندما توليت هذا المنصب... سبب اتصالي، نعم... أعلم أن الوقت غير مناسب... والظروف غير ملائمة. أود القيام بزيارة قصيرة إلى دير (سان بونوا سور لوار). نعم، تماماً. لديكم معرفة جيدة.

سرداب الكاتدرائية — أنت تفهم ما أعني. تماماً، عظام القديس (بندكت). كلا إنها ليست زيارة رسمية. إنها خاصة جداً، تماماً».

بعد المكالمة، توجه البابا إلى المذبح الصغير بجوار الجدار الحجري. كان الصندوق المزين بقشور الذهب مازال في المكان الذي تركه به تحت الصليب المصنوع من الخشب البسيط.

فتحها وتحسس الصليب برؤوس أصابعه. لقد كان صليباً صغيراً من الخشب البسيط والقديم جداً، ويعتقد أنه قد تم صنعه في دير (مونت كاسينو) في حياة القديس (بندكت).

أخرج الصليب ووضعه على المذبح. ثم رفع الطبقة الوسطى للصندوق وسحب الدرج المبطن بالمخمل إلى الخارج. كانت الألواح الطينية ذات الأحرف المطبوعة، إضافة إلى عدة أوراق مصفّرة اللون، ما تزال هناك.

سأقوم بمنع ذلك. فأنا الراعي.

الفصل السابع والعشرون

مدينة (دريسدن)

السبت

رن جرس الباب، فنظرت (ياسمين برسون) مباشرة إلى الساعة. إنها الساعات الأولى من بعد الظهر. تحول قلقها إلى شعور بالراحة. فقد حاولت لمرتين الاتصال بـ (كريس)، إلا أن جواله كان مغلقاً.

قامت بالتأكد من أناقة هندامها، لقد استغرقت وقتاً أكبر من العادة في تزيين نفسها، وقامت بتسريح شعرها بعناية، فشعرت بشيء قليل من السعادة التي كانت بحاجتها بعد الأيام الماضية المليئة بالدموع.

وحيث أن الدكتور (دوفور) أراد إجراء فحوصات إضافية لـ (ماتياس)، قررت العودة إلى (دريسدن). ستقوم يوم الأحد بالتقدم بإنجاز العمل، فربما تستطيع يوم الثلاثاء تقديم طلب إجازة لتتمكن من السفر إلى أختها و(ماتياس) مدة يومين، لتكون إلى جانبهما عند صدور القرار النهائي.

فبعد عودتها حاولت أخذ قسط من الراحة والابتعاد قليلاً عن تلك الهموم، وأرادت الآن الاستمتاع ببضع ساعات. كانت سعيدة لأنها سترى (كريس) مجدداً.

توجهت نحو الباب، وضغطت على الزر الكهربائي لفتح البوابة الرئيسة.

كان قلبها ينبض بسرعة. ستعمل ابتسامته المشرقة وعيناه اللامعتان على منحها القوة. أرادت معرفة المزيد عن سفينة (الإندفر)، وربما عن طقوس ممارسة الحب عند سكان (تاهيتي). وقد تتطور علاقتها بـ (كريس) عندما يساعدها في تخطي هذه الظروف الصعبة. إلا أنها لم تشأ التفكير بالمزيد في هذه اللحظة.

فتحت الباب، وسمعت صوت خطوات متتابعة، كانت تتردد قليلاً عند كل طابق. بنظرات متفاجئة تماماً، حدقت بذلك الرجل الغريب الذي وصل لتوه إلى طابقها. كان متوسط الطول، ذو شعر داكن، وفي مثل عمرها تقريباً ورمقها بنظرات متفحصة ووجه جاد.

- «(ياسمين برسون)؟ اسمي (سباروف)» قال الرجل باللغة الإنجليزية «أنا من أفراد الأمن الخاص بشركة (تيسابي)».

صمتت وقد ملأتها الدهشة.

- «إنك تعملين في مجموعة (تيسابي) هنا في (دريسدن)، ورئيسك في العمل هو (واين سندر)؟»

- «نعم...» وقد بدأت بامتصاص الصدمة. «هل حدث شيء لـ (واين سندر)؟» قالت باللغة الإنجليزية بشكل تلقائي. فقد كان عليها كطالبة في معهد (ماكس بلانك) ومنذ اليوم الأول أن تتحدث باللغة الإنجليزية.

تردد الرجل قليلاً، وقطب وجهه وتنحنح، «لدينا مشكلة في المختبر. وبوصفك مساعدته أرجو منك مرافقتي».

- «ماذا يجري؟»

- «أعتذر. فلا يمكنني إخبارك. فليس لدي علم. لقد تم إرسالي لاصطحابك وحسب. سيارة الأجرة تنتظرنا في الأسفل».

- «ومن الذي أرسلك؟»

- «رئيس الأمن، السيد (سولفان). لقد أتى من الولايات المتحدة

خصيصاً لهذا الأمر». ثم أخرج بطاقة من جيبه. وما لبثت أن تعرفت على البطاقة الخاصة بالعاملين في مجموعة (تيسابي)، حيث أنها كانت ذات تصميم موحد في جميع أنحاء العالم. وقد كانت الصورة البارزة على البطاقة تؤكد أنها للرجل الذي يقف أمامها الآن. (أمن بوسطن) كُتب أسفل تلك الصورة.

- «إذاً لابد أن (واين) قد وقع في ورطة كبيرة».
- «لا يمكنني إضافة شيء بهذا الشأن».

فكرت قليلاً. لا يبدو أن الرجل يحاول خداعها.

- «أنا بانتظار ضيوف».
- «آه، أعتذر. إلا أن الأمر مُلح فعلاً».

ترددت. ثم قالت: «دقيقة»، أغلقت الباب، وذهبت إلى غرفة الجلوس. أخذت جوالها واتصلت بـ (كريس). رد المجيب الآلي مجدداً. كان من المفترض أن يصل منذ وقت طويل! لماذا يبقي جواله مغلقاً؟

أمسكت حقيبة اليد خاصتها، التي كانت ما تزال تحتوي على لوازم السفر.

كان (سباروف) صامتاً طوال الطريق وأخيراً قام بدفع أجرة السيارة بالدولار.

استنتجت (ياسمين) من ذلك أن (سباروف) حضر إلى (دريسدن) دون أي ترتيبات مسبقة.

- «انتظري هنا من فضلك، سأعود حالاً». قال لها عند دخولهما إلى منطقة المختبرات.

تابع (سباروف) طريقه واختفى في مكتب (واين)، بعدها بقليل، ظهر (واين) في الممر. إلى جانبه كان رجل حليق الرأس، تقدم نحوها برشاقة غريبة بالرغم من جسده الضخم.

بدا (واين) متعباً ومأخوذاً، ولكنه كان بخير. نظر إليها قطّب وجهه بتكشيرة نادمة.

- «أهذه هي؟» سأل الرجل السمين قبل أن يتوقف أمام (ياسمين).

- «نعم. (ياسمين برسون). إنها مساعدتي. وليس لها علاقة بالموضوع».



أثناء تقدمه باتجاه المرأة، كان (سولفان) يستعرض في ذاكرته كل ما حدث من تطورات. فتذكر الليلة الماضية في (براغ)، عندما أجهز على الشباب الثلاثة التابعين للفريق الآخر بإطلاق رصاص من المطاط الصلب عليهم. تعمد (سندر) المصدوم اتباعهم، وحين وصل إلى المكان المحدد، قاموا بزجه في سيارة السكودا، التي كانت بانتظارهم.

لقد قام صديقه القديم (لبكوفيتس) بتأجيره اللصين وسيارة السكودا، وكذلك المنزل الذي قاموا في النهاية باحتجاز (سندر) داخله. لقد كان في مزرعة مهملة، تقع في إحدى الضواحي المهجورة على بعد 15 كيلو متر شمال شرق مدينة (براغ). كان لبكوفيتس متمرساً في فن الحياة، عديم الضمير ومُحدَث النعمة. فبعد انتهاء الحرب الباردة، قام بالاتجار بكل ما يمكن للمرء أن يتخيله. وقبل ذلك كان يتاجر بالأخبار. في الاتجاهين. والحقيقة أنه بقي وفياً لمهنته القديمة، ولكنه قام بتوسيع طيف أعماله.

كل ما كان يهم (لبكوفيتس)، هو الثمن الدسم. لكنه اشترط شرطاً وحيداً «إن كان عليك أن تخفي جثة ما، فأرجوا أن لا يكون ذلك في المنزل». كان تفكير (لبكوفيتس) لا يزال من الطراز القديم.

شرد (سولفان) بأفكاره، فهو يتفق مع صديقه القديم. لا بد من وضع علامة يفهمها الجميع. ولابد من أن تكون مؤثرة. إلا أن (هانك تورنتن) لم يقم بتحديد شكل تلك العلامة بعد.

كانت الأدلة واضحة. لقد قام (ند بيكر) المستشار العلمي لـ (زوي بورسل)، بالنظر إلى المستندات، وتأكيد وقوع الخيانة. في الواقع كان بإمكانهم عقد جلسة المحاكمة وقراءة الحكم، بل وتنفيذه. حتى تلك الحشرة (زوي بورسل)، أرادت رؤية الدماء. لقد كانت هي شخصياً تتصرف كجلادي برج (لندن).

إلا أن كل شيء تبدل.

لقد قام (سندر) بعرض صفقة عليهم. في البداية رمقه الجميع بنظرات مذعورة، ثم اتضح لهم أن الوغد كان يعني ما يقول. صرخت (بورسل) محذرة من محاولة خداع، حين لاحظت أن (ند بيكر) بدأ بالإنصات وطرح الأسئلة. في حين بدأ (سندر) بتلحين إحدى المعزوفات حول تجربة، وعن اكتشاف ما.

تشاور (بيكر) مع (زوي بورسل)، التي أصبحت فجأة مترددة. ثم قام (بيكر) بإيقاظ بعض العلماء حول العالم من نومهم وبعدها، انسحب مع (بورسل) للجلوس في إحدى زوايا غرفة الجلوس العفنة. وبهذا فسدت خطة (سولفان) لسحب الدم من عروق ذلك الوغد.

ومرة واحدة أصرت (زوي بورسل) أن تختبر معلومات (سندر) في التو واللحظة. وذات الليلة عادا، وفي الصباح استقلا طائرة الشركة من طراز جولف ستريم G550 متجهين من (براغ) إلى (دريسدن)...

- «متى سنبدأ يا (سولفان)؟» سألت (بورسل) أثناء عبورها الممر بخطوات قصيرة وسريعة. تذمر مدير الأمن بشكل تلقائي.

- «من هذه؟» همست (ياسمين) لـ (واين).

- «إنها أعلى رأس في الإدارة المالية لـ (تيسابي). هل كنت تعلمين، أن سيدة هي التي تقوم كل شهر بإصدار التعليمات لتحويل مرتباتنا؟»

- «ماذا فعلت يا (واين)؟»

- «حالاً ...» تمتم (سندر) «الموضوع يدور حول عينة العظام الخاصة بـ (كريس)، وتحليل الحمض النووي الذي طلبه».

- «إذاً. هيا الآن!» حدقت (زوي بورسل) بـ (ياسمين) بنظرات باردة «هل هذه هي المساعدة؟»

- «نعم». قال (سولفان) «وأود استجوابها على الفور».

- «ليس الآن. فعليها أن تساعد ذلك الخنزير. هيا».

- «أنا بحاجة إليك الآن». همس (سندر) لـ (ياسمين).

- «بماذا؟»

- «ليس بالأمر السيئ. إنه تحاليل لعينات فحسب».

لم يفكر أحد بالإجابة على جبل الأسئلة التي كانت تشغل (ياسمين). دخلت غرفة المختبر مع الآخرين وسمعت هتافات التعجب أمامها. نادى (واين) اسمها فتقدمت دافعة نفسها بين الجمع.

عندما رأت العينات، توقفت مذهولة في مكانها. فهي لم ترَ شيئاً كهذا من قبل.

- «أمر لا يصدق». هربت الكلمات من بين شفتيها.

ارتعش (سندر) من شدة الإثارة. فقد تكاثرت الخلايا بشكل أكبر مما كانت عليه ليلة الخميس.

لقد نمت بعض الخلايا المزروعة في أطباق بتري إلى الخارج وملأت أرضية الحاضنة. وفي بعض المناطق زحفت الخلايا ملتصقة بزجاج الحاضنة باتجاه الأعلى. بدت العينات كأنها قد تابعت نموها خارج الأطباق دون حاجتها إلى المحاليل المغذية.

- «إنه أمر مستحيل حقاً»، تمتم (ند بيكر).

- «كم مرحلة من الانقسام باعتقادك؟»

- «مئات!، آلاف!» تمتم (سندر)، الذي كان هو نفسه يحدق متعجباً بالأطباق.

- «هل يمكن لأحدكم أن يوضح لي الأمر؟» طلبت (زوي بورسل).

- «إن قدرة جميع الخلايا على الانقسام محدودة جداً».

ضحك (سندر) بارتباك، «وهذه القاعدة تنطبق على جميع الكائنات الحية حتى مع توفر الظروف المثالية. يبدو كأن العدد قد حُدد مسبقاً. فكل خلية تملك ساعة لانقسام الخلايا، تحدد بشكل مسبق عدد مرات الانقسام الممكنة. ولا يمكن خداعها. على سبيل المثال، إن الخلايا الليفية، أو خلايا النسيج الضام، تنقسم عادة من أربعين إلى ستين مرة في مزرعة الخلية. وبعدها تتوقف وبلا عودة. فالحد الأعلى لانقسام الخلايا لدى الفئران يصل إلى ثمانية وعشرين انقساماً».

- «وهل هذا هو إنجازك المثير؟» سألت (زوي بورسل) بعصبية.

- «هذا إنجاز مثير...» قال (سندر) بصوت منخفض.

- « ... ولكنه ليس ذاك الذي أردت أن تطلعنا عليه، أليس كذلك؟» سأل (ند بيكر) بإلحاح.

كانت (ياسمين) ما تزال تنظر إلى المزارع بذهول. فقوة الانقسام تتناسب عكسياً مع تقدم العمر. فكلما كان المصدر أكبر سناً، كلما قل عدد الانقسامات المتوقعة لخلاياه. فالخلايا البشرية العائدة لمتبرعين مسنين جداً تنقسم في المزارع إلى خمسة وعشرين انقساماً كحد أقصى.

هذه الخلايا تعود لعظام، يفترض -وحسب ادعاء (كريس)- أن عمرها آلاف السنين.

«يا لها من قوة حياة». فكرت (ياسمين).

- «جيد. سلسلة من الخلايا، التي تنقسم بلا نهاية. إنه أمر مثير، هل هذا إنجاز رائع حقاً؟» نظرت (زوي بورسل) باستفزاز في عيون الحاضرين. «لو لم تخني الذاكرة... إنك تقول دائماً يا (ند)، أن هناك خلايا يمكنها الانقسام إلى ما لا نهاية».

- «الخلايا السرطانية» أجاب (ند بيكر). «في الخلايا السرطانية يصبح انقسام الخلايا بلا حدود. وفي المزارع تنقسم الخلايا بلا نهاية...»

- «إذاً».

- «في الأعضاء البشرية، يتم ذلك طالما كانت تلك الأعضاء حية. وعند موت الإنسان، تموت الخلايا السرطانية أيضاً وتتوقف عملية الانقسام إلى الأبد».

- «هل هذه خلايا سرطانية ربما؟» نظرت (زوي بورسل) إلى (سندر).

- «هل تحاول خداعنا؟ هل اعتقدت حقاً أننا لن نكتشف ذلك؟»

- «إنها ليست خلايا سرطانية». هز (سندر) رأسه نافياً بشدة. كان صوته مخنوقاً، ويخفي نبرة غاضبة.

- «من أين جاءت؟»

- «من عظام قديمة».

- «إن لم أحصل فوراً على المزيد من الأجوبة، فسوف يتم الأمر هنا بشكل مختلف!» أطلقت المديرة المالية اللعنات، «(سولفان)، دعهم يحضرون مقصلة الأصابع!».

- «(ياسمين)، ستساعدينني».

- «ماذا سنفعل؟»

- «تحليل. سأريكم أمراً ما. في البداية يجب قطع عملية انقسام الخلايا».

اختار (سندر) إحدى مزارع الخلايا، بينما ارتدت (ياسمين) معطفاً وقفازات. أضافت (الكولشيسين)، السم الذي سيوقف انقسام الخلايا مدة تتراوح بين الساعتين والثلاث ساعات تقريباً، وبذلك يمكنهم فحص الكروموسومات ومن ثم الانتقال من مستوى إلى مستوى أعمق.

- «هل سيستغرق هذا وقتاً طويلاً؟» بدا نفاذ الصبر واضحاً على وجه (زوي بورسل).

- «إنها عملية معقدة». قال (سندر) محاولاً إظهار نبرة محايدة، بينما كانت (ياسمين) تضع المزارع في جهاز الطرد المركزي.

- «اشرح لي ما تقوم به، فليس لدينا شيء أفضل لنقوم به».

- «التعقيد يبدأ من نوع الخلية، ونوع الحمض النووي. ففي الأبحاث يُفضل العمل بخلايا البكتيريا، وذلك لعدة أسباب. منها صغر الحجم، والتكاثر، وقِصر زمن الجيل، وكذلك بسبب التنظيم البسيط للخلية. كل ذلك يُسهل من عملية معالجتها. أما في حقيقيات النوى، كخلايا الإنسان والحيوان والنبات، فيكون بناء النواة والميتوكوندريا الوراثي، وبلازما الخلية، وكذلك الريبوسوم، معقد بشكل كبير».

نظرت (زوي بورسل) إلى (بيكر)، الذي أومأ موافقاً.

- «فيمكنك تخيل الحمض النووي للإنسان كخيط لا يتجاوز طوله المترين، ويحمل كل المعلومات المهمة لبناء الإنسان. وذلك الخيط من الحمض النووي وما يحمله من معلومات، ينقسم بدوره على أعداد مختلفة من الكروموسومات. بحيث يمكن التعرف على كل كائن حي من خلال عدد كروموسوماته».

حدق (ند بيكر) برئيسته. فحتى هذا اليوم كانت دائماً ترفض الدخول في أي تفاصيل علمية. وضع يده على ساعد (سندر) وتابع بنفسه عملية الشرح.

- «تتكون الكروموسومات من مجموعة من الحلقات الليفية، التي تحتوي بدورها على بروتينات. وتدعى الهستون. وحول الهستون تلتف خيوط الحمض النووي بطول يصل إلى مترين ونصف تماماً. تحت الميكروسكوب، تظهر حلقات الهستون، كأنها لآلئ ضُمت في خيط. الهستون وخيطا الحمض النووي يشكلان النيوكليوسومات، وهي الوحدة الأساسية للكروموسومات».

- «هذه البنية العالية التنظيم، تجعل من عملية وجود خيط الحمض النووي في هذه الخلية الصغيرة، أمراً ممكناً». ضحك (سندر) معبراً عن دهشته، «الجينات ليست سوى وحدات من المعلومات تتموضع على خيط الحمض النووي، كما الكلمات في الجُمل. وتوجد هذه المعلومات على شكل أزواج. ولكل من الجينات موضعه الخاص على خيط الحمض النووي، وكذلك بنيته الفريدة ووظيفته. إنه كالشيفرة».

- «فهمت، أكمل». حدقت (زوي بورسل) بالرجلين بنظرات ازدراء.

- «ويتألف الجين بدوره من مقاطع مُشفرة، يطلق عليها الأكسون. بينما تسمى المقاطع التي لا تحتوي على معلومات بالأنترون. والمثير، هو أن معظم الأزواج تقع لدى الإنسان على الأجزاء غير المُشفرة».

رمق (ند بيكر) (زوي بورسل) بنظرات مرتابة. هل استوعبت كل تلك المعلومات حقاً؟

- «تُفصل الجينات الموجودة على المقاطع الخيطية المختلفة، بواسطة مسافات فارغة منتظمة وسلاسل تمهيدية متوالية من الحمض النووي، التي تقوم بإرسال التعليمات للجينات. هذا ما يمكننا قوله حول البنية المعقدة». عقّب (سندر) بعصبية.

- «فهمت هذا أيضاً» قالت (زوي بورسل) بعد مدة «هل سيستغرق هذا الأمر المزيد من الوقت؟»

قامت (ياسمين) بفصل الخلايا التي ترسبت في قاع أنبوب الاختبار بفعل عملية الطرد المركزي، عن المحلول المغذي، ثم وضعته في محلول عالي التركيز من كلوريد البوتاسيوم، الذي من المفترض أن تُنقع به الخلايا المزروعة مدة عشرين دقيقة تقريباً.

- «لقد انتهت المرحلة الأطول وذلك بإجراء عملية فصل الخلايا» قالت (ياسمين) بنبرة باردة وبشيء من التعالي المتعمد.

فمع مرور الوقت زادت تلك المرأة من شعورها بالاشمئزاز. لقد كانت لغة جسدها توحي بالتعجرف، والعجلة والتسلط. «لا يستطيع المرء تحليل الكروموسومات إلا بفصل الخلايا».

- «ولكني أريد معرفة ذلك بشكل مفصل حالاً». ثم رمقت (زوي بورسل) (ياسمين) بنظرات انتقامية.

- «إنها تقصد، أن عملية الانقسام قد تمت بالفعل». تدخل (ند بيكر)، حين لاحظ الأجواء الآخذة بالتوتر بين المرأتين.

- «في البداية تنمو الخلايا، ثم تحدث عملية تضاعف الحمض النووي، وفقط حين تنمو وتستقر تحدث عملية الانقسام الفتيلي. وبهذا تنقسم الخلية، ومن خلال التضاعف السابق للمعلومات في الخلية تنتج خلية ثانية، جديدة ومطابقة».

- «فهمت». تمتمت (زوي بورسل) بينما كانت نظراتها القاتمة ما تزال موجهة نحو (ياسمين) «وماذا يحدث في الانقسام الفتيلي؟»

- «في الانقسام الفتيلي تقوم خيوط المغزل في تنفيذ انقسام الخلية. وهي تتكون من آلاف الخيوط البروتينية وتضمن بدقة متناهية نقل المعلومات من الخلية الأم إلى كروموسومات الخلية الجديدة التي تم إنتاجها. وحين يتم ذلك تنتظم الكروموسومات فيما يسمى بالصفيحة

الاستوائية، ويصبح بالإمكان تمييزها تحت المجهر الضوئي بناءً على أحجامها وأشكالها. إن الأمر بهذا القدر من التعقيد» تمتم (سندر).

قامت (ياسمين) بعملية فصل جديدة، حتى تمكنت من الحصول على المرحلة التالية من الرواسب الخلوية. قامت بخلط تلك الرواسب في مزيج من الميثانول وحمض الخليك الجليدي بنسبة ثلاثة إلى واحد، ثم وضعتها مجدداً في جهاز الطرد المركزي؛ لتقوم أخيراً بسحب عينة من مزيج الرواسب الخلوية بواسطة ماصة مخبرية، وتنقيطها على شريحة الفحص المجهري.

- «سأتولى الأمر». قال (سندر)، حين أرادت (ياسمين) القيام بالخطوة التالية. قام (سندر) بتسخين العينة مدة قصيرة، ثم قام بتلوينها بصبغة الفلورسنت بعد وضعها في أنبوب زجاجي خاص.

- «عملية التعرف على الكروموسومات من خلال تعدد الألوان تستند إلى حقيقة، أن بعض الأنواع من البروتينات تعمل كمجسات تعبر الحمض النووي وتقوم بتمييز الحمض النووي بشكل واضح بفعل صبغة الفلورسنت ذات الألوان المضيئة» قال (ند بيكر) لرئيسته موضحاً الخطوات التي كان يقوم بها (سندر) بتركيز شديد.

- «وبهذا تتم الاستفادة والتعرف على الفروقات الفردية لسلاسل الحمض النووي في الكروموسومات المختلفة».

حبس (ند بيكر) أنفاسه عندما رأى (سندر) يدفع بشريحة الفحص المجهري تحت عدسة الميكروسكوب.

في البداية قام (سندر) بفحص العينات تحت المجهر بحجم تكبير يصل إلى 100 مرة. ثم قام باستبعاد العينات التي لاحظ من خلال عملية تكبيرها تلك، أنها غير صالحة لمتابعة تحليلها.

وقد تعلم من خلال سنوات خبرته أنه بحاجة لفحص عشر خلايا

على الأقل ليتمكن من الحصول على نتائج مضمونة. ولكن في بعض الحالات والاختبارات المعقدة لبعض الأجزاء الخاصة على الكروموسومات، كان عليه أن يقوم باستهلاك ما يزيد عن المئة عينة قبل أن يصل إلى هدفه من الفحوصات.

كان (سندر) يقوم بفحص العينات باستخدام ميكروسكوب فلوري، الذي كان يلتقط الصور من خلال كاميرا موصولة بالمجهر ثم يقوم بعرضها على شاشة.

- «وكيف يمكن تمييزها؟» سألت (زوي بورسل) بينما كانت تحدق في الظهر المنحني لـ (سندر).

- «من خلال الفحص المجهري، يمكن التعرف على الكروموسومات البشرية في مرحلة الانقسام استناداً إلى عدة علامات محددة. ففي هذه المرحلة يكون لكل كروموسوم بناؤه الخاص.

- «انظري» أشار (بيكر) إلى شاشة العرض «أولاً نلاحظ اختلافاً في أحجام الكروموسومات. على سبيل المثال فإن الكروموسوم Y صغير بشكل ملحوظ».

- «كنت أعلم ذلك منذ البداية!» ابتسمت (زوي بورسل) بطريقة خبيثة «الرجال. كروموسوم أصغر، دماغ أصغر، ذكاء أقل...»

أشار (ند بيكر) إلى جزء من شاشة العرض، «انظري. لكل كروموسوم أذرع طويلة وأخرى قصيرة. ويتم ترابط هذه الأذرع عند نقطة تسمى بالسنترومير، الذي يحيط بالكروموسومات في مناطق معينة كما يحيط المشد بخصر المرأة. والسنترومير هي النقطة التي تبدأ منها الخيوط المغزلية بعملية انقسام الكروموسومات أثناء الانقسام الخلوي. ولأن السنترومير يحيط بكل كروموسوم في منطقة مختلفة فإن ذلك يعتبر علامة فارقة أخرى».

في تلك الأثناء كان (سندر) يفحص العينات المختارة من خلال

تكبيرها إلى 1250 ضعف. وقد ظهرت الكروموسومات تحت عدسة المجهر على هيئة بنية عصوية الشكل.

ضاعف حجم التكبير إلى 3000.

- «جميل. جميل جداً» تمتم (بيكر)، عندما تمكن أيضاً من تمييز نطاقات الكروموسومات المتباينة بين الفاتح والداكن على شاشة العرض وذلك بفعل تلوينها بالصبغة.

كانت الكروموسومات تبدو تحت المجهر على شكل حفنة غير منتظمة. لم يكن (بيكر) يحفظ شكل نطاقات كل كروموسوم في ذاكرته، إلا أنه تمكن، -وفقط على أساس صغر حجمها- من التعرف على زوج الكروموسوم 22 ذو الطرف المنتفخ عند الذراع الأقصر، والكروموسومات 1 و2 من خلال أحجامها.

- «لقد تم تجاوز العقبة الأولى. إنه إنسان. حتماً إنسان!» قال (سندر) بثقة «ليست مئة وثلاثة عشر كروموسوم. ليس ديناصور سمندل الماء ذي العظام العملاقة».

- «هيا أسرع! فنحن لا نرغب بالانتظار هنا إلى الأبد!».

عرف (بيكر) ذلك سلفاً، حتى قبل أن يراها. لقد كان هناك شيء غير طبيعي في تلك العينات من نواة الخلية المتفجرة المثبتة على شريحة الاختبار. تفحص الصورة.

وعندما اكتشف الانحراف، وقع على كرسيه مرتمياً إلى الخلف «هل هي تماماً كما في تلك الليلة...؟» سأل.

- «تماماً» تمتم (سندر). «ألا يجدر بنا أن نقوم بتحليل النمط النووي بواسطة الحاسوب؟ حتى نتأكد؟»

ودون أن ينبس (سندر) ببنت شفة، جلس أمام جهاز الحاسوب وبدأ بطباعة عدة أوامر على لوحة المفاتيح. وعلى شاشة عرض أخرى ظهرت

نتائج تحليل الحاسوب. «هذه هي نتائج تحاليل الحاسوب ذاتها التي حصلنا عليها ليلة الخميس. إنها متطابقة».

- «إنها» تمتم (ند بيكر) «الزيغ الصبغي» تمتم (ند بيكر) «تثلث الكروموسومات».

- «وما معنى هذا؟» سألت (زوي بورسل) بعصبية.

- «إنه انحراف للكروموسومات». فسر لها، وقد بدا عليه التفكير «إلا أن هذا بحد ذاته ليس بالأمر المستغرب حقاً. فالطفرات الرقمية الجينية تحدث عند واحد من بين مئة وستين من حديثي الولادة. ويشكل الزيغ الصبغي الجزء الرئيس منها».

- «غالباً ما يصيب الزيغ الصبغي الكروموسومات 21، 18 و13. ويتسبب بالمرض» انتظر (سندر) قليلاً قبل أن يتابع «واحد من كل ست مئة وخمسين مولوداً يعاني من متلازمة داون، الذي يتسبب به تثلث الكروموسوم رقم 21. والنتيجة تكون التأخر في تطور الحركة وقصور في الذكاء، وكثيراً ما يتسبب في وجود خلل خَلقي في عضلة القلب وقابلية للإصابة بالأمراض. والأكثر تأثراً هم أجنة الأمهات فوق الخامسة والأربعين على وجه الخصوص».

- «الأسوء، هو متلازمة إدوارد، التي يسببها تثلث الكروموسومين 18 و13» -قالت (ياسمين)- «حيث يموت نصف المصابين خلال الأشهر الثلاثة الأولى بعد الولادة، والتردد هو على الأرجح واحد إلى خمسة آلاف».

- «إلاّ أن ما نراه هنا، هو تثلث صبغي من نوع آخر». عدل (سندر) من جلسته حيث كان جسده قد تصلب «أيضاً معروف وقد تم فحصه مسبقاً إلا أنه غير مألوف».

- «لا تجعلوا الأمر مشوقاً!» نظرت (زوي بورسل) إلى (سندر) و(بيكر) بغضب.

- «سبعة وأربعون كروموسوم» قال (سندر).

- «يوجد كروموسوم إضافي» ثم أردف (بيكر) «إنه تثلث واضح».

- «إنه كروموسوم جنسي إضافي».

- «(بيكر)، بحق الجحيم!» صرخت (زوي بورسل) «وماذا يعني هذا؟»

- «أن الانحراف قد حدث في الكروموسوم الجنسي».

- «متلازمة تضاعف الكروموسوم Y» تمتمت (ياسمين) التي رأت بوضوح الانحراف على شاشة العرض.

- «تثلث XYY» قال (سندر).

ساد الصمت لثوانٍ.

- «كروموسوم ذكري إضافي... أين المشكلة؟» ضربت (زوي بورسل) بكفها على الطاولة «إن كان حجم كروموسومكم الذكري صغير بدرجة ملفتة، فمن الممكن أن يكون بينكم أيها الرجال من يحمل اثنين من هذا الشيء! إذاً ماذا؟»

- «ولكن حجم هذا الكروموسوم الإضافي كبير، سميك وغليظ. لا بد أنه ممتلئ بالجينات...»

الفصل الثامن والعشرون

(فونتينبلو) بالقرب من (باريس)

عصر السبت

فُتح غطاء صندوق السيارة، خفّض (كريس) من فتحتي عينيه. فبالرغم من أن السماء كانت ملبدة بالغيوم، إلا أن الضوء آلم عينيه بعد ذلك الوقت الطويل الذي أمضاه في الظلام.

- «يا إلهي! يجب أن تغتسل مجدداً!»

كان الرجل الذي يطل عليه من الأعلى يبتسم بخبث. انتبه (كريس) للثآليل الثلاث التي توزعت بشكل مثلث على خديه وذقنه مشوهة وجهه.

كان الرجل الآخر بشعر أحمرَ صدئ وبشرة فاتحة. أمسك به الرجل ذو الثآليل من كاحليه المكبلين، بينما قبض ذو الشعر الأحمر على كتفيه. حملاه خارج صندوق السيارة، وتركاه يسقط على الأرض.

فارتطم خده على الرمال والأعشاب. أدار رأسه، فوقع نظره على أشجار ذات جذوع ضخمة وسقف كثيف من الأوراق.

جعله الألم الكامن في ضلوعه يتنفس بشكل سطحي. كانت شظايا من الخشب والحجارة ما تزال تبرز على ظهر يديه وساعديه. بينما انتُزعت باقي الشظايا، أو أنها دُفنت تحت طبقات الجلد. بعض الجروح التهبت وشكلت فقاعات من الصديد.

انتـزع ذو الـشعر الأحمـر الـشريط اللاصـق مـن علـى فمـه وعـدل مـن جلسته. تـأوّه (كـريس) ثـم انقلـب مجـدداً. احتـاج بعـض الوقـت ليـتمكن مـن التأقلم مع وضع الجلوس.

حلوا وثاق قدميه ورفعاه لينهض واقفاً. ثم ما لبث (كريس) أن سـقط مجـدداً إلى الأرض. وكلمـا حـاولوا إيقافـه علـى قدميـه عـاد ليهـوي مجـدداً. ففي كل مرة كان وخز الألم الحاد يجعل قدميه ترتجف فيصرخ بشدة.

ثـم شـعر بدغدغـة في سـاقيه، بـدأ الـدم بالـدوران، وأخـيراً تمكـن مـن الوقـوف. قـام ذو الـشعر الأحمـر بـسنده عنـدما خطـا خطواتـه الأولى. بينمـا قام ذو الوجه المشوه بالثآليل بتكبيل يديه إلى الخلف بواسـطة حبـل، ثـم قـام بجره منه، كأنه يسحب أحد الكلاب الشاردة.

- «هيا! أسـرع!».

سار (كريس) مترنحاً بألم من السيارة إلى تحـت الأشـجار وبـالعكس. ثم قادوه للمشي في حلقة دائرية مدة عشر دقائق.

- «أين نحن؟» سـأل (كريس) أخيراً.

- «كما لو أن لذلك أهمية...»

- «بالنسبة لي، نعم» همس (كريس)، ولم يتمكن مـن صـياغة المقـاطع بوضوح. شعر بطعم الدم المتدفق من شفاهه التي تشققت مجدداً.

- «إن كان كذلك... فنحن في مكان ما في (فرنسا)».

توقف (كريس)، ثم تابع النظر حوله.

كانـت الـشمس في جهـة الغـرب، إلا أن الوقـت مـا زال مبكـراً لحلـول الظـلام. إلى الأمـام وعلـى بعـد نحـو مئـة مـتر، لاح لـ (كـريس) تحـت ظـلال الأشجار ما يشبه القلعة الصغيرة.

السيارات الداكنة الأربعة من نوع الليموزين، اصطفت أمام بـرج مـائي من الطوب الأصفر، كما كانت تبنـى منـذ قـرنين. انتـشرت قنـوات الميـاه عـبر

الأرض، حيث تجمعت فوقها أوراق الأشجار المتساقطة. ليس بعيداً من البرج المائي برزت كنيسة صغيرة التفت سقالات البناء حولها بالكامل باستثناء برج الأجراس.

اقترب ثلاثة رجال من جهة المبنى الرئيس الأشبه بالقلعة. بدا الوجه الدميم لـ (برانداو) عابساً ومنفراً. أخطأ (كريس) باتهامه البروفسورة.

لقد كان القس، الذي ألصق له شريحة التصنت في حقيبة الظهر الخاصة به. لماذا توقع أن القس يمكن أن يكون أقل خبثاً من سائر البشر؟

إلى جانب (برانداو) سار شخص ذو بشرة وجه متجلدة، الذي قاد عملية السطو. وخلال وقت استراحة أخبر (كريس) بكل ترحيب، كيف أنهم استخدموا مفتاحه للدخول بعد منتصف الليل إلى غرفته في النزل الصغير، وقاموا بجمع ما وجدوه من تحف أثرية متبقية.

كان الرجل الثالث قصيراً، ممتلئ الجسم، ويرتدي عباءة فاتحة أو بيضاء تقريباً، خاصة بجوقة الكنسية، ذات ياقة أشبه بدرع العنق. كان قماشها مطرزاً بحبات اللؤلؤ وخيوط الذهب، وقد زُينت في الأعلى بعلامتي المسيح على كل جانب، وبصليبين في الأسفل. فوق الصدر عقدت العباءة بواسطة مشبك صُمم بطريقة فنية متقنة.

في البداية ظن (كريس) أنه أمام أسقف، إلا أنه سرعان ما انتبه إلى أن الرجل يرتدي بنطالاً عادياً، وكنزة صوفية تحت تلك العباءة.

- «هذه فاكهتنا» تمتم (جستن باري).

- «هكذا إذاً». نظر (هنري مارفن) إلى (كريس) باحتقار، «جيد. يبدو حالياً في وضع مزرٍ. انتبهوا له جيداً. هل تؤمن بالله والكتاب المقدس؟»

- «لابد أنك ذلك الناشر، الذي يقوم بدور الراعي السخي لمتاحف العالم الشهيرة، عندما يتعلق الأمر بتحف أثرية من مناطق معينة في الشرق الأدنى».

- «ومن ذا الذي أخبرك بذلك؟»

- «في (برلين)، كان هناك بروفسورة كشفت لي بعض الأمور عنك».

ضحك (هنري مارفن) بصوت عالٍ.

- «حسناً. إذاً لديك الآن ما تفكر به».

- «لقد تجاوزت منذ ساعات تلك النقطة، أن أشغل تفكيري بأي شيء. لقد كنت سعيداً بخروجي من ذلك التابوت».

- «نكتة المحكوم بالإعدام، أليس كذلك؟ لنرَ كيف سيكون حالك في نعش حقيقي. ولكني سأقبل هداياك أولاً. ثم ننظر بشأنك. ربما سيخبرك مكان إقامتك الجديد بالمزيد. هناك تتراكض الجرذان ليلاً».

استدار (مارفن)، ومضى بصحبة (برانداو). بينما قام (باري) وذو الشعر الأحمر بسحب (كريس) باتجاه البرج المائي، وقادوه على درج حجري حلزوني الشكل نزولاً إلى مكان تشعبت منه الممرات. دفعوه مجدداً ثم توقفوا أمام منطقة تشعبات أخرى.

فتح (باري) الباب الحديدي الثقيل الذي كان يسد الممر الأيسر، ثم دخل الممر الضيق والمنخفض خلفه، الذي كان يقود إلى منطقة صخرية تحت الأرض.

أضاءت الكشافات الطريق بأضواء ساطعة، إلى جهة اليسار رأى (كريس) الشباك المعدنية المثبتة في الصخور والتي كانت تفصل بين الممر والقبو الذي يقع خلفها. كانت الزنازين فارغة ومجردة تماماً.

تابع (باري) سيره حتى وصل إلى نهاية الممر، وتوقف أمام قضبان الزنزانة الأخيرة.

قام ذو الشعر الأحمر بدفع (كريس) إلى داخل الزنزانة، التي غرق نصفها الخلفي في ظلام شبه دامس. ثم أُغلق الباب خلفه مصدراً صريراً مزعجاً.

- «مرحباً» قال (كريس) وحدق باتجاه الزاوية، حيث تمدد جسد على الأرض دون حركة.

استغرق الأمر بعض الوقت، قبل أن يبدأ ذلك الجسد بالاستدارة صوبه.

- «مرحباً يا (كريس)» قال (أنتونيو بونتي).



(دريسدن)

عصر السبت

- «الكروموسوم Y يحدد نوع الجنس عند البشر. هذا معروف. ولدينا هنا اثنين منه». نظرت (زوي بورسل) إلى (سندر) بحنق، «حسناً. ولكنك قلت أن مثل هذه الحالات معروفة. فما هو المهم في هذا الاكتشاف إذاً، والذي لا يعتبر كذلك في الحقيقة؟»

- «في الحالات الطبيعية يكون الكروموسوم Y صغير الحجم. وفي حالة التثلث الصبغي XYY يوجد كروموسومان Y صغيران. إلا أن هذا كروموسوم Y الإضافي هنا -كما ذكرنا آنفاً-، كبير، سميك وغليظ».

نهض (واين سندر) من على كرسيه وبدأ يمدد جسده.

- «ما رأيك يا (ند)؟ هل يريد خداعنا؟» نظرت (زوي بورسل) إلى مستشارها العلمي، الذي أُصيب بالارتباك.

- «ما عساي أن أقول... عدد الجينات في الكروموسوم Y الطبيعي – آمل أن أتذكر بشكل صحيح – ثمانية وسبعون، وتحمل سبعة وعشرين شيفرة لبناء البروتينات، وبالتالي هذا ما يشكل ثلث حجمه الأصلي».

- «هل يتغير؟ يصبح أصغر؟» ضحكت (زوي بورسل). «(ند)، وكيف يبدو الأمر بالنسبة للكروموسوم الجنسي الأنثوي؟ هل ينمو؟»

- «الكروموسوم X بجيناته الخمس والتسعين والألف بقي منذ نشأته قبل نحو ثلاث مئة إلى مئة مليون سنة، دون أن يطرأ عليه أي تغيير».

- «هل تريد أن تقول أن الكروموسومات الجنسية تنمو بشكل متباين؟» ابتسمت (زوي بورسل) «ومنذ متى يحدث هذا الأمر؟ منذ مئة ألف عام؟ وإن كان الأمر كذلك، فهذا يعني أنه لابد أن تكون هناك نقطة انطلاق مشتركة قد وجدت يوماً ما».

- «متى وجدا، ومتى بدأ الاختلاف بينهما بالظهور، مازال مجرد تكهنات». تدخل (سندر) في الحوار «لماذا تطور هذان الكروموسومان دون غيرهما من الأزواج الصبغية واختصا بأمر تحديد نوع الجنس، حتى اليوم لا يمكن لأحد الإجابة عن هذه الأسئلة بشكل دقيق. على أي حال لقد حدث ذلك في الزمن السحيق عند نشأة الحيوانات الثديية».

- «وكيف بدا الأمر قبل ذلك؟» نظرت (زوي بورسل) إلى الحاضرين حولها «كيف كان يحدد نوع الجنس قبل ذلك؟»

- «من يعرف، ربما كان نوع الجنس الذكري يحدد عند الحيوانات الثديية عن طريق الحرارة. كما هو الحال حتى اليوم مع سلاحف منقار الصقر أو تماسيح المسيسيبي» كانت (ياسمين) قد وقفت أيضاً، وكتفت يديها فوق بعضهما أمام المديرة المالية، «أو عن طريق الإشارات الاجتماعية، كما هو الحال عند سمك اللبروس أزرق الرأس، حيث تقوم كبيرة الإناث بالتحول خلال أسبوع إلى نسخة ذكرية لتترأس قطيع الإناث عند موت الذكر أو انتهائه كوجبة طعام».

- «على أي حال يوجد الكثير من الأمثلة في عالم الحيوان، التي تقوم بتحديد نوع أجناسها دون الحاجة إلى الصبغيات» تمتم (سندر) برضاً وقد

استغرب مزاجه الجيد «إن كان المرء من الذكور، فيجب أن يكون طيراً أو من الزواحف أو فراشة. فهناك تحمل الإناث الكروموسومين XY وتقوم بتحديد نوع الجنس».

- «ماذا تعني بهذا؟» نظرت المديرة المالية إلى (سندر) بغضب.

- «النساء يتلاعبن بنا نحن الرجال» همس (سندر) بنبرة حانقة «فنحن نقوم بالمهمة الصعبة لتحديد نوع الجنس ونعاقب لهذا، كما سمعتي قبل قليل، إن الكروموسوم Y الخاص بنا يبدو في حالة تدعو إلى الشفقة. فهو في طريقه إلى الضمور، بعد أن حدثت طفرة صغيرة أدت إلى توليه القيام بدور تحديد نوع الجنس».

- «توشك دموعي أن تتساقط!».

- «في الماضي كان الصبغيان X وY يتبادلان عند تكوين الخلية الجنسية أو نشأة حياة جديدة، وذلك لوجود أجزاء كثيرة متشابهة في الحمض النووي خاصتهما. ولكن من خلال الدور الجديد للكروموسوم Y في تحديد نوع الجنس، حدث تباين في الحمض النووي. ومع ازدياد التطور كانت تختفي التشابهات والتطابقات بين مقاطع الحمض النووي.

وهذا بدوره أدى إلى أن المقاطع الغير متوافقة من الكروموسوم Y لم تعد قادرة على الاستمرار طويلاً في ائتلاف مع الكروموسومات X للتشارك في إنشاء حياة جديدة. وبهذا فمع مرور الوقت سيتم تعطيل جين بعد آخر في الكروموسوم Y».

- «إنه سيناريو جيد بحد ذاته» علّقت (زوي بورسل) بخبث.

- «اليوم خمسة بالمئة فقط من الحمض النووي للكروموسومات الجنسية يتطابق ويتآلف لتكوين حياة جديدة. على العكس من كروموسومي X الخاصين بالمرأة، فإنهما يستطيعان التبادل بشكل تام. بينما استبعد

الكروموسوم Y إلى حد كبير. أصبح الرجل في طريقه إلى الانقراض» أنهى (سندر) شرحه بضحكة مريرة.

- «ولكن باستطاعة الكروموسوم Y إعادة ترميم نفسه» تمتم (ند بيكر).

- «صحيح أن بعض أجزاء الكروموسوم Y قادرة على ذلك. ولكن للأسف فهذا ينسحب فقط على المعلومات الموجودة بالفعل، والتي يمكن استعادتها . ولن يتم إتاحة الحصول على أي معلومات جديدة. وهنا تكمن المشكلة وخصوصاً مع وجود ظروف بيئية متغيرة».

- «جميل. نحن النساء لدينا كروموسومين متساويين ومتماسكين، بينما يمتلك الرجال واحداً، وفي طريقه إلى التقزّم. لابد أن الطبيعة تعرف ما تقوم به» قهقهت (زوي بورسل) بطريقة شريرة.

- «ولكن واحد فقط من الكروموسومين X الأنثويين هو الفعال» تدخلت (ياسمين) في الحديث «أما الأول فكان معطلاً منذ البداية. عاجز تماماً!»

- «جيد كذلك». نظرت (زوي بورسل) إلى مستشارها بانزعاج.

- «(ند)، ما هي الخطوة التالية؟»

- «الحقيقة لن يمكننا هنا التقدم أكثر» قال (بيكر) ونظر مفكراً إلى الموجودين حوله «حتى نتمكن من إجراء فحص دقيق لهذا الكروموسوم، لا بد لنا من الإسراع، واستخدام موارد أكثر. هذا هنا مجرد مختبر صغير. في (بوسطن) لدينا إمكانيات أكبر بكثير...»

أومأت (زوي بورسل). فلقد أكد لها (بيكر) ما كانت تفترضه منذ البداية. فكرت في الكلمات التي قالها لها رئيس مجلس الإدارة في (فيلكابامبا). ربما وجدت الجوهرة، التي ستساعدها على التخلص من (فولسوم). يجب أن تعرف أكثر، دون أن يشعر (فولسوم) بشيء. إلا أن

(بوسطن) لن تكون مناسبة لذلك. ففي مقر الشركة سيعلم بكل شيء مباشرة. بشكل عام كانت راضية بينها وبين نفسها، لأنها قامت مسبقاً بتحضير الإمكانية البديلة.

- «كلا. سنتوجه إلى (صوفيا أنتي بولس). علينا الانطلاق فوراً. لقد قام (سولفان) بترتيب كل شيء».

أدارت (ياسمين) ظهرها وتوجهت نحو الباب.

- «إلى أين أنت ذاهبة؟» صاحت المديرة المالية خلفها.

- «إلى أين! إلى شقتي طبعاً».

ضحكت (زوي بورسل) باستخفاف «يبدو أنك لم تدركي بعد ما الذي يجري هنا. أليس كذلك؟»

- «كلا. ومن أين لي هذا. أنا لا أعرف ما الذي تريدونه مني».

- «إذاً أنا سأعلمك» بكلمات لاذعة أخبرتها (زوي بورسل) عن خيانة (سندر) «... ونحن نعتقد أنك متورطة معه في هذا الأمر».

حدقت (ياسمين) بـ (سندر) «(واين)، قُل أن ذلك غير صحيح».

- «بلى. إنه صحيح» نظر إلى (ياسمين) بندم، ثم استدار إلى (بورسل) «ليس لها علاقة بالموضوع».

- «من سيصدق ذلك» استدارت (زوي بورسل) وقد ارتسمت على شفتيها ابتسامة باردة «(سولفان)، سنأخذ الجميع معنا».

- «هل يمكنني إطعام الحيوانات على الأقل؟» سألت (ياسمين) بشكل مفاجئ.

- «أي حيوانات؟» حدقت (زوي بورسل) إلى (سندر) بنظرات متسائلة.

- «إنها حيوانات التجارب خاصتنا ...»

- «هراء. ألا يستطيع شخص آخر القيام بذلك؟»

- «لقد أبديت استعدادي لإطعام الحيوانات أثناء عطلة نهاية الأسبوع هذه. ولن يكون أحد هنا حتى يوم الإثنين».

- «الأمر يسير هنا هكذا، لتوفير التكاليف» قال (سندر) «يوزع العاملون على عطل نهاية الأسبوع، فيتناوبون على رعاية الحيوانات وإطعامها، ومراقبة التجارب الجارية».

- «فليجوعوا لمرة واحدة إذاً» تمتمت (زوي بورسل).

- «هذا غير ممكن» هزت (ياسمين) رأسها مستنكرة. «هناك بعض الحيوانات التي لا بد من متابعتها بشكل يومي. فهي تخضع لسلسلة اختبارات نشطة ولا بد من رصد ردود أفعالها بشكل منتظم. وإن أردت فهذه الحيوانات هي ضمان للأرباح المستقبلية لـ (تيسابي)».

أومأ (ند بيكر) برأسه مؤيداً لما قالته (ياسمين) للمديرة المالية.

- «حسناً. إذاً فلتنهي ذلك. ولكن بسرعة».

رافق (سباروف) (ياسمين) إلى الجناح الذي يضم حيوانات الأبحاث، التي كان معظمها من فئران التجارب. دخلا الغرفة الأولى الممتلئة بالأقفاص، وبدأت (ياسمين) تقديم الطعام حسب البرنامج المحدد لذلك، الذي كان معلقاً على الحائط المجاور للباب.

حين فتحت باب القفص الرابع لتقديم الحبوب وتجديد القش، كانت ستة من فئران الحقل تتنشق الهواء حولها بنشاط.

ثلاثة من الفئران كانت شابة وقوية، بينما الثلاثة الأخرى كانت هرمة وقد دنا أجلها. متوسط العمر المتوقع لفئران الحقل يصل إلى ثلاث سنوات، وكانت (ياسمين) تعلم أن الفئران الثلاثة قد وصلوا إلى ذلك العمر.

جثمت الفئران الثلاثة الهرمة في الجزء الخلفي من القفص. فلم تعد

لديها القدرة على المنافسة، وعليهم أن يرضوا بما تبقي الفئران الفتية من طعام. هذا إن تركوا شيئاً منه.

على ما تذكر، لقد كان القفص رقم 4 يحتوي على الفئران التي أجرى عليها (واين سندر) تجاربه الناجحة الخاصة بالجيل الجديد من مرهم الجروح والحروق.

تهاوت الفئران على الطعام. وكانت الفئران الشابة تستمر بدفع الفئران الهرمة إلى الخلف. ستقوم لاحقاً بالاقتراح على (واين) أن يفصلهم عن بعضهم.

قامت بملء المشارب بالمياه ثم عادت برفقة (سباروف) إلى جناح المختبرات.

- «الآن يمكننا الانطلاق» قالت (زوي بورسل) ونظرت إلى من حولها.

-- «بقي شيء أخير» اتجهت (ياسمين) إلى (سندر) «(واين)، لماذا وضعت الحيوانات الفتية في القفص نفسه مع الهرمة؟ لم يعد بمقدور المسنين منهم حماية أنفسهم من الشباب».

- «وما عسى هذا أن يكون مجدداً؟» تذمرت (زوي بورسل).

استدارت (ياسمين) صوب (بورسل) «لا شأن لكِ بهذا بتاتاً. لا تقحمي نفسك بهذا الموضوع!».

- «عن أي حيوانات شابة تتحدثين؟» سأل (واين سندر).

- «لا يزال هناك ثلاثة من الهرمين من سلسلة التجارب الخاصة بمرهم الجروح، على قيد الحياة...»

- «أنا لا أفهم...»

أدارت عينيها بعصبية، فقد كان ذلك طلب خاص من (واين) أن لا يمارس أي ضغط على تلك الحيوانات الستة المتبقية. لقد كان يعتني بتلك الحيوانات بشكل شخصي طوال مدة سلسلة الأبحاث، بل وقام بمخالفة كل

التعليمات بإعطائهم أسماء، حيث كان ذلك ممنوعاً، لتجنب بناء جسور عاطفية تجاه حيوانات التجارب.

- «(واين)، هناك ستة فئران في القفص. ثلاثة منها هرمة، وثلاثة شابة وقوية».

خلال ثوانٍ معدودة أصبح وجه (سندر) محمراً بشدة. وانتفخ وريد عنقه كأنه خرطوم إطفاء الحرائق، وجحظت عيناه كأنهما ستخرجان من محاجرهما.

- «القفص رقم أربعة؟» سأل بصوت أشبه بالنعيق.

- «نعم».

ركض (سندر) خارج المختبر. اتجه نحو الجناح الخاص بحيوانات التجارب، فتح كل الأبواب بقوة واجتازها جميعاً بعجالة إلى أن وصل إلى القفص رقم أربعة. التفت أصابعه حول القضبان. ستة فئران. ثلاثة هرمة وثلاثة شابة.

تكوم الكبار في الجزء الخلفي من القفص بينما كانت الفتية لا تزال تلتهم الطعام.

انتابه شعور غريب وشعر بالدم يهرب من رأسه ثم بدأ قلبه يخفق بسرعة. أحس بوخزات مؤلمة في منطقة الصدر، وبدا فجأة كأن حجراً ضخماً قد استقر في أمعائه.

وقف كل من (سباروف) و(سولفان) و(ياسمين) إلى جانبه فجأة، وبعد ثوانٍ حضر (ند بيكر) أيضاً.

- «ماذا حدث؟» سألت (ياسمين) «إن الأمر كما أخبرتك به سالفاً، فلماذا يبدو عليك كل هذا الاضطراب؟»

بدأ بالضحك. تبسم ثم قهقه ضاحكاً، ضرب بكفيه على قضبان

القفص. وتصاعد ضحكه حتى وصل إلى نوبة متشنجة، بدأ يهتز، تجمعت الدموع في عينيه ثم انهمرت على خديه.

استدار فجأة وتوجه نحو (ياسمين) وقام باحتضانها. كان جسده يرتعش. وضع رأسه على كتفها وتساقطت دموعه على عنقها.

- «أين أنتم؟ هل عاد ذلك المجنون أخيراً إلى صوابه؟» صاحت (زوي بورسل) أثناء دخولها إلى القاعة.

أخيراً ابتعد (سندر) عن كتف (ياسمين). وقد ظهر في عينيه بريق الانتصار، قبل أن يبصق باستعلاء أمام قدمي المديرة المالية.

- «من الآن فصاعداً، أنتظر المزيد من الاحترام والتقدير» كانت عيناه تشع كأنهما حمم منبثقة.

- «(واين)...؟» وضعت (ياسمين) يدها برفق على ساعده.

استدار (واين) مجدداً نحو القفص.

- «يوم الخميس كان ما يزال في هذا القفص ستة فئران هرمة. وقمت بإدخال الحمض النووي بواسطة خليط صناعي جاهز من الليبوبروتين لثلاثة منها».

صمت الجميع، حتى الفئران بدت كأنها تجمدت في أماكنها، فلم يسمع صوت خشخشة أو حركة كالتي تصدر من أقفاص الفئران عادة.

- «هل تعني...؟»

- «نعم! هذا تماماً ما عنيته» صاح (سندر).

- «عن ماذا تتحدثان؟» كان صوت (زوي بورسل) المرتفع ينم عن توترها. لقد أدركت أكثر عندما فهمت ما قاله (سندر).

- «غالباً ما كانت تستعمل الفيروسات كناقلات للجينات. إلا أنه قام باستخراج الحمض النووي ومزجه بمادة نقل محضرة مسبقاً. هذه عملية بديلة. فهناك خليط جاهز لليبوبروتين خاص بتجارب نقل العدوى. وقد

قام بحقن ثلاثة من الفئران بذلك الخليط» بدت (ياسمين) كأن قد دخلت في حالة تنويم مغناطيسي، «والنتيجة ثلاثة فئران شابة وقوية...»

- «هل تعنين الحمض النووي المستخلص من العينات، التي تم سابقاً...»

- «من الكروموسوم Y الإضافي، نعم»، نظرت (ياسمين) إلى (سندر) بريبة «هذا ما عنيته، أليس كذلك؟»

أومأ (كريس) وابتسم بزهو. لقد أصبح النجم منذ اللحظة.

- «أنا لا أكاد أصدق» قالت (ياسمين).

- «ولم لا؟» ضحك (سندر) وصفق بيديه من شدة الفرحة. «نحن نعلم، أن ذلك الكروموسوم الذكري الصغير والمتقزم يمتلك القدرة على إعادة ترميم نفسه. وهذا الكروموسوم الذكري المتضخم لابد أنه ممتلئ بالجينات... أليس ما نراه هنا، دليل على ذلك؟ انظري إلى الفئران... إن هذا الكروموسوم الذكري يعمل على التجديد بشكل تام».

الكتاب الرابع

التَجرِبة

«وهذا ابتداؤهم بالعمل والآن
لا يمتنع عليهم
كل ما ينوون أن يعملوه»

سفر التكوين

الفصل التاسع والعشرون

(فونتينبلو)

ظهيرة يوم الأحد

- « على الأقل أتى في موعده» تمتم (هنري مارفن) أثناء تقدم سيارة السيتروين التي كان قد أرسلها إلى المطار. رُسمت على وجهه ابتسامة المنتصر بينما كان يضغط بقوة على يد المونسينيور(تيساني).

شعر المونسينيور بالألم، إلا أنه لم يقطب وجهه، بل أخذ يتأمل رداء (مارفن) بابتسامة متعالية.

- «رداء جوقة الكنسية المصنوع من أجود أقمشة الكانتاتا، المشغول بالمطرزات الثمينة. ليس سيئاً يا عزيزي (مارفن). أتعلم أنه كان يتم ارتداؤه مع غطاء للرأس؛ للحماية من الأمطار، وأنه يعكس ثراء مرتديه؟» أشار (تيساني) إلى الياقة المحيطة بالرقبة كأنها الدرع.

- «أنا أعرف تاريخ هذا الزّي بشكل جيد جداً، عزيزي (تيساني)» - تلاعب (مارفن) بالتلميحات- «تم تطويره من قلنسوة الراهب في العصر الكارولنجي...»

- «إذاً أنت تعرف أيضاً، أن قساوسة اليوم يرتدونه في الاحتفالات الطقسية التي تجرى في الهواء الطلق. ألا يكفيك القيادة العالمية للجمعية؟ أتريد أن تصبح قساً أيضاً؟» رمقه (تيساني) بنظرة ماكرة.

- «قمة رأس البابا الجديد تفتقد إلى التاج، الذي يعتبر رمز القوة العالمية. ولهذا إن (بندكت) أول بابا في العصر الحديث يتنازل عن ذلك. هل تريد أن تكون أكثر من البابا؟»

كتم (مارفن) غضبه الذي بدأ بالتصاعد مستعيناً بفكرة، أن (تيساني) يحاول اختبار قدرته على ضبط أعصابه. ستكون إشارة جيدة، إن قامت (روما) بالتفاعل مع اتصاله بشكل سريع. خلافاً لكل الرياء السابق فإنهم كانوا بالتأكيد مهتمين بما كان قد عثر عليه.

- «لديك من يدعمك، عزيزي (مارفن). أما أنا فلوحدي» أومأ (تيساني) إلى (إريك مايكل لافاليه) و(برانداو)، اللذين كانا يقفان منتظرين خلف (مارفن).

قبل (مارفن) بذلك السبيل وأشار إلى الخلف.

- «المونسينيور (لافاليه) يعتبر يدي اليمنى ويشرف على حملتنا الدعائية المقبلة. إضافة إلى أنه خبير في اللغات القديمة. أما اللطيف (توماس برانداو)، فهو رجل الكنيسة مثلك. وهو أيضاً يستطيع قراءة اللغات القديمة. كما أنه يدعم شؤون البريتوريانيين في (برلين)».

- «هكذا إذاً».

أمال المونسينيور رأسه على رقبته وأخذ يتأمل المبنى الرئيس. لقد تم بناء ذلك القصر المنفصل ذو الواجهة التي تعكس بتصميمها عصر النهضة، في نهاية القرن التاسع عشر. يزيد طوله عن سبعين متراً وعرضه عن العشرين متراً ومُقسم إلى خمسة أجزاء. كانت الأبنية على جانبي القصر مكونة من طابق واحد، ثم تتبعها أجزاء مبنية على طابقين قريبة من منطقة الوسط، التي ترتفع في الوسط لتصبح ذات طوابق ثلاثة.

ولقد زادت النوافذ الضيقة والعالية من الشكل التصاعدي للبناء. بينما ارتفعت مداخن المدافئ على أسطح بعض الأبنية، عالياً باتجاه السماء.

- «إن أعمال الترميم التي قمتم بها رائعة حقاً» تمتم قس الإدارة البابوية الرومانية.

- «يتناسب مع البريتوريانيين» قال (مارفن) برضاً وأرشده إلى الطريق.

- «أنت تعلم كيف يفكر منافسوك حول هذا». تمتم المونسينيور.

- «ليس لدي منافسون أخشاهم!» ضحك (مارفن) بثقة. «فالبريتوريانيين متحدون في الرأي، أن الأمور في (روما) يجب أن تسير بشكل مختلف...»

كان (مارفن) قد قرر منذ أكثر من عقد من الزمن أن يبني مركزاً للبريتوريانيين في (فونتينبلو)، حين عُرض عليه هذا العقار الهائل، على بعد نحو خمسين كيلومتراً جنوب شرق (باريس).

هذه المدينة التاريخية، التي أعلن (نابليون) من قصرها تنازله عن العرش، تقع على بعد مناسب عن (باريس) بخطوط مواصلاتها العالمية. وبالرغم من ذلك كان الموقع الذي يقطنه ما يقارب العشرين ألف نسمة يوفر الهدوء، وبعيد بشكل ملائم عن ضجيج العاصمة.

- «منافسوك يدعون أنك بهذه الطريقة تقوم بتبديد أموال الجمعية!».

- «هراء. لقد كانت فرصة جيدة للشراء. ولكن في النهاية يقومون بقلب الحقائق» لقد أتاح (مارفن) بهذا الشراء الفرصة لكونت مفلس، أن يعيش أمسية فاخرة بعد أن فقد كل ما تبقى من ثروته بسبب المضاربة في البورصة.

كان العقار يقع بالقرب من (فونتينبلو) مختبئاً عند طرف منطقة للاستجمام تبلغ مساحتها 25000 هكتاراً، تعتبر بغاباتها المتسعة ذات أشجار البلوط، والصنوبر، والزان، مقصداً محبباً للباريسيين. كما تعتبر التشكيلات

الفريدة للأحجار الرملية حافزاً مشجعاً لقدوم هواة التسلق، ويعتبر من الصعب فقدان شخص في هذا الجزء من مساحة الغابات.

دخلوا المبنى الأوسط من القصر، الذي كان يضم منطقة الاستقبال، بينما كان هناك ممران على اليمين واليسار يقودان إلى الغرف.

- «ماذا حدث بشأن الاعتراف بالأخوية؟ هل استطعنا التقدم خطوة إلى الأمام؟».

كانا يتناولان طعامهما في إحدى الغرف الأمامية بينما كان (تيساني) بانتظار ذلك السؤال.

- «بلا شك، سيكون هناك دعم أكبر لجمعية بريتوريانيين الكتاب المقدس، إن أصبح لديهم في القمة، أحد القساوسة المرسومين كما الحال مع (الأبوس داي). لابد أنك ستسامحني على صراحتي».

- «لحسن الحظ لا تقوم الإدارة البابوية في (روما) بتقرير كل شيء». رد (برانداو).

- «الأبرشيات الألمانية معروفة بمواقفها الناقدة والحاسمة في بعض الأحيان».

أجاب (تيساني) بابتسامة خفيفة: «ولكن على ما أذكر إن قدرة الإدارة البابوية الرومانية على الإقناع كانت دائماً لا تقهر».

احتك فكا (مارفن) ببعضهما مصدرين صوتاً، كأنهما رحى طاحونة عملاقة. كان (تيساني) مقدم الالتماس ويتصرف كأنه صاحب الأراضي. إن لم يقدم الإجابات الصحيحة، فيمكنه المغادرة فوراً.

- «هناك بعض الوشاة في الفاتيكان، الذين يحاولون إقناع قداسة البابا أن منح البريتوريانيين صفة أخوية أو مطرانية خاصة سيعطي إشارات خاطئة. فظهورهم المفاجئ سوف يزعزع الحل التوافقي والهدوء السائد بين الكنيسة والعلم».

- «إن سألتني، فإنه هدوء مميت» أخذ (مارفن) رشفة من النبيذ الأحمر ثم طقطق بلسانه مستحسناً طعمه.

- «سنزلزل العالم».

قطب (تيساني) وجهه. «ماذا ينوي هذا المجنون أن يفعل؟»

- «سيأخذ الأمر وقتاً أكبر مما قدرنا. فالبابا مشغول جداً بأمور أخرى، ومن غير المتوقع أن تصدر الموافقة قبل انتخابك...»

- «ولماذا أنت هنا إذاً؟» صاح (مارفن) فاقداً أعصابه «هل تحاول خداعي مجدداً كما حدث في (مونت كاسينو)؟» ضرب بقبضته على الطاولة، حتى انقلب كأس النبيذ خاصته. فانسكب النبيذ كأنه بركة من الدماء انتشرت على مفرش الطاولة المصنوع من الحرير الدمشقي.

رفع (تيساني) يديه بإيماءة استرضائية.

- «ولكن إن كان استحقاق الأخوية فعلاً على هذا القدر من الأهمية...؛ لهذا أنا هنا للتحقق...»



اكتظت الكتب على الرفوف التي كانت تغطي جدران الغرفة المزخرفة بشكل مكلف وقد حُفر عليها مشاهد من الكتاب المقدس.

اصطفت الكتب إلى جانب بعضها البعض، إلا أنها كلها كانت نسخاً متعددة لكتاب واحد.

الكتاب المقدس.

- «يقوم البريتوريانيين بجمع النسخ المختلفة للكتاب المقدس من أنحاء العالم. أنا شخصياً أقوم بمتابعة عملية الفهرسة مع أحد المؤرشفين المختصين».

أومأ (مارفن) لـ (لافاليه) و(براندداو) «إنك ما تزال لا تعرف هذا، أليس كذلك؟»

وقفوا أمام منطقة فاصلة عند منتصف أحد جدران رفوف الكتب. كانت مكتبة زجاجية بارتفاع مترين تقريباً، تملأ ذلك الفراغ. برزت المكتبة مسافة نصف متر إلى الأمام باتجاه الغرفة، بحيث يمكن رؤية محتوياتها من ثلاث جهات. بدا من الحساسات الصغيرة التي يمكن رؤيتها من خلال الزجاج، أن المكتبة كانت مؤمنة إلكترونياً.

أرضيتان زجاجيتان، كانتا تفصلان القسم العلوي من المكتبة.

على تلك الأرضيات وقفت حاملات صغيرة تشبه حاملات النوتة الموسيقية. كانت هناك اثنتان منها على الجانبين وحاملة واحدة في الجهة الأمامية على كل من الأرضيتين.

وضعت عشر أوراق مخطوطة على الحاملات كُتبت عليها رموز تعبيرية بخط اليد، بدت أقرب إلى الرسوم منها إلى الأحرف. وكانت الكتابة ذات لون باهت.

- «كما تعلم، إن النسخة المدونة بخط اليد والمعروفة باسم المجلد (19A الكوديكس) والمعروضة في المكتبة العامة في (سانت بطرسبرغ)، تعتبر عموماً أقدم مخطوطات الكتاب المقدس» قال (مارفن).

- «المخطوطة البتروبوليتانية، أقدم نص أصلي كامل باللغة العبرية» تمتم (لافاليه).

- «كُتبت من قبل الماسوريين، الذين تمكنوا من قراءة ما تم تدوينه بالحروف العبرية الساكنة، في أقدم نصوص الكتاب المقدس». بدا الحماس العلمي في نبرة صوت (لافاليه).

- «في إحدى النقاط العلمية لا بد لي من معارضتك، يا (لافاليه). الحقيقة أن مجلد حلب الذي يشمل العهد القديم يعود لعدة عقود قبل

ذلك، ويذلك يكون أقدم نسخة للكتاب المقدس الأصلي». وقف (مارفن) بذراعين مفتوحين أمام المكتبة، بينما كانت لغة جسده الممتلئ توحي بشعوره اللامتناهي بالفخر.

- «لكن للأسف لم يكن كاملاً» ابتسم (تيساني)، «وهذا ما ركزت عليه إجابة (لافاليه). أليس كذلك؟»

- «لقد وجد كاملاً، واحتوى على النص العبري الأصلي للكتاب المقدس، إلا أنه كان من حيث التوسع أقل بشكل ملحوظ من نص التوراة اليونانية ليهود الشتات» تبسم (مارفن) بثقة.

- «لا يهم. فبالنسبة لنا نحن المسيحيين الكاثوليك تعتبر النسخة اللاتينية للكتاب المقدس هي الحاسمة».

- «لا تتزعج بهذه السرعة يا مونسينيور (تيساني)» ضحك (مارفن) باستمتاع «نحن هنا لا نشكك بالعقيدة. أنا أتحدث عن أمر ثقافي تاريخي فريد».

ضحك (لافاليه) بسخرية، «الحقيقة على أي حال، هي أنه لا يوجد كتاب مقدس واحد . ولم تكن ترجمة (هيرونيموس) التي تمت في القرن الرابع، سوى محاولة لإزالة الفروقات بين نسخة التوراة العبرية والنسخة اليونانية».

رفع المونسينيور يديه، «إلى أي من النسخ التوراتية تعود هذه المخطوطات؟».

- «إنها عشر صفحات من مئة واثنتين وتسعين صفحة مفقودة من مجلد حلب» ارتج صوت (مارفن) لشدة اعتزازه.

أزاح المونسينيور (تيساني) بحركة متكبرة (لافاليه) من مكانه وحدق بصمت في المخطوطات.

- «من أين أتيتم بها؟» نطق (تيساني) الكلمات بطريقة متقطعة وممدودة لشدة توتره.

- «هذا سري» ضحك (مارفن) بفخر. «في عام 1947 حُرق كنيس حلب، بعد أن قررت الأمم المتحدة تقسيم فلسطين وإنشاء دولة (إسرائيل). وقد لحقت أضرار كبيرة بالمجلد. وتم تقطيعه إلى أجزاء، وقام أعضاء المجمع بإخفاء أجزائه. وقاموا بتهريبها في عام 1959 عبر (تركيا) إلى (القدس). فقط مئتان وخمس وتسعون صحيفة من أصل أربع مئة وسبعة وثمانين، هي التي وصلت إلى هدفها».

- «وهذه هنا ...»

- «حسناً، عشر من الصحائف التي فُقدت موجودة هنا» -كان صوت (مارفن) يخفي نبرة تهديد مظلمة- «أردت فقط أن أثبت لك بذلك، أن البريتوريانيين يأخذون مهمتهم على محمل الجد. والآن علينا التعامل مع مستتقعات الكفر».

ضغط (مارفن) على أحد أزرار جهاز التحكم عن بعد، فانزلق باب فاصل بهدوء تام تقريباً. في الحجرة الخلفية، كانت هناك طاولة ومجموعة من الأرائك الجلدية.

أخيراً توقف الأزيز الخفيف الناتج عن المحركات الإلكترونية. وكأن أيدٍ خفية قامت بإنزال المخاريط الضوئية من السقف إلى الأسفل لتسلط حزمة ضوئية على سطح الطاولة التي وضع عليها إثني عشر لوحاً طينياً، وثلاثة عظام، ومسمار أساس من الطين.

تقدم (مارفن) من الطاولة ومد يده، تردد ثم عاد وأرجعها ببطء إلى الخلف. «للأسف علينا الاهتمام بهذه الأشياء حالياً أكثر من بقايا توراة حلب» بدا صوته ثخيناً واجتاحت جسده قشعريرة. ثم أعاد السيطرة على نفسه. تنحى جانباً وجلس بوجه عابس على إحدى الأرائك.

أمسك (لافاليه) بالمخطوطات المدونة يدوياً، التي كانت على الطاولة إلى جانب الألواح.

- «هذه أيضاً كنوز لا تقدر بثمن».

- «كيف يمكنك أن تضع نصوصاً وثنية نُقشت على ألواح طينية على المستوى نفسه مع كلمة الرب خاصتنا؟ (لافاليه!) توقف!» قاطعه (مارفن) بشكل حاد. بدأ الشك يتسرب إليه. أين كانت روح البريتوريانيين؟ مازال على (لافاليه) أن يخضع لاختبار الاستحقاق... ولابد أن يتم ذلك بسرعة.

بالرغم من الكلمات المُحذرة، ابتسم (لافاليه) برضاً تام. جمع الصحائف بين يديه وقام بلفها. «المونسينيور (برانداو) وأنا قمنا في مرة سابقة بدراسة هذه النصوص ومقارنتها بالترجمة المجتزأة التي أحضرها المونسينيور (برنداو) معه من (برلين)».

- «وماذا كتب في تلك الألواح؟» قال (تيساني) بينما كان يتلمس بهدوء أحد الألواح بأصابع يده اليمنى.

أثناء ذلك سقطت عيناه على العظام.

- «انتبه إلى العظام» تذكر آخر كلمات أوصاه بها قداسة البابا.

- «دعنا نبدأ بنصوص نبوخذ نصر الثاني. وحسب علمي هي أول النصوص التي عُنيت بوصف معركة نبوخذ نصر مع (الكيش)، إضافة إلى أنها فسرت أسباب تلك الحرب».

بدا (لافاليه) كأنه يتضخم. أصبح جسده مشدوداً وانتقلت ارتعاشات فرحه إلى نبرات صوته. ثم بدأ يقرأ:

((أنا هو نبوخذ نصر ملك بابل، الأمير المبجل، المقرب من الإله مردوخ، محبوب الإله نيبو المفكر الساعي إلى الحكمة، الذي يخطو على خطاهم الإلهية، ولا يزال يجل عظمتهم، راعي المدينة، الذي لا يكل، والمهموم بالحفاظ على إيزاجيلا وايزيدا، الولد البكر لملك بابل نبو بولاصر.

منذ ان ولاني كبير الآلهة مردوخ ليصبح جلالتي ملكاً على قومي

وائتمنني بالسيادة على كل الأمم. ومنذ أن وضع نيبو، حامي كل السموات والأراضي، زمام الشعوب في يدي ومنحني صولجان الصالحين لأدير أمورها وأدعمها بكل ما أوتيت من قوة. أصبحت أُجلهما وأهتم بألوهيتهما.

أقدر مكانتهما المقدسة. وأمتلئ بالرهبة والوجل أمام الإله والآلهة عند ذكر اسميهما. فبعظيم عونهما تمكنت من الوصول إلى الأراضي البعيدة، والجبال المتطرفة من البحار العليا إلى البحار السفلى، عبرت الدروب الوعرة والسبل المسدودة، التي كان من الصعب تخطيها ولم تكن الأقدام تثبت عليها، طرقات مليئة بالتحديات والعطش.

تغلبت على الثائرين وقمت بأسر الأعداء. حفظت النظام في البلاد ومنحت الشعب عيشاً رغيداً. وأبعدت كل من هو سيئ وشرير من الشعب. وجلبت إلى مدينتي بابل كل غالٍ ونفيس من الأحجار الكريمة والذهب، أكوام متلألئة، منتجات الجبال وكنوز البحار، وكميات ضخمة من الهدايا والعطايا))».

تنهد (لافاليه) متعباً، ثم صمت قليلاً قبل أن يشرع بالتوضيح «لم تحتوِ الألواح الأولى، التي تعود إلى ملك (بابل) على أكثر من تصوير وتبرير لوجود مُلكه. لا شيء جديد، فهذا أمر مألوف من ألواح أخرى وملوك آخرين، ولكن بالطبع تعتبر أيضاً من الكنوز» ابتسم ووقف إلى جوار الطاولة، كأنه مركز المجموعة الشمسية.

أومأ (مارفن). فهو لم يرَ (لافاليه) في مثل هذه الحالة من قبل. حيث بدا كأنه ممثل مسرحية يتأرجح في أداء دوره بين الحركة والهدوء، ويمزج في محاضرته بين النبرات العالية والنبرات المنخفضة، عاكساً بذلك لوناً من الحيوية، كأنه هو المقصود بكل ذلك التقديس.

- «اسمعوا ما صرح به نبوخذ نصر الثاني لأجل الإله مردوخ، كبير الآلهة والراعي الأعلى.

- «((قال مردوخ: ملك وراعي بابل. بعد الطوفان الكبير نقل الآلهة المملكة إلى كيش، لمعاقبة الرعاة السيئين ولتوحيد الرعية على طاعة الآلهة وتشييد مملكة عظيمة.

والآن خضعت البلاد للذل، وضعفت المملكة، خانها الرعاة السيئون. وتم نسيان إرادة الآلهة.

وقال الإله مردوخ: أيها الملك وأيتها الرعية، قدسوا إلهكم، وحدوا الأراضي، اجعلوا بابل قوية واحترموا وحافظوا على إرث المملكة. فإن بابل هي الفأس وأداة الحرب، لدحر شعوب وممالك لا تطيع أمر الآلهة.

قَدّس راعي كيش، الذي أُعطي المُلك من قبل، كأول من وحد الرعية لخدمة الإله وأتباعه.

اسمعوا كيف كان نبوخذ نصر يمجد إلهه: اتجهت نحو الشرق ودحرت الكيش، قمت بتوحيد الممالك والرعية، طهرت المعبد وأحضرت عظام الراعي إلى بابل. بنيت معبداً لتمجيد نينورتا. قدست مردوخ وأحضرت له الألواح السبعة وعظام الراعي، كدليل على ولائي له.

عادت القوة إلى بابل من جديد، وكذلك عادت سلطة الملكية، بحيث تتجلى قدرة مردوخ للشعوب، ليقدسوك ويمجدوك ككبيرِ للآلهة. وكنت أنا خادماً مطيعاً وراعياً صالحاً.

أيها العظيم مردوخ، ابن الآلهة والإله الأكبر، تقدس اسمك، يا من أعطيتني القوة والعظمة))».

أنهى (لافاليه) كلامه بصوت مرتفع ويدين مرفوعتين بشكل مثير للعواطف، ولم ينزلهما حتى تأكد من التأثير الذي أحدثه على مستمعيه.

- «هل تعرف عالم الآلهة الخاص ببلاد ما بين النهرين؟» سأل بابتسامة مائلة.

- «حدثنا عنها إن كان الأمر سيفيدنا» تمتم (تيساني)، الذي أخفى

ارتياحه خلف عينيه المحجوبتين. فحتى الآن لم يُذكر أي شيء يمَس نصوص الكتاب المقدس.

- «مردوخ هو في الحقيقة مجرد إله لمدينة (بابل). ثم يرتقي فيما بعد ليصبح المسيطر على جميع الآلهة. وكلما زادت عظمة إله مدينة ما، كلما زادت قوة ملك تلك المدينة. وبصعود (بابل) بدأ أيضاً صعود مردوخ أو العكس. يمكنكم فهم ذلك كيفما شئتم».

- «جيد، تابع...» ارتجفت اليد اليمنى لـ (تيساني) لشدة نفاذ صبره.

- «إلا أنه لا يمكن للمرء الوصول إلى الهيمنة الكلية الرمزية إلا بالسيطرة على (كيش)، حيث من المفترض أنه بدأ الحكم الملكي» لم يكن بالإمكان إيقاف (لافاليه). فقد تفجر، كأنه نافورة تحت ضغط هائل. «لقد كان (نينورتا) إله المدينة في (كيش)، إضافة إلى كونه إله الصيد والحرب، وإله الزراعة والتكاثر. وهو يماثل (زبابا)، كما يطلق على إله (كيش) أحياناً. ويمكنكم اعتباره منافساً لمردوخ. والحقيقة أنه عندما قام نبوخذ نصر الثاني بإعادة إعمار (بابل)، بنى معبداً لـ (نينورتا)، إلا أنه كان وبشكل ملحوظ، أصغر حجماً من المعبد الذي شيده لمردوخ إله مدينته. وكان لهذا أسبابه التي دونت في الألواح الستة القديمة» ابتسم برضاً.

- «وماذا عن الألواح الستة الأقدم؟» نظر (تيساني) إلى (لافاليه) بفضول.

- «حسناً، الألواح الستة الأقدم لا تعود إلى نبوخذ نصر. إنها تعود إلى عصور قديمة لا يوجد لها سجّلات حتى يومنا هذا. إنه أمر مذهل! فالألواح الستة الأقدم التي تم العثور عليها حتى الآن، تعود إلى زمن أقدم من ذاك بكثير. هل تسمعون!».

- «هذا ما قاله (نينورتا)، ابن إنليل، رسول الآلهة وإله (كيش): **((أيها الإنسان، يا مخلوق الآلهة، أبلغ أصحاب النفوذ: اسمعوا ما يقوله**

نينورتا، الرب، باسم جميع الأرباب: قبل الطوفان العظيم سخِرتم من الآلهة. كنتم سيئين. فلقد خُلقتم لخدمة الآلهة، ثم أعرضتم عن ذلك. فأنزل الأرباب حكمهم. الطوفان العظيم كان سيدمركم. إلا أن إنكي تصرف بمفهومه الخاص وأبلغ زيوسودرا فتم إنقاذكم.

أردتم أن تحسنوا من أنفسكم. هكذا قال الرعاة للرعية، ولكن بدلاً من أن تهتموا بالرعية وأن تقدسوا الآلهة، فكرتم بعد الطوفان بأنفسكم فحسب. وعليكم الآن التكفير عن ذنوبكم!

فلقد بقيتم سيئين، بدلاً من أن تكونوا شاكرين. شربتم حليب الأغنام وصنعتم من صوفها لباسكم ونحرتم أفضل الماشية. ولكنكم لم تهتموا بتحسين مراعيكم. فلم تساعدوا الحيوان الضعيف ولم تعالجوا المريض. لم تعتنوا بالماشية الجريحة أو المبعثر منها، ولم تبحثوا عن التائهين. ولأن لخراي في رعاة سيئين، أضلوا الطريق ووقعوا فريسة الحيوانات الضارية. وضاعت إرادة الآلهة في عالم النسيان.

لهذا اسمعوا ما سيقوله لكم نينورتا باسم الآلهة: لن أبقى طويلاً أنظر إلى أفعالكم. فسوف أحاسبكم. لا يمكنكم أن تبقوا رُعاة. سأعزلكم، ولن تستمروا باستغلال شعبي والاستخفاف بإرادة الآلهة. سأوكل أمر رعيتي لراعٍ جديد. وسيقودها عبر المراعي ويعتني بها ويحترم إرادة الآلهة.

بحثت في كل مكان عن من يستطيع حمل هذه المسؤولية. ولقد وجدته. أنا نينورتا سأصبح إلهكم والراعي الذي سيتبع إرادتي سأنصبه ملكاً عليكم. أنا الرب الذي سيُسبب ذلك.

ولقد اختارني أنا الراعي من الصحراء الغربية، ابن الإنسان ومولود عشتار، لإتمام ما لم يتمكن حكامكم من إنجازه.

قال لي الرب: خذ عصاً واكتب عليها: حاكم (كيش) وشعبه. ثم

خذ عصاً ثانية واكتب عليها: حاكم ماري وشعبه. ثم خذ عصاً ثالثة واكتب عليها: حاكم الآكاديين وشعبه. ثم خذ عصاً رابعة واكتب عليها: حاكم إسين وشعبه. ثم امسك بالعصي الأربعة مجتمعة بحيث تبدوا كأنها عصاً واحدة.

يا ملك كيش، وحد الرعية لتشيد مملكة عظيمة وتذكر: عدم تقديس إلهكم والتجديف به، تقديم الأضاحي لآلهة زائفة، القتل، السرقة، الخيانة الزوجية، الحلف الكذب، كل تلك خطايا يجب على الشعب نبذها. أيها الراعي، وجه الحكام والرعية لتقديس إلهم وتبجيله))».

- «هنا انقطع النص» تمتم (لافاليه) بإعياء.

هز (تيساني) رأسه. كان وجهه متحجراً «على ألواح سومرية!، النموذج البدائي للوصايا العشر على أحد أقدم الألواح السومرية. تكشف السرقة الأدبية في الكتاب المقدس!» سعل (لافاليه) لأنه قام بتحميل حباله الصوتية أكثر من طاقتها.

- «الكتاب المقدس الذي وجد في حلب، مخطوطات الفاتيكان والنسخة اللاتينية للإنجيل، كل تلك هي نفائس بالنسبة للمسيحية واليهودية. ولكن هذه هنا تعتبر كنزاً بالنسبة للبشرية كافة. أي المتاحف ذاك الذي سيرث هذه الألواح؟»

قفز الناشر واقفاً، «مونسينيور (تيساني)، هل فهمت الآن ما أعنيه؟»

وقف مبعوث البابا بعينين مغلقتين إلى جانب الطاولة متلمساً برؤوس أصابعه إحدى العظام.

- «النص ليس كاملاً» قال (تيساني) فجأة.

- «ماذا تعني؟» نظر (مارفن) حوله بغضب.

- «الألواح الستة التي تعود لنبوخذ نصر وستة أقدم تعود لملك

(كيش) ذاك، مجموعها إثنا عشر لوحاً». صمت (تيساني) ثم تابع تمتمته بعينين مغمضتين «((... «**أحضر له الألواح السبعة وعظام الراعي كدليل على ولائه له**))». هذا ما تضمنه أحد السطور الأخيرة التي تلوتها لتوك علينا. إنها لا تزال تتردد في أذني. أحد الألواح القديمة ما يزال مفقوداً! أين هو، وما الذي يحتوي عليه؟»

- «انتظر لحظة» في عجالة بحث (لافاليه) بعينيه بين سطور النص المترجم على أوراقه.

فتح (تيساني) عينيه وحدق بالعظام.

- «ومن هو صاحب هذه العظام؟»

الفصل الثلاثون

(فونتينبلو)

مساء الأحد

- «سيقتلوننا، إن بقينا على هذه الحالة طويلاً فسوف نموت جوعاً» قال (بونتي) بنبرة صوت مملة ورتيبة بينما كان يلعب بقطعة من الإسمنت الجاف بين أصابعه.

جلس على الأرض الحجرية للزنزانة متكئاً بظهره إلى الجدار. كان وجهه نحيلاً وغائراً. فقد كان عليه أن يجوع منذ اعتقاله قبل أكثر من أسبوع، حيث لم يكن يقدم له سوى كميات مدروسة من الماء.

تحرك (كريس) بقفزات على طول جدار الزنزانة مستنداً بيده إلى الحائط. كانت الآلام تجتاحه على شكل موجات. أطبق أسنانه على بعضها البعض، يئن ويشتكي محاولاً باستمرار جعل جسده أقل حساسية للألم. ومع كل موجة من الألم كانت تتصاعد الذكريات في رأسه. كأنها مقاطع غير متتابعة من فيلم سينمائي. دارت ذكريات الأيام الماضية في خلده. في البداية (ياسمين) ثم (فورستر) وفجأة تلك الهيئة الضخمة للمدعو (شارف) الذي قابله في (ميونخ).

لقد بدأ كل شيء نتيجة تصرفاته الغير محسوبة في تلك الليلة. لو أنه صمت آنذاك لتمكن من الحصول على الأجر الإضافي وربما استطاع أيضاً

كسب بعض الزبائن الجدد. إلا أنه بهذا لم يبقَ أمامه خيار آخر، فابتلع الطعم المسموم الذي قدمه له (فورستر) على أنه شريحة من اللحم الطري.

رأى أمامه مجدداً جمع الحضور بملابس السهرة والمائدة الغني الممتدة على طول الجدار. أخذ الجوع منه كل مأخذ. فحتى هو لم يُقدموا له سوى حصة من الماء.

يمكنه هنا أن يجرب كيف أن الصوم يطهر البدن والروح، هكذا قالوا له.

- «لماذا لا يقومون باستجوابنا؟» سأل (كريس) ليشغل نفسه عن الألم.

- «ربما سيأتي هذا لاحقاً» قال (بونتي)، الذي كان يراقب (كريس) بملل «لا تستعجل».

كان (كريس) يتعمد تمديد عضلاته بشكل مستمر، ويشد جسده ضاغطاً على أسنانه كلما اجتاحته آلام الوخز في قفصه الصدري. فإن أراد الفرار فلا بد من أن يكون بمقدوره الاعتماد على جسده.

- «عليك أنت أيضاً أن تفعل شيئاً» أجاب (كريس). بدا له (بونتي) غير مبالٍ تماماً. ربما سيصبح هو أيضاً على هذه الحالة بعد مرور أسبوع على وجوده في هذا المنفى.

- «إن كان ما قلته صحيحاً، فلماذا لا ينجزون الآن ما ينوون إنجازه على أي حال؟ لماذا لم يقوموا بقتلك فوراً؟»

- «إنهم يستمتعون بساديتهم. متطرفون. ربما يحلوا لهم رؤيتنا نتعذب على هذا النحو». تنهد (بونتي) باشمئزاز «فحتى الآن لم يتيقنوا بعد إن كانوا ما زالوا بحاجتي. والآن حصلوا عليك أنت أيضاً. أصبح لديهم كل شيء».

- «ليس لدي الرغبة أن أبقى نادباً في هذا الجُحر» فكر (كريس) بـ

(ياسمين). اشتم رائحة عطرها، حَلُم بحركاتها المتهادية في المطبخ عندما لامست جسده. كم مر على هذا؟ خُيل إليه للحظات أنه يشعر بلمسات أناملها الناعمة تمر بلطف على يده. اقشعر بدنه.

سمع صوت ضحكتها المشرقة في كل مكان. وكم تخيل في الأيام القليلة الماضية روعة الإجازة الأولى التي سيقضيها معها.

على متن سفينته (الإنديفور). تذوق طعم شفتيها الرطبتين ولوهلة أصبح معها على شاطئ بحر الجنوب، ممددين على الرمال. انزلق بشفتيه على جسدها الناعم وتلمس لسانه كل سنتيمتر منه. يا له من حلم رائع.

- «هل تسمع هذا؟» اشرأب عنق (بونتي) وبدأ ينصت.

تلاشا وجه (ياسمين). سمع (كريس) صوت طقطقة خافتة وتمتمة شبه منخفضة، خطوات وضجيج ناتج عن جر شيء ما على الأرض.

- «إن كان اعتقادك صحيحاً، فعلينا أن نباشر بالمحاولة...» بحث (كريس) عن عيني (بونتي).

- «موافق. كيف؟»

- «كيفما اتفق...» تمدد (كريس) إلى جوار (بونتي) على الأرض. «وحسب مساعدة عظامي»، فكر (كريس) في نفسه وحاول التركيز.

بعدها بقليل وقف (مارفن) و(باري) والرجل ذو وجه الثآليل أمام القضبان. فتح (باري) باب الزنزانة.

- «يا لها من رائحة كريهة!» استدار (مارفن) جانباً وبصق.

يبدوا أنهم واثقون من أنفسهم تماماً. فلم يكن أحد منهم يحمل سلاحاً ظاهراً. إنها الفرصة!

جرّ ذو وجه الثآليل مكبساً إلى داخل الزنزانة وأمسك بيده خرطوماً له طرف معدني. خلف الآلة اختفى خرطوم وسلك كهربائي في عتمة الممر.

- «أيقظهما!» وقف (مارفن) بقدمين متباعدتين أمام باب الزنزانة.

زمجر المحرك.

أصابت حزمة المياه المنبعثة بقوة صدر (كريس). ضغطت تلك القبضة الثلجية على رئتيه فكادت تفرغهما من الهواء. لهث وقفز صارخاً إلى الأعلى.

تلاشى الضغط فجأة واختفى جسد (بونتي) تحت شلال المياه. امتزجت صيحاته مع صوت الضحكات الصادرة من جهة الباب.

ثم عادت المياه الباردة لتجلد جسد (كريس) من جديد . هذه المرة أصابت القبضة الثلجية الجزء العلوي من فخذ (كريس)، الذي انحنى إلى الخلف بفعل الضغط الشديد، فسقط (كريس) على الأرض.

لهث، بينما كان يحاول الوقوف مجدداً على قدميه، بينما هوى (بونتي) إلى جانبه على الأرض. وقف (كريس) مرتجفاً في الحجرة. كان الخاتم الثلجي ما يزال محيطاً بصدره، بينما تكومت المياه تحت قدميه كأنها بحيرات صغيرة.

- «توقفا!» بدد الصوت الهادر لـ (مارفن) ذلك الستار العازل الذي كان يلف رأس (كريس).

- «تقدما إلى الأمام!».

كان (كريس) يرتجف وقد امتلأ حذاؤه بالمياه.

- «هيا! تابعا! هيا!، توقفا!». راقب (مارفن) حركاتهما «يا لكما من تعساء. والآن إلى قوانين اللعبة! أنا أطرح الأسئلة وأنتما تجيبان، وإن لم تفعلا...»

أصاب شلال المياه صدر (كريس) مجدداً. كانت الصدمة أشبه بضربة مطرقة، سقط مجدداً على الأرض. وبحالة من الذهول عاود الوقوف.

- «أخبرنا عن تلك العظام يا (تسرنت هاين)؟ وأين اللوح المفقود؟»

ماذا كان (مارفن) يريد منه؟ فلا (فورستر) ولا حتى (رامونا سولنر) أخبراه بشيء عن هذا. وحتى العظام، هو نفسه أراد معرفة المزيد عنها.

- «أنا لا أعرف أي شيء عن اللوح المفقود أو حتى أي شيء عن العظام».

رفع (هنري مارفن) يده.

بحركة يد بسيطة عدل الرجل ذو وجه الثآليل الطرف المعدني المثبت على الخرطوم. أصاب الشعاع المائي (كريس)، هذه المرة عند عظمة الترقوة. كان من غير الممكن احتمال قوة الشعاع المائي المعدل من مسافة قصيرة. هوى (كريس) إلى الأرض بحالة أقرب إلى الإغماء؛ نتيجة وخز الألم الشديد.

- «توقفوا عن هذا الهراء!». صاح (كريس). لقد جعلته شعلة الكره يستعيد وعيه من جديد.

- «أنا لا أعرف شيئاً. لا أعرف أي شيء!» ورغم آلامه قفز واقفاً وتحرك باتجاه (مارفن).

رفع الرجل ذو وجه الثآليل يده إلى الأعلى قليلاً. وبصورة غريزية أخفض (كريس) جسده ورأسه إلى الأسفل.

مرّ شعاع المياه القوي، كأنه طلقة فوق جلد رأسه. جعل (كريس) نفسه يسقط حين توجه الشعاع المائي إلى الأسفل.

كانت الضربة على مؤخرة رأسه هي آخر ما شعر به.

بدأ وعيه يعود إليه بينما كان مايزال ممدداً على الأرض. لمدة ثوانٍ لم يتمكن من التعرف على مكان وجوده، ثم سمع صوت (بونتي).

- «إنه لا يعرف شيئاً. ربما أستطيع أنا أن أخبركم، الشيء الذي تودون معرفته. ولكن هذا لن يكون مجاناً. فأنا مستعد لعقد صفقة صغيرة معكم. هل أنتم مستعدون أيضاً؟»

- «أنـا دائمـاً مـستعد لعقـد الـصفقات» ضـحك الناشـر بـازدراء «وخصوصاً عندما أكون أنا مـن يمتلك الأوراق الرابحـة في يده. ماذا لديك لتعرضه علينا؟»

- «كان (فورستر) كتوماً جداً. إلا أنني أعرف بعض الأمور».

- «أخبرنا».

- «لقد اتفقنا على إبرام صفقة. ولهذا الغرض يستحسن توفير جو ملائم للمفاوضات». ابتسم (بونتي) بوقاحة.

تنهد (مارفن) باحتقار.

كان (كريس) ما يزال ملقىً على الأرض. عندما غادر (بونتي) الزنزانة مبتسماً وبخطوات مكبلة، بينما كان يقول: «في الواقع يوجد ثلاثة عشر لوحاً بالفعل».



تلاشى كل شيء إلى لون رمادي بلا حدود واضحة. اشتمّ (كريس) رائحة الرطوبة، بينما كانت برك المياه تتلألأ تحت الضوء النافذ من الممر.

كان ملقىً على الأرض بمحاذاة الجدار، وقد انتُزعت جميع ملابسه باستثناء سرواله الداخلي، في حين أن ملابسه كانت على بعد بضع خطوات منه. لقد قام بخلعها وعصرها للتخلص من المياه الباردة.

كان جسمه يرتجف من البرد، وخيّل إليه للحظات أن الصوت الذي يسمعه محض خيال. ثم رأى (كريس) ثلاثة أجسام بشرية تقف عند باب الزنزانة.

- «ادخل إلى هنا!».

دفعوا بـ (بونتي) داخل الزنزانة بقوة، فتعثر الرجل الإيطالي وهوى إلى الأرض، حيث سقط وجهه تماماً في إحدى برك المياه المتجمعة.

- «اللعنة! ما هذا؟»، صاح (بونتي).

دخل الرجل ذو وجه الثآليل إلى الزنزانة وانتظر حتى قام (بونتي) على ركبتيه. ثم ركله بضربة قوية على جانبه، فسقط (بونتي) مجدداً على الأرض وبقي ممدداً حتى غادر الرجل الزنزانة.

زحف بألم باتجاه الجدار ثم ساد الصمت لمدة.

- «هل أتممت صفقتك؟»

لم يجب (بونتي)، بينما كان ينتزع بأصابعه قطعاً صغيرة من الإسمنت من الجدار.

- «لو أن الثياب الجافة هي كل ما حصلت عليه من صفقتك، فيبدوا أن المقابل قليل جداً، بالرغم من أنني أحسدك على تلك الثياب».

كان (بونتي) يرتدي بزّة رياضية، وقد تبللت ياقة قميصها حين سقط على المياه المتجمعة.

- «إنه وغد. وغد متعصب!».

والآن صمت (كريس).

- «إلا أننا قمنا بعملية تجارية» ابتسم (بونتي) ابتسامة المنتصر.

- «إذاً، لماذا أعادوك إلى هنا مرة أخرى؟»

- «لم يثق بي —يريد التحقق من صحة بعض الأمور التي أطلعته عليها— هذا ما كنت سأقوم به أنا أيضاً لو كنت مكانه. بل وأنت كذلك!».

- «ماذا أخبرته؟» كانت عضلات (كريس) ترتجف بطريقة تلقائية بينما كانت أسنانه ترتطم ببعضها البعض.

- «كل شيء. فليس لدي أي استعداد للتعرض للتعذيب. فلم أكن أتقاضى ذلك الأجر الضخم الذي يستحق كل هذه التضحية».

- «وماذا الآن؟ بعد أن عرف كل ما لديك من معلومات؟»

- «الانتظار».

عاد الاثنان للصمت مجدداً. مرت دقائق طويلة.

- «لم تخبره بكل شيء...»

تذمر (بونتي) بغضب.

- «لقد قلت سابقاً، أن هناك ثلاث عشرة لوحاً فعلاً».

صمت (بونتي)، ثم بدأ فجأة بالتمتمة بصوت رخيم.

- «أردت أن أبيع الألواح. والعظام. ببساطة كل شيء. أردت أن أكون ثروة، أن أستقر وأن أنتقم لكل الإهانات والذل الذي عانيته مع (فورستر) على مر كل تلك السنوات الماضية. لقد كان خنزيراً ...، أم أنك تعتقد أنه كان قديساً؟ وكما قام باستغلالك، فإنه قام باستغلالي أنا أيضاً لسنوات طوال؛ للوصول إلى أهدافه الدنيئة. هكذا كان!».

تذكر (كريس) تلك النظرات المليئة بالكراهية التي كانت تشع من عيني (بونتي) عندما كانا لا يزالان في (التوسكانا).

- «لكن بظهورك أفسدت كل شيء».

- «أنا؟»

- «نعم، أنت» قال (بونتي) وزفر بقوة «هل تذكر حادثة السرقة؟»

- «نعم» كان (كريس) قد شك بـ (بونتي) بهذا الخصوص، ثم أسقط ذلك الشك فيما بعد، حين أخبره (فورستر) عندما كانا على طريق السفر السريع، أنه محل ثقة كبيرة بالنسبة له.

- «ذلك كان أنا. لم يكن هناك لص من الخارج. أردت فتح الخزنة وأخذ كل ما كان بها ثم الاختفاء تماماً. لقد كان المُشتري ينتظر. ولكن ذلك الحقير (فورستر) قام بتغيير الشفرة قبل ساعات قليلة من ذلك. لقد كلفني الأمر أسابيع للوصول إليه. ثم يقوم هو بتغيير الشفرة!».

شعر (كريس) بالحنق مجدداً في حلقه.

- «إنك حتماً لا تريد القول أنك أنت من قام بمحاولة خنقي؟»

- «كان علي التخلص منك. فلم يخبرني أي شيء بخصوصك. كان علي أن أنهي خطتي. وتماماً في تلك اللحظة التي دخلت بها إلى غرفة المراقبة، كنت قد حكمت على نفسك بالموت».

- «لقد قمت بـ...»

- «طعنتك لي بالسكين؟ لقد كانت خارجية لحسن الحظ. رباط طبي وبنطال جديد... وانتهى الأمر».

لقد كان شعوراً غريباً. فلم تؤثر اعترافات (بونتي) في (كريس). والآن بعد أن أقرّ بها (بونتي) بنفسه، بدا لـ (كريس)، كأنه كان يعرف ذلك طوال الوقت.

- «وأين كان رجل الأمن خاصتك؟ هل كان هو أيضاً مجرد خدعة؟»

زفر (بونتي) باحتقار.

- «مات. لقد قمت بقتله في الخارج، ثم أخفيت جثته في حوض خشبي كان موجوداً في الجهة الأمامية للمنزل. لم يكن قد مضى على وجودي في غرفة المراقبة وقتاً طويلاً حين نزلت أنت إلى هناك». ضرب (بونتي) بقبضته على الجدار.

- «أردت تكرار المحاولة في (جنيف)، إلا أن (فورستر) قام باستبعادي مجدداً. ففي الليلة التالية للحادثة، لم تغفل عيناه عن تلك المقتنيات. أردت أن أتمم خطتي في طريقنا إلى متحف (اللوفر) إلا أنه قام بترتيب الأمور بشكل معاكس، حين قام بتكليفك بتلك المهمة بطريقة سرية».

- «لم تكن تعلم بأي شيء من ذلك؟»

- «لا شيء. لا شيء عن الشبيه، لا شيء عنك، لاشيء عن (برلين).

فقط في طريقنا إلى الفندق قام بالبوح لي بكل هذا. لقد كبّل يداي، فلم أعد عندها أستطيع التصرف. لقد تمكن من تكبيل الجميع».

تذكر (كريس) ذلك المشهد في مرآب الفندق، حيث بدا على (بونتي) الحنق والاضطراب بوضوح، بينما كان يراقب انطلاقهم بالسيارة.

- «لماذا لم تحاول ذلك في مرآب السيارات؟»

- «ربما لم تلحظ ذلك، لكن (فورستر) كان طوال الوقت يضعني تحت تهديد سلاح مُجهز! و(فورستر) ماهر جداً في الرماية وتسديد الأهداف».

- «لماذا يا (بونتي)؟ لماذا؟»

- «المال، وليس سواه. المال الكثير» توقف (بونتي) قليلاً قبل أن يتابع كلامه. «لقد سمحت أنت أيضاً لـ (فورستر) بشرائك».

- «أنا. نعم، مقابل مهمة توصيل، هذا هو عملي».

- «العالم بأسره قابل للشراء. وكلٌ له سعره».

- «ألم يكن لك علاقة بحوادث السطو وهؤلاء الرجال هنا» تمتم (كريس).

- «كنت أريد أن أقوم بخطتي الخاصة... ولو أنها نجحت في (التوسكانا)، لما وقع حادث السطو ذاك ولا كنت لأجلس الآن هنا أشتاط غيظاً».

صمتاً.

- «ماذا تعرف عن اللوح الثالث عشر؟ ولمن أردت أن تبيعه؟»

ضحك (بونتي) في نفسه.

- «لقد تحدث (فورستر) في لحظة ضعف عن ذلك. الكثير من النبيذ. لقد اختفى أحد الألواح منذ نهاية العشرينيات. إنه اللوح الثالث عشر. حاول جده سابقاً أن يبيع تلك الألواح. وأخذ معه اثنين منها كدليل إثبات. الأول والأخير. وقد ارتكب خطأً بهذا ففقد بسببه اللوح الأخير

حصراً. الذي كان يوضح أهمية تلك العظام. هذا ما قاله (فورستر). وهذا اللوح موجود في الفاتيكان».

- «في الفاتيكان؟» فكر (كريس) بالتفسير الذي قدمته (رامونا سولنر). يبدو أنه صحيح. «وكيف لك أن تكون متأكداً إلى هذا الحد؟»

- «لأن (فورستر) أوحى لي بفكرة ما من خلال كلامه، قمت من خلال وسيط، بعرض الألواح والعظام على الفاتيكان ليشتريها مني. بدا لي للوهلة الأولى أنهم غير مهتمين، ولكنهم سرعان ما أصبحوا مستعجلين جداً لإتمام الصفقة».

تنهد (بونتي) بغضب «ذهب كل شيء أدراج الرياح».

- «وأين يكمن السر يا (بونتي)؟»

- «إسأل البابا» أجاب (بونتي) بعد وهلة.

- «البابا؟»

- «نعم يا (تسرنت هاين). لقد كان هناك قس من (روما) أثناء حديثي معهم منذ قليل...»

- «قس من (روما)؟»

- «لقد كان يسأل عن العظام بإلحاح. فهذا القس يا (تسرنت هاين)، هو المشتري».

❖ ❖ ❖

فجأة حضر مجدداً إلى الزنزانة كل من (باري)، الرجل ذو الثآليل في وجهه، والآخر ذو الشعر الأحمر.

- «تعال إلى هنا» أشار (باري) بسلاحه باتجاه (بونتي). ثم عاد فوجّه فوهة سلاحه باتجاه (كريس) «أما أنت فعليك البقاء هنا!».

كان (كريس) يستند إلى الجدار الخارجي، ولم يكن يرتدي سوى سرواله الداخلي، ويحاول مصارعة تلك القشعريرة الباردة التي كانت تهز كل عضلات جسده. كانت ملابسه المبللة ماتزال ملقاة على الأرض.

- «وداعاً يا (تسرنت هاين). يؤسفني أن أذهب وأدعك هنا. لكن هكذا تسير الأمور في الحياة. لقد نجحت صفقتي».

ابتسم (بونتي) وتوجه نحو (باري)، الذي أومأ له برأسه أن يخرج من باب الزنزانة. مرّ الرجل الإيطالي من أمام (باري).

راقب (كريس) الرجال. حيث كان (باري) لا يزال يوجه سلاحه باتجاهه. ولكنه عندما استدار مركزاً تفكيره على باب الزنزانة...

شد (كريس) عضلات جسده. رفع ساقه اليمنى قليلاً إلى الأعلى واضعاً كعب قدمه اليمنى على الجدار. كانت خمس، أو ست خطوات تلك التي تفصله عن (باري). حركتان ويستطيع الانقضاض على الرجل والإمساك بيده القابضة على السلاح...

وحيث أن (بونتي) كان قد وصل إلى باب الزنزانة، فسيحول دون دخول الرجلين اللذين كانا يقفان خارجاً.

التفت!، فكر (كريس) وانتظر حركة (باري).

- «ما هذا!»

صيحة (بونتي) المُتفاجئة بددت تركيز (كريس).

عاد (بونتي) للصياح مجدداً، ثم أدرك (كريس) ما يحدث.

- «الآن دورك!» ابتسم (باري) بسخرية «تعال! هيا! اقترب!».

- «ماذا يدور هنا؟» صاح (بونتي). فقد تمت إعادته إلى الزنزانة.

كان (باري) مستمراً بتوجيه (كريس) بفوهة سلاحه محافظاً أثناء ذلك على المسافة المناسبة بينهما.

أمسكت يد قاسية بشعر (كريس) وجرت رأسه إلى الخلف. بينما

ضغطت أخرى على ذقنه دافعة إياه إلى الأعلى. ثم شدت يد ثالثة ذراعيه خلف ظهره. شعر ببرودة حديد الأصفاد. ثم خف الضغط لوهلة عن رأسه.

- «اللعنة، ما هذا؟» صاح (بونتي) بتذمر مجدداً، ثم صمت حين سمع صوتين آخرين.

عبر (هنري مارفن) و(إريك مايكل لافاليه) الممر ودخلا إلى الزنزانة.

- «أنا لا أفهم...» حدق (لافاليه) بـ (مارفن) بارتباك.

- «حالاً يا لافاليه، حالاً».

وجّه (باري) كل من (كريس) و(بونتي) إلى منتصف الزنزانة ثم دفعهما إلى الأسفل حتى أصبحا بشكل قريب جداً من الأرض.

- «الرؤوس على الصدر!»

تقدم (مارفن) إلى الداخل ودفع برأس السجينين إلى أسفل حتى لامس ذقن كل منهما صدره.

- «ما هذا الهراء؟» صاح (بونتي).

أراد (كريس) القفز ولكن الوقت كان قد تأخر. فقد وجّه الرجل ذو الشعر الأحمر سلاحه نحو رأسه.

مد (مارفن) يده باتجاه (لافاليه) حاملاً مسدس الكورث، الذي عثروا عليه لدى (كريس).

زاد ارتباك (لافاليه) «أنا لم أمسك بحياتي شيئاً كهذا».

- «أعلم» ابتسم (مارفن).

- «اليوم ستكون المرة الأولى. ولن تكون الأخيرة. فاليوم ستثبت أنك تريد حقاً الانتماء إلى علماء البريتوريانيين. (لافاليه)، إنك ستكون أحد أعضاء الحلقة المباركة التي تحرص فعلاً على حماية الكتاب المقدس. بكل الوسائل وبكل قوتك وبكل نفوذك» قال (مارفن) بصوت واثق، متملق ومقنع. بينما لمعت عيناه كالألماس.

هز (لافاليه) رأسه بصمت. حدق بنظرات خاوية خلف (مارفن) إلى الرجلين الراكعين. «أنا ... ما أزال... لا أفهم...» قال متلعثماً. إلا أنه كان يدرك تماماً ما عناه (مارفن).

- «هل تعتقد يا (لافاليه) أن حملتنا ضد أعداء الدين، ضد العلماء وكافة الملحدين ستبقى دون ضحايا؟» ضحك (مارفن) «سيكون هذا سيئاً. سنهتم بإيقاع عدد كبير من الضحايا في صفوف الأعداء. سوف ندمر مسيرتهم المهنية ونعري أفعالهم. فمن يخون الكتاب المقدس يستحق أن يُحارَب بكل الطرق. والأكثر سوءاً منهم سوف يحاسبهم الله، ربنا وربهم. فلنبدأ بهذين الاثنين أولاً».

- «تريد ...أن... تقتل...»

- «تماماً». ضحك (مارفن) «أعداء العقيدة».

صمت (لافاليه).

جثم (كريس) على ركبتيه وأدار رأسه نحو اليسار قليلاً. بينما كان (بونتي) إلى جانبه يبصق بشكل متواصل. في حين كانت شفتاه ترتجفان. ولم يستطع (كريس) تحديد إذا ما كان ذلك الارتجاف بسبب الخوف أم الغضب.

هو شخصياً كان يشعر بضغط لا يطاق في رأسه. لقد شُلّ تفكيره. شعر باليأس يتسلل إلى إرادته ولم يكن بإمكانه حتى الدفاع عن نفسه.

- «لا يمكنكم القيام بذلك!» صاح (لافاليه) «حتى لو أنهم كانوا من العلماء أو أياً كان... لا يمكنكم قتلهم! فإن الله محبة وليس قتلاً».

- «هنا يموت خونة العقيدة، خونة الكتاب المقدس. وسوف يرى العالم بأسره أن السيف هو الوسيلة الأنجع لنشر العقيدة».

ارتعش الجزء العلوي من جسد (لافاليه) وكأنه يعاني من الحمى.

- «وما علاقة كل هذا بي؟» سأل بصوت منخفض وقد أطبق أسنانه على بعضها البعض.

- «جاء دورك لتقدم دليلاً على ولائك أيها المونسينيور (لافاليه)» همس (مارفن) وقد التصقت شفتاه بالأذن اليمنى لـ (لافاليه) «أثبت الآن أنك تنتمي، أنك ترغب بالانتماء لنا. أثبت لي مقدار قناعتك بأهدافنا. أقتل باسم الرب!».

- «أنا لا أستطيع فعل ذلك!» هز (لافاليه) رأسه رافضاً بقوة. بينما كان يردد كلمة «لا!»

- «تذكر مبشري الكنيسة الأم المقدسة في القرون الوسطى».

- «كلا. لا أستطيع!» قال (لافاليه) مرتعداً.

- «عليك أن تفعل!» صرخ (مارفن) في وجه (لافاليه) الذي كان يبعد عن وجهه عدة سنتيمترات «(لافاليه)، عليك أن تقدم هذا الإثبات كدليل على خشيتك من الله».

- «أنا لا أستطيع، أن أقتل إنساناً!» سقط على ركبتيه وغطى وجهه بكفيه وبدأ بالبكاء «هل يمكنك ذلك؟» نظر إلى أعلى بخيبة أمل.

- «أنا؟» ضحك (مارفن) «(لافاليه) إنك ما تزال تجهل الكثير عني. هل تعلم كيف وجدت طريقي إلى الرب؟ كنت في (فيتنام) كجرذ الأنفاق. زحفت في ممرات ضيقة تحت الأرض، حيث تمركزت قوات من الفيتكونغ، وقتلت. إما الآخر أو أنا. وآنذاك، نعم يا (لافاليه)، آنذاك وجدت طريقي إلى الرب. وفي كل مرة كنت أزحف فيها في أحد تلك الأنفاق، كنت أعد الرب أني سأقدسه وأقاتل من أجله إن أبقاني حياً لأرى نهار اليوم التالي. وقد استجاب الرب لدعائي! وأنا بدوري سأحفظ عهدي!».

أمسك (مارفن) بالفرنسي الباكي من تحت ذراعيه ورفعه إلى الأعلى ثم وضع السلاح في يده.

- «أرني مدى إيمانك بأهداف البريتوريانيين، اقتل الاثنين!».

- «لا أستطيع!».

جرّ (مارفن) السلاح من يد (لافاليه) وتقدم ليقف خلف (بونتي) و(كريس).

- «انظر إلى هنا! أيهما أُرسل إلى رحمة الله أولاً؟ هذا هنا، الذي سبب لنا الكثير من الإزعاج؟ الذي أجهز على رجالنا، مقاتلي الرب؟» ضغط (مارفن) فوهة السلاح على رقبة (كريس).

أحس (كريس) ببرودة المعدن، فبدأ يتصبب عرقاً. كانت ماسورة السلاح تضغط قريباً من نهاية العظمة الخلفية للرأس عند عضلات رقبته المتشنجة. بضربة واحدة فقد كل الدماء التي في رأسه وتراقصت النقاط السوداء أمام عينيه، ثم اختفى الضغط بشكل مفاجئ.

تحرك (مارفن) ليصبح خلف (بونتي) ووضع سلاحه على رقبته.

- «أم هذا هنا؟ الخائن، الذي خان الرجل الذي التزم بحمايته وحراسته؟ حتى هو قام بالقتل من أجل إثراء نفسه. حتى يتمكن من السرقة. لقد فعل ذلك بنفسه. كلاهما يستحق القتل. ما هو المكتوب في سفر التكوين، الإصحاح التاسع، الآية 6؟ ماذا كتب هناك يا (لافاليه)؟»

لهث (لافاليه) متردداً.

- «ماذا كتب هناك؟» صرخ (مارفن).

- **«سافك دم الإنسان بالإنسان يُسفك دمه. لأن الله على صورته عمل الإنسان».**

استدار (مارفن) نحو (لافاليه) «هكذا يقول الرب. انظر إلى هنا».

بكى (لافاليه) وانهمرت الدموع على خديه.

الفصل الواحد والثلاثون

(صوفيا أنتي بولس) بالقرب من مدينة (كان)

مساء الأحد

لم تحاول (ياسمين) خداع نفسها. فقد كانت سجينة. كان سجنها في الطابق الثاني من المستشفى مكوناً من غرفة مرضى واحدة، مُنع عليها أن تغادرها.

أمام باب تلك الغرفة يقف حارس ضخم، كان يرمقها بنظرات ارتياب كلما حاولت فتح الباب ولو على شكل شق صغير. كمان أن (سولفان) أخذ هاتفها الجوال منها، وقطع كافة وسائل الاتصال عن غرفتها.

فقد تم مساء يوم السبت، جلب الفريق بأكمله من (دريسدن) إلى (نيس) على متن طائرة الشركة الخاصة. وهناك استقبلهم مدير أمن مركز أبحاث (تيسابي) في (صوفيا أنتي بولس)، الذي بدا عليه التوتر. ثم سافروا على الطريق السريع رقم 8 باتجاه الغرب لعدة كيلومترات، ووصلوا بعد بضع دقائق إلى الموقع العلمي العالمي بالقرب من مدينة (كان)، الذي كان يقع في منطقة محاطة بالتلال غير بعيدة عن (فالبون).

منذ وصولهم، لم يتمكن (واين سندر) من رؤيتها. وقد حضر إليها كل من (سولفان) مع الدكتور (دوفور) و(ند بيكر) لمرتين. كانوا يريدون معرفة كل شيء عن زيارة (كريس) والعظام.

الأسئلة المتخصصة طُرحت من قبل (دوفور)، الطبيب، الذي كان يشرف على (ماتياس) أيضاً. تصرفاته أثارت حفيظتها، فلم يتفوه ولو بكلمة واحدة أنه يعرفها، أو أنهما التقيا هنا منذ أيام قليلة مضت. لم تتمكن من معرفة سبب تصرفه ذاك، وكلما أطالت التفكير في هذا الأمر كلما زاد قلقها حدة.

فتحت (ياسمين) النافذة، وتقدمت إلى الشرفة الصغيرة.

كان مبنى المستشفى يحيط بمنتزه، اتخذ شكلاً نصف دائري حول المساحات العشبية التي تخللتها دروب مفروشة بالحصى الناعمة، الأشجار وأحواض الورود التي توزعت على شكل مجموعات امتدت حتى بداية المبنى الرئيس، حيث يكتمل الشكل الدائري للحديقة.

بينما استسلمت الأضواء الخافتة الموزعة على دروب المشاة للعتمة المتسللة من قلب الليل. لم يكن هناك أي إنسان يُرى. أحنت جسدها على سور الشرفة.

كان كما في طفولتها عندما وقفت للمرة الأولى على منصة القفز في بركة السباحة، التي كانت بارتفاع خمسة أمتار. من الأعلى بدا فارق الارتفاع على الأقل ضعف ما هو عليه في الحقيقة.

تملك (ياسمين) الذعر. لم يكن القفز وارداً. ولكن لا يجب عليها أن تفشل هنا!.

عادت إلى غرفتها، وقامت بربط ملاءات السرير وأغطية الوسائد ببعضها البعض ثم ثبتت نهاية حبلها المؤقت على الجهة الأمامية لحافة درابزين الشرفة.

صعدت (ياسمين) بحذر على الدرابزين محاولة حفظ توازنها بوضع مقدمة قدمها على الحافة الخارجية للشرفة. أمسكت بكلتا يديها حبلها القماشي، وقامت بلف رجليها حوله بقوة ثم بدأت بالهبوط إلى الأسفل.

انزلقت (ياسمين) بأسرع مما توقعت إلى الأرض. وفي مكان ما تمزق القماش، وصوت التمزق دفع (ياسمين) للنظر إلى أسفل بتوتر. بعد ذلك بثوانٍ معدودة، لامست مقدمة قدميها حافة الشرفة الواقعة في الطابق الأسفل من غرفتها. دفعت بنفسها إلى الخلف وتابعت الهبوط. ولأن حبلها المؤقت لم يكن بالطول الكافي، رمت بنفسها إلى الأرض المتران المتبقيان.

هوت في حوض يحتوي على زهور صيفية صفراء وبيضاء، تدحرجت بسرعة والتصقت بجدار المبنى. كانت خطتها أن تتسلل إلى المبنى الرئيس الأمامي للوصول إلى جناح (آنا). هرعت باتجاه المبنى الرئيس. وقبل وصولها إلى المبنى الرئيس ببضعة أمتار، ومض ضوء من أحد النوافذ.

كانت النافذة تعلوها بمترين، وكانت مفتوحة. تسللت منها همهمة أصوات. ضغطت بنفسها على جدار المبنى وتابعت تقدمها، بحيث كانت تضع قدماً أمام الأخرى، وتنتبه أين تطأ أقدامها.

توقفت (ياسمين) تحت النافذة، حيث تعرفت على الصوت. أحد الأصوات كان معروفاً بالنسبة لها حتماً.

فجأة حجب الظل الضوء الصادر من النافذة.



كان ظهر (زوي بورسل) يؤلمها؛ لطول جلوسها على كرسي (دوفور) الخشبي القاسي، والغير مريح، فوقفت الآن متكئة بظهرها على حافة النافذة، وموجهة نظرها إلى داخل الغرفة. رمقت (دوفور) بعبوس، وكان يرتدي بذلة بدت أكبر حجماً من مقاسه. جلس إلى طاولة خشبية إلى جانب (ند بيكر) بينما كان يفرك كفيه ببعضهما بقوة.

- «أصبحت أجساد الفئران شابة وقوية بالرغم من أنها كانت على شفير الموت. كيف يمكن لذلك أن يحدث؟».

- «نحن لا نعلم» هز (دوفور) كتفيه بعجز.

حدقت (زوي بورسل) بالعالمين ببرود.

- «لقد كنت أعتقد أن عملكم مبني على بيانات وحقائق دقيقة. والحقيقة الأولية هي: أنه تم حقن الفئران بجرعة كبيرة من الجينات الخاصة بذلك الكروموسوم الغير معروف (Y)، مما أدى بالتالي إلى حدوث طفرة حولت تلك الفئران العجوزة إلى حيوانات قوية وشابة. هل هذا صحيح؟».

أومأ (ند بيكر) «إن كان ما أخبرونا به صحيح».

أشاحت (زوي بورسل) بيدها بحركة عصبية.

- «لكن هذا الأمر يبقى مستحيلاً. فحتى يومنا هذا عرف العلم إمكانية تجدد خلايا الكبد والأمعاء وبعض الأنواع الأخرى في دورة الحياة، إلا أن هذا الأمر لا يحدث أبداً في العضلات والأنسجة الضامة. صحيح؟ وبالرغم من ذلك، استبدلت تلك الفئران أجسادها الهرمة، المهترئة والمتهالكة بأخرى يافعة وقوية».

أومأ (ند بيكر) بتردد مجدداً. ثم تمتم بكلمة: «نعم»، بعدها «حسب أقوال (سندر) فإن الأمر يبدو كذلك».

- «لماذا أنت حذر إلى هذا الحد يا (بيكر)؟ وأنت يا (دوفور)، لماذا أنت بهذه الحيادية؟ هل تخشون الاكتشاف الذي ربما أنتم شركاء به الآن؟ أين حماسكما العلمي واستعدادكما للتفكير بالأمور الخارقة للعادة؟».

- «يبدو أمراً لا يصدق لدرجة أني لا أجد في نفسي الشجاعة للتفكير به، أو تأمل إمكانية حدوثه». هز (دوفور) رأسه الذي بدا مشغولاً بالتفكير.

- «هل تعني، لماذا يتوجب عليكما أنتما بالذات أن تعايشا اكتشاف

نبع الشباب؟ هذا هو ما يشغلكما! ليست الحقيقة بحد ذاتها هي التي تؤرقكما . بل إنه عدم تصديق، أنكما أنتما بالذات من سيعيش ذلك. هل هذا صحيح؟».

هز (يعقوب دوفور) كتفيه: «نعم. الأمر هكذا تماماً».

- «لماذا؟ هل تعتقدون، أن (كوبرنيكوس) لو فكر بهذه الطريقة، هل كان ليصل إلى اكتشافه الخارق؟ أو (كريك) و(واطسون)، عندما شرحا نموذجهما الجديد للحمض النووي؟ أنا حقاً لست عالمة في الطبيعة، ولكني لو كنت مكانكما لتقدمت بخطىً واسعة إلى الأمام، وللحقت بطرف الخيط الذي نمسكه بأيدينا، لأقول بعدها للعالم بكل فخر، من هو الذي قام بحل لغز الشيخوخة».

فكرت (زوي بورسل) بـ (آندرو فولسوم)، الذي أنفق الملايين في شراء براءات اختراع، لاكتشاف هذا الحلم البشري بالذات. ضحكت في نفسها . ثم استدارت مجدداً إلى (دوفور) «اشرح لي مجدداً ما الذي وجدته حتى الآن حول ذلك الكروموسوم».

- «لم ننته بعد من تحاليلنا . نبدأ بتعريف الجينات. فإن نجح ذلك، يتوجب علينا فهم العلاقة العملية بين تلك الجينات. ثم علينا أن نكتشف إذا ما كانت، ومتى، ولماذا تؤثر هذه الجينات بأجزاء أخرى من الحمض النووي وتتحكم بها . نعم، حسب اعتقادي، ربما سيحتاج هذا الأمر لسنوات طويلة، حتى نتمكن من فهم تلك العلاقات».

- «لكنك حتماً لا تعتقد أنني سأبقى طوال ذلك الوقت هنا لانتظار النتائج. أليس كذلك؟» قالت (زوي بورسل) بطريقة لاذعة.

- «كروموسوم غير معروف يتمكن حمضه النووي من تحويل فئران هرمة إلى أخرى شابة. ما يمكن استنتاجه من ذلك أمر واضح! وما هي نتائج فحوصات الفأر المقتول؟»

ابتلع (دوفور) لعابه، ثم استعد لطرح تبريره.

- «في نواة الخلية وفي الميتوكوندريا، يوجد كميات كبيرة من إنزيم الكاتاليز.

الميتوكوندريا: هي محطات توليد الطاقة في الخلية، حيث تقوم بتحويل الطاقة إلى الأدينوزين ثلاثي الفوسفات. إلا أنها بهذه العملية تطرح أيضاً مخلفات حادة وعنيفة للتأكسد مثل، بيروكسيد الهيدروجين. والنسبة المرتفعة للكاتاليز، تعني إبطال مفعول قوة جزيء الهيدروجين. وبهذا تتم محاربة المخلفات الناتجة عن عملية الأيض في الخلية، بمعنى آخر إبطاء الشيخوخة».

- «هل هذا جديد؟»

- «الحقيقة هي: أنه قد تم إجراء تجارب ناجحة على الفئران باستخدام إنزيم الكاتاليز. وبذلك تمت إطالة عمر تلك الحيوانات بنسبة عشرين في المئة. الجديد في هذه الحالة، هو أنه من الواضح أن الإنزيم تم تفعيله في هذا الإجراء بشكل طبيعي».

- «وماذا يعني هذا بالنسبة لك؟».

- «التوقعات الأولية تشير إلى أن الكروموسوم (Y) يحتوي على جينات تتحكم ببروتينات الميتوكوندريا. ومع كل تحليل سنتمكن من معرفة المزيد».

حدقت (زوي بورسل) بالرجلين بنظرات ثاقبة. «يا لكم من حمقى»، فكرت في نفسها. لا يهم! فقد كانت على أي حال عازمة على استغلال هذه الفرصة.

ولهذا كان عليها أن تدفع بهذين الطيفين الصغيرين إلى حيث لم يصل تخيلهما بعد.

عادت -وهي تفكر- من النافذة إلى الطاولة، وجلست مجدداً على

ذلك الكرسي القاسي. وبدأت تُقلب بتركيز أوراق ملفات المرضى التي كانت مكومة أمامها على الطاولة.

- «لابد لنا أن نناقش تجاربكم التالية» نظرت إلى (دوفور) ببرود «فموت المريض (مايك غلفور) يسبب لنا القلق».

- «إنه حادث» تمتم (دوفور) بتردد.

- «نعم، نعم، لقد فهمت هذا. ولكنه خطر بالنسبة للشركة. الإعلام، المنافسين والحسد».

نظرت إلى (دوفور) بجدية «هل يمكننا ضمان عدم تكرار ذلك مرة أخرى؟ أعني، هل يوجد هنا المزيد من المرضى الذين ستجرى عليهم مثل تلك التجارب فيؤولون إلى المصير نفسه؟»

- «كيف لك أن تفكري بذلك؟».

- «أنا هنا من يطرح الأسئلة!». أجابت (زوي بورسل) بحدة، ونهضت واقفة. انحنت إلى الأمام واتكأت على الطاولة ثم أردفت: «ربما لايمكنك تخيل ماهية الموقف الذي قمت أنت و(فولسوم) بوضع الشركة فيه. لو أن كلمة واحدة من هذا خرجت إلى العلن لهبطت أسهم شركتنا إلى أدنى مستوىً. وستكون غيمة الغبار المتصاعدة من هذا الانهيار أشبه بثورة البركان. على أقل تقدير! هل تعلم ما سيحدث بعد ذلك؟ أولاً، سنقوم بتحويل مكانك هذا إلى رذاذ! ثم سنقوم بتقديم رزم الأوراق تلك كغذاء لك. إذاً: هل علينا أن نقوم بإيقاف التجارب التالية والتريث قليلاً؟».

وافقها (دوفور) في داخله. فالصحافة لن تهتم إذا كان ما حصل حادثاً أم لا. وحدها العناوين المنشورة ستؤدي إلى تدميره وحشر المؤسسة في الزاوية. ثم سيأتي دور المدعي العام...

- «لدينا حالياً أربعة خطوط من التجارب في طور التنفيذ. ثلاثة

منها تحت السيطرة تماماً ولا يوجد أي مشكلة بخصوصها . أما الخط الرابع، الذي خضع له (مايك غلفور)، تم إيقافه. كنت قد وجدت مريضاً آخر يمكن إدخاله في التجربة، إلا أنني لم أبدأ بالفحص بعد».

- «من هو ذلك المريض؟»

- «إنه طفل لم يبلغ العاشرة من عمره. اسمه (ماتياس كيلسون)».

بحثت (زوي بورسل) بين الملفات إلى أن وجدت ملفاً هزيلاً، احتوى على بعض تحاليل المختبر، وبعض نتائج فحوصات.

- «وممَ يعاني؟»

- «تلف في الكبد، تشمع كبدي. وسيموت إن لم تتم مساعدته. وقد فشلت محاولات زراعة كبد له لأسباب عدة، بينما ترى والدته في اختبارات التيلوميراز، أملها الأخير».

- «إنه بعمر السبع سنوات فقط».

- «إنه ابن شقيقة (ياسمين برسون)، تلك التي أتت...»

نظرت إليه (زوي بورسل) بتعجب «ماذا تقول؟».

فكرت. إنها الفرصة التي طالما انتظرتها . فهي تملك كل الأوراق في يدها، لتقوم بالتخلص من (فولسوم) وإقناع (تورنتن) أنها الأحق بمنصب الرئيس التنفيذي. بتصرف عازم ستتمكن من إنجاز نتائج أبحاث دامت لسنوات طويلة، وستنحي العالمين المترددين جانباً .

فلديها الأدوات والمريض، الذي لا تتوفر له فرصة النجاة أصلاً وقريبته التي تعلم الكثير عن هذه الأمور، بحيث يتوجب عليها التعاون. أمسكت (زوي بورسل) بهاتفها الجوال وأمرت (سولفان) بالحضور إليها .

- «هل بقيّة المرضى يعانون أيضاً من أمراض خطرة، ستقضي عليهم؟».

- «كلا» قال (دوفور) وهز رأسه «إحدى خطوط التجارب يُعنى بدواء

لعلاج الأزمات التنفسية، بينما يُعنى خط آخر بعلاج الروماتزم، والخط الثالث يختبر أحد أنواع الأنسولين الاصطناعي».

دخل (سولفان) الغرفة بثلاثة ملفات ثبتها تحت ساعده، وقام بمدها على الطاولة «هذا كل شيء حول موت الشاب، (غلفور)».

وقفت (زوي بورسل) وأخذت (سولفان) جانباً. همست في أذنه بينما رفع (سولفان) حاجبيه. وفي النهاية أومأ لها وانصرف.

- «ما هذا؟» سأل (دوفور) بتعجب «ماذا تريدين من هذه الملفات؟ إنني ما زلت بحاجة إليها».

- «ولماذا؟» ردت (زوي بورسل) بعناد «للعب بها مع الصحافة؟» ضحكت المديرة المالية باستهزاء «ما يزال هناك جانب علي أن لا أنساه. حتى وإن كنت أنت من عمل مع أولائك المرضى، إلا أن (فولسوم) هو من يشرف على هذا المشروع. هل يمكنك تخيل ما سيحدث لو عُرف أن الرئيس التنفيذي لمؤسستنا أصبح محل شبهة في قضية موت أحد المرضى الذين خضعوا لتلك التجربة؟»

- «لقد كان حادثاً!» وقف (دوفور) بحماسة وأصبحت كلماته أكثر حدة، «لقد تم توضيح كافة المعلومات والمخاطر للمريض قبل إجراء التجربة، وأدركها كلها، ووافق بدوره عليها، وقام بالتوقيع على ذلك. حتى أنه أخبرنا كيف علينا أن نتصرف بجثمانه في حال وقع ما كنا نخشاه، بل ونتوقعه أيضاً. وبهذا لدينا الحق القانوني بالاستمرار في فحص جثته لمتابعة أبحاثنا...» قطع (دوفور) كلامه حين سمع أنفاسه اللاهثة وشعر بانهياره الداخلي.

عاد إليه ذلك الإحساس من ضيق الصدر والفراغ المجرد في عقله، الذي كان يلتهمه منذ وفاة ذلك الشاب واستهلك طاقة جسده وحوله إلى كتلة من الأعصاب المشدودة.

حدق (ند بيكر) إلى الأرض ثم نظر إلى (زوي بورسل)، التي كانت تبتسم لـ (دوفور) بوقاحة.

- «أنا طبيب وشهادة الوفاة صادرة عني... ولا أحد سوف...» رفع (دوفور) يديه مهدداً.

- «هذه هي النقطة بالضبط» بحثت (زوي بورسل) في الملف، حتى وجدت شهادة الوفاة وحملتها بيدها. وركزت عينيها على (دوفور) بنظرة تهكمية «إنها وثيقة هامة للغاية. وإن أراد أحد ما إيذاءك يا (دوفور)، فسيكون هذا هو المفتاح لذلك. والذي أملكه أنا الآن. ولهذا عليك التفكير ملياً بما اقترحته عليك».

كما أن (فولسوم) قد أصبح في قبضتي بهذه الورقة، هكذا فكرت. فالخزي الذي لحق بها في (فيلكاباما) مازال يطاردها ويُلِحُّ عليها بطلب الثأر. ولكن، عليها أولاً أن تلعب أوراقها الرابحة الأخرى، لتتمكن من الإطاحة بالرئيس التنفيذي (فولسوم). فإن لم تنجح في ذلك فلن يبقى لها سوى الثأر، وتعتبر الوثائق التي بين يديها الآن نموذجية لتحقيق هدفها.

- «عن أي اقتراح تتحدثين؟» سأل (دوفور) الذي كانت أنفاسه تزداد ثقلاً مع مرور الوقت. فلم يكن عقله قادراً على إدراك ما ستكشفه له (زوي بورسل). إلا أن الكلمات كانت واضحة وغير قابلة للتأويل. وبعد دقائق أصبح وجهه شاحباً كلوح من الجير.



ارتجف جسد (ياسمين) بأكمله بينما كانت تجر باب المبنى الرئيس. كانت نوبات الذعر لا تزال تعصف بها. خلعت حذاءها، وسارت بقدمين

تغطيهما الجوارب عبر البهو الأمامي الذي كان غارقاً بالضوء الأخضر الخافت، الصادر عن مصابيح الطوارئ الصغيرة المنتشرة في كل الأرجاء.

ظلت تبحث لمدة، ثم دخلت إلى مخرج الهروب وصعدت الأدراج الحجرية لطابقين إلى أعلى، خطت بعدها إلى ممر، ثم اتجهت يميناً حتى وصلت إلى باب القسم. سحبت الباب بهدوء ونظرت من الشق الصغير إلى نهاية الممر. وكما ذكرت، إن غرفة الممرضة المناوبة توجد على بعد أمتار قليلة من مدخل القسم. وعلى بعد عدة أمتار أخرى سقط ضوء على الممر. وبين الفينة والأخرى كانت أصوات خافتة تصدر من الغرفة.

تسللت (ياسمين) من خلال شق الباب، واختبأت خلف حاوية ذات عجلات بارتفاع متر، وقد امتلأت بالمناشف وأغطية الأسرة المستعملة. ارتعدت فرائسها حين سمعت الصوت الناتج عن إيصاد الباب خلفها.

انتظرت (ياسمين) لثوانٍ معدودة قبل أن تنوي الوقوف، حين رأت إحدى الممرضات خارجة من غرفة المناوبة، ومتجهة صوبها بعينين مثبتتين على باب الدخول. وفجأة توقفت ثم استدارت إلى الخلف واختفت خلف أحد الأبواب.

انزلقت (ياسمين) من خلف الحاوية حاملة حذاءها بيدها، وبخطوات مسرعة مرت أمام الباب الذي كانت الممرضة قد اختفت خلفه.

تنصتت خلف باب (ماتياس)، ترددت، ثم فتحت الباب أخيراً. كان النور الضعيف المنبعث من مصباح الطوارئ المعلق فوق سريره يجعلها بالكاد تتعرف إلى الخطوط العامة لتفاصيل جسده النحيل. تقدمت بخطوات هادئة نحو السرير.

كان (ماتياس) يتنفس بانتظام أثناء نومه بسلام على جنبه الأيمن، ساعده الأيمن على ملاءة السرير. ومن حين لآخر كانت يده الصغيرة ذات الجلد الطفولي الباهت ترتعش.

- «أنا أحلم كل ليلة بقصص (ميترو نوي)» أسرّ لها (ماتياس) أثناء زيارتها الأخيرة له. «أستمع كل مساء للقصص الصوتية المسجلة، وعندما انام أحلُم بقصص جديدة».

تذكرت نظراته اللامعة عندما كان يحدثها عن ذلك، فانبعثت الدموع في عينيها. وضعت يدها على يده مدة وجيزة وأعطته عهداً بصمت.

ثم سرعان ما انسحبت عائدة إلى الممر.

كانت (آنا) تنام في غرفة مجاورة، حتى تكون إلى جانب الصبي عندما يحتاج إليها. سارت (ياسمين) على رؤوس أصابعها متقدمة نحو السرير، حيث كانت (آنا) غارقة في النوم وقد لفّت أغطية السرير حول جسدها بقوة.

نقرت (ياسمين) على كتف شقيقتها، ثم هزتها بقوة.

فتحت (آنا) عينيها ثم هبت جالسة على السرير، وأطلقت صيحة مذعورة.

وضعت (ياسمين) يدها على فم شقيقتها.

- «هدئي من روعك. أنا هنا فعلاً. أخفضي صوتك!».

احتاجت (ياسمين) إلى عشر دقائق من الزمن لتشرح لـ (آنا) سبب عودتها المفاجئة إلى (أنتي بوليس). هزت (آنا) رأسها باستمرار معبرة عن عدم فهمها لما يحدث.

- «هل يتوجب عليكِ أن تشحني حياتك بالمزيد من المشكلات؟ ألم تعاني عائلتنا بما فيه الكفاية؟»

صمتت (ياسمين) وقد ضغطت شفتيها على بعضهما. كان قلبها ينبض بسرعة كذلك الشعور الذي انتابها أثناء وجودها تحت تلك النافذة. لا يجدر بها إخبار (آنا) بما سمعته هناك، فهي لا تحتاج لحمل المزيد من الأعباء على كاهلها.

ولهذا شدت جسدها، ومسحت بيدها بلطف على ذراع شقيقتها.

«لقد نسيت هاتفي الجوال وعلي أن أجري اتصالاً مهماً... كيف حال (ماتياس)؟»

- «لم يبدأ الطبيب بعد. فهو لا يزال يؤجل المباشرة بعملية العلاج».

- «هل قام بإطلاعك على السبب؟».

- «لم أفهم ما قاله. فقد كان كل شيء واضحاً. ولكنه الآن يردد دائماً أنه ما يزال بانتظار الحصول على النتائج».

- «أي نتائج؟».

- «لا أعلم».

- «و(ماتياس)؟».

- «إنه ينتظر بشجاعة» ابتلعت (آنا) لعابها «(ياسمين)... يبدو لي أن كل شيء هنا أصبح غريباً نوعاً ما. فذاك الطبيب (دوفور) غدا غارقاً في التفكير ومتردداً، بالرغم من أنه كان متفائلاً جداً في البداية. إنه يتحدث عن فحوصات جديدة، وقد أبدا قلقه حول ما إذا كان هذا النوع من العلاج هو الملائم فعلاً لحالة (ماتياس). في حين أنه قال أن هذا النوع من العلاج ما يزال في طور التجربة... و(ماتياس) يشعر بكل هذا. فقد أخبرني اليوم أنهم هنا لن يتمكنوا من مساعدته...، هل بإمكان طفل أن يشعر بمثل هذا؟».

كانت (ياسمين) على حافة الانهيار. بصعوبة كافحت ارتعاشة قدميها «هل ساءت حالته؟».

أومأت (آنا).

- «سأتحدث غداً مع الطبيب (دوفور). وسيخبرني عن ما يحدث. ففي النهاية نحن نعمل في المؤسسة نفسها» أجبرت (ياسمين) نفسها على النظر إلى شقيقتها.

- «ولكن علي الآن إجراء اتصال مهم بخصوص الأمور الأخرى. أنت طبعاً تحملين هاتفك الجوال معك؟».

نظرت (آنا) إليها بدهشة.

- «أرجوك... إنه بخصوص أمر مختلف تماماً... وإنه مهم للغاية! أمور متعلقة بالرجال» أردفت قائلة حين لمحت نظرات الشك في عيني شقيقتها.

استدارت (آنا) إلى الخلف وأخرجت هاتفها الجوال من درج الطاولة المجاورة لسريرها.

أعملت (ياسمين) الجهاز وانتظرت حتى يتم إظهار خدمة شبكة الاتصالات الفرنسية. ثم طلبت رقم الهاتف الجوال الخاص بـ (كريس)، الذي قرأته من الورقة التي انتزعتها بشكل غريزي من دفتر الهاتف الخاص بها حين كانت في مدينة (دريسدن)، قبل أن يجردوها من حقيبتها الخاصة. كانت سعيدة باحتفاظها بعادتها القديمة، وهي كتابة أرقام الهواتف على دفتر خاص، وعدم الاكتفاء بتسجيلها على جهازها الخليوي فقط.

- «سيساعدنا! عليه أن يساعدنا!».

إلا أن أملها كان يتبدد مع كل رنّة تسمعها لهاتفه.

- «اللعنة!» زفرت (ياسمين) وقد حاولت منع دموعها من أن تنهمر عندما سمعت المجيب الآلي على الطرف الآخر.

حاولت مرة أخرى. ثم تركت له رسالة مسجلة.

راقبتها (آنا) بعينين مفتوحتين بتعجب. وبالرغم من أنها كانت تتحدث اللغة الألمانية بشكل جيد جداً، إلا أنها لم تتمكن من فهم أي من تلك الرسالة التي تركتها شقيقتها بغضب وتوتر على المجيب الآلي.

- «إن لم يقم بأي ردة فعل على ذلك...» نفثت (ياسمين) بنبرة متوعدة ثم قامت بإغلاق جهاز الهاتف المحمول.

- «فسينتهي كل شيء حتى قبل أن يكون قد بدأ».

في هذه الأثناء فُتح الباب بعنف ودخل (سولفان) إلى الغرفة وقد رُسمت على شفتيه ابتسامة باردة.

الفصل الثاني والثلاثون

(باريس)

الإثنين

على جزيرة (الي دا لا سات) في قلب (باريس)، حيث تحكم العدالة منذ قرون، بعد أن تم هناك ضرب القلب السياسي لـ (باريس) منذ الحكم الروماني وحتى حرب المئة عام.

كان (إريك مايكل لافاليه) متوتراً حين عبر البوابة الحديدية المزخرفة لقصر العدل في شارع القصر. فقد غادر (فونتينبلو) مساء الأحد ومعه الطبعات الأخيرة لتصاميم الكتيبات التي وافق عليها (مارفن). لم يكترث (مارفن) لكون المطبعة قد حسبت تكاليف ورسوم إضافية لانتظارها على مدار عطلة نهاية الأسبوع وحسابها لكل دقيقة. ابتسم مدير المطبعة برضاً حين تمكن (لافاليه) من تسليمه الكتيبات في الليل. وحتى وإن قامت المطبعة بطلب آلاف الأضعاف من التكاليف الإضافية، لم يعد ذلك يعني لـ (لافاليه) أي شيء.

وقف أمام المبنى الضخم للعدالة، وكان يرتجف بمجرد تفكيره في الساعات الأخيرة التي قضاها في (فونتينبلو). وقد بدا له في طريق العودة كم أنه بعيد عن كل ما كان يخطط له ويفعله (هنري مارفن).

فقد قضى جُل ليلته يقظاً ومرتعداً لمجرد تفكيره في عودته القريبة.

- «سأحتفظ به لك يا (لافاليه). عليك أن تُثبت أنك ستكون

بريتورياني مخلص» نظرات (مارفن) الباردة لم تمكنه من الخلود إلى النوم مطلقاً.

أعطى (لافاليه) دفعة لنفسه ودخل إلى قصر العدل. قام بالبحث في القاعة ذات الأعمدة إلى أن وجد مكتب الاستعلامات حيث سأل عن قاضي التحقيق.

- «قانون مدني أم جنائي؟».

- «جنائي» تمتم (لافاليه) بتردد. أرشده الحاجب إلى الطريق، فسار عبر ممرات طويلة ثم دخل أخيراً على مكتب قاضي التحقيق.

كان (موريس آلازارد) قصير القامة ونحيلاً ومجهداً للغاية، لأنه عمل في عطلة نهاية الأسبوع على ترتيب ملفات إحدى أكبر فضائح الفساد. لهذا بدت له زيارة ذلك الشخص، الذي أتى لغرض لا يعرفه، على نحو غير ملائم.

كان (آلازارد) يتقن عمله على نحو محترف ولم تكن الأسماء الكبيرة ترعبه. ولقد تسبب إدمانه على العمل في فشل حياته الزوجية. حيث أنه كان شديد البخل فيما يخص بذل المزيد من المال لتحسين مظهره الخارجي، فقد اعتاد منذ سنين على ارتداء القمصان غير المكوية.

ولهذا، قام قاضي التحقيق بالترحيب بـ (لافاليه) على نحو بارد ودعاه للجلوس إلى الطاولة المغمورة بأكوام من الملفات.

- «نحن غارقون في العمل. يبدو كأنه لم يبقَ سوى المجرمين في هذا العالم، لهذا يبدو الوضع على هذه الحال هنا» قال متثائباً.

تلعثم (لافاليه) في البداية ثم طلب التعامل مع القضية بمنتهى السرية. وعندما استمر في تردده حتى بعد أن ضمن له (آلازارد) ذلك، نهض (آلازارد) واقفاً خلف طاولة مكتبه.

- «إن لم يكن بإمكانك الوثوق بي فإنني لن أستطيع مساعدتك. لذا أرجوك أن تغادر ولا تهدر وقتي».

بدا كأن ذلك هو أسلوبه في دفع زواره للإدلاء بما لديهم.

وفي غضون دقائق استطاع استخراج كل ما لدى (لافاليه) من معلومات حول القضية.

في البداية كشّر وجهه، فقد بدا له الأمر كأنه يدور حول سرقة أنيقة، حتى وإن كان الأمر يدور حول سرقة عشر صحائف مما يعرف بين الأوساط المختصة بـ (كتاب حلب المقدس).

أنصت قاضي التحقيق بشكل جيد حين ادّعى (لافاليه) أن تلك الأرض تخضع لحراسة مشددة من قبل جيش خاص مدجج بالسلاح الثقيل. وأن مرتزقة من جميع أنحاء العالم يقومون باختطاف وقتل أناس هناك. وبعد ما يقارب نصف الساعة بدأ (موريس آلازارد) بطرح الأسئلة.

كان (آلازارد) يشكك مبدئياً بكل نوع من أنواع السلطة سواء كانت على أساس حكومي أو عقائدي أو اقتصادي. لم يحتج لأكثر من عشرة أسئلة؛ ليتمكن من تلخيص القذارة المذهلة والمؤثرة إعلامياً: مجموعة منظمة من المجرمين، الذين يتمتعون بشبكة تواصل عالمية، يختبؤن تحت عباءة جمعية دينية مسيحية ويقيمون في بناء عظيم بالقرب من (باريس)، يخططون لهجمات إرهابية.

في حالة من الذعر، التقط سماعة الهاتف.



(بيفريس) بالقرب من (باريس)

(بيفريس) هي منطقة صغيرة ذات طابع ريفي، وبعدد سكان يصل إلى خمسة آلاف تقع في دائرة (إسوني) جنوب (باريس)، ويصلها خط

القطار المحلي (C)، وهي مقر (الفهود السود). هذه الوحدة الشرطية الخاصة التي تم تأسيسها عام 1985 من قبل وزارة الداخلية، اشتق اسمها من صورة النمر الأسود الموجود فوق شعارها (RAID) وهي اختصار (تفاعل، دعم، تدخل ومنع).

وكوحدة خاصة تابعة للشرطة الوطنية، فهي مسؤولة عن كل (فرنسا).

وبتأسيس هذه الوحدة الخاصة تم فصل وزارة الداخلية عن وزارة الدفاع، التي كانت عادة تتدخل في المهام ذات الخطورة العالية من خلال وحدة خاصة بها تسمى (مجموعة التدخل للحرس الوطني)، التي كانت تشبه إلى حد كبير وحدات الجيش من حيث التسلح والعتاد، وكذلك الأعضاء، فقد كانت تضم المظليين أيضاً.

لقد تم طلب تدخل وحدة الـRAID من قبل قاضي التحقيق في مقر كبير مفتشي المباحث (بول كامبراي).

قرأ (كامبراي) الرسالة ثم حدق في برنامج الخدمة. كان هناك ما يقارب المئة رجل تحت إمرته، كانوا يعملون في مجموعات صغيرة تضم بين ثمانية إلى عشرة أفراد في كل منها.

اثنتان من مجموعاته كانتا يؤديان مهمة في (مارسيل)، وهي عبارة عن مراقبة لأحد طرق مهربي المخدرات التي تم إبلاغهم عنها من قبل منافسين. بينما كانت إحدى الفرق في (فريسن) لإنهاء تمرد في أحد السجون، حيث كان وجود رجاله فحسب، كفيلاً بإجبار اثنين من المجرمين المتهمين بجريمة القتل بغرض السرقة بتسليم نفسيهما. في حين كان فريق آخر له ذا إمكانيات محدودة، حيث أن أخصائيو التصنت خاصته في (ستراسبورغ) كانوا مشغولين في مهمة إثبات تورط أحد أعضاء البرلمان الأوروبي في قضية فساد.

كان كل شيء يجري على ما يرام، فكر (بول كامبراي). الذي كان ينتمي للسبعين الأوائل الذين انضموا إلى (الفهود)، حيث تم اختياره من بين ألف ومئتي متطوع، تقدموا للانتساب في مرحلة التأسيس.

كان (كامبراي) قريباً من الخمسين، طويل وقوي، له وجه ملفت ذو أنف بصلي ضخم. في البداية كانت التعليقات تزعجه ولكن مع مرور الوقت أصبح يتقبل ذلك الأنف كعلامة فارقة.

أعاد قراءة الرسالة عدة مرات، ثم هزّ رأسه مستنكراً. فقد كانت أمراً معتاداً، فهي الغلطة الاعتيادية للطرف الآخر. حيث يُعتقد أن السلاح سيحميهم. في حين أن هذا هو بالضبط الأمر الذي لا يمكن لأي شرطي على وجه الأرض أن يتقبله. فالسلاح يعني في الوقت نفسه تشكيل خطر على حياة حامله أيضاً. ولهذا لا بد من القيام بردة فعل قوية ومناسبة على مثل هذا التصرف. كان (آلازارد) قاضي تحقيقات يمكن الاعتماد عليه، رجل لا يخشى اقتحام الأبواب المغلقة وخاصة عندما يتعلق الأمر بالجرائم القذرة. هذا ما جعل له اسماً لامعاً في أوساط الشرطة، في الوقت الذي كان ذلك يثير حفيظة بعض أصحاب النفوذ السابقين.

هذا ما دفع رئيس التحقيق للاهتمام بهذا البلاغ وتسخير كافة إمكاناته للعمل على الملف، بل وقرر أن يكون هو شخصياً قائداً لهذه العملية.



(فونتينبلو)

كان (هنري مارفن) يضغط بالهاتف الجوال على أذنه ويتمشى في الحجرة ضاحكاً، في حين كانت تعابير وجهه تشير إلى مدى سعادته، ضحك

بتوتر، ثم برضاً، بينما كان يكور قبضة كفه اليسرى ويضرب بها في الهواء. تحولت نظراته اللامعة إلى (باري) و(برانداو)، ابتسم لهما دون أن يلحظهما فعلاً.

كان (مارفن) يهاتف (روما).

و قد أبلغته (روما) أخباراً جيدة.

- «شكراً جزيلاً يا عزيزي المونسينيور (تيساني). أخبر قداسة البابا، أنه من عظيم الشرف بالنسبة لي وللجمعية أن نقدم مثل هذه الخدمة للكنيسة الكاثوليكية المقدسة. وسوف أثبت لك أن البريتوريانيين سيكونون على مستوى هذا الشرف».

أغلق (مارفن) الهاتف ثم ضحك بصوت عالٍ.

- «لقد نجحت! حان الوقت! كان هذا المونسينيور الطيب (تيساني). لقد تحدث مساء الأمس، حال عودته، مع البابا. ومنذ قليل تم استدعاؤه مجدداً من قبل قداسة البابا. الرجل العجوز متحمس جداً للحصول على تلك الآثار. أصبح رسم البريتوريانيين كأخوية خاصة أمراً مفروغاً منه». ضحك (مارفن) مجدداً.

لم ينبس (باري) ببنت شفه. فقد كان (مارفن) متقلب المزاج وكأنه بريمادونا، ومن المتوقع أن تنقلب تلك البهجة في غضون ثوانٍ معدودة. ولكن لو أن كل شيء سار كما أراده (مارفن)، سيعمل هذا على تقوية موقفه. لقد تمكن من خلال أعماله القذرة من إحراز هذا النصر.

- «وأخيراً! وأخيراً! كنت أعلم ذلك!» صفق (برانداو) عدة مرات بيديه.

جلس (مارفن) على أريكته وتفحص الألماني بنظرات تقدير.

- «لقد قمت بعمل رائع يا (برانداو). اليوم أصبح بإمكاني الاعتراف بهذا، فعندما أتيت إلي قبل أكثر من ستة أشهر وقدمت لي ذلك العرض،

توقعت أنك مجنون. ولكنك كنت على حق. كان لا بد من أن تقوم (روما) بإزاحتهم عن الطريق!».

- «أنا سعيد بتمكني من تقديم مثل هذه المشاركة الكبيرة للبريتوريانيين». قال (برانداو) ذلك في محاولة منه لتحصيل المزيد من التقدير.

- «ستكون مستقبلاً رئيساً لفرع البريتوريانيين في ألمانيا»، قال (مارفن) بنبرة متعالية «سأتمم الإجراءات الخاصة بذلك فور نجاحي في الانتخابات. سيحضر البابا شخصياً إلى (فرنسا)...»

- «قداسة البابا؟».

- «نعم يا (برانداو). إنه سيحضر إلى (فرنسا). لقد أخبرني (تيساني) منذ قليل، أن قداسة البابا سيقوم غداً بزيارة إلى سرداب كاتدرائية القديس (بينويت سور لوار)، حيث سيقوم بتقديم إجلاله لبقايا رفاة القديس (بندكت). زيارة قصيرة خاصة دون إثارة أي ضجة!».

تضم الكاتدرائية، التي عادت لتعج بحياة الرهبانية منذ عام 1944 فقط، بقايا رفاة القديس (بندكت)، التي تم إنقاذها من خلال نقلها في القرن السابع من (مونت كاسينو) إلى (فرنسا) لحمايتها من اللومبارديين.

ابتسم (برانداو). فقد كانت (فونتينبلو) تقع شمال (سانت بينويت) وبهذا تكون عملياً على خط السير نفسه. أمر مرتب ببراعة.

تبسم (مارفن) برضاً. وأخيراً تسير الأمور حسب رغبته. فبامتلاكه للقطع الأثرية أصبح قريباً جداً من تحقيق هدفه المتعلق بالفاتيكان.

وبوجود (تسرنت هاين) تحت الاسم المستعار (ريتسي) في قبضته، أصبح لديه كبش الأضحية الذي يمكنه تقديمه في حال حدوث أي أمر طارئ. ولكن وحتى الآن، حسب ما أخبره به (برانداو) و(باري)، لم تتمكن الشرطة الألمانية من إحداث أي تقدم فيما يتعلق بحادثة (برلين) أو بالعملية

التي تمت على الخط السريع. وفي غضون أيام ستنسى وسائل الإعلام تلك الحوادث. وطالما أن الشرطة الألمانية ما تزال تتخبط بالظلام، فإنها لن تقوم بتحريك الأمر. وحتى في حال اتجهت الأمور نحو الأسوأ، إن (باري) سيقوم بتولي الأمر...

- «تبدو بائساً يا (باري)! ماذا لديك؟» رمق (مارفن) مدير الأمن خاصته -بنظرات لامعة-، الذي كان ما يزال يقف منتظراً أمام طاولة المكتب.

- «لقد اختفى (لافاليه)».

- «ماذا يعني هذا؟!»

- «إنه لم يعد حتى الآن. لقد أراد أن يكون هنا في منتصف هذا النهار. إلا أنه لم يأت. حاولنا الاتصال به ولكنه لم يُجب».

- «هل قمتم بالاتصال بالمطبعة؟»

- «الأمور تسير هناك على قدم وساق. لقد قام (لافاليه) بتسليمهم كتيبات الطباعة ليلة الأمس، ومنذ ذلك الحين تدور الآلات. وسيتم إرسالها صباح الغد».

فكر (مارفن) بغياب (لافاليه) «لم يستطع فهم تصرفه في الأمس. إن كان ذكياً، فإنه سيقوم بتحضير نفسه لما سأطلبه منه. وإلا ...»



أومأ كل من (جون سانتير) و(فيكتور فايفر) لرئيسهما للمرة الأخير.

- «حظاً موفقاً!» تمتم (بول كامبراي)، عندما تسلق الرجلان السلم الحديدي إلى سطح العربة. كانت العربة تقف مباشرة بين الأشجار،

بمحاذاة السور المعدني الذي يصل ارتفاعه إلى مترين ونصف، ويحيط عند هذا الموقع بعقار البريتوريانيين. بينما ربض رجل ثالث من الفهود السود على سطح العربة ممسكاً بيديه حقيبتا ظهر كبيرتان، ليحملها الرجلين الآخرين معهما إلى الداخل.

- «يا له من مكان معزول. لو أن رجالنا تسلقوا الأشجار، فسيُمكننا ذلك من رؤية بضعة أمتار في عمق الأرض وذلك باستخدام الأشعة تحت الحمراء آلات التصوير، ولكننا لن نتمكن أبداً من رؤية المبنى الرئيس». تذكر (سانتير) تحليله في اجتماع المعسكر، الذي يحدد الآن نمط تصرفاتهم.

- «كيف يبدو الوضع عند بوابة الدخول؟» سأل (كامبراي) عبر لاقط الصوت.

- «الضيوف مازالوا يتوافدون. لقد وصلت حالاً إحدى السيارات. يبدو أن المكان سيعج بالزوار».

نظر رئيس المحققين إلى الأعلى حيث كان الرجلان على سطح العربة، ثم رفع سبابة يده اليمنى كإشارة تأكيد.

لقد اعترف لهم (لافاليه)، أن العقار محاط بكلاب الحراسة الشرسة، إلا أنهم لم يروا أياً منهم حتى الآن. ولقد عزوا ذلك لتوافد الضيوف في اليوم التالي. فأرادوا انتهاز هذه الفرصة.

كان (كامبراي) يثق بقدرة رجاله على التخلص من تلك الكلاب. فـ (سانتير) الذي انضم إلى الفهود السود منذ عشر سنوات، لم يكن شيء يقدر على إخراجه عن هدوئه، منذ أن شارك بإخماد تمرد السجناء في (مارسيل)، حيث لقي اثنين من الحراس مصرعهما، الذي رأى الموت في كل دقيقة مرت خلال عملية تبادل الأسرى. لقد كان عليه خلال يومين فقط أن يمر بعمليتي إعدام وهميتين.

كان وجهه ذو العظام البارزة يثير الرعب في قلوب معظم من يراه. بل وإن الكثيرين يتهمونه بالعنف، بالرغم من أنه كان في حقيقة الأمر من أبرع المفاوضين النفسيين، يمتلك قدرة السيطرة على أصعب المواقف من خلال صبره وإحساسه العالي.

أما (فيكتور فايفر) فلم يمضِ على انتسابه إلى الفهود السود إلا ثلاثة أشهر فقط، ويعتبر من أصحاب المهارات الواعدة. كان أصغر من (سانتير) بعشرة أعوام، ويتمتع بديناميكية جسدية عالية، نادراً ما رأى لها (كامبراي) مثيلاً. فحتى الآن لم يتمكن أحد من أفراد الفهود السود من التغلب على (فايفر) بالمصارعات الفردية. كانت بشرته شديدة الغمقة، وله عينان سوداوان تشعان كالجمر عند غضبه.

قفز (فايفر) أولاً فوق السور، وتدحرج بخفة على الأرض المفروشة بأوراق الأشجار الجافة في الناحية الأخرى. وحالما قفز (سانتير)، أُنزلت حقائب الظهر خلفهما. امتصت أرض الغابة صوت ارتطام الحقائب. رفع الرجلان الحقائب على كتفيهما وتقدما داخل الموقع. كان (سانتير) يحتفظ بخارطة المكان في ذاكرته، لهذا توجه مباشرة باتجاه الغرب. كانت عتمة الليل على وشك أن تبتلع حمرة الشفق، فأرادا الاقتراب من المبنى الرئيس قدر المستطاع، قبل بزوغ النور. بدأ (سانتير) المسير.

كان الموقع شاسعاً، ومراقباً بكاميرات المراقبة في مواضع معينة فقط. وكذلك لم يكن من الممكن زرع إنذارات إلكترونية في باطن الأرض، وذلك لكثرة الحيوانات الصغيرة التي تمر في مثل هذه الغابة، فكانت ستتسبب بإطلاق الإنذارات الخاطئة بشكل متكرر.

لم يبقَ إذاً سوى الكلاب، فكر (سانتير). لا شك أنها ستسرح في الليل. ولذلك الحين كان يتوجب عليه العثور على مخبأ.

أسرعوا متخطين الأغصان المتشابكة، وتسللوا بعيداً عن الأشجار

الصغيرة، ومروا بين الأشواك وتحت أسقف من ورق الشجر باتجاه القصر. بعد قطعهما لمسافة تقارب الكيلومتر رأوا أمامهما مساحة خالية، برزت خلفها كنيسة محاطة بسقالات. زحفو بين الشجيرات واستعمل (سانتير) منظاره العسكري لاستكشاف المكان. ليس بعيداً عن موقع الكنيسة رأى برجاً مائياً. وحسب اعترافات (لافاليه)، إن المبنيين كانا مرتبطين بممرات تحت الأرض.

- «ماذا نفعل؟» سأل (فيكتور فايفر)، بعد أن نظر هو أيضاً من خلال منظاره العسكري «إلى داخل الكنيسة؟».

- «ليس بالحل السيء. وكذلك البرج المائي يشكل إمكانية. أو سقيفة».

- «علينا أن نسرع، فالظلام على وشك الهبوط».

أومأ (سانتير) موافقاً. حولهما سمعا أصوات الغابة المعتادة عند حلول الظلام من طقطقة وحفيف.

- «سنذهب إلى الكنيسة».

زحفا خارجين من بين الأشجار عبر المنطقة المحيطة بالبقعة الخالية. تنقلوا من جذع إلى آخر، مختبئين بين الأغصان والأوراق. كان أحدهما يتقدم إلى الأمام بينما كان الآخر يغطيه حاملاً سلاحه.

لم يحتاجا إلى استخدام أدوات الاقتحام خاصتهما، فلم تكن بوابة الكنيسة مقفلة، وانساب الباب إلى الداخل بمجرد أن ضغط (سانتر) مزلاج الباب إلى الأسفل.

انزلقا إلى داخل الكنيسة، بحثاً عن الأدراج المؤدية إلى برج الكنيسة ثم صعدا السلالم الحجرية حتى وصلا إلى منطقة أسفل الأجراس.

أخرج (سانتير) جهازه اللاسلكي من حقيبة الظهر خاصته وبعث برسالته إلى (كامبراي). في هذه الأثناء كان (فيكتور فايفر) يحمل

منظاره الليلي ويراقب المحيط الخارجي من خلال أحد شقوق الجدار الضيقة.

التقطت الأشعة المخضرة لمنظاره الليلي كتلة حرارية ممتلئة.

كانت الكتلة الحرارية، التي توقفت فجأة، ذات أربعة أرجل. تحجر الجسد الضخم، وبدا كأن الرأس الهائل المنحني إلى أسفل، يذوب في الأرض. ثم ارتفع الرأس عن الأرض، وبدأ ذلك الحيوان بعنق مشرئب يشم الهواء.

تلك الارتجافة في خاصرته جعلت العرق يتصبب على ظهر (فايفر). عضلات خالصة. إنه آلة قتال تزن سبعين كيلوغراماً، وبإمكان فكه الضخم أن يهرس أي نوع من العظام.

كان الحيوان قد اشتم رائحة أثرهما، ولن يفقده أبداً. خفض رأسه إلى الأرض، وبدأ الكلب بتتبع خطاهما بمنتهى الدقة.

الفصل الثالث والثلاثون

(فونتينبلو)

صباح الثلاثاء

قدموا نحو الساعة الخامسة، وضغطوا وجه (كريس) إلى الأرض. كان ضغط تلك اليد الثقيلة على مؤخرة عنقه قد أيقظه.

لامست شفتاه الأرض الحجرية المشققة، وشعر بطعم الغبار على لسانه. كان ما يزال يرتدي ثيابه التي جفت تماماً بفعل حرارة الجسم. بينما كانت الأصفاد الحديدية الباردة تحيط بمعصميه، كسوارين من الجليد.

جرّته اليدان الثقيلتان من شعره لتجبره على الوقوف. اهتز (كريس) فأتته ضربة من الخلف. بخطوات متعثرة سار خارجاً من باب الزنزانة. كانت البقعة الجافة والداكنة على الأرض تُذكر بالمكان الذي تم فيه إعدام (بونتي). كان الرجل ذو الشعر الناري أمامه، بينما تبعه الرجل ذو وجه الثآليل و(باري). قادوه عبر الممر الرئيس إلى الخارج وهناك تبعوا ممراً صخرياً يؤدي إلى الأسفل. بعد ما يقارب المئة خطوة، توقفوا أمام بوابة حديدية. رأى (كريس) عدسة مصورة مثبتة بالسقف.

دخلوا إلى غرفة أمامية، اتسعت بعد بضع خطوات لتصبح قاعة في أعماق الأرض.

كان ارتفاع القاعة يقارب الأربعة أمتار تقريباً، بينما لم يكن بالإمكان رؤية نهايتها التي غرقت في الظلام. يبدأ السواد بعد خطوات من صف للشمعدانات التي تحمل عشرات الشموع المضاءة. وكانت الظلال القاتمة تتراقص على الجدران الصخرية الجرداء للقاعة. على الجانب الأيمن لمح (كريس) ثغرات، بدت في الظلال كأنها مداخل كهوف. «إنها توابيت»، فكر في نفسه، عندما أعاد النظر إلى تلك الشقوق العريضة الغامضة، التي اكتشف بداخلها ثغرات رمادية قاتمة.

كانت شعلات الشموع في الجانب الآخر من القاعة تتراقص كأن تياراً من الهواء قد اندفع من مكانٍ ما باتجاهها.

دوت نغمات الأورغ العالية كالرعد في أرجاء القاعة، وهبطت فجأة حزمة ضوئية ساطعة على مقدمة مستطيل على الأرض.

نحن أسفل الكنيسة، فكر (كريس)، وحدق باضطراب في البقعة المنارة بفعل الأضواء القوية.

تقدم إلى الأمام بفعل دفعة على ظهره. حول البقعة المضيئة رُتبت كراسٍ بشكل منتظم، وعلى مسافات متساوية البعد. تكومت بينها مجموعات مرتبة من الحجارة بارتفاع يصل إلى مستوى الركبة. كان كل من الحجارة بحجم كرة المضرب.

كان المستطيل غائراً لبضعة سنتمترات في الأرض، ويتميز بسطحه المستوي تماماً، وناصع البياض كالثلج، عن بقية الأرض الحجرية المحيطة به.

قدّر (كريس) مساحة ذلك المستطيل بطول خمسة سنتيمترات، وعرض عشرة سنتمترات. في وسطه امتدت حشوة بشكل عرضي. من وجهة نظره بدا وراء الحشوة، في الجزء الخلفي من ذلك السطح، كأن صليباً طويلاً وضيقاً قد حُفر عليها.

توقع (كريس) أنه أمام قبر ضخم، ثم فكر إن كانت تلك المواد عبارة

عن حجارة صخرية منحوتة أم أنها مصممة من مواد بلاستيكية. فجأة ظهر خيال من الظلام، ووقف بين أعمدة الشمعدانات.

توقفت نغمات الأورغ.

تراقصت انعكاسات الأنوار على رداء الجوقة الكنسية الذي كان يرتديه (هنري مارفن). بينما كانت خيوط الذهب التي زينته تلمع تحت أضواء الشموع، وكانت بعض النقاط تُشع في الظلال، كأنها النجوم الساطعة في عتمة الليل.

تذكر (كريس) أثواب الملائكة التي كان قد رآها في طفولته على بعض الرسومات. إلا أن التطريز ذا اللون الأحمر الداكن على رداء (مارفن) بدد تلك اللوحة.

- «هل قمت بأداء الصلاة؟» سأل (هنري مارفن) بينما كان يحدق في سجينه. «(الماتوتينا)، صلاة الصباح الأولى. هل تلوت تلك الصلاة؟» كرر (مارفن) سؤاله عندما لم يقم (كريس) بأي ردة فعل.

هزّ (كريس) رأسه نافياً.

- «سأمنحك خمس دقائق لأداء الصلاة، لتبدأ يومك الصعب بالتذلل والشعور بالرهبة أمام الرب».

- «وهل هذا مهم؟» فلم يقم (كريس) منذ طفولته بأداء الصلاة.

- «بالنسبة لي، نعم». قال (مارفن) بصوت عالٍ كالرعد «لا بد من التمييز بين من يؤمن، ومن لا يؤمن. فغير المؤمنين لا يُنتظر منهم أن يعاملوا بشفقة، فهم مطرودون من رحمة الرب».

- «هل تعني أن غير المؤمنين يجب أن يعاملوا بطريقة أسوء من المؤمنين؟»

- «لقد فهمت المقصود بشكل صحيح. والأسوء هم من خانوا الرب والعقيدة. يجب أن يعاقبوا بغضب الرب الكامل».

- «أنا لن أصلي لإله غاضب!».

أومأ (مارفن) لـ (باري). وفجأة دوّى صوت محرك. انقسم اللوح الموجود على الأرض إلى نصفين من منطقة الحشوة، واختفى جزئي اللوحين عند مقدمة المستطيل تحت الأرض الصخرية.

شيئاً فشيئاً بدت حفرة في الأرض، كانت بعمق مترين ونصف، وبارتفاع وعرض وصل إلى حيث وضعت الكراسي تقريباً.

فكر (كريس) بشكل تلقائي بحمام السباحة المفروش بالرمال. كانت الرمال صفراء اللون، ناعمة ومستوية كأنها شاطئ غير مأهول على أحد شواطئ بحر الجنوب.

أشار (مارفن) بيده اليمنى. عاد المحرك يدوّي، فارتفع شبك معدني من الجانب الأيسر للجهة الأمامية للحفرة.



صوت زقزقة العصافير أيقظ (جون سانتير) من شبه غفوته. فتح عينيه ونظر إلى (فيكتور فايفر)، الذي كان جاثماً أمام إحدى الفتحات الموجودة في سور الأجراس وينظر إلى الأسفل.

فرك (سانتير) عينيه، وأخذ يتذكر ما فعلوه في الساعات الماضية. في البداية قاموا بإرسال رسالة، أنهم قد وجدوا المخبأ المناسب.

تمركزوا هناك بحالة انتظار وقاموا بمراقبة المنطقة المحيطة بالمبنى الرئيس، مستخدمين أجهزة الرؤية الليلية. لاحظوا اثنين من الحراس الذين كانوا يحومون حول المنطقة في أوقات غير منتظمة، كما أنهم رأوا عدداً من الكلاب، التي كانت تخرج أحياناً من الغابة وتتسلل عبر المساحة الجرداء، تحت الأضواء، كأنهم نمور في طريقها للصيد.

تم إطفاء آخر مصباح في المبنى الرئيس قبل ساعة تقريباً. وبعد انتظار دام ما يقارب نصف الساعة، استعد رجلا فرقة النمر الأسود لاستكشاف الكنيسة.

سارعا بالهبوط إلى صحن الكنيسة، وباشرا تفحص كل زاوية منه مستعينين بأجهزة الرؤية بالأشعة تحت الحمراء، التي كانا يرتديانها على وجهيهما، كأنها نظارات الغواصين. ثم تابعا النزول على السلم الحجري حتى وصلا إلى قاعة كبيرة توجد تحت الأرض. ما لفت نظرهما، تلك المساحة المستطيلة المحفورة على الأرض، والمزينة بذلك الصليب، التي كانت مضيئة، وتحدها مجموعة من الكراسي المرتبة حولها.

كانت آلة التصوير الرقمية المثبتة على رأس (فيكتور) تقوم بإرسال الصور بشكل مباشر إلى مركز القيادة. عليهم أن يعرفوا أكثر عن ذلك المستطيل المضيء، هكذا كانت الأوامر الصادرة من مركز القيادة، إلا أنهم بعد عدة دقائق تركوا المحاولة. فلم يستطيعوا العثور على أي قبضة لإزاحة اللوح أو حتى فُتحة لينظروا من خلالها، إضافة إلى أنهم كانوا معرضين للإزعاج في أي وقت.

وفي النهاية قاموا بتثبيت آلات مرقبة صغيرة في جميع أنحاء الكنيسة وكذلك في القاعة الموجودة تحت الأرض، وكانت تلك مجهزة بعدسات ذات زوايا كبيرة بحيث تستطيع تصوير المكان بالمجمل.

كان بإمكان آلات المراقبة تلك، التي يُتحكم بها عن بعد، العمل مدة ست وثلاثين ساعة متواصلة بفضل تجهيزها بخلايا طاقة طويلة الأمد.

كذلك تمكنوا من العثور على الباب الحديدي الذي يوجد خلفه الممر الذي لا بد أنه يربط القاعة بالمبنى الآخر.

إلا أن رئيس المباحث (كامبراي) أمرهم بعدم عبور ذلك الباب وذلك

لأن (لافاليه) قد أخبرهم أن ذلك الممر مراقب بآلات التصوير المعدة للمراقبة.

تسللا عائدين إلى برج الأجراس وقد أيقنا أنهما لم يحصلا على الكثير من المعلومات التي يحتاجانها.

كانت إدلاءات (إريك مايكل لافاليه) هي السبب الرئيس خلف قيامهما بهذه العملية. فهما لم يتمكنا من خلال مراقبتهما الشخصية من معرفة قوة خصومهما من حيث العدد، والعتاد، والتسليح. وكذلك لم يروا أي مسروقات هنا، أو أُناس تم اختطافهم وسجنهم في هذا المكان.

لقد منعهما رئيس المباحث (كامبراي) من أي توسع في بحثهما. حيث أنه رأى في مكانهما أعلى برج الأجراس موقعاً استراتيجياً في حال اتخاذه قرار مداهمة المكان. إن كان قاضي التحقيق سوف يصدر هذا القرار أم لا، إضافة إلى أن توقيت ذلك، كان ما يزال أمراً مفتوحاً. ولهذا انسحب كل من (سانتير) و(فايفر) إلى موقع المراقبة، وتناوبا أوقات النوم.

الآن زحف (جون سانتير) إلى (فايفر)، الذي كان جاثماً أمام فتحة السور يراقب المبنى الرئيس، حيث تم للتو إضاءة أول المصابيح هناك.

- «هل هناك ما يثير الاهتمام؟» سأل (سانتير).

- «لا شيء حتى الآن».

تسلل الليل هارباً وبقي شعاع من الشفق الأحمر يصارع قوة انبلاج النهار.

فجأة همس (فيكتور فايفر) بشيء ما. التقط (سانتير) منظاره العسكري وتمركز أمام فتحة أخرى من السور وبدأ ينظر إلى الأسفل.

كان الرجل الذي ظهر في الساحة الأمامية للقصر، ممتلئ الجسد

وقوي البنية. كان يرتدي وشاحاً أبيض اللون تقريباً. وحسب وصف (لافاليه)، لا بد أن يكون هذا الرجل هو (هنري مارفن).

تقدم رجلان ووقفا إلى جوار (مارفن). بديا كأنهما في حالة انتظار، ولكن ما الذي كانوا ينتظرونه؟ وفجأة خرجت الكلاب من كل جانب من الغابة.

تصبب العرق على ظهر (سانتير)، حين لاحظ كمية العضلات التي تحملها أجساد تلك الحيوانات، التي حسب تقديره لم يكن وزن كل منها يقل عن الأربعين كيلو غراماً. تدلّت الألسن من الأفواه النصف مفتوحة حين عدت تلك الكلاب بسرعة خيالية باتجاه الرجال الثلاثة.

عد (سانتير) سبعة كلاب. لم تكن أصواتهم تسمع، في حين أن زقزقة العصافير الصباحية كانت تملأ أرجاء المكان.

انتظر (سانتير) قفزات تلك الحيوانات، ورأى أرجلها الخلفية المتحفزة، وخُيّل إليه أنها ستقوم برفع أجسادها بحركة سريعة ومفعمة بالحماس في الهواء. إلا أن الكلاب وقفت بشكل مفاجئ أمام الرجال وجثمت على أرجلها الخلفية.

مر (مارفن) أمام صف الكلاب وأشار إلى اثنين منهم، وقام أحد الرجال بربطهما فوراً بالسلاسل. بينما سار الرجل الآخر مع بقية الكلاب باتجاه القصر.



رفع الكلب رأسه لالتقاط شيء من رائحة الأثر. ثم بدأ الحيوان بالتحرك، تقدم بشكل مباشر إلى وسط الحفرة ووقف هناك. حفرت أرجله الآثار الأولى على رمال الحفرة.

ارتجف (كريس).

كان ارتفاع ظهر الحيوان يصل إلى أكثر من ثلاثة أرباع المتر، بينما بدا شعره الرصاصي اللون، قصيراً وذو ملمس خشن وقاسٍ.

كان الرأس كبيراً وضخماً، بينما بدت خطوط التجاعيد الشديدة على جلده. وتدلت أذناه الصغيرتان المثلثتان على وجنتيه. خمّن (كريس) وزن ذلك الحيوان بنحو سبعين كيلو غراماً.

- «إنه من سلالة الدرواس النابولية» قال (مارفن)، الذي كان يراقب ردود فعل (كريس) بكثير من السعادة. - «حتى أن (ألكسندر) و(سيزر) كان لديهما كلاباً ضخمة ومخيفة، كانت تهاجم صفوف أعدائهم وتملؤهم رعباً وفزعاً. وهذا أحد أحفاد تلك الحيوانات. وذاك كذلك».

رأى (كريس) الكلب الثاني، الذي تقدم ببطء ليستقر وسط الحفرة أيضاً. كان كل شيء في ذلك الحيوان ينم عن قوته وليونته. كان يبدو أن الكلب الثاني يفوق الأول وزناً، كان أطول وذو قفص صدري عريض تطغى عليه العضلات القوية والبارزة. بدا الوجه الضخم مربعاً، بفعل الزاوية المنفرجة المنبثقة من منطقة الحاجز الأنفي المحيطة بالشفاه. وكان شعره ذو لون رملي.

- «إنه من نوع الماستيف». قال (مارفن) بفخر.

وقف الحيوانان في مكانهما بصمت تام، يحدقان من دون حركة برؤوس مرفوعة إلى الأعلى.

- «ما عسى هذا أن يكون؟» صاح (كريس) بغضب.

تبسم (مارفن) بنشوة المنتصر ثم تحرك عدة خطوات ووقف إلى جانب كومة الحجارة. حمل إحدى الحجارة وأخذ يهزها بيده ليُقدر وزنها.

- «سيتم اليوم انتخابي كرئيس للبريتوريانيين. وسيبدأ البريتوريانيين غداً بخوض معركتهم المنظمة، والغير مسبوقة ضد أعداء الدين. بالمقابل لدينا حملتنا الدعائية المعلنة، التي نقوم من خلالها بنشر كلمة الرب عن

طريق الحوار وإظهار الحُجج. إلا أن هذا كله مجرد البداية. فالأكثر عزماً بيننا، سيقومون بمواجهة التجديف بحمل غضب الرب المُحق حول العالم».

- «ماذا تعني بهذا؟» سأل (كريس).

- «هناك من يرى أن كل كلمة هي تجديف بحق الرب ((**ومن جدف على اسم الرب فإنه يقتل. يَرجمه كل الجماعة رجماً. الغريب كالوطني عندما يجدف على الاسم يُقتل**)) سفر اللاويين، الإصحاح 24 الآية 16».

حدق (كريس) بأكوام الحجارة على حافة الحفرة وقد أدرك الأمر.

- «أنت تريد...»

أومأ (مارفن) بجدية «المختارون من البريتوريانيين سيقومون بمعاقبة المجدفين بما يستحقونه. كما ينص عليه الكتاب المقدس».

- «إنك تهذي حتماً».

- «((**آمين، فإني الحق أقول لكم: إلى أن تزول السماء والأرض لا يزول حرف واحد أو نقطة واحدة من الناموس حتى يكون الكل**)) إنجيل متى الإصحاح 5 الآية 18»

- «أنا أيضاً؟ هل تريد رجمي أنا؟ هل أنا هنا لهذا الغرض؟».

- «(تسرنت هاين)، لقد قمت بالتجديف على اسم الرب!».

تلاقت نظراتهما، لكن (كريس) تحدى تلك النظرة القاسية من دون أن يخفض عينيه.

- «متى؟ وكيف؟».

- «كان (فورستر) مجدفاً على اسم الرب. أراد خيانة كلمة الرب وبذلك الرب نفسه. ولقد اشتركت معه، ساعدته، وعشت معه تحت سقف واحد – بصورة مجازية–»

أومأ (مارفن) بجدية، كأنه ينصت إلى كلماته من خلال صدى صوته.

- «إلا أني أريد قبل ذلك معرفة أمر ما، ولهذا سيقرر الرب إن كان سيهب الرحمة».

- «هل ستقوم بنصب هذا السيرك الكبير هنا، لمجرد رغبتك بالحصول على بعض الإجابات؟» ألقى (كريس) نظرة سريعة على الكلبين. «بإمكاني الفهم بتلك الطريقة أيضاً».

- «لا يبدو لي أنك فهمت. إنك حتماً تعرف قصة (دانيال) في حفرة الأسود؟ لقد تم الافتراء على (دانيال) وقد نجا من الموت في حفرة الأسود، التي أمر الملك الفارسي (داريوس) بإلقائه داخلها. إلا أنه نجا بفضل ثقته بالله. بينما قامت الأسود بتمزيق أجساد الذين افتروا عليه، حين تم إلقاؤهم في حفرة الأسود بعد تلك الليلة».

انحنى (مارفن) بشكل مفاجئ إلى الأمام، وأمسك بقوة ذراع (كريس) وضغط عليها.

- «سيظهر يا (تسرنت هاين)، إن كنت ابناً للرب أم أنك من المفترين».

- «إنك شخص مريض!» ارتعدت أرجل (كريس).

ضحك (مارفن) ضحكة شريرة، ثم أخرج هاتفاً جوالاً من جيبه، كان هاتف (كريس) الذي سلمه لـ (باري) آنفاً.

- «أريد الحصول على إجابات لأسئلتي». قال (مارفن) بصوت راعد، تردد في أرجاء القاعة، كأنهم في كهف جبلي. «هناك رسائل مسجلة على الهاتف. وأنا لا أريد سماع أي قصص كاذبة. ولا حتى للحظة واحدة. انزل إلى الأسفل!».

أشار (مارفن) إلى الحفرة، ووجّه (باري) فوهة مسدسه إلى رأس (كريس).

- «مستحيل!» هز (كريس) رأسه بشدة «مستحيل!».

تلقى (كريس) ضربة مفاجئة على مؤخرة رأسه جعلته يسقط على ركبتيه. قام الرجل ذو الشعر الناري والآخر ذو وجه الثآليل بإمساكه وجرّه إلى حافة الحفرة. فجأة حُلت الأصفاد التي كانت تكبل يديه، ثم شعر بذلك الشعور الفريد في حالة السقوط. هوى إلى أرض الحفرة على وجهه وامتلأ فمه بالرمال.

تدحرج (كريس) مصدراً أنيناً، ثم بصق الرمال خارج فمه. كانت الكلاب تراقبه، إلا أنها لم تتحرك ولا حتى سنتيمتراً واحداً من أماكنها. وقف، وأدارت الكلاب رؤوسها مجدداً باتجاه حافة الحفرة.

- «إنك مدرب بشكل ممتاز يا (تسرنت هاين)». نظر (مارفن) إلى الأسفل حيث كان (كريس).

- «في الحقيقة كان من المفترض أن يثبت (لافاليه) ولاءه للبريتوريانيين من خلالك. أتذكر هذا؟ إلا أن الجبان قد فرّ، واختفى في مكان ما. ولكنه هو أيضاً لن يستطيع الإفلات من مشيئة الرب. وسنكتشف الآن إن كنت ممن سيشملهم الرب برحمته...» ابتسم (مارفن) بقرف.

- «ما علي أن أفعل الآن، حتى...» أومأ (كريس) باتجاه الكلاب.

- «آه! لقد أدركت إذاً!» ضحك (مارفن) برضاً «هل قمت بإيقاظ إحدى نقاط الضعف لديك يا (تسرنت هاين)! الخوف من الكلاب!».

- «ومن ذا الذي لا يخشى تلك الوحوش؟».

- «يوجد ما هو أسوء يا (تسرنت هاين)، صدقني يوجد ما هو أسوء. الرجم على سبيل المثال» ضحك (مارفن) بصوت عالٍ.

- «أخبرني ما تريده (ياسمين)».

- «أنا لا أفهم ما تعني». تقلص وجه (كريس).

أعطى (مارفن) إشارة إلى (باري)، الذي قام بدوره بفتح الرسائل

الأخيرة الواردة إلى صندوق البريد الصوتي الخاص بهاتف (كريس) ورفع الصوت إلى أعلى درجة.

كان صوت (إينا) يبدو متوتراً ومنزعجاً. حيث أرادت أن ترتب معه برنامج رحلات العمل لهذا الأسبوع وكشفت نبرة صوتها عن مدى حنقها؛ لأنه لم يكن يجيب على اتصالاتها المتكررة. وأنه تركها لتحل مشكلات شركته الخاصة بمفردها.

- «إنها سكرتيرتي». تمتم (كريس) وشكر الأقدار على إهدائه تلك الجوهرة.

- «لقد عرفت ذلك». أجاب (مارفن) بصوت بارد «إلا أنه عليك أن توضح لي معنى الاتصال التالي».

ضغط (باري) على أحد المفاتيح.

- «(كريس)، أنا (ياسمين). لماذا لا تجيب على هاتفك؟ أنا الآن مجدداً في (صوفيا أنتي بولس)...، إنها تقع في (فرنسا) بالقرب من مدينة (كان). شقيقتي (آنا) موجودة هنا أيضاً. أنا لم أخبرك بذلك من قبل... إن ابنها مريض جداً. وأنا موجودة في المستشفى التابع لـ (تيسابي)...».

صمت.

- «لقد قام (واين) بعمل فظيع... وأحضرونا إلى هنا بسبب العينات الخاصة بك... أنا بحاجة لمساعدتك. فقد تكاثرت العينة التي أخذناها من العظام التي أحضرتها و...، ما عساي أن أقول؟ وإن كان كل ذلك صحيحاً، فستكون اكتشاف القرن. يبدو...، اللعنة...، والآن إن أولئك الأوغاد يخططون لـ...، اتصل بي! لقد أخذوا مني هاتفي الخليوي. عليك الاتصال بشقيقتي (آنا)!» ثم تلت رقم الهاتف «لماذا لا تجيب على هاتفك؟ أنا بحاجة للمساعدة! وإن لم تقم بالاتصال فلن أغفر لك ذلك أبداً!».

الفصل الرابع والثلاثون

(فونتينبلو)

صباح الثلاثاء

كسرعة البرق عاد (كريس) بذاكرته إلى تلك الليلة التي قضاها في شقتها، ورأى وجهها ذو العينين المعبرتين. ضحكت (ياسمين) باستهزاء، ثم بدت تلك الملامح المتألمة مجدداً، التي لم يتمكن (كريس) آنذاك من تفسير سببها. إلا أنه فهم ذلك الآن...

رآها تجلس على مقعدها في المختبر، العنق النحيل منتصب والأكتاف مشدودة، رآها تضحك في المطعم. ثم حضره صوتها المتوسل مجدداً، نداء الاستغاثة...

- «ما علي أن أفعله حتى أتمكن من الخروج من هذا المكان؟» سمع نفسه يتساءل.

- «(تسرنت هاين)، اقترح عليّ عرضاً؟ ماذا لديك لتقدمه؟». سأل (مارفن) بخبث.

- «سأنال النهاية نفسها (بونتي). هل هذا هو تصورك عن الرب؟ الإله المحب للانتقام؟ إنك تحفظ الكتاب المقدس عن ظهر قلب، أما أنا فلا. ولكن على ما أذكر لقد كان هناك أيضاً ذلك التصوير للإله الطيب. ﴿المحبة﴾، أليست هذه هي الكلمة التي تمثل قلب العقيدة وخصوصاً المسيحية؟».

- «((وإذا أمات أحدٌ إنساناً فإنه يقتل... ودائماً يسري قانون: نفساً بنفس))» سفر اللاويين، الإصحاح 24 الآيتان 17 و18.

إن قانون الرب هو الذي يعلمنا ما علينا فعله، يا (تسرنت هاين). لقد قتلت مسيحياً، من البريتوريانيين. حراس الكتاب المقدس. كان عليك أن تقرأ الكتاب المقدس. إنك لا تأخذ كلام الرب على محمل الجد!». هزّ (هنري مارفن) رأسه، كأنه يتحسر لمعرفته تلك الحقيقة من كل قلبه.

- «هل تريد أن تراني أزحف على أطرافي الأربعة على هذه الرمال، وأتوسل إليك أن تبقيني على قيد الحياة؟ هل أنت من تلك الشاكلة؟ أنت ورجالك تقومون بالقتل للحصول على تلك الألواح. لقد حصلت على الألواح منذ زمن، فما الذي تريده الآن؟».

- «من يثق بالله فإنه يتقبل مصيره بخضوع».

- «لقد بدا لي الأمر أكثر وضوحاً الآن: فإلهك ليس هو نفسه إلهي».

- «ماذا عن العظام؟ وعن أي عينة كانت تتحدث؟ وماذا عنَت تلك الـ (ياسمين) باكتشاف القرن؟ فسّر لي معاني المكالمة!».

- «الأمر لا يحتاج إلى كثير من التفسير» قام (كريس) بقص حكايته بشكل مقتضب، وكيف أن (فورستر) قام بإقناعه على الطريق السريع بأن يتم عملية النقل، وكيف أنه قرر بمفرده السفر إلى (دريسدن) لمعرفة المزيد عن تلك العظام.

- «وكيف تبادرت لك تلك الفكرة؟».

- «لقد لمّح (فورستر) تلميحاً غريباً، أن تلك العظام تعود لشخص مهم أو شيء من هذا القبيل» فكر (كريس) قليلاً ثم أردف: «كان لدي فضول لمعرفة المزيد، وفكرت بأمر تحديدي عمر العظام. فقد تحدث (فورستر) كثيراً عن الألواح، ولكنه لم يذكر الكثير عن العظام. كانت فكرة طارئة».

- «وماذا بعد؟» سأل (مارفن) بترصد.

- «لا شيء آخر. إن بنية العظام لا تمكن من التحديد الواضح إن كانت تعود إلى كائن بشري بالفعل. ولهذا كان على صديقي أن يجري تحليلاً للحمض النووي. لكن العينة كانت ميتة. ولا أستطيع أن أفسر لك تلك المكالمة!».

- «**((اسمعوا كيف كان نبوخذ نصر يمجد إلهه: اتجهت نحو الشرق ودحرت الكيش، قمت بتوحيد الممالك والرعية، طهرت المعبد وأحضرت عظام الراعي إلى بابل. بنيت معبداً لتمجيد نينورتا. قدست مردوخ وأحضرت له الألواح السبعة وعظام الراعي كدليل على ولائي له))**».

صمت (مارفن) لوهلة وترك صدى صوته يتردد في المكان. «هذا هو المكتوب في الألواح يا (تسرنت هاين). هل تلك هي عظام الراعي؟»

- «عن أي راعٍ تتحدث؟ ليس لدي أدنى علم بما تحتويه تلك الألواح! عليك أن تفهم هذا!».

صاح (كريس) بغضب شديد ثم ركل الحائط بقدمه. ثم تذكر وجود الكلاب فنظر إليها، إلا أنها كانت جاثمة على أرجلها الخلفية دونما حراك وكأنها تماثيل حجرية.

- «إنك تعرف معنى الراعي يا (تسرنت هاين)؟»

- «رعاة! يعتنون بالماشية! يحمون قطعانهم. ما كل هذا يا (مارفن)؟».

فجأة دوّت أنغام الأورغ في أرجاء القاعة، فرفع (مارفن) يديه إلى الأعلى، فبدا كأنه نصب تذكاري. ثم أخفضهما عندما توقفت الموسيقى.

- «اسمع نغمات الأورغ يا (تسرنت هاين)، إنهم يقومون بوزنها استعداداً للصلاة. هذا هو الفرق بيننا. سيتم اليوم اختياري لأكون راعياً

للبريتوريانيين» ضحك (مارفن) «هل أنت راعٍ؟ هل لديك إمكانية الرعاة؟ لا أعتقد هذا. أما أنا فعلى العكس تماماً. (تسرنت هاين)، الراعي يمتلك السلطة، والسماح بالرأفة». أخبرني ماذا تعرف، وستصيبك تلك الرأفة!».

- «إنك تهذي!» صرخ (كريس). ثم دوّى صوت المحرك مجدداً، وفُتح الجدار الأمامي الأيسر للحفرة قدر نصف فتحة. تقدم خروف بتردد إلى داخل الحفرة، توقف، ثم أُغلقت البوابة خلفه. بقي الكلبان جالسين في مكانيهما، حتى أنهما لم يحركا رأسيهما.

- «أرني يا (تسرنت هاين)، إن كنت راعياً جيداً، فأتركك تذهب. ولكن فقط عندما ...»

أدرا (مارفن) ظهره. وعندما عاد للاستدارة باتجاه الحفرة، كان يحمل بيده عصاً قام بإلقائها في الحفرة.



التقط (كريس) العصا بيده. كانت ملساء ومستقيمة. وعلى وجه الخصوص هناك قبل بدء الانحناء، كان الخشب جافاً تماماً، وقد تلون باللون الرمادي الداكن بفعل الضوء والأمطار. انتهى الانحناء في الجزء العلوي منها بخطاف، كان يمكنه الالتفاف بشكل جيد حول الأقدام الخلفية للحيوانات. بينما كانت العصا تنتهي من الأسفل برأس حديدي مدبب. أركز (كريس) العصا على الرمال فوصل طولها إلى جبهته.

كان الخروف ينكمش ويحشر نفسه على طول الحائط الجانبي المقابل. فجأة قام أحد الكلبين بالقفز عدة مرات إلى الجانب بفم مفتوح تماماً.

ارتطم الجسم الضخم ذو السبعين كيلوغراماً تقريباً، بالخروف. اشرأب العنق الغليظ للكلب وأخفى الجسم ذا اللون الرصاصي الداكن الجسد المنتفض للخروف تحته. سُمع صوت قرقشة، ثم استسلم جسد الخروف تحت قبضة فم ذلك الوحش.

- «إنك لم تحمِ رعيتك. أنت راعٍ سيء».

وقف (مارفن) على حافة الحفرة، وقد علّق صفارة الكلاب في فمه. حدق بالحيوانات بعينين لامعتين وقد كشر عن أسنانه. أطلق صفارة جديدة، فترك الكلب جسد الخروف على الفور.

- «(تسرنت هاين)، ماذا تعرف عن العظام؟ ولماذا يريد البابا الحصول عليها؟ أي سرٍ ذاك المرتبط بها؟».

- «عليك أن تسأل البابا!».

حرك (مارفن) شفتيه.

انطلق الكلب الثاني من مكانه. بينما كانت عضلاته الضخمة ترتعش تحت الفرو ذي اللون الرملي. ارتمى (كريس) جانباً وأمسك بعصا الراعي موجهاً رأسها الحديدي المدبب باتجاه الحيوان.

أخطأته الأنياب البارزة للكلب ببضعة سنتيمترات. ولكن أيضاً ضربته لم تكن دقيقة. فانزلقت العصا على العضلات القوية لأرجل الحيوان، كأنها مدرعة مضادة للرصاص. سقط الكلب على الرمال، ثم استدار وتحضر للقفزة التالية، إلا أنه توقف فجأة، وجثم على قدميه الخلفيتين.

- «المرة التالية ستكون أنت الهدف». تبسم (مارفن)، الذي أطلق صفارة جديدة حالت دون إتمام الهجوم التالي للكلب.

- «لا أعلم شيئاً!» صاح (كريس) ورمى العصا جانباً فوقعت على الرمال.

- «كن راعياً لنفسك!».

زمّ (مارفن) شفتيه، ودسّ الصفارة بينهما، فتأهب الكلب للهجوم بعد سماعه للصوت الذي يصعب على الأذن البشرية التقاطه.

قفز الكلب في الهواء.

بصمت، تحرك (كريس) في اللحظة نفسها إلى الجانب والأمام، وركع أثناء ذلك إلى الأرض ساحباً العصا بيده التي امتدت إلى الأمام والأسفل.

أشارت العصا باتجاه صدر الحيوان الضخم، الذي لم يعد قادراً على تغيير وجهة قفزته.

أصابت النهاية المدببة القفص الصدري. ارتجت يد (كريس) تحت ضغط مقاومة الجسد الضخم. ترك العصا وارتمى جانباً.

انحنت العصا، ثم وجد الرأس المدبب طريقه في اللحم، ودفع الحماس بالعصا داخل صدر الكلب، حتى أنها تشققت تحت ضغط الجسد الهائل.

بفم مفتوح حلق الكلب إلى جانب (كريس). أحس بالشعر الخشن على ذراعه ثم سقط على الرمال. ارتطم جسد الحيوان إلى جانبه وبقي مستلقياً. ثم مزقت المخالب قميصه وانغرست في كتفه. كان الكلب ذو الفرو الرصاصي الداكن فوقه، وفمه مفتوح بشكل كامل. تلألأت صفوف الأسنان كأنها العاج. في مكان ما في دماغه، كانت الصدمة قد قطعت تيار التنبيه.

تراءت له من بعيد تجاعيد الجلد، ثم انغرست الأنياب البارزة من الفم المفتوح في حنجرته المشدودة.



- «هجوم! بسرعة! هجوم! تحت الكنيسة! سنبدأ الهجوم!».

سارع كل من (جون سانتير) و(فيكتور فايفر) بنزول أدراج برج

الأجراس، بينما كان رئيس المباحث (كامبراي) يراقب ما يدور من خلال آلات المراقبة الصغيرة التي تم تثبيتها.

وصلا إلى مدخل الكنيسة. في نهاية صحن الكنيسة كانت أضواء الشموع تتراقص، بينما امتلأ المكان بالأنغام العالية للأورغ. تابعا مسرعين النزول إلى الأسفل. قفزا منحنيين إلى الدرجة الأخيرة من السلم الحجري ثم اتخذا وضع القرفصاء.

بدت أمامهما قاعة تحت الأرض. وقف أربعة رجال حول الحفرة المضاءة. كان رجل ذو شعر ناري محمر يقف على الحافة الأمامية للحفرة، جاعلاً ظهره لهما. بينما كان يقف آخر على الحافة الجانبية، وبشكل مواجه له وقف رجُلان أحدهما يرتدي رداءً فاتح اللون يخص الجوقة الكنسية.

تسلل (سانتير) بقفزات مكتومة باتجاه الرجل ذو الشعر الأحمر الواقف على الجهة الأمامية للحفرة. وقد طغت نغمات الأورغ العالية على كل الأصوات.

بقي (فيكتور فايفر) يحمي شريكه على بعد خطوتين خلفه حاملاً في يده وعلى ارتفاع وجهه مسدسه من طراز (جلوك)، المصنوع من الفولاذ المقوى بمادة البوليمر البلاستيكية، والمجهز بسبع عشرة طلقة.

أصابت ضربة (سانتير) الرجل على الجهة اليمنى من عنقه، فهوى ذو الشعر الأحمر إلى الأرض فاقداً وعيه. حدق (سانتير) في الحفرة.

لقد نجا الرجل بأعجوبة من الهجوم الأول ليقع ضحية الوحش الآخر.

نقل (سانتير) سلاحه إلى اليد اليمنى، ووجّه منظار التصويب الضوئي إلى الفرو الرصاصي الداكن. صوّب البقعة الضوئية الحمراء إلى هدفه تحت الكتف بالقرب من منطقة القلب. سحب الزناد مرتين فأصابت

الرصاصتان الكلب أثناء قفزه في الهواء، إلا أنهما لم تتمكنا من إيقاف انقضاضه. حلق الجسد الضخم في الهواء وهوى فوق الرجل الممدد على الأرض.

عندما لمح (سانتير)، انتزع الرجل الواقف على الجهة المقابلة من الحفرة مسدسه من جيب الكتف.

لوح (فيكتور فايفر) بسلاحه وأطلق رصاصات في المدى. أخطأت الرصاصة الأولى هدفها بينما أصابت رصاصة (فايفر) التالية العنق. تعثر الرجل إلى الخلف، ثم ترنح إلى الأمام وانقلب داخل الحفرة.

اشرأبت أعناق كل من (مارفن) و(باري) حين رأيا رجلهما يهوي في الحفرة. صرخ (مارفن) بحنق شديد، ثم استدار إلى الخلف، وركض فاراً بصحبة (باري).

ربت (فايفر) على كتف (سانتير)، الذي كان ما يزال ينظر في الحفرة ثم قال: «هل نتبعهما؟».

حدق (سانتير) في الجسم الهائل للكلب الذي كان ملقىً بلا حراك على أرض الحفرة.

وأخيراً تحركت ذراع تحت جسد الحيوان.

أومأ (سانتير).



كان الفم المفتوح للكلب على صدر (كريس)، بينما تدلى لسانه المرتجف إلى الخارج. لمعت صفوف الأسنان الحادة بلون أبيض مُصفّر. على بعض الأنياب كانت ما تزال نثرات من بقايا عنق الخروف معلقة، بينما

تجمعت جزر صغيرة من الدماء حول اللثة، وسالت كالجداول في حلق الحيوان. كان الشعر القصير الخشن يحك رقبة (كريس)، بينما شعر أن وزناً مرعباً يجثم على جسده.

كانت تجاعيد جلد وجه الحيوان لا تبعد سوى بضعة سنتيمترات عن عينيه. حدق بالأذن الصغيرة المثلثة. تلمست يده الفرو الرصاصي الداكن فشعر ببلل، فرك قليلاً ثم رفع يده. «أحمر...! دم...!».

أحس بالضغط المفاجئ على معدته، ارتفعت أحماض المعدة خلال المريء، استجمع كل قواه واستدار تحت الجسد الضخم للحيوان ليتقيأ على الرمال. بقي مستلقياً على جانبه، حتى سمع أزيز رصاص في الجانب الخلفي من القبو.

قام بجرّ ودفع جسد الحيوان عنه بعناء، إلى أن تمكن من تحرير نفسه. بللت دماء الكلب الرمال، وتسربت بين حباتها تاركة بقعاً ذات لون بني صدئ على السطح. نظر إلى الثقبين اللذين خلفتهما الطلقتان، وأدرك أنه قد تم إنقاذه. ثم تدحرج فوق الرمال ونهض فجأة واقفاً.

عليه الخروج من هنا!

على الجانب الآخر من الحفرة رأى الجسد المفتول للرجل ذو وجه الثآليل ممدداً على الأرض، ليس بعيداً عن جثة الخروف. كانت الدماء لا تزال تسيل من عنق الحيوان إثر العضة.

اشتم (كريس) رائحة الموت.

قفز إلى جانب جدار الحفرة، ولامست أصابعه الحافة الخارجية. ليس هكذا!

توجه (كريس) بعناء إلى جثة الرجل ذو وجه الثآليل وجرّها لاهثاً إلى حافة الحفرة وأسندها إلى الجدار على هيئة الجلوس. ابتعد عنها لمسافة، وعدا باتجاهها، ثم قفز على الكتف الأيسر للجثة قاذفاً بنفسه إلى أعلى.

أمسكت كفاه بالحافة، ثم جرّ جسده إلى الأعلى بكل قوته، رافعاً أثناء ذلك رجله اليمنى إلى الأعلى. قفز لاهثاً فوق الحافة وتدحرج جانباً.

نهض (كريس) واقفاً وأسرع إلى الجهة الأمامية من حافة الحفرة، نزع سلاح الرجل ذو الشعر الأحمر من قراب مسدسه ثم سارع إلى المكان الذي كان يقف فيه (مارفن) و(باري)، حيث كان هاتفه الجوال ما يزال موضوعاً على الكرسي.



وصل (كريس) لاهثاً إلى الباب الذي يخفي وراءه الممر، حيث كانت الزنازين إلى جهة اليمين. كان لا يزال يسمع أزيز بعض الطلقات النارية. مجدداً سمع زخات الرصاص المنطلقة من الرشاشات الآلية، كانت الأصوات تحت الأرض مكتومة بشكل غريب.

عدا على الأرض الصخرية ووصل بعد ما يقارب المئة متر إلى باب آخر. جرّه، وانزلق بين ممرات وأبواب، حتى وصل إلى حجرة كبيرة، في جانبها الآخر سلم يقود إلى أعلى.

كان يسمع من فوقه صوتاً يوزع الأوامر، ويرسل أُناساً إلى الخارج، ليستطلع الوضع عند مدخل السيارات.

وحسب ما فهمه (كريس)، فإن البوابة الرئيسة كانت محمية بسيارة مدرعة، لا تملك حتى الرشاشات الآلية للمدافعين أي فرصة أمامها.

اقترب صوت دوي الرصاص، ثم ابتعد بعد ذلك بقليل، بينما كان الصوت الرخيم يكرر نداءه إلى (مارفن) و(باري). ثم ساد الصمت فجأة.

انتظر (كريس) نصف دقيقة ثم تسلل إلى الأعلى.

من الواضح أنه موجود الآن في المبنى الرئيس. تفرعت الممرات في اتجاهين من ردهة الاستقبال الفخمة المزينة بثريات الكريستال، والتماثيل، والأرضية الرخامية.

- «أين توجد العظام؟ وكذلك الألواح؟»

- «(مارفن) أيها الوغد!» كان (كريس) يغلي من الداخل. «إنها ملكي!».

أسرع باتجاه اليمين وبدأ فتح الأبواب. كانت الحجرات فاخرة، وممتلئة بأثاث وثير يعود إلى قرون قديمة.

توجه إلى الجانب الآخر على طول الممر. عاد لفتح الأبواب، وقام هنا أيضاً بالتجول داخل الغرفة.

كم من الوقت تبقى له؟ هل عليه أن يفتش الغرف الموجودة في الطابق العلوي أيضاً؟ وكم هي نسبة احتمال أن يجد العظام، والألواح ملقاة في إحدى الغرف بهذه البساطة؟

كان الباب التالي مبطناً. أمسك (كريس) المسدس بقوة، ضغط مزلاج الباب إلى الأسفل بيده اليسرى ثم دفع الباب إلى الداخل.

كان الظهر القوي مغطىً برداء الجوقة الكنسية. وقف (مارفن) لاهثاً أمام مكتبة زجاجية وقد نفذ صبره. جرّ صفحات المخطوطات بعجالة من الرفوف الصغيرة، ثم وضعها في ملف مبطن.

- «لا يكاد شيء يؤثر عليك، أليس كذلك؟».

- التفت (مارفن) ورمق (كريس) بنظرات حادة.

- «انظر من هنا! إنه (تسرنت هاين)! هل تعتقد أنني سأرتعد من الخوف؟ أم أنك ربما تظن أنني لم أحتط لمثل هذا؟».

لم يكد (كريس) يسمع شيئاً مما قاله. فنظره كان مثبتاً على طاولة، وضعت إلى جانب حافة النافذة وقد رُتبت عليها الألواح والعظام بشكل

صفوف منتظمة على قاعدة داكنة وملساء، في حقيبة معدنية ذات لون فضي، حيث تم تجهيزها للنقل. إلى جوارها وُضع مصباح جيب.

كانت حقيبة ظهره ممددة على الأرض.

حدق (كريس) إلى (مارفن).

- «كلمة الرب!» صاح (مارفن) وقد تابع جمع المخطوطات من المكتبة ووضعها داخل المجلد المحشو.

- «هل ترى هذا؟» أشار (مارفن) إلى الرفوف. «كلمة الرب! مدونة، ومحفوظة بكل إجلال. مخطوطات تعود لقرون مختلفة، ومجتمعات متباينة. إنه كنز!».

- «لديك أعصاب قوية...»

لمعت عينا (مارفن) بنظرة المتعصب.

- «الله معي! كما حدث في (فيتنام). هناك أظهر نفسه لي، أهداني حياتي، حين كنت أزحف في أعماق الأرض كالفئران». كان صوت (مارفن) بالكاد يُسمع، وقد حمل في نبراته خشوعاً واضحاً، «هل تعتقد أنه سيقوم اليوم بحرماني من اهتمامه، حيث أقوم بخدمته؟ كلا يا (تسرنت هاين)! إنه يراقب أعمالي بسرور، يفهمني ويحميني!».

صمت (كريس). بدا أن (مارفن) كان مقتنعاً بكل كلمة يقولها.

- «هل تعلم ماذا ينقصني بعد؟» أعاد (مارفن) إغلاق الطريق إلى مداخل أعماقه. وبدا صوته مرتاحاً وواضحاً كما العادة. «قطعة من الجنيزا - مجموعة الأوراق والوثائق التي لا يجوز إبادتها أو إهمالها وفقاً للديانة اليهودية، وخصوصاً إذا ضمت اسم الله- من الكنيس اليهودي في القاهرة. فالموجودات المحفوظة في تلك المخازن تعود حتى إلى القرن السادس... أو من الهكسابلا، النسخة اليونانية للكتاب المقدس ذو الأعمدة الستة بترجماته الست».

- «لن تجد في مكتبة السجن سوى الترجمة المتداولة».

- «لا تعطلني أيها الأحمق. إما أن تأتي معي لتخدم الرب، أو تنصرف».

تابع (مارفن) لملمة المخطوطات.

- «إنك تهذي!» مرّ (كريس) بنظره على رفوف الحائط. في الجانب الآخر من الغرفة رأى جزءاً من رف يبرز إلى الخارج بمقدار بضعة سنتمترات. عدل (مارفن) من وقفته فجأة وقد تجمدت معالم وجهه. توجه (كريس) نحو الحائط وجرّ الرف، الذي تأرجح بدوره وانزلق إلى داخل الغرفة كاشفاً عن سلم خلفه يقود إلى الأسفل. «إلى أين يؤدي هذا السلم؟ هل أتيت من هنا؟».

- «هذا هو الطريق إلى الحرية يا (تسرنت هاين)».

فكر (كريس) قليلاً، ثم أسرع إلى الطاولة، رفع حقيبة ظهره من الأرض، ووضعها إلى جانب الحقيبة الفضية. فتح حقيبة الظهر بيده اليسرى، بينما كان ما يزال يصوب فوهة سلاحه صوب (مارفن)، وقام بوضع الألواح والعظام في الحقيبة. أخذ مصباح الجيب ودسه في جيب بنطاله.

- «إلى أين يقود ذلك الممر؟ إلى الجحيم؟».

صمت (مارفن)، ثم ابتسم.

- « ... سينتهي بك الطريق إلى موقف سيارات صغير وسط الغابة. دعنا نهرب سوياً ...».

- «ولماذا علي أن أساعدك؟».

- « حتى لو أنك لا تزال تجهل ذلك: فأنت أداة الرب! كما أنا أيضاً!» بدا على (مارفن) منتهى الجدية.

- «هو يحدد الدروب التي نسلكها. لهذا» دس الناشر المخطوطة الأخيرة في مجلده، أغلقه واستدار نحو (كريس).

- «ألا تفهم ذلك؟ إنه يحدد الدروب التي نسلكها!».

- «ابتعد عن طريقي، فأنا من يحمل السلاح وليس أنت».

- «هل تعتقد أن ذلك سيخيفني؟» لمعت عينا (مارفن) بغضب. «لقد قاتلت في (فيتنام) قوات الفيتكونغ في خنادقهم. الرب هو من حفظ حياتي في تلك الأنفاق المتلئة بالكمائن تحت الأرض. هل تظن حقاً أن مسدساً سيخيفني؟ أنت ترتجف!».

تقدم (مارفن) نحو (كريس).

- «أنا من سيختفي وأنت ستبقى هنا، ستكفر عن خطاياك!» رفع (كريس) السلاح.

- «إنك لا تعرف الرب. حتى وإن كنت مذنباً: ((فمن إحسانات الرب أنه قال: لا أريد الموت للمذنبين...))» ضحك (مارفن) بصوت مرتفع «(تسرنت هاين)، هل تعلم من قال ذلك؟ لا؟ إنه القديس (بندكت)» ضحك (مارفن) مجدداً «لا يمكننا الهروب من قدر الرب. فمصيرنا نحن الاثنين مرتبط بقوة...، لابدّ أنك أدركت ذلك...»

رفع (كريس) يده إلى أعلى وهوى بمؤخرة سلاحه على صدغ البريتورياني الذي كان مندفعاً نحوه.

تأوه (مارفن): «حتى أنت يا (تسرنت هاين) لن تتمكن من الفرار من قدر الرب» ثم انهار إلى الأرض «لم ينتهي الأمر بعد...»

الفصل الخامس والثلاثون

جزيرة القديس (هونورات)

الثلاثاء

كانت الساعة الخامسة فجراً حين استيقظ (دوفور) وهو يشعر بقشعريرة تجتاح بدنه، ثم تسلل بتململ عبر منزله الصغير القريب من قرية (فالبون)، اغتسل وارتدى ثيابه. قاد سيارته إلى مدينة (كان)، تمشى وحيداً على طول الشاطئ، وجثم على الرمال أمام الأمواج المتهادية، وانتظر حتى تحضر العبّارة الأولى في الساعة التاسعة صباحاً.

على جزيرة (سانت هونورات)، مشى بخطوات مترددة ثم سريعة عابراً الطريق المرتفع قليلاً بين كروم العنب متجهاً إلى دير (لورانس). وصل إلى هدفه ودخل إلى غرفة الاستقبال الصغيرة. كان آخر ما رآه من مظاهر العلمانية، امرأة مُسنّة بثوب ملون ذو أرضية داكنة.

مضى أكثر من نصف ساعة حتى دخل الأخ (هيرونيموس) إلى الغرفة «المذنبون هم من يحضرون باكراً».

– «أحتاج إلى نصيحة! عندما نكون وحدنا ...»

– «هل ارتكبت خطيئة جديدة؟» رأى (هيرونيموس) النظرة المتوسلة للعالم. شبك (جاك دوفور) يديه ببعضهما، ورفعهما إلى الأعلى بإشارة مريرة، حتى أومأ (هيرونيموس) موافقاً على مضض.

خرجا إلى ضوء الصباح. توجه (هيرونيموس) إلى الكنيسة، سار (دوفور) خلفه بخطىً يائسة ولم ينتبه إلى جمالية أزهار الجهنمية المتسلقة، التي نمت بشكل مثير على الساندات الخشبية وحواف الأسطح. داعبت النسمات البحرية الناعمة سعف النخلتين العملاقتين اللتين انتصبتا أمام بوابة الكنيسة. دخلا إلى الكنيسة، وكان الصمت المطبق في استقبالهما. كان بناء الكنيسة الروماني المعاصر من الداخل قد حافظ على النمط المتقشف والزاهد للبندكتيين، وكان له أثر مريح في نفس (دوفور). كان اللون الرمادي الفاتح يطغى على الجدران والأسقف، التي خلت من أي نقوش، مما يهدئ من ألم العين ويريح العقل من الأفكار المتضاربة.

وسط صحن الكنيسة امتد درابزين من الخشب الداكن بشكل مائل، بحيث يفصل بين عالمين. في هذا القسم صُفت المقاعد الخشبية للمذنبين الضالين، كما كان (دوفور)، بينما يبدأ خلف الدرابزين عالم القوانين الواضحة والرسالات، بما في ذلك الكراسي المخصصة لجوقة الكنيسة. ذلك العالم الذي يتوق إليه (دوفور) حالياً. أمام مقاعد الجوقة الكنسية امتد ممر للسير ينتهي من جهة الشرق بمنطقة المذبح.

تقدم (هيونيموس) إلى الدرابزين، ثم ركع راسماً بيده علامة الصليب على وجهه. فعل (دوفور) ما فعله (هيرونيموس) ثم جلس إلى جانبه على أحد صفوف المقاعد الخشبية.

- «تحدث وتذكر أن إخواني في كروم العنب ينتظروني» تمتم (هيرونيموس) وحدق في الوجه الشاحب للعالم. «عليك أن تعرف أن هذا هنا ليس كرسي الاعتراف».

نظر (دوفور) إلى صليب المحراب الذي بدا طويلاً ونحيلاً. وقع النور المنبعث من مخروطين ضوئيين مثبتين على عمودين، مباشرة على الصليب.

وقد أبرز المسيح المصلوب وكأنه نجمة بين الجدران الرمادية الفاتحة. ثم بدأ بالحديث.

مع كل كلمة كان يتخلص من الضغط الجاثم على روحه. تحدث عن الاكتشاف المذهل للكروموسوم رقم 47، الذي يسبب حالات شفاء لا يمكن تفسيرها، وفي إحدى التجارب على الحيوانات أعادت الشباب إلى فئران مُسنّة فحولتها إلى فئران شابة وفتية. وأفصح أن هذا الكروموسوم قد استُخرج من عظام تم العثور عليها في إحدى عمليات التنقيب في (بابل). ولتحقيق اكتشاف القرن أصبح رؤساؤه في العمل مستعدون لضرب جميع الأسس والمبادئ عرض الحائط، والقيام بتجريب مفعوله على البشر بأسرع وقت. من دون التقيد بالفحوصات الأولية ومن دون النظر إلى تبعاته على الأشخاص التي ستجرى عليهم تلك التجارب.

مع كل كلمة كانت القوة تعود إلى (دوفور) وكان اللون الوردي يعود إلى وجهه.

إلى جانبه هوى الكاهن راكعاً على الأرض وقد ضم كفيه للصلاة، وبدأ بالبكاء المتواصل.

- «(هيرونيموس)، ما الأمر؟» أمسك (دوفور) بالراهب.

دفع الراهب اليد بعيداً عنه، ثم نهض واقفاً، توجه خلف الدرابزين وعاد هناك للركوع. زحف (هيرونيموس) على ركبتيه في الممر ثم صعد الأدراج المؤدية إلى المذبح، وبعدها انزلق أمام الصليب وهو يردد الكلمات نفسها صارخاً:

- «إلهي، جنبني هذا الاختبار!».



(فونتينبلو)

جلس (هنري مارفن) على الأرض الطرية للغابة وقد أسند ظهره إلى الجذع الأملس لشجرة الزان الأبيض. كانت قدماه تؤلمانه وكان رأسه بحاجة إلى الأكسجين ليستعيد قدرته على التفكير بشكل واضح.

فمنذ الصباح وهو يعدو مع (باري) عبر الغابة غير بعيد عن القصر. كادوا يواجهون دوريات الشرطة ثلاث مرات، إلا أن الله كان إلى جانبهما.

كان قد وجده مغمىً عليه في غرفة الكتاب المقدس، بعد أن تمكن من اختراق منظومة الدفاع. لم يكونوا قادرين على مقاومة المهاجمين، ولهذا هربوا عبر النفق، بينما كان أزيز الرصاصات الأخيرة يدوي في الخارج.

تمنى (مارفن) لو أنه يصادف (كريس) في مكان ما. إلا أن الوغد! كان ذكياً بما يكفي للعثور على المخرج.

كانت الدراجة النارية الموجودة في موقف السيارات الصغير قد اختفى. ولم يجدا سوى سترتين مضادتين للمطر، ولهذا كان عليهما متابعة طريقهما سيراً على الأقدام. ولتكون لديهما فرصة للفرار، عليهما أن يتصرفا بطريقة مغايرة لما هو متوقع منهما. ولهذا، تسللا باتجاه مركز القيادة. ففي وقت ما، لا بد أن تنسحب تلك القوات، وعندها سيتمكنان من الفرار.

وقف (مارفن) بعناء. استمرا بالسير الحذر وبعد عدة دقائق أشار (باري) إلى الأمام. كان من غير الممكن عدم ملاحظة حشد سيارات الشرطة المتجمع في المنطقة الخالية وسط الغابة، المحاط بأشرطة بلاستيكية. في وسط الساحة كانت تقف ملكة النحل، وهي عبارة عن شاحنة صغيرة تستخدم مركز قيادة مؤقت، ثبت على سقفها أسلاك الهوائيات.

- «هل نقترب أكثر؟» تمتم (باري).

- «إلى أقرب نقطة ممكنة!».

أسرعا على الأرض الرطبة للغابة متجهين نحو الشاحنة الصغيرة، محتميين أثناء ذلك بجذوع الأشجار الغليظة، وأخيراً جثما خلف أحد الجذوع المتهالكة.

ناول (باري) منظار تكبير لـ (مارفن)، الذي قام باستخدامه في مراقبة شاحنة مركز القيادة لعدة دقائق. كانوا يجمعون أشياءهم، سينسحبون قريباً من هنا.

تقدمت سيارة ليموزين متأرجحة على طريق الغابة الوعر، ووقفت إلى جانب شاحنة مركز القيادة. وجّه (مارفن) عدسة منظاره المكبر إلى أبواب السيارة، ورأى ثلاثة رجال ينزلون منها.

أمسك أنفاسه متفاجئاً. شعر أن الدماء تندفع في عروقه، وأن قوة غير متوقعة قد اجتاحت جسده وبعثت حرارة في عضلاته.

لقد وصلت ورقتي الرابحة، فكر بحماسة مرضية ثم أخذ نفساً عميقاً. فبضربة واحدة أصبح واضحاً بالنسبة له ما عليه فعله.



(فونتينبلو)

أين القطع الأثرية؟ فكر مونسينيور (تيساني). كان ذلك هو السؤال المهم!

كان (تيساني) يجلس في الجزء الخلفي من الشاحنة الصغيرة، الذي كان يستخدم من قبل الشرطة كمركز للقيادة. وبدلاً من حصوله

على إجابة لسؤاله، كان عليه الاستماع إلى مشاجرات الفرنسيين مع بعضهم.

- «إذاً أنت تقول، أن (مارفن) وبعض رجاله – وعددهم غير معروف- ، قد اختفوا. بهذه البساطة». كان صوت (تروتيغنو) حاداً وقاطعاً حين يطرح الأسئلة.

(رينيه تروتيغنو) قائد فرقة تابعة لقوات التدخل للحرس الوطني، وهي منظومة حراس شبه عسكرية، تعتبر في (فرنسا) مسؤولة أيضاً عن حماية الأشخاص. كان (تروتيغنو) في منتصف الثلاثينيات، متوسط الطول، وكانت قصة شعره العسكرية القصيرة تضفي مزيداً من الجدية على ملامح وجهه، الذي يفتقد إلى روح الدعابة.

كان قد تم فرزه مع رفاقه في الجانب الفرنسي لحماية البابا، وقد أحضر (تيساني) إلى هنا.

لم يكن البابا بعيداً جداً عن هذا المكان، فهو في طريقه إلى كاتدرائية القديس (بينويت سور لوار) لإحياء ذكرى القديس (بندكت)، الذي حُفظ رفاته في ضريح معدني داخل تلك الكاتدرائية. كانت تلك هي الأسباب الرسمية للزيارة.

أما السبب الحقيقي، فهو مساومة (هنري مارفن)، الذي أراد تسليم البابا تلك اللقى الأثرية الخطرة.

إلا أنه لا يبدو أن ذلك اللقاء سيتحقق، وقد عرف (تيساني) الآن سبب انقطاع التواصل الهاتفي مع (مارفن).

- «أثناء الهجوم دخلنا بهذه المدرعة من خلال الباب الرئيس. إلا أننا وُوجهنا بنصف جيش حاول منعنا من متابعة طريقنا. وفي داخل القصر، اضطررنا لإزعاج مجموعة من الضيوف المشهورين. كبار الشخصيات من شتى بقاع الأرض. أمر يدعو للإعجاب. كان بينهم بعض القساوسة أيضاً،

ولكن لم نتمكن من العثور على (مارفن) «بدت العصبية على (بول كامبراي)، بينما كان أنفه الضخم يرتجف من شدة انفعاله.

الفهود السود، فكر (تيساني) باحتقار. وحدق متنهداً بالشعار المرسوم على صدر (كامبراي). إحدى الفرق الخاصة للشرطة، بقائد يبدو أنه قد تجاوز حدوده. ما ينقصني الآن هو أن يطلبوا استجوابي.

زادت تلك الأفكار من توتر (تيساني). نظر بفارغ الصبر إلى مرافقه (إلجيديو كالفي)، الرجل الضخم الذي يبلغ طوله مئة وتسعين سنتيمتراً، وهو الحارس الشخصي للبابا. كان (كالفي) أحد أعضاء فرقة خاصة صغيرة تابعة لقوات الشرطة المعنية بحراسة الفاتيكان، التي تعمل على حماية البابا في رحلاته الخارجية.

- «علينا الذهاب!» همس (تيساني).

- «فوراً» رد (كالفي) بشكل مقتضب «أم أنك حصلت على المعلومات التي أردت معرفتها؟».

صمت (تيساني). (كالفي) على حق. فالوقوف أمام البابا بأيدٍ خالية مجدداً لن يساعد على دعم مسيرته العملية.

- «ما السبب الذي كان وراء الهجوم؟»سأل (تروتيغنو).

- «إنقاذ حياة، تحت الكنيسة يوجد سراديب للموتى. كان ذلك المدعو (مارفن) على وشك... نعم... أن يعدم إنساناً. كان لدي رجلان داخل برج الكنيسة. وقاما بإنقاذ ذلك الشخص المسكين من مواجهة مصيره المأساوي. إلا أن شبكة من الأنفاق توجد تحت الأرض، لم يسبق لي رؤية مثل ذلك من قبل. ما يزال رجالي يجدون المزيد من الممرات...»

- «وتسجيلات الأحداث التي وقعت في سرداب الموتى بلا صوت، بحيث يصعب على المرء أن يعرف الحوار الذي دار هناك؟»

- «للأسف، بلا صوت» نظر (كامبراي) إلى (تيساني) معتذراً.

- «أريد التحدث مع (توماس برانداو)، ذلك القس من (برلين)» تمتم (تيساني).

- «(برانداو) متمسك بالصمت».

- «أنتم من الشرطة»، أجاب (تيساني) «أما أنا فآتٍ من طرف قداسة البابا. دعوني أكلمه قساً لقس».

- «هذا غير ممكن. لقد تم نقل كل السجناء، إما إلى السجن أو إلى المستشفى. إن كان لديك الوقت الكافي فيمكننا الذهاب إلى هناك» رفع رئيس المباحث (كامبراي) يديه آسفاً.

هزّ (تيساني) رأسه وأخفض صوته، حيث تحول إلى تمتمة هامسة وناعمة «هل... هل يوجد ضحايا؟»

- «لقد كانت معركة حقيقية، لم يكن لدينا أدنى علم أن تلك الجمعية تمتلك جيشاً خاصاً».

- «والمدعو (لافاليه)، ألا يستطيع إخبارنا بمكان اللقى الأثرية، إن كان أحدهم قد أخذها معه؟ لكنه رآها».

- «هذا ما قاله». أمال (كامبراي) رأسه «هل لتلك الألواح والعظام أي أهمية؟ أعني، إن كان مبعوث البابا مهتماً بها...»

- «إننا لم نكن يوماً هنا» قال (تروتيغنو) بحدة بالنيابة عن (تيساني). «إنك تعلم ما ينتظر منك القيام به؟» رمق (تروتيغنو) قائد الفهود السود بنظرة باردة.

- «ضربة موجهة إلى عصابة من لصوص التحف وتجار السلاح، سرقات وجرائم قتل... هل لديك المزيد لتخبرنا به؟» لمعت عينا رئيس المباحث.

- «هذا يكفي» وقف (تروتيغنو). «الأمر يتعلق بقطع أثرية خاصة

بالكنيسة... هذا يعني أنه شأن داخلي لدولة أخرى. نحن نتصرف فقط... بدعم صريح من الرئيس».

- «قطع أثرية؟» تذكر (كامبراي) إدلاءات (لافاليه)، «هل تعتبر الألواح الطينية السومرية قطعاً أثرية تابعة للكنيسة الكاثوليكية؟»



بعد وداعٍ بارد، سارع (تيساني) إلى مغادرة موقع الشرطة.

- «ليس مثمراً جداً» تمتم (تيساني) عندما استقلا سيارة الليموزين مجدداً. قاد (تروتيغنو) السيارة ببطء في طريق الغابة عائداً إلى الشارع المُعبد.

- «لا يمكن أن تكون جاداً في تفكيرك بالحصول على نتائج أخرى». علق (تروتيغنو). «لا تزال أصوات العيارات النارية تعصف بأذهانهم. لابد أن يعودوا إلى حالتهم الطبيعية أولاً».

أعمل المكابح، حيث أن السيارة بدأت تتدحرج أخيراً على الطريق الإسفلتية.

- «كل ما أتمناه هو أن يبقى الأمر تحت الغطاء. لا يمكننا تجاهل...»

- «نحن نقوم بعمل ما نستطيع فعله». تمتم (تروتيغنو) «و(كامبراي) سيلتزم بكل ما ضمنه لنا الرئيس».

- «وقاضي التحقيقات ذاك، الذي تحدثت عنه في طريقنا إلى هنا؟ لا يبدو أنه يمتلك تلك البراعة. فكان عليه قبل بدء العملية أن يطلب منهم ضبط أنفسهم».

رفع (تروتيغنو) قدمه عن بدالة الوقود، فقد كان الشارع شديد الانعطاف، وقد أعاقت الأشجار الكثيفة إمكانية رؤية الطريق.

- «لا تشغل بالك بهذا الأمر. صحيح أن قضاة التحقيق يتمتعون في بلادنا بصلاحيات واسعة، إلا أننا سنقوم بترتيب الأمر. فلهذا نحن...»، توقف عن الكلام، وأعمل المكابح، وحدق أمامه خلف المنعطف. على بعد بضعة أمتار منهم وقف رجل على قارعة الطريق. توقف (تروتيغنو).

- «ما هذا؟» سأل (كالفي) الجالس على مقعد مرافق السائق.

- «هل علي أن أدهسه؟».

دسّ (كالفي) يده اليمنى تحت سترته، والتفت أصابعه حول مكبس مسدسه.

أوقف (تروتيغنو) الليموزين أمام الرجل بشكل قريب جداً، بحيث لم يرَ (تيساني) من ذاك الشخص سوى الوركين فصعوداً.

شد الرجل قبعة السترة الواقية من المطر إلى الأمام بحيث أخفت جبهته تماماً. بينما وضع كفه الأيمن أمام أنفه وفمه، وكان جسده يرتعش كأن نوبة من السعال الحاد قد انتابته.

فُتح باب سيارة الليموزين خلف مقعد مرافق السائق بقوة.

انتزع (تيساني). فلقد ضُغطت فوهة مسدس على عظمة خده الأيمن بشكل مؤلم.

- «افسح لي المكان. أنا بحاجة إلى سيارة أجرة».

وقف (باري) أمام السيارة متبسماً بوقاحة.

ولكن (تيساني) كان يحدق -بالعينين اللامعتين بمكر- إلى (هنري مارفن).



جزيرة القديس (هونورات)

- «هل نذهب!».

خرج الأخ (هيرونيموس) من الكنيسة مسرعاً، وكان (دوفور) بالكاد يستطيع اللحاق به. أمام بوابة الكنيسة صادفا عائلة بصحبة طفليها الصغيرين، وانتظر (هيرونيموس) حتى دخلوا الكنيسة وأُغلق الباب الضخم.

- «مرة أخرى: هذا الكروموسوم تمكن من إعادة الشباب والحيوية إلى الفئران المُسنة؟».

- «نعم».

- «وأنتم تعتقدون الآن أنكم توصلتم إلى الاكتشاف الذي يبحث عنه العلماء في شتى أنحاء الدنيا. ألا وهو: إيقاف التقدم في السن.

- هل تعلم ماذا تعني بهذا؟».

أومأ (دوفور)، «أنا نفسي لا أريد تصديق ذلك. ولكن في حال نجاح هذه التجربة، سيبدو الأمر على هذا النحو...»

- «أنت نفسك غير متأكد».

- «وكيف لي أن أفعل؟».

- «وذلك العالِم من (دريسدن) يقول، أنه استخرج الكروموسوم من عظام، أحضرها له صديقه ليقوم بفحصها».

أومأ (دوفور) مجدداً وقد قاوم النظرة الفاحصة للراهب.

- «هذه العظام هي جزء من كنز أثري يتكون من، ألواح طينية سومرية وكذلك العظام. ومن المفترض أن كليهما تم العثور عليهما أثناء عمليات تنقيب في (بابل)».

أومأ (دوفور) مرة أخرى.

شعر (هيرونيموس) مجدداً بوهن في ساقيه.

- «هل قال شيئاً عن شخص يدعى (هنري مارفن)؟ أو عن بريتوريانيي الكتاب المقدس؟»

- «كلا، لم يذكر مثل هذا الأمر. أنا لا أفهم...»

حدق (هيرونيموس) إلى مخرج الدير، حيث كان بستان صغير من أشجار النخيل الشاهقة يجذب الأنظار.

- «هل بحوزتك قطع نقدية أو بطاقة هاتف أو كلاهما؟»

نظر (دوفور) إلى (هيرونيموس) بتردد. إنه يذكر أنه كان قد رأى كشكاً للهاتف، في طريقه إلى الدير قبل الانعطافة الأخيرة للطريق بمسافة قصيرة. ولكن ما الذي يخيف (هيرونيموس) لهذه الدرجة، ويجعله لا يخشى الاتصال من داخل الدير؟ لا أحد يعلم، أنه كان هنا!

- «لدي جهاز هاتف خليوي ثانٍ... فالمؤسسة تحظر استخدام هواتفها للاتصالات الشخصية... إذا...»

في البداية هزّ (هيرونيموس) رأسه رافضاً، إلا أنه أومأ موافقاً بعد ذلك.

- «أعطني إياه...»

أومأ (دوفور) باضطراب.

- «أنا لا أفهم كل هذا...»

- «لا يتوجب عليك ذلك، ولا يمكنك ذلك. (جاك) ثق بالله. والآن اذهب! علي أن أفكر. فسُبل الرب تتطلب إعدادات دنيوية، وربما مساعدتك».

الفصل السادس والثلاثون

(صوفيا أنتي بولس) بالقرب من (كان)

مساء الثلاثاء

إنه حقاً، ليس وهم، فكر (كريس).

عند المخرج رقم 44 ظهر اسم (صوفيا أنتي بولس) على إحدى شاخصات الطريق السريع. في مكان قريب جداً من مدينة (فالبون) الصغيرة الساحرة. القادم من الغرب يرى الإشارة الأولى إلى ذلك الموقع العلمي العالمي الرابض على التلال الخضراء بين مدينتي (كان) و(جراس).

ركن (كريس) الدراجة النارية عند بوابة الخروج الخاصة بالسيارات، حيث تزدحم السيارات الخارجة من تلك المنطقة. تلمس جيبه بحثاً عن النقود التي كان قد وجدها في موقف السيارات الصغير. كانت الأحداث تبدو له كأنها تلاشت في زمن سحيق، مع أنه لم يمضِ على حدوثها سوى ساعات قليلة.

تذكر عملية فراره عبر النفق صباح هذا اليوم، بعد أن قام بضرب (مارفن) وأسقطه مغماً عليه...

بدا النفق بلا نهاية، كان مظلماً ويقود إلى الأسفل بداية ثم إلى أعلى، بينما كان في بعض مواضعه ضيقاً ومنخفض السقف، حيث توجب على (كريس) السير منحنياً، في حين كانت أكتافه تحتك بالجدران الصخرية.

كان جسده يستجيب للمؤثرات الخارجية بألم شديد يذكره بما قد تعرض له في الأيام الماضية. تفجرت أكياس الصديد على ساعديه بينما فاحت منه رائحة كريهة، وحلم أن يتمكن من الاستحمام لمدة طويلة، إلا أنه كان يتذوق طعم التراب في فمه.

تراقص ضوء مصباح الجيب على الجدران راسماً الآلاف من الأشباح ذات الحدود المتلاشية. في اللحظة الأخيرة استدار (كريس) جانباً، قبل أن يرتطم كتفه بالصخرة. انتهى الممر فجأة.

أحجار صخرية ضخمة وشقوق، لم يتمكن من رؤية أي مخرج. أجبر نفسه على الهدوء وسلط الضوء على الصخور. لا شيء. ضرب على الصخور، بحث عن فراغات. لا شيء.

في النهاية عاد أدراجه عبر الممر. بعد ثلاثين خطوة، مر بالقرب من حافة صخرية بدت كأنها عمود ارتكاز في الممر. كان على وشك الاستمرار في سيره حين لاحظ مستعيناً بالمخروط الضوئي كومة من الركام. بقايا من حطام الحجارة كانت مكومة خلف النتوء الصخري. فلو أتى أحدهم من الناحية الأمامية للحافة الصخرية لما تمكن من رؤية الركام. ولتابع سيره ببساطة.

أزاح الركام بقدمه جانباً فلمعت تحت الضوء حلقة معدنية. انحنى بسرعة وجرها، شعر بمقاومة، فسحبها بقوة أكبر. شيئاً فشيئاً انزلقت حلقات السلسلة الحديدية من تحت ركام الحجارة. ثم صدر صوت طرطقة مكتومة.

ليس بعيداً عنه، فتحة لوح حجري في الجدار الصخري. كانت بعرض مناسب لمرور شخص من خلالها. دفع نفسه في الفتحة وأنار الظلام الذي أطبق على الناحية الأخرى منها بمصباحه. على يساره كان اللوح الحجري مع نهاية السلسلة الحديدية. تراقص الضوء على الطرف السفلي لسلم خشبي، موجود في الطرف الآخر من الحفرة، الذي كان يقود إلى

الأعلى من خلال شق ضيق. زحف (كريس) جاراً وراءه حقيبة الظهر، وجثم أخيراً في الكهف المنخفض. صعد السلم الخشبي بعناء شديد. كان الشق الذي يقود إلى الأعلى ضيقاً جداً، بينما كان السلم يقف بشكل عمودي تقريباً. أخذ يصعد السلم درجة تلو الأخرى، في حين كان الجدار الصخري يكشط ظهره.

انتهى الشق بباب في السقف، أخذ (كريس) يدفعه برأسه إلى الأعلى. وحين أخرج رأسه من الفتحة رأى عجلات دراجة نارية.

كانت الجدران الخشبية لموقف السيارات الصغير متهالكة، بينما جُمعت أكوام الخردة إلى الجدران.

على إحدى طاولات العمل وجد بعض مفاتيح البراغي وعلى أحد الجدران خلفه عُلّقت بزتين لراكبي الدراجات النارية مع خوذتين واقيتين.

كان مفتاح التشغيل معلق بالآلة. ارتدى (كريس) البزة الجلدية وتلمس الجيب فوجد فيه شيئاً قاسياً. سحب علبة معدنية صغيرة، وابتسم حين رأى ما بداخلها: بطاقة ائتمان غير موقعة، إضافة إلى عدة أوراق مالية من فئة المئة يورو وبعض القطع النقدية المعدنية. يبدو أن (مارفن) قد أعد نفسه بشكل جيد...

بعد نصف ساعة كان قد وصل المنطقة التالية. وأخيراً انطلق على طريق السفر السريع إلى (إيكس إن بروفنس)، ثم سار موازياً للشريط الساحلي على طريق السفر السريع A8 باتجاه الشرق.

- بالقرب من مدينة (كان)، هذا ما قالته (ياسمين).

تلاشت ذكريات (كريس) حين سمع صوت بوق إحدى السيارات التي كانت خلفه. دفع رسوم الدخول ثم سار على الطريق التي تشعبت بعد بضعة أمتار. هناك اتخذ الطريق الريفي ووصل بعد عدة مئات من الأمتار إلى مخرج كُتب عليه لافتة تشير إلى (صوفيا أنتي بولس).

توقف أمام إحدى لوحات المعلومات. بدت تلك الحديقة العلمية واسعة جداً وقد قُسمت حسب عناوين رئيسة. فكانت الشركات المختصة بالتقنية في مكان بعيد عن تلك المعنية بالمجال الطبي. وأخيراً وجد (تيسابي) وحفظ الطريق في ذاكرته بشكل جيد.

الكثير من الأراضي في تلك المنطقة الجبلية كانت غير مبنية. بينما كان الدرب يصعد تارة وينخفض تارة أخرى مما جعله في النهاية يضيع طريقه. توقف عند محطة الإطفاء في نهاية الحديقة، عاد أدراجه إلى ذلك الطريق الجبلي، حتى وجد بطريق الصدفة وخلف إحدى التلال المدخل المخصص لشركة الأدوية.

على باب الدخول انتصب عمودان مُلبسان بالرخام الداكن، حُفر عليهما اسم شركة (تيسابي). أما الطريق نفسه فكان يؤدي إلى الأعلى حيث كانت مجموعة أبنية تبرز على منحدر.

كان الطريق الحاد الانحدار خالياً واختفى بعد أكثر من مئة متر في منعطف متجه إلى اليمين خلف إحدى التلال. كانت الأرض الواقعة إلى يمين الطريق خالية من الأبنية، وقد قُطعت أشجارها فلم يعد هناك ما يحجب الرؤية.

تدحرج بدراجته النارية ببطء ماراً من أمام المدخل. حاجز شبكي من المعدن كان يفصل تلك الأرض الخالية عن الطريق. بينما كانت النباتات والورود تغطي الطريق المنحدر صعوداً إلى المبنى.

بدا المبنى ذو الأربع طوابق على قمة التلة، كأنه قلعة استراحت على عرشها العالي.

توقف (كريس) خلف المنعطف. ترجل عن الدراجة النارية، خلع خوذته الواقية وتلمس متفحصاً حقيبة ظهره. ثم أسرع صعوداً بين أشجار

الصنوبر والبلوط إلى أعلى التلة. عند الهضبة انعطف يميناً وتابع تسلله مستتراً بالأشجار.

امتد السياج على التلة خلف النباتات والأشجار، وبدت وراءه مساحة عشبية واسعة، قبل أن تبرز جهة المبنى الخلفية الخالية من النوافذ، وكأنها ملجأ.

وقف (كريس) عدة دقائق تحت الأشجار يحدق بتلك الكتلة الخرسانية. كان ضوء الشمس التي بدأت تميل إلى الغروب ينير الجزء العلوي من المبنى، بينما اختفى الجزء السُفلي منه في ظلال الأشجار. أخرج الهاتف الجوال من جيبه وأعاد الاستماع لرسالة (ياسمين) الصوتية. دفع صوتها اليائس بدمائه إلى رأسه مجدداً. أعاد طلب الرقم الذي كانت قد ذكرته له. خارج التغطية. هكذا كان الحال طوال ذلك اليوم.

- «اللعنة!» تذمر (كريس).

(صوفيا أنتي بولس)، مبنى (تيسابي...) لقد كان في المكان الصحيح. إلا أنه يفتقد إلى الخطة.



- «...لا تتفوهوا بعبارات غير مدروسة! (زوي)؟ (آندرو)؟ لا يمكننا إخفاء ذلك الأمر طويلاً. علينا أن نسرع، ببساطة يجب أن...»

صمت الصوت ذو اللكنة الأميركية حين دخلت (ياسمين) برفقة (سولفان) إلى قاعة الاجتماعات الخالية من أي زخارف. كان هناك بوفيه إلى جانب أحد الجدران وفي الوسط وضعت طاولة مستديرة الشكل.

كان الكل ما يزال واقفاً وقد استداروا نحوها.

وقع نظر (ياسمين) على (واين سندر) الذي كان يحمل كأساً من الشمبانيا بيده ويبتسم مستمتعاً. أومأ لها (ند بيكر) بتحية متعالية، بينما وقفت (زوي بورسل) بوجه متجهم إلى جوار رجلين، كانت (ياسمين) تعرفهما من خلال مجلة الشركة. تعجبت من مظهر الرئيس التنفيذي (أندرو فولسوم)، حيث بدا في الحقيقة أقصر بكثير مما يبدو عليه في الصور.

بدا الغضب على الرئيس التنفيذي الذي كان وجهه متحجراً وزوايا فمه مشدودة إلى الأسفل، بينما زادت شفاهه الرفيعة وعيناه الذئبيتان من إظهار ملامحه القاسية.

بدا هندام الرجل الثاني، الذي كان في منتصف الثلاثينيات، وذو جسم نحيل، ويرتدي بنطالاً داكناً، وقميصاً قطنياً أصفر اللون من ماركة – بولو- تحت سترته، أكثر بساطة من هندام الرئيس التنفيذي ببدلته الرسمية الداكنة، وربطة عنقه الحمراء. تحت غُرة شعره المموج بدت عينان بلون الخضار البحري. كان الكل يعامله بمنتهى الاحترام، وقد تجلى ذلك بوضوح من خلال تعاملهم معه بشكل رسمي للغاية.

كان (هانك تورنتن) شخصياً، رئيس مجلس الإدارة وصاحب أكبر نسبة من الأسهم، حاضراً في المكان.

- «جميل أن أراك هنا!» تبسم (تورنتن)، الذي حمل كأساً من الماء في يده وتوجه نحو (ياسمين) لتحيتها.

كان صوته يرتجف بعمق، وقد نشرت ابتسامته المنتصرة والمتحفظة هالة من الثقة المتناهية. كان هو الشخص الذي يتحدث لحظة دخولها القاعة.

كانت سمعة رئيس مجلس الإدارة، الذي كان يقوم بنفسه بالزحف في غابات (أمريكا الجنوبية) والعمل على الأبحاث العلمية، إحدى الحجج

المتداولة أمام العموم. كيف لمثل هذا الرجل بتلك السمعة أن يعمل مع مخلوق كـ (زوي بورسل)؟ فكرت (ياسمين). أم أنها ظلمت تلك السيدة؟

- «كما ترين إن خلافات الأيام الماضية قد تلاشت، أليس كذلك يا (واين)؟» ابتسم (هانك تورنتن) بسعادة.

نظرت (ياسمين) إلى (واين) ببرود، لقد حقق صفقته.

لاحظ (تورنتن) النظرة المتشككة لـ (ياسمين).

- «يمكننا التعامل مع بعضنا بتسامح وأن نضع العلم في صدارة أولوياتنا. تعالي معي، أريد أن أريكِ أمراً رائعاً».

كانت هناك شاشة معلقة على الجدار المواجه لباب الدخول. أمسك (ند بيكر) بجهاز التحكم عن بعد. ظهر مختبر على الشاشة وقد تركزت الصورة على قفصين، بداخل كل منهما فأرين فتيين ونشيطين يركضان هنا وهناك.

- «أربعة فئران. وماذا بعد؟»

- «آنسة (برسون)...! لماذا هذا النفور؟» تبسم (تورنتن) ولمعت عيناه الخضراوين، كأنهما نجمتان «لقد قمت بعبور المحيطات للحضور بنفسي إلى هنا، لأن أمراً رائعاً حقاً قد حدث بالفعل. وأنت أحد أعضاء الفريق!» أشار إلى الكراسي المحيطة بالطاولة ثم جلس على أحدها «فلماذا كل هذا التردد؟»

- «ما كل ما يجري هنا؟ نحن أسرى و...»

- «ومن يقول ذلك؟» ضحك (تورنتن) بتعجب «آه، فهمت الآن! المعذرة، فربما قام (سولفان) بأداء عمله بشكل عملي للغاية...»

منذ أن باغتها (سولفان) في غرفة (آنا) ليلة الأحد، وهي تخضع لعزل تام. وقد أخذ هاتف (آنا) المحمول وتفحص جميع الاتصالات، ثم أراد معرفة الأشخاص التي قامت بالاتصال بهم. إلا أن (ياسمين) لم تتفوه بحرف حتى الآن.

- «نحن حريصون جداً. الكتمان هو أمر أساسي، عند الاكتشاف! لا ينبغي لأحد أن ينتزعه منا! حتى الأخ الأكبر لا يمكننا إعطاؤه أي معلومات. ولكن هذا لا يعني أنك أسيرة!». أشار (تورنتن) إلى الكرسي الموجود على يمينه وانتظر حتى تجلس (ياسمين).

ثم أدار وجهه نحو الشاشة: «انظري! أربعة فئران مسنة، تحولت خلال عدة أيام إلى قوارض شابة ونشيطة. اثنين من مدينة (دريسدن)، الفأران الآخران تم حقنهما هنا بالسلسلة الجينية للكروموسوم Y».

- «كان هناك ثلاثة فئران في (دريسدن)» قالت (ياسمين) ببرود.

- «أحدهم قد مات فأنت تعلمين، أنها تجربة...» نظر في عيني (ياسمين) «إنه لغز كبير وفريد. نريد الإسراع في عملية التحاليل. ماذا تعرفين عن مصدر العظام، التي تم أخذ العينة منها، يا آنسة (برسون)؟»

- «ليس الكثير» نظرت إلى (واين سندر) الذي جلس مواجهاً لها.

- «عليك أن تسأل (واين)، فإن صديقه هو من أحضر تلك العظام إلى المختبر».

- «ألم يخبرك ذلك الصديق بأي شيء في تلك الليلة؟ في الليلة التي بقيتما فيها في المطعم بينما ذهب (واين) إلى منزله؟»

نظرت متفاجئة إلى (سندر)، الذي اكتفى بهز كتفيه.

- «(ياسمين)، لقد تحققنا من كل شيء. ألم يخبرك بالمزيد عن ذلك؟ لقد ادعى لاحقاً أمامي على الهاتف أن تلك العظام عُثر عليها في (بابل)».

- «وهل هذا أمر مهم؟» سألت (ياسمين).

- «نحن نريد أن نفهم فحسب. فكل إشارة يمكنها أن تساعد في تقدم تحليلاتنا، آنسة (برسون)».

في عيني (هانك تورنتن) الخضراوين تراقصت نقاط بيضاء، بدت كأنها زبد البحر الأبيض فوق الأمواج: «أنت نفسك تعرفين صعوبة ذلك.

فتعريف الجينات هو العمل الأسهل. أما تفاعلها، مفعولها، تأثيرها على الأنزيمات، الشبكة بأكملها...، علينا أن لا نترك العالم ينتظر طويلاً حتى يتعرف إلى اكتشافنا!».

حدقت (ياسمين) بنظرات حديدية في وجوه الحضور. ثم قالت بصوت خشن كأنه مبرد حديدي: «ولهذا تريدون إجراء التجربة على (ماتياس)؟»



وقف (كريس) في بهو الدخول أمام عامل الاستقبال الغير مطلع، الذي كان يُجيبه من وراء لوح زجاجي بهز كتفيه بطريقة تنم عن عدم إلمامه بأي معلومة، ودون أن يفتح له باب الدخول.

من الواضح أنه لا يوجد هنا أي شخص يدعى (ياسمين برسون)، لا أحد من (دريسدن)، لا (واين سندر) أو (آنا).

إضافة إلى أن الوقت كان متأخراً للوصول إلى أي شخص أو لإيصال أي شيء لأي كان. فوقت الزيارة المقررة في العيادة كان قد انتهى وبالطبع لا يوجد أحد يعمل في المختبرات لهذا الوقت.

أنزل (كريس) حقيبة الظهر من على كتفه وسحب مسدسه وجهزه بطريقة استعراضية ثم وجه فوهته باتجاه كوة الاستعلامات.

- «افتح الباب!».

فتح الشاب فمه ثم تنحى جانباً ليختفي بعد ذلك تحت مكتبه.

- «افتح الباب!». ضرب (كريس) بمؤخرة المسدس على الزجاج.

فُتح الباب الموجود خلف عامل الاستقبال على شكل شق صغير، أطل

منه رأس لمدة وجيزة ثم اختفى. أُغلق ذلك الباب بقوة وبعد دقائق وقف ثلاثة رجال مسلحين على الجانب الآخر من باب الدخول المغلق.

كانت فوهات أسلحتهم موجهة تجاه (كريس)، الذي ابتسم بوقاحة رافعاً يديه إلى أعلى ثم عاد فأنزلهما. أحد الحرس تحدث بتوتر عبر جهاز اللاسلكي.



أمسك (هانك تورنتن) بيدي (ياسمين). تجمدت مكانها، لكنه أمسكها بقوة وبلا هوادة.

- «وبالرغم من أن الأمر لا يصدق: فهذه الفئران التي ترينها، كانت مسنة، وكان من المفترض أن تموت. ولكنها ما تزال على قيد الحياة. لقد قام الكروموسوم بإعادة الشباب إليها في (دريسدن). وتكرر ذلك هنا أيضاً. هل تدركين معنى هذا؟»

أومأت. «أنا لا أفعل».

حدق (تورنتن) بـ (ياسمين) بنظرات جادة.

- «أنا أرى فقط: أنها تعمل. مرض الكبد سيقتل (ماتياس). لا يوجد وسيلة لإنقاذه. ولقد حاولت شقيقتك بكل الوسائل. إلا ...»

- «ماذا تريد؟» صاحت (ياسمين) بعصبية.

- «إنقاذ الولد!» حدق (تورنتن) بها «النتائج واضحة تماماً» كان فمه قريباً جداً من أذنها «أقنعي شقيقتك بحقن تلك السلسلة الجينية، وسيعيش الولد! انظري كيف أن الشباب والنشاط قد دبّ في عروق تلك الفئران الطاعنة في السن».

نظرت، إلى الفئران النشيطة على الشاشة، وكأنها تحت تأثير المخدر.

- «تريدون تجريب هذه الكروموسومات على (ماتياس) دون أن تعرفوا ما الذي سيحدث؟»

- «كلا» هز (تورنتن) رأسه نافياً بقوة «نحن نعرف النتيجة! أمعني النظر. لديك بالطبع المعلومات الكافية في هذا المجال. إنك اليد اليمنى لـ (واين). ما ترينه أمامك الآن، عبارة عن تجربة أجريت على حيوانات. إنها تجربة ناجحة».

- «إنك تعلم تماماً أن نجاح تجربة لا يعني شيئاً». قالت (ياسمين) باعتراض.

- «لا يعتبر الفأر من الحيوانات المشابهة للبشر! لماذا الاستعجال؟ لماذا لا تقومون بمتابعة التجارب؟ فـ (ماتياس) لن يموت غداً. لماذا لا تبدؤون بعمل فحوصات أخرى على الجينات التي يحملها ذلك الكروموسوم؟ فليس لديكم علم بالتفاعلات، لقد حصلتم على نتيجة، قد تكون تحت ظروف أخرى مختلفة تماماً. ما تنوون فعله هو تصرف غير مسؤول!» كانت (ياسمين) تلهث أثناء حديثها لشدة تأثرها وقد كورت كفيها إلى قبضات.

- «نحن لسنا مبتدئين» قطب (تورنتن) وجهه شاعراً بالإساءة «كم هي قليلة تلك الثقة التي تكنينها لقدراتنا؟ إنك واحدة منا! ومخابرنا هي الأشهر في العالم. وأنت تعلمين ذلك! هل تعتقدين أننا سنمد لك يد المساعدة، لو أن الأمر سيؤدي إلى أذية (ماتياس)؟ أي شخص تعتقدينني أكون؟» لمعت عيناه «إن كانت تلك التجربة قد نجحت في عالم الحيوان، فلا بد لنا أن نعتقد أن نتائجها ستكون إيجابية على الإنسان. إنها فرصة (ماتياس)! ألا تدركين ذلك؟»

- «ما الذي يمنحك الثقة والحق، أن تكون متأكداً لهذه الدرجة؟ لقد

كنت أعتقد أننا نتحمل مسؤولية ما نقوم به. حتى الآن لم أشأ أن أصدق أن ما تقترحه سيتم بالفعل...» ارتعش جسد (ياسمين) «هل حقاً نحن نعيش الآن في الزمان، الذي يحدث فيه ما تنوي فعله؟»

- «كم أنت إنسانة صالحة؟» انحنى (تورنتن) باتجاهها.

- «أنت تتهميننا بالنوايا السيئة. في حين أننا نعرض عليك المساعدة. نحن نؤمن برسالتنا وبأبحاثنا. ما الشيء الذي تخشين وقوعه؟ الفئران لم تمت! إنها على قيد الحياة! بأجساد يافعة! إنه أمر رائع. لقد تمت إعادة بناء كافة الخلايا. وهنا ... -أشار (تورنتن) إلى الشاشة- في القفص الأيمن يوجد فئران محلية. متى تم حقنها بالضبط؟» أدار (تورنتن) رأسه إلى الموجودين في القاعة.

- «مساء الأحد» قال (سندر).

- «انظري. بعد مرور يومين تقريباً، لم يعد بإمكانك التعرف على تلك الحيوانات. تخيلي لو أن باستطاعتك قول ذلك بعد مرور يومين على حقن (ماتياس). إنك تعرفين حتماً سوء حالته ومدى معاناته!».

حدقت (ياسمين) بالشاشة بينما كانت تقضم جلد شفتها السفلى. وفجأة عاودتها صور من ذكريات اليأس في الماضي، الأمل بإنقاذ (ماتياس)، ثم اليأس من جديد. هل تحمل حجج (تورنتن) بعض الحقائق، التي لم تتمكن من إدراكها؟

ثم سألت: «أين (آنا)؟»

- «عند ولدها. إنها تسهر عليه. إن حالته تسوء يوماً بعد يوم». شدد (تورنتن) على كل مقطع لفظي.

- «وما رأيها بهذا الاقتراح؟»

- «الحقيقة، أنها تمتنع عن إعطاء موافقتها».

- «هذا يعني أن لديها أسبابها». قالت (ياسمين)، بارتياح واضح، بعد الشكوك التي انتابتها داهمتها قليل.

- «إنها ولية أمره. هي التي تقرر ذلك».

- «ولكنها لا تبصر الفرصة التي يحملها الاكتشاف الجديد».

- «وكذلك الحال بالنسبة لي. أنا المساعدة العلمية لـ (واين)، ولست خبيرة. فتفكيري البشري السليم ينبئني أن الأمور تسير بسرعة كبيرة».

- «ولكنك على علم بهذه الأمور بشكل أكبر وتستطيعين تقدير الفرصة بشكل أفضل. أقنعي شقيقتك. من فضلك!» ترجاها (هانك تورنتن) «تذكري: أن (ماتياس) سيموت دون علاج، وبهذه الوسيلة سيكون لديه فرصة... فما سبب هذا التردد؟ سأقوم بفعل كل شيء لإنقاذ حياة طفلي! فهل ستفعل والدة (ماتياس) ذلك؟ قولي الحقيقة: إنها تخشى اتخاذ القرار وتحمل المسؤولية، إنها تتردد وتتهرب، وذلك سيؤدي إلى الإضرار بالصبي. وأنت؟ لو أنه ابن أختي، فلن أتردد للحظة في إنقاذه!».

- «كلا! توقف!» رفعت (ياسمين) يديها عالياً مدة وجيزة، وأجابت بصوت حاولت بعناء التحكم في نبراته: «لماذا لا تجربون العلاج الأصلي، الذي قمتم منذ البداية بتحديده لحالة (ماتياس)؟»

تنحنح (فولسوم) ومسح بكفيه على وجهه: «لأن تلك الطريقة قد فشلت في علاج مرضى آخرين. فلم تحرز النتائج المتوقعة لها، وفي حالات كان تضرر الكبد فيها أقل بكثير».

أغمضت (ياسمين) عينيها محاولة حبس دموعها. كانت على وشك الخضوع لإلحاحهم. إلا أنهم لم يخبروها بكل الحقيقة.

تذكرت (ياسمين) ذلك الحوار الذي تنصتت إليه من تحت النافذة. وترددت في ذاكرتها الكلمات التي قالتها (بورسل) بصوت بارد. وهنا؟ لا يوجد أي كلمة عن موت المرضى الذين خضعوا للتجربة.

هل يمكن للمرء الوثوق بهم؟ لا! عليها أن تكسب الوقت.

عليها أن تجد طريقاً...

- «أين الدكتور (دوفور)؟ يبدو أنه شخص يتحمل المسؤولية».

- «إنه ليس على ما يرام» تمتمت (زوي بورسل).

- «إنه تسجيل» قالت وقد حدقت بالشاشة «كم عمرها، أيام أم ساعات؟ ماذا حل بالفئران الآن؟ هل ما تزال حقاً على قيد الحياة؟» كانت شفاهها عبارة عن خطوط رفيعة.

- «يا لها من كائنات لا تكل من الصرير». تبسم (تورنتن) بتفوق.

نظرت (ياسمين) إلى (سندر)، الذي أومأ بثقة المنتصر.

- «إن الأمر كما يقول يا (ياسمين)».

- «(واين)، أنت تعلم أن المرء يحتاج لإجراء العديد من التجارب قبل أن...».

- «(ياسمين)، إنها معجزة علمية. لقد أثبتت نجاحها حقاً. انظري إلى الفئران. تبدو في حالة رائعة. كلما أسرعنا في إجرائها تحت ظروف حقيقية، كلما استطعنا مساعدة عدد أكبر من الناس. سيصبح الصبي مشهوراً. معي! عليك فقط السماح بذلك!».

- «أصبحت فجأة متحمساً للأمر. أليس كذلك؟»

- «أنا من قام بالاكتشاف! إنه اكتشافي!» كاد (واين سندر) يتفجر اقتناعاً.

- «هيا (ياسمين)، ساعدينا، لكي نسعد العالم بهذا الاكتشاف المذهل».

- «عليك التفكير بالصبي!» قال لها (تورنتن) معاتباً، «إنه سينتهي بطريقة مأساوية! ببطء، ليس اليوم، ليس غداً، ولكن سيزداد الأمر كل يوم، على مدى أسابيع. وستراقب أمه ذلك باستسلام، بيأس، وسيصيبها

الجنون. وأنت كذلك! لأنك ستشعرين بالذنب. ترتكبين خطيئة! بحق طفل! فقط لأنك تنقصك الجرأة، بأن تقدمي له هذه الفرصة المتاحة له هنا».

دسّ يده في الجيب الداخلي لسترته، وأخرج أنبوباً يحتوي على سائل صافٍ، بلون وردي.

- «إنها حقنة مهيأة للاستعمال. هذا هو السائل العجيب، المذاب بخليط جاهز من الهون المحضرة مخبرياً. يمكننا حقن الحمض النووي من خلالها. اعملي على إقناع (آنا)، وأنقذي (ماتياس)!».

الفصل السابع والثلاثون

(صوفيا أنتي بولس) بالقرب من (كان)

مساء الثلاثاء

استمر المأزق لدقائق معدودة. ثم بدا في الداخل خلف بوابة الدخول المغلقة رجل سمين، بالرغم من بنيته الضخمة، كان يتحرك برشاقة. كان رأسه الحليق شاحب اللون، ووجهه نحيل بالمقارنة مع جسده الممتلئ. أحد رجال الحراسة فتح الباب، وخرج (سولفان) إلى المدخل الأمامي. تفحصت عيناه (كريس).

- «ما هذا؟ لماذا تلوح هنا مهدداً بسلاحك؟» انكمش أنف (سولفان) بشكل واضح.

تجاهل (كريس) تلك الإيماءة: «لأنني أريد الدخول. فأنا أبحث عن شخص».

- «يبدو أنك تعرف كيف يمكن للمرء أن يلفت الانتباه. اسمي (سولفان). أنا مدير أمن (تيسابي)، ولا مكان هنا للحمقى الملوّحين بمسدساتهم. سأقوم الآن بإبلاغ الشرطة، إلا إذا كان لديك تفسير منطقي لما قمت به».

- «أريد أن أرى (ياسمين برسون)...»

راقب (كريس) مدير الأمن، الذي لم يبدُ عليه أي ردة فعل إزاء الاسم.

- «لماذا لا تضع سلاحك؟ إنك لن تستعمله على أي حال».

- «ذلك إن لم تكن مخطئاً ...»

- «هذا يكفي. أنا مدير أمن مؤسسة عالمية ولدي ما هو أثمن من أي سلاح. خبرة بتقييم الأشخاص. فأنت لن تقوم بإطلاق النار بشكل عشوائي في المكان».

- «أريد الذهاب إلى (ياسمين برسون). لقد اتصلت بي من هنا. لقد أخبرتني أنها في خطر، وأنا صديق لها».

- «هكذا إذاً» حمل الصوت الكثير من السخرية «اسمك؟»

- «(كريس تسرنت هاين)».

صمت (سولفان) لوهلة ثم أومأ.

- «تعال معي. أعتقد أنهم ينتظرونك بالفعل. ولكن عليك أن تضع سلاحك».

تبع (كريس) (سولفان) الذي صعد الأدراج بصمت وقاده عبر ممرات طويلة ثم فتح أحد الأبواب.

كان وجه (ياسمين) محمراً وجميلاً حقاً.

ازدادت ضربات قلبه وبدا شريانه ينبض تحت جلد رقبته.

شلالات من السعادة الغامرة اجتاحت جسده فغسلت كل التوتر واليأس.

- «(ياسمين)...» نعق غراب في أذنه. اللعنة لماذا لم تقم بالنظر إليه؟

كانت عينا (ياسمين) معلقة بشفاه الرجل الجالس إلى جوارها وقد تسمّر كفاها المكورين على الطاولة.

يبدو أنني وصلت في اللحظة المناسبة، فكر (كريس). فوجه (ياسمين) المحمر كان ينمّ عن مدى غضبها.

حول نظره عنها، وبدأ يتفحص وجوه الحاضرين في القاعة. حدق به

(واين سندر) باستغراب. إلا أن نظرات (كريس) تابعت تفحصها . الشخص الأهم كان كما يبدو هو الجالس إلى جوار (ياسمين).

- «لدينا ضيوف!» قال (سولفان) بصوت مرتفع، فاستدارت كل الوجوه نحوهما .

ازداد وجه (ياسمين) ظُلمة. وأطلقت عيناها حزمات من الأسهم برؤوس حارقة.

- «إليكم الرجل الذي يستطيع الإجابة على كل أسئلتكم. نحن مدينون لهذا الرجل بعينات العظام». قفزت (ياسمين) واقفة، واندفعت نحو (كريس).

- «(ياسمين)، كم كان...» فتح (كريس) ذراعيه بسعادة.

وقفت بشفاه مرتجفة أمامه.

جعلت صفعتها الدموع تترقرق في عينيه.



انتفض (جاك دوفور) عند سماعه رنين الهاتف، بالرغم من أنه كان بانتظار هذه المكالمة.

- «جيد أنك قمت بحفظ وعدك. بالتأكيد أنت في المختبر الآن؟» بدا صوت الأب (هيرونيموس) قوياً وحازماً.

- «نعم».

- «هل قمت بعمل ما اتفقنا عليه؟»

تردد (جاك دوفور). ففي تلك الأثناء تهافتت عليه الظنون كما تتهافت الضباع على الجثث.

- «لا».

- «عليك أن تثق بالله!» ألح صوت (هيرونيموس). لم يدع مكاناً للشك. «أثبت ثقتك بالله! ألا تريد أن تخوض هذا الاختبار؟»

- «لا أستطيع. أنا ... أنا عالم» جفّ فم (دوفور) في ثوانٍ كأنه الصحراء.

- «إنك تستطيع. عليك أن تفعل. إنه يطلب منك ذلك».

- «وكيف يمكنك أن تكون واثقاً إلى هذا الحد؟».

- «أنا أعرف ذلك. كن واثقاً. ثق بالله. ثق بي».

- «متى ستحضر إلى هنا؟»

- «قريباً. ولكن لا يجب عليك الانتظار. كان عليك إنهاء الأمر منذ زمن. افعل ذلك!».

- «(هيرونيموس)، لا تدعني وحدي. فأنا لم أعد أعرف ما هو الصحيح. أنا ...أنا سأنتظر قدومك إلى هنا».

- «كلا. لابدّ أن يحدث الأمر بسرعة. الآن».

صمت (دوفور).

- «أنا لا أستطيع...»

نهض (جاك دوفور). كانت عظامه ثقيلة وتؤلمه. فمنذ موت (مايك غلفورت) تلاشت قواه، كما يذوب الثلج تحت أشعة الشمس.

هز رأسه بقوة. (هيرونيموس) يطلب منه الكثير. ومهما فعل، فسيتحول إلى خائن.

بدأ (دوفور) يرتعد. كانت عضلات فخذيه ترتجف، وحدق غير مصدق بتهيج أعصابه، التي ظهرت حتى من فوق قماش البنطال.

- «إنها مشيئة الرب!». كان صوت الراهب القوي والصلب يحطم مقاومة (دوفور) شيئاً فشيئاً.

صمت (هيرونيموس) قليلاً، قبل أن يتابع كلامه بصوت ناعم ومتماسك «برحمة الله أصبحنا على ما نحن عليه. أنت، وكذلك أنا. (جاك دوفور)، تذكر دائماً ما أراده الله للبشر. لك ولي. ((**لأني قد نزلت من السماء، ليس لأعمل مشيئتي، بل مشيئة الذي أرسلني**)) هكذا تكلم الرب يسوع. وقد طلب القديس (بندكت) في النظام الذي وضعه للرهبان، الأخذ بتلك الطاعة. أنت تؤمن بالرب، إذاً عليك اتباع مشيئته. لا يمكن لأحد الهروب من اختيار الرب. حتى أنا حاولت الهرب، ولكن في النهاية يسير الله الأمر بالشكل الذي يجعلني لا أتمكن من الفرار. أنت الآن أداة الله، وعملك هو إرادته. عليك أن تفهم يا (جاك دوفور)، أنه اختارك. أطع! هذا امتحان لك».

أنزل (دوفور) سماعة الهاتف بإعياء. فلم يكن يعلم ما هو الصحيح، ولكن (هيرونيموس). تمسك (دوفور) شاكراً، بثقة الراهب التي لا تهتز. (هيرونيموس) أرشده إلى الطريق.

أخذ (دوفور) حقيبة السفر، التي سرقها بعد الظهر من غرفة أحد المرضى، وتوجه بخطى يائسة إلى المختبر، أدار مفتاح الضوء عند الباب ونظر إلى أعلى، حتى أضاء آخر مصباح مصدراً أزيزاً خفيفاً.



- «هكذا الأمر بالنسبة للنساء». ضحكت (زوي بورسل) «يجلسون ويحاولون أولاً استيعاب دليل الحب هذا». تابعت نظراتها المقيتة (ياسمين) وهي تعود إلى كرسيها بخطوات يائسة.

- «من الجميل التعرف على المجهول السري، الذي مكننا من تحقيق

هذا الاكتشاف العلمي المذهل. ما الذي أتى بك إلى هنا؟» حيا (تورنتن) (كريس).

تمتم (كريس) بكلمات عن أعمال مهمة وغير قابلة للتأجيل، وعن المكالمة القلقة لـ (ياسمين).

- «وأنت تريد الآن تخليص الآنسة (برسون) من أسر الوحوش...»

ضحك (تورنتن) باستمتاع «انظر حولك. مجموعة من العلماء المتحملين للمسؤولية. لابد أن الآنسة (برسون) بالغت قليلاً، وهذا ما كنا نخشاه. لقد أخبرتني منذ قليل أنها تعتبر نفسها سجينة. وهذا الأمر غير صحيح على الإطلاق».

- «هل تعني أني والآنسة (برسون) نستطيع الخروج من هنا متى شئنا؟»

ضحك (تورنتن) «لا أعتقد أنكما ستقومان بذلك حقاً» ثم قام بسرد مختصر للأحداث التي وقعت في (براغ) و(دريسدن) ببعض الجمل المبنية بشكل ممتاز. لم يبدِ (كريس) أي إشارة تنمّ عن موقفه من خيانة (واين)، وكان يستمع باهتمام، حتى يتمكن من فهم التفاصيل المتعلقة بالهندسة الوراثية.

- «بالنسبة لي إن علم الهندسة الوراثية يشكل محيطاً واسعاً ومجهولاً». قال (كريس) عندما أنهى (تورنتن) كلامه. «ولكني استطعت فهم التالي: لقد تمكن (واين) من إجراء انقسام للخلايا، وخلال اختباراته الأخيرة استطاع اكتشاف الكروموسوم رقم 47، كروموسوم Y ذكري إضافي. وهذا بحد ذاته يعتبر أمراً غير طبيعي، إلا أنه...»

- «تثلث صبغي. نعم، تثلث صبغي من نوع XYY...»

- « ... علمياً غير معروف» صمت (كريس)، تمالك نفسه «كما أنني فهمت أن التثلثات الصبغية مرتبطة دائماً بوجود أمراض خطرة».

- «نعم. إلا أن للكروموسومات الجنسية خصوصيات، حيث يجب على المرء أن يكون حذراً في إصدار التعريفات العامة». هزّ (تورنتن) رأسه «علومي تختص بعالم النبات. (آندرو)، إنه مجالك».

رفع (آندرو فولسوم) حاجبيه إلى أعلى، إلا أن (تورنتن) أومأ بنفاذ صبر. فبدأ (فولسوم) بالحديث.

- «الكروموسومات الإضافية تسبب عادة أضراراً قوية، كمتلازمة (براون) في حال التثلث الصبغي في الكروموسوم رقم 21. إلا أن الكروموسومات الجنسية الفائضة تكون أقل ضرراً من التثلثات الصبغية. فالنساء التي تحمل ثلاثة أو أربعة كروموسومات X، غالباً لا تشير الصور المرضية خاصتها لوجود أي أمراض خطرة. ويبدو هذا بسبب توقف نشاط كروموسومات X الإضافية، مع مضي الوقت. هذا يتناسب مع الحالات الطبيعية، فالمرأة تحمل عادة زوجاً من كروموسومات X، أحدهما من الأم والآخر من الأب. ويتوقف أحدهما عادة عن العمل في المراحل الأولية. مع مرور الوقت وإلى الأبد».

- «فهمت كل ما قلته حتى الآن». قال (كريس)، الذي رأى نظرة هل ما زلت تستطيع متابعتي، في عيني (فولسوم).

- «إلا أن الرجال الذين يحملون تثلثاً في الكروموسومات الجنسية، يتعرضون لمشكلات أكبر. فعند وجود زوج من كروموسوم X، أي تثلث صبغي من نوع كروموسوم XXY، فإن هؤلاء الرجال غالباً ما يعانون من متلازمة (كلاينفلتر)، فإنهم يكونون عقيمين، ذوو أجسام ضخمة للغاية، وبأيدٍ وأرجل طويلة بشكل ملحوظ، تتشكل لديهم أثداء وتكون أجسادهم قليلة الشعر...»

- «ولكن هذه الحالة تشكل تثلث XYY، أليس كذلك؟» ابتسم (كريس) بلؤم، لأن (فولسوم) نظر إليه وكأنه طالب في المرحلة الإبتدائية.

- «يمكنها أيضاً أن تتسبب بأعراض، ولكنه ليس شرطاً. هؤلاء الرجال أضخم من المتوسط، وقد لوحظ وجود التهابات جلدية حادة، وبمساحات كبيرة في الوجه. الخصية الهاجرة وعيب خلقي في القلب. وغالباً ما يكون السائل المنوي لديهم ضعيفاً، وتعكس التحاليل ارتفاعاً حاداً في هرمون التسترون، وهذا ما يبرر السلوك الرجولي المفرط لهؤلاء الرجال».

- «كل ما قلته لا يوحي باكتشاف علمي مذهل، بل بوجود أضرار» هزّ (كريس) رأسه.

- «الحقيقة أنه تم نصح الرجال الحاملين لكروموسوماتXXY، بعدم التكاثر» ضحك (تورنتن) بصوت عالٍ «بل وقد تم عمل بعض الأبحاث الاجتماعية التي قامت باعتبار مواصفات هؤلاء الرجال خاصة بالمجرمين. ولكن هذا في الماضي، أما اليوم فيمكننا القول أن التثلث الصبغي XXY يعتبر مسبباً لأمراض خطرة».

«إضافة إلى أن هذا التثلث لا ينتقل وراثياً، ونسبة حدوث ذلك أقل من واحد بالمئة» قال (فولسوم) بصوت مبحوح وكأنه منشار العشب.

- «هل يوجد تفسير لذلك؟»

- «ينشأ التثلث الصبغي لدى الأشخاص المصابين، نتيجة حدوث خطأ في بناء الخلايا الذكرية، بحيث لا ينفصل الكروماتيدان لكروموسوم Y عن بعضهما في مراحل الانقسام الاختزالي. بتعبير آخر هو خطأ في الآلية، ومن النادر تفسير سبب حدوثه. ويقوم الكروموسوم Y بعملية إصلاح ذاتية» ضرب (فولسوم) بكفه على فخذه وبإيماءة تنم عن أنه قد انتهى لتوه من توضيح الأمر لذلك الغبي.

- «إذاً فإن تضاعف الكروموسوم Y يعتبر حادثاً فريداً لا ينتقل وراثياً إلى ذكور الأجيال التالية» كرر (كريس).

- «لكن اكتشافي يقول شيئاً آخر!» قال (واين سندر) الذي كان يهز

كرسيه بسعادة غامرة ومزهواً بما أحدثه من اكتشاف مذهل «الكروموسوم Y الإضافي عملاق وممتلئ بالجينات، بينما يكون الكروموسوم Y المعروف صغيراً وذابلاً». لهث (واين سندر) وضرب بقبضته اليمنى باطن كفه الأيسر «لا يمكن أن يكون هذا الكروموسوم Y ناشئاً عن الكروموسوم Y المعروف. إنه مختلف تماماً. وإلا ...»

- « ... لما كانت نتائج تجربتك على الفئران كالتي حصلت عليها» أكمل (كريس) كلام (واين) «لقد قمت بتحضير مواد الجينات وحقنت بها الفئران، فهبوا يقفزون بعد مدة قصيرة بأجساد شابة».

- «أجل، (كريس)! أجل! الأمر لا يصدق، لكن هذا ما حدث بالفعل».

قفز (سندر) واقفاً وتجول في الغرفة بخطوات واسعة. «سيستغرق الأمر وقتاً طويلاً حتى نتمكن من فحصها ومعرفة كيفية طريقة عملها، ولكن ما يعني ذلك؟ الكثير من الأمور تجري من دون أن نجد توضيحاً لها».

- «الحقيقة أنا ما أزال لا أصدق. هل بإمكاني رؤية الفئران؟»

- «لن ترى سوى فئران شابة. لا شيء غير ذلك» ضحك (تورنتن).

- «رغم ذلك».

نظر (تورنتن) إلى (سندر) و(بيكر).

- «أحضروا الفئران. نحن نفعل كل شيء لنقنع المتشككين».



وضع (دوفور) الحقيبة جانباً عندما دخل إلى المختبر.

كان القفصان اللذان يحتويان على الفئران موضوعين على طاولة إلى جانب باب الدخول مباشرة. قد تم عزلها عن باقي حيوانات التجارب،

لتجنب أي احتمال لتعرضها لعدوى. كانت الحيوانات نشيطة وتقفز على نشارة الخشب برشاقة. هزّ (دوفور) رأسه. فقد اجتاحته الشكوك مجدداً. كيف لـ (هيرونيموس) أن يطلب منه ذلك؟ ما الذي يعرفه ذلك الراهب، ليكون على هذه الدرجة من الثقة؟

- «**((هنالك طرق، تبدو للبشر أنها صحيحة، لكنها تهوي بهم في النهاية إلى أعماق الجحيم))** هكذا قرأ القديس (بندكت) من كتاب الأقوال المأثورة. هل تفهم هذا يا (جاك)؟» ساعد الصوت الهادر للكاهن -الذي كان يتردد في عقله-، (دوفور) في التغلب على شكوكه. ارتعش وتابع متردداً، توجه إلى الحاضنة. كانت العينات الجديدة قد نمت بكثرة كأنها عفن على جدار رطب. توقف عدة دقائق يحدق من وراء الزجاج العازل في تلك الخطوط، التي تكاثرت بحرية وبمنتهى الحيوية. وقد زحفت تلك الكتلة البيضاء إلى أعلى الزجاج العازل.

إنها أعجوبة الحياة. السر الأعظم في العالم.

شعر (دوفور) بحرارة في وجهه وسمع صوت (هيرونيموس).

- «الطاعة هي موقف أولئك، الذين يقدمون المسيح على أي شيء. **((عنهم قال الرب: يستمعون أولاً ثم يطيعون))**. أعلن (هيرونيموس) بلا تردد.

وبالرغم من ذلك... هل كان هذا هو الطريق الصحيح؟ هل هذا طريقه؟

إنه يخون العلم! علمه!

- «تذكر (مايك غلفور)، إنك تحمل ذنبه. ألا يعتبر موته إنذاراً كافياً لك؟ هل يجب أن يموت طفل صغير، حتى تعرف وتطيع؟» كادت العبارات القوية لـ (هيرونيموس) تفتت دماغ (دوفور). أمسك رأسه بكلتا يديه وقد شعر كأنه سينفجر لشدة الارتباك.

لا تفكر بذلك أكثر! لا تشعر بذلك الشك الممزق مجدداً. لقد أوضح له (هيرونيموس) الطريق.

أدار مفتاح منظم الحاضنة إلى أن أصبح في وضع الإيقاف. ثم ارتدى القفازات الواقية، ووضع الكمامة على أنفه وفمه، وفتح باب الحاضنة. في الداخل شعر بحرارة الحياة 37 درجة مئوية.

داعبت الحرارة شعيرات ساعديه. ثم أخذ أطباق الزراعة واحداً تلو الآخر ورماها في حقيبته.

ثم قام بمسح الزجاج العازل بخرقة ورماها أيضاً في الحقيبة.

كل حركة كانت كلدغة الأفعى، سريعة، مندفعة، مرتعشة. انهمرت الدموع على خديه. شهق وارتجف وكأنه مصاب بالحمى.

ثم توجه إلى الثلاجة وفتح الغطاء.

لقد كانوا قد قاموا باستخراج وتجميد ما يقارب العشرين عينة. كانت المادة الجينية محفوظة في أنابيب مخبرية ذات لون وردي فاتح ولامع، ومجهزة للاستعمال على هيئة محلول دهني. أحدها كان (تورنتن) قد احتفظ به واثنان آخران، قاموا باستخدامهما في تحويل الفئران المسنة في غضون ساعات قليلة إلى حيوانات شابة ونشيطة.

هل هذا خطيئة؟ هل هذا يخالف مشيئة الله؟

نفض (دوفور) تلك الأفكار من رأسه، ورمى العينات في الحقيبة. ثم تأكد عدة مرات من أنه قد أخذ كل ما يحتاجه. عليه أن لا يدع لهم أي شيء. لا عينة ولا حتى شريطاً، هذا ما طلبه (هيرونيموس).

ثم جلس أمام جهاز الحاسوب ونقر على لوحة المفاتيح، باحثاً في قاعدة البيانات المتعلقة بكل الفحوصات والتحاليل. بينما تختفي كل البيانات في بلعوم الحاسوب المركزي في (بوسطن)، تم هذه المرة وبناءً على تعليمات تلك المشعوذة (بورسل)، حفظ البيانات على الحاسوب المحلي.

- «هل تريد مسح كافة البيانات؟»

توقف السهم عند كلمة «نعم».



- «لقد فُتح الباب على سر الإنسانية».

- «لا أزال غير مصدق» تمتم (كريس). بدا الأمر بالنسبة له عاطفياً للغاية. كيف للعلم البدائي أن يعرف من خلال سطح مياه المحيطات الكبيرة، كيف يبدو حاله على عمق عشرات الآلاف من الأمتار؟

- «لهذا علينا معرفة كل شيء عن منشأ تلك العظام».

ضحك (كريس) «كان علي نقلها، ليس أكثر. الرجل الذي يعرف عنها كل شيء قد مات».

- «يبدو أنك لا تعرف مدى أهمية هذا الاكتشاف؟» قال (تورنتن) بصوت يخفي نبرة عدائية.

- «نستطيع منع الشيخوخة. إعادة الشباب للأجساد الهرمة. هل تعلم ما يعني ذلك؟ إطالة عمر كل واحد منا ...»

- «الخلود؟» تمتم (كريس).

- «ربما هذا أيضاً»، أومأ (تورنتن). «ولكن حتى إن لم يحدث هذا، فإنه على الأقل يعمل على إطالة مدة الحياة، فضلاً عن مكافحة الأمراض. بضربة واحدة سيتم استبدال ثلاث مئة نظرية حول الشيخوخة، بالحل. كل تفصيل إضافي سيكون مهماً. وحتى الآن لم تكن مجدياً كما يجب».

- «ولكن لم أعد بذلك».

- «هل تحمل العظام معك في حقيبة ظهرك هكذا في كل مكان؟» كان صوت (تورنتن) مشحوناً بنبرة عصبية.

لم يجب (كريس).

أومأ (تورنتن)، وسرعان ما وقف كل من (سولفان) و(سباروف) إلى جانب الكرسي الذي يجلس عليه (كريس). رمق (سولفان) (كريس) بنظرة فوقية وأبقى يديه عالياً، بينما وضع (سباروف) يديه على كتفي (كريس).

- «لا ترتكب أي حماقات!» حدق (هانك تورنتن) بـ (كريس) بنظرات حديدية.

- «باستطاعتي أن أقرأ ما يدور في عقلك. ولكن، حتى إن لم يرُق لك الأمر: هنا يحدث فقط ما أريده أنا. لن يتردد الرجلان بانتزاع حقيبة الظهر منك بالقوة».

- «يوجد أشياء أخرى في الحقيبة غير العظام...»

- «أنا مقتنع بهذا» ابتسم (تورنتن) بمكر. «ربما عظام أخرى؟ أنا متأكد من أن حقيبة الظهر خاصتك عبارة عن لقىً ثمينة. إذاً!».

تردد (كريس) قليلاً، ثم هزّ كتفيه ودفع برجله الحقيبة جانباً.

- «رائع. إنك متعقل» ابتسم (تورنتن) بتعالٍ.

- «أنا أعرف حدودي» تحدى (كريس) النظرات الحديدية لـ (تورنتن)، مسح رقبته ثم تابع قائلاً «ولكن كروموسوم Y حصراً؟ من أين أتى؟ لماذا لا نحمله جميعاً في أجسادنا؟ لماذا، انقرضت؟»

- «من أين أتى؟ غير معروف تماماً. ولكنه الآن موجود! لماذا لا أحمله أنا أو أنت في أجسامنا، لهذا إذاً يوجد حتى الآن تفسير بيولوجي مقبول لنقطة معينة. هل يهمك الأمر؟»

أومأ (كريس).

- «توجد المعلومات في الحمض النووي. على كروموسوم Y خاص» ضحك (تورنتن) باستهزاء «فإن قام الرجل بإنجاب ابنة بكروموسوم Y الإضافي، فإنها تحمل عادة كروموسوماً XX. وبهذا إن توريث الكروموسوم

Y يختفي حتى من الجيل الأول. ولو فرضنا أن المولود كان ولداً، فهو يرث غالباً الكروموسوم Y الثاني. فإن أنجب هذا الولد بدوره بنتاً، فإن السلسة تنقطع هنا. وإن بقي بلا أولاد، فإن السلسلة تنقطع أيضاً. فقط عند إنجابه ولداً، فربما يرث الكروموسومY الأول وربما الثاني أيضاً.

لنفترض الآن، أن مجموعة صغيرة من سلالة الرجال كانوا يحملون من البداية كروموسومين Y -لسبب أو لآخر- فإن بنية هذا النوع الخاص من الحمض النووي ستختفي من الحياة بسرعة كبيرة».

نظر (كريس) إلى رئيس مجلس الإدارة بريبة.

- «(تسرنت هاين)، هذا علم الوراثة! كما توجد أيضاً نظرية أخرى، ويمكن استخدامها هنا: تتكون الخلايا من النواة والسيتوبلازما. ويحتوي الحمض النووي في نواة الخلية على كافة المعلومات الوراثية التي تعطي كلاً منا صفاته الفردية. السيتوبلازما تحتوي بدورها على الميتوكوندريا، التي تحتوي على حمض نووي خاص بها. هذه الميتوكوندريا هي مولدات الطاقة في الخلية. وهي تحافظ في كل ثانية على عمل الخلية. إنها الصانع! دون أداء الميتوكوندريا فإن المعلومات الموجودة في الحمض النووي لنواة الخلية، ستكون عبارة عن صيغة على ورقة داخل درج، موجودة ولكن دون فائدة.

ولكن طبيعة مولدات الطاقة في الخلية، أنثوية حصراً. فكل إنسان يحصل على مورثات الأم. هل تفهم؟ ولهذا، إن هذه المعلومات على كروموسوم Y في الحمض النووي لنواة الخلية، لن تستخدم. فالميتوكوندريا لديها حمضها النووي الخاص بها. يبدو الأمر كأن الصيغة وضعت في الدرج الخطأ، الذي يتم فتحه منذ دهر».

هزّ (كريس) رأسه بارتباك، نظر إلى وجوه الحاضرين: «حتى أنتم لا يمكن أن تعتقدوا هذا، أليس كذلك؟»

- «الاعتقاد لا يندرج تحت الخيارات العلمية. أنا لا أعتقد. أنا أسمح

لنفسي فقط بالتعبير عن وجهة نظري حول نموذج إيضاحي، مرتبط أصلاً بحقائق علمية معروفة. فالكثير من الاكتشافات العظيمة انطلقت على أسس تخمينية».

- «أين الخطاف، الذي سيفتح الإمكانية المبهمة على الأقل، بأن الأمر هكذا؟ أين الحيوانات الثدية... البشر، الذين يمكنهم بأي طريقة أن يدعموا ما تقولونه من نظريات؟»

- «بشر؟ فقط الرجال يا (تسرنت هاين)، لا نساء» ضحك (تورنتن) باستمتاع.

- « ماذا تعني؟»

- «بالرغم من أنني عالم، إلا أنه علي في مثل هذا المقام الإشارة إلى الكتاب المقدس».

نظر (تورنتن) ساخراً إلى الوجوه المتفاجئة للمحيطين به.

هزّ (آندرو فولسوم) رأسه بإشارة إلى عدم فهمه، بينما فتحت (زوي بورسل) عينيها غير مصدقة.

- «اهدئي يا (زوي)، فأنا لم أتحول». نهض (تورنتن) مكانه وسار بضع خطوات ثم استدار نحو الحضور.

- «ولكن في هذه الحالة، إن الكتاب المقدس هو شاهد مرحب به. فقد كُتب هناك: ((بلغ إبراهيم 175 عاماً، ومات آدم عن عمر يناهز 930 سنة، متوشالح وصل 969 عام. ومات نوح في عمر 950 سنة))».

الكتاب الخامس

الصليب

«البابوية تعني الصليب، وهو الأكبر على الإطلاق»

الكاردينال ريجنالد بول

الفصل الثامن والثلاثون

(سان بينوا سور لوار)

مساء الثلاثاء

صلّب البابا (بندكت) بيده على وجهه، ثم استجمع أفكاره للمرة الأخيرة.

كان ممتناً للقوانين الحازمة للجمعية البندكتية التابعة لـ (سان بينوا سور لوار)، التي أعادت بناء نفسها منذ عام 1944، بعد أن تمّ تدمير حياة الرهبنة أثناء الثورة الفرنسية في هذا المكان المأموم من قبل الحجاج.

ولكن، كما العادة لم يسمح المؤمنون لأحد بإخافتهم، في الموضع الذي يُخدم به الرب، وفي المكان الذي وجدت به رفاة القديس (بندكت) راحتها الأخيرة.

كان البناء الحديث لدير الجمعية البندكتية يقع جنوب الكاتدرائية ويمثل منطقة محظورة على الغرباء. إلا أن رئيس الدير عرض على ضيف البابا الدخول باعتباره حالة خاصة، إلا أن البابا اختار خلية بالقرب من بوابة الدخول، بعيدة بما يكفي عن نواة الحياة الرهبانية التقية.

أمضى البابا الوقت من بعد ظهر ذلك اليوم في السرداب متشككاً ومصلياً أمام الشبك المعدني للضريح، بينما كان يسأل نفسه إن كان عليه استقبال ذلك الضيف أساساً.

أدخل (كالفن) رأسه من شق الباب متسائلاً. أومأ له البابا فتنحى جانباً، دخل (مارفن) إلى الخلية، جثم على ركبتيه وقبّل خاتم البابا.

- «أنت والبريتوريانيين خاصتك، تضعون الكنيسة في مأزق كبير».

هكذا بدأ قداسة البابا كلامه، بعد أن جلسا على كرسيين بسيطين «بعد كل ما استمعت إليه هذا اليوم، أنت متهم بارتكاب أخطاء جسيمة».

انزلق (مارفن) من على الكرسي ووقع على ركبتيه وأخفض رأسه بتذلل.

- «قداسة البابا، البريتوريانيين وأنا موالون بإيماننا للكنيسة لأبعد الحدود. لا أحد، لا أحد على الإطلاق يمكنه إثبات أنه من الممكن أن نخون عقيدتنا. يجب أن يكتسب البريتوريانيين المصداقية».

نسج (مارفن) قصة حول الغرور، الأنانية، العقائد الباطلة والخيانة «لو أن قداستكم يذكر، فأنا من قام بإدراك خطورة تلك الصحف الوثنية وهرعت إلى (روما)، عندما كنتم لا تزالون في منصب رئيس مجمع العقيدة والإيمان. أعترف أنه كان من الخطأ التعبير عن رغبة البريتوريانيين بالحصول على صفة المطرانية الشخصية في هذا الوقت. لو أننا أدركنا أن الظروف غير مواتية، لكان...»

زاد (مارفن) من خفض رأسه وتحدث بصوت منخفض: «ربما كان الأخ (هيرونيموس) قد فهم آنذاك بعض الأمور بشكل خاطئ...»

- «لا أصدق هذا» أجاب البابا.

- «ربما، ولكن لا شيء يمكنه أن يعوض الحديث بشكل مباشر، ولهذا فأنا ممتن الآن إلى الرب بأن ذلك قد حدث أخيراً».

صمت البابا (بندكت) وحدّق بالشعر الأسود للرجل الراكع أمامه. فجأة رفع (مارفن) رأسه إلى أعلى.

- «قداسة البابا، البريتوريانيين بحاجة لمساعدتك، نحن نضع أنفسنا تحت حمايتك، حتى لا نتمزق، نحن المؤمنين تحت وطأة الهيمنة الدنيوية،

نحن الذين نضع حماية الكتاب المقدس وكلمة الله نصب أعيننا . لا يمكن أن يدمر الكذب مصداقية الكتاب المقدس».

- «أنت تعرف الصدق والكذب؟»

- «لقد رأيت الألواح بأم عيني وأمسكتها برعب بين يدي. تفوح منها رائحة الشيطان. كل كلمة عبارة عن هرطقة، عار على كتابنا المقدس. إنه قرار صحيح أن تقوم قداستك بإخفائها إلى الأبد».

- «من يقول ذلك؟»

لمعت عينا (مارفن). وقف وجلس مجدداً على الكرسي. «لقد تحدثت إلى السارق والقاتل الإيطالي. لقد قرأت نصوص الألواح الإثنى عشر. وأنا أعلم: أن اللوح الثالث عشر مفقود، وهو لدى قداستكم».

استمتع (مارفن) بالصمت الذي تلا عباراته، فقد كان يعلم أنه أصاب البابا في مقتل.

أبقى البابا (بندكت) أصابع يديه متشابكة على حجره، وانتظر.

- «وأنا أعرف المزيد» ابتسم (مارفن) برضاً . فالبابا لم يطرده خارجاً بعد «أراد اللص والقاتل الإيطالي أن يبيعكم تلك الألواح».

- «إنك تتمادى يا (هنري مارفن)».

أخفض (مارفن) رأسه بتذلل، إلا أن صوته كان واضحاً وحاداً: «قداستكم بارع في التخطيط الاستراتيجي والتكتيكي مع إبقاء النظر إلى ما يمكن فعله. رجائي بوضعي أنا والبريتوريانيين تحت حمايتكم يعتبر طلب بسيط أمام ما يمكنني تقديمه».

وقف البابا (بندكت) واستدار نحو الباب: «أعتقد أنه ليس بإمكاني مساعدتك. (مارفن) أنت تاجر. تاجر بلا بضاعة!».

- «قداسة البابا، لا تذهب الآن، مهمتكم...»

استدار البابا بتردد .

- «مـاذا تعـرف يـا (هنـري مـارفن) عـن مهمـتي؟» شـعر البابـا بالاستسلام أمام امتحان لم يشأ خوضه. لقد اختفت القطع الأثرية، ولا أحد يعلم أين هي. هل أوشكت مهمته أن تفشل؟ هل هذا هو اختبار الرب الحقيقي له؟

تذكر سلفه وكلماته الشاكية: ((**إن المأساة الكبرى هي صمت الرب، الذي لم يعد يتجلى، ويبدو كأنه اختفى في السماء لاستيائه من أفعال البشر**)).

- «لم يضع شيئاً بعد...» انتزع صوت (مارفن) الناعم البابا من أفكاره العاصفة: «الألواح... العظام...»

- «أي عظام؟»

- «قداستكم، أنا لم أطلع على نص اللوح الثالث عشر. ولكن له علاقة بالعظام، كما هو حال مهمتكم. وأنا أعرف أن الأمر فوق قدرات البشر».

حدق البابا بالناشر. ما الذي يعرفه (مارفن)؟

- «قداسة البابا: هذه العظام... لقد قام علماء باستخراج عينة منها!».

خلال ثوانٍ، أصبح وجه البابا شاحباً تماماً، واستمتع (مارفن) بلعب ورقته الرابحة.

- «قريباً لن نستطيع كبح جماحهم».

رفع البابا رأسه بإرهاق.

- «أنا أطلب حمايتك لي وللبريتوريانيين. والمكانة الدينية كأخوية. والوعد بأنني سأكون معكم...»

- «لماذا علي أن أفعل كل ذلك؟» قاطعه البابا.

- «لم يفت الأوان بعد، فأنا أعرف أين أجد عمل الشيطان ذاك. وأنتم لا تستطيعون».

الفصل التاسع والثلاثون

(صوفيا أنتي بوليس) بالقرب من مدينة (كان)

مساء الثلاثاء

- «خذ شيئاً من البوفيه. يبدو عليك الجوع» وقف (هانك تورنتن) وملأ طبقه بالسلطة والأسماك.

- «كما أنك تحتاج إلى أخذ حمام» ابتسمت (زوي بورسل) بخبث «أين أمضيت الليالي الماضية؟»

استدار (كريس) إلى (ياسمين)، التي كانت ترمقه بنظرات تملؤها الأسئلة التي تنتظر إجاباتها.

لماذا أتيت متأخراً؟ لماذا تخليت عني، لماذا لم تأت عندما كنت بحاجتك؟ لقد تواعدنا على اللقاء! لم تقم حتى باتصال هاتفي...

خفض (كريس) رأسه. كانت نظرات (ياسمين) تشير بوضوح أن إجاباته على أسئلتها ستقرر الكثير من الأمور. إلا أنه لم يكن يستطيع توضيح الأمر لها هنا. ليس هنا وليس الآن.

ثقي بي، توسلها بنظراته. أرجوك!.

تلألأت الدموع في عيني (ياسمين). وأصبحت نظراتها التي بدت منذ قليل حادة، أكثر رقة.

- «ربما لن تصدقوني، ولكن مهمات عملي الخاصة بالنقل تكون

أحياناً عنيدة قليلاً» قال (كريس) بصوت مرتفع باتجاه (زوي بورسل)، ثم انتظر حتى استدارت نحوه «لقد قمت في الأيام الماضية بمرافقة أحدهم في رحلة طويلة داخل الكهوف لنقل معدات».

- «يا لك من كادح... وأين؟»

- «في (فونتينبلو). هل تعرفين منطقة الغابات تلك التي تقع بالقرب من (باريس)؟ هناك تشكيلات رائعة من الحجر الرملي، إنها جنة حقيقية لهواة التسلق. ولكن في هذه الحالة كانت رحلة عبر الكهوف. وعندما خرجنا، استمعت إلى مسجل الاتصالات الواردة، وتوجهت من فوري إلى هنا».

- «آه، الاتصال» أومأت (بورسل) بتأمل «لم تبح لنا الآنسة (برسون) بعد بما قد قالته لك في ذلك الاتصال. وأنت ما تزال تتجنب ذكر ذلك. ألا تريد إطلاعنا عليه؟»

- «قالت أنها تحت الإقامة الجبرية، كما الحال مع شقيقتها أيضاً».

- «وما حاجتنا لمثل ذلك؟»

- «لأنكم تنوون تجريب مفعول الكروموسوم على (ماتياس)!» صاحت (ياسمين) وقد قفزت واقفة من كرسيها. «أنا أعتبر ذلك عملاً غير مسؤول. فما زال الوقت مبكراً جداً...»

- «مبكراً!» ضحك (هانك تورنتن) بصوت عالٍ «ليس لدى (ماتياس) أي فرصة أخرى. أو بالأصح: في الواقع إن هذه فرصة لا توجد أصلاً! وأنت تقفين هنا وتناقشين أن الوقت ما يزال مبكراً! لو لم يكن (ماتياس) فسيكون شخص آخر من سيتعلق بهذه القشة الأخيرة، التي نمدها له. ما رأيك؟»

نظر (تورنتن) إلى (كريس) وتابع أكل السلطة باسترخاء.

- «من المؤكد أنكم بحاجة لموافقة المريض أولاً» قال (كريس) بعجز.

- «في حالة (ماتياس) فإننا بحاجة إلى موافقة الأم، لأنها هي المسؤولة عنه». قال (تورنتن) وأومأ بحماس «لكنها مترددة للأسف».

- «يمكنني فهم أسباب قلقها» تمتم (كريس). شعر بشد في بطنه، شعور غير مريح من التنميل والضيق. الارتباك سوف يلتهم أي شخص عندما يكون في حالة من التخبط بين الأمل والخوف، فالوقت يتسرب والساعة الحاسمة تقترب بسرعة. لم يشأ أن يكون في مثل هذا الموقف وأن يقرر أمراً كهذا.

- «يجب أن تعلم أن (ماتياس) موجود هنا لأنه ينتظر دوره في خوض تجربة للعلاج الجيني. بمحض إرادتهم! للأسف يوجد مصاعب. ولكن لدينا الآن ما هو أفضل!».

دفع (تورنتن) طبقه بعصبية فجأة.

- «سيكون صديقك قريباً هنا ومعه الدليل الحي. عندها تستطيع مساعدتي في إقناع السيدتين. لماذا تأخروا؟ أيها الشاب اذهب وانظر ما الأمر».

أومأ (تورنتن) إلى (سباروف)، الذي كان يقف طوال الوقت بذراعين متشابكين عند الباب، والآن غادر القاعة.

في اللحظة نفسها رن هاتف (سولفان) فالتفتت كل الوجوه إليه.

- «في الأسفل بالقرب من بوابة الدخول ألقت الدورية القبض على راهب كان بانتظار (جاك دوفور)».

- «(دوفور)؟ هل هو هنا؟ لقد قام بالاعتذار عن الحضور. أراد أن...» نظر (فولسوم) بنظرات مرتابة إلى (سولفان)، الذي رفع كتفيه باستغراب.

- «راهب؟» تنهد (تورنتن) «وما علاقة أحد علمائي بذلك الراهب؟»

- «ما اسم الراهب؟» سأل (آندرو فولسوم) فجأة.

- «الأخ (هيرونيموس)». أجاب (سولفان)، بعد أن كرر السؤال على المتصل.

وفي غضون ثوانٍ أصبح وجه (فولسوم) شاحباً.



(سان بينوا سور لوار)

قام رينيه تروتغنون باستخدام الغرفة الأولى المجاورة لباب دير البندكتيين كمخفر مؤقت. لم يسمحوا له بالدخول أكثر. تمدد (تروتغنون) على المنصة وحدق في السقف المغسول. كان هو ورجاله يشكلون الطوق الأمني الخارجي لحماية البابا. لقد كان الحرس الخاص للبابا برفقته في الداخل، وبهذا فإن فريقه كان أشبه بورقة التين الفرنسية.

قُرع الباب.

رفع (تروتغنون) يده اليمنى، وهكذا أعطى (كلود دوريك) الإشارة لفتح الباب. كان (دوريك) مساعده، وقد أخبره بما حدث في الصباح عند غيابه في (فونتينبلو).

دخل (إلغيدو كالفي) إلى الحجرة ذات الأثاث المبعثر.

- «هل بإمكاننا التحدث بمفردنا؟»

نهض (تروتغنون) جالساً وأومأ لـ (دوريك) الذي غادر الغرفة بصمت.

- «أنا بحاجة لمساعدتك» تمتم (كالفي) واتكأ بكتفيه على الباب.

- «الأمر له علاقة بالرجل الذي لجأ إلينا من (فونتينبلو)».

انكمش وجه (تروتغنون). فقد تم استغفالهم وكأنهم مبتدئون سذج. فهو لا يعرف حتى الآن كيف يمكن له توضيح ما حدث في تقريره.

- «أنت الضيف. ما علي فعله؟»

- «نحن بحاجة إلى مروحية».

عدّل (تروتغنون) من جلسته بتوتر.

- «يوجد حديقة علمية عالمية بالقرب من مدينة (كان). تدعى (صوفيا أنتي بولس). أتعرفها؟» سأل (كالفي).

هز (تروتغنون) رأسه نافياً.

- «يوجد هناك مركز أبحاث لشركة تسمى (تيسابي). علينا التوجه إلى هناك في أسرع وقت ممكن. فهناك يدور أمر يؤذي الكنيسة. ومن المستحسن أن يقوم الدرك بزيارة ذلك المركز وتفتيشه، إلى أن نصل. إنه شأن داخلي للدولة».

- «أفهم» أجاب (تروتغنون) «حتى وإن كان على أرض فرنسية».

- «قداسة البابا هو من طلب ذلك» تمتم (كالفي).

هز (تروتغنون) كتفيه «سأقوم بإعلام رئيسي. وما عساي أن أقول إن أراد معرفة المزيد؟»

- «عليه توجيه الأسئلة لرئيس الجمهورية، إن كان بالإمكان تلبية طلب الضيف» ابتسم (كالفي) ابتسامة مائلة.

- «لن يُطلب الإذن بذلك».

- «تماماً».



(صوفيا أنتي بولس)

- «ماذا تفعل هنا؟»

تجول (دوفور) في المكان.

وقف (ند بيكر) و(واين سندر) أمام باب المختبر.

- «أنا أعمل!».

- «الآن؟ بمفردك!». تقدم (ند بيكر) خطوتان إلى الأمام «التعليمات تقول، أنه لا يحق لأحد الوجود بمفرده في هذا المختبر».

- «لقد طرأت على بالي فكرة...»

- «وما هي تلك الفكرة؟»

لاحظ (ند بيكر) الحقيبة على الطاولة، فتوجه إليها وفتحها. في أرضية الحقيبة كانت الأطباق التي تحتوي على مزارع الخلايا المُحضرة من الحاضنة موضوعة بطريقة غير مرتبة مع أنابيب المختبر التي كانت في الثلاجة. بينما كانت العينات المجمدة قد ذابت. وكانت الأنابيب المخبرية مكسورة وقد اندلع منها السائل الوردي اللون منساباً بين عقد العينات والزجاج المكسور.

همس (ند بيكر): «أيها الوغد! ماذا تفعل هنا؟» قال بصوت مبحوح لشدة الغضب.

- «ماذا حدث؟» صاح (واين سندر).

- «لقد دمر كل شيء! لقد قام برمي العينات المجمدة ومزارع الخلايا في الحقيبة. إنه يحطم كل شيء!».

اندفع (واين سندر) ببضع قفزات ماراً أمام (ند بيكر) باتجاه (دوفور). كان الحنق قد غير لون وجهه «أيها الوغد! إنك لا ترى أني أستحق ذلك النجاح، أليس كذلك؟» لكم (سندر) أنف (دوفور) بقوة. صاح (دوفور)

من الألم وانقلب جانباً من على الكرسي. كانت أصابعه تضغط على الزر بشكل تلقائي.

- «اللعنة، إنه يقوم بمسح البيانات!» صاح (سندر). على الشاشة ظهرت كلمة «إلغاء» بخط كبير ولون أحمر فاقع.

سدد (سندر) ضربة جديدة فأصاب (دوفور) في جمجمته، بينما جعله الألم في قبضته يتراجع إلى الخلف. نهض (دوفور) وهجم على جسد (سندر) ضارباً إياه بكتفه.

- «لن تتمكنوا من إيقافي!» صاح (دوفور) ودفع بيديه صدر (سندر) بقوة غير متوقعة. تعثر (سندر) إلى الخلف.

جدف بيديه، فقد توازنه ثم هوى إلى الخلف. تعثر جانباً أثناء سقوطه. وارتطمت رقبة (سندر) بكل قوة على الحافة الحادة لطاولة المختبر. صوت الطقطقة القصير الصادر عن كسر الرقبة اجتاح جسد (دوفور).

- «هذا... لم أرد فعل هذا!» صاح بهستيريا وحدق في جسد (واين سندر)، الذي حلق في الهواء لأقل من جزء من الثانية وكأنه دمية متيبسة. ثم هوى بعدها مرتطماً ببلاط الأرض.

- «خائن!»

قفز (ند بيكر) باتجاه (دوفور) وأحكم قبضته على الجسد النحيل للفرنسي. سقطا على الأرض معاً وبدءا بالتدحرج على البلاط. أصبح (دوفور) فجأة ممدداً بالقرب من جسد (سندر) الفاقد للحياة، بينما أصبح خده الأيمن بالقرب من فم الرجل الميت.

ضغط (بيكر) يده بقوة على الجانب الأيسر من وجه (دوفور). أحس (دوفور) بشفاه (سندر) التي ما زالت دافئة على خده. وكأنها قبلة سريعة، فكر (دوفور) بفزع، حين شعر ببقايا اللعاب على جلده.

جعل يركل برجليه ويلطم بيديه بشكل قوي وعشوائي حتى أصاب أنف (ند بيكر)، الذي ارتخت قبضته. دفع (دوفور) بـ (بيكر جانباً)، الذي تدحرج إلى الخلف.

نهضا واقفين في الوقت نفسه.

- «ستدفع ثمن ذلك!».

- «لقد كان حادثاً!» صاح (دوفور).

نظر (بيكر) حوله ثم تراجع إلى الخلف حتى وصل إلى طاولة العمل الموجودة في الناحية الأخرى من المختبر، وأحس بطرفها يلامس مؤخرة ظهره. سحب الأدراج واحداً تلو الآخر حتى وجد مشارط وسكاكين في أحدها .

- «سأقوم بتشريحك!» صاح، رافعاً المشرط بقبضته المعلقة. توقف (بيكر)، رفع يديه إلى الأعلى وضرب بقبضتيه على رأسه. برز المشرط لامعاً في قبضته «لا أستطيع تصديق ذلك! لا أقدر على فهم ذلك!».

- «لقد كان حادثاً» صاح (دوفور) مجدداً.

- «حادث؟»

- «لقد تعثر، رأيتم ذلك بأعينكم!»

أطلقت عينا (ند بيكر) شرارة، ثم نظر إلى جثمان (واين سندر).

- «أنا لا أتحدث عن هذا أصلاً! أنا أعني العينات!» تنفس (بيكر) بسرعة «إنك تقوم هنا بتدمير الاكتشاف الأعظم للبشرية!»

على الطاولة التي كُسر عليها عنق (سندر)، رأى (دوفور) مجموعة من أنابيب وقوارير الاختبار. بسرعة أمسك (دوفور) بالقارورة الأكبر.

قفز (ند بيكر) بأيدٍ مرفوعة ضارباً المشرط إلى أسفل. رفع (دوفور) ذراعه المثنية مدافعاً إلى أعلى.

شطب المشرط ذراعه ومزق ثيابه. شعر بألم حارق. فقد قطعت الشفرة الحادة الأعصاب الممتدة تحت جلده.

صرخ مسدداً ضربة. ارتطمت الأرضية السميكة لقارورة المختبر بصدغ (بيكر)، بينما أصاب ذقنه بطن (دوفور).

ترك (دوفور) القارورة تسقط على الأرض وأمسك بساعد (بيكر) الأيمن. أثناء ذلك انحنى وهوى على ركبتيه جاراً معه (بيكر) المترنح إلى أسفل، الذي كان يقاوم فقدان الوعي بعد تلقيه تلك الضربة القوية بالقارورة على صدغه.

جثما وجوهاً مشوهة أمام بعضهما البعض، أمسك (دوفور) بكلتا يديه معصم اليد اليمنى لـ (بيكر). تراقصت شفرة المشرط أمام عيني (دوفور). أنزل اليد ضاغطاً عليها بكل قوته، وتعجب لمدى سهولة إنزالها.

كانت أنفاس (بيكر) تلهث دون انتظام. بدت عيناه زجاجيتان. زاد (دوفور) من الضغط على يد (بيكر) حتى لامس المشرط الأرض.

ازداد الحجاب أمام عيني (بيكر) سمكاً. وفجأة استسلم تماماً. وابتلع الإغماء الذي أصاب دماغه أي إشارة عصبية. تلاشت قواه.

حدق (دوفور) بعيني (بيكر) المقلوبة وتابع الضغط إلى أسفل بكل قوته. توقف! كلا. إما هو أو أنت! سيطر الخوف من الهزيمة على كافة عواطفه، وأعطت غريزة الحياة لـ (دوفور) الدفعة اللازمة من القوة.

انحنت يد (بيكر) إلى الداخل ومزق رأس المشرط ثيابه مخترقاً بطنه وممزقاً شريان الأورطة ثم تعلق بجدار البطن.

سقط (بيكر) على ركبتيه مغمىً عليه ثم انقلب جسده جانباً. وانتقل من الإغماء إلى الموت.



حدق (تورنتن) بالراهب بنظرات قاتمة. عادة لا يقترب كاهن حتى لمسافة خمسة أمتار من علمائي. فما بالك مني. ماذا تريد هنا؟»

ابتسم (هورينيموس) بتفكير.

- «لايبدو أنك رجل مؤمن!»

- «أنا أؤمن بالعلم، وليس بالاستعراضات البهلوانية التي تقوم بها أنت وأمثالك منذ ألفي عام، ماذا تريد هنا؟»

- «إنك لم تبلغ حتى الدرجة الأولى من التواضع. هل تعلم ما يقوله القديس (بندكت) لك أيضاً؟ ((المرء يحرص دائماً على تقوى الله ويتوخى أن لا ينسى الله أبداً))». نظر (هيرونيموس) إلى الأرض، ثم رفع رأسه بحركة مفعمة بالحيوية «منذ أيام عرض علي أحدهم في هذا المكان شيكاً لترميم أحد بيوت الله»

اقترب (هيرومنيموس) من (فولسوم) وأمسك بذراعه.

- «هذا الرجل أراد شراء روحه، أراد تقديم رشوة لي ولله. هو كذلك لا يعرف التواضع. لا أمام الله ولا أمام الحياة. أراد التخلص من ذنبه».

- «هراء» أشاح (تورنتن) بيده «ماذا تريد من (جاك دوفور)؟»

- «لقد فُرض على (جاك) اختبار صعب. لقد اختاره الرب ليحقق إرادته ويضع حداً للتجارب المخزية».

- «إنك تتحدث بالألغاز» ضحك (تورنتن) «فقد قمنا بإيقاف جميع الاختبارات بعد الحادث، إلى حين معرفة الأسباب. وبهذا لا يتوجب على (دوفور) الطيب أن يجتاز أي (اختبار) صعب».

- «عن ماذا يتحدث؟» نظر (تورنتن) إلى (فولسوم).

انكمش وجه (فولسوم)، تردد، قبل أن يجيب بشفاه مزمومة «عن سلسة تجارب التيلوميرات، التي توفي ذلك (الفلفورت) أثناءها. وهذا هو

القس الذي كان قد استدعاه (دوفور)، ليستمع لاعتراف (غلفورت)، حدث ذلك دون علمي!» أردف قائلاً عندما تنهد (تورنتن) بعصبية.

لمعت عينا الراهب.

صمتت (ياسمين)، ولم تبدِ أي حركة تجعلهم يشعرون أنها تعرف تلك التفاصيل، حين كانت تسترق السمع.

تابع (كريس) كل تلك النقاشات الحادة وفكر لدقيقة، قبل أن يجد الكلمة الملائمة لتعابير وجه الراهب: انتصار.

- «لا أعتقد أنه يتحدث عن ذلك» صاح (تورنتن).

- «يمكن بعد ذلك أن يكون فقط...»

قطع (تورنتن) كلامه حين رن جرس هاتف (سولفان) مجدداً. رد مدير الأمن على المكالمة. وبلمح البصر شحب لون وجهه.

- «بسرعة... إلى المختبر... كان هذا (سباروف)... (دوفور)... إنه يدمر كل شيء... العينة! حدثت مجزرة!»



هرع (كريس) مع الجمع. وبقي قريباً من (ياسمين)، التي أمسكت بيده وعادت تحدق إليه بنظرات مضطربة.

في المختبر كانت جثامين كل من (ند بيكر) و(واين سندر) ملقاة على الأرض، التي انتشرت عليها قطع لامعة من الزجاج المكسر. وقف (سباروف) في الغرفة رافعاً سلاحه باتجاه (دوفور)، الذي كان يقف أمام الثلاجة مرتعداً بينما يمسك بيديه أطباقاً بلاستيكية.

وبسرعة أدرك (تورنتن) ما قد حدث، وصاح بصوت عالٍ.

تساقطت شتائمه البذيئة على رأسي (سباروف) و(دوفور) وكأنها عاصفة من البَرد. ومع ثورة غضبه اندمج صوت (زوي بورسل) ذو النبرة السامة.

- «ما الذي يحمله الرجل في يده؟ ومن هو أصلاً؟» همس (كريس) بأذن (ياسمين)، التي كانت تقف مذهولة واضعة يدها أمام فمها. بينما وقف (هيرونيموس) إلى جانبها مبتسماً.

- «هذا الدكتور (دوفور). لقد قاموا بقتل أحد الفئران ليجروا أبحاثاً حول مفعول الكروموسوم. وتلك هي عينات من أنسجة الفأر».

أومأ (كريس) وحدق في (دوفور) ثم في (هيرونيموس).

- «وما علاقة الرجلين ببعضيهما؟»

- «لا أعلم».

ضرب (تورنتن) المستمر بالصراخ قبضة يده على طاولة المختبر وداس بغضب على كل تلك الفوضى. ثم وقف رئيس مجلس الإدارة أمام (دوفور) ممسكاً بالمشرط بيده. كان وجه (تورنتن) مليئاً بالتجاعيد والبقع.

وقف العالم بتحدٍ وصلابة، مستسلماً لقدره. رقص المشرط تحت ذقنه.

- «كم أتمنى أن أقطع عنقك...» ارتعد صوت رئيس مجلس الإدارة بقتامة، وارتعد ساعده بقوة.

وعلى حين غرة تجول المشرط إلى أعلى، لامس جلد (دوفور) ثم انسحب بسرعة وكأنها لدغة أفعى. اتسعت عينا (تورنتن)، ورأى (كريس) الساعد المنقض إلى أعلى.

«((**كان مطيعاً حتى الموت**))، آمين» رعد صوت (هيرونيموس) في أرجاء المكان.

تصلب ظهر (تورنتن)، ثم أنزل ساعده فجأة إلى أسفل. ترك (تورنتن) المشرط يسقط.

- «والآن هذه هي النتيجة! كل ذلك الهراء!» انقلب صوت (زوي بورسل) «هذا الوغد قام بتدمير كل شيء! هل ستقبل هذا يا (هانك)؟ أنا لن أقبل».

تقدمت (زوي بورسل) نحو (دوفور) بعزم وركلته بين ساقيه بقوة. صاح (دوفور) متألماً وترك الأطباق تسقط على الأرض. انحنى لشدة الألم، وجثم على ركبتيه، بينما أمسك الجزء الأسفل من بطنه بكلتا يديه.

استدارت المديرة المالية بغضب نحو (تورنتن) وجذبته من ذراعه، إلا أن رئيس مجلس الإدارة دفعها بعيداً عنه.

- «أغلقي فمك يا (زوي)!» نظر (تورنتن) برزانة إلى (سولفان) «حضر كل ما يلزم للسفر. الجميع!»

نظر (سولفان) إلى (سباروف) قبل أن تتحول عيناه إلى (كريس).

حوّل (سباروف) فوهة سلاحه من (دوفور) باتجاه (كريس).

- «أغبياء! إنكم حمقى ضيقي الأفق! خذوا الشاب...». استدارت (زوي بورسل) بحنق إلى (تورنتن).

- «(هانك) أعطني المصل الذي بحوزتك! أعطني إياه! سأقوم بحقن الطفل بها بنفسي! والآن حالاً!».

الفصل الأربعون

(صوفيا أنتي بولس)

الثلاثاء ليلاً

عبر (كريس) بوابة الدخول خارجاً إلى مدخل السيارات، حيث وقفت سيارتي إسعاف. وكانت سيارتا ليموزين من ماركة (ستروين) تشكلان رأس الحربة للقافلة.

كان الشفق يتسلل، بينما بدأت ألوان النهار المضيئة تندمج شيئاً فشيئاً مع لون الشمس المائلة إلى المغيب. كان المرآب يقع في الناحية الخلفية للمبنى، وقد أنيرت أضواء الطريق.

كان الجو لطيفاً، وملائماً للجلوس على الشاطئ وتناول كأسين من النبيذ الأحمر. وبدلاً من ذلك، كان (سباروف) يضغط فوهة سلاحه على ظهر (كريس) ويدفعه للتقدم إلى الأمام.

وقف بعض رجال (سولفان) أمام سيارة المرسيدس التي تم إدارة محركاتها. جذبت أضواء السيارات الحشرات إليها، التي تراقصت باتجاه نهايتها الدافئة.

- «الكل مجتمعون! وأخيراً» لوّح (تورنتن) بيده عندما وصل (تورنتن) إلى مؤخرة الشاحنة الصغيرة الخلفية.

كان (تورنتن) مستعجلاً الرحيل. فقد كان يشم رائحة الخطر.

حتى أنه لم يسأل (كريس) عن معنى نصوص الألواح الطينية. كل ذلك يجب أن ينتظر.

تفحص (كريس) الحارس الشخصي إلى جوار (تورنتن).

- «حراس وقيد؟ هل لذلك من داعٍ؟ يكفي أن تفعلوا ذلك معي فقط» أشار إلى (ياسمين)، التي كانت قد جلست مع الراهب في السيارة وقد كبل معصميها كما هو الحال معه. وقد تقشر الجلد.

- «مجرد إجراءات احترازية» ضحك (تورنتن) بتعجرف. «ادخل! هيا تحرك، نريد الرحيل من هنا!» استدار (تورنتن) نحو (سولفان) «هل تم تجهيز طائرتنا الخاصة في (نيس)؟»

أومأ (سولفان) «كل شيء جاهز».

- «نظفوا المكان، لا ينبغي أن يجد أحد تلك الجثث هنا. هل هذا واضح؟ وفور انتهائكم عليكم أن تلحقوا بي فأنا أحتاج إليكم هناك».

- «ولا تنسوا الملفات الخاصة بـ (غلفورت)» قالت (زوي بورسل) «لا يجب أن يبقى شيء هنا ولا حتى ورقة واحدة».

تجاهلها (سولفان) ونظر إلى (تورنتن).

- «لقد تم ترتيب كل شيء هناك. في (كاليفورنيا) وكما هو الحال في (بوسطن). يمكنكم تقرير أي المخبرين ترغبون باستخدامه».

- «وتأكدوا أن الجميع هنا سيبقي فمه مغلقاً».

- «(هانك)، علينا التحرك الآن!» كانت (زوي بورسل) تدوس بعصبية بين قدم وأخرى.

- «لا تصدعي رأسي يا (زوي)» نهر (تورنتن) مجيرته المالية بنبرة مسمومة «هل قام (آندرو) بتحميل كل شيء؟ هيا يا (تسرنت هاين)، اصعد!».

- «لقد عاد (آندرو) لإحضار شيء ما من الداخل. وهو سيصعد في

السيارة الأمامية، ليحرس بنفسه الفئران والعينات والعظام» ابتسمت بخبث «كما فعل (كونان) بالخاتم!»

- «مشعوذة».

- «هانك! إنه يتسبب لنفسه بذلك».

- «هو العالم وليس أنت».

- «لماذا أنت على هذا القدر من النفور؟ (آندرو) ليس البطل، بل أنا. أنا من قبض على (سندر). (فولسوم) و(دوفور) فاشلين. وأنت تعلم ما أريد ...»

- «نعم، (زوي). تريدين أن تصبحي الرئيس التنفيذي. توقفي عن هذا».

دوى صوت عويل قصير في المكان.

- «اللعنة، ما هذا؟» توجه (تورنتن) بنظره إلى أمام الشاحنة الصغيرة.

سيارة للدرك صعدت على الطريق المرتفع باتجاههم، ثم توقفت إلى جانب القافلة.

- «هل يجب أن يحدث هذا الآن؟ لقد توقعت ذلك!» زمجرت (زوي بورسل).

للحظات لم يحدث شيء، بعدها فتحت أبواب السيارات ببطء، ببطء شديد. خرج درك بزيهم الأزرق الداكن، أجسام ضخمة، هادئة وبثقة المسيطر بشكل كامل، بقوا واقفين إلى جانب سيارتهم، بينما انسابت نظراتهم على القافلة.

- «تصرف يا (سولفان)» همس (تورنتن) «علينا الذهاب من هنا بأي طريقة».

في البداية بقي (سولفان) واقفاً مكانه، ثم أومأ للحارسين. اللذين، توجها فوراً باتجاه الدرك.

- «هل هي صدفة أم أنه تم استحضارهم ولكن من قبل من؟»

- «اخرس يا (تسرنت هاين)» عض (تورنتن) على شفته السفلى.

- «إن قمت بأي حركة حمقاء، فسينتهي أمرك».

رفع أحد رجال الشرطة يده بحركة وقائية. بقي (سولفان) والحراس واقفين.

بحذر بدأ الدركيان يتحركان خطوة تلو أخرى. كانا كأسدين يتسللان نحو قطيع الغزلان. على مسافة عشرة أمتار توجها بشكل موازٍ للسيارات، واضعان أيديهما على أسلحتهما المدسوسة داخل حزاميهما. حمل الشرطي الأمامي جهازه اللاسلكي وقربه من فمه.

على ارتفاع الشاحنة الصغيرة الثانية، لوحا باتجاهها فجأة.

- «قضي الأمر» ضحك (كريس).

- «إنهم اثنان فقط» تمتم (تورنتن) وحدق بتوتر في الشرطيين.

تراجع (كريس) خطوة إلى الخلف، ووقف الآن إلى جانب (سباروف).

- «إنهم يفعلون شيئاً ما!» ثم تراجع مجدداً خطوة إلى الخلف.

فجأة اخترق صوت صيحة قوية الهدوء الذي كان مخيماً على المكان.

كان ذلك الصوت المتصاعد يفوق كل درجات الصوت ولا ينتهي، بل يستمر.

- «هذه (آنا)!» صاحت (ياسمين) من داخل الشاحنة الصغيرة ورفعت رأسها بتنبه.

توقف الشرطيان مشهران سلاحيهما وركزا انتباههما على الشاحنة الصغيرة الأمامية.

تحرك (سولفان) وتوجه بهدوء نحو الشرطيين. رفع يده فتبعه رجاله.

- «اقتلوهما!» همست (زوي بورسل) إلى جانب (تورنتن).

اهتزت الشاحنة الصغيرة فجأة. وقفت (ياسمين) ورمت بنفسها

خارج السيارة. ارتطمت بـ (سباروف) الذي اهتز متفاجئاً ثم تعثر وسقط على الإسفلت.

وقعت (ياسمين) فوقه وتخبطت بقوة. حاول (سباروف) الإمساك بها إلا أنها تدحرجت جانباً.

انخفض (كريس) إلى الأسفل وضرب (سولفان) على صدره بيديه المكبلتين. خرجت أنفاس (سباروف) من فمه مطلقة صفارة. استدارت عيناه ثم هوى رأسه جانباً.

- «ماذا ...؟» استدارت (زوي بورسل) «هانك!»

تابع رئيس مجلس الإدارة بغضب، كيف أحاط رجال (سولفان) بالشرطيين.

انتزع (كريس) السلاح من يد (سولفان) النصف مفتوحة.

وقفت (ياسمين) على قدميها وركضت.

نهض (كريس) ودفع (زوي بورسل) جانباً. ثم وجه فوهة السلاح إلى الجزء الخلفي من رأس (تورنتن). تصلب جسد (تورنتن)، فور شعوره بضغط الفوهة.

- «من الآن ستسير الأمور حسب قواعدي» زاد (كريس) من الضغط «إلى الشاحنة الصغيرة الأمامية».

كان رجال (سولفان) قد أحكموا طوقهم حول الشرطيين. تطايرت الكلمات هنا وهناك. أعطى ذلك الجمود (كريس) المزيد من الوقت.

- «بسرعة! أسرع! أسرع!».

وصلوا إلى الجزء الخلفي من الشاحنة الصغيرة الأولى. في تلك الأثناء وصلت (ياسمين) إلى الداخل، وعانقت (آنا)، التي كانت لا تزال مستمرة بالصراخ. إلى الجانب الأيسر وضعت عربة مرضى تمدد عليها

جسد نحيل تحت الغطاء. جلس (جاك دوفور) على المقعد المقابل بجمود يحدق أمامه في الفراغ.

تحت عربة المرضى وضعت حقيبة دبلوماسية متوسطة الحجم تضم بداخلها العظام، المحلول، عينات الأنسجة والألواح الطينية. إلى جانبها يوجد قفص مخصص للسفر، بداخله كانت أربعة فئران تجثم بفزع.

ضرب (كريس) (تورنتن) على مؤخرة رأسه.

هوى رئيس مجلس الإدارة ببطء إلى الأرض، وركله (كريس) على ظهره، ليسقط (تورنتن) إلى الأمام ووجهه على أرضية صندوق الشاحنة الصغيرة الخلفي.

- «اجلسوا هنا!».

سحب (كريس) الجسد الساكن لـ (تورنتن) إلى داخل صندوق السيارة ثم أغلق بابي الصندوق بيديه المكبلتين.

- «أيها الوغد!»

هاجمته (زوي بورسل) من الخلف وغرست أظافرها في وجهه. ضغطت على الجلد ومزقته. شعر بحرقة في وجهه، كأن أحدهم صب الحمض على الجرح.

شعر (كريس) بأنفاسها الحارة على رقبته، ثم بجلد ناعم. غرست أسنانها في الجزء الخلفي من عنقه متعلقة به، كأنها مصاص الدماء. رفع يديه المكبلتين فوق رأسه إلى الخلف. أصاب كعب السلاح مؤخرة رأس (زوي)، فخفت قوة العضة. انزلقت على ظهره نحو الإسفلت. فتح (كريس) بابي القمرة الخلفية للشاحنة الصغيرة، وسحب (زوي بورسل) إلى داخلها، ورماها بسهولة على (تورنتن). كان المكان ضيقاً كأنه علبة سردين.

- «هنا!» أعطى السلاح إلى (ياسمين) «إن قاموا بأي حركة فعليك ببساطة أن تضربي مجدداً!» هزت رأسها.

انطلقت رصاصة، وتحرك (كريس). انقض رجال (سولفان) كالضباع على الشرطيين.

- «تنحَ من هنا!»

أغلق بابي القمرة وقفز إلى باب السائق. وقفت سيارات الليموزين أمام الشاحنة الصغيرة التي كانت في وضع التشغيل. على النوافذ الخلفية كان ملصق إعلاني كُتب عليه «مطعم كاكتوس للبيتزا» وكانت الكتابة فوق رسم لشجرة صبار يوشع الخضراء والنحيلة.

تردد قليلاً ثم أطلق النار على العجلة اليسرى الخلفية لسيارة الستروين. قبل أن يتسلق ليصعد إلى كرسي السائق الخاص بالشاحنة. ألقى بسلاحه على مقعد مرافق السائق، وضع السيارة في حالة الانطلاق، أمسك بعجلة القيادة السفلى، التي كان يحاول تلمسها مجدداً ليتأكد من قدرته على إدارتها بيديه المكبلتين. انحرفت الشاحنة وتدحرجت مارّة من جانب الليموزين. في المرآة الخلفية رأى (كريس) (سولفان) واقفاً بين حشد من الناس يجدف بساعديه غاضباً.



انحنى (كريس) حول (أنتي بولس). فارتطمت الشاحنة بالرصيف، لأنه لم يتمكن من إدارتها في الوقت المناسب بسبب يديه المكبلتين.

قاد السيارة إلى طريق صغير جانبي غير معبد، وتركها تتدحرج خلف أحد المنعطفات. ثم قفز خارجها وتوجه إلى القمرة الخلفية.

- «حلِ العقد! أسرعي!» قال لـ (ياسمين) عندما فتح أبواب الصندوق الخلفي.

كان كل من (بورسل) و(تورنتن) لا يزالان في حالة إغماء. بينما كان (ماتياس) ممدداً على حاملة المرضى إلى اليسار. كان جسده الضعيف مغطىً وقد ثُبت بعدد من الأحزمة.

الشبه بين (آنا) وشقيقتها (ياسمين) كان واضحاً. إلا أن وجهها كان مترهلاً، متعباً ومجعداً. تجاهلته وأبقت تركيزها على الصغير الذي لم تكف عن متابعته.

- «ستأتيان معي. إلى الأمام». قال (كريس) لـ (دوفور)، وكان صوته يحمل نبرة آمرة. خرج العالِم من الصندوق بعناء.

وأخيراً ارتخت الحبال المكبلة لمعصمي (كريس)، بعد أن تحرر قام بحل رباط عن معصمي (ياسمين) وقام بتكبيل يدي (زوي بورسل). قامت (ياسمين) في تلك الأثناء بحل وثاق (آنا) واستخدم (كريس) تلك الحبال بتقييد يدي (تورنتن) إلى الخلف.

- «هل بإمكاني أن أدعك وحدك مع هذا الشخص هنا في الخلف؟»

- «لقد فعلت هذا لتوك».

أعطاها السلاح.

- «في حال احتجتِ إليه».

- «لا أعرف كيف أستخدمه» هزت (ياسمين) رأسها «لا أريد هذا».

- «وماذا إن حاولوا إيذاءك».

- «لابد من وجود طريقة أخرى».

نظر (كريس) إلى (دوفور) «لديك فرصة. هل تساعدني؟»

أومأ (دوفور) بتردد.

حل (كريس) وثاق (دوفور) ودفعا معاً الجسدين الفاقدين للوعي إلى المقعد الخلفي في قمرة القيادة. استخدم حبل (دوفور) لربط ثمانية عقد حول رقبتي كل من (بورسل) و(تورنتن) وجعل (ياسمين) تمسك بنهاية الحبل.

- «ما عليك سوى شد الحبل، وسيخنقان، هذا سينهي أي محاولة للمقاومة».

❖ ❖ ❖

أراد (كريس) التوجه إلى مقعد السائق إلا أن (ياسمين) سحبته إلى الخلف.

- «الطفل مريض» أشارت (ياسمين) إلى (ماتياس)، الذي كان مغمض العينين وممدداً على حاملة المرضى، بينما كانت (آنا) تمسح على رأسه بكل حنان «ألقِ نظرة عليه».

- «وما تعتقدين أنه بإمكاني أن أفعل؟»

- «التوجه إلى أقرب مركز للشرطة أو أقرب مستشفى».

صمت (كريس)

- «أرى أنك تفكر بطريقة مختلفة تماماً. أليس كذلك؟»

- «(ياسمين)، الأمر هنا كبير. فلم أتمكن حتى الآن من إخبارك بما حدث في (فونتنبلو)...»

- «توجه إلى مركز الشرطة!»

- «(ياسمين)،هذا...»

- «إنك فقط تفكر بتلك الألواح الحقيرة!» صاحت فجأة. «وتحدق طوال الوقت في تلك الحقيبة التي تحمل العينات! أنت تهتم فقط بالمال. وتعتقد أنه ما زال بإمكانك تحقيق الربح المادي!»

- «(ياسمين)، الأمر لم يعد هكذا منذ زمن» تمتم (كريس).

- «ليس هكذا؟ أريد أن أقول لك شيئاً: عندما التقينا للمرة الأولى

لمعت فكرة في رأسي. إنك الشخص الصحيح، هذا ما قالته كل ذرة في جسدي... هل تفهم؟ وكانت هذه الفكرة تحاول الدفاع عن نفسها طوال الأيام الماضية، في كل مرة كان عقلي يحاول فيها التدخل. الذي يقول بأنك وتلك العظام الغبية، من قمتم بوضعنا في هذا المأزق!»

- «(ياسمين)، صدقي أو لاتصدقي. لدي مشاكل مالية،... نعم. أردت الحصول على المال،... نعم. إلا أنني شخص عنيد لا يحتمل أن يقوم أحدهم بالتعدي عليه. وكذلك عليك أو على (آنا) أو الصبي. أريد أن أعرف من وماذا يختبئ خلف ذلك. علي ببساطة أن أعرف! الشك الذي يجتاحني لا يدعني أرتاح!»

- «بالرغم من ذلك» هزت رأسها بقوة «الأولوية لـ (ماتياس). وإن أردت الاستمرار بلعب دور المجنون فسوف...»

- «لن يحدث شيء لـ (ماتياس)... فأنت الطبيب الذي يعتني بـ (ماتياس)» استدار (كريس) فجأة إلى (دوفور)، -الذي كان يقف منتظراً إلى جواره- قائلاً: «ما هو وضعه؟»

- «إنه مصاب بمرض عضال. تلف كبدي» أجاب (دوفور) بطريقة آلية.

- «هل يجب أن يدخل فوراً إلى المستشفى؟»

- «هذا هو الأفضل بالتأكيد».

- «وإن لم يحدث هذا، فهل سيموت؟»

- «إنه لن يموت في الساعات أو الأيام القادمة. كلا. ليس كذلك».

كانت عينا (ياسمين) تطلق شرراً حين نظرت إلى (كريس).

استدارت (آنا) نحو (ياسمين) وقالت جملة قصيرة فقط باللغة السويدية.

ترددت (ياسمين) ثم أومأت بألم. في الدقيقة التالية امتلأت عيناها بالدموع. لم تعرف (آنا) ذلك. أمسكت (ياسمين) بذراع (دوفور).

- «شقيقتي لا تفهم لماذا لا يمكن لـ (ماتياس) الخضوع إلى سلسلة التجارب. أخبرها بالسبب!»

نظر (دوفور) إلى (آنا) بقلق، ثم توجهت نظراته المشفقة إلى (ماتياس)، قبل أن يجيب.

- «سلسلة التجارب التي كان من المفترض أن يخضع لها (ماتياس) لن تفيده. فقد أدت إلى وفاة أحد المرضى ولا نزال نجهل السبب».



غادروا موقع (أنتيبولس) وتوجهوا إلى طريق السفر السريع نحو مدينة (كان).

جلست (آنا) و(ياسمين) في الصندوق الخلفي للشاحنة. غرقت (آنا) في صمت عميق منذ أن بدد (دوفور) أملها الأخير بشفاء (ماتياس) من خلال سلسلة التجارب.

- «ما علاقتك بالراهب؟ ذلك الـ (هيرونيموس)؟» سأل (كريس) العالم الذي كان يجلس إلى جواره على مقعد مرافق السائق ويرشده إلى الطريق.

صمت (دوفور) طويلاً «أعرفه منذ صغري، فقد كان كاهن الاعتراف الخاص بي» قال أخيراً.

- «لقد قال أن الرب اختارك لتحقيق إرادته. إنه اختبار صعب. هل كان تدمير العينات هو الاختبار؟»

صمت (دوفور) مجدداً، وأخيراً تنهد العالم بتوتر.

- «(هيرونيموس) هو من قال ذلك. نعم. كنت لديه، بعد أن فكرت تلك المرأة المتوحشة بتجريب مفعول الكروموسوم على الصبي».

- «هل أنت في حيرة من أمرك؟».

- «أنا عالم وطبيب ولست مغامراً. أنا أحترم الحياة».

- «أنت؟ لقد قمت بقتل رجلين!».

- «لقد كان حادثاً. كنت يائساً وحاولت الدفاع عن نفسي! لم أعد أعرف ما هو الصحيح! أراد (هيرونيموس) أن أقوم بإتلاف العينات! أنا أشك بكل شيء كان يبدو لي حتى الآن صحيحاً... لا أحد يستطيع أن يلومني!» صاح (دوفور) وضرب الزجاج الجانبي بقبضته. ثم هدأ.

- «لقد عانيت من موت ذلك المريض جرّاء سلسلة التجارب، حيث أنك في هذا الاكتشاف المذهل بالذات أصبت بالخوف؟ حول ماذا كان يدور؟» كان (كريس) يستمر في النظر من خلال المرآة الجانبية للتأكد من أن أحداً لا يتبعهم.

- «إنها طريقة جديدة وحساسة لعلاج التلف الكبدي. وقد تمت مناقشتها منذ زمن. لم تكن تجاربنا هي الأولى إلا أننا اتبعنا نهجاً جديداً».

- «هذا كل شيء؟» استفزه (كريس) «إلا أن الأمور لم تجرِ في نصابها، أليس كذلك؟»

تردد (دوفور) بالرد.

ثم قال: «لقد قمنا بتجربتها على الفئران أولاً» وأردف «الإجراءات المعتادة. فالفئران هي الحيوانات المفضلة في المختبرات».

- «وما الخطأ الذي حدث؟»

- «لقد ماتت الفئران. بعد وقت طويل من إجراء التجربة. ولهذا اعتقدنا أن لا علاقة لهذا بالتجربة...»

- «وعندما مات ذلك الشاب...»

- «لقد تساءلت ليل نهار كيف حدث هذا. أنا لا أعرف السبب وراء موت (مايكل غلفورت) حتى اليوم و...»

- «ولا تريد أن تشعر بالذنب مجدداً. أفهم ذلك». مجدداً حدق (كريس) لوقت قصير في (دوفور)، الذي كان يجلس متوتراً ويقضم أظافره. «وما الدافع لذلك الراهب؟»

تذكر (دوفور) ردة الفعل الهستيرية التي أصابت (هيرونيموس) عندما كانا في الكنيسة. لقد رآه مرتمياً على الأرض، كيف زحف نحو الصليب، بكى متوسلاً إعفاءه من الاختبار.

وبعدها رمى الاختبار على كاهله.

- «بدا لي كأنه كان على علم بما تم إيجاده في عينات العظام».

- «وكيف ذلك؟»

- «لا أعلم. لقد وجه لي بعض الأسئلة، وكاد يُجن عند سماعه الإجابات. وقد سألني عن بعض الأسماء».

- «ماذا تعني؟»

فكر (دوفور).

- «سألني إن كان رجل...»

- «(مارفن، هنري مارفن)» خرج الاسم من بين شفاه (كريس) بتلقائية.

ضغط (دوفور) بأصابعه على ساعد (كريس) الأيمن.

- «تماماً. هذا هو الاسم الذي سأل عنه (هيرونيموس)!»

ضحك (كريس) بسخرية.

- «الحلقة تغلق نفسها. (جاك دوفور)، أين يمكننا البقاء مدة ساعتين؟ أحتاج للتخطيط والتحضير».

- «أترغب حقاً بمتابعة المعركة؟ وحدك ومن دون مساعدة ضد تلك القوة المهيمنة؟»

- «عليّ أن أفعل. وربما يساعدك ذلك أنت أيضاً ..أين؟»

- «أنا أسكن في (فالبون)، وهي منطقة مجاورة لمركز الأبحاث».

- «قريب جداً. سيبحثون هناك أولاً».

فكر (دوفور).

- «منزل أهلي في مدينتي الأم خالٍ...»

- «وأين هو؟»

- «في (كولوبريس). تبعد نحو ساعتين من هنا. وذلك حسب الطريق الذي يسلكها المرء. إنها منطقة صغيرة بالقرب من هضبة (الموريسكيين).

- «هل يوجد مدن كبيرة بالقرب منها؟»

- «(طولون) لا تبعد كثيراً. (مارسيل) أبعد منها».

- «كيف نصل إلى هناك؟»

- «علينا التوجه جنوباً. الأفضل أن نعود إلى الخلف ثم نصعد الطريق السريع حتى المخرج...»

- «كلا» هزّ (كريس) رأسه «الطريق السريع يختصر المسافات إلا أن النزول منه صعب. في كل مكان متاريس، وعند المخارج الكثير من الحواجز. هذا طريق ساحلي، جنة حقيقية. عدة تفرعات، طرق زراعية، مخارج بديلة، مخابئ...كيف علي أن أتوجه؟»

- «هنا!» صاح (دوفور) عندما مروا من جانب مركز المؤتمرات عند ميناء (كان). رافقهم الطريق الساحلي الرملي، ثم بدأت الأمواج تتكسر على الصخور الضخمة. على يمين الطريق الساحلي امتدت جبال (الإستريل) بشكل هائل.

- «أخبرني ما تنوي فعله؟» سأله (دوفور) فجأة بصوت حازم «سأساعدك».

ألقى (كريس) نظرة سريعة على (دوفور) «هل أستطيع أن أثق بك؟ إنك تعيد لتوك تغيير الجبهات. في البداية عالم، ثم خادم للاستغلاليين الجشعين وأخيراً اليد المنفذة لكاهن عقائدي. والآن؟»

أمسك (دوفور) أنفه ثم انزلقت يده على ذقنه، قبل أن يجيب.

- «العودة إلى العلم الحقيقي. إلى ما يعنيه العلم: البحث، المعرفة ومساعدة البشرية. للأمر الذي دفعني منذ البداية للسير في هذا الطريق. هل يكفيك هذا كدليل؟»

- «كيف يمكن أن يبدو؟»

- «الصبي. (ماتياس). سلسلة التجارب، التي كان من المفترض أن يخضع لها، بدت كالأمل الأخير لإنقاذ حياته».

- «وهذا الأمل قد فُقد الآن».

- «نعم. ولكن يوجد سلاسل تجارب أخرى، التي تعنى بالتلف الكبدي. بنجاح. لقد قمت في الأيام الماضية بالبحث حول طريقة، أهتم بها أنا أيضاً، إلا أنه لم يتم اختبارها في مؤسستنا». عندما نظر (كريس) إليه مجدداً، بدا وجه (دوفور) جاداً وفي قمة التركيز.

- «في جنوب ألمانيا، يوجد شركة للتقنية البيولوجية، تابعت العمل على فكرة لطبيب مُكتشف. من خلالها يقومون بحقن الكبد بواسطة القسطرة بخلايا سليمة وحيّة، وتتكاثر هناك وبهذا تعيد بناء نشاطات حيوية. تؤخذ الخلايا الكبدية، التي لا تصلح للزراعة من أعضاء متبرعين. والإيجابية الأساسية في مثل هذه الطريقة، هي أن عدداً أكبر من المرضى يمكنهم الاستفادة من العضو المتبرع به».

- «علي أن أصدق هذا؟» سأل (كريس).

- «لا بدّ أنك أدركت أننا نراقب أيضاً ما توصل إليه باحثون آخرون، أليس كذلك؟ ولأن هذه الأمور تعني مبالغ مالية مذهلة، فإن الكل يحافظ على سرية مثل هذه التجارب إلى حين تأكده التام من نجاحها وتسجيل براءة اختراعه. على أي حال، يبدو أن هذه الطريقة قد أحدثت تقدماً حقيقياً. فقد تم إنقاذ حياة عدة مرضى أوشكوا على الموت، أحدهم امرأة كانت تعاني من حالة تسمم حادة ومميتة بسبب الفطر».

صمت (كريس) طويلاً.

- «هل تدرك ما الذي تقوله؟»

- «يوجد أمل. لأن العلم مستمر بالبحث والاكتشاف».

- «هل سيساعد هذا (ماتياس)؟»

- «لا أستطيع قول ذلك. فليس لدي معلومات تفصيلية».

أومأ (كريس) مستغرقاً بالتفكير.

- «إيقاظ الآمال الكاذبة هو بالتأكيد آخر ما نحتاجه الآن».

- «عندما ننتهي من كل ما نحن فيه الآن، فعليك...» توقف (دوفور) عن الكلام، صمت وتنهد، بعد برهة: «والآن، لا تبدو لك إشارتي دليلاً كافياً».

- «ماذا؟» زحف (كريس) خارج وادي الأفكار الذي دفعه إليه (دوفور) «آه. ما الذي أنوي فعله؟ أريد أن أقابل شخصاً ما. وهذا يحتاج إلى ترتيب. كل ما حدث حتى الآن جزء صغير من لعبة كبيرة. أريد معرفة سبب كل هذه المسرحية!»

- «لن تجد من يستطيع إخبارك به».

- «أنت واهم».

- «ومن عساه أن يكون؟»

تذكر (كريس) (فونتنبلو)، (بونتي)، وأسئلة (مارفن).

- «البابا».

الفصل الواحد والأربعون

(صوفيا أنتي بولس) بالقرب من (كان)
ليلة الثلاثاء إلى الأربعاء

بقلق ضرب (البابا) أطراف أصابعه على شفتيه. حسب ما قاله له (مارفن)، فإنه سيجد هنا في مركز أبحاث شركة الأدوية، ما يبحث عنه.

لكن المكان كان خالياً. بالرغم من استخدامهم للمروحية إلا أنهم وصلوا متأخرين. لقد أخبره (كالفي) عن وجود جثتين ونصحه بالانسحاب.

منذ بضعة دقائق قامت الشرطة الفرنسية بإنزال راهب أمام بوابة المبنى. الأخ (هيرونيموس)! هل يمكن أن يكون هو!

لقد تم منذ ساعات اختطاف وتكبيل الراهب، وإلقاؤه في الطريق السريع المتجه إلى مدينة (نيس). أثناء قيام أحد السياح الإسبان باستراحة قصيرة هناك، اكتشف وجود الراهب، الذي كان يستمر بالحديث عن البابا في (روما)، وأوصله إلى أقرب مركز للشرطة.

وهناك تابع الراهب حديثه عن بعض الأمور التي تحدث في المستشفى التابعة لشركة (تيسابي) في (صوفيا أنتي بولس)، وطلب بإلحاح التحدث إلى البابا.

احترامهم لمنصب القس كان السبب وراء تعميمهم لذلك البلاغ، الذي

وصل بطريقة أو بأخرى إلى الحرس الفرنسي الخاص. علم (كالفي) بالأمر فاتصل بالراهب هاتفياً وطلب إحضاره إلى هنا .

عندما فُتح الباب، تحولت شكوك البابا إلى حقيقة دامغة.

سقط الأخ (هيرونيموس) على ركبتيه.

- «قداسة البابا، لقد قمت بفعل كل ما أستطيعه. حاولت الاتصال بقداستكم، لكن (روما) لم تأخذ الأمر على محمل الجدية. أشكر الله أنك في النهاية أتيت إلى هنا . أنا ضعيف أمام هذا الاختبار».

أمسك البابا الراهب من كتفيه وسحبه إلى أعلى.

- «اجلس».

جلسوا إلى الطاولة، وانتبه (هيرونيموس) إلى أن البابا قد اختار الجلوس في المقعد الذي كان (هانك تورنتن) يجلس عليه.

- «أخبرني بكل شيء!» قال البابا ودفن وجهه بين كفيه.

تحدث (هيرونيموس) بتلعثم، بينما غرق في التفاصيل، وعند انتهائه أخفض رأسه بإيماءة المذنب.

- «ولا يوجد مجال للخطأ؟»

هز (هيرونيموس) رأسه.

- «حاولت التخلص من هذا الاختبار».

- «الله هو من يدير الأقدار وليس نحن» أجاب البابا .

- «هل تذكر كلامي لك عندما طلبت إعفاءك من ارتباطاتك؟ كان ذلك عندما ظهر (مارفن) للمرة الأولى في الفاتيكان، وأخبرنا عن الألواح. حينها علم كلانا أن وقت الاختبار قد اقترب. كيف لك أن تعتقد أنك بانسحابك إلى خلف أسوار الدير، تستطيع الهروب من مشيئة الله؟ لقد وجدوا الألواح في أرشيف الآثار. اختارك الله. عليك أن تقبل هذا الاختبار، كما فعلت أنا!».

- «أنا لست مستعداً له. لقد قمت بتحميل شخص آخر عبء اتخاذ القرار!» أخفض (هيرونيموس) رأسه.

- «إنك لست بحاجة لذلك، أخ (هيرونيموس). لقد حملني الله ذلك العبء. حان الوقت. أشعر بذلك». مسح البابا على وجهه بإعياء «أخبرني هل ذلك فعلاً صحيح...»

أومأ (هيرونيموس) مرتجفاً «لقد رأيت ذلك. قاموا بتجربته على فئران».

- «إذاً، فإن (مارفن) قال الحقيقة».

نظر (هيرونيموس) بتعجب.

- «نعم، نعم، هو أيضاً هنا. لقد استخدمه الله ليرشدني للوصول إلى هذا المكان».

- «إلا أن الله قد تخلى عنا! لقد فروا ومعهم كل الدلائل!»

- «ثقتك بالله ضعيفة!» همس البابا «لم ينتهِ الأمر بعد» شعر فجأة بذلك الفراغ الغريب في رأسه «لو أنه بإمكاننا اللحاق بهم...»

حدق (هيرونيموس) في البابا بتشكك. ثم خطرت على باله فكرة.

لم يعد البابا يسمع شيئاً، فقد كان وقع الرؤية عليه قوياً وعنيفاً.



بدأ كل شيء كما العادة، إلا أنه كان مختلفاً هذه المرة.

رأى عصا الراعي أولاً، لكنها كانت عصا البابا، وكذلك من دون غطائها الذهبي اللامع، ومن دون الزخارف العاجية ومن دون النهاية الحلزونية المعروفة لعصا الأسقف.

كانت عصا الراعي مستوية، مصنوعة من معدن ناعم الملمس وذو لمعة فضية.

وإن وضعها شخص ذو طول متوسط، فإن طولها سيصل إلى ارتفاع جبينه. وكانت نهايتها عبارة عن رأس معدنية مدببة.

على الجزء الخامس من العصا عند نهايتها العليا، حُفر رمز الصليب بطريقة فنية يظهر عليه رسم المسيح المصلوب.

ثم رأى الرجل الذي يحمل العصا.

كان الرجل يضع قلنسوة على رأسه من الحرير المموج ورداء الكاهن ذو الثلاثة والثلاثين زراً، وصليب على الصدر وحذاء جلدي باللون الأحمر، كذلك الذي كان يرتديه القيصر الروماني.

كان جلد وجهه بلون وردي وشعر رأسه ناصع البياض. تجاوز عمره السبعين، ذو وجه لطيف وجسد نحيل.

كان يضع في إصبع يده اليمنى، خاتم الصياد الذهبي، وعليه صورة (بيتر) مؤسس الكنيسة وتوقيع (بندكت).

لقد رأى نفسه.

اتسعت الصورة، فرأى قطيع الخراف كما العادة.

لم تكن الخراف قريبة من بعضها، بل منتشرة تبحث عن الكلأ، على شكل مجموعات أو تقفز كلاً بمفرده بين تلال المنطقة الصخرية.

التفت يده حول العصا تحت منحوت الصليب مباشرة، بينما كانت النهاية المعدنية المدببة مغروسة في الأرض.

وقف على نتوء صخري مرتفع يطل على المرعى، مما مكنه من رؤية واسعة للأرض. وبالرغم من ذلك، لم يتمكن من أن يرى كل أفراد القطيع بسبب الصخور الكبيرة المنتشرة، التي حجبت عنه الرؤية في بعض المواضع.

سمع ضربات الأجنحة، القوية والضخمة، وكانت حركاتها متأنية وعازمة. كما دائماً.

لم يتحرك شبيهه. بل بقي واقفاً متسمراً في مكانه، وكأنه لم يرَ الطائر. ولكن لا يمكن أن يحدث ذلك! فهو يستطيع رؤيته أيضاً!

في البداية كانت نقطة في السماء. ثم ما لبث أن تعاظمت وبدا النسر عظيماً وبمخالب بارزة من قدميه القويتين. بصورة مكبرة رأى المنقار، والعينين الجشعتين للصياد الذي جلب الموت معه.

وما لبثت أن انغرست المخالب البارزة من الساقين المتصلبتين في جمجمة أحد الخراف. تخبط الطير ساحباً الخروف معه إلى الأرض، ولم يفلته. قاوم النسر الثقل الموجود بين مخالبه بضربات متأنية وقوية بجناحيه، ارتفع، ثم هوى مجدداً على الأرض، حين انتفض جسد الحيوان الذي كان يصارع الموت. بدأ النسر ينهش بمنقاره المعقوف اللحم الطري المحمول بين مخالبه.

صاح!

إلا أن شبيهه الواقف على النتوء الصخري، لم يتحرك.

حلق النسر في السماء مرفرفاً بجناحيه بضربات ثقيلة، مبتعداً عن الارض. لم تعد الفريسة التي بين مخالبه تتحرك.

في غضون ثوانٍ ارتفع النسر في السماء واختفى.

- «اللوم يقع على الراعي!»

الفصل الثاني والأربعون

سلسلة جبال (المور) الهضابية في جنوب (فرنسا)
ليلة الثلاثاء على الأربعاء

سار (كريس) على الطريق الساحلي عند سفح جبل (الإستيريل) حتى (سانت رافائيل)، ثم باتجاه (سانت أيغوف) و(سانت مكسيم)، قام (تورنتن) بمحاولة شغب، إلا أن (ياسمين) جرّت الحبل ذو العقد الثمانية. ومنذ ذلك الحين ساد الهدوء في صندوق الشاحنة الخلفي.

عند ميناء (غريمود) اتخذ (كريس) الطريق الداخلي. حلت كروم العنب مكان الأمواج المتلاطمة والتشكيلات الصخرية الفريدة. وبدءاً من (غريمود) صعدوا عابرين طرقات هضبة (المورسكيين). امتدت غابات من أشجار الصنوبر والفلين والزيتون على جانب الطريق الضيق والمنحني.

- «استراحة» قال (كريس)، حين ظهرت فجأة على يمين الطريق فسحة حصوية. سُمح للرهائن بالمشي لبضع خطوات ثم قام بربطهم في حامي الصدمات الخلفي للشاحنة، بقية وقت الراحة. اهتمت (ياسمين) و(آنا) أثناء ذلك بـ (ماتياس).

- «كم من الوقت نحتاج بعد؟» سألت (ياسمين) بعصبية ومن دون أن تنظر إليه «الصبي بحاجة إلى الراحة».

- «لم يبق الكثير. سأسأله...»

لحقت (ياسمين) بـ (كريس) إلى وسط الفسحة حيث كان (دوفور) يقف إلى جوار سياج قصير من المعدن. داخل السياج وجدت حجرة تذكارية التفت حولها باقات الورود. على حجر الغرانيت عُلقت صحيفة، ظهر عليها ثلاثة أسماء بشكل واضح.

- «حرائق الغابات» تمتم (دوفور). توجه نحو أحد أشجار الفلين على بعد بضعة أمتار وأمسك باللحاء ثم أراهما يديه المسودتين «سُخام. انظر جيداً إلى أشجار الصنوبر والسفوح. كلها جرداء. لو كنا في ضوء النهار لرأيت أن جذوع الأشجار متفحمة. نصب تذكارية محروقة. حرائق الغابات، كارثة جنوب (فرنسا). وغالباً ما يسببها البشر».

- «والحجر؟»

- «يذكر بثلاثة رجال مطافئ، ضحوا بحياتهم في أيلول من عام 2003 لينقذوا حياة آخرين».

أعادهم الرنين المفاجئ للهاتف المحمول إلى الحاضر.

نظرت (ياسمين) إلى (كريس)، الذي كان يهز رأسه. لقد قام (سولفان) بتفتيشه قبل بدء الرحلة.

- «هذا لي!» قال (دوفور) ودسّ يده باحثاً في جيب سترته. نظر إلى الشاشة ثم أجاب: «نعم، أخ (هيرونيموس)؟»

لم يصدق (كريس) ما سمعه.

- «نعم لقد أصبحنا أحراراً - كلا، لسنا ملاحقين- نعم إنهم بحوزتنا... كأسرى؟ نعم، إن كنت تريد ذلك... ماذا؟... أين نحن؟»

طلب (كريس) منه الهاتف المحمول بإشارات عنيفة بيديه وهز رأسه بقوة.

- «نعم؟» سأل (كريس) بعد أن أعطاه (دوفور) الهاتف النقال.

- «(تسرنت هاين). أنا هو، أخ (هيرونيموس). أين أنت؟»

- «ولماذا أنت مهتم بهذا؟»

- «لقد أخذت العينات والعظام معك...»

- «نعم».

- «والآن، لو أنك تذكر، لقد كانت تلك العينات هي سبب زيارتي لـ (جاك)».

- «كان من المفترض أن يتلفها، حسب تعليماتك».

- «لأنه هكذا كُتب».

- «توقف. لقد سمعت في الأيام الماضية ما يكفي من الأمور، التي يُزعم أنها مكتوبة. هل أنت أيضاً أحد الحمقى الذين يعتمدون على الكتاب المقدس ويعذبون ويقتلون الناس؟»

- «ماذا تنوي أن تفعل؟»

- «هذا الأمر لا يعنيك. ربما أتوجه إلى الشرطة الفرنسية».

- «جيد. الشرطة هنا».

- «أين؟ أين أنت؟»

- «أنا. أنا ما أزال في (صوفيا أنتي بولس)».

- «وماذا تريد؟ هل انضممت إلى الجهة الأخرى؟ هل عيك أن تجد مكاننا لتبلغ (سولفان)؟»

- «(سولفان) ليس هنا. إنه يبحث عنكم!»

- «بإمكانه البحث طويلاً».

- «أريد العظام والعينات، (تسرنت هاين). كل شيء!»

- «أنت أيضاً؟» ضحك (كريس) باستمتاع «ولكن يوجد المزيد من الذين يريدونها. لماذا أنت بالتحديد؟»

- «لقد اهتممت بهذا الأمر لسنين طويلة لصالح الكنيسة. كنت لمدة طويلة في (روما). وهناك قمت باكتشاف».

بدا كأن وميضاً كهربائياً قد سرى في الشبكة الغير مرئية حتى الآن وأوضح بذلك الصلات.

- «هل تعرف (هنري مارفن)؟» سأل (كريس) في النهاية.

- «نعم» بدا صوت (هيرونيموس) متوتراً «فهو من عرض على الفاتيكان منذ عدة أشهر تلك اللقى الأثرية».

- «هل هو صديق لك؟»

- «كلا!»

- «وهذا كله لأجل النص المبدئي للوصايا العشر الموجود على الألواح؟»

- «لو أن الأمر يتوقف هنا ..(تسرنت هاين)، يبدو أنك عرفت السر الحقيقي».

صمت (كريس) متحيراً. فهو لم يتوقع هذه الصراحة.

- «هل تعني أن البابا مهتم أيضاً بالكروموسوم رقم 47 ذاك وإمكانياته؟ شكراً للمساعدة. هذا سيسهل علي القرار بأن أسأله حول ذلك».

- «تريد التحدث إلى قداسة البابا؟»

- «هذا ما خطر في بالي. أحد قراراتي العفوية. بعضهم يقول أنها إحدى أكبر سلبياتي».

- «(تسرنت هاين). قداسة البابا يقف إلى جواري».



- «ما يزالوا متوقفين. على بعد أقل من كيلومترين».

أومأ (سولفان) وسحب بجشع نفساً من سيجارته. فهي السيجارة الأولى بعد ساعتين.

(تورنتن)، (بورسل) وآخرين من كبار الإداريين في المؤسسة يحملون شرائح استقبال لاسلكية، يتم تشغيلها عبر الأقمار الصناعية وتقوم بتحديد مكانهم. وهي عبارة عن شريحة صغيرة مزروعة في بطاقات الائتمان خاصتهم.

لقد قام (سولفان) بإدراج هذه الطريقة، لأنه في بعض مناطق العالم تتم عمليات خطف منتظمة بالرغم من وجود الحراسات. ويعتبر رئيس مجلس إدارة إحدى الشركات العالمية، -الذي إضافة إلى ذلك يهوى البحث في (جنوب أمريكا)-، أحد الأهداف المثيرة.

- «أحضروا صندوقكم! هيا!» صاح (سولفان)، بعد أن توجب عليه أن يرى بعجز فرار (تسرنت هاين).

كان الصندوق عبارة عن جهاز حاسوب محمول بخصائص مميزة، بحيث يمكن رؤية الموقع عليه. ثلاثة أقمار صناعية على الأقل كانت ترسل إشاراتها إلى الشرائح. من خلال قياس فارق المدى يمكن تحديد موقع الشخص المفقود.

- «لا نستطيع، فالحاسوب المحمول موجود على متن الطائرة في (نيس)» أجابه رجاله «لقد قال الرئيس أن هنا ليس بـ (جنوب أمريكا)!»

لقد قاموا بشد وثاق الشرطة، أخفوهم مع سياراتهم في (صوفيا أنتي بولس). بعدها أسرعوا إلى المطار. وفي الطريق، قاموا بربط الكاهن بشكل جيد وألقوه في أحد مواقف السيارات. وفي طريق العودة أتتهم إشارة تحديد الموقع الأولى بسرعة. (تسرنت هاين) كان يقود الشاحنة على الطريق الساحلي باتجاه الجنوب.

لحق به (سولفان) على الطريق السريع، واتخذ المخرج رقم 36 وأسرع باتجاه (سانت مكسيم).

الطريق إلى أسفل الوديان كان ملتوياً والرؤية غير واضحة. حين

وصلوا إلى الموقع، كان (تسرنت هاين) قد تقدم باتجاه الجنوب. إلا أنهم في (غريمود) استطاعوا الاقتراب منه.

- «انقضوا عليهم! لا تأخير بعد الآن!» جلس (فولسوم) إلى جوار (سولفان) وصاح بصوت أشبه بجزازة العشب.

- «في الليل تكون أصوات المحركات والأضواء ولو عن بعد، مثيرة للانتباه».

- «سيتم الأمر».

- «خمس عشرة دقيقة، (سولفان). لقد توقفت مدة خمس عشرة دقيقة! كان ذلك الوقت كافياً للاقتراب وإنهاء المسألة. إنك ترتكب أخطاء كثيرة يا (سولفان)».



عانى محرك الشاحنة أثناء صعودها الطرق الملتوية في سفح الجبل، ثم ساروا على الجانب الآخر عبر الغابات نزولاً في الوادي، على يمينهم تعاظم الجبل في الليل، بينما كانت الأخاديد على يسارهم تبدو كأنها حفر سوداء. وتوالت المنحنيات.

- «كم تبقى من مسافة للوصول إلى (كولوبريس)؟» سأل (كريس) فجأة.

- «عشرة كيلومترات، تقريباً».

نظر (دوفور) في المرآة الجانبية.

- «ماذا هنالك؟»

- «ضوء... اعتقد أنني رأيت ضوءاً. لقد اختفى الآن!»

صمت (كريس). لقد اكتشف تلك البقعة الضوئية منذ ثوانٍ معدودة ولهذا قام بالسؤال عن المسافة المتبقية.

- «هل يوجد أحد، الذي...»

- «في الواقع لا أحد. باستثناء.. (هيرونيموس)...»

- «يوجد اثنان» قال (كريس). بعد دقيقتين «وهما يقتربان بسرعة».

بدت الغابات في سواد الليل إلى جانبهم، كأنها حشد من الشياطين الطائرة. اقتربت أضواء السيارتين أكثر فأكثر، فجأة أصبحتا خلفهم مباشرة.

عندما ظهر طريق مستقيم وقصير بعد المنحنى، اتجهت السيارة الأولى على المسار الآخر وتجاوزتهم.

- «كيف يمكن أن يحدث هذا؟!» صاح (كريس) عندما مرت الليموزين من جوارهم.

على النافذة الخلفية عُلقت ملصقة إعلانية عليها رسم شجرة، رسم لشجرة صبار يوشع وقد كُتب فوقها «مطعم الصبار للبيتزا».

- «ماذا تعني؟» سأل (دوفور) واستند على التابلو أسفل الزجاج الأمامي للشاحنة.

- «إنهم من (تيسابي)! السيارة... من الواضح! الزر...»

سارت الليموزين أمام الشاحنة ثم أضاءت مصابيحها الخلفية الخاصة بالمكابح.

- «تمسكوا!» صاح (كريس).

ضغط على المكابح، فانحنت الشاحنة إلى الأمام كأنها ركبة مصارع تلقت ضربة قوية. صاحت كل من (ياسمين) و(آنا)، ثم سُمع صوت (تورنتن) أيضاً، الذي كان يلعن بحنق.

رفع (كريس) قدمه عن دواسة الفرامل، ثم عاد وضغط عليها بكل

قوته «تشبثوا جيداً!» صاح وحاول أن يتجنب الاصطدام. لو أن السيارتين ارتطمتا ببعضهما لانتهت محاولة فرارهم.

جذب عجلة القيادة إلى اليسار. إلا أن الليموزن انسحبت إلى المسار المعاكس وقطعت عليهم الطريق. رأى (كريس) الهاوية على شماله، التي نمت عليها في هذه البقعة القليل من النباتات والأعشاب. خالية تقريباً من الأشجار التي يمكنها منع انحدارهم إلى أسفل. بسرعة أدار عجلة القيادة يميناً إلى جانب الجبل، إلا أن الليموزين التي أمامه سبقته مجدداً. عوت السيارة الأخرى خلف الشاحنة، كأنها ذئب.

انحنى الشارع فجأة مبتعداً عن الهاوية. وأصبح الجبل الآن إلى جهة اليسار، بينما انحدرت الأرض على يمينهم بشكل بسيط. حرك (كريس) عجلة القيادة، وسحب الشاحنة مجدداً إلى المسار المعاكس.

أسرعت السيارة التي كانت خلفهم وأصبحت إلى جانب الشاحنة.

- «سيطلقون النار!» صاح (دوفور). فُتحت النافذة الخلفية لليموزين، ورأى بوضوح يداً تحمل مسدساً.

اتجه الشارع في منعطف يميني. كانت الغابة هنا مكونة من أشجار الفلين الضخمة والجذوع العريضة. أعملت الليموزين إلى جانبهم الفرامل بينما قطعت الليموزين الأخرى عليهم الطريق.

- «هناك إلى الأمام!» صاح (دوفور).

إلى الأمام كان يتفرع طريق صغير صعوداً إلى التلة.

عند المدخل كان يبرز حاجز ذو خطوط حمراء وبيضاء عالياً في الهواء.

داس (كريس) بقوة على الفرامل وأدار المقود قليلاً.

اندفعت الليموزين إلى الشارع الرئيس.

- «انتبهوا!» صاح (كريس) وداس على بدالة البنزين فاندفعت الشاحنة في الطريق الفرعي وقفزت على التلة.

صاح (دوفور) فجأة بفرح.

- «ماذا هناك؟» صرخ (كريس).

- «لقد ارتطما ببعضهما» كان رأس (دوفور) ما يزال متجهاً إلى الخلف، بالرغم من أنه لم يعد يرى شيئاً منذ مدة.

- «هذا سيمنحنا بضع دقائق إضافية فقط، لا غير. إلى أين يؤدي بنا هذا الطريق؟» داس (كريس) على بدالة البنزين بقوة.

- «طريق مسدود!» صاح (دوفور) بفزع «إنه طريق مسدود!»

- «لماذا؟ يبدو، كأنه طريق عادي جداً!»

اندفعت الشاحنة في المنعطف الإسفلتي وبدأت تهتز، كأنها سفينة مثقلة بالبضائع تعبر بحراً مائجاً.

- «سينتهي الشارع بعد عدة كيلومترات» تمتم (دوفور).

- «لماذا؟ ماذا هناك؟»

- «آثار دير (لافرن). بؤرة الهدوء والانعزال التام. أشبه بنهاية العالم».

قاد (كريس) الشاحنة عبر ذلك المكان. تراجعت الجبال إلى الخلف، إلى الجانب الأيمن من الطريق لمعت مياه الجدول تحت ضوء القمر. صعدوا على جسر، وما لبث الطريق أن تفرع إلى دروب ضيقة وملتوية متجهة إلى أعلى.

- «كيف يمكننا الإستمرار من هناك؟»

- «يوجد طريق مشاة، يقود من الناحية الأخرى إلى أسفل».

- «هل يوجد قبل ذلك أي منعطف يؤدي بنا إلى الغابة؟»

- «لا شيء» تمتم (دوفور) بحزم، «لا شيء».

تحول الطريق المعبد إلى ممر من الحصى. اهتزت الشاحنة بشكل خطر، وتطايرت قطع الحصى الصغيرة مرتطمة بهيكل الشاحنة المعدني. أصبح الطريق على يسارهم منحدراً حاداً وأتاحت فسحة صغيرة في الغابة النظر بحرية إلى الوديان المحيطة بهم.

كان المنظر رائعاً. من فوق كرسيه العالي رأى (كريس) الوديان والتلال الخضراء. ورغم الظلام كانت معالم الجبال واضحة، التي تتالت خلف بعضها وكأنها أمواج البحر.

أمامهم وعلى التلة القريبة، امتد سور بطول ثلاث مئة متر تقريباً. بدا البناء المرتفع خلف الأسوار الحامية، وبسبب الارتفاعات المتباينة بدا كأنه الجزء العلوي من سفينة. وكان برج السفينة يرتفع عالياً في السماء، بينما كانت الأبنية باتجاه الذيل منخفضة.

من جهة الجنوب تسلق برج السفينة الحجرية على ظهر الجبل كأنه موجة ساحبة.

انخفضت الأبنية في جهة الشمال وغاصت في الوادي.

- «إنه ديرا» تعجب (كريس).

- «عمر هذا الدير ألف عام».

نظروا الجانب الطويل في الجهة الغربية. ارتفع السور الواقي العنيد من باطن الوادي إلى أعلى. وبالرغم من ذلك بدا الموقع من بعيد قصيراً وعريضاً وغريباً بعض الشيء. بدأ (كريس) يدرك ببطء ذلك التأثير. لقد عملت الأسوار الحامية أسفل الوادي على تأسيس هضبة؛ ليتم عليها تشييد ذلك البناء. ولأنهم كانوا ينظرون إلى المبنى من الارتفاع نفسه، وليس من أسفل الوادي، خفف ذلك من المظهر الضخم للمبنى بشكل نسبي.

- «تبدوا وكأنها آثار قلعة».

- «كانت الأديرة تبنى سابقاً بشكل محصن».

- «لديك معلومات جيدة!».

- «لقد أتيت في صغري كثيراً إلى هنا. هذا الدير المنعزل الذي أسسه القديس (برنو) يوفر الهدوء والوحدة، إنه مكان يصلح للمناجاة».

أدى بهم الطريق الحصوي إلى منحنيات خلف سفح الجبل. في بعض الأماكن أصبح الطريق ضيقاً للغاية، بحيث لا يمكن لسيارتين المرور إلى جانب بعضهما البعض. بدا أمامهم منعطف أخير إلى اليسار ومرتفع، برز خلفه السور الحجري للدير كجدار أسود قاتم.

أوقف (كريس) الشاحنة.

- «ساعدني! هيا!» قفز من الحافلة وفتح أبواب الصندوق الخلفي، «علينا أن نسير، هيا، بسرعة!».

حدقت به (ياسمين).

- «يبدو أنك فقدت عقلك!».

- «نحن ملاحقون. رجال من (تيسابي) حاولوا إيقافنا».

- «لا يهمني هذا! هل تعلم ذلك؟» قفزت خارج العربة.

- «أنانيتك هي التي أودت بنا إلى هنا!».

- «علينا التوجه إلى الدير، هيا، اخرجوا! جميعكم!».

دفعت (آنا) بيده بعيداً ونزلت من الشاحنة بمفردها. صعد (كريس) إلى الشاحنة وأمسك بـ (تورنتن) من معصميه المكبلين.

عدل كل من تورنتن و(زوي بورسل) من جلستهما بحذر، فقد كانا ما يزالان مربوطين ببعضهما من عنقيهما بالربطة الثمانية. بهدوء ومن دون مساعدة نزلا من الشاحنة. أبعدهما (كريس) بضع خطوات عن الحافلة، ثم أعطى (آنا) مسدساً.

- «إن أرادوا الهروب فعليك أن تطلقي النار. إنهم أوغاد!».

سارع إلى الشاحنة وتفحص المقاعد، حتى ستطاع فكها وإخراجها من الشاحنة. حملها بمساعدة (دوفور) إلى جانب الطريق.

- «كل شيء على ما يرام، (ماتياس)! لن يحدث لك مكروه!».

ابتسم (كريس) للطفل الصغير، الذي كان ينظر إليه بصمت. إنه في الحقيقة لم يسمع صوت (ماتياس) حتى الآن. إلا أن الأمر كان منطقياً، فالطفل لم يكن يتحدث سوى اللغة السويدية ولم يتمكن من فهم خليط اللغات التي كان يتحدث بها الآخرون من حوله.

عاد (كريس) بسرعة إلى الشاحنة وأخرج الحقيبة التي تحتوي على العينات وكذلك قفص الفئران.

- «خذي هذه!». حاول النظر في عيني (ياسمين)، إلا أنها استدارت فجأة مبتعدة عنه وكأنه مصاب بالجذام. تابعها (كريس) بنظرات غاضبة ثم أخرج مصباح جيب من الحقيبة الجانبية في صندوق الشاحنة وناولها (دوفور) «اتصل بصديقك، وأخبره مكان وجودنا».

- «هل تعني (هيرونيموس)؟».

- «ومن سواه؟».

- «لماذا؟».

- «اللعنة! لقد تواعدنا على لقاء البابا في (كولوبريس)، إن كنت تذكر ذلك! وهم يتنقلون بواسطة مروحية. وعليهم الآن الحضور إلى هنا. هيا افعل! إلى ذلك الحين، علينا أن نصمد!»

أدار (هانك تورنتن) رأسه وأنصت إليهم. استطاع فهم بعض الكلمات فحسب.

- «(زوي)، ما الذي يتحدثون عنه هناك؟ بمن اتصلوا ومتى؟» سأل بصوت منخفض وتابع التصنت بينما كانت (آنا) تقف إلى جوارهما، وتحاول تهدئة (ماتياس) بكلمات لطيفة.

- «ماذا ينتظرون؟».

- «لا أعلم... ربما قاموا أثناء وجودنا في الاستراحة باتخاذ قرار ما ... أنا ...» صمتت (زوي بورسل). استدارت (آنا) نحوها ونظرت إليها بغضب.

ما زال (تورنتن) لا يفهم الروابط. إلا أنه لم يعد أمامه الكثير من الوقت. تقدم بضع خطوات من (دوفور) الذي كان يتحدث بتوتر بهاتفه المحمول، ولكن (آنا) قامت بإيقافه حاملة المسدس بيدها.

صعد (كريس) في الشاحنة وقادها إلى الوراء حتى وصل إلى المنعطف الأخير. ظهر بروز صخري من الجبل أدى إلى تضييق الطريق. على الجانب الآخر من الجرف نمت ثلاث أشجار، امتدت جذوعها الغليظة حتى وصلت إلى الشارع تقريباً.

قاد (كريس) الشاحنة إلى مكان قريب من الجرف، ضرب عجلة القيادة، حيث استدارت الشاحنة بشكل قوس باتجاه الصندوق الخلفي نحو الهاوية. توقف وأدار المقود، تقدم إلى الأمام، ثم تدحرج مجدداً إلى الخلف. في المرة الأخيرة داس بقوة على بدالة البنزين. قفزت الشاحنة إلى الأمام وارتطمت مقدمتها بالجدار الصخري. تكسر الزجاج وتقعر حديد الغطاء الأمامي للمحرك.

وقفت الشاحنة بصورة عرضية وشكلت مع النتوء الصخري حاجزاً في منتصف الطريق. أخرج (كريس) رأسه من نافذة الشاحنة ونظر إلى الخلف. لم تكن العجلات تبعد عن حافة المنحدر إلا بضعة سنتميترات.

عدل (كريس) من ناقل الحركة إلى الغيار الخلفي، داس على بدالة البنزين. رجعت الشاحنة إلى الخلف وسقطت العجلات الخلفية في المنحدر. ارتطم الرفراف بالأشجار. تدلت الشاحنة واصطدم الجزء السفلي من الحديد بالطريق. دارت العجلات الخلفية في الهواء مصدرة صفيراً.

قفز (كريس) خارجاً من الشاحنة وعدا عائداً.

- «هل قمت بالاتصال؟».

أومأ (دوفور).

- «وماذا حدث!».

- «هم على الطريق إلى هنا».

- «حسناً، هيا! إلى الديرا».

أمسكته (آنا كيلسون) من ساعده. ذكرته عيناها بلونهما الأزرق الفاتح وقزحيتهما الزرقاء الغامقة بعيني (ياسمين).

- «عليك أن تعلم أمران، (كريس تسرنت هاين)...»

- «ليس لدينا وقت!».

- «اسمع!». ارتجف صوتها وكان خشناً وقاسياً.

أشارت (آنا) إلى (ياسمين)، «(ياسمين) تحبك. لقد أخبرتني بذلك. ولهذا ذرفت الكثير من الدموع عندما كنا في الشاحنة، لأنك كنت مصراً بعناد على تنفيذ ما يدور برأسك، بدلاً من أن تسلك الطريق السهل...»

شعر (كريس) بوخز في صدره، ونبضت عروقه، كأنها طبول سكان الغابات.

- «سيكون كل شيء على ما يرام».

- « ... لكنني أكرهك». ارتفع جسدها فجأة وارتعدت عضلات وجهها «فعنادك الشديد وهذه العظام هم السبب بتهديد حياة ولدي الآن. وتصرفاتك المتهورة وصلت حد السماء!». لمعت عيناها «لو أصاب ولدي أي مكروه، فسأقتلك يا (كريس تسرنت هاين)»

الفصل الثالث والأربعون

الدير المنعزل في (فيرن)

سلسلة جبال (المور) الهضابية في جنوب (فرنسا)

ليلة الثلاثاء إلى الأربعاء

صعدت (ياسمين) الدرجة الأخيرة، تبعها (تورنتن) و(بورسل) وخلفهم كانت (آنا)، التي تحمل المسدس بيدها. وشكّل (كريس) و(دوفور) النهاية وهما يحملان أريكة (ماتياس).

إنها قلعة، قال (كريس) حين رأى السور الحجري الهالي من النوافذ، المرتفع لعشرة أمتار. إنه حماية واقية ممتدة شرقاً بمسافة عشرة أمتار تقريباً. وقفوا في الزاوية الغربية، في منطقة تطغى عليها قلعة مستديرة ارتفعت لمسافة أعلى من السور.

أنزلوا الأريكة بحذر على الأرض، وأسرع (كريس) باتجاه بوابة الدير الموجودة في وسط السور الصخري. كانت البوابة مصنوعة من الخشب الصلب المغطى بالمعدن. بينما كان الاطار المواجه للسور الصخري مكوناً من صخور ملساء بلون رمادي مزرق. في الأعلى انتصب تمثال للسيدة العذراء وهي تنظر إلى الساحة الموجودة أمام بوابة الدير.

- «مغلق ومؤمّن». تمتم (كريس) عندما أقفل عائداً.

- «وكذلك الأمر بالنسبة لي». تنهد (دوفور) بيأس. فقد حاول فتح الباب الصغير للقلعة.

مزقت أصوات المحركات الصمت، فنظر الجميع باتجاه الغابة. صوت صليل معدني قطع توترهم. بعده مباشرة صوت ارتطام.

- «ربحنا دقائق إضافية. جيد أيضاً». نظر (كريس) حوله بارتياح، إلا أن أحداً لم يرد عليه «تابعوا بسرعة».

نزلوا من الساحة الأمامية للدير إلى الطريق المجاور لأسفل السور. كانت الأسوار الصخرية للمباني الملحقة الموجودة إلى يمينهم، بارتفاع أكثر من عشرين متر وفي الوقت نفسه كانت توفر الحماية للجانب الغربي للدير.

على بعد خمسين متراً باتجاه الغرب، اتخذ السور شكل زاوية مستقيمة لبضعة أمتار باتجاه الشرق إلى مبنى شاهق متجه نحو الشمال، وهناك شكل السور الصخري الذي لم يعد يزيد ارتفاعه عن الثلاثة أمتار جدار شرفة تقود إليها أدراج خشبية.

تجمعت أكوام الركام على تلك الشرفة، بينما بدا درج خشبي آخر يقود إلى الشرفة التالية في الطابق الأعلى، التي برزت من المبنى القاتم للدير.

- «فلنصعد إلى هناك!» شعر (كريس) كأنه بصدد تسلق سلسلة جبال خطرة.

فكر بالأريكة الخاصة بالطفل، هز رأسه ثم رأى بابين صغيرين في الأسوار.

- «إلى أين يؤدي هذا الباب؟» سأل (كريس) (دوفور)، عندما وقفا أمام الباب الصغير والمعتم.

ضغط (كريس) على مقبض الباب. موصد.

- «لم آت إلى هنا منذ زمن طويل» نظر (دوفور) حوله في كل

الاتجاهات «إلا أنه من المفترض أن يؤدي بنا هذا الباب على معصرة الزيت. مطاحن حجرية للحصول على الزيت».

استدار (كريس)، على يساره كان الطريق يقود بعد عدة أمتار إلى المبنى المهمل وينتهي بالباب الآخر.

- «وهناك؟»

- «لم أعد أذكر». تمتم (دوفور) أولاً، ثم ابتسم قائلاً «بلى... إنها كنيسة صغيرة».

أسرع (كريس) إلى البوابة المنخفضة والضيقة، انفرجت أساريره عندما استطاع أن يضغط مقبض البوابة إلى الأسفل. أضاء مصباح الجيب خاصته ودخل في الممر المظلم ثم صعد السلالم الحجرية مسرعاً إلى الباب التالي. إلى يساره تفرع ممر آخر باتجاه الأعلى، إلا أنه انتهى بعد عدة درجات بحاجز معدني. وقف تمثال للسيدة العذراء على قاعدة بارزة إلى جوار الباب. كانت الأدراج خلفه تؤدي إلى أسفل، وبعد بضع خطوات وقف أمام باب آخر. دفعه (كريس) وتراقصت خيوط الضوء المنبعثة من مصباحه داخل مغارة.

لن يجدوا أفضل من هذا.



- «هيا... ادخلوا!» سحب (كريس) كلاً من (زوي بورسل) و(تورنتن)، اللذين كانا إضافة لوجود الحبل ذو العقد الثمانية حول عنقيهما، كذلك كانت أيديهما مكبلة. كانت الكنسة بطول عشرة أمتار وبعرض خمسة أمتار تقريباً. كانت الجوانب محاطة بسور عمودي بارتفاع متر ونصف، بينما

كانت الجدران الصخرية مجوفة إلى الداخل، وتمتد إلى أعلى لتشكل سقفاً مقوساً بارتفاع يبلغ المترين ونصف المتر عند بؤرة التقعر.

كانت الأرض من الطوب، وعلى الجوانب ثُبتت مصابيح أرضية خلف حواجز صغيرة. انعكست الإضاءة الغير مباشرة على الجدران لتكسوها بنور أبيض رقيق ومُكسر.

- «إنه بيت فخم للرب» همس (هانك تورنتن) حين دخل إلى الكنيسة «حسناً، لقد وصلنا أخيراً إلى المكان الصحيح. رغم محاولتكم التكتم إلا أني أحسست منذ البداية أنكم أيضاً من المهووسين بالمسيح».

نظر (كريس) حوله باحثاً. في هذا المكان رأى ثلاثة مقاعد من الخشب الملون إضافة إلى بعض الكراسي المكسوة بالقش. في أحد الأركان برز تمثال للسيدة العذراء يقف على نتوء صخري. أمامه على الأرض رأى مزهرية فيها باقة من أزهار مرغريتا المتفتحة، بينما غرست شمعتان في حوض حجري صغير مملوء بالرمال.

- «تابعوا!» قال (كريس) مشيراً بفوهة سلاحه إلى وسط الحجرة، حيث يقسم جدار صخري القاعة إلى نصفين «افتحوا وأعبروا!»

كان للسور باب من الشباك المعدنية. إلى اليمين واليسار اخترقت الفتحات ذات الشباك المعدنية السور، كأنها نوافذ.

فتح (تورنتن) الباب، الذي انقلبت مفاصله بهدوء. تألمت (زوي بورسل) بغضب حين اندفع (تورنتن) مسرعاً إلى الداخل، فجرح جلدها الحبل ذو العقد الثمانية، المربوط حول عنقها.

في الناحية الثانية وإلى الجدار الأيمن، كان هناك مقعدان من الخشب الغامق، عُلق فوقه مبخرتان معدنيتان. إلى اليسار وجدت منضدة بدت كأنها مقعد مدرسي فردي، كان ظهره مُلبساً بالخشب.

تجول (كريس) في الغرفة. إلى الأمام وعلى جهة اليسار رأى نافذة

مخترقة الجدار الخارجي. ضغط وجهه على لوح الزجاج، وحدق في الظلام. أمام النافذة امتدت ساحة بينية صغيرة. لم يلحظ أي تحركات في الخارج، بل رأى الأسوار فحسب.

بارتياح عاد (كريس) ليستدير إلى داخل الغرفة. على الجهة المقابلة للنافذة، وفي الناحية الأخرى من المغارة، كان هناك درج حجري يقود إلى أعلى وفي نهايته باب داكن ومنخفض. سارع (كريس) بالصعود على ذلك الدرج، ثم دخل في ممر يتجه إلى الأعلى، حيث كان المكان معتماً جداً.

أنصت (كريس). لم يسمع شيئاً. صمت.

فتح الباب وقام بتثبيت أحد المقاعد تحت مقبض الباب.

- «والآن؟» ضحك (تورنتن) بتهكم. فنظرات (كريس) الباحثة كانت تضحكه «لم تتمكن من العثور على خطاف في أي مكان. أليس كذلك؟»

أيديهم مكبلة. فكر (كريس).

على الجدار الرئيس ناحية الشرق، عُلق صليب رفيع من الخشب البني الداكن، يحمل تصويراً للمسيح المصلوب. كان الصليب يمتد من قبة السقف إلى الأرض. أمامه وضعت طاولة صغيرة مربعة مصنوعة من الخشب الفاتح اللون، كمذبح.

حدق (كريس) بالوجه المتألم للتمثال وتردد.

إنه مجرد تمثال.

لا تستطيع...

إنه يسامح!

أزاح الطاولة جانباً.

- «تعالوا إلى هنا» أمسك (كريس) طرف الحبل ذو العقد الثمانية، الملتف حول عنق (زوي) و(تورنتن) وربطه بالأرجل الملتفة لتمثال المسيح المصلوب وأحكم عقد الحبال «حتى لا تخطر لكم أي أفكار غبية».

لعن (كريس) بعصبية.

وضعت (ياسمين) الحقيبة التي تحمل العينات على الطاولة بينما أنزلت قفص الفئران على الأرض تحتها. تخطى (كريس) (تورنتن) و(زوي بورسل)، اللذين وقفا مكبلين عند الصليب كأنهما عمودين داعمين.

- «بشكل ما غير مقبول، قمعي».

- «لابد لي من تكبيلهم بأي طريقة... سوف يغفر هذا...»

عدا (كريس) إلى الخارج، وحمل مع (دوفور) أريكة (ماتياس) إلى الداخل. ثم أخذ أحد المقاعد الخشبية وثبت بها الباب الخارجي.

عندما عاد (كريس) إلى الكنيسة، كانت السيدتان تجثمان إلى جانب (ماتياس). جلس (كريس) مع (دوفور). ساد الصمت. كانت تحركاتهما حذرة بشكل ملفت، وتقريباً مرتبكة.

اجتاحت (كريس) مسحة من الرهبة، كأن هذا المكان قد دُنس بوجودهم.



كلما اقتربت الطريدة، أصبحت تحركات الصياد أكثر هدوءاً. كان (سولفان) كالقطة الباحثة عن فريسة. بلا صوت وبتركيز كبير.

في لمح البصر أصدرت الشريحة المثبتة في بطاقة الائتمان الخاصة بـ (تورنتن)، إشاراتها إلى الأقمار الصناعية. حدق (سولفان) بشاشة الحاسوب المحمول، الذي كان يحمله أحد رجاله بين يديه. بقي خمسة عشر متراً لا أكثر. كانوا في المبنى أمامهم.

ضغط (سولفان) على قبضة الباب، التي لم تتحرك ولو لمليمتر واحد «لا بد أنهم هنا في الداخل. عليكم أن تجدوا طريقاً للدخول».

تراجع إلى الخلف، صعد السلالم الخشبية إلى الشرفة الموجودة في المستوى الأول، وأشعل سيجارة.

لقد نجح ذلك اللعين بجعلهم يرتطمون بالشاحنة. بقوا في حالة إغماء مدة دقائق، محجوزين داخل سياراتهم، قبل أن يزحفوا عبر قمرة السائق الخاصة بالشاحنة ليخرجوا من الجهة الأخرى.

حدق (سولفان) في الظلام وتنفس الهواء البارد بملئ رئتيه. هدأت الحرارة في رأسه. لم ينقصني سوى وجودك، فكر (سولفان)، عندما اقترب منه (فولسوم).

- «سوف يرجمك (هانك)، لأنك لم تتنبه مجدداً كما حدث في المختبر وكذلك في الأسفل عند المنعطف. كان بإمكاننا القبض عليهم منذ زمن».

- «أعلم. إنه خطئي» انسحب (سولفان) بهدوء، حتى لا يضطر لاحتمال (فولسوم) وقتاً أطول. هذا الحقير لا يمكنه الوقوف إلى جانب أحد من رجاله أبداً.

بعد لحظات ظهر ظل على الشرفة في المستوى الثاني وهمس. أسرع (سولفان) إلى الأعلى.

- «لقد عثرنا على شيء».

قاده رَجُله عبر باحة صغيرة، رتبت عليها طبقات من بقايا خشبية وأحجار مرقمة. دخلا في بقايا ممر متقاطع ثم اتجهوا يميناً. تبع (سولفان) عنصره عبر باب مخلوع إلى داخل مبنى. عبروا ممرات مظلمة ووصلوا أخيراً إلى فسحة بينية صغيرة.

نمت أعشاب ونباتات جافة على الأرض، تناثرت كتل حجرية داكنة، كأنه سطح القمر. اتكأ (سباروف) إلى جدار المبنى المقابل، الذي يبعد بضع خطوات، وأشار بيده بقوة.

أسرع (سولفان) إليه والتصق مباشرة بالجدار إلى جانب النافذة.

كانت الحجرة خلفهم غارقة بضوء خافت انبعث من الأسفل إلى الأعلى. رفع (سولفان) رأسه فرأى على الجدار الرئيس للغرفة، صليباً خشبياً حُفر عليه شكل المسيح المصلوب.



انهمر الزجاج على شكل أقواس عالية كأنه ماء مندفع من رشاش. على بعض القطع الزجاجية انكسرت الأضواء فتلألأت كأنها الماس.

ارتطم حجران ذوا ألوان مموجة، -كل واحد بحجم الكف- باللوح الحجري للكنيسة ثم تابعا التدحرج.

صعد (كريس) إلى أعلى. حجب الحائط الحجري وسط الكنيسة رؤيته. توجه إلى الباب ذي الشبك الحديدي ونظر من خلاله.

قفز رجلان من النافذة المحطمة وتدحرجا على كتفيهما إلى الداخل. كانت تحركاتهما رشيقة، كأنهما يقومان بهذا كل يوم.

خلفه ساد الهدوء. لقد كتم التوتر أصوات الجميع.

أخرج (كريس) مسدسه. وحدد الرجل الثاني هدفاً له، ثنى سبابته. شعر بمقاومة عند نقطة الضغط.

- «لا! (كريس)، لا!».

صيحة (ياسمين) جعلته يجفل. لقد نادته بعد أن تجاهلته كل الوقت الماضي! تردد مدة ثانية، كان بإمكانها أن تفصل بين الانتصار والهزيمة.

انطلق الرجلان إلى الأعلى شاهرين سلاحيهما في حركة استعراضية أشبه بالرقص المسرحي. توقفت البقعة الليزرية الحمراء المنبعثة من هدّاف أسلحتهما على صدر (كريس).

نظر (كريس) بتشوش إلى الأسفل. ارتعشت الخطوط الرفيعة قليلاً. ارتفعت إحداها إلى الأعلى بعض الشيء، ثم عادت لتنزل مجدداً. بإرهاق سقطت يده الحاملة للمسدس إلى أسفل.

دخل (سولفان) إلى الكنيسة من النافذة. انسحقت شظايا الزجاج تحت جزمته أثناء توجهه إلى الصليب.



نظر (تورنتن) إلى (سولفان) بغضب. لقد انتهى (فولسوم) لتوه من إعطائه تقريراً شفوياً مروعاً عن تحطم السيارات.

- «لدينا مشكلة حقيقية في النقل» قال (سولفان) بهدوء «السيارتان شبه مدمرتان. ربما يحتملان بضعة كيلومترات بعد، ولكن...»

- «والشاحنة؟»

هز (سولفان) كتفيه.

- «معلقة بعجلتيها الخلفيتين على حافة الهاوية. لا نستطيع استخراجها من هناك. علينا أن نصمد لساعتين فقط. عندما يأتي السيّاح غداً، فسوف...»

- «أحمق!». دفع (تورنتن) (سولفان) على صدره.

- «(هانك) علينا أن نفعل ذلك الآن!» قالت (زوي) «فعندما ...»

- «أعلم يا (زوي)، هذه المرة معك حق. فإن تمكنوا من الحصول على العينات، ستضيع إلى الأبد. ولكن لو كان الطفل يحتضنها، فعليهم أن يقتلوه أولاً ليدمروا المادة الجينية للكروموسوم. لن يفعلوا هذا!».

تقدم (تورنتن) نحو المذبح، فتح الحقيبة، وأخرج الأنبوب الحامل للسائل وأدخل إبرة الحقنة فيه.

ثم تحرك باتجاه الناحية الأخرى للكنيسة، حيث كانت (آنا) و(ياسمين) تجثمان إلى جانب (ماتياس).

جلس (كريس) و(دوفور) بشكل مائل قبالتهم على الجدار الفاصل. وقف أمامهما رجلا (سولفان) شاهرين سلاحيهما.

- «ما هذا!» قالت (ياسمين) حين رأت (تورنتن) الذي تقدم نحوهم حاملاً بيده الحقنة وقد تحجر وجهه.

- «ما عسى هذا أن يكون؟ اسألي صديقك! لو أنكم لم تفروا لكنا الآن نجلس في الطائرة متجهين إلى (بوسطن). ولكن هكذا ...»

- «لم يشأ أحد منا المجيء».

أشاح (تورنتن) بيده.

- «أعلم أن (دوفور) قد تحدث هاتفياً مع ذلك الـ (هيرونيموس) أو البابا. كما أعلم من (سولفان) أن (صوفيا أنتي بولس) تعج بالشرطة. هل تعتقدين أنني أنتظر حتى يقوم أولئك المنافقون الذين يشوشون أفكار الناس بقصصهم الخرافية، بإخفاء هذا السر في أقبية الفاتيكان».

- «عن ماذا تتحدث؟»

ضحك (تورنتن).

- «توقفي - لقد تحدثت مع ذلك القس، ما كان اسمه؟ (هيرونيموس)- لقد قمت بالتحدث مع (هيرونيموس) في (صوفيا أنتي بولس). قبل تحركنا للسفر بقليل. أراد إقناعي بتسليم كل شيء للبابا» هز (تورنتن) رأسه «هذا يعني: أنني أقوم بتدمير هذا الاكتشاف العلمي المذهل! راهب يطلب من عالم التخلي عن علمه!». أشار بيده فتقدم الرجلان التابعان لـ (سولفان)، اللذان كانا يقفان عند الجدار الفاصل، من (ياسمين) و(آنا).

قبضا على ساعدي السيدتين وسحباهما بعيداً عن الأريكة إلى الزاوية الخلفية. بدأت (آنا) بالصراخ والتخبط، عضت بقوة ساعد الرجل.

حتى (ياسمين) قامت بالركل، إلا أنها لم تتمكن من التخلص من القبضة القاسية.

- «كلا!» صاح (كريس) ونهض واقفاً. رفع حارسه السلاح فبقي (كريس) واقفاً.

استدارت (زوي بورسل) نحو (كريس)، «أغلق فمك!».

جثم (تورنتن) إلى جوار الأريكة حاملاً الحقنة، ونظر إلى (ماتياس).

- «هذه الحقنة ستساعدك يا صغيري. إنها ستعيد لك عافيتك». تحدث (تورنتن) بلغة سويدية طلقة.

- «أنت تكذب!». حدق (ماتياس) بـ (تورنتن) بنظرات مباشرة وجريئة «قالت لي أمي، أنه لا أحد يعلم ما يمكن أن تفعله الحقنة».

- «لا علم لوالدتك بهذه الأمور».

- «وخالتي كذلك قالت الشيء نفسه. وهي على علم بهذه الأمور».

أومأ (تورنتن) وأمسك ذراع (ماتياس) اليمنى.

- «لكنها مخطئة».

- «لا أريد هذا!».

سحب (ماتياس) يده ثم انقلب على أريكته في نصف استدارة على جنبه منادياً أمه. قبض (تورنتن) على الذراع النحيلة للطفل وجذبه نحوه. صاح (ماتياس) بصوت أعلى وتخبط في مكانه محاولاً الإفلات. انحنى وقد تردد صوت استغاثته في أرجاء المغارة.

صاحت (آنا) وقاومت قبضة حارسها الذي أمسك بها بشدة، إلا أنها حاولت بقوة لايمكن السيطرة عليها الإفلات منه. دفعها الرجل إلى الأرض ثم ارتمى فوقها.

أراد (كريس) القفز، ولكن تابع (سولفان) ووجه فوهة سلاحه نحو جبينه.

- «أمسك به! (فولسوم)، هيا!».

- «(هانك)، لا نستطيع أن نفعل هذا حقاً!».

نظر (تورنتن) بغضب إلى أعلى، «(آندرو)، هل سمعتك بشكل صحيح؟»

- «لقد قال أنه لا يريد هذا».

حدق (هانك تورنتن) بعيني الرئيس التنفيذي.

- «(آندرو)، أظن أن سمعك أصبح ضعيفاً، أليس كذلك؟ قم بتثبيته!».

تلاقت نظرات الرجلين. بعد ثوانٍ، أغمض (فولسوم) عينيه، ونزل جاثماً إلى جوار رأس الصبي.

تخبطت (آنا)، حاولت أن تدفع الثقل الجاثم عليها إلى أعلى، تلوت كأنها البهلوان. عضت، خدشت وبصقت على جلادها. خرجت من حنجرتها أصوات يأس ثابت.

لم تنجح.

رفع (تورنتن) الحقنة أمام عينيه، ضغط على المكبس فتجمعت قطرة على رأس الإبرة.

- «كلا!» كوّر (كريس) قبضتيه بقنوط. فقد كانت فوهة السلاح موجهة بين عينيه.

صرخ (ماتياس) باضطراب، وبدا يتلوى تحت أيدي (فولسوم)، الذي قام بالضغط على كتفيه الضعيفين. كانت (آنا) و(ياسمين) تستمران بالصياح باسم (ماتياس).

قام (هانك تورنتن) بتلمس ذراع الصبي، ثم وضع رأس الإبرة على الجلد.

في هذه اللحظة فُتح الباب ودخل أربعة أشخاص بأردية بيضاء قطنية واسعة إلى الكنيسة. كانت رؤسهم تختفي تحت قبعات مثلثة الشكل.

الفصل الرابع والأربعون

سلسلة جبال (المور) الهضابية في جنوب (فرنسا)
ليلة الثلاثاء إلى الأربعاء

في البداية رأى العصا المقوسة. فتبادر إلى ذهنه عصا الأسقف ولكن هذه كانت مختلفة، بسيطة وغير ملبسة بقشور الذهب ومن دون زخارف عاجية. ولم تكن لها تلك الرأس الحلزونية المعروفة.

كانت مستقيمة نوعاً ما، ولم تكن تشبه تلك العصي التي تُصنَع باستخدام أدوات معينة. بل انتشرت عليها عقد، كأنّ فروعاً كانت تريد أن تنمو منها ولكنها قُطّعت.

كانت العصا ملساء بطريقة ملفتة، وخصوصاً في جزئها العلوي قبل بداية انحناء رأسها بقليل. كان ذلك الموضع أملساً جداً، كأنه قطعة من الماس المشذب... ماسة سوداء، في ذلك الموضع الذي أمسكته الأيادي لملايين المرات.

صبغتها قذارة الأيدي بلون داكن، لا يمكن أن تكون عصا الأسقف. فيداه لم تكن قذرة. إضافة إلى أن لونها كان رمادياً غامقاً، ويابسة، ومجردة من لحاها، وتلونت بفعل الضوء والأمطار.

اتسع رأس العصا الدائري ليصبح على شكل جاروف أشبه بالمجداف. كان يستخدمه للحفر في الأرض باحثاً عن المياه ليسقي قطيعه عند نقص المياه السطحية.

ثم رأى الرجل. كان الرجل متوسط القامة. لقد تعرّف عليه، لقد رآه ما يقارب الأربع والعشرين مرة حتى الآن. أو ربما فاقت ذلك بكثير؟

كان يرتدي ثياباً بسيطة خالية من الألوان. منسوجة من صوف الحيوانات. مطرزة برسوم من الخيوط الذهبية التي لمعت تحت أشعة الشمس. حذاؤه من الخوص الجاف المجدول بشكل أنيق، وقد غطى رأسه بقطعة من القماش البسيط.

كان وجهه مستطيلاً وجسده قوياً، كأنه معتاد على العناء والعمل الشاق. وكانت عضلات ساعده تبرز عند أي حركة يقوم بها تحت لهيب الشمس الساطعة. بدا وجهه الجاف كأنه قطعة من الجلد التي تلونت بالسُمرة. لم يتمكن من تقدير عمر ذلك الرجل.

اتسعت الصورة أمامه حتى ظهر قطيع الأغنام. كالعادة.

كانت تتجمع إلى جانب بعضها البعض وترعى بحثاً عن العشب الطري. اختار القطيع موضعاً جيداً. فقد كانت الأرض الرملية مليئة بالأعشاب.

وقف الرجل متكئاً على عصاه وملقياً بالنصف العلوي من جسده على الجزء المستقيم من العصا وممسكاً بها بكلتا يديه، بينما كانت النهاية الدائرية للعصا ترتكز بشكل مائل على الأرض. كان يقف وسط القطيع.

بقوة وعزيمة بدأ العدو هجومه. وكالمعتاد. ظهرت بقعة في كبد السماء، ما لبثت أن تعاظمت. كانت المخالب نافرة إلى الأمام. وبصورة مكبرة رأى المنقار، والعينين الجشعتين للصياد الذي أحضر الموت معه.

رمى الراعي حجراً مستخدماً المجداف، ثم رمى بآخر ثم آخر.

إلا أن النسر تفادى تلك الحجارة بحركات متأرجحة، وانغرست مخالبه بعمق في لحم الخروف.

تخبط النسر ودفع بالخروف إلى الأرض. قاوم النسر ذلك الثقل

المثبت بين مخالبه بتحريك جناحيه بضربات قوية وهادئة، ارتفع ثم هوى مجدداً إلى الأرض.

رمى الرجل المزيد من الحجارة، وسارعت الكلاب نحو النسر.

بصفير غاضب وضربات أجنحة عنيفة، حلق النسر في السماء تاركاً فريسته ملقاة على الأرض.

هرع الراعي إلى الحيوان المدمى وتلمس جراحه. تلطخت يداه بالدماء بينما كانت الكلاب تشتم بحماس بقع الدم المتجمعة على العشب.

أخفض الراعي رأسه.

أفهم حزنك، قال البابا. لقد كان الحيوان ما يزال صغيراً وكان بإمكانه أن يجلب لك الكثير من السعادة.

تردد الراعي، وقف، تحرك بقلق ثم عاد إلى الحيوان الميت ومسح عليه. سحب سكيناً من غمده. نحّى الكلاب جانباً ثم جرح ساعده الأيسر بالسكين.

تدفق الدم من الجرح. رفع الراعي ساعده أمام الفم المفتوح وعصره. تساقطت قطرات الدم إلى حلق الحيوان.

- «كلا، لا يمكنك فعل هذا!» صاح البابا «يحظر عليك هذا في جميع الأزمان! اللوم يقع على الراعي!».



شعر البابا بيد تهز كتفه فاستفاق من حالة الغيبوبة. غمرت ابتسامة خفيفة الوجه القلق لـ (هيرنيموس)، عندما رُفعت الغشاوة عن عيني البابا.

- «لقد شاهدت رؤية...»

- «أعلم». تمتم (هيرونيموس) بصوت منخفض.

ذكرت أصوات المحركات البابا أن الأمر أوشك على الانتهاء. لكن ما لبث الشكوك أن هاجمته مجدداً.

- «أين نحن؟»

- «أوشكنا على الوصول، قداسة البابا».

- «يجب أن تنجح...»

- «نحن نقترب من الجنوب. يقول الطيارون، أن محافظتنا على الارتفاع ستحمينا، لن يلحظوا وجودنا إلاّ في وقت متأخر. سأقوم بالاتصال بـ (جاك دوفور). سننجح».

سرحت أفكار البابا في الرؤية.

- «لم يتمكن الراعي من مقاومة الإغراء. هل هذا قدري أنا أيضاً؟»

الفصل الخامس والأربعون

الدير المنعزل في (فيرن)

سلسلة جبال (المور) الهضابية في جنوب (فرنسا)

صباح الأربعاء

وقف الأشخاص الثلاثة بلاحراك أمام الباب. بلمح البصر أصبح الجميع صامتاً. سحب (تورنتن) يده عن ساعد الصبي.

- «سيسعدنا لو أن وجودكم في هذه الكنيسة بهدف العبادة. فهذا بالضبط هو دورها. مع أن الوقت غير مخصص للزوار» كان الصوت جلياً.

تقدم (كريس) خطوة نحو الأمام ومدّ رأسه، ليرى بشكل أفضل. فعل (دوفور) الشيء نفسه. بينما تمايلت أجساد الجلادين اللذين كانا أمامهما بتوتر، لقد كانا يقفان بظهورهما نحو الغرفة فلم يريا شيئاً مما حدث خلفهما.

غطت القبعات رؤوس الأشخاص مرتدي البياض. عندما استدار أحدهم جانباً، رأى (كريس) الملامح الناعمة لوجه سيدة.

- «لقد فوجئتم بوجودنا»، وقف (تورنتن) وتقدم مبتسماً إلى الأمام «إنه وقت غير ملائم حقاً. لم نكن نعلم...»

- «وقت الصلاة الصامتة».

نظر (كريس) إلى ساعته. إنها بعد الرابعة بقليل.

- «لقد ضللنا الطريق في الليل، ثم تعرضنا لحادث فالتجأنا إلى هنا» قال (تورنتن) بصوت لطيف.

- «الصبي مصاب؟ هل أنت طبيب؟ تريد أن تعطيه حقنة مهدئة؟ هل بإمكاننا مساعدتك؟»

تقدمت الراهبة خطوة إلى الأمام.

- «شكراً. فلدي الخبرة اللازمة». رفع (تورنتن) يديه بشكل دفاعي «إنه منفعل جداً. فقد كان الأمر فوق احتماله. ليس هناك ما يدعو للقلق. نستطيع تدبر أمرنا، لو أننا فقط... ليس لديكم مانع؟»

نظرت الراهبة إلى (فولسوم) الذي كان ما يزال يجثم خلف (ماتياس)، لكنه أبعد يديه عن كتفي الصبي.

- «أنا مسؤولة دير (لافرن)، ممثلة رئيسة الدير»، أدارت الراهبة رأسها مجدداً، فوقع نظرها على (جاك دوفور).

قدر (كريس) عمر المرأة بما يفوق الخمسين بقليل. بالرغم من أنه يمكن أن يكون قد أساء التقدير بشكل كبير. أُعجب بتعاملها الهادئ مع الموقف. لابد أنها رأت الأسلحة!.

- «بلغة العلمانيين، يصفنا البعض أننا جماعة من المتأملين، الذين يبحثون من خلال الهدوء والعزلة عن السبيل إلى ربهم».

- «عرائس المسيح»، ابتلع (تورنتن) نصف الكلمة، لأنه لم يتمكن من إخفاء نبرة الاستخفاف التي حملها صوته. تمالك نفسه «وماذا تفعلون في هذا المكان الموحش؟»

- «قصص الغرام لا يبوح بها أحد، أليس كذلك؟» لمعت عيناها «نحن ست عشرة أخت من الراهبات، نقوم بإعادة بناء المكان منذ عقدين وبمساعدة أيادٍ كثيرة. كان الرهبان الكرتوزيون يعيشون هنا قديماً. هنا كان المطبخ. الأخوات الأوائل حولوه إلى كنيسة صغيرة، ليوفروا لأنفسهن مكاناً

للعبادة. واليوم خصصت لاستقبال الزوار المصلين. ولهذا نريد تجهيز المكان».

تقدمت الراهبة خطوة إلى الأمام، أدارت وجهها، وخاطبت (كريس).

- «أنت موجود الآن في بيت الرب. أقسم بالله أنك ستحافظ على السلام، وبهذا يستطيع الرجال وضع أسلحتهم. فليس لها مكان في بيت الله مطلقاً».

أدارت وجهها إلى (تورنتن) مجدداً.

- «هل هو لص خطر؟ لماذا الأسلحة؟»

- «حسناً، إنه المسؤول عن الحادث. لقد سرق، وهو لا يتورع عن عمل أي شيء».

- «إنه يكذب!» -صاحت (آنا)- «هو المجرم!».

- «أمي، أمي!». صاح (ماتياس) بصوت ضعيف ومدّ جسده. ضغط (فولسوم) بيديه على الكتفين النحيلين. انهار (ماتياس) باكياً تحت الضغط.

بدت الراهبة كأنها تنمو. فقد تمدد جسدها وتصلب بتقزز. لاحظ (كريس) أنها أشارت إلى الراهبات بيدها، فتقدمن إلى الأمام.

- «لا يمكنني الوثوق بأناس يقفون شاهرين أسلحتهم أمام مذبح المسيح». نحّت المسؤولة الكرسيين أمامها جانباً وتقدمت نحو (تورنتن).

- «توقفي، الأمر لا يعنيكِ!» تجمد وجه (تورنتن) كأنه قناع حديدي. ولأن الراهبة تابعت تقدمها نحوه صاح: «(سولفان)!».

خرج مدير الأمن من خلف الباب ذو الشبك الحديدي من الجانب الآخر للكنيسة، حيث كان يقف منتظراً طوال الوقت.

- «نعم!».

- «أوقفها!».

- «كيف؟»

- «افعل ذلك ببساطة!».

- «لا أستطيع!». وقف (سولفان) عاجزاً.

وقفت الراهبة على مسافة قريبة جداً أمام (تورنتن) وفتحت يدها باتجاهه.

هز (تورنتن) رأسه.

- «إنك حقاً لا تعتقدين...»

- «هذا يكفي». قالت (زوي بورسل) التي كانت إلى جانب (تورنتن)، وضغطت بيدها على صدر الراهبة.

تلاقت عيناهما لثانية. اقشعر بدن (زوي بورسل). فإنها لم ترَ من قبل نظرات قاسية وخالية من الشفقة كتلك. سحبت يدها برهبة وتراجعت إلى الوراء بنظرات متجهة نحو الأرض.

- «(هانك)، ربما...»

تقدمت الراهبات الثلاث الأخريات ومروا بين (تورنتن) و(زوي بورسل) باتجاه الأريكة. هناك استداروا مشكلين سوراً.

- «لا تظنوا أننا نستسلم للخوف. نحن على يقين: أن الرب معنا ومشيئته هي التي ستكون».

اقتربت مسؤولة الدير أكثر من (تورنتن) حتى كاد رأساهما أن يلتصقا ببعض.

رفع (تورنتن) يده التي تحمل الحقنة إلى أعلى. عندما شعر بيد الراهبة تقبض بقوة على معصمه، صاح بصوت عالٍ.

كان الحراس المحيطين بـ (كريس) قد أداروا رؤوسهم منذ زمن ونظروا إلى بعضهم بدهشة، عندما صرخ رئيس مجلس الإدارة.

ثم قفز أحدهم من الخلف وارتطم بالراهبة التي كانت ما تزال تقبض على معصم (تورنتن).

رفع (كريس) يده بقوة إلى أعلى وضرب بكوعه الرقبة الغير محمية للحارس الآخر. انعكف جسده وتلوى. أنزل (كريس) يده إلى أسفل وانتزع السلاح من الحارس.

كان (تورنتن) ما يزال يقف بساعدٍ مرفوع إلى الأعلى، بينما كانت الحقنة ترتعش في يده. شعر بجسد الراهبة الطري وهو يرتطم به، حاول المحافظة على توازنه. سقط (تورنتن) منادياً (سولفان)، بينما كانت (زوي بورسل) تقف إلى جانب (فولسوم) عند رأس الأريكة.

زادت الراهبة من تضييق قبضتها على معصم (تورنتن). هوى الاثنان إلى الأرض، بينما سقط الحارس فوقهما. قفز (سولفان) من الباب ذو الشبك الحديدي باتجاه الكومة البشرية وأمسك بيد (تورنتن) التي كانت ممتدة إلى الخارج وممسكة بالحقنة.

شكلت الراهبات الثلاثة جبهة ضد الرجال اللذين كانوا يحرسون (ياسمين) و(آنا)، وقاموا بدفعهم إلى الأمام. خلفهم هبّت (آنا) واقفة، ودفعت نفسها بين الجميع مسرعة نحو الأريكة، سحبت (ماتياس) إلى الأعلى وحملته.

اندفع (كريس) باتجاه (سولفان) وضربه بمؤخرة السلاح على رأسه. ترنّح مدير الأمن وسقط على الأرض إلى جانب (تورنتن).

استدارت (آنا) واستعدت للهرب مع (ماتياس). استيقظت (زوي بورسل) من صدمتها وأمسكت بشعرها. أرجعت (آنا) رأسها إلى الخلف، بينما كانت تحمل الجسد النحيل مقدمة إياه إلى الأمام كأنها تحمل صينية.

انزلق جسد (ماتياس) على ذراعي (كريس)، وسقطت (آنا) على ظهرها جرّاء قبضة (بورسل) العنيفة، التي سحبتها من الخلف. استدار

(كـريس) إلى الخلـف بـسرعة وهـرع إلى البـاب ذو الـشبك الحديـدي، في الجانب الآخر من الكنيسة.

نظر من فوق أكتافه إلى الخلف باحثاً عن (ياسمين).

سأخرجكم من هنا ...

بدا الجسد الصغير بين يديه خفيفاً جداً، بينما امتلأ الوجه بالدموع. صعد (كريس) السلالم الصغيرة بسرعة. أزاح المقعد الخشبي جانباً وانزلق إلى الممر.

خلفه سمع صوت (ياسمين) ينادي باسمه.



ركض (كريس) عبر الممر ثم وصل إلى رواق. وأخيراً انتبه إلى التغيير الذي حدث. المصابيح مضاءة. فقد كان ذلك الممر معتماً تماماً. «الراهبات»، فكر (كريس)، لابد أنهن سلكن هذا الطريق للوصول إلى الكنيسة.

- «سيكون كل شيء على ما يرام» تمتم عدة مرات محاولاً تهدئة (ماتياس)، بينما كان يفكر. لابد أن توجد أدراج أخرى في مكان ما، تقود إلى الأسفل حيث يوجد المدخل، الذي استخدمته الراهبات للدخول إلى الكنيسة. تذكر المخرج الموجود قبل باب الكنيسة بقليل. في مكان ما على يمينه. إلا أنه أراد الخروج من الكنيسة، ولهذا انطلق نحو اليسار.

بعد خمسة عشر متراً وجد نفسه خارج المبنى، ووقف في ساحة حجرية بمساحة قطعة صغيرة من الأرض، التي كانت مفتوحة من ناحية الشرق، ويطل عليها مستويان من الشرفات. أمام سور المبنى تجمعت أكوام من الركام، الخشب، الحجارة وبقايا حديدية.

نظـر (كـريس) إلى سـلاسـل الجبـال الممتـدة شـرقاً. كـان ضـوء النـهار يتسلل إلى القمـم المكسوة بالخضـرة، بينمـا كانـت الوديـان مـا تـزال تغـرق في الظلام.

باتجاهـه تقـدمت راهبتـان بخطـوات ثابتـة مـن الـشرفة الـشرقية مرتديتان أردية قطنية.

قـدر (كـريس) عمـر إحـدى الراهبـات بمنتـصف الـستينيات. كانـت عيناهـا تـشع بالثقـة والقـوة. بينمـا بـدت الأخـرى أكثـر شـباباً بـشكل واضـح، ربما قريبة من الثلاثينيات.

- «سـاعداني! خـذوا الطفـل إلى مكـان آمـن!» قـال (كـريس) باللغـة الفرنسية.

رمقته الراهبـة المسنة بنظـرات متفحـصة مـن قمـة رأسـه إلى أخمـص قدميه، ثم نظرت طويلاً إلى (ماتياس).

- «يمكنك التحدث بالألمانية، أنا مسؤولة مجموعة من الراهبات وقد ولدت في (النمسا)».

أخبرها (كريس) باقتضاب ما حدث داخل الكنيسة في الأسفل، وعـن أي مساعدة هو يبحث. أصدرت الراهبة الـصغرى صـوتاً متفاجئاً. بينمـا لم يبدُ على الراهبة المسنة أي تعبير. فلم يبدُ عليها إن كانت تصدق (كريس).

- «هـاك، خـذوا الطفـل إلى مكـان آمـن. أرجوكمـا!» رفـع (كـريس) (ماتياس) إلى أعلى وحملته الراهبة على ذراعيها.

- «الـبعض منـا يـسكن بيوتـاً خـشبية مطلـة علـى المنحـدر الموجـود شـرقي الـدير. إنـه سـكننا المؤقـت منـذ عـشرين عامـاً» أشـارت المـسؤولة إلى الجهة التي قدمتا منها «سنأخذه إلى هناك. وماذا ستفعل؟»



دفع (تورنتن) المسؤولة جانباً وصاح مؤنباً (سولفان).

كان وجه الأول على بعد ميليميترات من وجه الآخر، حين تلقى (سولفان) وابلاً من الإهانات، التأنيب والكلمات المذلة، بهدوء مقزز. فقط وجهه المحمر ويداه المرتجفتان كانت تنم عن مدى توتره.

جثمت كل من (ياسمين) و(آنا) في إحدى الزوايا متعانقتين وملتصقتين ببعضهما. كانت (آنا) تهمس مرددة اسم (ماتياس) دون كلل.

- «سيعتني به (كريس). إنه في مأمن!». همست (ياسمين) لها عدة مرات محاولة تهدئتها.

أنهى (تورنتن) موجة غضبه، وترك المجال لـ (زوي بورسل) لتستمر بكيل الشتائم لـ (سولفان) بأنه غير جدير وغير مؤهل.

ركل (تورنتن) بقوة التمثال الطيني للسيدة العذراء الذي كان موضوعاً في الزاوية، فهوى متكسراً على الأرض. انطلق إلى الصليب، قلب في طريقه الأحواض التي تحمل البخور على الأرض، ثم وقف بغضب أمام التمثال المصلوب.

- «أخبرني، هل لك دور في هذا؟»

حدق بتمثال المسيح المصلوب بنظرات جنونية، ثم ضحك باستهزاء عندما سمع الصيحات المستنكرة للراهبات.

هزّ الصليب بقوة، بينما كان يلهث كالوحش حتى هدأ غضبه.

رنّ هاتف جوال، فخيّم الصمت على الجميع.

- «هاتف من هذا؟» سأل (تورنتن) بعينين محمرتين من شدة الغضب وتقدحان شراً.

- «لي» قال (دوفور) أخيراً، ثم سحب الهاتف من جيب سترته «الأخ (هيرونيموس)» تمتم (دوفور) عندما قرأ اسم الراهب على شاشة الهاتف.

- «قمت بالاتصال به من قبل، أثناء قدومك إلى هنا؟»

أومأ (دوفور).

- «وماذا بعد؟»

رأى (دوفور) رغبة الجريمة في عيني رئيس مجلس الإدارة «إنه قادم إلى هنا».

- «لكنه لن يأتي لوحده. من سيكون برفقته؟»

- «البابا سيرافقه».

صمت (تورنتن).

- «هل يجيب؟» دنا (سولفان) من (دوفور).

حدق (تورنتن) بتمثال السيدة العذراء المحطم على الأرض «كلا! علينا الاختفاء بسرعة. فإن وصلوا إلى هنا، لن يكون أمامنا الكثير من الفرص. يجب أن نجرب السيارات. هل أمامنا إمكانيات أخرى؟»

- «سأحاول تأمين مروحية». تمكن (سولفان) من السيطرة على نفسه ولكن كان داخله يفور كالبركان. لن يسامحهم على ذلك الإذلال «من خلال رجالنا في المطار. خيار المستشفى يبقى بعيداً، حيث أنها مليئة بالشرطة. سننطلق بالسيارات إلى أبعد مكان ممكن، ثم ندعهم يأخذونا من هناك».

- «كم من الوقت سيستغرق هذا؟»

- «ساعتان إلى ثلاث ساعات».

- «إنه وقت طويل... ولكن لا يوجد بديل! افعل هذا. ثم نذهب».

- «كلنا؟ لن نتمكن حتى من أخذ كل رجالنا من هنا».

أشاح (تورنتن) بيده بإشارة استعلاء.

- «كلما أخذنا المزيد من الرهائن، سيكون وضعنا أفضل. ويمكننا التخلي عنهم في أي وقت. هيا قم بالاتصال».

بعد مرور عدة دقائق، أومأ (سولفان) مؤكداً.

تقدم (تورنتن) من الأريكة التي كانت (آنا) و(ياسمين) جاثمتين إلى جوارها.

- «سنذهب من هنا. وأنتما معنا».

حدق (تورنتن) بـ (آنا). فأم مضطربة، كأنها لبوة تقاتل لإنقاذ ولدها، كان آخر ما يحتاج إليه الآن. ولكن كرهينة...

❖ ❖ ❖

اقترب (كريس) من السور الحجري، ونظر إلى الساحة الكبيرة للدير، كانت تمتد من الغرب إلى الشرق على طول الدير، لمسافة ثلاث مئة متراً وبعرض ثلاثين متراً. بالمقابل كانت جبهة البناء، التي تشكل السور الخارجي الجنوبي للدير.

أسرع (كريس) باتجاه السور الخارجي الغربي. هنا كان كل شيء متداخلاً، ويوجد الكثير من المنافذ. الطريق من هناك، هكذا قالت المسؤولة.

كانت بوابة كبيرة تخترق سور المبنى، يمكن لعربة خيول كاملة الدخول عبرها بكل سهولة. قاده الطريق الوعر إلى الأسفل وامتد على الجهة الأخرى كمنحدر إلى جانب الشرفة الأولى.

تسلل من خلال البوابة والتصق بالجدار من الناحية الثانية. إنه يقف الآن بشكل جانبي أعلى المكان الذي كانوا قد وجدوا باب الكنيسة الصغيرة عنده.

مزق ضوء النهار عتمة الليل وقد بدأ النور الرمادي الفاتح يتسلل بين الشقوق بشكل واضح.

اتخذ وضع القرفصاء. لم يرصد أي حركة في المكان. لقد قاموا بنشر حراسة! أين هم؟

فجأة سمع صوتاً وضجيجاً. إنه قادم من الأسفل، من جهته اليسرى، حيث كان مدخل الكنيسة الصغيرة.

لقد كانت البوابة الصغيرة والمنخفضة تقع في زاوية ميتة لا يمكنه رؤيتها من حيث يقف. وقف (كريس) وتسلل بوضع منحنٍ عشرة أمتار إلى أسفل المنحدر. أنعشته النسمة الباردة الآتية من الغرب وبردت وجهه الساخن.

الآن أصبح بإمكانه رؤية الزاوية الميتة، التي تقع باتجاه مائل للأسفل، بشكل أوضح. ما تزال العتمة تغطي بوابة الكنيسة، حيث أنه لم يتمكن من تمييز الأشخاص اللذين وقفوا أمامها. تسللوا على الطريق المنحدر وتوجهوا بعيداً عنه نحو الجنوب إلى البوابة الرئيسة.

عد (كريس)... أربعة بأردية كنسية فاتحة اللون وقبعات الرهبان. الراهبات. (آنا)... رجال (سولفان). (ياسمين)...هناك، إنها تسير هناك!

لو أنها نظرت الآن إلى الخلف، نحوه في الأعلى فسوف يقفز لدقيقة أو لثانية ليريها أنه ما يزال موجوداً.

في تلك الأثناء ابتعدت إحدى الراهبات عن المجموعة، وهرعت نحو الشمال.

وصلت صيحات مكتومة إلى مسامعه.

كان طول الراهبة على الطريق أسفل منه، يصل تقريباً إلى مستواه.

رفع أحد الرجال يده اليمنى.

- «كلا!» قفز (كريس)، وحمل سلاحه إلى الأعلى.

خرجت رصاصة من فوهة سلاحه. امتزج أزيز رصاصته مع أصوات الطلقات الأخرى.

الفصل السادس والأربعون

الدير المنعزل في (فيرن)

سلسلة جبال (المور) الهضابية في جنوب (فرنسا)

صباح الأربعاء

وقف (تورنتن) في ظلال السور وحدق بالطريق، الذي كان يقود باتجاه اليسار إلى البوابة الرئيسة والطريق العام. كان الطريق منحدراً جداً وقد نمت به الأشجار والنباتات بشكل كثيف، حيث كانت تعيق النظر إلى الغرب، وبالتالي إلى سلاسل التلال والوديان المنتشرة.

بدأ الصباح ينتشر في الأفق ويلقي أنواره على الوديان.

- «كل شيء هادئ» تمتم (سولفان).

مد (تورنتن) رأسه، ونظر إلى جهة اليمين، حيث كانت السلالم الخشبية تقود إلى الشرفة الواقعة في المستوى الأول، «فلنسرع، بقي عشر دقائق لنصل إلى السيارات» كان يحمل الحقيبة التي تحتوي على بقايا العينات، بينما حمل (فولسوم) قفص الفئران على ذراعه.

أشار (سولفان) لاثنين من رجاله فتوجهوا نحو المقدمة. مشى كل من (بورسل) و(فولسوم) أولاً ثم تبعهم (سولفان) ورئيس مجلس الإدارة. خلفهم سار كل من (ياسمين) و(دوفور) والراهبات، بينما كان خمسة من رجال (سولفان) المتبقين يحرسونهم.

فكر (تورنتن) بالخطوة التالية. عندما يصلون إلى السيارات فعليه أن يقرر من منهم سيبقى هنا. هز رأسه بقوة، كأنه يحاول طرد تلك الأصوات الغريبة من عقله. هناك ما يقلقه.

فجأة سمع صيحات مندهشة.

شغلته عن الأصوات المكتومة.

المزيد من الصيحات. نظر (سولفان) بتوتر إلى السماء.

- «(سولفان)، هل أنا محاط بالمعتوهين؟» ارتجفت شفاه (تورنتن) لشدة غضبه.

إحدى الراهبات تمكنت من الفرار بعيداً عن المجموعة وتوجهت نحو الشمال. تردد حارسها ثم مد يده.

ارتفعت الأصوات الموسوسة في رأس (تورنتن). لقد كانت إشارة خطر!

جلجلت الرصاصة.

انحنى ظهر الراهبة الفارة إلى الأمام بعد أن اخترقته الطلقة بقوة. طارت يداها في الهواء وصدرت منها صيحة قصيرة بصوت حاد مزق هدوء المكان. هوت الراهبة بذراعين مفتوحين إلى الأرض.

كان صوت أزيز الرصاص طويلاً بشكل ملفت، ترنح القناص بقدمين منحنيتين إلى الجرف، وسقط بصمت بين الأشجار والنباتات.

أخيراً أدرك (تورنتن) أنه قد تم إطلاق رصاصتين. توجهت نظراته نحو الأعلى حيث الشرفة ولمح الشخص الذي كان يقف عند السور الحجري.

تعالت الوساوس في رأسه.

- «هناك في الأعلى!» صاح.

- «(ياسمين)!»

رفعت رأسها إلى الأعلى. وقف (كريس) منتصباً عند السور الحجري ملوحاً لها بيديه.

- «إنه (تسرنت هاين)! أطلق عليه النار!» أشار (تورنتن) إلى (كريس).

- «(كريس)!».

رفع رجلان من رجال (سولفان) سواعدهما إلى الأعلى مصوبين أسلحتهم نحو الهدف.

- «كلا!» صرخت (ياسمين) باضطراب.

انطلقت العيارات النارية من فوهتي سلاحي الرجلين دون توقف.

بدد أزيز الرصاص الأصوات الهامسة في رأس (تورنتن).

- «تابعوا!» صاح، حين رأى جسد (كريس) يسقط. ثم انطلق مسرعاً، «لاحقوهم! هيا! أسرعوا!». عاد صوت الضجيج الآن بقوة وقد أصبح قريباً.

حلق جسم أشبه بالدبور الكبير عند قمة الجبل باتجاه الجنوب.

تصاعد ذلك الضجيج ليتحول إلى صوت صفير عالٍ. بدأت الطائرة المروحية تهبط من ارتفاع الجبال باتجاه بناء الدير، حلقت مارة فوق السور الخارجي الجنوبي، ثم اتجهت غرباً وظهرت فوق الوادي عند الناحية الغربية للدير. هناك حلقت على شكل عقدة واتجهت نحو السور الغربي للدير. أعملت كشافاتها، فانتشر ضوؤها الساطع كأنه انفجار نجمي. تراقصت حزمات الضوء فوق الطريق الحصوي، استدارات، ثم عادت، وكست كل شيء بأنوار متوهجة.

أشاح (تورنتن) بوجهه لتجنب الضوء الساطع.

وجّه الطيار المروحية بمحاذاة سور الدير، ثم حلق فوق الجرف. بدأ يقترب من الطريق الحصوي، بحيث كانت قمرة الطيار متجهة إلى الأعلى.

عند الباب الجانبي المفتوح، جثم رجلان، كانا مربوطين بأحزمة أمان وقد حملا بأيديهم أسلحة. خلفهما وقف قناصان آخران.

- «توقفوا! ابقوا في أماكنكم!».

دوّى الصوت الصادر من المكبرات كأنه عاصفة اجتاحت الوادي. وقد تسمرت كرات الضوء عند أهداف معينة.

فقد رجلا (سولفان) اللذان كانا في المقدمة أعصابهما. جثما على ركبهما وبدأوا إطلاق النار باتجاه المروحية.

تناثرت شظايا الحصى أمام (تورنتن)، بينما ارتطمت إحدى الرصاصات إلى جانبه في الأرض، مصدرة صوت صفير. ثم تبعتها ثانية ثم ثالثة. امتزجت جلجلة المحركات بأزيز الرصاص الصادر من الرشاشات ذات الطلقات السريعة.

مرت الطلقات إلى جانب (فولسوم) و(بورسل) دون أن تصيبهما. ثم اخترقت زخات الرصاص الرجلين في المقدمة. تمزق جسديهما، ودوّت طلقاتهما الأخيرة في أذني (تورنتن)، كأنها صرخة حادة عند بوابة الدخول إلى العالم الآخر.

حدق (تورنتن) بتلك الفوضى الدموية، التي كانت قد حدثت في الجهة الأمامية. على صدر أحدهم امتد خط من الثقوب السوداء، التي تدفقت منها الدماء.

بقي (فولسوم) واقفاً بيأس وقد رفع ذراعيه إلى الأعلى، بينما انحنت (زوي بورسل) إلى إحدى الجثث وانتزعت سلاحه، وحملته في يدها.

- «إلى الخلف! إلى الخلف!».

التفت (تورنتن) إلى الخلف ضاغطاً فوهة سلاحه على بطن (ياسمين) التي كانت تقف خلفه مباشرة.

- «لو قمت الآن بأي حركة فسينتهي أمرك هنا!».

زاد (تورنتن) من ضغط فوهة السلاح، «هل تفهمين ما أقوله؟»

كاد وجهيهما أن يلتصقا ببعضهما. كانت عينا (تورنتن) تلمع بجنون. صراع بين الذعر والعزيمة المطلقة.

- «استديري نحو الطائرة المروحية وتقدمي بهدوء مبعدة يديك عن بعضهما. حتى يروا أنك لا تحملين سلاحاً».

كان رجال (سولفان) منبطحين وموزعين على الطريق الحصوي، مصوبين أسلحتهم نحو المروحية ولكن دون أن يطلقوا النار.

- «استسلموا! ألقوا أسلحتكم!». تردد الصوت القوي مجدداً من مكبر الصوت.

وقف (سولفان) إلى جوار (دوفور) وقد أحكم قبضته على عنق (آنا). بينما كان يضغط فوهة سلاحه على رأسها.

- «علينا أن نتراجع!» صاح (تورنتن) بـ (سولفان).

في تلك الأثناء فرّت اثنتان من الراهبات بينما بقيت المسؤولة واقفة في مكانها تنتظر.

- «افعل شيئاً!» صرخ (تورنتن).

- «هل علي أن أطلق عليهما النار أيضاً؟» صاح (سولفان) ووكز أحد رجاله المنبطحين أرضاً بمقدمة حذائه، «(سام)! اقبض عليهما!».

رفع (سام) رأسه ونظر بتردد إلى الطائرة المروحية ثم قفز واقفاً. انطلق خلف الراهبتين. استغرق الأمر خمس ثوانٍ حتى يلقي القبض عليهما.

انطلقت رصاصة واحدة.

ومضت فوهة السلاح الممتدة من الباب الجانبي للمروحية بضوء ساطع. انحنى (سام) ثم سقط. التفت أصابعه حول رداء الراهبة جاراً إياها معه.

إلا أن الراهبة وقفت مجدداً وانطلقت مسرعة نحو باب الكنيسة وانزلقت مع الراهبة الأخرى إلى داخل المبنى.

حلقت المروحية بشكل ثابت في الهواء، بينما استمر تردد الصوت من المكبر الذي كان يطالبهم بتسليم أنفسهم.

- «يمكنهم القضاء علينا إن قمنا بأدنى حركة!». همس (سولفان) وألقى نظرة سريعة على أحد رجاله القتلى.

- «وبإمكاننا فعل ذلك مع رهائننا أيضاً! ليس لدينا إلا هذه الفرصة! هيا!». لهث (تورنتن) لشدة الإثارة.

تحركوا بخطوات مائلة متراجعين نحو الطريق، بينما كانت دروعهم البشرية أمامهم باتجاه الطائرة المروحية. بقيت مسؤولة الراهبات واقفة مكانها بتردد، حتى أتت (زوي بورسل) من خلفها وضغطت فوهة السلاح على ظهرها.

- «لقد تمنيت هذا منذ زمن بعيد. لا تعتقدي أني لا أستطيع إطلاق النار».



وقف (كلود داورياك) خلف القناصين عند الباب الجانبي للمروحية محدقاً ببرود إلى تلك الخنازير المذبوحة على الأرض.

لا يمكن لأحد أن يطلق النار على رجال مجموعة التدخل للشرطة الوطنية الفرنسية. الكل في (فرنسا) يعرف ذلك. المتمردون في السجن أوقفوا ثورتهم حال معرفتهم بقدومهم. وكذلك عصابات الجريمة المنظمة، أيقنوا تماماً أن رجال هذه المجموعة تعرف كيف ومتى تستخدم أسلحتها.

كان (داورياك) يثق بدعم رؤسائه له. فقد كانت القاعدة المعروفة

للوحدات الخاصة تقول، أن استخدام السلاح ضد الخاطفين هي الطريقة الأنجع لحماية الرهائن. كانت قوة مؤثرة، فرقة هجومية بلا هوادة. فالإنذار والإخافة كانا جزءاً من فلسفتهم. ومن يقاوم رغم ذلك، فعليه تحمل النتائج. ليس مجموعة التدخل للشرطة الوطنية الفرنسية. لا يوجد مكان للعواطف هنا. فالأولوية كانت لحماية المجموعة.

هكذا كان الأمر.

كان (داورياك) يعلم أن طريقتهم في التعامل دائماً ما تُنتقد. حتى في بلدهم ورغم نجاحاتهم.

كان عليه الانتباه أكثر في هذه الحالة. فقد أكد البابا برسالته لهم، أنه يريد الحوار والإقناع وليس القتل.

تنهد (داورياك). سيكون حذراً إذاً. ولكن إن تعرض للهجوم، فإنه سيترك الجحيم يندلع.



انبطح (كريس) على المنحدر وراقب الانسحاب.

ركز نظره على (تورنتن)، الذي كان يستخدم (ياسمين) كدرع بشري وظهر عند زاوية السور، حيث كان جدار المبنى يمتد باتجاه باب الكنيسة في الركن الذي لا يمكنه رؤيته.

بدت الطائرة المروحية كأنها جني المصباح الذي ظهر عند المنحدر. لابد أنهم من الحرس الخاص للبابا. وبرغم ذلك بقي منبطحاً. فهم لا يعرفون من يكون، وهم يطلقون النار بلا هوادة.

مدّ ذراعه نحو الهدف. وقف (تورنتن) تحت الأضواء الساطعة، بينما

كان ظهره يشكل هدفاً مناسباً جداً للرماية. ولكن (كريس) تردد. ففي حال أخطأ الهدف، سيكون لدى (تورنتن) القوة الكافية لضغط الزناد.

- «لقد كنت دائماً رامياً ممتازاً». قال لنفسه مشجعاً.

ابتلع (كريس) لعابه، استمر بالتردد.

توجه (تورنتن) و(سولفان) بخطوات إلى الخلف نحو باب الكنيسة. أثناء ذلك كان (سولفان) يصيح برجاله، الذين وقفوا بتردد وبدؤوا بالانسحاب إلى الخلف. جرّت (زوي بورسل) الراهبة معها، وسار (فولسوم) قريباً منهما.

انقضت الثواني الأخيرة واختفى كل من (تورنتن) و(ياسمين) في الركن الذي يصعب رؤيته.

أخذ (كريس) نفساً عميقاً. الانتظار والمفاوضات ستضعف معنويات المحاصرين. فمع مرور الوقت ستنقلب الأمور إلى صالح المحاصرين، وبقليل من المهارة لن تطلق ولا حتى رصاصة واحدة، حتى يستسلم (تورنتن).

فجأة توقف (سولفان) هناك.

مشكلة!

ظهر (تورنتن) مجدداً وصاح في وجه (سولفان).

الباب مغلق. خطر هذا ببال (كريس). لقد قامت الراهبتان بقفل باب الكنيسة من الداخل!.

جذب (تورنتن) (ياسمين) نحوه، دفعها أمامه لتكون درعاً يحميه ثم وجهها للسير يميناً باتجاهه.

سيسيرون تحته مباشرة.

أثناء اقتراب (تورنتن) و(ياسمين) منه، حلقت المروحية فوق الطريق. صوت طرطقة الصفيح علت على دوي محركات الطائرة. بدأ صوت حازم وحاد بالعدّ. كل رقم يلي الآخر بفارق ثانيتين.

إنذار! وبعدها سيطلقون النار! و(ياسمين) هي الدرع البشري أمام (تورنتن)!.

قفز (كريس) ووقف على حافة السور. ثم ترك نفسه يسقط.

ارتطم مباشرة بكتف (تورنتن) الأيمن. سقطت الحقيبة من يده وسحب (ياسمين) معه إلى الأسفل. لطمه (كريس). صاح (تورنتن) بينما التوى وجهه إلى الخلف. شعر (كريس) بالدماء واللعاب على يده، كأنها قطرات لسُم أفعى الكوبرا. ضرب رأس (تورنتن) بقوة مجدداً فسقط رئيس مجلس الإدارة متأوهاً على الأرض.

سحب (كريس) (ياسمين) إلى الأعلى، بينما كان ذلك الصوت القوي يتابع العد العكسي. استدار (كريس) فرأى (سولفان) و(آنا) خلفهما بشكل قريب جداً منهما. بعيداً إلى الأمام بقي أحد رجال (سولفان) يوجه سلاحه نحو المروحية.

طلقة واحدة من المروحية استقرت في صدر الرجل، فاتجهت فوهة سلاحه إلى أعلى إثر قوة الضربة. جثم المصاب على الأرض ثم اتجهت ذراعه مجدداً نحو الأسفل. انطلقت ثلاث رصاصات من سلاحه.

اقشعر بدن (كريس). شعر جهازه العصبي بالانفجار حتى قبل أن تبدأ المعركة.

تضخمت المروحية لتصبح بحجم شمس صغيرة. انطلقت كرة النار إلى الأمام. كشطت شفرات المروحية سور الدير، الذي تناثرت منه الشظايا. ثم ارتطمت القُمرة بجدار الدير فتشوه وهُرس.

حدق كل من (كريس) و(ياسمين) غير مصدقين تلك الجحيم التي اندلعت. انتزعتهما موجة الضجيج من حالة الذهول، وصاح كل منهما قائلاً للآخر شيئاً ما، إلا أن كلماتهما غرقت في تلك الضوضاء الجهنمية، التي مزجت بين طقطقة الحديد ودوي الانفجارات.

تناثرت الشظايا في كل الاتجاهات، بينما ارتطمت النثرات المعدنية بالسور الحجري أو اخترقت أجساداً بشرية. ارتطمت المروحية بقُمرتها المهشمة بالطريق.

أمسك (كريس) بذراع (ياسمين) وأراد سحبها نحوه. في تلك الأثناء اجتاحتهما العاصفة الناجمة عن الانفجار. موجة ساخنة حبست نفَسَيهما وحرقت وجهيهما.

انتُزعت (ياسمين) من يده وشعر (كريس) بضربة على ظهره. هوى إلى الأرض جاثماً والتفت إلى الخلف من تحت إبطه.

كان ذنب المروحية قد غير اتجاهه الأفقي، واتجه إلى الأعلى، بينما كانت مقدمة الطائرة منغرسة في الأرض الحصوية، وقد اتخذت المروحية وضعاً عمودياً.

ارتطمت قطع من ريش المروحية بسور الدير، التفت على الأرض حافرة أخاديد تناثرت منها الشظايا الصخرية.

لم يشعر (كريس) حين ارتطم رأسه بالأرض.



فتح (كريس) عينيه وقد شعر بدوار يلف رأسه، رأى (ياسمين) و(تورنتن) ملقيان إلى جواره.

انتهت طقطقة ريش المروحية بصرير قوي، ثم توقفت، وفجأة لم يعد يسمع سوى هسهسة النار المنبعثة من الحريق. لا أحد يصرخ أو يشكي. ماتوا، فكر (كريس)، ماتوا، أم فقدوا الوعي، أم أصابهم الشلل إثر الصدمة.

كانت ذراعاه ورجلاه مخدرة، لكنه استطاع تحريكهم. نظر إلى نفسه. لا يوجد دماء، وكذلك لا أثر للدماء على أجساد (ياسمين) و(تورنتن).

تحولت أصوات أشبه بضربات السوط إلى صوت سريع ومتقطع، ودوّى انفجار الذخيرة من بين الحطام.

وقفت المروحية بقُمرتها المحطمة على الطريق الحصوي، بينما تعلق ذيلها على سور الدير باتجاه الأعلى. انطلق أنين متألم وشاكٍ عبر مكبر الصوت، ثم تحول إلى صرخة عالية وطويلة. ارتعد (كريس) فجأة، فقد كانت الأصوات مُعذبة ولا إنسانية. أخيراً انقطعت الصيحة ومعها آخر علامات الحياة الصادرة من المروحية.

انحنى فوق (ياسمين)، ربّت على خدها، ووضع أذنه على شفتيها. ابتسم حين لامست أنفاسها الضحلة شحمة أذنه. استمر بالمسح على خدها والهمس باسمها بصوت دافئ، حتى فتحت عينيها.

- «علينا الذهاب من هنا!». شدّها (كريس)، ثم جرّ الحقيبة التي تحتوي على العينات، التي كانت على بعد ثلاث خطوات من (تورنتن).

- «(آنا)! أين أنا؟» كان صوتها مذعوراً.

تلفت (كريس) حوله، كان كل من (سولفان) وشقيقة (ياسمين) ملقيان على بعد خمسة أمتار خلفهما. ساعد (كريس) (ياسمين) على النهوض، ثم توجها مترنحين إلى حيث كانت (آنا).

- «(آنا)، هيا، (آنا)...» سحبت (ياسمين) الجسد الرخو لشقيقتها إلى الأعلى وأسندته إلى كتفها.

حدق (كريس) بالجرح الغائر في عنق (سولفان). داخل الفتحة الدامية بدت الفروع العضلية والأنسجة الدهنية.

- «علينا الذهاب من هنا!».

- «لن أدع شقيقتي وحدها!» هزت (ياسمين) جسد شقيقتها مجدداً. ارتجفت شفاه (آنا)، وخرج الأنين الأول من بين شفاهها بعناء.

لم يكن ذلك مقصوداً. جثم (كريس)، وأخذ يفحص نبض (آنا). وعندما فتحت عينيها قفز واقفاً.

- «سأعود حالاً». ابتعد متعثراً. هل مازال رجال (تورنتن) يشكلون خطراً؟ أم أن الأمر قد انتهى؟ جمود ممل كان يجتاح عقله، ولم يدعه يفكر بأمر آخر.

على بعد بضع خطوات كان كل من (زوي بورسل)، ومسؤولة الراهبات، و(جاك دوفور) مستلقين فوق بعضهم، وقد رأى على ظهر العالم وبارتفاع الرئتين ثقبان، كان مستلقياً على جسد مسؤولة الراهبات، التي تغطي وجهها بالدماء. كذلك مديرة (تيسابي) المالية كانت ملقاة أسفلهما دون حراك.

نادته (ياسمين). رفع يده وتابع تقدمه نحو السور الحجري بالقرب من باب الكنيسة. كان جزء معدني من جسد المروحية قد استقر بشكل رأسي بالقرب من (فولسوم)، الذي تدلى رأسه بشكل جانبي. جرّ (كريس) القطعة المعدنية حتى تدحرجت إلى الأمام. هوى جسد (فولسوم) دون مقاومة من على السور إلى الأرض.

كان قميص (فولسوم) مشبعاً بالدماء عند منطقة البطن. حيث مزقت بطنه بطارية كاملة من السكاكين الطويلة والمسننة.

عادت (ياسمين) تنادي اسمه.

- «حالاً!» تمتم (كريس).

تلفت حوله. نتيجة اندلاع الحريق كانت نيران كثيفة تحيط بالمروحية، بحيث لا يمكن لأحد الاقتراب منها. لم يكن بإمكانه القيام بأي شيء، سوى طلب المساعدة. من الراهبات.

وقـع نظـره علـى الأرض. كـان قفـص الفئـران علـى بعـد خطـوتين مـن (فولـسوم). أشـارت الثقـوب المـسننة إلى المكـان الـذي اخترقـت مـن خلالـه الـشظايا المعدنيـة ذلـك القفـص البلاسـتيكي. كـان البـاب مفتوحـاً، رفـع (كريس) القفص، ونظر داخله. كان أحد الفئران ملقـىً علـى جانبـه في كومـة النشارة، بينمـا كـان الـدم يتـدفق مـن جـرح في بطنـه. في حين كانـت الفئـران الثلاثة الأخرى قد اختفت.

الفصل السابع والأربعون

الدير المنعزل في (فيرن)

سلسلة جبال (المور) الهضابية في جنوب (فرنسا)

صباح الأربعاء

هبطت الطائرتان المروحيتان باتجاه الساحة الكبيرة للدير حيث لامست عجلاتهما الأرض.

انتشرت الجزر العشبية بين الحصى، وفي بعض المواضع نمت النباتات، إلا أن تلك الساحة المستطيلة، بطولها الذي يبلغ المئة متر، وعرضها الذي يصل إلى ثلاثين متراً، كانت مناسبة تماماً للهبوط.

رفع البابا السماعات عن أذنيه وقام بفتح حزام الأمان. بينما فتح (كالفي) الباب وقفز إلى الخارج.

مدّ يده لمساعدة البابا، الذي انحنت ركبتيه حتى عندما قام بتلك القفزة الصغيرة على الأرض.

خرج خلفه كل من (هيرونيموس) و(مارفن) واثنين من حراسه الشخصيين. بينما سارع (تروتيفنون) و(تيساني) و(باري) بالخروج من المروحية الأخرى.

- «لا ينبغي لقداستكم أن تعرضوا أنفسكم للخطر تحت أي ظرف»،

-حاول (تيساني) مجدداً- «بالمقابل إنكم مسؤولون عن كافة العالم المسيحي، فكروا ...»

من الطرف الغربي للدير دوّى صوت رصاصات. نظر الحراس الشخصيون حولهم لتأمين المكان.

- «لدي مهمة» تجاهل البابا صوت الرصاص ونظر إلى (تيساني) هازاً رأسه «وسأقوم بها. وكيفية قيامي بها منوطة بإرادة الله. لن أهرب أمام بضع رصاصات».

شبك (هيرونيموس) ذراعه بذراع البابا وأشار إلى ممر في واجهة المبنى. هناك وقف شخص بأردية وقبعات رهبانية.

- «إنها إحدى الأخوات اللاتي يقمن بإعادة بناء الدير».

أومأ البابا. إنها أخت من بيت لحم. أخت صغيرة بلا اسم. إنها ببساطة أخت في خدمة الرب.

شد جسده وتوجه بخطوات متحمسة نحوها.

جثمت الراهبة أمامه على ركبتيها.

- «قداسة البابا، أي مباركة...»

سحب البابا الراهبة من يديها إلى الأعلى.

- «فلترافقك مباركة الرب أنت وأخواتك».

بدت بشكل واضح فوق الستين من العمر، لمعت عيناها بالقوة والثقة.

- «الشر تحتنا».

- «أعلم ذلك. ولهذا أنا هنا!».

كان كل شيء يجري على ما يرام، فكر (بول كامبراي). الذي كان ينتمي للسبعين الأوائل الذين انضموا إلى (الفهود)، حيث تم اختياره من بين ألف ومئتي متطوع تقدموا للانتساب في وقت التأسيس.

كان (كامبراي) قريباً من الخمسين، طويل وقوي وله وجه ملفت ذو

أنف بصلي ضخم. في البداية كانت التعليقات تزعجه، لكن مع مرور الوقت أصبح يتقبل ذلك الأنف كعلامة فارقة.

أعاد قراءة الرسالة عدة مرات، ثم هزّ رأسه مستنكراً. لقد كانت أمراً معتاداً، فهي الغلطة النمطية للطرف الآخر.

حيث يُعتقد أن السلاح سيحميهم. في حين أن هذا هو بالضبط الأمر الذي لا يمكن لأي شرطي على وجه الأرض أن يتقبله. فالسلاح يعني في الوقت نفسه تشكيل خطر على حياة حامله أيضاً. ولهذا لا بد من القيام بردة فعل قوية ومناسبة لمثل هذا التصرف. كان (آلازارد) قاضي تحقيقات يمكن الاعتماد عليه، رجل لا يخشى اقتحام الأبواب المغلقة وخصوصاً عندما يتعلق الأمر بالجرائم القذرة. هذا ما جعل له اسماً لامعاً في أوساط الشرطة، في الوقت الذي كان يثير حفيظة بعض أصحاب النفوذ السابقين.

هذا ما دفع رئيس التحقيق للاهتمام بهذا البلاغ، وتسخير كافة إمكاناته للعمل على الملف، بل وقرر أن يكون هو شخصياً قائد لهذه العملية.

كان (هنري مارفن) يضغط بالهاتف الجوال على أذنه ويتمشى في الحجرة ضاحكاً، في حين كانت تعابير وجهه تشير إلى مدى سعادته، ضحك بتوتر ثم برضاً، بينما كان يكور قبضة كفه اليسرى ويضرب بها في الهواء. تحولت نظراته اللامعة إلى (باري) و(برانداو)، ابتسم لهما دون أن يلاحظهما فعلاً.

كان (مارفن) يهاتف (روما).

وقد أبلغته (روما) أخباراً جيدة.

- «شكراً جزيلاً يا عزيزي المونسينيور (تيساني). أخبر قداسة البابا، أنه من عظيم الشرف بالنسبة لي وللجمعية أن نقدم مثل هذه الخدمة للكنيسة الكاثوليكية المقدسة. وسأثبت لك أن البريتوريانيين سيكونون على مستوى هذا الشرف».

أغلق (مارفن) الهاتف ثم ضحك بصوت عالٍ.

لم ينبس (باري) ببنت شفه. فقد كان (مارفن) متقلب المزاج كأنه (بريمادونا)، ومن المتوقع أن تنقلب تلك البهجة في غضون ثوانٍ معدودة. ولكن لو أن كل شيء سار كما أراده (مارفن)، سيعمل هذا على تقوية موقفه. فقد تمكن من خلال أعماله القذرة من إحراز هذا النصر.

- «وأخيراً! وأخيراً! لقد كنت أعلم ذلك!». صفق (برانداو) عدة مرات بيديه.

جلس (مارفن) على أريكته وتفحص الألماني بنظرات تقدير.

- «لقد قمت بعمل رائع يا (برانداو). اليوم أصبح بإمكاني الاعتراف بهذا، فعندما أتيت إلي قبل أكثر من ستة أشهر وقدمت لي ذلك العرض، توقعت أنك مجنون. ولكنك كنت على حق. فكان لا بد أن تقوم (روما) بإزاحتهم عن الطريق!».

- «أنا سعيد بتمكني من تقديم مثل هذه المشاركة الكبيرة للبريتوريانيين». قال (برانداو) ذلك في محاولة منه لتحصيل المزيد من التقدير.

- «ستكون مستقبلاً رئيساً لفرع البريتوريانيين في ألمانيا» قال (مارفن) بنبرة متعالية «سوف أتمم الإجراءات الخاصة بذلك فور نجاحي في الانتخابات. سوف يحضر البابا شخصياً إلى (فرنسا)...»

- «قداسة البابا؟»

- «نعم يا (برانداو). إنه سيحضر إلى (فرنسا). لقد أخبرني (تيساني) منذ قليل، أن قداسة البابا سيقوم غداً بزيارة إلى سرداب كاتدرائية القديس (بينويت سور لوار)، حيث سيقوم بتقديم إجلاله لبقايا رفاة القديس (بندكت). زيارة قصيرة خاصة دون إثارة أي ضجة!».

تضم الكاتدرائية، التي عادت لتعج بحياة الرهبانية منذ عام 1944

فقط، بقايا رفاة القديس (بندكت)، التي تم إنقاذها من خلال نقلها في القرن السابع من (مونت كاسينو) إلى (فرنسا) لحمايتها من اللومبارديين.

ابتسم (برانداو). فقد كانت (فونتينبلو) تقع شمال (سانت بينويت) وبهذا تكون عملياً على خط السير نفسه. أمر مرتب ببراعة.

تبسم (مارفن) برضاً. وأخيراً تسير الأمور حسب رغبته. فبامتلاكه للقطع الأثرية أصبح قريباً جداً من تحقيق هدفه المتعلق بالفاتيكان.

فبوجود (تسرنت هاين) تحت الاسم المستعار (ريتسي) في قبضته، أصبح لديه كبش الأضحية الذي يمكنه تقديمه في حال حدوث أي أمر طارئ. ولكن حتى الآن، حسب ما أخبره به (برانداو) و(باري)، لم تتمكن الشرطة الألمانية من إحداث أي تقدم فيما يتعلق بحادثة (برلين) أو بالعملية التي تمت على الخط السريع. وفي غضون أيام ستنسى وسائل الإعلام تلك الحوادث. وطالما أن الشرطة الألمانية ما تزال تتخبط بالظلام، فإنها لن تقوم بتحريك الأمر. وحتى في حال اتجهت الأمور نحو الأسوأ، فإن (باري) سيقوم بتولي الأمر...

- «تبدو بائساً يا (باري)! ماذا لديك؟» رمق (مارفن) مدير الأمن خاصته بنظرات لامعة، الذي كان ما يزال يقف منتظراً أمام طاولة المكتب.

- «لقد اختفى (لافاليه)».

- «ماذا يعني هذا؟»

- «إنه لم يعد حتى الآن. لقد أراد أن يكون هنا في منتصف هذا النهار. إلا أنه لم يأت. حاولنا الاتصال به ولكنه لم يُجب».

- «هل قمتم بالاتصال بالمطبعة؟»

- «الأمور تسير هناك على قدم وساق. فقد قام (لافاليه) بتسليمهم كتيبات الطباعة ليلة الأمس، ومنذ ذلك الحين تدور الآلات. وسيتم إرسالها في صباح الغد».

فكر (مارفن) بغياب (لافاليه) «لم يستطع فهم تصرفه في الأمس. إن كان ذكياً، فإنه سيقوم بتحضير نفسه لما سأطلبه منه. وإلا ...»

- «يا له من مكان معزول. لو أن رجالنا تسلقوا الأشجار، سيمكننا ذلك من رؤية بضعة أمتار في عمق الأرض، وذلك باستخدام الأشعة تحت الحمراء والكاميرات، ولكننا لن نتمكن أبداً من رؤية المبنى الرئيس». تذكر (سانتير) تحليله في اجتماع المعسكر، الذي يحدد الآن نمط تصرفاتهم.

- «كيف يبدو الوضع عند بوابة الدخول؟» سأل (كامبراي) من خلال لاقط الصوت.

- «الضيوف مازالوا يتوافدون. فقد وصلت حالاً إحدى السيارات. يبدو أن المكان سيعج بالزوار».

نظر رئيس المحققين إلى الأعلى حيث كان الرجلان على سطح العربة، ثم رفع سبابة يده اليمنى كإشارة تأكيد.

لقد اعترف لهم (لافاليه)، أن العقار محاط بكلاب الحراسة الشرسة، إلا أنهم لم يروا أياً منهم حتى الآن. وقد عزوا ذلك إلى توافد الضيوف في اليوم التالي. فأرادوا انتهاز هذه الفرصة.

كان (كامبراي) يثق بقدرة رجاله على التخلص من تلك الكلاب. فـ (سانتير) الذي انضم إلى الفهود السود منذ عشر سنوات، لم يكن شيء يقدر على إخراجه عن هدوئه، منذ أن شارك بإخماد تمرد السجناء في (مارسيل)، حيث لقي اثنان من الحراس مصرعهما، والذي رأى الموت في كل دقيقة مرت خلال عملية تبادل الأسرى. فقد كان عليه خلال يومين فقط أن يمر بعمليتي إعدام وهميتين.

كان وجهه ذو العظام البارزة -الذي يمتلك قدرة السيطرة على أصعب المواقف من خلال صبره وإحساسه العالي- يثير الرعب في قلوب معظم من يراه. بل وكان الكثيرون يتهمونه بالعنف، بالرغم من أنه كان في

حقيقة الأمر من أبرع المفاوضين النفسيين، أما (فيكتور فايفر) فلم يمضي على انتسابه إلى الفهود السود إلا ثلاثة أشهر فقط، ويعتبر من أصحاب المهارات الواعدة. كان أصغر من (سانتير) بعشرة أعوام ويتمتع بديناميكية جسدية عالية، نادراً ما رأى لها (كامبراي) مثيلاً. فحتى الآن لم يتمكن أحد من أفراد الفهود السود من التغلب على (فايفر) بالمصارعات الفردية. كانت بشرته شديدة الغمقة وله عينان سوداوان تشعان كالجمر عند غضبه.

قفز (فايفر) أولاً فوق السور، وتدحرج بخفة على الأرض المفروشة بأوراق الأشجار الجافة في الناحية الأخرى. وحالما قفز (سانتير)، أُنزلت حقائب الظهر خلفهما. امتصت أرض الغابة صوت ارتطام الحقائب. رفع الرجلان الحقائب على كتفيهما وتقدما داخل الموقع. كان (سانتير) يحتفظ بخارطة المكان في ذاكرته، ولهذا فقد توجه مباشرة باتجاه الغرب. كانت عتمة الليل على وشك أن تبتلع حمرة الشفق، فأرادا الاقتراب من المبنى الرئيس قدر المستطاع قبل بزوغ النور. بدأ (سانتير) المسير.

- «لقد فقدت وعيك».

ابتسم (هيرونيموس) بينما كان يساعد البابا على النهوض.

- «هل مر وقت طويل وأنا في حالة إغماء».

- «ثوانٍ» تمتم (هيرونيموس).

- «لقد انفجر شيء ما».

- «إنها المروحية الأخرى» أجاب (إلجيدو كالفي) «لقد قام الفرنسيون بإرسال بعض رجالهم للاستطلاع والمساعدة. إضافة إلى أنهم طلبوا العون».

- «كيف نصل إلى...»

- «عبر أطلال الكنيسة القديمة» قالت رئيسة الدير، التي وقفت

بملامح قلقة إلى جانب البابا «إنه طريق مختصر... ولكن إن أردتم أخذ قسط من الراحة؟»

- «أرنا الطريق».

- «علي إطلاع قداستكم على أمر...»

- «نعم».

- «لقد تمكن أحد السجناء من الفرار. وكان قد أعطاني منذ مدة طفلاً صغيراً، قمنا بإبقائه في سكني للحفاظ عليه».

- «لقد خففت من عبئي» تمتم البابا «شكراً. أرنا الطريق» التفت البابا فجأة «ستبقون هنا» نظر إلى (تيساني) و(مارفن) و(باري).

- «هذا مخالف لاتفاقنا!» اعترض (مارفن).

- «أطع!» دوى صوت البابا بنبرة غاضبة «تنقصني الثقة بكم! (كالفي)!».

نادى الحارس الشخصي للبابا ببضع كلمات على (تروتيغنون)، الذي قام رجاله بمنع (مارفن) من التقدم. لم ينتبه أحد لشتائمه.

تابع (تيساني) بنظراته، المجموعة المسرعة باتجاه أطلال الكنيسة. لم يلحظ، أن (هنري مارفن) و(باري) توجها فجأة عبر الساحة نحو الشرق.

الفصل الثامن والأربعون

الدير المنعزل في (فيرن)
سلسلة جبال (المور) الهضابية في جنوب (فرنسا)
صباح الأربعاء

قطعت المروحية المحروقة طريقهم إلى الشارع، ومن الناحية الأخرى يقود الطريق إلى سفح الجبل. لم يبقَ سوى مخرج وحيد.

- «فلنتحرك من هنا! لنصعد إلى الأعلى!» أشار (كريس) إلى السلالم الخشبية التي تؤدي إلى الشرفة. دفع (ياسمين)، التي كانت تتمسك بشقيقتها المرتعشة.

جرته اليدان الثقيلتان من شعره لتجبره على الوقوف. اهتز (كريس) فأتته ضربة من الخلف. بخطوات متعثرة سار خارجاً من باب الزنزانة. كانت البقعة الجافة والداكنة على الأرض تُذكر بالمكان الذي تم فيه إعدام. كان الرجل ذو الشعر الناري أمامه بينما تبعه الرجل ذو وجه الثآليل و(باري). قادوه عبر الممر الرئيس إلى الخارج، وهناك اتبعوا ممراً صخرياً يؤدي إلى الأسفل. بعد ما يقارب المئة خطوة، توقفوا أمام بوابة حديدية. رأى (كريس) عدسة كاميرا مثبتة بالسقف.

دخلوا إلى غرفة أمامية، اتسعت بعد بضع خطوات لتصبح قاعة في أعماق الأرض.

كان ارتفاع القاعة يقارب الأربعة أمتار تقريباً، بينما لم يكن بالإمكان رؤية نهايتها التي غرقت في الظلام. يبدأ السواد بعد خطوات من صف للشمعدانات التي تحمل عشرات الشموع المضاءة. وكانت الظلال القاتمة تتراقص على الجدران الصخرية الجرداء للقاعة. على الجانب الأيمن لمح (كريس) ثغرات، بدت في الظلال كأنها مداخل كهوف. إنها توابيت، فكر في نفسه، عندما أعاد النظر إلى تلك الشقوق العريضة الغامضة، التي اكتشف داخلها ثغرات رمادية قاتمة.

كانت شعلات الشموع في الجانب الآخر من القاعة تتراقص كأن تياراً من الهواء قد اندفع من مكان ما باتجاهها.

دوت نغمات الأورغ العالية كالرعد في أرجاء القاعة، وهبطت فجأة حزمة ضوئية ساطعة على مقدمة مستطيل إلى الأرض.

نحن أسفل الكنيسة، فكر (كريس)، وحدق باضطراب في البقعة المنارة بفعل الأضواء القوية.

تقدم إلى الأمام بفعل دفعة على ظهره. حول البقعة المضيئة رُتبت كراسٍ بشكل منتظم، وعلى مسافات متساوية البعد. تكومت بينها مجموعات مرتبة من الحجارة بارتفاع يصل إلى مستوى الركبة. كان كل من الحجارة بحجم كرة المضرب.

كان المستطيل غائراً بضعة سنتمترات في الأرض ويتميز بسطحه المستوي تماماً، وناصع البياض كالثلج، عن بقية الأرض الحجرية المحيطة به.

قدر (كريس) مساحة ذلك المستطيل بطول خمس سنتيمترات وعرض عشر سنتمترات. في وسطه امتدت حشوة بشكل عرضي. من وجهة نظره بدا وراء الحشوة وفي الجزء الخلفي من ذلك السطح، كأن صليباً طويلاً وضيقاً قد حُفر عليها.

توقع (كريس) أنه أمام قبر ضخم، ثم فكر إن كانت تلك المواد عبارة عن حجارة صخرية منحوتة أو أنها مصممة من مواد بلاستيكية. فجأة ظهر خيال من الظلام ووقف بين أعمدة الشمعدانات.

توقفت نغمات الأورغ.

تراقصت انعكاسات الأنوار على رداء الجوقة الكنسية الذي كان يرتديه (هنري مارفن). بينما كانت خيوط الذهب التي زينته تلمع تحت أضواء الشموع، وكانت بعض النقاط تُشع في الظلال، كأنها النجوم الساطعة في عتمة الليل.

تذكر (كريس) أثواب الملائكة التي كان قد رآها في طفولته على بعض الرسومات. إلا أن التطريز ذي اللون الأحمر الداكن على رداء (مارفن) بدد تلك اللوحة.

- «هل قمت بتأدية الصلاة؟» سأل (هنري مارفن) بينما كان يحدق في سجينه. «الماتوتينا، صلاة الصباح الأولى. هل تلوت تلك الصلاة؟» كرر (مارفن) سؤاله عندما لم يقم (كريس) بأي ردة فعل.

هز (كريس) رأسه نافياً.

- «سأمنحك خمس دقائق لتأدية الصلاة، لتبدأ يومك الصعب بالتذلل والشعور بالرهبة أمام الرب».

- «وهل هذا مهم؟» فلم يقم (كريس) منذ طفولته بتأدية الصلاة.

- «بالنسبة لي، نعم» قال (مارفن) بصوت عالٍ كالرعد «لا بد من التمييز بين من يؤمن ومن لا يؤمن. فغير المؤمنين لا يُنتظر أن يعاملوا بشفقة، فهم مطرودون من رحمة الرب».

- «هل تعني أن غير المؤمنين يجب أن يعاملوا بطريقة أسوإ من المؤمنين؟»

- «لقد فهمت المقصود بشكل صحيح. والأسواء هم من خانوا الرب والعقيدة. فيجب أن يعاقبوا بغضب الرب الكامل».

- «أنا لن أصلي لإله غاضب!».

أومأ (مارفن) لـ (باري). وفجأة دوّى صوت محرك. انقسم اللوح الموجود على الأرض إلى نصفين من منطقة الحشوة، واختفى جزءا اللوحين عند مقدمة المستطيل تحت الأرض الصخرية.

شيئاً فشيئاً بدت حفرة في الأرض، التي كانت بعمق مترين ونصف، وبارتفاع وعرض وصل إلى حيث وضعت الكراسي تقريباً.

فكر (كريس) بشكل تلقائي بحمام السباحة المفروش بالرمال. كانت الرمال صفراء اللون، ناعمة ومستوية كأنها شاطئ غير مأهول على أحد شواطئ بحر الجنوب.

أشار (مارفن) بيده اليمنى. عاد المحرك يدوي، فارتفع شبك معدني من الجانب الأيسر للجبهة الأمامية للحفرة.

صوت زقزقة العصافير أيقظ (جون سانتير) من شبه غفوته. فتح عينيه ونظر إلى (فيكتور فايفر) الذي كان جاثماً أمام إحدى الفتحات الموجودة في سور الأجراس، وينظر إلى الأسفل.

فرك (سانتير) عينيه وأخذ يتذكر ما فعلوه في الساعات الماضية. في البداية قاموا بإرسال رسالة بأنهم قد وجدوا المخبأ المناسب.

تمركزوا هناك بحالة انتظار، وقاموا بمراقبة المنطقة المحيطة بالمبنى الرئيس مستخدمين أجهزة الرؤية الليلية. لاحظوا اثنين من الحراس الذين كانوا يحومون حول المنطقة في أوقات غير منتظمة، كما أنهم رأوا عدداً من الكلاب، التي كانت تخرج أحياناً من الغابة ويتسللون عبر المساحة الجرداء وتحت الأضواء كأنهم نمور في طريقها للصيد.

تم إطفاء آخر مصباح في المبنى الرئيس قبل ساعة تقريباً. وبعد انتظار دام ما يقارب نصف الساعة، استعد رجلا فرقة النمر الأسود لاستكشاف الكنيسة.

سارعا بالهبوط إلى صحن الكنيسة، وباشرا بتفحص كل زاوية منه مستعينين بأجهزة الرؤية بالأشعة تحت الحمراء التي كانا يرتديانها على وجهيهما، كأنها نظارات الغواصين. ثم تابعا النزول على السلم الحجري حتى وصلا إلى قاعة كبيرة توجد تحت الأرض. ما لفت نظرهما كانت تلك المساحة المستطيلة المحفورة على الأرض والمزينة بذلك الصليب، التي كانت مضيئة وتحدها مجموعة من الكراسي المرتبة حولها.

كانت آلة التصوير الرقمية المثبتة على رأس (فيكتور) تقوم بإرسال الصور بشكل مباشر إلى مركز القيادة. عليهم أن يعرفوا أكثر عن ذلك المستطيل المضيء، هكذا كانت الأوامر الصادرة من مركز القيادة، إلا أنهم وبعد عدة دقائق تركوا المحاولة. فلم يستطيعوا العثور على أي قبضة لإزاحة اللوح أو حتى فُتحة ليتمكنوا من النظر من خلالها، إضافة إلى أنهم كانوا معرضين للإزعاج في أي وقت.

وفي النهاية قاموا بتثبيت آلات تصوير صغيرة للمراقبة في جميع أنحاء الكنيسة، وكذلك في القاعة التحت أرضية، وكانت تلك الكاميرات مجهزة بعدسات ذات زوايا كبيرة بحيث تستطيع تصوير المكان بالمجمل.

كان بإمكان ألات المراقبة تلك التي يُتحكم بها عن بعد، العمل لمدة ست وثلاثين ساعة متواصلة بفضل تجهيزها بخلايا طاقة طويلة الأمد.

كذلك تمكنوا من العثور على الباب الحديدي الذي يوجد خلفه الممر الذي لا بد أنه يربط القاعة بالمبنى الآخر.

إلا أن رئيس المباحث (كامبراي) أمرهم بعدم عبور ذلك الباب، لأن (لافاليه) قد أخبرهم أن ذلك الممر مراقب بآلات المراقبة.

تسللا عائدين إلى برج الأجراس وقد أيقنا أنهما لم يحصلا على الكثير من المعلومات التي يحتاجانها.

كانت إدلاءات (إريك مايكل لافاليه) هي السبب الرئيس خلف قيامهما بهذه العملية. فهما لم يتمكنا من خلال مراقبتهما الشخصية من معرفة قوة خصومهما من حيث العدد والعتاد والتسليح. وكذلك لم يروا أي مسروقات هنا أو أناس تم اختطافهم وسجنهم في هذا المكان.

فلقد منعهما رئيس المباحث (كامبراي) من أي توسع في بحثهما. حيث أنه رأى في مكانهما أعلى برج الأجراس موقعاً استراتيجياً في حال اتخاذه قرار مداهمة المكان. إن كان قاضي التحقيق سوف يصدر هذا القرار أم لا إضافة إلى توقيت ذلك، كان ما يزال أمراً مفتوحاً. ولهذا قد انسحب كل من (سانتير) (فايفر) إلى موقع المراقبة، وتناوبا أوقات النوم.

الآن زحف (جون سانتير) إلى (فايفر)، الذي كان جاثماً أمام فتحة السور يراقب المبنى الرئيس، حيث تم للتو إضاءة أول المصابيح هناك.

- «هل هناك ما يثير الاهتمام؟» سأل (سانتير).

- «لا شيء حتى الآن».

تسلل الليل هارباً وبقي شعاع من الشفق الأحمر يصارع قوة انبلاج النهار.

فجأة همس (فيكتور فايفر) بشيء ما. التقط (سانتير) منظاره العسكري وتمركز أمام فتحة أخرى من السور، وبدأ ينظر إلى الأسفل.

كان الرجل الذي ظهر في الساحة الأمامية للقصر، ممتلئ الجسد وقوي البنية. كان يرتدي وشاحاً أبيض اللون تقريباً. وحسب وصف (لافاليه)، لا بد أن يكون هذا الرجل هو (هنري مارفن).

تقدم رجلان ووقفا إلى جوار (مارفن). بدا كأنهم في حالة انتظار،

ولكن ما الذي كانوا ينتظرونه؟ وفجأة خرجت الكلاب من كل جانب من الغابة.

تصبب العرق على ظهر (سانتير)، حين لاحظ كمية العضلات التي تحملها أجساد تلك الحيوانات، التي حسب تقديره لم يكن وزن كل منها يقل عن الأربعين كيلو غراماً. تدلت الألسن من الأفواه نصف المفتوحة حين عدت تلك الكلاب بسرعة خيالية باتجاه الرجال الثلاثة.

عدّ (سانتير) سبعة كلاب. لم تكن أصواتهم تسمع، في حين أن زقزقة العصافير الصباحية كانت تملأ أرجاء المكان.

انتظر (سانتير) قفزات تلك الحيوانات، ورأى أرجلها الخلفية المتحفزة، وهُيئ له أنها ستقوم برفع أجسادها بحركة سريعة ومفعمة بالحماس في الهواء. إلا أن الكلاب وقفت بشكل مفاجئ أمام الرجال وجثمت على أرجلها الخلفية.

مر (مارفن) أمام صف الكلاب وأشار إلى اثنين منهم، قام أحد الرجال بربطهما فوراً بالسلاسل. بينما سار الرجل الآخر مع بقية الكلاب باتجاه القصر.

رفع الكلب رأسه لالتقاط شيء من رائحة الأثر. ثم بدأ الحيوان بالتحرك، تقدم بشكل مباشر إلى وسط الحفرة، ووقف هناك. حفرت أرجله الآثار الأولى على رمال الحفرة.

ارتجف (كريس).

كان ارتفاع ظهر الحيوان يصل إلى أكثر من ثلاثة أرباع المتر، بينما بدا شعره الرصاصي اللون، قصيراً وذا ملمس خشن وقاس.

كان الرأس كبيراً وضخماً، بينما بدت خطوط التجاعيد الشديدة على جلده. وتدلت أذناه الصغيرتان المثلثتان على وجنتيه. خمن (كريس) وزن ذلك الحيوان بنحو سبعين كيلو غراماً.

- «إنه من سلالة الدرواس النابولية» قال (مارفن)، الذي كان يراقب ردود فعل (كريس) بكثير من السعادة.

- «حتى أن (ألكسندر) و(سيزر) كان لديهما كلاباً ضخمة ومخيفة، كانت تهاجم صفوف أعدائهم وتملؤهم رعباً وفزعاً. وهذا أحد أحفاد تلك الحيوانات. وذاك كذلك».

رأى (كريس) الكلب الثاني، الذي تقدم ببطء ليستقر وسط الحفرة أيضاً. كان كل شيء في ذلك الحيوان ينم عن قوته وليونته. كان يبدو أن الكلب الثاني يفوق الأول وزناً، كان أطول وذو قفص صدري عريض تطغي عليه العضلات القوية والبارزة. بدا الوجه الضخم مريعاً، بفعل الزاوية المنفرجة المنبثقة من منطقة الحاجز الأنفي المحيطة بالشفاه. وكان شعره ذو لون رملي.

- «إنه من نوع الماستيف» قال (مارفن) بفخر.

وقف الحيوانان في مكانهما بصمت تام، يحدقان دون حركة برؤوس مرفوعة إلى الأعلى.

- «ما عسى هذا أن يكون؟» صاح (كريس) بغضب.

تبسم (مارفن) بنشوة المنتصر ثم تحرك عدة خطوات، ووقف إلى جانب كومة الحجارة. حمل إحدى الحجارة وأخذ يهزها بيده ليُقدر وزنها.

- «سيتم اليوم انتخابي كرئيس للبريتوريانيين. وسيبدأ البريتوريانيين غداً بخوض معركتهم المنظمة والغير مسبوقة ضد أعداء الدين. وبالمقابل لدينا حملتنا الدعائية المعلنة، التي نقوم من خلالها بنشر كلمة الرب عن طريق الحوار وإظهار الحُجج. إلا أن هذا كله مجرد البداية. فالأكثر عزماً بيننا، سيقومون بمواجهة التجديف بحمل غضب الرب المُحق حول العالم».

- «ماذا تعني بهذا؟» سأل (كريس).

- «هناك من يرى أن كل كلمة هي تجديف بحق الرب ((ومن جدف

على اسم الرب فإنه يقتل. يَرجمه كل الجماعة رجماً. الغريب كالوطني عندما يجدف على الاسم يُقتل)) سفر اللاويين، الإصحاح 24 الآية 16».

حدق (كريس) بأكوام الحجارة على حافة الحفرة وقد أدرك الأمر.

- «أنت تريد ...»

أومأ (مارفن) بجدية «المختارين من البريتوريانيين سيقومون بمعاقبة المجدفين بما يستحقونه. كما ينص عليه الكتاب المقدس».

- «إنك تهذي حتماً».

- «(تسرنت هاين)، لقد قمت بالتجديف على اسم الرب!».

تلاقت نظراتهما، لكن (كريس) تحدى تلك النظرة القاسية دون أن يخفض عينيه.

- «متى؟ وكيف؟»

- «كان (فورستر) مجدفاً على اسم الرب. أراد خيانة كلمة الرب وبذلك الرب نفسه. ولقد اشتركت معه، ساعدته، وعشت معه تحت سقف واحد، -بصورة مجازية-».

أومأ (مارفن) بجدية، كأنه ينصت إلى كلماته من خلال صدى صوته.

- «إلا أنني أريد قبل ذلك معرفة أمر ما، ولهذا سيقرر الرب إن كان سيهب الرحمة».

- «هل ستقوم بنصب هذا السيرك الكبير هنا، لمجرد رغبتك بالحصول على بعض الإجابات؟» ألقى (كريس) نظرة سريعة إلى الكلبين. «بإمكاني الفهم بتلك الطريقة أيضاً».

- «لا يبدو لي أنك فهمت. إنك حتماً تعرف قصة (دانيال) في حفرة الأسود؟ لقد تم الافتراء على (دانيال) وقد نجا من الموت في حفرة الأسود، التي أمر الملك الفارسي (داريوس) بإلقائه داخلها. إلا أنه نجا بفضل ثقته

بالله. بينما قامت الأسود بتمزيق أجساد الذين افتروا عليه، حين تم إلقاؤهم في حفرة الأسود بعد تلك الليلة».

انحنى (مارفن) بشكل مفاجئ إلى الأمام وأمسك بقوة بذراع (كريس) وقام بالضغط عليها.

- «سيظهر يا (تسرنت هاين)، إن كنت ابناً للرب أم أنك من المفترين».

- «إنك شخص مريض!». ارتعدت أرجل (كريس).

ضحك (مارفن) بشكل شرير، ثم أخرج هاتفاً جوالاً من جيبه، كان هاتف (كريس) الذي سلمه لـ (باري) آنفاً.

- «أريد الحصول على إجابات لأسئلتي». قال (مارفن) بصوت راعد، تردد في أرجاء القاعة، كأنهم في كهف جبلي. «هناك رسائل مسجلة على الهاتف. وأنا لا أريد سماع أي قصص كاذبة. ولا حتى للحظة واحدة. انزل إلى الأسفل!».

أشار (مارفن) إلى الحفرة، ووجه (باري) فوهة مسدسه إلى رأس (كريس).

- «مستحيل!» هز (كريس) رأسه بشدة «مستحيل!».

تلقى (كريس) ضربة مفاجئة على مؤخرة رأسه جعلته يسقط على ركبتيه. قام الرجل ذو الشعر الناري والآخر ذو وجه الثآليل بإمساكه وجرّه إلى حافة الحفرة. فجأة حُلت الأصفاد التي كانت تكبل يديه، ثم شعر بذلك الشعور الفريد في حالة السقوط. هوى إلى أرض الحفرة على وجهه وامتلأ فمه بالرمال.

تدحرج (كريس) مصدراً أنيناً، ثم بصق الرمال خارج فمه. كانت الكلاب تراقبه، إلا أنها لم تتحرك ولا حتى سنتيمتراً واحداً من أماكنها. وقف، وأدارت الكلاب رؤوسها مجدداً باتجاه حافة الحفرة.

- «إنك مدرب بشكل ممتاز يا (تسرنت هاين)» نظر (مارفن) إلى الأسفل حيث كان (كريس) «في الحقيقة كان من المفترض أن يثبت (لافاليه) ولاءه للبريتوريانيين من خلالك. أتذكر هذا؟ إلا أن الجبان قد فرّ، واختفى في مكان ما.

- «آه! لقد أدركت إذاً!» ضحك (مارفن) برضاً «هل قمت بإيقاظ إحدى نقاط الضعف لديك يا (تسرنت هاين)! الخوف من الكلاب!».

- «ومن ذا الذي لا يخشى تلك الوحوش؟»

- «يوجد ما هو أسوء يا (تسرنت هاين)، صدقني يوجد ما هو أسوء. الرجم على سبيل المثال» ضحك (مارفن) بصوتٍ عالٍ.

- «أخبرني ما تريده (ياسمين)».

- «أنا لا أفهم ما تعني». تقلص وجه (كريس).

أعطى (مارفن) إشارة على (باري)، الذي قام بدوره بفتح الرسائل الأخيرة الواردة إلى صندوق البريد الصوتي الخاص بهاتف (كريس) ورفع الصوت إلى أعلى درجة.

كان صوت (إينا) يبدو متوتراً ومنزعجاً. حيث أرادت أن ترتب معه برنامج رحلات العمل لهذا الأسبوع وكشفت نبرة صوتها عن مدى حنقها لأنه لم يكن يجيب على اتصالاتها المتكررة. ولأنه تركها لتحل مشاكل شركته الخاصة بمفردها.

- «لقد عرفت ذلك» أجاب (مارفن) بصوت بارد «إلا أنه عليك أن توضح لي معنى الاتصال التالي».

ضغط (باري) على أحد المفاتيح.

- «(كريس)، أنا (ياسمين). لماذا لا تجيب على هاتفك؟ أنا الآن مجدداً في (صوفيا أنتيبولس...)، إنها تقع في (فرنسا) قرب مدينة (كان).

شقيقتي (آنا) موجودة هنا أيضاً. أنا لم أخبرك بذلك من قبل... إن ابنها مريض جداً. وأنا موجودة في المستشفى التابع لـ (تيسابي)...»

صمت.

«لقد قام (واين) بعمل فظيع... وأحضرونا إلى هنا بسبب العينات الخاصة بك... أنا بحاجة لمساعدتك. فلقد تكاثرت عينة التي أخذناها من العظام التي أحضرتها و... ما عساي أن أقول؟ وإن كان كل ذلك صحيحاً، فستكون إكتشاف القرن. يبدو... اللعنة... والآن فإن ؤلائك الأوغاد يخططون لـ... إتصل بي! لقد أخذوا مني هاتفي الخلوي. عليك الاتصال بشقيقتي (آنا)!» ثم تلت رقم الهاتف «لماذا لا تجيب على هاتفك؟ أنا بحاجة للمساعدة! وإن لم تقم بالاتصال فلن أغفر لك ذلك أبداً!».

- «(تسرنت هاين)، لقد قمت بالتجديف على اسم الرب!».

تلاقت نظراتهما، لكن (كريس) تحدى تلك النظرة القاسية دون أن يخفض عينيه.

- «متى؟ وكيف؟».

- «كان (فورستر) مجدفاً على اسم الرب. أراد خيانة كلمة الرب وبذلك الرب نفسه. ولقد اشتركت معه، ساعدته، وعشت معه تحت سقف واحد، بصورة مجازية».

أومأ (مارفن) بجدية كأنه ينصت إلى كلماته من خلال صدى صوته.

- «إلا أنني أريد قبل ذلك معرفة أمر ما، ولهذا سيقرر الرب إن كان سيهب الرحمة».

- «هل ستقوم بنصب هذا السيرك الكبير هنا، لمجرد رغبتك بالحصول على بعض الإجابات؟» ألقى (كريس) نظرة سريعة إلى الكلبين. «بإمكاني الفهم بتلك الطريقة أيضاً».

- «لا يبدو لي أنك فهمت. إنك حتماً تعرف قصة (دانيال) في حفرة

الأسود؟ لقد تم الافتراء على (دانيال) وقد نجا من الموت في حفرة الأسود، التي أمر الملك الفارسي (داريوس) بإلقائه داخلها. إلا أنه نجا بفضل ثقته بالله. بينما قامت الأسود بتمزيق أجساد الذين افتروا عليه، حين تم إلقاؤهم في حفرة الأسود بعد تلك الليلة».

انحنى (مارفن) بشكل مفاجئ إلى الأمام وأمسك بقوة بذراع (كريس) وقام بالضغط عليها.

- «سيظهر يا (تسرنت هاين)، إن كنت ابناً للرب أم أنك من المفترين».

- «إنك شخص مريض!» ارتعدت أرجل (كريس).

ضحك (مارفن) بشكل شرير، ثم أخرج هاتفاً جوالاً من جيبه، كان هاتف (كريس) الذي سلمه لـ (باري) آنفاً.

- «أريد الحصول على إجابات لأسئلتي» قال (مارفن) بصوت راعد، تردد في أرجاء القاعة كأنهم في كهف جبلي. «هناك رسائل مسجلة على الهاتف. وأنا لا أريد سماع أي قصص كاذبة. ولا حتى للحظة واحدة. انزل إلى الأسفل!».

أشار (مارفن) إلى الحفرة، ووجه (باري) فوهة مسدسه إلى رأس (كريس).

- «مستحيل!» هزّ (كريس) رأسه بشدة، «مستحيل!».

تلقى (كريس) ضربة مفاجئة على مؤخرة رأسه جعلته يسقط على ركبتيه. قام الرجل ذو الشعر الناري والآخر ذو وجه الثآليل بإمساكه وجرّه إلى حافة الحفرة. فجأة حُلت الأصفاد التي كانت تكبل يديه، ثم شعر بذلك الشعور الفريد في حالة السقوط. هوى إلى أرض الحفرة على وجهه وامتلأ فمه بالرمال.

تدحرج (كريس) مصدراً أنيناً، ثم بصق الرمال خارج فمه. كانت

الكلاب تراقبه، إلا أنها لم تتحرك ولا حتى سنتيمتراً واحداً من أماكنها. وقف، وأدارت الكلاب رؤوسها مجدداً باتجاه حافة الحفرة.

- «إنك مدرب بشكل ممتاز يا (تسرنت هاين)» نظر (مارفن) إلى الأسفل حيث كان (كريس) «في الحقيقة كان من المفترض أن يثبت (لافاليه) ولاءه للبريتوريانيين من خلالك. أتذكر هذا؟ إلا أن الجبان قد فرّ، واختفى في مكان ما. ولكنه هو أيضاً لن يستطيع الإفلات من مشيئة الرب. وسنكتشف الآن إن كنت ممن سيشملهم الرب برحمته...» ابتسم (مارفن) بقرف.

- «ما علي أن أفعل الآن، حتى...»

عندها قال الرب: ((انظر، لديك القوة، وبالرغم من ذلك فإنك إنسان وستبقى كذلك. سأهبك ألفاً وخمس مئة عام، حتى تعيش وتتحقق إرادتي من خلالك. وفي نهاية أيامك سوف تصعد روحك إلى السماء))».

وضع (كريس) بتفكير، الورقة على اللوح.

- «من خلال هذا تستنبط مهمتك؟»

صمت البابا.

- «ذلك الإيتانا كان راعياً سومرياً! أنت رأس العالم الكاثوليكي».

حدق البابا بصمت إلى الألواح.

- «قداسة البابا، أعني، عليه أن يفهم أي صليب ذاك الذي تحمله» انتظر (هيرونيموس) قليلاً، ثم استدار نحو (كريس) «عليك تفسير النص في سياق الأسس الضرورية للعقيدة المسيحية، إن أردت فهم البابا».

- «ساعدني، فأنا لست متمكناً فيما يخص الكتاب المقدس» تردد (كريس).

الفصل التاسع والأربعون

الدير المنعزل في (فيرن)

سلسلة جبال (المور) الهضابية في جنوب (فرنسا)

صباح الأربعاء

- «هل فهمت ما يحاولون الإشارة إليه بشكل صحيح؟» نظر (كريس) إلى (ياسمين)، التي تعلقت عيناها بشفاه الراهب.

كان (ماتياس) يتنفس بانتظام أثناء نومه بسلام على جنبه الأيمن، ساعده الأيمن على ملاءة السرير. ومن حين لآخر كانت يده الصغيرة ذات الجلد الطفولي الباهت ترتعش.

تذكرت نظراته اللامعة عندما كان يحدثها عن ذلك، فانبعثت الدموع في عينيها. وضعت يدها على يده مدة وجيزة، وأعطته عهداً بصمت.

ثم سرعان ما انسحبت عائدة إلى الممر.

كانت (آنا) تنام في غرفة مجاورة، حتى تكون إلى جانب الصبي عندما يحتاج إليها. سارت (ياسمين) على رؤوس أصابعها متقدمة نحو السرير، حيث كانت (آنا) غارقة في النوم وقد لفّت أغطية السرير حول جسدها بقوة.

نقرت (ياسمين) على كتف شقيقتها، ثم هزتها بقوة.

فتحت (آنا) عينيها ثم هبت جالسة على السرير وأطلقت صيحة مذعورة.

وضعت (ياسمين) يدها على فم شقيقتها.

- «هدئي من روعك. أنا هنا فعلاً. أخفضي صوتك!».

احتاجت (ياسمين) إلى عشر دقائق من الزمن لتشرح لـ (آنا) سبب عودتها المفاجئة إلى (أنتي بوليس). هزت (آنا) رأسها باستمرار معبرة عن عدم فهمها لما يحدث.

- «هل يتوجب عليك أن تشحني حياتك بالمزيد من المشاكل؟ ألم تعاني عائلتنا بما فيه الكفاية؟»

صمتت (ياسمين) وقد ضغطت شفتيها على بعضهما. كان قلبها ينبض بسرعة كذلك الشعور الذي انتابها أثناء وجودها تحت تلك النافذة. لا يجدر بها إخبار (آنا) بما سمعته هناك، فهي لا تحتاج لحمل المزيد من الأعباء على كاهلها.

ولهذا شدت جسدها، ومسحت بيدها بلطف على ذراع شقيقتها، «لقد نسيت هاتفي الجوال، وعلي أن أجري اتصالاً مهماً... كيف حال (ماتياس)؟»

- «لم يبدأ الطبيب بعد. فهو لا يزال يؤجل المباشرة بعملية العلاج».

- «هل قام بإطلاعك على السبب؟»

- «لم أفهم ما قاله. لقد كان كل شيء واضحاً. ولكنه الآن يردد دائماً أنه ما يزال بانتظار الحصول على النتائج».

- «إنه ينتظر بشجاعة» -ابتلعت (آنا) ريقها- «(ياسمين)... يبدو لي أن كل شيء هنا أصبح غريباً نوعاً ما. فذاك الطبيب (دوفور) غدا غارقاً في التفكير ومتردداً، بالرغم من أنه كان متفائلاً جداً في البداية. إنه يتحدث عن فحوصات جديدة، وقد أبدا قلقه حول ما إذا كان هذا النوع من العلاج هو الملائم فعلاً لحالة (ماتياس). في حين أنه قال أن هذا النوع من العلاج ما يزال في طور التجربة... و(ماتياس) يشعر بكل هذا.

لقد أخبرني اليوم أنهم هنا لن يتمكنوا من مساعدته... هل بإمكان طفل أن يشعر بمثل هذا؟!»

كانت (ياسمين) على حافة الانهيار. بصعوبة كافحت ارتعاشة قدميها «هل ساءت حالته؟»

أومأت (آنا).

- «سأتحدث غداً مع الدكتور (دوفور). وسيخبرني عن ما يحدث. ففي النهاية نحن نعمل في المؤسسة نفسها» -أجبرت (ياسمين) نفسها على النظر إلى شقيقتها- «ولكن علي الآن إجراء اتصال مهم بخصوص الأمور الأخرى. أنت طبعاً تحملين هاتفك الجوال معك؟»

نظرت (آنا) إليها بدهشة.

- «أرجوكِ... إنه بخصوص أمر مختلف تماماً... وإنه مهم للغاية! أمور متعلقة بالرجال» أردفت قائلة حين لمحت نظرات الشك في عيني شقيقتها.

استدارت (آنا) إلى الخلف، وأخرجت هاتفها الجوال من درج الطاولة المجاورة لسريرها.

أعملت (ياسمين) الجهاز وانتظرت حتى يتم إظهار خدمة شبكة الاتصالات الفرنسية. ثم طلبت رقم الهاتف الجوال الخاص بـ (كريس)، الذي قرأته من الورقة التي انتزعتها بشكل غريزي من دفتر الهاتف الخاص بها حين كانت في مدينة (دريسدن)، قبل أن يجردوها من حقيبتها الخاصة. كانت سعيدة باحتفاظها بعادتها القديمة، وذلك بكتابة أرقام الهواتف على دفتر خاص وعدم الاكتفاء بتسجيلها على جهازها الخلوي فقط.

سيساعدنا! يجب عليه أن يساعدنا!

إلا أن أملها كان يتبدد مع كل رنّة سمعتها لهاتفه.

- «اللعنة!» زفرت (ياسمين) وقد حاولت منع دموعها من أن تنهمر عندما سمعت المجيب الآلي على الطرف الآخر.

حاولت مرة أخرى. ثم تركت له رسالة مسجلة.

راقبتها (آنا) بعينين مفتوحتين بتعجب. وبالرغم من أنها كانت تتحدث اللغة الألمانية بشكل جيد جداً، إلا أنها لم تتمكن من فهم أي من تلك الرسالة التي تركتها شقيقتها بغضب وتوتر على المجيب الآلي.

- «إن لم يقم بأي ردة فعل على ذلك...» نفثت (ياسمين) بنبرة متوعدة، ثم قامت بإغلاق جهاز الهاتف المحمول. «فسينتهي كل شيء حتى قبل أن يكون قد بدأ».

في هذه الأثناء فُتح الباب بعنف ودخل (سولفان) إلى الغرفة وقد رُسمت على شفتيه ابتسامة باردة.

كان (إريك مايكل لافاليه) متوتراً حين عبر البوابة الحديدية المزخرفة لقصر العدل في شارع القصر. فقد غادر (فونتينبلو) مساء الأحد ومعه الطبعات الأخيرة لتصاميم الكتيبات التي وافق عليها (مارفن).

وقف أمام المبنى الضخم للعدالة، وكان يرتجف بمجرد تفكيره بالساعات الأخيرة التي قضاها في (فونتينبلو). وقد بدا له في طريق العودة كم أنه بعيد عن كل ما كان يخطط له ويفعله (هنري مارفن).

فقد قضى جُل ليلته يقظاً ومرتعداً لمجرد تفكيره في عودته القريبة.

- «سأحتفظ به لك يا (لافاليه). عليك أن تُثبت أنك ستكون بريتورياني مخلص» نظرات (مارفن) الباردة لم تمكنه من الخلود إلى النوم مطلقاً.

أعطى (لافاليه) دفعة لنفسه، ودخل إلى قصر العدل. قام بالبحث في القاعة ذات الأعمدة إلى أن وجد مكتب الاستعلامات، حيث سأل عن قاضي التحقيق.

- «قانون مدني أم جنائي؟»

- «جنائي» تمتم (لافاليه) بتردد. أرشده الحاجب إلى الطريق، فسار عبر ممرات طويلة ثم دخل أخيراً مكتب قاضي التحقيق.

كان (موريس آلازارد) قصير القامة، ونحيلاً، ومجهداً للغاية؛ لأنه عمل في عطلة نهاية الأسبوع على ترتيب ملفات إحدى أكبر فضائح الفساد. لهذا بدت له زيارة ذلك الشخص، الذي أتى لغرض لا يعرفه، على نحو غير ملائم.

كان (آلازارد) يتقن عمله على نحو محترف ولم تكن الأسماء الكبيرة ترعبه. ولقد تسبب إدمانه على العمل في فشل حياته الزوجية. حيث أنه كان شديد البخل فيما يخص بذل المزيد من المال لتحسين مظهره الخارجي، فقد تعود منذ سنين على ارتداء القمصان غير المكوية.

ولهذا قام قاضي التحقيق بالترحيب بـ (لافاليه) على نحو بارد، ودعاه للجلوس إلى الطاولة المغمورة بأكوام من الملفات.

- «نحن غارقون في العمل. يبدو كأنه لم يبقَ سوى المجرمين في هذا العالم؛ لهذا يبدو الوضع على هذه الحال هنا». قال متثائباً.

تلعثم (لافاليه) في البداية ثم طلب التعامل مع القضية بمنتهى السرية. وعندما استمر في تردده حتى بعد أن ضمن له (آلازارد) ذلك، نهض (آلازارد) واقفاً خلف طاولة مكتبه.

- «إن لم يكن بإمكانك الوثوق بي فإني لن أستطيع مساعدتك. لذلك أرجوك أن تغادر ولا تهدر وقتي».

بدا ذلك أسلوبه في دفع زواره للإدلاء بما لديهم.

وفي غضون دقائق استطاع استخراج كل ما لدى (لافاليه) من معلومات حول القضية.

في البداية كشر وجهه، فلقد بدا له الأمر كأنه يدور حول سرقة

أنيقة، حتى وإن كان الأمر يدور حول سرقة عشر صحائف مما يعرف بين الأوساط المختصة بـ (كتاب حلب المقدس).

أنصت قاضي التحقيق بشكل جيد حين ادعى (لافاليه) أن تلك الأرض تخضع لحراسة مشددة من قبل جيش خاص مدجج بالسلاح الثقيل. وأن مرتزقة من جميع أنحاء العالم يقومون باختطاف وقتل أناس هناك. وبعد ما يقارب نصف الساعة، بدأ (موريس آلازارد) بطرح الأسئلة.

كان (آلازارد يشكك مبدئياً بكل نوع من أنواع السلطة سواء كانت على أساس حكومي، أو عقائدي، أو اقتصادي. لم يحتج لأكثر من عشرة أسئلة ليتمكن من تلخيص القذارة المذهلة والمؤثرة إعلامياً. مجموعة منظمة من المجرمين، الذين يتمتعون بشبكة تواصل عالمية، يختبئون تحت عباءة جمعية دينية مسيحية ويقيمون في بناء عظيم قرب (باريس)، يخططون لهجمات إرهابية.

في حالة من الذعر، التقط سماعة الهاتف.

اثنتان من مجموعاته كانتا يؤديان مهمة في (مارسيل)، وهي عبارة عن مراقبة لأحد طرق مهربي المخدرات التي تم إبلاغهم عنها من قبل منافسين. بينما كانت إحدى الفرق في (فريسن) لإنهاء تمرد في أحد السجون، حيث كان وجود رجاله فحسب كفيلاً بإجبار اثنين من المجرمين المتهمين بجريمة القتل لغرض السرقة بتسليم نفسيهما. في حين كان له فريقاً آخر، ذو إمكانيات محدودة، حيث أن أخصائيي التصنت خاصته في (ستراسبورغ) كانوا مشغولين في مهمة إثبات تورط أحد أعضاء البرلمان الأوروبي في قضية فساد.

كان كل شيء يجري على ما يرام، فكر (بول كامبراي). الذي كان ينتمي للسبعين الأوائل الذين انضموا إلى (الفهود)، حيث تم اختياره من بين ألف ومئتي متطوع تقدموا للانتساب في مرحلة التأسيس.

كان (كامبراي) قريباً من الخمسين، طويل وقوي، وله وجه ملفت ذو أنف بصلي ضخم. في البداية كانت التعليقات تزعجه ولكن مع مرور الوقت أصبح يتقبل ذلك الأنف كعلامة فارقة.

أعاد قراءة الرسالة عدة مرات، ثم هزّ رأسه مستنكراً. فقد كانت أمراً معتاداً، فهي الغلطة النمطية للطرف الآخر.

حيث يُعتقد أن السلاح سيحميهم. في حين أن هذا هو بالضبط الأمر الذي لا يمكن لأي شرطي على وجه الأرض أن يتقبله. فالسلاح يعني في الوقت نفسه تشكيل خطر على حياة حامله أيضاً. ولهذا، لا بد من القيام بردة فعل قوية ومناسبة على مثل هذا التصرف. كان (آلازارد) قاضي تحقيقات يمكن الاعتماد عليه، رجل لا يخشى اقتحام الأبواب المغلقة وخصوصاً عندما يتعلق الأمر بالجرائم القذرة. هذا ما جعل له اسماً لامعاً في أوساط الشرطة، في الوقت الذي كان يثير حفيظة بعض أصحاب النفوذ السابقين.

هذا ما دفع رئيس التحقيق للاهتمام بهذا البلاغ، وتسخير كافة إمكاناته للعمل على الملف، بل وقرر أن يكون هو شخصياً قائداً لهذه العملية.



كان (مارفن) يهاتف (روما).

وقد أبلغته (روما) أخباراً جيدة.

- «شكراً جزيلاً يا عزيزي المونسينيور (تيساني). أخبر قداسة البابا، أنه من عظيم الشرف بالنسبة لي وللجمعية أن نقدم مثل هذه الخدمة

للكنيسة الكاثوليكية المقدسة. وسأثبت لك أن البريتوريانيين سيكونون على مستوى هذا الشرف».

أغلق (مارفن) الهاتف ثم ضحك بصوت عالٍ.

- «لقد نجحت! حان الوقت! كان هذا المونسينيور الطيب (تيساني). لقد تحدث مساء الأمس، حال عودته، مع البابا. ومنذ قليل تم استدعاؤه مجدداً من قبل قداسة البابا. الرجل العجوز متحمس جداً للحصول على تلك الآثار. أصبح رسم البريتوريانيين كأخوية خاصة أمراً مفروغاً منه» ضحك (مارفن) مجدداً.

لم ينبس (باري) ببنت شفه. فقد كان (مارفن) متقلب المزاج كأنه (بريمادونا)، ومن المتوقع أن تنقلب تلك البهجة في غضون ثوانٍ معدودة. ولكن لو أن كل شيء سار كما أراده (مارفن)، سيعمل هذا على تقوية موقفه. فقد تمكن من خلال أعماله القذرة من إحراز هذا النصر.

- «وأخيراً! وأخيراً! لقد كنت أعلم ذلك!» صفق (برنداو) عدة مرات بيديه.

جلس (مارفن) على أريكته وتفحص الألماني بنظرات تقدير.

- «لقد قمت بعمل رائع يا (برنداو). اليوم أصبح بإمكاني الاعتراف بهذا، فعندما أتيت إلي قبل أكثر من ستة أشهر وقدمت لي ذلك العرض، توقعت أنك مجنون. ولكنك كنت على حق. كان لا بد أن تقوم (روما) بإزاحتهم عن الطريق!».

- «أنا سعيد بتمكني من تقديم مثل هذه المشاركة الكبيرة للبريتوريانيين». قال (برانداو) ذلك في محاولة منه لتحصيل المزيد من التقدير.

- «ستكون مستقبلاً رئيساً لفرع البريتوريانيين في ألمانيا» قال

(مارفن) بنبرة متعالية «سأتمم الإجراءات الخاصة بذلك، فور نجاحي في الانتخابات. سيحضر البابا شخصياً إلى (فرنسا)...»

- «قداسة البابا؟»

- «نعم يا (برانداو). إنه سيحضر إلى (فرنسا). لقد أخبرني (تيساني) منذ قليل، أن قداسة البابا سيقوم غداً بزيارة إلى سرداب كاتدرائية القديس (بينويت سور لوار)، حيث سيقوم بتقديم إجلاله لبقايا رفاة القديس (بندكت). زيارة قصيرة خاصة دون إثارة أي ضجة!».

تبسم (مارفن) برضاً. وأخيراً تسير الأمور حسب رغبته. فبامتلاكه للقطع الأثرية أصبح قريباً جداً من تحقيق هدفه المتعلق بالفاتيكان.

بوجود (تسرنت هاين) تحت الاسم المستعار (ريتسي) في قبضته، أصبح لديه كبش الأضحية الذي يمكنه تقديمه في حال حدوث أي أمر طارئ. ولكن حتى الآن، حسب ما أخبره به (برانداو) و(باري)، لم تتمكن الشرطة الألمانية من إحداث أي تقدم فيما يتعلق بحادثة (برلين) أو بالعملية التي تمت على الخط السريع. وفي غضون أيام ستنسى وسائل الإعلام تلك الحوادث. وطالما أن الشرطة الألمانية ما تزال تتخبط بالظلام، فإنها لن تقوم بتحريك الأمر. حتى في حال أن الأمور اتجهت نحو الأسوأ، فإن (باري) سيقوم بتولي الأمر...

- «تبدو بائساً يا (باري)! ماذا لديك؟» رمق (مارفن) مدير الأمن خاصته بنظرات لامعة، الذي كان ما يزال يقف منتظراً أمام طاولة المكتب.

- «الأمور تسير هناك على قدم وساق. فقد قام (لافاليه) بتسليمهم كتيبات الطباعة ليلة الأمس، ومنذ ذاك الحين تدور الآلات. وسيتم إرسالها صباح الغد».

فكر (مارفن) بغياب (لافاليه) «لم يستطع فهم تصرفه في الأمس. إن كان ذكياً، فإنه سيقوم بتحضير نفسه لما سأطلبه منه. وإلا ...»

أومأ كل من (جون سانتير) و(فيكتور فايفر) لرئيسهما للمرة الأخير.

- «حظاً موفقاً!» تمتم (بول كامبراي)، عندما تسلق الرجلان السلم الحديدي إلى سطح العربة. كانت العربة تقف مباشرة بين الأشجار بمحاذاة السور المعدني الذي يصل ارتفاعه إلى مترين ونصف، ويحيط عند هذا الموقع بعقار البريتوريانيين. بينما ربض رجل ثالث من الفهود السود على سطح العربة ممسكاً بيديه حقيبتي ظهر كبيرتين، ليحملها الرجلان الآخران معهما إلى الداخل.

- «يا له من مكان معزول. لو أن رجالنا تسلقوا الأشجار، فسيمكننا ذلك من رؤية بضعة أمتار في عمق الأرض وذلك باستخدام الأشعة تحت الحمراء وآلات المراقبة، ولكننا لن نتمكن أبداً من رؤية المبنى الرئيس». تذكر (سانتير) تحليله في اجتماع المعسكر، الذي يحدد الآن نمط تصرفاتهم.

- «كيف يبدو الوضع عند بوابة الدخول؟» سأل (كامبراي) من خلال لاقط الصوت.

- «الضيوف مازالوا يتوافدون».

نظر رئيس المحققين إلى الأعلى حيث كان الرجلين على سطح العربة، ثم رفع سبابة يده اليمنى كإشارة تأكيد.

لقد اعترف لهم (لافاليه)، أن العقار محاط بكلاب الحراسة الشرسة، إلا أنهم لم يروا أياً منهم حتى الآن. ولقد عزوا ذلك لتوافد الضيوف في اليوم التالي. فأرادوا انتهاز هذه الفرصة.

قفز (فايفر) أولاً فوق السور وتدحرج بخفة على الأرض المفروشة بأوراق الأشجار الجافة في الناحية الأخرى. وحالما قفز (سانتير)، أنزلت حقائب الظهر خلفهما. امتصت أرض الغابة صوت ارتطام الحقائب. رفع الرجلان الحقائب على كتفيهما وتقدما داخل الموقع. كان (سانتير) يحتفظ

بخارطة المكان في ذاكرته، ولهذا توجه فوراً باتجاه الغرب. كانت عتمة الليل على وشك أن تبتلع حمرة الشفق، فأرادا الاقتراب من المبنى الرئيس قدر المستطاع قبل بزوغ النور.

كان الموقع شاسعاً ومراقباً آلات المراقبة مواضع معينة فقط. وكذلك لم يكن من الممكن زرع إنذارات إلكترونية في باطن الأرض وذلك لكثرة الحيوانات الصغيرة التي تمر في مثل هذه الغابة، فكانت ستتسبب بإطلاق الإنذارات الخاطئة بشكل متكرر.

أسرعوا متخطين الأغصان المتشابكة وتسللوا بعيداً عن الأشجار الصغيرة، ومروا بين الأشواك وتحت أسقف من ورق الشجر باتجاه القصر. بعد قطعهما لمسافة تقارب الكيلومتر رأوا أمامهما مساحة خالية، برزت خلفها كنيسة محاطة بسقالات. زحفو بين الشجيرات واستعمل (سانتير) منظاره العسكري لاستكشاف المكان. ليس بعيداً عن موقع الكنيسة رأى برجاً مائياً. وحسب اعترافات (لافاليه) فإن المبنيين كانا مرتبطين بممرات تحت الأرض.

- «ماذا نفعل؟» سأل (فيكتور فايفر)، بعد أن نظر هو أيضاً من خلال منظاره العسكري «إلى داخل الكنيسة؟»



كانت الكراسي الرمادية الغامقة في الصف الأول قد امتلأت منذ الصباح الباكر. بينما وقفت الحشود متراصة في بقية الساحة.

- «ما أزال أفكر في ذلك الشخص الذي حملنا بسيارته لمسافة، عندما كنا في طريقنا إلى هنا».

نظر فيليب إلى الشاشتين الكبيرتين المنصوبتين على جانبي الساحة، اللتان كانتا تنقلان بشكل متبادل صوراً للحشود الحاضرة أو وجوهاً لرجال الدين الجالسين تحت مظلة برنيني البرونزية.

- «تعني ذلك الشرطي السابق، الذي كان في طريقه إلى تاجر التحف» عرفت (آنيا) فوراً الشخص الذي عناه (فيليب).

- «نعم هو من عنيت». نظر فيليب إلى الأدراج المكشوفة أمام كاتدرائية (بطرس). كانت المظلة الضخمة تهب ظلالاً لطيفة لأصحاب المقام الرفيع في الكنيسة، الذين توافدوا للجلوس في أماكنهم الموجودة خلف كرسي البابا الفارغ. «هل أنجز مهمة الشحن بنجاح؟»

تفحص بنظراته صفوف الجلوس على يمين ويسار المظلة، التي كانت على مسافة آمنة خلف الحواجز حيث يجلس المميزون والمُختارون والمدعوون.

دوّى مكبر الصوت.

- «ماذا يقول؟» سأل (فيليب).

- «البابا قادم من (كاستل غاندولفو)، مقره الصيفي. أُصيبت مروحيته بعطل في المحرك، وهذا سبب تأخره. ولكنه سيكون هنا حالاً».

بعد صمت قصير عادت اللغات المختلفة للحشود التي توافدت من كل بقاع الأرض تمتزج بأصوات غناء مجموعات من الشباب، والجمعيات الكنسية، التي كانت تتدرب، قبل أن تقدم أناشيدها تمجيداً للرب والبابا والعقيدة المسيحية.



بعد عودتهم من (فرنسا)، بذلوا قصارى جهدهم لمساعدة (ماتياس). بناء على ما نصحه به (دوفور)، قام (كريس) بإخبارهم عن تلك المؤسسة الصغيرة في جنوب (ألمانيا)، التي نجحت في إنقاذ حياة المرضى من خلال زراعة خلايا سليمة بواسطة خرطوم يتم إدخاله إلى الكبد المريض. حيث تتكاثر تلك الخلايا وتعمل على شفاء المريض. وقد قامت (إينا) بالبحث عن تلك المؤسسة وإيجادها.

- «كانت بالفعل (آنا)». رفرفت بسمة ناعمة على وجهها. لم تكن (ياسمين) تصدق بعد.

- «نجحت، أليس كذلك؟ أنا أرى ذلك على ملامحك!» منذ أن حضروا إلى هنا وهي بانتظار هذه المكالمة. لقد مر أسبوعان تقريباً على وجود (ماتياس) في تلك المستشفى.

- «نعم» أومأت (ياسمين)، وامتلأت عيناها فجأة بالدموع. أمسكت بذراعه «قالت (آنا)، أن حالته تتحسن منذ يومين. في البداية لم تكن مقتنعة بذلك ولهذا لم تتصل بنا. ولكن الجميع الآن راضون جداً».

تعانقا. شعر بجسدها الدافئ، وبإثارة مفاجئة.

- «أنا أحبك!» تمتمت ووضعت قبلة سريعة على شفتيه.

- «وأنا كذلك».

- «هل ستحبني دائماً؟»

وضع يده تحت ذقنها، وأمسك رأسها بقوة ثم قبلها مجدداً. فتح شفتيه، غدا باحثاً، ولكنها سحبت رأسها ضاحكة إلى الوراء.

- «أريد إجابة».

- «الأبدية مجدداً. أنت تعلمين كم هي خطرة».

- «أعرف مخرجاً رائعاً لهذا...» ضحكت وركضت على طول ضفة البحيرة.

في الوقت نفسه الذي كان فيه المسيحيون الكاثوليك في مدينة (كولونيا) يحتفلون بيوم الشباب العالمي، كان البابا هو نجم هذا الاحتفال.

إلى جانب كل الخطابات، والصلوات، وغيرها من النشاطات المرهقة، كان على البابا أن يتوجه إلى كاتدرائية (كولونيا)؛ لإجراء ذلك اللقاء، الذي لم يكن أحد يعلم به سوى حفنة من أصحاب المقامات الرفيعة.

وحده ذلك الراهب السمين، مجهول الاسم القادم مؤخراً من (فرنسا)، هو الذي رافق البابا في ساعات الفجر الأولى إلى الكاتدرائية.

❖ ❖ ❖

ملاحظات حول الاقتباسات المستخدمة

في مواضع كثيرة من هذه الرواية تم إدراج اقتباسات ونصوص معدلة من الكتاب المقدس وقوانين الرهبان للقديس (بندكت النورسي) (مثال: اللوم على الراعي). وهذه القوانين تحتوي إما على اقتباسات من الكتاب المقدس أو تستند إلى بعض من أجزائه. فإن لم يتم العثور عليها بنصها الحرفي في نسخ اليوم من الكتاب المقدس، فلقد قال مترجموا القوانين البندكتية: «للاقتباسات من المخطوطات المقدسة، تم الاستعانة قدر الإمكان بالترجمة الألمانية الموحدة. فإن اعتمد (بندكت) على إصدار مختلف من الترجمة اللاتينية للكتاب المقدس، فتوجب بالضرورة الابتعاد عن الترجمة الموحدة».

تم اقتباس نصوص الكتاب المقدس بشكل كبير من:

«الكتاب المقدس بالألمانية المعاصرة» — الترجمة المشتركة للكتاب المقدس نيابة عن وتحت مسؤولية (على سبيل الذكر): الجمعية الألمانية للكتاب المقدس (الكتاب المقدس النسخة البروتستنتية)، الاتحاد الكاثوليكي للكتاب المقدس، شتوتغارت الطبعة المنقحة الثانية، الجمعية الألمانية للكتاب المقدس، شتوتغارت 1982.

تم اقتباس أجزاء من قوانين (بندكت) من:

«قوانين القديس بندكت - تم إصداره باسم من مؤتمر (سالزبورغ)

لرؤساء الأديرة» الطبعة المنقحة الثامنة، دار نشر الفنون في بيورونر، بيورونر 1990

ISBN 3-87071-0606-8

تمت اقتباسات بعض من أقوال البابا يوحنا بولس الثاني، التي وردت في المقدمة، من:

آندريا إنجلش «يوحنا بولوس الثاني سر كارول فويتيلا» الصفحة 15 و375 الطبعة الأولى، دار أولشتاين المحدودة للنشر، برلين 2004.

شيفرة بابل

سر الحياة سيُكشف...

علماء عديمي الضمير يقتلون لأجله...

و الفاتيكان يخشى أن تُفتح أبواب الجحيم.

بالعثور على قطع أثرية من بابل القديمة أصبح حلم راود البشرية على وشك التحقق. ولكن دوائر نافذة تريد إخفاء ما تحتويه هذه القطع الأثرية من أسرار خطيرة.

الشرطي السابق "كريس" و العالمة "جسمين" يحاولان فك رموز هذه القطع الأثرية و في سبيل ذلك يجوبان أوروبا وراء خيوط تدلهم على المتآمرين فيدخلان في دوامة من القتل و الخيانة.

هنالك شخص واحد في أعلى دوائر الفاتيكان يستطيع مساعدتهما على حل هذا اللغز ... إنه البابا.

ولكنه يدرك تماما أن حلم البشرية المزعوم يمكن أن يتحول إلى كابوس للجميع...


9 789933 456825



